صلاة خاصة



صلاة خاصة

صبحي موسى

ص.ب ٢٣٥ رمسيس
١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق القاهرة
الرمز البريدي : ١١٧٩٤
تليفون : ٢٥٧٧٥١٠٩ (٢٠٢) داخلي ١٤٩
فاكس: ٢٥٧٦٤٢٧٦ (٢٠٢)

GENERAL EGYPTIAN BOOK ORGANIZATION
P.O.Box: 235 Ramses.
1194 Cornich El Nil - Boulac - Cairo
P.C. : 11794
Tel.: +(202) 25775109 Ext. 149
Fax: +(202) 25764276

website: www.egyptianbook.org.eg
E-mail: ketabgebo@gmail.com
www.gebo.gov.eg

الطباعة والتنفيذ
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



رواية

صلاة خاصة

صبحي موسى



٢٠١٨

الإهداء . . .

إلى آيات وعبير

علَّهما يتقبلان عذري

تنوية

أي تشابه بين الأسماء والأحداث المذكورة فى هذا العمل وبين الواقع ما هو إلا محض مصادفة.

الجزء الأول

أنطونيوس
الجسد الذي يبذل

- ١ -

ـ لا أعرف لمَ أتوا بك؟

قالت وهي تنظر إليه كما لو أنَّها تعتذر عن أمر غير مقصود، غير أنَّها سرعان ما استدركت:

– لكن لا بدَّ من التحقيق.

لم يكـن أمامه سوى أن يحني رأسه موقنًـا أن الليالي العصيبة قد بدأت تطـل برأسهـا، فرحيل الأب إيمانويـل ليس انتهاء لزمـن البركات على الأرضـ ولكن بدايـة الشرور التي ستعصف بكل شــيء، هزَّ رأسه كمن يضع توقيعه على اتفاقية استسلام مخزية:

– ليكن.

بالكاد وصلها صوته، فرفعت رأسها مومئة لكاتبها أن يفتح دفتره ويبدأ في تسجيل وقائع التحقيق، كتب خلفها:

– إنــه في تمـام العاشـرة مـن صبـاح يـوم ٨ مارس عـام ٢٠١٦، وبحضورنا نحن دميانة صـلاح متري تم فتح محضر التحقيق رقم واحد لمواجهة القس أنطونيوس بالاتهام المحال إلينا بشأنه.

جلسـ أنطونيوس بردائه الكهنوتي الأسـود ينتظر ما تجري به مشيئة الـرب عليه، علَّمه الآباء أن الصبر هو أول الطريق نحو الفردوس، من قبله نـال قسيسون ورهبان ملكوت الرب بصبرهـم، وجهادهم لأنفسم، وانتصارهم على وساوس الشيطان.

ـ اسمك وعملك؟

ـ أنطونيوس عبد المسيح إبراهيم، قس في دير الملاح، كنت مشرفًا على مطبعة الدير، والآن مسئول عن العيادة بالدير.

رفــع الكاتب وجهه عــن الدفتر الطويــل الذي يكتب فيــه متأمِّلاً وجه أنطونيوســ وهــو يتحــدث عــن عمله بصــوت هــادئ كما لــو أنه يترنم بالمزامــير. بينما ظلت أصابعه تتحرك بالقلم على وجه الدفتر كرجل خبير بالكتابة في الظــلام، طرقت المحققة بإصبعها على قشــرة الفورمايكا التي تكســو سطح المكتب، نظر الكاتب تجاهها معتذرًا عن خطئه غير المقصود، فهزت رأسهــا إشارةً على قبول اعتذاره، ومطالبــة بالتركيز في العمل. وضع الكاتب قلمه على وجه الورق في انتظار سؤالها:

ـ كم سنة كنت مسئولاً عن المطبعة؟

كان أنطونيوس قد احتل موقعه كمسئول عن الطباعة لمدة خمسة أعوام، وهــي فترة أقل مــن ربع عمره في الديــر، فمنذ دخل سلــك الرهبنة وهو مــلازم للمكان، لا يكاد يخرج منه، يتــوزع يومه بين الرهبان المتفرقين في أعمالهــم والمعتكفــين في قلاليهم، يتنقَّل كنحلة مــن أب إلى آخر، يضع الشموع في الشمعدانــات والزيت المقدس في الأواني، ويرفع التراب عن الأرضــ وينفض الغبار عن الستائر، ويتأكد مــن ليونة مفاصل الأبواب وسهولة دق الأجراســ، وإذا طُلبت منه المساعدة في فلاحة الأرض فإنه يــروي الزرع ويطعم الماشيــة ويجمع الثمار ويغســل الثياب، كان يجيد الاندمــاج في أي عمل، لم يسأله أحد عن سبب دخوله الدير، لكن الجميع كان بــوده أن يعرف السبب الــذي دفعه للمجيء إلى هذا المكان النائي عن أهلــه وكل من يعرفهم في الشمــال، الجميع كان يعلــم أن الدير قد توقف عن استقبال رهبان جدد، فمــاذا جعل الأب إيمانويل يسمح له بالدخول، ظل هذا الأمر سرًّا لا يتحــدث به أحد، لا أنطونيوس ولا إيمانويل، ومع مرور الأيام نسي الجميــع السؤال وتعلقوا بهذا الذي يجيد كل شيء، ولا يستعلي على شيء، هذا الذي يبدو كأنه أكثر تعليمًا وثقافة من شمَّاس، حتى فوجــئ الجميع برسمه قسًّا، بعدما نال شهــادة في اللاهوت، وأصبح أحدَ الباحثين في تاريخ الهراطقة، ليجلســ في مقدمة كنيسة الأب ديميتريوس يلقــي عظاته على الوافدين كي يعلمهم مبادئ الديــن، والبعد عن الوقوع في خطايــا الوثنيين، كان ذلك قبل توليــه الإشراف على مطبوعات الدير من قبل إيمانويل، ذلك الذي تنيح بعد أعوام قليلة من الثورة، فاتحًا بموته مصاريع الأبواب لدخول الشيطان، وبدء الصراعات التي لم تنتهِ.

ـ منذ خمسة أعوام.

هكذا جاءت إجابته مختصرة لا تفيد المحققة الجالسة أمامه في انتباه تام، التي لم تستطع أن تستوعب أن الواقف أمامها هو القس أنطونيوس، وأنه جاءها متهمًا بنشر الهرطقات وإهدار أموال الكنيسة، فهل جن جنون العالم أم أنها لم تعد لديها الخبرة لمعرفة المذنب من البريء. كانت عشرات الأسئلة تجتاحها وهي في الطريق إلى مكتبها بغرفة التحقيقات بالدير، بالأمس قرأت مذكرة الإحالة، مذكرة لا تزيد عن خمس صفحات لكنها محمَّلة باتهامات أقلها يكفي لشلحه وحرمانه، لم تكن لتجيبه حين سألها عن سبب استدعائه إليها، وضعت عينيها في الأرض محاولة التخفيف من وقع الإجابة عليه، تساءلت بدهشة وكأنها لا تعرف سببًا لمجيئه، موضحة أنها مجبرة على التحقيق معه ما دام قد أحيلت إليها مذكرة بشأنه.

ـ كم عمرك؟

هكذا استعادت نفسها من الشرود، وتركته ينظر في جانب من الغرفة المدهونة بطلاء زيتي حديث، ثم دار بعينيه كما لو أنه يبحث عن تاريخ ميلاد مدوَّن أسفل أيقونة المسيح، وبدا كما لو أنه نسي تاريخ ميلاده، فمنذ سنوات وهو يدبُّ بأقدامه على الأرض، سنوات جاب فيها الأخضر واليابس ولم يسأله أحد عن سنه، أعملَ ذهنه قبل أن يبتلع ريقه:

ـ خمسة وأربعون.

لسبب ما كانت أنامل الكاتب ترتعش على وجه الورق، بدا كما لو أنه أصيبً بشيء ما، فتوقف عن عمله فجأة وأخذ يفرك الخدر الذي دب في عروقه، ثم عاد ليعتذر إلى المحققة عما يجري، لكنه نظر بغرابة إلى وجه القس الحزين الواجم أمامه، وشعر برعشة طفيفة تنتاب فرائصه، تمتم باسم المسيح وحاول أن يمسك بالقلم من جديد، لكن محاولته باءت بالفشل، حاول أن يضبط أعصابه ليقبض عليه بمهارة أفضل لكن يده اصطدمت به فسقط على الأرض، حينها رفع وجهه بحزن مماثل لحزن القس، ونظر في عين المحققة خوفًا إن لم يكن فزعًا، وانتاب الأخيرة شعور بالأسى من أجله، وربما اليأس وخيبة الأمل أيضًا، فرفعت رأسها نحوه:

– أدفئ أصابعك، وإن لم تستطع فسنؤجل التحقيق.

-٢-

لسنــوات كان أنطونيوســ يعتقد أن أحدًا لن يعــرف سره، لكن ها هو التحقيــق قد بدأ وشيئًا فشيئًا ستتسرب الحقيقة من جوفه كخيط تريكو، زفر هــواءً مكتومًا من صدره وهو خارج من غرفــة التحقيق متجهًا إلى قلايته بالديــر، سنوات طويلة وهو يتوارى بين أشجار المكان ورهابنه عسى أن ينســى حقيقته، وعســى أن يصل يومًا إلى اليقين، لكــن الأخير لم يحدث بعد، والأول ما زال يلمع أسفل الرماد القليل.

ألقــى في طريقه بتحية الصباح على الخادم ميــلاد العجوز وعبَر الممر المــؤدي إلى بوابــة المبنى، هذا المكان رغم جماله مبالــغ فيه، كل شيء به مبالــغ فيــه: السياج الحديــدي، الدرجــات الرخامية الطويلــة، الأعمدة الشاهقة، السيراميك اللامع البارد، الأبواب الخشبية والنوافذ الألوميتال والمكاتب الإيديــال وطيات الكرانيش وصور القديسين المتضرعين بحزن عميق. كل شيء يشعــره بالبرد والارتجاف، لم يدخل هنا من قبل سوى مرة واحدة مــع صديقه المتنيِّح الأنبا إيمانويل، كان الأخير قد جاء للسلام علــى بيشوي المحقــق السابق بالديــر. يتذكر ذلك اليــوم بوضوح، كان يمشــي إلى جانبه كما لو أنه يسير إلى جانــب شجرة شائخة في طريقها إلى القــبر، لم يكن يعرف ما الــذي ينبغي عليه عمله كي يســرع به إلى حيث يريــد، كل ما فيه كان يرتجف كورقة شجــر في عز الخريف، فكَّر لو أن بالإمــكان حمله والهرولة به من بين كل هذه الردهات الباردة، لكن ذلك لم يكن مسموحًا، الحالة الوحيدة المسموح بها هي الحمل على المحفة، وتلك مخصصــة للأساقفة المصابــين بعجز واضح، ظل يتهــادى بجانبه إلى أن وصل إلى المكتب الكبير الذي يجلس خلفه بيشوي، حين رآه الأخير نهض مــن كرسيــه بعجز أكبر من عجــز إيمانويل كي يلتقيــا في منتصف المسافة بــين الباب والمكتــب، حينها اختار أنطونيوس لنفســه كرسيًّا في ركن بعيد وترك العجوزين يتحدثان عن رفض كاهن في كنيسة بالشمال إقامة إكليل

لعروسين، لأن العروس تتبع الكنيسة الكاثوليكية في العماد.

عند بوابة المبنى المخصص للتحقيقات لمح أنطونيوس القس يوساب قادمًا بصحبة ثلاثـة من الشمامسة التابعين له، حاول أن يسرع في سيره متجهًا إلى الجانب الأيسر من المبنى، لكن يوساب هتف فيه:

– كيف حالك يا أنطونيوس؟

توقف الأخير واستدار بهدوء مبالغ فيه ليواجه يوساب وتلامذته الذين يتمتعون بطول واضح:

– نحمد الرب يا يوساب.

لكن الأخير لاحقه:

– ماذا تفعل هنا؟

هز أنطونيوسـس رأسه وكأنه لم يسمع جيدًا، فهو لا يريد أن يحكي لكل عابـر عن كونه متهمًـا في قضية لم يعـرف أبعادها بعد، فقـد شعر كاتب التحقيقـات بتوعـك قبل أن تواجهه المحققة بمـا في أوراقها، حمد الله حين أبلغـت الكاتب أنه يحتاج إلى الراحة، ولن يستطيع أن يكمل العمل اليوم، شكرهـا أنطونيوس ونهض من مكانه معتبرًا ذلك علامة خير، ولا بدَّ أن السمـاء تنظر إليه، وستقف بجانبه مثلما وقفت إلى جانب كل القديسين من قبل، لكنه في قرارة نفسه لم يكن موقنًا أن السماء تنظر إلى أحد، نهض من مكانـه كمن جاء دوره لدخـول دورة المياه، وفر من أمامها متعجلاً دون مراعاة الحفاظ على الهيبة التي تركها في مخيلتها، فقد شعر أن المحققة التي بدأت عقدها الثالـث دون أن تتزوج تكنُّ له قدرًا من الإجلال والتوقير، ولوهلـة تسرَّب إليه شعور أنه سيمثل في حياتها شيئًا كبيرًا، فالتزم الهدوء مضفيًا على صوته نبرة مليئة بالرضا والطمأنينة، وبدا له أن ذلك ما تفتقر إليه المحققة الجالسة أمامه بتواضع وخجل، فقرر أن يركز عليه كي يكسب تعاطفها.

لم يعـرف مـا الاتهامـات الموجهة إليه، لكـن عينه تدرجت علـى جسدها المشوق أمامه، وبخجلٍ شديد ألقى بنظره على الأرض، وإن كانت هي أيضًا

لم تغفل تسحُّب عينيه نحوها كقطٍّ مسكون برائحة لحم لا يعرف كيف يناله.

– لا شيء، كنت أسلم على صديق.

رد علــى يوساب وكأنه يبلغه أن ذلك أمر لا يعنيه، ثم سرعان ما باعد في خطواتــه قاطعًا الطريق المـؤدي إلى الكنيسة الكبـيرة في الدير، ومن أمامهــا عبرَ منحنيًا تحت أشعة شمس مارس الدافئة كي يذهب لأداء صلاة الظهيرة، لكنه ما إن وصل إلى القلالي البعيدة حتى لمح عددًا من الرهبان طــوال القامة يخرجــون بصحبــة شمَّاس لا يعرفــه، بدا أنهــم لم ينتبهوا لحضوره، وهو بدوره لم يشأ أن يناديهم، فهو متعب وضجِر من التحقيق معــه، ومما قد تــؤول إليه الأحــوال. عبر المدخل المــؤدي إلى تجمع من القلالي المبنية على حافة الهضبة منذ نهاية العصور القديمة، فقد كان الدير في بدايته قلايــة للأب جبرائيل الملاح الهارب مــن ملاحقة الرومان له، وسرعــان ما لحقه آخرون ليقيموا بجانبه، فتركهم وبحث لنفسه عن قلاية فــوق الهضبة، تسلق مخر المياه القديم وجلس وحــده بلا طعام أو شراب أكــثر من ثلاثة أشهر، بعدها نزل يمشــي هو ولبؤته وأشبالها الأربعة بين هؤلاء المقيمين أسفل الهضبة وكأنه يباركهم، ظل بينهم مدة أسبوع ثم عاد فاعتكــف من جديد أعلى الهضبة، وظــل الأمر على هذا النحو حتى ماتت اللبــؤة وأشبالها، فسمح للناس بالصعود والبقاء إلى جانبه، وجاء مِن بعده مَن بنى على الهضبة قلالاً للرهبان كي يقيموا ويتعبدوا فيها.

حين وقعت عيناه على قلايته لم يجد شيئًا في مكانه، كل شيء كان ملقى علــى الأرض بطريقة معلنة، وكأن من دخل الغرفة جاء ليخبره أنه كان هنا، أخذ ينظر إلى الفراش المتناثر، والدولاب الصغير منزوع الأبواب، والملابــس التي تركت الأقدام الكبيرة بصماتها عليها، بدا الأمر كما لو أنه نوع من الترهيب والانتقام. ترك أنطونيوس كل شيء على حاله وجلس علــى الكرسي الجريد يصلي، وما إن استحضــر الرب في قلبه حتى وجد نفسه يقول:

– أنت تعلم أنهم يريدونني أن أعود إلى ما كنت عليه، لكنني لا أريد.

-٣-

لا أحـد يعرف أنني الـذي أسجِّل كل شـيء، أدون في دفاتري كل ما يحـدث، فمهنتـي أن أحتفظ بكل كبـيرة وصغيرة، أن أرصـد كل شيء في الدفاتـر الخضـراء والسوداء والبيضـاء، الدفاتر الكبـيرة والصغيرة والمتوسطـة، الخفيفـة والثقيلـة والتي بـلا وزن، كل هـذه التركة ملكي وحـدي، فأنا المنـوط به تسجيـل التحقيقات وحفظها، يمكننـي التغيير في الصياغـات، يمكنني إضافـة العديد من الكلمات التـي أدسها بين السطور دون أن ينتبـه أحد، فكل شيء يُحفظ، ونـادرًا ما يأمر المحقق بإعادة فتح التحقيـق، نادرًا مـا تخرج التحقيقات من بين جدران هـذا الدير بكنيستيه ومزرعتـه وقلاليه، ونادرًا ما يطلب رئيس الدير إعادة النظر في تفصيلة مـا، دائمًا ما يكتفي بالتقرير المبسَّط الـذي يعده المحقق، هذا الذي عادة ما يأمـرني بكتابته فور انتهائنا من أي تحقيق، حيث نشرح فيه لرئيس الدير مـا توصلنا إليه، وما نوصي به، وله أن يأخـذ بتوصياتنا أو يرفضها، له أن يستبعـد من حققنـا معهم من دائرة الاتهام أو يرفـع أمرهم إلى مجلس الأساقفة، حيث أسقف التحقيقات الكنسية في الكنيسة الأم.

هكـذا حدَّث الكاتـب نفسه بعدما عـاد إلى غرفة نومـه، لم يكن المكان محضـ غرفة نـوم، لكنه مخزن علـى مساحة كبيرة امتـلأت بالدواليب الخشبيـة التي امتلأت بدفاتـر تلو دفاتر، كان الكاتـب، الذي ورثها عن أستاذه الكاتب السابـق إدورد حنا الذي ورثها بدوره عن كتَّاب سابقين، قد وجدها موزعة على عدة أقسام، كل قسم منها يشتمل على دفاتر عقدين أو ثلاثـة، كان الكتبـة السابقون يضعون ورقة علـى كل دولاب توضح عدد السنوات التي يشتمل عليها، بينما يقسمون الدفاتر نفسها باسم رؤساء الديـر المتعاقبين، ويمكن لدفتر واحد أن يحمل اسم رئيسين، ويمكن لاسم رئيسـ واحد أن يوضـع على أكثر من دفتر. متاهة كبـيرة من الدواليب

والأقسـام والدفاتـر والسنوات والعقـود وأسماء الرؤسـاء، متاهة أكبر وأعقـد مئات المرات حين نفتـح الدفاتر ونغوصـص في التحقيقات والقضايا التي مرت بتاريخ هذا المكان.

كل هـذه المتاهة لم يعد مسئولاً عنها سوى ذلـك الكاتب الذي يعيش في مطلع الثلاثينات من عمره، الذي تولَّى مسئوليتها منذ نحو عشرين عامًا، لكنه في العموم نشأ وتربى داخل هذه الغرفة أو المخزن، فقد وجده الخادم ميخائيـل أمام البوابة الكبـيرة قبيل شروق الشمسـ في لفافة من قماش، تلفَّـت مرتين نحو الخـلاء الواقع على جانبي السـور الخارجي بحثًا عمن تركه في هذا المكان، لكن عينيه لم تلمحا أحدًا في ضباب الصباح المتكاثف، دقق النظر من جديد مرتـين وثلاثًا، وحين أيقن أن الطفل تُرك عن عمد خرجت منه زفرة مليئة بالأسى، ثم انحنى وحمله عائدًا إلى الداخل.

الديـر كله علـم بتلك الحكاية، فحـين صعد الخادم العجـوز الدرجات المؤدية إلى غرفة رئيس الدير الأب إستيفانوس، كان الروماتيزم والتهاب المفاصل قد أخذا بـه كل مأخذ، فلم يستطع الحفاظ على توازنه وهو يحمل الطفـل بين يديه، خاصـة بعدما زلت قدمه عن الدرجـة الأخيرة، فترك اللفافـة وبها الطفل ليتشبث بكلتا يديه في السور الخشبي، ولولا أن الكاتب إدورد حنـا كان في طريقه آنئذ لقلاية إستيفانوسـ لواصل الطفل سقوطه حتـى ارتطم رأسـه بصخر الهضبة، يومها خـرج إستيفانوس من غرفته ليطمئن على الخادم العجوز، وسرعان ما جلس بجانبه على نفس الدرجة التـي زلت قدمه عنها، لينصت إلى الحكايـة التي جعلته يترك مكانه خلف البوابـة ليأتـي إليه في ذلك الوقـت، كان إدورد ينصـت بقلب منفطر من قسوة القلوب التي جعلت البشر يحملون سفاحًا كالكلاب، ويلقون بأبنائهم في الشوارع بجفوةٍ لا تعرفها الحيوانات الضالة.

كانـت هذه سابقـة غريبة على الدير، فعادة ما تلقـي الأمهات بأبنائهن أمـام الكنائسـ في المدن والقـرى، وليس أمام دير علـى هضبة في جبال القلـزم، لكن الأكثر دهشة بالنسبة لميخائيـل أن والدة الطفل تركت منطقة

المطبعــة والمقابــر والأرض المنزرعــة أسفل الهضبة، وصعــدت كل هذا الــدرج الرخامي كي تضع ابنها أمام البوابة الحديدية، ثم تهرب دون أن يراهــا أحد، حكى ميخائيل ملحوظته ببساطة كما لــو أنه يبلغ رئيس الدير أن هــذا الطفل مقدس ولا ينتمي إلى عالم الأرض، ظل إستيفانوس مبتسمًا طيلة شرح ميخائيل وتحليله للأمر، ثم سأله ببساطة مشابهة:

– وماذا نفعل يا ميخائيل؟

صمت الأخير كمن أنهى المهمة التي جاء من أجلها، متأثرًا بثقلها عليه، ثــم مال بفمــه ليقبل يــد الأب إستيفانوس وصليبه، عازمًــا على النهوض والعــودة إلى عمله من جديد، غــير أن الأخير أمسك بذيل جلبابه قائلاً إنه لا يثــق بأحد لرعاية الطفل المقدَّس أفضل من الرجل الذي اختارته السماء كي يكون أبًا له، فقد جعلته ينحني في الصباح البارد ليحمله من أمام بوابةٍ كان من الممكن أن تظل مغلقة طيلة اليوم.

لم يستوعــب ميخائيل الجملة المرتَّبة التي نطقهــا إستيفانوس كما لو أنه ينطق نصًّا مقدسًا، فتصوَّر أنه يشكره على عمله، وأخذ يلهج له بالدعاء، واضعًــا يديــه على الأرض كــي يساعد نفســه في النهوضــ والعودة إلى بوابته، لكن الكاتب إدورد ضحك موضحًا:

– يا ميخائل.. أبونا يبلغك أنك ستربي الطفل.

توقــف ميخائل منحنيًــا، فلا هو ظــل جالسًا ولا هو أكمــل النهوض، ونظــر في عيني إستيفانوســ بنوع من الدهشة والعتــاب، فزفر إستيفانوس حزنًــا على عطية السمــاء الغريبة، ويأسًا من الحــيرة التي ارتسمت على وجه ميخائيل. التفت إلى الكاتب إدورد قائلاً:

– وأنت معه إلى جانب عملك.

كان إستيفانوســ يعلم أن عمل كاتــب التحقيقات قليل، وأنه يكاد يكون جالسًــا طيلة الوقت في مخــزن دفاتره، ينقلها من صنــدوق لآخر، ومن دولاب لآخــر، وكأنــه يحرصــ علــى تهويتها كــي لا تصيبهــا البرودة

بالعطب، كان يعلم أيضًا أن ميخائل قد أصبح عجوزًا بما يكفي، وأنه لم يعد قـادرًا على النهوض لفتح البوابة أو تأدية الحراسة عليها، فأمر له بمساعد يعاونه، ويساعده على التفرغ لإطعام الصغير والبحث عن غيارات له، ومع الوقـت أصبح الطفل معروفًا بأنه ابن ميخائـل، ويوم عمادته منحه الأب إستيفانوس اسم ملاك ميخائيل، وفي يوم أحد الشعانين رشم له أحد القساوسة صليبًا على رسغه الأيمن وكتفه الأيسر، لكنه في الأخير كان ابنًا للدير كله، وسرعان ما انتقل ليقيم مع إدورد حنا في مخزن كتبه ودفاتره بعدما تنيَّح ميخائيل الخادم في ليلة شتوية باردة.

-٤-

أبانا الذي في السمــاوات ليتقدَّس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض.

كانــت صلاة أنطونيوســ سريعة ومقتضبــة بعدما استيقـظ ووجد أن الظهيرة قد مرت سريعًا، فقد كان عليه أن ينهض لملاقاة الأب باخوميوس كاهــن الاعتراف في الديــر، مر عليه أسبوعان ولم يعــترف له، ويشعر الآن أنه ارتكب خطيئة تستوجب الاعتراف، فما إن أعاد ترتيب مفردات الغرفــة كمــا كانت حتى شعــر أنه يرغب في نــوم القيلولــة، ألقى بجسده الطويل على السرير المبني مــن أحجار الهضبة، واستسلم لرطوبة الهواء القــادم من فرج النافذة الوحيدة في قلايته، ما إن غمس عينه في بئر النوم اللذيذ حتــى رأى المحققة دميانة متجسدة أمامه، رآها واقفة بقدها المشوق كرمح منتصب في وجه الريــح، لم يستطع أن يمنع نفسه من تمرير عينيه على هــذا الفرع من الجازوريــن الواقف في مواجهته، تمهــل قليلاً أمام صدرهــا المكور كثمرتــي باذنجان شهيتين أسفل فتحــة صدر تنبئ بمنحدر عظيم، لوهلة قاومت عينه رؤية الانحدار، لكن الشرير أقنعه بإلقاء نظرة واحدة للتعرف على ما قد تخفيه الملابس الصوف السميكة، فرفض بورع وإبــاء، رفض بقوة وهو مغلــق عينيه حتى سمع صوت جــرار السوستة ينطلق من مكانه، حين فتحهما وجد دميانة تخرج من ملابسها كيوم ولدتها أمهــا، وجد عينه تستقر على بطن كطشت الخمير الفائر، مغطية على دلتا ذات مستنقــع مليء بالعشب الأسود الكثيف، في تلك اللحظة كان جسده قد انفرط من هول المفاجأة وشعــر أن ملابسه الداخلية انغمرت بفيض سائل لزج كثيف، انتفض من نومه واضعًا يده على سرواله وأعضائه موقنًا أن الشرير أخذ في مطاردته من جديد، وأنه ما زال غير مؤمن. كان غضبه من نفسه يزداد كلما شعر أن لديه رغبة في إعادة استحضار المشهد، لم يكن

نافـرًا مما رأى، وشعر لوهلة أنه كان يتمنى أن يمتد الحلم ساعة أخرى، شعـر أنه شخص عاشـق للرذيلة، ولن يصيبه خبـز الرب ببركته، فلعن الشيطان وقرر الذهاب للقاء الأب باخوميوس.

كانت السماء قد اكتست بشفق خفيف، فالشمس مالت في ربعها الغربي لكنهـا لم تسقط بعد في البئر السحيق، كان الفلاحـون ينهون أعمالهم قبل أن يحـط الظلام على الرءوس، البعض يسحـب البهائم من المراعي إلى الحظائـر، والبعض يطـوي أدوات الحـرث والري ليضعهـا في مكانها اليومـي، وكان علـى أنطونيوسـ أن يلقي عليهم بالتحية كلمـا التقى بأي منهـم، فرتبته كقس تسمح لـه بتلقي التحية مـن الشمامسة لكنه لا يعترف بذلـك، "أنا أكـثر خطيئة منهم، أكثر جهلاً وضعفًـا"، هكذا كان يقول في نفسـه راغبًا في هزيمة الشيطان بداخله، فهو لا يريد أن يصيبه الكِبر مثلما أصـاب عزازيل في بدء الخليقة، لا يريد أن يكـون جاهلاً مرتين، فيلقي بنفسـه في نيران اللذة مرة وفي نيران الاستعلاء علـى الشمامسة الضعفاء مرة أخرى.

مـا إن اقترب من الكنيسة ذات الشـكل المستطيل حتى تأكد من وضع غطـاء رأسه بالشكل الصحيح، ولمحت عيناه الـبرج الكبير للكنيسة حيث الخادم سعيـد سيجذب الحبال ليطلق الجرس العملاق رنينه المعتاد، فعما قليل سينطلق قداس الخامسة، نزل بعينيه إلى تمثال المسيح المصلوب على واجهـة مدخل الكنيسة عاريًا إلا من مئزر ملتف على وسطه ليمنع الناس مـن رؤيـة أعضائه، قال في نفسـه إن الرب نفسه تمتـع بوجود أعضاء حسيـة في جسده، اللـه لم يمنع هذه الأعضاء من الوجـود، طأطأ رأسه بحزن وهو يمر مـن أسفل قوس الكنيسة محييًـا القساوسة الذي يتهيأون لحضـورالصـلاة.

على البعـد لمح الأب باخوميوسـ يحمل مبخرة ويدلـف إلى المذبح في نهايـة الكنيسة، اتجه نحوه سائـرًا بين صفي الأعمـدة الطويلة الممتدة من باحة الدخـول إلى الهيكل، للحظة انتابه الكبر حـين رأى كأنه ملك وتلك الأعمـدة الطويلـة صفان مـن الجنود المشدوديـن في استقبالـه، شعر أن

خطاه انتظمت في مشيــة عسكرية كما لو أنه يوليوس قيصر في طريقه إلى كليوباترا بمخدعها المخملي، غاصت أقدامه في وبر السجاد الأحمر مدركًا أن الخطيئة طعمها ناعم ولذيذ، الخطيئة التي رآها في حلمه كانت حشائشها السوداء هشة وكثيفــة، وكان بوده أن يمد يده ليعرف كم كانت ستغوص بــين الأحراش، انتبه من شــروده على وجــه الأب باخوميوس العجوز واقفًا أمامه في ثيابه السوداء، جفل من المفاجأة ووقف في مكانه كما لو أنه رأى الشيطــان، حين رفع عينيه ليتطلع في وجــه من كان سيصطدم به، وجده يبتسم له قائلاً:

– صح النوم يا أنطونيوس.

– معذرة يا أبونا...

– جئت للقداس أم لأمر آخر؟

– للقداس بالطبع، لكنني أحتاج أيضًا..

– اعتراف؟

هــز أنطونيوســ رأســه باستســلام كمن سيعــترف بجرم مــا، فتنهد باخوميوســ وحمل مبخرته مــن جديد وأخذ يؤرجحهــا أمامهً تاليًا بعض التراتيل، فيما انطلقت الأيدي الكبيرة للخادم سعيد في جذب حبال الجرس لينطلق رنينه العــالي في فضاء الدير وما حوله، مؤذنًا بأن هذا العالم ملك السيــد في الأعالي والآباء المعظمين على الأرضــ، وللجميع المحبة وعلى العالم السلام.

حين انتهت الصــلاة وخرج القساوسة والشمامسة مــن الكنيسة باتجاه قلاليهــم ظل أنطونيوســ جالسًا في مكانه، بينما نهضــ الأب باخوميوس بتكاســل رجــل عجــوز ليدخــل الغرفــة المخصصــة للاعــتراف، تلــك الغرفــة التي صار سيدهــا منذ نحو عشرين عامًا، فحــين رفضت الكنيسة الاعتراف بإيمانويل الطيب قديسًــا للعذراء رأى الأب صاموئيل الشكاك أن يستحــدث درجة نائب رئيس للدير، ويمنحهــا لإيمانويل تخفيفًا له من آلامــه وأحزانه، قبلها إيمانويــل محبةً في أستاذه الشــكاك الذي تولى بعد

إستيفانوس رئاسة الدير، لكن نفس إيمانويل كانت ممتلئة بالحزن، وتتوق إلى رحلة طويلة يدور فيها على الأديرة والكنائس بمختلف ربوع البلاد، كان يبحث عن نفسه بحسب ما قال للشكاك، فأمضى نحو ثلاث سنوات في تلك الجولة التي لا يعرف سوى الله أين كانت حدودها، لكنه حين عاد منها عاد ليُخلص لشئون الدير، فترك له الشكاك إعادة ترتيب المناصب والأماكن حسبما يريد، حينها تنازل لصديقه باخوميوس عن منصب كاهن الاعتراف، وهو المكان الأكثر أهمية لكل من بالدير وخارجه من شعب المؤمنين بالسيد المسيح، لأنه مجمع الأسرار، وبدونه تسقط هيبة الكنيسة وسرها الأقدس، هنا تُمنح البركة والغفران، هنا يتجسد المسيح عبر شخص باخوميوس الحباك، هنا يعترف المؤمن بذنبه ويتجلى عليه الرب بعفوه ليبدأ من جديد صفحة جديدة يهزم فيها الشرير، لكن أنطونيوس لم يستطع ذلك، وظل في كل مرة يهزم ويهزم، وكأنه خلق من ضعف على ضعف، أو أنه ليس مؤمنًا من الأساس، رغم أن الأب إيمانويل حين رسمه كاهنًا أكد أنه أفضل الجميع، وأنه يأمل أن يتطور نظام الرهبنة وفكر الكنيسة على يديه. أنطونيوس الذي لا ينفك ينهزم أمام الشرير، ويخرج من رذيلة نفسية ليسقط في أخرى، هو المأمول منه تطوير فكر الكنيسة وحياة الرهبنة، فليحفظنا المسيح من الزلل وليحفظ عقولنا في مكانها. هكذا قال أنطونيوس في نفسه، بينما باخوميوس يتمتم بمثلها وهو جالس في الكرسي المخصص له بغرفة الاعتراف، هامسًا في أذن شماس صغير بالسماح لأنطونيوس بالدخول.

كان الهدوء قد نزل على الكنيسة كما لو أنها رفعت من الملكوت الأرضي إلى ملكوت السماء، وشعر أنطونيوس أن أنفه يتشمم روائح عطرية جميلة، روائح لا تخرجها مباخر الأب باخوميوس ولا عطره المقدس، شعر أن هواء باردًا يملأ صدره وهو يقطع الخطى الوئيدة في اتجاه الغرفة شبه المظلمة، هدوء شديد أعقبته رجفة كهربية مفاجئة انتابت أوصاله، فارتعد معها منتفضًا كما لو أن الشرير يخرج من جسده، "اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات وصلوا بعضكم لأجل بعض لكي تشفوا"، "من

غفرتم خطايـاه تغفر له ومن أمسكتم خطاياه أمسكـت" هكذا تمتم بالآيات فـور أن أصابته تلك الانتفاضة المفاجئة كما لـو أنه يلاحق الشرير ليحرقه بنيران الصلاة، بعدها جثا على ركبتيه أمام الستارة السوداء راسمًا علامة الصليب على وجهه وصدره قائلاً:

– باسـم الآب والابـن والروح القدس إله واحـد أمين، أعترف للإله القدير ولمريم العـذراء البتول، ولميخائيل رئيس الملائكة وليوحنا المعمدان المغبوط، وللقديس مرقس الرسول، ولجميع الآباء القديسين، ولك يا أبي الروحي، أعترف بأنني أخطأت.

اليـوم حلمت بسيـدة رأيتها في مركـز التحقيق بالديـر، فضعفت وتسحب نظري رغمًا عني على جسدها، استعذت حينها من الشرير، وطردت وجهها من عيني، لكنني بمجرد أن دخلت في نوم القيلولة رأيتها عارية كيوم ولدتها أمها، فلم أستطع المقاومة، وانساب ماء اللذة على ملابسي، نعم أخطأت يا أبتِ، وأنا الملوم؛ لذا ألتمس من مريم العذراء البتول ومن ميخائيل رئيس الملائكة ومن يوحنا المعمدان ومرقس الرسول ومن جميع القديسين ومنك يا أبي الروحي أن تصلوا من أجلي، فأنا حزين من القلب، وأعتزم تحسين حالتي في المستقبل، وبكل خضـوع الآن ألتمس العفو من الله، والغفران والتحليل منك يا أبي.

بعدهـا نهضـ باخوميوس عـن كرسيه ورسـم بالصليـب على وجه أنطونيوس ثلاث مرات قائلاً:

– انهض مغفورة لك خطاياك.

لكـن أنطونيوس الذي نهض لم يتحرك من مكانه، وظل واقفًا كتمثال يتطلع إلى جدارية المسيح البـارزة أمامه، المسيح المصلوب الأبدي في هذا العـالم من أجل تخليص الآدميين من خطيئة أبيهـم آدم، من زلته الأبدية التي جعلت زلاتهم لا تنتهي منـذ خلق الله العالم حتى وقتنا الراهن، أبناء الخطيئة يتناسلـون في الخطيئة من مولدهم حتى مماتهم، دماؤهم الخاطئة

تســري في العــروق التي لا تطهرهــا صلوات ولا تراتيــل، "تقدست في السماوات يا أبانا".

تطلع باخوميوس في وجهه سائلاً:

– هل تريد الاعتراف بأمر آخر؟

انتبه أنطونيوس من شروده قائلاً:

– نعم . . . الكلب السماوي لم يعد يأتيني.

-٥-

لا أعرف مـا الذي يجعلني أعكف على الكتابـة في مثل هذا الوقت من الليـل، فكل الكائنات نائمة، الجميع غارق في نوم عميق، نوم لا يتناسب مـع كونهـم رهبانًـا أو مقيمين في رحـاب المسيح، طالبين بركـة أمجاده السماويـة، وكأنهم بشر عاديون لا يطاردهم كلـب السماء شاعرين أنهم أبعـد ما يكونون عن الخطيئة، وأن عليهـم أن يبتهلوا إلى المسيح كي يغفر لهم ويقبلهم في ملكوته، لا أعتقد أن ثمة فرقًا بينهم وبين هؤلاء اللاهين في ملذاتهـم، المطمئنين بجهلهم لرحمة السمـاء، وكأني وحدي الذي يطارده كلب السماء العتـي، فكلما أغمضت عيني شعـرت بأقدامه الثقيلة تضرب الأرض في اتجاهي من بعيد، بينما صوته اللاهث ينبئ عن وجه غاضب، أشعر باندفاعة صدره للأمام وارتكاز عجزه على قدميه الخلفيتين في تأهب واضـح للقفز، ينتابنـي الفزع من أن أصبح في متنـاول أسنانه ومخالبه، فأنطلق في الفرار من أمامه، دون أن أدري إلى أين تأخذني قدمي، غير مبالٍ بحفر أو سدود أو جدران بيوت أو صخور جبال، مصطدمًا بكل ما في طريقي، لا يسيطر عليَّ غير حتمية الجري والهرب قبل أن يلحق بي، صارخًـا في كل مـن حولي أو يرد في ذهني بالنجـدة، صارخًا في الجميع بالنهوضـ من سُباتهم من أجلي، لكن الجميع يغط في نوم عظيم وبضمير مستقر لا أعرف من أين تحصَّلوا عليه، وكأن الفناء قد سيطر على الوجود كلـه وتركني وحدي أصـرخ فيه بالنهوض، فأظل ألهـث وألهث إلى أن أنتفض من نومي متمتمًا باسم المسيح الذي وسعت رحمته كل شيء، أردد اسمـه وما يرد على قلبي مـن آيات لطرد المردة والشياطـين، أظل أتمتم وكأننـي أطردهم بعصا الله من أمامـي، حين أشعر أنني صرت في مأمن من الخوف والفزع الذي تلبَّسني من رؤية وسماع صوت الكلب السماوي تسري في نفسي الراحة وأشعر بالخدر يغلب على أعضائي، فتهدأ أنفاسي

ويبدأ النوم من جديد في مداعبة أجفاني، دون أن أدري إن كنت مستيقظًا لا يرغب في النوم، أم أنني نائم لا يرغب في الاستيقاظ، وأن حياتي كلها ليست أكثر من حلم طويل أدور فيه، حلم أتصور في بعض لحظاته أنني مستيقظ وفي بعضها الآخر أنني نائم، وما بين النوم والصحو أشعر أن كلب السماء يطاردني من مكان لآخر، ومن عالم لآخر، وأنني الهارب الوحيد من حظيرة الإيمان.

– أنا يسوع المسيح.

هكذا قالها بوداعة وهو يرسل عينيه نحو السماء، رأيته كما هو دون أنوار أو هالات، دون ملائكة تحفُّه أو خنازير يطاردها، بدا لي كشخص عادي للغاية، بشري تمامًا، بشري لدرجة أشعرتني أنه غير قادر على الإتيان بكرامة واحدة وليس معجزة كبيرة، (أنا يسوع)، هكذا كررها من جديد، وحين نظرت في وجهه مستطلعًا أو مستنكرًا، رفع سبابته نحو السماء سائلاً (ألا تؤمن بي)، لم أعرف بم أجيبه، فلم أتوقع في يوم ما أن ألتقي بالرب الإله، أو أن أجد نفسي في مواجهته وعليَّ أن أجيب عن أسئلته! كان من المفترض أن أركع على ركبتي واضعًا يدي أمام وجهي قائلا (نعم أؤمن بك يا رب، أؤمن بمعجزاتك وقدرتك على إحياء الموتى وشفاء المرضى وغفران الذنوب)، لكنني لم أفعل، فقط وقفت متسمِّرًا في مكاني كصبي أبله، حينها ابتسم في وجهي (لن تدخل حظيرتي ما لم تؤمن بي، لن تدخل ملكوتي، فجنتي للمؤمنين)، ثم ضرب الهواء بإصبعه فاختفى في السماء.

هكذا رأيت يسوع، وجدته أمامي دون أن أدري أين ولا متى، لا أستطيع أن أتذكر علامة واحدة تدلني على المكان أو تخبرني في أي ساعة كنت من الليل أو النهار، لكنني موقن أنني التقيت به، وأن المفاجأة أمسكت لساني، وأنني كنت أتمنى أن أركع أمامه لكنني لم أفعل، بعدها سمعت أقدام الكلب الكبير ينطلق من سلسلته، شعرت بلهاثه المتوالي وصوته النابح وقوة اندفاعه، شعرت أن الأرض ترتجُّ من تحتي وأنني لا بدَّ أن أهرب من أمامه، فتركت لأقدامي العنان.

سنـوات تلو سنوات وأنا أهـرب وأهرب، ولم يُجـدِ دخولي الدير في شيء، حتـى الآن لم أستطع الوصول من جديـد إلى الله كي أركع أمامه طالبًا الغفران وحبس كلبه الكبير عني، وبمجرد أن أغفو أو أغمض عيني أجـدني في مواجهة ذلك الغاضب الأبـدي، فأنطلق في الهرب وينطلق في أثـري، لا يمنعه شيء ولا يعيق حركته شـيء، وكأنه خُلق من صخر أو حديـد، خلق من نار مشتعلة لأجل مهمة واحـدة، ولولا أنني لم يُكتب لي المـوت بعد لكنت قد مُزِّقت منـذ أمد بعيد بين نابيـه البارزين كخنجرين، ولا أعلـم أذلك رحمة بي أم جزء من عذابي، غير أنني أوقن أنني الشقي الوحيـد الذي عرفته السماء، فلم أسمع بأحد تحدث عن مطاردة كلبها له، ولم أر أحـدًا مستيقظًا في الليل بسببه، فالكل يغطُّ في نوم عظيم متواصل، كأنهم ينعمون من الآن برضا الله في ملكوته العظيم.

أنـا الآن أسعى للهـروب من النـوم، الهروب من المطـاردة التي لا تنتهي، والرعب الذي لا يتوقف، أسعى للتخلص من مخاوفي وعذاباتي، ملقيًـا بكل ما يعنُّ لي من صـور وأفكار على وجه الورق، ليخرج الكلام كيفما اتفـق، وكأنني لست أكثر من محض آلة كاتبـة، آلة تسجل ما يُملى عليها من كلمات، إلى أن يحين وعد السماء، إما بموتي أو بانتهاء عذابي، وشعوري براحة وطمأنينة الغفران.

-٦-

كان الديــر في هذه الآونة يمر بحالة من الاضطــراب، فقد تنيح الأب إيمانويــل، وتصارع على الرئاسة من بعــده ثلاثة من كبار الأساقفة، لو كان أي منهــم منفردًا لحقَّت لــه الرئاسة دون منازع، لكن في ظل وجود الآخريــن فالأمر بالغ الصعوبة، خاصة وأن إيمانويل لم يرشح أيًّا منهم، وترك الأمــر للتوافق بين الآباء، وحكمة المطرانية في الاختيار، غير أن المطرانيــة نفسها كانــت منشغلة بمرض البابا في الشمــال، وكانت العيون تتطلــع نحو من سيصل إلى كرســي الكرازة، فلم تكن لدى أحد الرغبة في أن يشغــل نفسه بالتفكير في ضبــط أمور دير على يســار العالم، حتى إن الكثيرين كانوا ينسون انتماءه إليهم، رغم أنه من أقدم الأديرة التي عرفها الشعــب، ومن أكــثر البقاع التي شهدت الصراع علــى الرب في القرون الأولى، وضمــت مقابــره جثامين قديســين وآباء كاد بعضهــم أن يكون كروزًا للديار، لكن الزمان تغير ولم يبق شيء على حاله.

حــين نهضــ الكاتب عــن سريره كان الغــروب قد كســا الدير بقشرة ذهبية جميلة، فألقى من شبــاك غرفته نظرة على قلالي الرهبان البعيدة، وجدها تذوب في حمرة شمس الأصيــل، وأيقن أن جرس الكنيسة سوف ينطلق بعد قليل معلنًا عن قداس الخامسة، كل شيء في الوجود يتم بعد هذا القداس، الرحمة والعذاب، المغفرة والشقاء، الحب والكراهية، الوصول إلى اللــه والغيــاب عنه، كل شــيء يحدث في الأرضــ والسماء على قدم وســاق في لحظة واحــدة، الملائكة تتنزل بــبركات أم النور على المؤمنين وغير المؤمنــين، والشياطين تأوي إلى أجساد الخنازيــر والكافرين، فما الذي تخبئه الليلات السوداء؟

تســاءل الكاتب في نفسه موقنًــا بما يراود قلبه من خــوف، شاعرًا أن ثمــة خطبًا جليلاً إن آجلاً أو عاجــلاً سيقع على الأرض، تمتم باسم المسيح طالبًــا الرحمة من أم النوم، ومغلقًــا نافذة غرفته متَّجهًا إلى مكانه الأثير، مجموعــة من قطع خشب الكافور والجازورين التي حولتها يد المعلم نقولا إلى مكتــب خشبــي صغير، ألح عليه كثيرًا حتى أقنعــه بجعلها مكتبًا له، لم يكــن نقولا يريــد أن يزج بنفسه في مساءلات لا يعــرف إجابات لها، قال إنــه لا يستطيع أن يضع منشاره في قطعة خشــب لم يأته أمر بها من الأب إستيفــان المسئــول عن ورش النجــارة والحدادة وأعمــال البناء والطلاء في الديــر، وكان من الصعوبة على الكاتــب أن يقنع إستيفان بحاجته لهذا المكتــب في مخزن الكتب والدفاتر القديمة، في النهاية أمكنه أن ينقل لنقولا خبر غياب إستيفان مدة أسبوع كامل عن الدير، فقد سمع أن المطرانية في أسيوط أرسلت للاستعانة به في تجهيز احتفالاتها بميلاد السيد المسيح، كان الجــو قارس البرودة والكاتب يلح على المعلم العجوز أن يبدأ في عمله قبل أن ينتهي الوقت ويفاجئهما إستيفان بحضوره، في النهاية وافق نقولا على رجاءاته شريطة ألا يعلم أحد بسر المكتب.

حين وضــع ملاك مكتبه في الحنية الأخيرة للمخــزن أحضر عددًا من قوالب الطوب وجعلها كرسيًّا له، قال إنه الآن أصبح بمثابة قس، فهؤلاء هم المسموح لهم بتعليم الشمامسة والرهبان الجدد، المسموح لهم بالجلوس إلى المكاتب وارتداء المسوح الســوداء والتجول تحت أشعة الشمس في أي وقــت، كان مــلاك يشعر أن نقولا قــد رسمه اليوم قسًّــا، وأن شمامسته هــم الدفاتر والكتب القديمة، وعليه مــن الآن أن يتفقد أحوال رعيته ويعد تقريرًا يوميًّا عن حياتهم، عليه أن يعيد تنظيمهم وترتيبهم واستخراج أهم الحــوادث من صدورهم، قال إنه يمكنه أن يؤلف كتابًا خاصًّا عن آباء هذا الدير، وأن ينسخ منه مخطوطــات يقدمها لرؤساء الدير عسى أن يحظى برضــا أي منهم، كانت تطلعات ملاك واضحــة وكبيرة، ولم يكن ينظر خلفه علــى أيقونة المسيح التي وضعها على الجــدار منذ عامين، لكنه حين رفــع نظره إليهــا ورأى الدماء تسيل مــن معصم السيــد أدرك أن الحياة ليست سوى فخٍّ كبير.

في الطريـق إلى الكنيسـة تعـثر بكومة الخشب التي تركهـا نقولا دون تنسيق أو اعتناء، لا يعرف ما الذي جعل الآباء يتركون مخزنه الكبير وما به من كنـوز في طرف ناء من الدير بجوار ورشتـي الخشب والحدادة، أمر مؤسـف أن يضطر كاتب يتعامل مع الدفاتر والأقلام إلى التعامل مع الفئوس والمناشير ومطارق الحديد، نفض التراب عن ملابسه وذهب إلى بـاب الكنيسة المفتوح للجميع، كان السكـون واضحًا كسحابات تتنزل من السقـف المرسوم بصور الملائكة والقديسين، وضـع نفسه في أقرب صف ورفع يـده نحو وجهه وصـدره متمتمًـا بالصلاة، تلك التـي سرعان ما انتهـت كلماتها وجف حلقه فلم يعرف بمـا يمكنه أن يطيلها، أغمض عينيه فـترة وثبتهما علـى أيقونة للعذراء فترة أخـرى، وفي النهاية مسح وجهه وهمَّ بالخـروج، لكن الأرض انشقت عن الأب يوسـاب واقفًا أمامه، لا يعـرف لمَ ارتجف حـين رآه، حاول جاهدًا أن يتجنـب عينيه الحجريتين لكنه لم يستطـع فذهب نحوه مستسلمًا، وبدون كثـير من اللف والدوران سأله يوساب:

– لمَ ذهب أنطونيوس إليكم اليوم؟

هـز ملاك كتفيه بمـا يعني أنه لا يـدري، لكن عيني يوسـاب لاحقتاه بحدة، فطأطأ رأسه قائلاً:

– كان مطلوبًا للتحقيق.

حكـى ملاك ما جـرى في الصباح، مؤكـدًا أنه حتـى الآن لا يعرف السبب بالتحديد، وإن كانت دميانة فيما يبدو من ملامحها غاضبة عليه.

تمتـم يوساب بكلمات لم يسمعها ملاك، ثم أزاحه بذراعه قليلاً كي يمر من أمامه هامسًا في أذنه:

– أبلغني بالجديد.

تمتـم ملاك بمـا يفيد أنه سيفعـل، وخرج مسرعًا نحـو مكتبته في ذلك المـكان النائي علـى الهضبة، حيـث ورشتي النجارة والحـدادة، وحيث تطـل صخرة من جدار القلزم لتنام الدفاتـر والكتب القديمة أسفل جناحها الواسع.

-٧-

تأثــر كلٌّ من في الدير برحيــل الأب إيمانويل، وأغلقــوا أبوابهم على أنفسهم ثلاثة أيام، لا يخرجون من صلواتهم لأجل ذلك العجوز، فقد كان بمثابة قديس كَرَّس حياته للدعــوة والسلام، كان منهاجه أن يغفر الجميع لبعضهم مثلما غفر المسيح ليهوذا.

- مــن لم ير القذى في عينه فإنه لن يعــرف الحكمة من الخشبة التي في عين أخيه.

هكــذا كان يــردد في عظاته ملقيًــا اللوم على كل من يشكــو أو يتذمر، مطالبًــا الجميــع بالصبر على الآلام مثلمــا فعل السيــد، وأن يكون اليقين واضحًــا بأنــه كلمــا زادت الآلام زاد الخلاصــ اقترابًا. كثــيرون كانوا يبكــون أمامه طالبين أن يصلي من أجــل خطاياهم، وكان يسهر الليل في غرفته علــى سريره الخشبي وكرسيه الجريد يبكــي من أجل الخطايا التي على الأكتاف، وظل في ليلة يبكي حتى ظهرت له العذراء بجلاء في طاقة غرفته، كانــت بهية وجميلة وتشبــه الأيقونات القديمة، كانــت ابتسامتها أوضــح ما رأى، ولم يستطع أن يفعل أكــثر من النظر مبتسمًا نحوها بينما الدموع تنهمر من عينيه، فأومأت برأسها كأنها تخبره برضاها عنه طالبة منه العودة لاستكمال صلاته.

لم يعلــم بهــذا الأمر سوى قلة مــن الآباء في الدير، أغلبهــم تنيَّح دون أن يفتــح فمه بشـــيء، وإن ظل طيلة الأيــام والسنوات التــي قضاها فيما بعــد يحمل في قلبــه قداسة كبرى تجــاه إيمانويل الطيب، ذلــك الذي جاء مــن العاصمــة البعيدة ليقيم في دير نــاءٍ قديم، لكنه سرعان مــا تقدَّم على الجميــع، وصار موضــع الثقة، والمؤتمن على كل الأســرار، خاصة أن كثــيرًا ممن تحدثوا عنه في القــلالي المقدسة أكدوا صــدق رؤياه، وكأنهم

جميعًـا كانوا في حاجة إلى معجـزة يمكنها أن تعيد لديـر القديس جبرائيل الملاح بهاءه وحضـوره القديم، فخفَّت الأقدام في الليل لتنزل من الهضبة إلى السفح العميق، مترجلة تارة وراكبة الحمير والجياد وعربات الكارو والقطـارات والمعديـات الحديدية التي تربط بين ضفـاف وفروع النيل، لتصل في النهاية إلى رأس الكرازة في الكنيسة الكبيرة، مقسمة على صحة الرؤيا وصدق الإيمان وحسن السيرة، وليهز صاحب الكرسي الرسولي رأسه في النهاية قائلاً:

– لا ضير من لقائه.

كان ذلك بمثابة أكبر انتصار تحقق في القرون الأخيرة للدير العجوز، فقد شعر الجميع أنـه آن الأوان كي يكونوا محط أنظار العالم، وأنهم عما قريب سينتقلون فـرادى وجماعات إلى حيث الكرسي الرسولي في المدينة الشهـيرة، ومن ثم تزيَّنت الأقبيـة بأيقونات جديدة، وأمـر رئيس الدير الأب صاموئيـل الشكاك بتغيير الزيت المقدسـ في الأواني، وشراء عدد مـن المباخر والقناديل والمشكاوات، وتغيـير رخام المذبح وطلاء جدرانه بملاط جديـد، وعلى مـدار أربعين يومًا أقـام الرهبان تقدِمـة للمسيح، واجتمعـوا في صلواتهم على قداسة الأب إيمانويل ورسامته قديسًا من قبل الكرسي الرسـولي، لكن الساعات أخذت تجر بعضهـا، والفتور تسرب إلى الهمم والقلوب يومًـا بعد يوم، وطال الانتظار دون أن يأتي أحد من العاصمة لينظر في أحوال الدير أو حتى يسأل عن إيمانويل الطيب، وكأن أحدًا لم يصدق أن العذراء يمكنها أن تظهر لرجل في كوة غرفته بدير على هضبـة نائية، فيحادثها وتحادثه طيلة الليل، ثم تطلب منه أن يكمل صلاته من أجلها، أجلها فقط.

حين طال الوقت وبهتت وجاهة أن يكون من بين أبناء هذا الدير قديسًا يتحـدث باسمه في المحافل ويعيد لـه وهجه القديم، قـرر الأب صاموئيل الشـكاك أن يرسـل واحدًا من رجالـه ليسمع ويعلم ما يجـري في أروقة الكـرازة، تلك المغلقة جدرانها بالأسرار ليل نهار، فاستدعى الأب هيدرا وكان قسًّـا بليغًـا وقارئـًا مطلعًـا على القوانـين الكنسية في ترسيـم الآباء

والقسيسين، فنزل من فوره من قمة الجبل متبعًا النجوم على مدق بالكاد يتسع لقدمين يمران من عليه في آن واحد، وقف هيدرا بشموخ على أبواب الكردينالات سائلاً عن سر تأخر رسامة صديقه إيمانويل الطيب قديسًا، لكن العيون كلها كانت تطرق إلى الأرض دون إجابة واضحة، لم تكن في الأفواه كلمات شافية فيما يخص الطيب، البعض نظر بسخرية لا معنى لها، والبعض قال إن الشيطان يمكنه أن يتمثل بأم الإله لكنه لا يستطيع عمل ذلك مع الإله ذاته، وشعر هيدرا أن ثمة خلافات تطل برأسها من دير الملاح لتصل إلى جدران الكنيسة الأم، خلافات تشبه فتنة أريوس، لكنها هذه المرة ستكون عن العذراء وطبيعتها، فآثر هيدرا أن ينسحب من بين الردهات المعبقة بروائح البخور المقدس مطأطأ الرأس كاسف البال منكسر القلب، لكنه عاقد العزم على أن يبلغ الأب صاموئيل بما رأى وسمع.

كان على الدير ورهبانه أن ينتظروا مرور عشر سنوات كانت متبقية في عمر صاموئيل الشكاك كي يجتمع الآباء ليلاً ليعلنوا اختيارهم بالإجماع الأب إيمانويل رئيسًا لهم، وأن يرسلوا باسمه وحده فقط إلى الكرازة، وليس بثلاثة أسماء كما هو المتبع، وكان الجميع يتوقعون أن يخوضوا معركة ضد الكرازة التي رفضت أن تعيد لديرهم مكانته وبهاءه من خلال رسامة صديقهم الطيب قديسًا تابعًا للعذراء، لكن احتشادهم للمعركة انتهى فجأة حين جاءهم رسول الكرازة معلنًا موافقة الآباء الكرادلة على رسم إيمانويل الطيب رئيسًا لدير الملاح.

-٨-

يقـف دير الملاح شامخًـا كمجموعة من القباب المتكاتفـة على هيئة قلعة قديمة، هكـذا يراه الصاعدون لذلك المنحدر الصخـري الرابط بينه وبين الـوادي الفسيح، فقد أرادت مشيئة الرب لخطى جبرائيل الملاح أن يصل إلى هضبة عالية يربطها مخر سيول قديم بالوادي الرملي المنبسط أمامها، هنـا رأى الملاح أنه قـد وصل آخر الدنيـا، وأن بإمكانـه أن يضع رحله البسيط عن كتفه ويأوي إلى بطن الجبل العالي، ما زالت المغارة الصغيرة التي اتخذها الملاح قلاية له مزارًا لكثير من رواد الدير، خاصة أن الآباء درجوا على تنظيفها وتزيينها وترتيب أوضاعها لتكون خلوة قدسية لكبار الزائرين، فلا يدخلها إلا رئيس الدير وبعض المسموح لهم بإذنه.

كان الإمبراطور ديسيوس حين تولى عرش الإمبراطورية الرومانية قـد رأى أن المسيحية اجتاحـت البلاد، حتى أن كثيرًا من جنوده دخلوا في حظيرة إيمانها، فقرر إعادة إحياء العادات الرومانية القديمة، وإلزام كل مـن في الإمبراطورية بذلك، فأصدر مرسومًـا بتقديم الأضاحي للآلهة، وأمر موظفـي الإمبراطورية بمنح كل من يقدم أضحية شهادة تفيد ذلك، فتنافـس الجميع في الذهـاب إلى المعابد وتسجيل أسمائهـم والسجود للآلهة وتقـديم الأضحيات لهـا، البعض فعلوا ذلـك بحماس ليقـروا أنهم ليسوا مسيحيـين ولم يكونـوا يومًـا من بينهـم، والبعض كان يذهب كمـا لو أنه ذاهب إلى حتفه كي يحصل على شهادة من الموظفين، لكن ذلك لا يعني أن الجميـع استسلم للأمر، فهناك من جعـل خدمه يقومون بالذبح نيابة عنه، وهنـاك من قام برشوة الموظفين والحصول علـى شهادتهم، لكن ثمة من قـرر أن يفر بدينه إلى أبعد مكان في العـالم، كان من بين هؤلاء جبرائيل المـلاح الذي رفض أن يحرق أناجيله أو يطلق البخور في المعابد، وبلغت

بــه الشجاعــة أن فتح بيتــه لأصدقائه كي يصلوا فيه، فلمــا جن الليل دخل عليهــم الجنود وحملوهم إلى السجن، قضى جبرائيل ليلته يبتهل إلى الرب أن يخرجه من محنته، وفي الصباح أعلن للجنود أنه سيطلق البخور ويقدم الذبائح، فتوقف التعذيب عنه، وتركوه يرتدي ملابسه ويذهب بصحبتهم إلى المعبــد، لكنه في الطريق شعر أن إيمانه ليس حقيقيًّا، فأخذ الندم يجتاح قلبه، وكلما تقدم خطوة إلى المعبد صرخ في داخله:

– ربِّ إني لا أعبد جوبتر ولا أعظِّم ديسيوس، ربِّ إني أريد أن أكون عبدًا مخلصًا لكنيستك في أي مكان.

ـ حينها سمع صيحة تأتيه من بعيد:

– اهرب يا جبرائيل.

سمعهــا قوية ومدويــة دون أن يعــرف مصدرها أو يــرى صاحبها، ولم ينتظــر كي يــراه، فقد وجد ساقيــه تقفزان كأنما أصابهمــا الشيطان، ظــل يخرج من شارع إلى آخــر ويعبر من ممر إلى غــيره، ويدخل من الســوق إلى الشاطئ ليتــوه بين العابريــن في الميناء الكبــير، أمضى ليلته الأولى لا يعــرف إلى أيــن يذهب، موقنًا أنه مقتــول لا محالة، وأنه لا بدَّ لــه من الخروج بعيدًا عن المدينة وجندها، سحبته أقدامه إلى الطريق الذي اعتــاده لجلب الملح مــع أبيه من البحيرات، فسلكه عســى أن ينتهي به إلى مكان يختفــي فيه عن العيون، لكن رحلته طالــت لسنوات دون أن يعود إلى المدينة التي فارقها في ذلك الصباح.

كانــت الكلمات تتوالى من قلم الكاتب وهو يدوِّن ملاحظاته عن الدير، متذكــرًا المخطوط الذي وجده ضمــن الممتلكات التي آلــت إليه بعد رحيل إدورد حنا، ذلــك الذي تحمل مسئولية تربيته وحــده بعد رحيل الشماس ميخائيل في ليلة شتوية باردة، ورغم أن الطفل عُرف باسم ملاك ميخائيل فإن الجميع كان يعلم أن إدورد هو والده ومعلمه وكل ما يخصه في الدنيا، نشأ ملاك لا يعرف أبًا سوى ميخائيل، ولم يسأل نفسه يومًا عن والده ولا

عــن أمه، وحين ســأل إدورد ذات يوم أجابه أن الــرب له معجزات في كل شـــيء، وأن حياتــه في حد ذاتها هي إحدى هــذه المعجزات، فقد مات أبواه على باب الدير ولم يدخلاه، لكنه دخله بفضل إرادة الرب، فقد هبت الريح وفتحت باب الدير، فنهض ميخائيل من غرفته المجاورة كي يغلقه، حينها سمع صراخه ووجد أبويه قــد أسلما الروح بجانبه، فحمله وعاد به إلى الداخل ليخبر الآباء بما حدث، ولم يجد الأب إستيفانوس رئيس الدير وقتئــذ سوى أن يحكم بــأن اللقية لصاحبها، حتــى وإن كان خادمًا لبوابة دير قديم.

تعلــم ملاك مــن إدورد المهنة التي وجده عليها، تعلــم منه ما لم يتعلمه الكثــيرون من أقرانه، فقد علمه القــراءة والكتابة ورسم الخط قائلاً إنه لا يوجــد كاتب لا يعــرف القراءة ولا الكتابة ولا يكــون ذا خط حسن. كان إدورد يعشق مهنته ويرى أنها أفضل سر تقوم عليه الكنيسة، لكنه لم يكن يصــرِّح بهذا لأكثر من أذني مــلاك، وكان الأخير يعتــبر ذلك نوعًا من المداعبة والترفيه له في الليــالي المظلمة الطويلة، وأحيانًا كان يسمع الكلام كما لو أنه يخرج من أعماق واحد من ملائكة الرب المعنيين بجمع الأعمال الخــيِّرة. عاش معه الحقيقة التي لم يعشها غــيره، وهي أن مخزن الكتب والدفاتر القديمة هو قدســ الأقداس، وأنه الكاهن الأكبر الذي لا يحق إلا له وحده دخول هذا المكان ومعرفة أسراره، كان يتعامل مع المخطوطات كما لو أنه يتناول من جسد المسيح، بحرص شديد كان يحمل الدفتر ويضعه فــوق أخيه، وبحرص أشد يخرج الكتــبَ من الصناديق الخشبية القديمة، تعلــم تصنيف المخطوطات بحسب السنين والرؤســاء المتعاقبين على الدير والبطاركة المتولــين كرسي الكرازة، وأتعبه البحث كثيرًا من أجل إكمال الخانــة الأخيرة، فقــد تغاضى الكتبــة في كثير من العصــور عن صرامة إثباتهــا. وأيقن ملاك أنه كان مــن الممكن لهم بقليل من الجهد أو كثيره أن يضبطوا عملهم ويكملوا التصنيف الناقص، لذا قرر أن يتصدَّى لإكمال ما لم يكتمل، وفي أثنــاء جرده لما اشتمل عليه المخزن من أعمال ودفاتر كان عليه أن يطالع ما تقع عليه عيناه، فوجد نفسه أمام فصول كاملة من تاريخ الدير الممتزج بتاريخ الرب.

-٩-

في الصباح نشطت الأقدام الخفيفة والثقيلة في اتجاه الدير صعودًا ونزولاً، أغلبهم كان يقول لنفسه "لم لا أذهب وأحضر القداس وأمر على عيادة القديس أنطونيوس". لم تكن عيادة بالمعنى المعروف لدى الجميع، لكنها مكان فسيح يتجمع فيه المصابون منتظرين بركة أو مسحة زيت القديسين من يد أنطونيوس، فقد شاع لدى الجميع أن الأب إيمانويل أعطى سره لتلميذه، فانتقلت البركة من يده وقلبه إلى يد وقلب أنطونيوس، بدأ ذلك قبلما يتنيَّح إيمانويل بأسابيع قليلة، فقد وقف الناس منتظرين أن يخرج عليهم رئيس الدير ليلقي موعظته الأسبوعية، لكن إيمانويل الذي خرج متوكئًا على كتف أنطونيوس لم يستطع الوقوف، ولم يستطع الكلام، فأشار نحوهم بصليبه ثم همس في أذن أنطونيوس أن يعظهم، كان ذلك مفاجأة له، فلم يكن يتوقع أن يكون صاحب الموعظة الكبرى، ولا أن يكون نائبًا عن أستاذه في يومه المشهود، نظر بوجوم لأستاذه، لكن الآخر هز رأسه مبتسمًا وهو يضرب بأنامله الواهنة على صدره، طالبًا أن يجلسه على مقعد قبل أن يبدأ في كلامه.

شعر أنطونيوس لوهلة أن الدنيا تدور به، وأن كل العيون تكاد أن تخترقه، ودماء رفاقه من القساوسة والشمامسة تغلي في عروقها، لكن أذنه التقطت تمتمات رددتها شفتا إيمانويل، لا يعرف كيف صار لأذنه كل هذه الرهافة كي تتسمَّع الهمهمات التي لم تخرج من فم الرجل، ظل ينصت حتى غامت الدنيا من حوله وانمحت صور البشر، صارت هضبة الملاح بمثابة سفينة تقف على موج هادر من تحتها، مرر يديه في الهواء مثلثًا حتى هدأ الموج، مسح بأنامله على الوجوه فاستكانت السفينة

في مكانهـا، وأشرقت الشمس عالية في جوف السماء، حينها مرت سحابة مكتوب عليها رسالة بطرس الرسول الأولى، فرفع صليبه نحوها قائلاً:

– اصحـوا واسهروا، لأن إبليس خصمكـم كأسد زائر، يجول ملتمسًا مـن يبتلعه، فقاومـوه، راسخين في الإيمان، عالمـين أن نفس هذه الآلام تجري على إخوتكـم الذين في العالم، وإله كل نعمة الذي دعانا إلى مجده الأبـدي في المسيـح يسوع، بعدمـا تألمتم يسـيرًا، هو يكملكـم، ويثبتكم، ويقويكم، ويمكِّنكم، له المجد والسلطان إلى أبد الآبدين. أمين.

رأى القلـوب وهي تردد قبل الأفواه "آمـين"، رأى إيمانويل يشد من أزره وعيون الحاقدين تنطفئ عنه، فابتلع ريقه وأخذ يعظهم بما يرد على قلبـه وعقله، لم يكن يعـرف ما الذي يقوله، ولا ما الـذي عليه أن يرتب لأن يقولـه، فقط كانت الكلمات تخرج من فمه هادئة وواثقة، كأنها خيط تريكو يتسلل من جسد قميص صوف، أخذ يعظ حتى شعر أن الذين حوله ينفطرون من البكاء، فرفع يديه لاهثًا بالدعاء من أجلهم.

لم يكن يدرك في تلك اللحظة أن القلوب قد آمنت به مثلما آمنت بأستاذه من قبـل، فتركهم ونزل عن الحجر الذي اعتـلاه ليراهم، لكنهم لاحقوه مطالبينـه ببركة زيـت القديسين، كان يهتـف فيهم أنـه لا يستطيع، لكن إيمانويـل هز رأسـه مبتسمًا وهو يمـده بقنينة الميرون، فرفعهـا بطمأنينة قديس استمد قواه لسنوات من محبة العذراء، لكنه حين استدار إلى الشعب ليباركـه وجد أمامه طفلاً مصابًا بالحـول والخرس، فاستحضر المسيح في قلبـه ونظر إلى السحابة التي تحركت عن رأسه إلى زاوية الجبل، علم أن الأمر أوشك على الانتهاء، لكنه طالبها بالانتظار قائلاً:

– لم كل هـذه العجلـة، وهذا المسكين يقف عاجـزًا، لا يبصر جيدًا ولا يتحدث، وأنت قلت: تعالوا إليَّ أيها المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم. فتحـنن عليه يا الله برحمتك، وأزح عنه حملـه، لأنك الذي قلت، ونحن الذين أنصتنا إليك، فهل تخذل المساكين الذين صدقوك في مثل هذا اليوم؟

تجاوزت السحابـة قمة الجبل وأنطونيوس يرشـ رءوس الحاضرين بالزيـت المقدس، ماسحًا على رأس ذلك المسكين طالبًا له الشفاء، موضحًا

أن الدعاء ببركة قديس العذراء إيمانويل الطيب، وأنه لا يحق له العظة تاركًا الرجل غير مستريح في جلوسه، فتراجع الناس عنه وهو يكاد يحمل إيمانويل من أسفل ذراعه، ليمشيا حثيثًا أمام العيون التي تنظر نحوهما ببطء مماثل، كأنما تشكُّ في الموعظة وجدواها، والدعاء ونفعه، فلو أن لأي منهما القدرة على إبراء أحد من مرضه لأبرأ إيمانويل نفسه مما أصابه، لكن الله يشفي ويمرض وله كل الأمر.

مرت ثلاثة أسابيع على الأقل قبل أن يظهر الطفل ووالده من جديد باحثين عن أنطونيوس كي يبلغاه أن الله استجاب لدعائه، لكنَّ أنطونيوس كان قد ثقل عليه الحزن، فأغلق على نفسه قلايته، حابسًا إياها في صوم طويل من أجل أستاذه، ظل الرجل يسأل ويبلغ كل من يسأله بشفاء ابنه، هذا الذي أصبح يتحدث وينظر كأنه لم يمرض من قبل، ورغم أنه لم يصل إلى أنطونيوس فإن حديثه كان قد وصل إلى رئيس الدير الجديد، فوقف لا يعلم ماذا يمكن أن يفعله تجاه ما سمع، لو رفضه لفتح الباب من جديد للعديد من الأسئلة عن قداسة إيمانويل وعدم الاعتراف بها، ولو لم يقف أمام هذه الخرافات لانتشرت ولأصبح أنطونيوس في نظر الجميع قديسًا.

– وما لم يبلغه أستاذه فسوف يبلغه هو.

هكذا حدث جورج المنحني نفسه في غيرة واضحة من صديقه القديم، وقرر أن يتخلص منه ومن تلميذه في ضربة واحدة، أمر بتخصيص مكان بجانب ورش الحدادة والنجارة ليلتقي فيه أنطونيوس بمرضاه، وحين يفشل في تقديم رعاية حقيقية لهم فإن هؤلاء المساكين سيبحثون عنه في كل مكان ليلعنوه، وبدلاً من القول بسر الأستاذ الذي انتقل إلى تلميذه فإنهم سيتحدثون عن الهرطقة التي مارسها هو وأستاذه.

كان ذلك ما تفتَّق عنه ذهن يوساب العجوز فأقنع به الأب جورج المنحنى ليتخلصا من حضور إيمانويل وقداسته، لكن الرياح لم تأتِ بما تشتهي السفن، فقد نهض أنطونيوس لمهمته الجديدة، تاركًا عملَه في نشر كتب الآباء والقديسين وبيعها لرواد الدير من الأقباط والمسلمين،

كانت المهمة بسيطة وفقيرة للغاية، فقد منحوه مكانًا صغيرًا وضعوا عليه لافتة أصغر كتبوا عليها "عيادة القسيس أنطونيوس"، وأحضروا له مكتبًا وعدة أكياس من القطن والميكركروم وزجاجات السُّعال وبعض المضادات الحيوية، في البدء رفض أنطونيوس تسلُّمها لأنه لا يعرف كيفية استخدامها من الأصل، لكن يوساب نشط في محاصرته، آخذًا في توسيع دائرة الحديث عن سر إيمانويل وقدرات أنطونيوس في العلاج، وأجلس الطفل وأباه على بوابة الدير كي يشرحا للناس كيف أصبحت حالته بعدما دعا له أنطونيوس، هكذا وجد الأخير نفسه محاصرًا من قبل الجميع كي يجلس في عيادته، فخلع جبته وارتدى بالطو أبيض على قميصه الداخلي وجلس خلف المكتب ينصت إلى شكوى المرضى ويمنحهم علاجًا لا يعرف دواعي استخدامه، لكنه كان يتمتم باسم الأب والابن والروح القدس كلما همَّ بإعطاء أحدهم شيئًا، ويظل طيلة الليل باكيًا نادمًا على ما يفعله بهؤلاء المساكين الذين وثقوا به، طالبًا عفو الرب عنه وعنهم في آلامهم العظيمة، ولدهشته ودهشة يوساب والمنحني أن الأدوية كانت تشفي الناس، ولم يشتكِ أحد منها أو يدعو عليه، بل لهج الجميع بالدعاء له، مما نقله من قس لا يعرفه غير الرهبان إلى رجل يجزم الجميع بمعرفته بالطب.

وقف أنطونيوس يستقبل رواد عيادته أقباطًا ومسلمين، فقد زادت شهرته بعد أسابيع من وقوفه كبقال أمام دكانه الصغير، لم يكن برفقته غير الشماس أبانوب الذي التحق بالدير منذ شهور، وكانت مهمته أن يأخذ من الجمهور البركة التي تتنوع ما بين المال والهدايا العينية كالقمح والذرة، وفي بعض الأحيان كانت تصل إلى بيضة صغيرة، ولم يكن أنطونيوس يرفض شيئًا، أو يضغط على أحد بشيء، ونهر أبانوب حين رفض ذات يوم أن يأخذ من امرأة حزمة فجل، كان أنطونيوس مؤمنًا أن البركة ضرورة، وأن الناس لا بدَّ أن يتعبوا في شيء كي تتعب السماء من أجلهم في أشياء، كان يؤمن أن الحياة مشاركة بين الرب والبشر، ولا بدَّ أن يفعل ابن الانسان ما يجعل الرب يُقدم على مساعدته، لكن لا ينبغي تكليف ابن الانسان بأكثر مما يطيق، لأن ما يقدمه من بركة للرب لا ينفعه بشيء، وهو غير محتاج إليه، ويمكنه بدونه أن يفعل المعجزات

كلها، لكنه يرغب في رؤية عزمه ورغبته وإصراره على تحقيق طلبه.

هكذا كان يقول لمن يجيئه يشتكي بشيء، كان يوقفه أمام الجميع ويسمع منه شكواه ويبلغه بضرورة أن يفعل شيئًا من أجل أن يستجيب الله لطلبه، كان يحفز الناس على الإيمان بأفعالهم وقدرتهم على تغيير مسارات حياتهم، وكثيرًا ما كانت وصاياه تأتي بثمارها، وكثيرًا ما كان يعطي الدواء بعد النصيحة، لكنه لم يكن يمسح بزيته على رأس متشكِّك أو حاقد، وكلما رأى شخصًا مزهوًّا بنفسه كان يرجئه حتى ينطفئ زهوه، ويدرك أنه لا يتميز عن غيره في شيء، ويطيل في عظته قبل أن يمنحه دواءه، وأحيانًا يطلب منه القدوم في يوم آخر، كثيرون أحبوه، وقلة حقدت عليه، لكن جمهوره من المسيحيين والمسلمين كانوا يطلبونه منذ الصباح حتى قدَّاس الخامسة، بعدها يغلق عيادته ويذهب للصلاة.

– كيف حال اليوم معك يا أنطونيوس؟

هكذا كان يسأله الأب جورج، وكان يجيبه في هدوء:

– نشكر الرب.

لم يكن يزيد في حديثه عن هذه الكلمة، وكان جورج يشعر أنه يستولد الكلمات من جوفه، فيهز رأسه موقنًا أنه لا يعيره الاهتمام الواجب، وربما لا يراه رئيسًا عليه، وكان يوساب يغذي هذا الشعور لديه، ولا ينفك ينقل إليه كل ما يحدث، فقد زرع له شماسة بين القادمين للعلاج، وآخرين يعدون عليه أنفاسه أثناء نومه، لذا لم يسعَ أنطونيوس لإيقاف أي من طوال القامة الذين رآهم خارجين من بين قلالي الرهبان، وحين دخل قلايته ووجد كل ما بها على الأرض لم ينزعج، بل شرع بهدوء شديد في ترتيبها، دون أن يبلغ أحدًا بشيء، لأن ما حدث لم يكن أكثر من رسالة وضعها يوساب في طريقه.

في ذلك اليوم كانت الشمس قد توسطت السماء، وكان الكل يتعرق باحثًا عن ظل عمود أو سحابة عابرة كي ترفع عنه وهج الشمس، حينها نادى أبانوب الرجلَ التالي، فوجد أنطونيوس نفسه في مواجهة الكاتب بوجهه الهزيل، ولحيته النابتة، وعينيه العميقتين، وحاجبيه الكثيفين،

واحتاج للحظات كي يتذكر آخر مرة رآه فيها، وكان الكاتب على استعداد للمساعدة.

– أنا الكاتب ملاك.

هرب أنطونيوس نفسه من الاعتراف بأنه تذكره، وأنه كان في انتظار هذا اللقاء منذ رآه في مكتب التحقيق، فسأله بحياد واضح:

– ممَ تشتكي؟

هز الكاتب كتفيه كمن يقول لا أدري، لكنه سرعان ما أوضح:

– بطني تتمزق.

صـدرت ظلال ابتسامة عن أنطونيوس، لكنـه سرعان ما خنقها وهو يراجع بعض الأوراق التـي أمامه، ثم رفع رأسه عنها طالبًا من أبانوب زجاجـة مطهِّر معوي، ومستديرًا ليقرأ على رأس الكاتب بعضًا من آيات الكتـاب المقدس، مذكرًا إياه بضرورة أن يفعل شيئًـا من أجل نفسه، كي يفعل الله شيئًا من أجله، فهز ملاك رأسه قائلاً:

– غدًا لدينا تحقيق.

ابتسم أنطونيوس هذه المرة بالفعل، ومسح بكمه حبات العرق المتناثرة علـى وجهه، ثم أشار إلى أبانوب أن يخـبر الناس أن العيادة غدًا ستكون بعد الظهر، فلا يتعبوا أنفسهم بالوقوف في الشمس.

- ١٠ -

جلس الملاح في مغارته مختفيًا عن أعين الرومان، لكن الجوع والعطش اشتدا عليه، فاضطر للنزول منها بحثًا عن شيء يساعده على مواصلة الحياة، كانت الصخور قاسية وزلقة، إلا أنها حملت في باطنها شريان الحياة، فمع الشتاء تأتي الغيوم محملة بالثلج والماء العذب، فتهطل بغزارة كما لو أنها تريد أن تعمِّد كل شيء بالماء والبرد، حينها تتدفق المياه في شرايين صغيرة، سرعان ما تتجمع في مجرى كبير، فتهدر في طريقها إلى الرمال المنبسطة أمام الهضبة التي أخذها الملاح ملجأ له.

كانت رغبة الملاح في الحفاظ على إيمانه قد جعلته يحمل صليبه ويأتي إلى هذا المكان الذي تصوَّر أنه آخر حدود العالم، تطلع إلى الهضبة العالية، وإلى مجرى السيل الرابط بينها وبين السفح، تطلع بنظره إلى قسوة الصخور وحمرة الشفق المنساب عليها، هز رأسه واستحضر المسيح في نفسه وضرب بأقدامه في الصخر طارحًا جسده نحو الأمام، كان كلما صعد خطوة شعر كأن الشوك ينغرز في أقدامه والسكاكين تمزقها، شعر كأن المسيح قد بعث ليصلب ويعذب من جديد، كان يقول لنفسه إنه ليس أقل من الشهداء الذين ماتوا محتملين إيمانهم العظيم في قلوبهم، دون أن يفكروا في قدر العذاب النازل على أجسادهم.

حين وصل إلى مبتغاه واستقر في مكانه على الهضبة العالية شعر أنه يجلس أمام بوابة السماء، فلا شيء يحول بينه وبينها سوى ظل القلزم العظيم، شعر أنه على مقربة من الرب، ويمكنه أن يرى بعينيه كل ما يجري أمامه في السفح الواسع، نام ليلته الأولى كما لو أنه وصل إلى العالم الآخر، لم يستيقظ إلا على لسعة البرد في منتصف الليل، كانت

أعضــاؤه تكاد أن تتجمد، ولم يكن أمامه سوى أن يبحث عن ظل صخرة يحتمي بــه، كلما وجد واحدة رأى أنها لا توقـف ارتجاف أطرافه، حين وصــل إلى نهاية الهضبة من جهة الشرق شعر براحة الدفء والطمأنينة، فاستلقى على الأرض ونام.

في الصبــاح انتبــه المــلاح إلى أنــه أمضـــى ما بقــي من ليلــه في كهف علــى الهضبة، كان الضــوء في الخارج مبهرًا كما لــو أنه بعض من منح الفردوس، لكن حين صعدت الشمس إلى كبــد السماء تحول الصخر إلى قطع من جمر، واشتد الجوع والظمأ بالرجل، ومع انكسار الشمس خرج مــن كهفه يبحث عن مصـــدر الحياة في المكان، لم يكن هنــاك ما ينبئ عن وجــود ماء، حين اشتد به الظمأ أيقن أنــه موشك على الموت، فاستلقى في ظــل صخرة ونام، حين استيقظ من نومه وجــد أمامه لبؤة تعوي، رسم الصليـب على وجهه طالبًا من المسيح النجاة، بعدها انتبه إلى أن اللبؤة تنام على جنبها، مستسلمة لأربعــة أشبال يرضعون من حلماتها، وأنها ليست غاضبــة ولا خائفة، لكنها تعوي كمن يتوجــع، فأدرك أنها مصابة، وأن عليه أن يفعل شيئًا من أجلها، فاقترب منها حتى رأى بؤرة دم نازف على الرمــل، وسهمًا غائرًا يلتصق بالبطن، قرأ صلاة سريعة طالبًا من المسيح أن يكــون في عونه، رفعــت اللبؤة رأسها نحوه كمــن يطلب منه أن يقوم بعملــه، فتقدم نحوها وأخــرج السهم من مكانه، مدركًا كــم غالبت نفسها كي لا تمــد أنيابها لتنهشه، مزق ثيابه وربط الجــرح وسهر بجانبها طيلة الليل، ومع تباشــير الصباح استسلمت أعضاؤه للنــوم، ليستيقظ فيما بعد على صوتها وهــي تزأر على أربعة جنود يتشــاورون في أمرها، نهض مــن مكانه وصاح فيهم أن يرجعــوا وإلا أطلقها عليهم، ثــم استدار طالبًا منها الهدوء، فالتزمت الصمت وجلست في مكانها، وبدا على الجنود أنهم فهموا الرسالة، فلوحوا بأيديهم وتركوه عائدين.

أدرك المــلاح أن المسيح ساقه إليها مثلما ساقهــا إليه، فنهض باحثًا عن بقايــا شجر قديم وصنع لها تعريشة أمام مخر السيــل لتحميها وأشبالها من الشمســ، وتابع جولاته من أجل البحث عــن الماء، كانت أقرب بئر على مبعــدة ساعة من مغارتــه، هناك رأى بعضًا من البــدو يسقون أغنامهم، ناظريــن إلى حاله مــع اللبــؤة وأشبالها، قائلــين "نرعى الأغنــام وأنت

ترعـى الأسد". فضحـك قائلاً "أغنامكم على قـدر طاقتكم، وأسدي على قـدر طاقتي". يومها انجذبـوا إلي حديثه، وتبعـوه إلى حيث بنى تعريشة اللبؤة، لكنهم كانوا يذهبون ويجيئون، وكلما ذهبوا أو جاءوا انتشر معهم خـبر الملاح ولبؤته ومسيحه، وكـثر الباحثون عن الأمان في الصحراء، فأتـوا ليقيموا في معيته، بينما صوت اللبؤة وأشبالها يملأ المكان، لكنه وجد نفسه غير قادر على الاختلاء بذاته، فهجر الذين جاءوا يأتنسون بوجوده وصعد إلى المغـارة طالبًا من اللبؤة أن تكون بجانبه، ظل في خلوته ثلاث سنوات كاملة، بعدها ماتت اللبـؤة، وأصابه شعور باليتم، ظل أسبوعين لا يكلـم أحـدًا، وفشل مريـدوه في إخراجه من حالتـه، وراحوا يصلون لأجله حتى جاءه الرب قائلاً:

– قـم يا جبرائيل للناس، فماء لديهم ستجد، وطعامًا سترزق، وأرضًا ستزرع، فلأجلك باركنا المكان.

نهض جبرائيل من نومه موقنًا أن ما رآه حق، نزل من مغارته كشبح موشك على التلاشي، فاستقبله مريدوه بالتهاليل والأغاني، حينها بشرهم بأنهم سيقيمون في هـذا المكان لأيام طويلة، وعليهم أن يحفروا الآبار كي يزرعوا الأرض مثلما أخبره الرب في رؤياه.

رحل الإمبراطـور ديسيوس إلى الجحيم، وهـدأت موجة الاضطهاد الطويـل بعدمـا أودت بحيـاة الكثيرين، فقد ألقـي القبض علـى فابيوس أسقف روما، وسجـن ألكسندروس أسقف أورشليـم، كما سجن العلامة أوريجانوسـس مع أصدقاء له في قيصرية، فاستشهد بعدها متأثرًا بجراحه، كما استشهد بابيلاس أسقف أنطاكيا، ونجا ميخائيل الملاح وديونسيوس أسقف الإسكندرية من الموت باللجوء إلى الصحارى والجبال، وفي الوقت الذي اهتـم فيه الملاح بحمايـة المؤمنين المتجمعين على هضبتـه كان ديونسيوس يـوزع رسائلـه على الجميع من مخبئـه، يحثهم على الصـبر والاحتمال وطلـب الشهـادة كالمسيح، وظـل مختفيًا حتى مـوت ديسيوسـس وانتهاء اضطهاده للناس، فتساءل البعض عن أهمية رئاسته للكرازة بعدما فر إلى الجبال ولم يتحمل الآلم، فوزع رسائله وعظاته بأنه لم يجبن ولم يهرب،

بـل سعى لنيل الشهـادة في كل خطوة خطاها، ووحدهـا عناية المسيح هي التي أنقذته.

لم يفكـر الملاح في العـودة إلى المدينـة ولا تبرير موقفـه من الهروب كما فعل ديونسيوس، واكتفى برعايـة الذين جاءوا ليقيموا بجواره بعدما اشتعل الخلاف في المدينة من جديد، فقد انقسمت الآراء حول الذين أنكروا مسيحيتهم، وقدمـوا الذبائح والبخور لآلهة الرومان، فهل تقبلهم الكنيسة في شركتهـا من جديد؟ كان ديونسيوس أميـل لقبولهم، فالرحمة للجميع، وآلام الاضطهـاد أقوى من احتمـال المؤمنين، لكنهم لا يمكنهم أن يكونوا في مصاف الذين استشهـدوا، ولا الذين تحملوا ما لاقوه من عذاب لأجل المسيح، إلا أن الذين تعذبوا رأوا أنه لا ينبغي لمن أنكر وجود الله أن يكون له حق في كنيسته.

ظل ديونسيوس يراسل الأساقفة في روما وأنطاكيا وقرطاجة وطليطلة مؤكدًا على اتسـاع ملكوت الرب وقبوله المعترفين بخطاياهم، لكن الأيام لم تعطهـم فسحـة من الوقت لحسم هـذا الخلاف، فقد تـولى الإمبراطور فاليريان الحكم، ونزل بظلمه يطارد المسيحيين في كل مكان، ولم يتوقف جبروته إلا بعدما أسره الفرس، فاعـترف خليفته جالينوس بحق الكنيسة في استعـادة أملاكهـا، حينها عم السـلام وسادت الطمأنينـة مدة أربعين عامًا، تولى فيها شئون الكرازة كل من مكسيموس وثاؤنا، لكن مع تولي بطرس الأول الأمر جاء اضطهاد دقلديانوس.

كان دقلديانوس قـد تـولَّى الحكـم وفكـر في حماية الحـدود الجنوبية لإمبراطوريته من غـارات البدو والبلاعمة، فأمر نائبه على الإسكندرية أكليوس بمطـاردة هذه القبائـل وبناء سـور يحول بينهـم والدخول إلى بلاده، فنهض أكليوس بعدد من الحـروب التي أدهشته هو نفسه، وشعر أنه الإمبراطـور الحقيقي للبلاد، وضخم أصدقاؤه هذا الشعور في عينيه، حتـى أنه أعلن انفصاله عن روما، متخـذًا الإسكندرية عاصمة له، فجمع دقلديانوس جيوشـه وخرج غاضبًا إلى الإسكندرية، حاصرها نحو ثمانية أشهـر قبل أن يدخلهـا منتصرًا، فأمر بقتل قائدها أمـام الجميع، وتصور الكل أن الأمر انتهى عند هذا الحد، لكن دقلديانوس لم يستطع أن ينسى أن

هذه المدينة استعصت عليه ثمانية أشهر كاملة، فقرر أن يدمرها ويهلك كل شيء له خصوصية فيها.

أخذ جنود دقلديانوس يفرطون في طلب الطاعة للآلهة، لكن المسيحيين رفضوا التنــازل عن دينهم، فتحول غضب دقلديانوســ من أكليوس إلى أبنــاء المدينة، فأمر بإحــراق كل من يخالف أوامــره، ومطاردة كل من لا يقدم الهدايا للآلهــة، فوجد أبناء الرب أنفسهم مطاردين في كل مكان، وسرعان ما سقطت الرءوس عن الأكتاف، فحملوا صلبانهم على ظهورهم وفروا في الصحارى والجبال، باحثين عن آخر مكان في العالم كي يفروا إليــه بدينهــم، ودائمًا كان المــلاح في انتظارهم، فتوافــدوا عليه خائفين، طالبين الأمــن والعزلة بعيدًا عن الشرور والآثــام، ولم يكن أمام الملاح ولبؤته سوى أن ينهض لحمايتهم، ومنحهم ما قطعوا كل هذه المسافات من أجله، لم يكن أمامه سوى أن يصلي للرب على رءوس الجبال كي يترفق بشعبه، ويخرجهم من البلاء الذي وقعوا فيه على يد دقلديانوس وخليفته:

– يا أبانا الذي في السماء، ارحم واعفُ، وتجلَّ بحكمتك على الكافرين قبل المؤمنين، يــا أبانا أعطنا خبزنا كفاف يومنا، وارحمنا من دقلديانوس وأتباعــه الذيــن سلطهم على شعبــك، يا أبانا إنــا حملنــا صلباننا وخرجنا من ديارنا لأجلك وحــدك، قطعنا أوصالنا، ومزقنــا أقدامنا على أحجار دربــك، فارحمنا من أعدائــك، واجعلنا في ملكوتك، وتقبــل شهداءنا في أمجادك العلوية. آمين آمين.

ظلت الكلمات تخرج حارقة من صدره، والدموع تنساب على وجوه الرهبان أمامه، حتــى استجاب لهم الرب، ووصل قسطنطين العظيم إلى عرشــ الإمبراطورية، فنزلوا مــن على الجبال، وعــادوا إلى بيوتهم، ليشعلوا شموع أفراحهم بأيديهم، ويقدموا صلواتهم للقديسين والأبرار.

-١١-

لاحظـت دميانة عين أنطونيوس حين سرحت على صدرها، يومها لم تستطع أن تمنع اشتعـال الحريق في جسدها، لكنها تماسكت بقدر الإمكان كـي لا تفسد التحقيق، نظرت نحو كاتـب التحقيقات ملاك ميخائيل بقسوة لتمنـع نفسها من التفكـير في تلك النظرة، هو نفسه تعجَّـب من الحدة التي تعاملت بها معـه، وانصاع فاتحًا دفتره ليكتب ما تمليه عليه، لكنه لم ينس أن أنطونيوس هو الشخصـ الوحيد الذي أصاب المحققة بالارتباك، كان صوته هادئًا وهو يتحدث عـن نفسه كما لو أنه يترنم بالمزامير، لم يستطع مـلاك أن يعزل نفسه عـن كونه جالسًا أمـام القسـ أنطونيوس صاحب الحظـوة من قبل الأب إيمانويل، فرفـع رأسه وهو يكتب وأخذ يتطلع إلى ملامحه وهـو يتحدث، حين التقـت عيناهمـا أدرك أن أنطونيوس يتمتع بطاقـة روحيـة كبيرة يمكنهـا أن تتحكـم في كل ما حولـه، كان بوده أن يصرخ فيه أن يتركه وشأنه، لكنه لم يستطع، ودميانة لم تترك له الفرصة لأن ينطـق بشيء، فقد تصاعد الغضب بداخلها، ولاحقته بطرقات أناملها علـى المكتب، حين نظر في عينيهـا أدرك كم تعاني، شيء ما بداخلها كان يعتمـل بقوة وكأنه بخار ماء يتصاعد، لم يكـن أمامه سوى أن يعتذر عن خطئه ويعود إلى دوره الطبيعـي ككاتب للتحقيق فقط، فراح يكتب خلف المحققة الغاضبة والمتوترة، ولم يمض قليل من الوقت حتى شعر بأن خدرًا يسري في أنامله، شعر بأنه غير قادر على الإمساك بالقلم، لا يعرف من أيـن أتت كل هذه البرودة ليديه، فأخذ يدلـك أصابعه وينفخ فيها عسى أن تتـوزان درجة حرارتها من جديد، منحته المحققة خمس دقائق ليدفئ يديه علـى نار الموقد في البوفيه، لكن البرودة التي تدفقت من داخله كانت أكبر من قدرة الموقد على تشتيتها، فعاد للمحققة معلنًا عدم قدرته على العمل.

كانت دميانــة تتمنى أن توقف التحقيق لتهرب مــن سطوة أنطونيوس عليهــا، فأبلغت الأخير بتأجيل التحقيق لحين تحديـد موعد آخر، وأخذت تحاكـم نفسهـا على ما فكـرت فيه، ظلت تصلــي طالبة الغفـران، عاقدة العزم على أن تتنحَّى عن هذا التحقيق، لكنها في اليوم التالي وجدت نفسها مشتاقة لرؤية وجه أنطونيوس ذي الملامح الدقيقة والعينين العميقتين، بعد وهلــة تأكد لها أنها تريد النظـرة التي مسح بها جسدها فأشعل النيران فيه، انتفضت من مكانها وخلعت ثيابها متطلعة إلى ثدييها الناهدين بقوة، شعرت أن عبورهــا الخامسـة والثلاثين دون زواج لم يؤثـر في قوتها الداخلية، نظـرت إلى بطنها وساقيها والتفتت إلى مرآتها باحثة عن ردفيها، لم يكونا هزيلين ولا عامرين، قرصـت أحدهما لتتأكد أنه ما زال على قيد الحياة، ثم حملت ملابسها ودلفت إلى الحمـام، بعدها اتخذت قرارها بالاستمرار في التحقيق.

لم يكن أمام مبنــى الضيافة الذي يشتمل في دوره الأرضى على غرفة التحقيقات غير الخادم ميلاد العجوز، جالسًا على كرسيه الخشبي، كما لو أنــه تُرك في مكانه هذا منذ أمد بعيد، فلم يتحرك ولم يتكلم وربما لم يتنفس أصلاً حــين ألقى عليه أنطونيوس تحية الصبــاح، حين وصل الأخير إلى غرفــة التحقيق التي كان بها منذ عدة أيام وجد دميانة في انتظاره، للحظة شعــر بالتردد ورغــب في العودة من حيــث أتى، لكنها كانــت قد رفعت وجهــه نحو الباب فــرأت طلته الوديعة عليها، هنالــك انتفضت من مكانها وعلــى وجهها ابتسامة كبرى، هي نفسها لا تعرف ما الذي شرح صدرها لرؤيتــه، وجعلها في هــذه الحالة من النشوة، رحبت بــه ودعته للجلوس في الكرســي المجاور، وظلا كلاهما صامتًا لا يعرف بمَ عليه أن يتحدث، كلاهما كان ينتابه نوع من الخجل، كأنهما ما زالا مراهقين يتعرفان على بعضهمــا، كسر إيقــاع الصمت في الغرفة دخول الكاتــب بدفتره الطويل وقميصــه ذي المربعات الخضــراء والبيضاء، ابتســم أنطونيوس لرؤيته وتجاوبــت دميانة ببهجة أكبر، لكنها سرعان ما اعتدلت في جلستها راسمة بملامح جادة حالة من الحياد على المكان، بدوره ألقى ملاك التحية وجلس

على كرسيــه متطلعًا إلى حيث جلس أنطونيوس بجــوار المحققة، وأدرك الأخير أن ملاك تداعبه أفكار شريرة فأسرع في بترها بنقل الكرسي أمامه سائلاً:

– كيف حالك اليوم؟

تذكر ملاك لقاءهما بالأمس في العيادة، وانتبه إلى آلامه التي كان يعاني منها وكأنها تراوده من جديد، فارتسمت على وجهه ابتسامة امتنان قائلاً:

– نحمد الرب.

هز أنطونيوســ رأسه متمتمًا بالشكر، وبذلت دميانة جهدًا واضحًا كي تخرج صوتًا تستأذنهما من خلاله للبدء في التحقيق، فاستجاب أنطونيوس لرجائها وهــز رأسه بابتسامة خفيفة تجاه الكاتب، كمــا لو أنه يطمئنه بأنه لن يحدث له شيء اليوم، حين شرعوا جميعًا في ممارسة أدوارهم فوجئ أنطونيوس أن المذكرة المقدمة ضده تتهمه بإهدار مال الدير في طباعة كتب للخارجين عن الكنيسة، بدا على وجهه الغضب، وساد الصمت في الغرفة التــي لا تحتوي إلا على مكتب وحيد، أمامــه كرسيان ومنضدة صغيرة، وفي جانــب بعيد وقفت شماعــة خشبية علقت عليها دميانــة معطفها، بينما توزعــت ثلاث أيقونــات على حوائطهــا، فرفع أنطونيوســ وجهه نحو أيقونــة العذراء المواجهة لــه وكأنه يسألها عما يحــدث، مرت لحظات لم يجرؤ فيها أي من ملاك أو دميانة على الكلام، تركاه ينقل وجهه في حنق وغضب ما بين العذراء والمسيح المصلوب، وفي النهاية وضع راحته أسفل جفنــه ومسح دمعة كانت قد انسابت رغمًــا عنه، ثم زفر هواء ساخنًا وهو يستجمع قواه قائلاً:

– كان الأب إيمانويــل قــد كلفنــي بمسئولية الإشراف علــى المطبعة، وأن يكــون مــن مهام عملي طباعــة الكتب المهمة التــي يحتاجها المؤمنون بالــرب سواء في الديــر أو خارجــه، ولم أفعل أكثر من هــذا طيلة عملي ومسئوليتــي عن المطبعــة، فقد عكفت بالساعات علــى ضوء مصباح قديم لمطالعة عشرات المخطوطات والكتب ورؤية ما يصلح منها للطباعة، حتى أنني ترجمت بعض الكتب من الديموطيقية واللاتينية إلى العربية، وكلفت

بعض القساوسة والرهبان المهتمين بالأمر بعمل ترجمات أخرى، وكلما سمعت بكتاب مهم في دير أو كنيسة كنت أرسل في إحضار نسخة منه لإعادة طبعه، كنت على تواصل دائم بالأب إيمانويل في شأن كل ما يتم الدفع به للمطبعة، وفي أثناء بحثي عن الكتب المهمة وقعت يدي على نسخة من كتاب الرسائل للعلامة أوريجانوس، كانت نسخة قديمة ومكتوبة بعناية كبيرة، حتى أن صاحبها صنع لها صندوقًا خشبيًّا صغيرًا وضعها فيه، وحفر اسم الكتاب ومؤلفه على غلاف من جلد الماعز، أما الورق فقد تفنن الخطاط في رسم حروفه وهوامشه، كانت روائح السنين تفوح من المخطوط الذي عثرت عليه بمحض الصدفة بين بعض الكتب القديمة، حين فتحته لم أستطع أن أمنع نفسي عن قراءته، اعتكفت في قلايتي حتى انتهيت منه، ثم حملته وذهبت به للأب إيمانويل مقترحًا نشره، فضحك قائلاً أن أحدًا لا يمكنه أن يسمح لي بذلك، وعلى أقصى تقدير لهذا الكتاب أن يتم تداوله بين كبار الأساقفة للدرس والفهم، وليس الإتاحة للشعب، وكي لا يغازلني شيطاني وأدفع به لماكينات الطباعة فقد قرر أن يبقيه عنده، ومع الوقت والأحداث نسيت الأمر كله، لكنني فوجئت به قبل رحيله يخبرني بحزن شديد أن ثمة كبيرة ارتكبت، فقد سُرق الكتاب من قلايته.

كان مرض إيمانويل شديدًا، وفي الأسابيع الأخيرة تزايد بشكل مدهش، حتى أننا ما كنا نفكر في شيء سواه، كنا نلازم قلايته طيلة الوقت لنأخذ بيده ونسكن من آلامه، وقتها كنا نطبع سيرة القديس أنطونيوس، فقد أعد لها إيمانويل مقدمة جديدة تليق بتاريخ القديسين وجهادهم، لكنه تنيَّح قبل أن يراها تخرج للنور، وحين خرجت كنت قد اعتزلت في قلايتي حزنًا عليه، فلا يمكنني أن أواجه الحياة وحدي من دونه، فهو الأب الذي تعلمت منه كل شيء، وهو الباب الذي دخلت منه إلى الرهبنة، ربما لولاه لظللت هاربًا في الصحراء، لا عمل لي سوى أنني قاطع طريق وقاتل تعودت أنامله الضغط على الزناد، مثلما تعودت آذانه سماع أزيز الرصاص، وحده إيمانويل الذي قال لي "دع عنك هذا واتبعني"، قالها كما فعل المسيح مع بطرس وأخيه، وكما قالها مرقس للخراز، ومن يومها

وكلب السماء يطـاردني، يلهث خلفي كلما وضعـت رأسي ونمت، كنت أهـرول على الحصى كما لـو أن كل جيوش الأرضـ تطاردني، وحين رأيـت علي البعد القباب البيضاء لهذا الديـر كرهت أن أدخل على الله في بيته حامـلاً سلاحي، فحفرت له أسفل الهضبـة ودفنته بيدي، لكن ها هم الآن يدفعونني بكل ما يملكون كي أعود فأخرجه من قبره.

أفـاق أنطونيوس من ثـورة غضبه ليطالع الذهول الـذي ارتسم على وجه دميانة، بينما لم يستطع الكاتب أن يرفع وجهه عن الورق، ظنًّا منه أن ما يقوله أنطونيوس اعترافات مهمة ستلومه المحققة على عدم تسجيلها، وحين طال الصمت في الغرفة رفع الكاتب عينه خلسة ليعرف ماذا حدث.

أدرك أنطونيوسـ أن غضبه جعله يعترف بالأمر الذي أخفاه لسنوات طويلـة في صـدره، ظلت عينـاه تتنقلان ما بـين الأيقونـات المعلقة على الجـدران وما بـين بلاط الغرفة الكبـير ذي اللونين الأبيضـ والأسود، ودميانة لا تعـرف ماذا ينبغي عليها حيال المفاجـأة التي لم تتوقعها، رغم أنها لا تؤثر في سير التحقيق، ولا تدين أنطونيوس في شيء، إلا أن الأمر كان مفاجـأة أشعرت الجميع بالحرج، ظلا ينظران لبعضهما في حالة من الصمت والوجوم، حتى طرق الساعي باب الغرفة سائلاً دميانة إن كانت تريـد شيئًا، بدا لها كما لـو أنه رسول السماء الذي جـاء لينهي ذلك اليوم العصيـب، فطلبت منــه أن يحضر ماء وبعض القهـوة، وأومأت برأسها تجاه رفيقيها في الغرفة مقترحة تأجيـل التحقيق ليوم آخر، فأغلق الكاتب دفتره متنهدًا، بينما هز أنطونيوس رأسه وخرج دون أن ينظر لأحد.

-١٢-

قضـــى أنطونيوس عــدة سنوات من حياته فيما اعتــاد أهل القرى على تسميتــه بالجبل، لم يكن جبلاً بالمعنى المعروف، لكنه منطقة صحراوية في ظهــر مجموعة من القرى، تتخللها تِباب صغيرة من الرمل وقطعة كبيرة مــن الصخر، بدا كما لــو أنها قطعة اجتزأت من طود عظيــم، أوى إليها أنطونيوســ باحثًا عن النوم المحصن بالخــوف، خوفه من الناس وخوف الناســ منه، وظــل لسنوات ضاربًــا هذا الحصار حــول نفسه حتى جاءه إيمانويل، وجده واقفًا على رأسه طالبًا منه بعض الماء، انتفض أنطونيوس مــن نومه واضعًا يده علــى زناد بندقيته، لكن إيمانويــل المبتسم هز رأسه ليخبره أنه عابر سبيل ولا يريد شيئًا، بدا إيمانويل في وقفته وبزيه البسيط أشبه ما يكون بالمسيح الذي رآه أنطونيوس في منامه منذ أيام فاردًا ذراعيه على الجبل، تراخت أعضاؤه ووضع سلاحه إلى جانبه مبتسمًا:

- انت راهب؟

هز إيمانويل رأسه بنفس الابتسامة المطمئنة:

- أنا مجرد راهب، يبحث عن مأوى من الجوع والعطش.

فهم أنطونيوس أن محدثه يبحث عن مكان يستريح فيه، وأنه منهك من الداخل أكــثر من الخارج، أحضر له أنطونيوس الماء والطعام واستضافه كملك هبط إلى مغارته، وحين حل الظلام وارتفع القمر في السماء استأذنه في الذهاب إلى عمل بسيط، لكن إيمانويل ابتسم:

- لم يعد لك عمل.

رفع أنطونيوس حاجبيه:

- هل تعرف عملي؟

– نعم. . أنت قاطع طريق، وفي بعض الأحيان قاتل مأجور، من يدفع لك تقتل له، والمحصلة لديك أن رصاصة تخرج من بندقية لتسكن في تجويف صدر.

رغب أنطونيوس في مجاراة ضيفه في لغته الحكيمة، محاولاً أن يخبره أنه ليس مجرد قاطع طريق، وأنه كان من الممكن أن يكون قسًّا في كنيسة لولا ما حدث له في قريته:

– المسيح لم يتحدث عن الصدور، لكنه شغلنا بالآلام، المسيح نفسه مات مصلوبًا، فما العيب في أن أكون الملاك الذي سخَّره الرب لتنفيذ حكمته في البشر.

– العيب أنك اخترت أسوأ الأدوار على المسرح وقررت أن تؤديه، كان يمكنك أن تختار دورًا آخر.

– كأن أصبح أميرًا أو ملكًا!

– كأن تكون قلبًا ممتلئًا بالخير، وليس قبضة ينفذ الإله من خلالها ما يشاء.

– هل تعتقد أن بإمكاننا أن نعترض على مشيئته؟

– السؤال هو: هل تعتقد أننا بما نفعل ننفذ حكمة الرب؟

شعر أنطونيوس أن هذه المحاورة ليس لها هدف سوى أن تضيع عليه الوقت، لكن ثمة ضحية تنتظره من أجل أن يُسكن صدرها رصاصة أوشك وقتها على النفاد، فقد عبر القمر نصف مداره، وعما قليل سوف يختفي من الأفق، ترك إيمانويل منتظرًا إجابة عن سؤاله ونزل مهرولاً من المغارة التي تحتويها الصخرة الواقفة على هوامش القرى كضلفة باب موارب، لكن صوت إيمانويل لاحقه:

– لا عمل لك الليلة. . فالذبيحة ماتت دون احتياج لرصاصتك.

كان شيخ البلد هو المطلوب إراحته في تلك الليلة، هكذا دفع الحاج حسن المسكوتي لأنطونيوس القبطي كي يقتل شيخ البلد، لا لشيء سوى

أن الأخـير رفض أن تتزوج ابنته مـن حامد المسكوتي الذي أمضى ثلاثة أربـاع عمره على مقهى النفراوي، واصفًـا إياه بأنه "صايع" ولا يعرف غير معاكسـة النسوان، اعتبر المسكوتي ذلك إهانـة شخصية له، إهانة لا يمحوها سوى الدم، فأرسل إلى أحد الرجال الذين اشتهروا بأنهم أصدقاء أنطونيوس، طالبًا منه التنفيذ مقابل ثلاثة آلاف، نصفها قبل القتل ونصفها بعده، فهز الرجل رأسه وانتظر الوقت المناسب لملاقاة أنطونيوس، وكان من المفترض أن يتم التنفيذ الليلة.

حمـل أنطونيوس بندقيته وتسلـل مع الظلام وحنياتـه تحت الجدران وأسفل الأشجار وفي باطن الترع والمساقي حتى وصل إلى بيت شيخ البلد، ولم يكـد يتسلق الجدران ليصـل إلى السطوح حتى سمع عويلاً متزايدًا في ظلمـة الليل، عويل أطلقته ابنة شيـخ البلد التي وجدته ممددًا على المصطبة الكبيرة بلا حراك ولا نفس، لزم أنطونيوس مكانه وهو يرى تدفق الناس إلى بيـت الفقيد، ولم تمضِـ ساعة حتى وجد صوانًا قـد نصب بينما وقف حسـن المسكوتي في مقدمتـه لاستقبال الجموع التي توافـدت عقب سماع الخـبر، فمـا كان من أنطونيوس سـوى أن تسلل من صومعـة القمح إلى درجات السلم عابرًا باحـة الدار من بين النسوة النائحات حتى وصل إلى طابـور العزاء، ليكشف عن وجهه لحسن المسكوتي، مقدمًا له ولبقية أبناء الفقيد المواساة، ثم ساحبًا المسكوتي من يده لينتحي به مطالبًا ببقية الاتفاق، فمـد المسكوتي يده إلى جيبـه مخرجًا ما معه من مال طالبًـا عدم فضحه، وبينمـا مـال أنطونيوسـ ببندقيته إلى حقـول الذرة الخضـراء بشواشيها البيضـاء ليختفي كنقطة في بحر مـن الظلام، أخذ الأهـالي يضربون كفًّا بكف متسائلين عـن علاقة المسكوتي بأنطونيوس وبموت شيخ البلد في هذا الوقت من الليل.

-١٣-

أصبــح قسطنطين العظيم كلمــة السر بين الرهبــان في الصحراء، فقد أصدر قــراره بالتسامح بين الجميع، وقبول المسيحيــة دينًا رسميًّا للبلاد، هنالــك بدا للملاح أنه قد وصل بمن معه إلى بــر الأمان، وأنه ليس أمامه ســوى القليــل لأن يغادرهم إلى الأمجــاد السماوية، فجمــع من في الدير وطالبهــم أن يختاروا واحدًا من بينهم ليكون رئيسًا عليهم، فجلسوا يومين يتشــاورون حتى انتهــوا إلى اختيار تلميذه ديمتريوســ، فوعظهم طويلاً بالسمع والطاعة له، ثم رسمه قسًّا لهم، ولقبه بديمتريوس الصغير، تيمنًا بالبطريرك ديمتريوس الكرَّام.

لم يكــن ديمتريوس عــبرَ عامه الثلاثين حــين تحمل مسئوليــة الدير، كانــت فترة هادئة لكنها حملت أوجــاع الماضي، فمع اضطهاد دقلديانوس للمسيحيــين لم يجد بطرســ الأول أمامه سوى أن يفر بنفســه إلى أنطاكيا وبــلاد الرفديــن، فتغيب عن كرسيــه نحو ثلاث سنــوات، وغيَّب الموت وظلام السجون كثيرًا من الأساقفة والقساوسة، مما جعل ميليتوس أسقف ليكوبوليســ في الجنوب ينزل الإسكندرية ويقوم بترسيم أساقفة وقساوسة جــدد، وهــو الأمر الذي اعتبره بطرســ تدخلاً في أسقفيتــه، فأرسل من منفاه إلى ميليتوس رافضًا ما يفعله، ومحذرًا من التمادي فيه، لكن الأخير لم يهتم، مما جعل بطرســ يصدر قراره بحرمان ميليتوس، فرد الأخير أيضًــا بحرمان بطرس، معتبرًا أنه لا يصلح لأبوة الكنيسة الروحية، لأنه فضــل الفرار بنفسه مــن أمام الرومان على الشهــادة والتضحية في سبيل المسيح.

سرعان مــا لقيت دعوة ميليتوســ وآراءه قبولاً لــدى أساقفة الجنوب ورهبــان الأديرة في الإسقيط والقلمون، وغير كثير من الرهبان ولاءهم

مـن بطرسـ إلى ميليتوسـ، وكان من بينهـم آريوس الـذي كان تلميذًا لبطرس ومقربًا منه.

نشط ميليتوس في زيارة الأديـرة والكنائس، داعيًا الرهبان لمؤازرته والدخول في معيَّته، كانت هضبة الملاح من بين الأماكن التي حرص على زيارتها برفقة بعض مـن أساقفته، فأمضى ليلة كاملة في نقاش طويل مع جبرائيـل الملاح، طالبًا منه أن ينضم إلى دعوته هو ورجاله، لكن الأخير رأى أن ذلـك لا يفيـد إلا الرومـان في حربهـم على المسيحيـة، ورفض أن يكـون جزءًا من الصـراع، وظل يتابع أصـداء الشقاق بين ميليتوس وبطرسـ دون أن ينحـاز لأي منهمـا، ومات وهو يوصـي ديمتريوس الصغير بألا يخرج عن الكنيسة الأم، كي لا تتوه أرواح المؤمنين في فيافي الصحراء.

كان ديمتريوسـ طالبًـا في مدرسـة الإسكندريـة حـين شـده الجـدل بـين الأديان والمقارنـة بينها، وجد فكـرة المسيح أنقى مـن فكرة زيوس وسيرابيسـ، وجد نفسه ينحاز بعـد جدل سوفسطائـي طويل إلى دخول الكنيسـة عـن المعبد، رغم أن كلا الأمرين بدا في عينيـه بلا فرق، إلا أنه توقـع أن الكنيسة في حاجة إلى رجل يمكنه أن يوظف فكره لصالحها، أما المعبد فلا يحتاج إلا إلى رجل يحمل عنه أسراره ويمضي، هكذا خرج من السيرابيوم ليدخل الكنيسة متطلعًا إلى صورة المسيح، ولم تمض أيام حتى قبض عليـه الجنود، فما كان منه سوى أن انتظر خروجه من السجن كي يودع والديه، ثم خرج إلى الصحراء بحثًا عن الله.

في البـدء أخذتـه قدماه إلى وادي النطـرون فأقام عامًـا بين رهبانه، لكنـه سرعان ما شعر بضرورة الذهاب أعمق من ذلك، فاتخذ طريقه إلى الجنـوب عبر ترحال طويـل ما بين القرى الكبـيرة والصغيرة، وما بين الحصـون والمدن، تارة يعبر ككاهن في معبـد مصري حين يصبح المكان تابعًا للمصريين، وتارة يوناني يجيد لغة المصريين حين يصبح المكان تابعًا للرومـان، وحين يخلو إلى نفسـه يتطلع إلى الغيم محادثًـا النجوم متفكرًا في شـأن الله وخلقه، وبعد شهور طويلـة انتهى به المطاف إلى دير الملاح علـى تلك الهضبة الناتئة من جبال القلزم، أعجبه المكان بضيقه واتساعه،

بسكونـــه وضجيج الوافديــن إليه، أعجبته الأسطــورة وجاء كغيره يبحث عــن اللبؤة وأشبالها، لم يجد أيًّــا منهم هناك، فقط كان الملاح وحده يرشد الناس لمعرفة الله بالقلب والعقل، فطلب منه أن يكون تلميذه فوافق.

كان أول شخصــ يطلــب صراحة من الملاح أن يكــون تلميذًا له، ولم يكــن الملاح بأي حال يرى أنه معلم ولديه ما ينقله للناس، فقط كان متعبدًا صادقًا، قلبه، على مدار أربعــين عامًا قضاها بين هذه الصخور، لم يكن يعــرف إلا المحبة، كان موقنًا أنه يرى الله في الناس، وليس في الأماكن، اللــه هو نحن، ومــن أراده فلينظر إلى أخيه، هكــذا كان يقول ممتنعًا عن الجــدل، سامحًا بــأن يكون مكانــه مأوى للطيــور والحيوانــات والبشر ومختلــف الأفــكار والطموحات، شرطــه الوحيــد: لا أذى ولا ترهيب. لم يكــن أحد يســأل عن طعام ولا يجــده، أو ماء ولا يجــده، لم يكن أحد يدخل في ظلال الدير ولا يشعر بالأمان، الجميع كان يأتنس بمحبة الملاح وسطوته على القلوب، لذا حين مات شعر الكثيرون باليتم، وأنه لا حاجة لهم بالمكان.

جمــع ديمتريوس من حوله الشيــوخ مستفيدًا مــن حكمتهم وزهدهم، ووضع خططه للمستقبل على كاهل الشباب، مستطلعًا ما يجري حوله من جدل بين أنصار بطرس وأنصار ميليتوس، ورأى أن كثيرًا من الوثنيين الذيــن احتموا بالمكان في أيام الملاح يريــدون العودة إلى قراهم وقبائلهم، أغلبهــم كان يدين بديانات المصريــين، قلة هي التي كانــت تدين بديانات الرومان والإغريق، جميعهم جــاءوا هربًا من الجنود وطغيانهم، وكان السلام الذي وضعه قسطنطين قد شجع الكثيرين على الخروج من القلالي والعــودة إلى الحياة في القرى والمدن، حيــث الحقول والبيوت والمزارع والمتاجــر التي خلفوها وراءهم، هز ديمتريوس رأسه باسطًا يديه لمن يريد الخروج، مؤكدًا أن الدير بيته في أي وقت، ولا بدَّ أن يأتي لزيارة إخوته من النساك، كان الجميع يمتن لسماحته، موقنًا أنه سيكون خير خلف لخير سلف.

لم تمضِ أيام حتى مسح ديمتريوس بالزيت المقدس على رأس ثلاثة من الشيوخ، راسمًا إياهم قساوسة في معيته، ثم طلب من الشباب أن يختاروا رئيسين لهم، كانوا جميعًا لم يتخطوا العقد الثاني من العمر، لكن الحماس كان يشتعل في صدورهم، خاصة أنهم قرروا أن يهبوا حياتهم مبكرًا للدير، وكان على ديمتريوس أن يفكر في كيفية الإبقاء عليهم، فلو تركوا المكان فسوف تتحول الحياة إلى جحيم كامل، ومن ثم فلا بدَّ من خلق قضية تخصهم، لا بدَّ من جعلهم في مركز القيادة. هكذا فكر ديمتريوس وهو يختار نائبين عنه، في النهاية توصل إلى شابين أحدهما قوي البنية يدعى أبانوب، قادم من معبد حورس في الجنوب، والثاني يوناني الأصل اختلطت دماؤه بدماء المصريين، ويدعى رفائيل. قال لهما إنه لا يستطيع أن يدير الدير وحده، فلديه مهام روحية عديدة، والمكان في حاجة لأن يكون مستعدًّا لاستقبال الباحثين عن الأمان.

قال ديمتريوس أن المؤمنين يصلون في الدير حسبما اتفق، فلا كنيسة تجمعهم ولا مذبح يؤدون عليه قرابينهم، الكل كان يعتمد على قداسة الأب جبرائيل وصلواته من أجلهم، لكن أحدًا لم يفكر فيما ينبغي عليه بعدما تنيح الملاح وانقطعت صلواته عن المكان، لذا لا بدَّ من كنيسة تضم جثمانه وعظام لبؤته وأشبالها، كنيسة يمكننا أن نتقرب إلى الرب بأعطياتنا على مذبحها، ونتناول فيها معًا خبز المسيح وخمره، ونقيم صلواتنا وأناشيدنا بين جدرانها، متأملين شروح الآباء والقديسين لكتابنا المقدس ورسائل الرسل.

وجودنا في هذا المكان يلزمه أمران، الأول يحتاج إلى رجال أشداء يسوون الهضبة على هيئة بساط ناعم، وينتزعون الأحجار من القلزم لقيموا بها قلالا للعجائز كي تحميهم من البرد والمطر، بحاجة إلى نجارين وحدادين وحراس يمنحون المكان أرواحهم وقلوبهم، وهذا الأمر ليس له سوى أبانوب ومن يختارهم معه.

أما الثاني فهو أكثر صعوبة من ذلك، لأننا في حاجة لمن يدرس الفلسفة والعلوم كي نكون قبلة للراغبين في المعرفة والدين، قبلة للباحثين عن

أسـرار الخلـق والوجود، نريـد أن يكون لنـا في ديرنا أساتـذة وفلاسفة كهؤلاء الذين في المدينة العظيمة، ولهذه المهمة اختار رفائيل السكندري.

كانـت السنـوات التـي قضاهـا ديمتريوسـ في مدرسـة الميوزيـوم بالإسكندريـة قد أثـرت على طريقة تفكـيره، فعشـق الفلسفة ورغب في المـزج بينها وبين قراءة التفاسير، وهو ما أغـراه أن يختار تلميذه رفائيل كي يذهـب إلى الإسكندرية التي أتى منها، ليدرسـ في مدرستها الشهيرة علـوم المنطق والطـب والفلسفة والفلك، ويحـاور أساتذتها بالمنطق الذي يدرسونـه، كي يكون رافدًا من نبعهم الكبـير، وكي يمزج بدوره رؤية اللـه برؤية الفلاسفـة والعلماء، فالكون واسع ولا تحكمـه كلمة واحدة أو أخيرة.

-١٤-

كانت الساعة قد صارت العاشرة صباحًا حين قطعت خطى الكاتب المسافة التي تفصل بين مخزن الكتب والمخطوطات الذي يقيم فيه وبين مقرِّ العيادة التي يعمل بها أنطونيوس الآن، رأى بشرًا كثيرين ينتظرون أن يناديهم الشماس أبانوب، فقد أبلغوه باسم المريض أو المريضة وجلسوا ينتظرون أدوارهم، رأى مسلمين جاءوا من أسيوط وسوهاج وبعضهم جاء من السويس والإسماعيلية بحثًا عن الشفاء على يد القسيس أنطونيوس، لا يعلم كيف انتشرت سمعته بهذا الشكل بين الجميع حتى وصلت إلى تلك الأماكن البعيدة، رأي عميان وبرصان ومشلولين، رأي باحثات عن الحمل وباحثين عن الخلاص من المسِّ، أبلغ اسمه لأبانوب كغيره من الراغبين في العلاج، وجلس ينصت إلى هموم الناس ومشكلاتهم، كان الجميع موقنًا بقدرة أنطونيوس على تخليصهم من الآلام، ظل ينصت إلى الحكايات التي تتناسل من مخيلاتهم وأفواههم حتى عبرت الظهيرة ولم يبق سوى نفر قليل، حينها ذهب إلى الشماس طالبًا منه أن يؤجل دوره ليكون الأخير، هز الرجل رأسه ونادى من بعده.

كان الشماس يسأل الداخل عن مرضه أو سبب مجيئه، ثم يدخل المريض وأهله على أنطونيوس، ذلك الذي يقف إلى جانب سرير ينام عليه المريض، لا ليفحصه ولكن ليمسح على مكان ألمه بالزيت المقدس، ثم يتمتم بما يتناسب مع حالته من آيات الكتاب المقدس، ويمنحه أيًّا من الأدوية التي يتوقع أن تساعد على شفائه إن توافرت لديه، حين جاء دور الكاتب سأله أبانوب عما يشتكي منه، فأجابه بأنه لا يشتكي إلا من أبانوب ذاته، فرفع الأخير حاجبه معترضًا، لكن الكاتب عاجله:

- أوريجانوس أدمانتيوس.

من جديد فتح أبانوب فمه معبرًا عن عدم الفهم:

– هذا مرض جديد.

هكـذا أوضح له الكاتب، فكتب الشماس اسـم الكاتب وما يشتكي منه، ومنحـه ورقـة ليدخل بها علـى أنطونيوس، وما إن انتهـي الأخير من المريضة التي أمامه حتى استدار ليجد الكاتب في مواجهته:

– أما زلت تعاني الإسهال؟

هكذا تساءل أنطونيوس مبتسمًا وكأنه يقطع على الكاتب طريق التفكير في الكـذب عليه، لكن الأخير هز رأسه منـاولاً إياه ورقة الشماس، حين نظر فيهـا قرأ اسم القس الذي تم الزج برسائله لتنشر ضمن سيرة القديس أنطونيوس، ويتم الآن التحقيق معـه بشأنها، هـز أنطونيوس رأسه في هدوء، طالبًا من أبانوب أن يغلق العيادة ويذهب ليلحق بقدَّاس الخامسة، ثم اصطحب الكاتب وخرجا من المكان.

ضحك أنطونيوس قائلاً:

– وما يشغلك بأوريجانوس؟

– أظنني قرأت عنه.

كان قرص الشمس قد انزوى بعيدًا في أقصى جنبات العالم، حتى أنه بـدا في أسفل السفح بالنسبة للهضبة التي بني عليها الدير، تأمل أنطونيوس الحضـور المتتالي للقبـاب بطول الهضبة، وتيقـن أن الملاح لم يكن مجرد مؤمـن هـرب من يد الطغـاة إلى هذه الهضبـة، لكنه أتى لأمـر أكبر من ذلك، ولو لم يكن ثمة مـلاك يقود خطواته في ظلمات الفيافي لقضت عليه الضواري، هز رأسه متمنيًا أن تكون بعض من بركة الملاح في معونته، وحـاول أن يطمئن نفسه أن ذلك سيحدث ببركة السيد المسيح، فوضع يده علـى صدره كمـا لو أنه يمسحها مـن التراب والعـرق في ثيابه الكهنوتي الأسـود، رغم أنـه في الواقع كان يضم الصليـب المتأرجح على بطنه إلى شرايـين قلبـه، ولم يُنزل عينيه عن قرص الشمس المعلق مـا بين السفح والأفـق البعيد في الغرب، فظل شـاردًا ببصره في السحابات الخفيفة التي

في طريقهـا لأن تمر من أمامه، لمح شيئا يتحرك فيها، بدا كما لو أنه طائر عجـوز يضرب جناحيه بقوة في الهواء من خلـف الغمام، حدق فيه حتى رآه علـى هيئة سيدة تحمل طفلاً بيد وتلوح له بالأخرى، بدا الأمر كما لو أنه أيقونة سماوية للعذارء، وأنها الملاك الحارس للهضبة ومن عليها، هز رأسـه موقنًـا أن السماء لن تتركه في محنته، ثم عـاد فوضع ذراعه على كتف الكاتب قائلاً:

– سيفوتنا القداس.

لم يكـن أنطونيوس يعلـم أن دميانة مهتمة به مثلما هـو مهتم بها، لكن لقاءه مع الكاتب ألح له بذلك، ففي الطريق إلى الكنيسة التي أقامها القديس ديمتريوسـس، حيث دفـن جبرائيل الملاح إلى جانب لبؤتـه وأشبالها، قال ملاك، الذي لم يعرف له مهنـة غير الكتب وكتابة التحقيقات، إن دميانة في المرة الأخيرة سألته إن كان يصدق أن أنطونيوس قاتل وقاطع طريق؟

أدرك أنطونيوسـس مـن الجملة مدى اهتمامها به، حتـى أنها لا تصدق مـا اعترف به على نفسه، لكن شعورًا انتابه بـأن هذا الأمر بات مشكوكًا فيـه، فبعدما كان في عينيها الراهب الـذي رأى المسيح والسيدة العذراء، أصبـح الرجل الذي اعترف بكونه قاتـلاً وقاطع طريق، وعمَّا قليل يسير التحقيـق في اتجاه اتهامه بالزندقة ونشـر كتب المهرطقين. بدا له أنه خسر كل أسهمه، وأن الأمر ليس كما يحاول الكاتب أن يبرزه.

مـا إن اقتربا مـن الكنيسة حتى طلـب من أنطونيوسـس أن ينفصلا عن بعضهمـا، فثمة عيون تترصد الداخل والخارج ولا ينبغي لهما أن يتحركا معًا، هز أنطونيوس رأسه متمتمًا بالموافقة، لكنه استدرك سائلاً عن المكان الـذي يجده فيه، فأشار بطرف إصبعه نحو مخزن المخطوطات والكتب، ثم هم الخطى ليعبر من الباب الخلفي تاركًا أنطونيوس يتجه بطوله الفارع نحو البـاب الكبير، حيث يمر من أسفل الأقواسـس الحجرية المتوالية، تلك التي بناها أبانوب على هيئة عتبات لأقبية حجرية مرفوعة على صفين من الأعمـدة الطويلة ذات الرءوسـس الكبيرة، كانت رءوسهـا بطبيعة الحال على هيئة أشبال صغيرة للبؤة كبيرة تنام على مدخل المذبح القابع في نهاية

ممر الأعمدة، حيث لا يوجد في نهاية الكنيسة العجوز سوى المذبح وقدس الأقداس المشتمل على قبرين أحدهما لجبرائيل الملاح والثاني لما تبقى من عظام اللبؤة وأبنائها.

حرص أنطونيوس على أن يبدي لا مبالاته بوجه صديقه يوساب المتجه نحوه بابتسامة هادئة.

- مساء الخير يا أنطونيوس.

هكذا اعترض طريقه ببرود واضح وهو يلقي بالتحية عليه، ولم يجد أنطونيوس أمامه سوى أن يتوقف ليجيبه بنفس الهدوء إلى أن يفهم ما الذي يجري من حوله.

- وأنت من أهل الخير.

- سمعت أن قضيتك أخذت منحًى غريبًا، هل نشرت حقًّا كتبًا للمهرطقين؟

- لقد جئت لحضور القداس.

- ألا تريد الحديث معي؟

نظر إليه أنطونيوس مستنكرًا أن يسأله يوساب عن نيته وما بها، لكن الآخر ابتسم مردفًا:

- على أية حال، أحببت أن أبلغك أنني صرت كاهن الاعتراف.

للحظة شعر أنطونيوس أن يوساب وجَّه إليه صفعة لم يتوقعها، وأنه صار محاصرًا من كل الجهات، فكل الرجال الذين يثق بهم في الدير يتوارون، لتظهر بدلاً منهم وجوه لم يكن يريدها، ازدرد ريقه قائلاً:

- والأب باخوميوس؟

أطلق يوساب ضحكة من النوع الخبيث:

- صار عجوزًا، فقرر الأب جورج معاونته على التفرغ لأداء الصلوات في قلايته.

بدا جليًّا أن يوساب أراد أن يوضح لأنطونيوس رسالة لم يرد أن ينتبه إليهـا منذ تنيَّح الأب إيمانويـل، فقد سقط الدير في حجره هو قبل أن يسقط في يد جورج المنحنـي، وأنه أصبح المتحكم في شئونه، وليس على الجميع سوى أن يذعنـوا له كي ينجوا من شروره، لكـن أنطونيوس الذي شعر بانقباضـ صـدره لم يستطع إعلان قبولـه أو رفضه للرسالـة، وآثر أن يستدير خارجًا من الكنيسة، فلاحقته كلمات يوساب:

- ألن تشارك في القداس؟

كان صـوت الكلب السماوي قد بدأ يـرن في أذنه، بينما أقدامه الكبيرة قد أخذت تضرب الأرضـ بقوة متصاعدة في اتجاه أنطونيوس، فاستدار متجهًا إلى الشارع دون أن يلتفت ليوساب وكلماته.

-١٥-

رسائل أوريجانوس (١)

أخــي وتلميذي وصديقــي ديونسيوس، بطريرك كنيســة الإسكندرية الجليل، لك السلام على الأرضــ وفي ملكوت السماء العظيم، أرسل لك الآن يــا صديقــي لأنني لا أعرف مــا الذي يمكنني فعله بالأيــام المتبقة من حياتــي، أقول هذا وأنــا أوريجانوس بن ليونيدســ السكندري المعروف بأدامانتيوســ أو الرجل الفولاذي، فقــد عشت حياة طويلة حافلة بالمتاعب والآلام، كنــت واحدًا في مواجهــة الجميع، ولم تتبعني ســوى قلة قليلة، لكــن الغالبية لعنتنــي، ورأوا أنني خطر على كنيستهــم أكثر من الشيطان ذاتــه، رغم أنني لم أقدم سوى تفسيراتي الداعمــة لوجود الكنيسة وبقائها علــى الأرض، إلى أبعد مما تظن مخيلاتهــم القاصرة، وعزائي الآن أن المسيــح ذاته لاقى نفس آلامي، وكم كنت أشتــاق لأن أنال نفس المصير، كم كنت أحلم أن يكون خلاصي على نفس الصليب، أو تحت نير السيوف والحــراب، فكم حلمت بالشهــادة، وكم كتبت في حــث الآخرين عليها، حتى أنني جعلــت قمة الخلاص فيها، وقلت إن ملكــوت السماء يُفتح أولاً للشهــداء، وأن المسيح يقف في استقبالهــم، لأنهم ساروا على نفس دربه، وشربوا من نفس كأسه.

أنــا الآن أجلس وحدي في صور بفلسطــين، أجلس بعيدًا عن وطني، منبوذًا من قبل أساقفتــه ورهبانه، لكنني قريب من الرب وبقعته الطاهرة في بيــت لحــم، وعزائــي أن كنيسته تقبلت أفــكاري، ومــا زال رهبانها وقساوستها يفردون ظلال أجنحتهم لأستريح تحتها من الآلام، فقد رأيت وأنــا الشيخ العجوز في ظلمــات السجن عذابات لم ينلهــا عتاة المجرمين، وحده المسيح كان ينظر لي مبتسمًا من سقف الحفرة التي ألقيت فيها، طالبًا

منـي التشجع، فقـد نلت من المكان والمكانة الكثـير، كان يفرد يديه لأرى باتسـاع الأفق قصورًا وجنانًـا وأنهارًا قائلاً: كلها لـك، وأنا أهتف: أمن أجلي هذا؟ وهو يشير إلى السلاسل والقيود قائلاً: من أجل هذا.

كنت كلما رأيت الجلاد أهتـف فيه بأن يشد قيوده علي، ويضرب بكل قوتـه على ضلوعي، غير عابئ بجروحي وقيحـي وأورامي، كنت أقبِّل يديه باكيًا لا من أجل أن يتوقف عن فعله ولكن من أجل مزيد من الآلام، أطلب منـه أن يلقي علي بشوكـه، أن يحمي أسياخـه ويضربني بها، أن يجرجـرني على الزجاج والحصى المسنن، حتى ظنَّ الجميع أنني جُننت، لكـن بعضهم كان يراني ذلك الفولاذي الذي يختبر قوتهم في مواجهة قوة احتماله، كانوا يزيدونني تعذيبًا وأزيدهم ابتسامًا، وكلما زدت نزفًا رأيت الرب يلوح لي من سمائه أن هأنت تقترب، هأنت تولد من جديد، وها نحن نجهز مركبك السماوي، فربما تجيئنا في المساء، وربما تجيئنا في الصباح، فانظر بعينك نحو الجنان والأنهار والبيوت والقصور، انظر.. كل ما هنا ينتظر عبورك السامي نحو الأفق الآخر من الملكوت.

كان داكيوس قد تولى حكمـه منذ ثلاثة أعوام، وكانت الإمبراطورية على وشـك الانقسام، فقد تزايد حضورنـا كمسيحيين، ودخل الكثيرون حظيرة الـرب، وشاء المسيح للبشـر أن يؤمنوا، فتوافـدوا على الكنائس والأساقفـة والقساوسـة معلنين إيمانهـم، فخفت الأقدام عـن معابد أبولو والسيرابيـوم وأفروديت، وقلَّت العطايا للكهـان، فضجوا لداكيوس بأن بلادهـم في خطر، وأن سلطته كحام لوجـود الآلهة على الأرض تتقلص كل يـوم لصالح هؤلاء التابعين لنبيٍّ الناصرة، ولا بـدَّ أن يضع حدًّا لهذا المـوج الهـادر، ولأن داكيوس من الأباطرة محـدودي الوعي فقد رأى معاندة الرب في حكم رعيتـه، وأعلن أن على الجميع الركوع للأوثان، ومـن لم يقدم أضحياته علـى مذابحها فإنه يسجن ويعـذب ويذبح، هنالك اشتط رجاله في إعلان حربهم على المؤمنين.

أعـرف يا صديقي ديونسيوس العظيم أنـك منذ توليت كرسي الكرازة بالإسكندريـة خلفًـا لصديقنـا هيراقلاس وأنـت تتمنى علـيَّ أن أعود إلى

بــلادي ، لكنني قضيت أعوامي كلها ما بين الناصرة وأنطاكيا وروما أقدم عظاتي للجميع ، وأنهــى الجميع عن الخلاف والتفكير في الصغائر ، كنت مــا بين كنائســ تدمر والعراق واليمــن والبحرين أقــدم شروحي للكتاب المقدس وأسفــاره وأصحاحاته وآياته ورسائلــه ، كنت أتحاور مع الجميع وأقنــع الجميع بطبيعة الربِّ الإله ، بأنه واحــد ذو أقانيم ثلاثة ، هي الآب والابن والروح القدس ، وأنها لا تنفصل عن بعضها بعضًا ، جميعها أقنوم واحد ، يجتمعــون في مركز واحد ، كنت أضرب لهــم المثل بالشمس التي ينبثــق عنها الشعاع الذي ينبثق عنه الضوء ، فــدون الضوء ما كنا سنرى الشعــاع ولا نشعر به ، ودون الشعاع مــا كنا سنعرف الشمس ولا ندرك وجودهــا ، والعكس يا صديقــي ، دون الشمس مــا كان الشعاع ، ودون الشعــاع ما كان الضوء ، فهل يمكننا فصــل أقنوم عن الآخر ، وهل يمكننا القول بأن أيًّا منهم وحده يمكنه أن يتحقق حضوره ، هذه وجوه إله واحد ، جميعها تتحد في مركز واحد ، جميعها الإله .

كنت أبشر في كل مكان بما أرسلنا المسيح من أجله ، أبشر بدينونة الرب وملكوتــه وخيراتــه وسلامه الذي يتنزَّل على الأرضــ في كل مكان ، لم أكــن أصطحب معي أكثر مــن صديقي أمبروسيوســ أو راهب يساعدني في حمــل مخلاتــي الصغيرة ، فلا أغراض لي في هــذه الدنيا ، ولا أهداف لي ســوى الوصول إلى الملكوت السماوي الواســع البهي ، كنا ندخل على الملــوك والأساقفة بنفس هيئتنا البسيطة ، ثيابنا المغبرة ووجوهنا التي علاها التراب والرمــل والظمأ والتعــب ، نقطع مئات الهكتــارات على مدقات في الصحــراء ، لا نحمــل جرة مــاء معنــا ، ولا كسرة خبز تســد رمقنا ، كان الرفقــاء يتغــيرون في الطريق ، ووحدي أكمــل مسيرتي نحو أعمق أعماق الصحراء ، هذه المبهــرة المضيئة كأنها ملكوت الله ، لم يكن أي من الشمامسة يعي ما الذي نفعله ، ولم تكن أي الضواري تقترب من مسيرتنا ولا مجلسنــا ، كانت تنظرنا من بعيــد كأنها تحرس ركبنا المكون مني ومن شماســي ومن بغلينا الصغيرين ، هكذا أمضيــت سنوات يا صديقي ، سعيدًا بأننــي رغم كل ما مر بي كنت الأقــوى ، وأن الأيام أثبتت صحة إيماني ،

وأن تلامذتي صاروا في كل مكان يبشرون بما كنت أحلم به، وما تركته من أفكار في كتبي ورسائلي.

كنت كلما رأيت شخصين يتجادلان حول ما طرحته من آراء أتعجب من قدرة الأفكار على التنقل أكثر من أصحابها، لم أكن أتدخل في حوار طالما ليس مطلوبًا مني التدخل، فالفكرة وحدها قادرة على محاورة غيرها، لكن على أصحاب الفكر أن يعدوا نفسهم للاستشهاد، وأن يوقنوا أن الشهادة هي أعلى المراتب التي ينالها المؤمن، لأن الرب نفسه لم يجد أفضل منها ليضع نفسه في موضعها، فطلبها لنفسه قبل أن يطلبها لمؤمنيه، فليجهز الجميع نفسه للشهادة على يد أعدائه في حماية دينه، فمع المسيح ذلك أفضل.

-١٦-

كانــت مئات الأسئلة تجتــاح دميانة عن كيف خدعهــا إحساسها بالبشر فــرأت قاطع الطريــق في صورة ملاكٍ حارســ، كان الجنون يكاد يفتك بهــا. نهضت مــن سريرها، أجرت عــددًا من الاتصــالات بزملاء لها، أكدت للبعضــ أنها ستحضر قداس الأحد في الكنيســة الأم، وأجَّلت عددًا من المواعيد الأخرى لانشغالها في قضية معها، وشردت بذهنها في القديسة دميانــة، تلــك التي طالما استمعــت في عظات الأحد عــن صبرها وتحملها العــذاب في سبيل المسيــح، متسائلة عن حجم الآلام التــي يمكن لجسد فتاة صغــيرة أن يتحمله، وما الــذي جنته من عذابها، كانــت دميانة للحظات تشك في كل مــا يقوله القساوسة، وتشعر أنها أساطــير اعتادوا ترديدها، وأفنــوا مخيَّلاتهــم في صياغاتها على هذا النحــو الدرامي، كانت تنظر في عــين الجالسين على كراسيهم أمام الراعــي باكين، مستحضرين كل آلام الجســد الرقيق في أذهانهــم، كما لو أنهم يعيشون نفســ حالة التعذيب من جديد، يعيشون نفس الآلام، ونفس الشعور المتأرجح ما بين الوجع واللذة بالوجع، كانت دميانة تقول لنفسهــا إن ثمة مازوخية في النفس البشرية، وإن هــذه الأساطير ليست سوى حيلة ابتكرها العقل ليشبع رغبة الذات في تعذيب نفسها.

مــا كان لدميانــة أن تتخيل أنها في يوم ما ستعجــب بقس، وستراودها صورتــه في منامهــا كل ليلــة، ويطاردهــا طيفــه في بيتهــا وعملها وبين أصدقائها، كانت ترى نفسها علمانية لا يمكن لخرافات الوعَّاظ أن تسيطر عليهــا، لكنها من داخلها كانت تعتقد في الملكــوت السماوي، تضع الكتاب المقدس في حقيبتهــا، وعلى المنضدة المجاورة لبــاب شقتها، وتحمل صليبًا

ذهبيًّا صغيرًا على صدرها، وتنشر أيقونات القديسين على حوائط البيت، وتحرص علــى الصيامين الكبير والصغير، والذهاب في الآحاد والأعياد إلى الكنيســة، فكل هــذه مفردات الإيمان الحقيقــي في اعتقادها، فما الذي يجذبها الآن نحو قاطع الطريق الذي أصبح قسًّا؟!

كانــت قد نشأت في مدرسة للراهبات، لكنها التحقت في تعليمها الثانوي بالتعليــم العــام، وسرعان ما التحقت بكلية الحقــوق، فقد أصرت والدتها تريزا علــى ذلك، وما إن حصلت على الليسانــس حتى أخذتها تريزا من يدها وذهبت بها لمكتب سعد الله خليل للمحاماة، صديق والدها وزميله، لم تطلــب منه سوى أن تكمل دميانة مســيرة والدها من خلال مكتبه، فوافق الرجــل وبدأ في تدريبها، لكــن حين ظهر إعلان يطلــب دفعة جديدة من خريجي الحقوق للعمل في النيابة الإدارية جاءتها بالإعلان قائلة:

– ما تقدمي فيه.

وظلــت تلــح عليها حتى تركــت ما لديهــا وأخذت تسعــى في استكمال الأوراق وتقديمهــا، ثم أخذت تنتظر امتحــان القبول حتى نسيت الأمر، وتحولــت عضويتهــا في النقابة من الجدول العــام إلى الجدول الابتدائي، حينها تم تحديد موعد لاختبــار شفاهي، لم تعرف ما الذي أصابها بالتوتر حين علمت بالمقابلــة الشفاهية، وظلت تسأل نفسها عما يمكن أن يختبروها فيــه، في النهايــة أشعلت شمعــة أمام أيقونــة العذراء مطالبــة إياها بنصر الضعفــاء، وحين لمحت أيقونة القديسة دميانة تبتســم لها هدأت أعصابها، ومالت إلى صندوق الشموع والبخور وأشعلت لأجلها قائلة:

– بركاتــك يا قديســة دميانة، أشعــل دستة شمع وأطعــم عشرة فقراء لأجلك.

حين ذهبــت إلى الاختبار شعرت بثقة كبيرة بأدائها، حتى أنها فوجئت بأن أحد المستشارين نهض من مكانه وشد على يدها وكأنه يهنئها، فربطت ذلك كله برضــا القديسة دميانة عنها، كانت في ذلك اليوم مؤمنة أكثر من

أي يــوم آخــر، وعادت تحكــي لأمها عما حــدث، مطالبة إياهــا بإشعال الشمــوعٍ وإطعــام الفقراء العشر كي لا تغضب دميانــة عليها، لكن تريزا التي لم تكــن تمتلك ثمن الشموع قدمت مشيئة الــرب، وربَّتت على كتف ابنتها قائلة:

– أنت مؤمنة، وربنا لن يتركك.

كان عليهــا أن تنتظر نحــو عام كامل قبل أن تظهــر النتيجة، لكنها في كل يــوم يمر كانت تشعر أن نظرات القديســة دميانة ستخرج من أيقونتها لتحرقها في صالة البيت أو غرفة النوم، وباتت تشعر أنها مذنبة ولا تستحق عطــف القديســين عليها، وتأكد لهــا الأمر حين لم تجــد اسمها في كشوف المقبولين، وحين خســر سعد الله خليل قضية كبيرة شعــرت أنها السبب، فعــدم رضا القديسة يطاردها في كل مــا حولها، وزاد الأمر صعوبة حين تحرش بها أحد زملائها في العمل.

كانــت يومها تبحث في غرفة الملفات عــن أوراق قضية قديمة، ودخل يوســف حنا بحجة أنه سيبحث أيضا عن قضيــة أخرى، لم تفكر تجاهه في شيء، وتعاملت معه على أنه غير موجود، وانهمكت في البحث واستخراج ملف من درج الشنن العتيق، رأى يوسف أن الفرصة مواتية لشحن نفسه عاطفيًــا، فتسحب من خلفها مدعيًا أنه يسعــى للمرور إلى الجانب الآخر، وآن عبوره مد يده على ردفها، لكنها تعاملت على أنه خطأ غير مقصود، فتغاضــت عن الأمر والتزمت الصمت، اعتبر يوسف ذلك دعوة للتمادي الصريح، فدفعها نحو الدولاب وضغط جسدها بجسده، وسرعان ما التفت يده لتقبض على ثديها، لكن على غير ما توقع فاجأته دميانة بصراخها، ثم سرعــان ما أهالت عليه الملفات كما لو أنهــا تقذف الشياطين، يومها خرج زملاؤهــا من مكاتبهم وأخــذوا يهدئونها، لكنها كانت قــد دخلت في نوبة مــن البكاء والتشنج، ونزلــت من المكتب ولديها شعــور بأنها تعرَّت أمام الجميع، وأن النجاسة طالت كل ذرة فيها.

ورغــم أن سعد الله خليل طرد يوسف مــن العمل في مكتبه، وأن أمها باعــت كنبة الصالون ومنضدة المطبخ كي تشعــل الشموع للقديسة وتطعم

الفقـراء العشـر، لكنها لم تفلح في طرد شعورها بغضـب القديسين عليها، ولا تطهيرها من فكرة النجاسة التي لحقت بها، وظلت تنظر للرجال على أنهـم طحالب لزجة، ودخلت في نوبـة اكتئاب رفضت خلالها العودة إلى العمل، ولم تخرج منها إلا بعدما وفَّرت لها تريزا فرصة العمل محقِّقة في بعض الكنائس والأديرة.

كانـت تريزا قد شعرت بالذنب تجاه ابنتها، موقنة أن تأخرها في إنجاز نذرهـا للقديسة دميانة كان السبـب في كل ما جرى لها، وظلت أيامًا تفكر في مساعدتها على الخروج مما أصابها، في النهاية فكرت في اللجوء لواحد من أصدقاء زوجها صلاح متري، هؤلاء الأصدقاء القدامى الذين جاءوا إلى هذا البيت وأكلـوا وشربوا فيه مرات عدة، فارتدت ملابس خروجها وذهبـت لواحد منهـم، كان يعمل في دير خارج حـدود العاصمة، يومها استقبلهـا الرجل كسيدة ذات أفضـال عليه، واستمع لهـا بهدوء ومودة، مبديًا حزنه لما تعانيه دميانة، ثم أوضح أن الكنيسة ليس بها إدارات قانونية كي يتم تعيينها فيها، فالتحقيقات دائمًا ما يقوم بها المجلس الملي، لكن بعض رؤسـاء الأديـرة والكنائس يسعون لتحـري الدقة قبـل أن يرفعوا الأمر للمجلـس، فيستعينون بشخص له خبرة في أمـور التحقيق كي يساعدهم، يحيلـون له مذكرة بالمتَّهمين وهو يجلس ليحاصرهـم بأسئلته حتى يتوصل إلى صـورة واضحة ينقلها إليهـم، فيرفع إليهم مذكرة بهـا توصياته التي يحق لرئيس الدير أو الكنيسة أن يأخذ بها أو يرفضها، فهو صاحب السلطة الروحية علـى المكان، وهو الذي يقرر العقوبات الصغيرة: الحرمان من الصلـوات أو التناول، لكن إذا كان الأمر يستحق أكثر من ذلك فلا بدَّ من رفعه للمجلس.

أمضـت دميانة عشر سنـوات من العمل في كنائـس وأديرة قريبة من القاهرة، كانـت تحقق مع من تحال بشأنهم مذكـرات اتهام لها، فتنصت إلى أقوالهـم وتحاصرهـم بأسئلتها، حتى تصل في النهايـة إلى الحقيقة من أفواههـم، فتكتـب مذكرتها وتوضـح توصياتها بشأنهم، وعـادة ما كان

رؤساء الأديرة يأخذون بما توصي به، فقد أظهرت موهبة كبيرة في التحقيق مع الرجال، كما لو أنها ولدت من أجل أن تحاصر أفكارهم، وتكشف عما يعتمل في رءوسهم، مما يجعلهم يعترفون بما فعلوا وبما كانوا يخططون لفعله، كانت تحفظ قوانين الرهبنة مثلما تحفظ القانون المدني، وتتابع بشغف ما يجري من تحقيقات في المجلس الملي، وما توصل إليه محققون آخرون من طرق لاستخراج الحقائق من بطون الرهبان، كانت تشد الرحال بالأميال إليهم، فتسأل وتتقصَّى وتعرف، وتضيف إلى معارفها معارف جديدة، حتى بدت كما لو أنها وهبت نفسها للتحقيق مع الكهنة والرهبان، فنسيت قطار الزواج الذي توقف عن المرور أمام بيتها، فقد شاع في مجتمع الخاطبين أنها تمارس عملها على من يتقدمون لزواجها، فكل خطيب لديها متَّهم إلى أن تثبت براءته، وكل براءة ليس لها طريق غير الهروب من أمامها.

لا تعرف دميانة إن كان أنطونيوس هو القدر الذي خبأته السماء لأجلها كل هذه السنوات أم لا، فقد ظلت تشعر أنها تخلصت من فكرة الجسد ورغباته، حتى عرض عليها أسقف التحقيقات في الكنيسة أن تلتحق بدير جبرائيل الملاح، حدثها عن قداسة إيمانويل الطيب، وتمسكه بأن يستعين بها، حدثها عن المكان وتاريخه وارتباطه المباشر بالكنيسة الأم رغم بعد المسافة بينهما، وأن الأمر لن يستدعي وجودها أكثر من يومين، يوفر الدير خلالهما إقامة ووسيلة انتقال.

حين حدثت تريزا عن الأمر أخبرتها الأخيرة أنها لم يبق لها في الدنيا الكثير، وأن عليها أن تفكر من الآن في مستقبلها جيدًا، فظلت تفكر حتى اتخذت قرارها بأن تجرب العمل معهم لمدة شهر، لكنها لم تتخيل أنها ستبقى نحو ثلاث سنوات في هذا المكان، فقد شعرت بأبوة حقيقية من قبل إيمانويل الطيب تجاهها، شعرت كما لو أن صلاح متري بعث من جديد لينظر في عينيها ويربت على كتفها، وكأنه يطلب منها البقاء معه من أجل حمايته على الأقل، فتوالت الأيام وهي في الدير، تسمع بأخبار كل من

بــه ولا تلتقي بأي منهم، سمعت بأنطونيوس المقرب من إيمانويل الطيب، وأدهشهــا مــا تردد عن أنــه رأى المسيح في يــوم ما، مثلمــا رأى أستاذه إيمانويــل العذراء في كوة بجدار قلايته، ولم تتوقــع يومًا أن تجده أمامها متهمًا في قضية أشبه برأس مسمار يطل من جدار صخرة في جبال القلزم، شعــرت أن آلاف الشعــيرات تحترق في ذهنهــا دون أن تدري لأي قدر أتت لهذه الهضبة القاسية، زفرت بحرقة في الهواء المتراكم أمام أنفاسها، مستحضرة نظرة أنطونيوس وهو يلقي بعينيه على جسدها الخامل فتشتعل فيه النيران، وتسقط عنه مئــات التمائم والأسوار التي حصَّنتها بها، فهل آن الأوان أن ترفــع القديســة دميانة عنها غضبهــا، أم أنه الشيطان الذي نشط في نسج حبائله كي ترى قاطع الطريق في صورة ملاكها الحارس.

-١٧-

للكنيسة سبعة أسرار: المعمودية والميرون والتناول والاعتراف ومسحة المرضــى والزواج والكهنوت. لكل سر كاهن كبير، ولرئيس الكنيسة أن يأتمن من يــراه مؤهلاً للحفاظ على الأسرار المقدسة، هكذا دارت الدورة وخرج باخوميوس الحباك من منصبــه لصالح كاهن الحراسة والتأمين، هكــذا تأكد أنطونيوس أن الدير سقط في يــد يوساب ورجاله، فلأكثر من خمســة عشر عامًا كان باخوميوس هو المسئول عن الاعترف، ولم يجرؤ أحــد على الاقتراب من موقعه أو التشكيــك فيه، لم يجرؤ أحد على الزعم بأنــه أذاع سرًّا واحد لأي من المعترفــين، خمسة عشر عامًا وباخوميوس صاحــب الرحمة التي ينشدهــا الجميع، ينصت ويبتسم ويغفــر باسم السيد المسيح، لكن الأيام تغــيرت، ويوساب أصبح صاحب السر، وفي حجره تسقــط جميع الأسرار، يمكنه أن يستغلها كما يشاء، ويمكنه أن يفعل بأهل الدير ما يشاء.

كان أنطونيوســ يحدث نفسه كما لو أنه يقذف الهــواء بالأحجار، فقد ضاقت الدنيا في عينيه، ولم يعد له من يأتنس به، كل الذين أحبهم تساقطوا واحدًا تلو الآخر، صار الدير غريبًا على خطاه، كما لو أنه زرع له فجأة بالشوك والحصى، تذكر آلام المسيح وأوجاعه، وكيف جمع تلامذته حوله وقسم خبزه ونبيذه بينهم، كيف أخبر يهوذا أنه مسلِّمه، وأخبر بطرس أنه سينكره قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات، وتساءل أنطونيوس إن كان ما يحدث له مسحةٌ من الآلم التي يشتهيها كل من يرجو أن يكون به نفَس من أنفاســ المسيح، أم أنه درب من التيه الذي سقــط فيه بنو إسرائيل، لأنهم رفضوا ما قدره الرب عليهم.

تطلــع إلى ضوء النجوم المتناثرة في صفحة السماء الصافية، كان ضوء القمــر ينزل على الأرض ليكسوها بحلة فضية رقيقة، سمع صوت كلاب

تنبح في مواجهة ذئب يعوي باتجاه الجبل، عادة ما تتسرب الذئاب للمكان طالما غفلت عنه الحراسة، لذا حرص الآباء منذ زمن سحيق على تربية الكلاب وتدريبها، كثيرًا ما أربكت صفوف اللصوص وقطاع الطرق، ونبهت القلوب لخطوات فرق عسكرية أتت لنهب المكان ومن فيه، لكنها كثيرًا ما فشلت في مهامها مع الذئاب، لأن ذئبًا واحدًا يمكنه أن يهزم قطيعًا من الأوفياء، فتكفي رائحته التي تصيبهم بالاشمئزاز، وشعره الذي يوقف أسنانها عن العمل، ولولا الحراسة اليقظة على الدوام لعاثت الذئاب في دير الله.

أغلق باخوميوس قلايته على نفسه منذ أبلغوه الخبر، وأخذ في إعادة قراءة الكتاب المقدس، كان ضوء المصباح الكهربائي ضعيفًا، لكنه يفي بالغرض، والعدسات التي صنعها طبيب عيون زار الدير منذ سنوات لباخوميوس ساعدته على الصلاة والتأمل أكثر من القراءة، حين طرق أنطونيوس بيده الكبيرة على الباب الصغير انتفض باخوميوس عن كرسيه كما لو أنه كان موقنًا بأن ثمة من سيجيئه، حين تذكر أن الأمر ليس على هذا النحو صرخ مرتين بصوت متردد على الطارق، وجاءه الصوت متوددًا:

– أنا أنطونيوس.

مر وقت في أسئلة أنطونيوس عما يرغب في شرابه، وهل هو في حاجة إلى طعام أم لا، وكيف مر اليوم معه. وما الذي جرى في التحقيق، كان أنطونيوس يرد باقتضاب كمن ينهي خطوات لا بدَّ من قطعها للدخول إلى الباحة الكبيرة، لكن لحظات الصمت بين الإجابات والأسئلة كانت ثقيلة، وكان أنطونيوس ينتظر من باخوميوس أن يفاتحه فيما حدث، وفي النهاية نظر قائلاً:

– ذهبت للاعتراف فلم أجدك.

هز باخوميوس رأسه في حزن مستسلمًا:

– طلبت من الأب جورج أن يعفيني، فقد اعتلت صحتي، ولم أعد قادرًا على النهوض بأعباء السر المقدس.

توجه أنطونيوس نحو النسخة المفتوحة من الكتاب الذي أمامه، وأخذ يقرأ من الأصحاح الأول في سفر أشعياء:

"اسمعي أيتها السماوات وأصغي أيتها الأرض، لأن الرب يتكلم: ربيت بنين ونشأتهم، أما هم فعصوا علي، الثور يعرف قانيه والحمار معلف صاحبه، أما إسرائيل فلا يعرف، شعبي لا يفهم. ويل للأمة الخاطئة، الشعب الثقيل الإثم، نسل فاعلي الشر، أولاد مفسدين تركوا الرب، استهانوا بقدوس إسرائيل، ارتدوا إلى وراء".

لم يتوقف أنطونيوس إلا بعدما نهض باخوميوس من مكانه والتقط الكتاب من بين يديه:

– كفي يا بني، فهم يعرفون طريقهم.

كانت عين أنطونيوس تتَّقد كجمرة في موقد مشتعل، كان الغضب يأخذ به كل مأخذ، لكنه لا يعرف كيف يتصرف، وكل ما حوله ينهار ويتداعى، كل ما بناه الأب إيمانويل يتساقط من حوله، ذلك العالم المتسامح الذي آمن به وأتى خلفه لم يعد كما كان، ثمة لون من الحمرة يزدادُ كل يوم، كما لو أن الدير يتَّخذ لنفسه حلة جديدة، ماذا يحدث، ولمَ كل هذه السرية فيما يحدث! نظر في وجه باخوميوس قائلاً:

– في طريقي إلى الدير كنت أحمل سلاحي على كتفي، كان سلاحًا قديمًا لكنه لم يخذلني يوما، حين وصلت إلى الهضبة ونظرت إلى قبابها البيضاء وسمائها الصافية خجلت أن أدخل بيت الله ومعي سلاحي، فخلعته عن كتفي وحفرت في الرمل ودفنته بيدي، كنت أعتقد أن صحبة المسيح تغني عن مواجهة الوحوش، لكنني كنت مخطئًا، لأن الوصول إلى المسيح يلزمه الانتصار على كل الوحوش.

يتمتع باخوميوس ببعض السمنة والروح المرحة، يتمتع أيضًا برحابة صدر واستسلام خالص لإرادة الرب، لا يعتقد من يعرفه أن الغضب وصل في يوم إلى قلبه، منذ دخل هذا الدير ولم يغضب مرة، سنوات طويلة مضت عليه في المكان، مرات قليلة التي خرج فيها منه، إحداها

كانت بصحب إيمانويل الطيب، كانت الكرازة قد رفضت طلب آباء الدير إدارج اسمه في قائمة القديسين، غير معترفة برؤيته للسيدة العذراء، ولا كراماته التي بدأت من شفاء المرضى إلى تحويل قطع من الجبل عن مكانها، كانت كراماته واضحة للكل، لكنهم رفضوا الاعتراف بها، فقرر إيمانويل منعًا للحرج أن يخرج في رحلة للبحث عن الغزالة الشاردة، هكذا قال، نظر الآباء في الدير بعضهم إلى بعض كما لو أنه أصيب بالجنون، لكنهم تعاطفوا معه، فأحضروا عربة تقله إلى السويس، ومنها بدأ جولة طويلة على مختلف الكنائس والأديرة، لم يقل لهم ماذا حدث، فقط كان يسألهم أن يستضيفوه ليصلي للشهداء والقديسين. كان باخوميوس في صحبته طيلة تلك الجولة، عام ونصف وهما يدوران على أديرة من الشرق إلى الغرب، ومن كنائس الجنوب إلى كنائس الشمال، جابا القُطرَ كله بحثًا عن الغزالة الشاردة، لكن باخوميوس الذي لم تسعفه رشاقته في المزيد من التجوال بين القرى والنجوع قرر العودة إلى الدير.

كانت هذه واحدة من المرات القليلة التي خرج فيها، لكنها كانت الأطول، فما حدث فيما قبل أو بعد لم يزد عن زيارات لأديرة لا تتخطى أسابيع أو بضعة أشهر، ومرة خرج يبارك ويصلي في بيوت أهل القرى القريبة، لكنه في العموم كان يحب العزلة والتأمل، يجلس في قلايته بالأيام يحبك حبالاً من الليف وهو يترنم بالأسفار والأصحاحات، قيل إنه تعلم حبك الليف صغيرًا بين أهله في بدو سيناء، وأنها ظلت حرفته في كل مكان نزل به، فعرف بين الرهبان بالحباك، ورغم وداعته مع الجميع فلم يكن له أصدقاء سوى إيمانويل، ويوم تنيُّحه جلس على الأرض رافضًا الكلام، وظل ستة أشهر يبكي في قلايته، حتى ذكَّره أنطونيوس بأن الله كلفه بسر فلا يهمله، فنهض من مكانه ليستقبل اعتراف النادمين على أخطائهم.

وحده أنطونيوس الذي نال اهتمامه ورعايته، فقد أدخله إيمانويل الدير، وطلب منه أن يجعله شماسًا في معيته، فتعلم منه اللغات القديمة، وتعلم من أنطونيوس فلسفة اللاهوت، وبحث في سِير المهرطقين وأفكارهم، وقدم رسالة عن التصورات التي بنوا عليها رؤاهم. كان

إيمانويــل يهتم بأمــر أنطونيوس كابــن له، واعتبره الهديــة التي لا يملك سواها كي يأتمن صديقه الأبــدي عليها، فصار مرشده الروحي، ووالده في العماد الجديد، وكان الجميع يعتبره جوهرة الدير، لكن الزمان تغير، كبر باخوميوس وتنيح إيمانويل، وأخذ البعض يسعى للتحرش بذلك الذي يعتبرونــه لغزًا، ولا يريدونه أن يبقى بينهــم، فهل حمل سر إيمانويل في قلبه؟ أم أن إيمانويل هو الذي حمَّله كل هذا الإرث؟

كانت النجوم قد خفتــت في السماء، وأخذت ظلال غيوم تتهادى على وجههــا، ليســ هناك ما يوحــي بتغير كبير، لكــن الضــوء الفضي للقمر تكاثــرت عليه السحــب من كل جانب، أخــذ أنطونيوس بشــكل غريزي يستكشــف كل ما حوله علــى الهضبة، على البعــد رأى أشباحًا تتقافز بين صفوف القلالي، وتعبر ساحة الدير إلى الجانب الآخر، حيث سفح الجبل ومخزن الكتــب ومناطق الورش ومبنى الضيافة، شعر أن شيئًا يدور في المــكان، وأنه في حاجة الآن لسلاحه كي يأتنس به، وبغريزة المطارد أخذ يخث الخطى خلفهــم، متواريًا في الجدران والظــلال، مقتربًا منهم وهم يحفــرون ليدفنوا شيئًا في الأرضــ، شيئًا ثقيلاً تعاونــوا جميعًا على حمله بحرص وانتباه شديد.

وقــف على البعد يرقب مــا يجري، موقنًا أن الدير لم يعــد مكانًا آمنًا، وأن ثمــة خفافيش تتقافــز في الظلام، ضرب بيده مــن الغيظ على قطعة مــن الصخر المتــآكل فانهارت، وأحدثت صوتًا نبــه الخفافيش إليه، رأى أصابعهــم تتبادل الإشارات في اتجاه القــلالي وسفح الجبل وبوابة الدير، رأى ثيابهم وأقنعتهم السوداء، وحركاتهم السريعة وأطوالهم الواضحة، رآهم وهم يتقافزون في الظلام باتجاهه.

لم يكن أمامه سوى أن يترك لقدميه العنان، كان يقفز من بين الصخور كما لو أنها بيوت واطئة، ويسارع مجاهدًا نفسه كي يستعيد لياقته القديمة، في سباقــه مع النور والظــل المنبعثين من إطلالة قمر متــوار خلف سحب داكنة، رأى على البعد دميانــة وهي تسير في طريقها نحو قلاية المنحني، لم يستطــع أن يتمالــك نفسه من الصراخ عليهــا، دون أن يعرف إن كان

يستنجـد بها أم ينبهها للخطـر الذي يحيط بهـا، وكان الجبل يردد صدى ندائه من خلفه بفزع:

– دميانة... دميانة!

لكنه لم يستطع أن يكمل ما أراد قوله، فقد وقف في مكانه فجأة، وانبثق شريـان دم من رأسه، ليغرق لحيتـه وملابسه ووجهه بالدماء، ثم يسقط في مكانه مغشيًّا عليه.

-١٨-

في الوقت الذي نشط فيــه أبانوب لبناء الكنيسة التي أرادها ديمتريوس الصغــير في دير الملاح؛ كان رفائيل السكندري قــد حمل رحله على كتفه وخطا أولى خطواته نحو الشمال، سار بحذاء الجبل إلى أن وصل إلى دير الأب أنطونيوس، فدخله لنيل بركاته والتزود بأخبار الرومان وأفعالهم، بعدهــا انطلق إلى كلسيما، حيث يلتقي البحــر باليابسة عبر الخليج الفاصل بينها وبين أرض الفيروز، فقضى في ضيافة رهبان أحد أديرة المدينة عدة أيام، استرد خلالها أنفاسه وتــزوَّد بالأخبار والخبز وبعض الشروحات والرسائــل، كانت كلسيما قد بدأت تنتعش كميناء على رأس البحر المؤدي لبــلاد بونت، وكانت المنطقة قد أصبحت مركــزًا لجذب الرهبان الباحثين عن التوحد بالرب، استمع رفائيل لحكايات الرهبان عن المدينة وصحرائها وبحرهــا، موقنًا أن الجن والملائكة والحيوانــات والبشر يعيشون جميعهم في عالم واحد، دون خلل في نظامه.

حــين انتهــت ضيافته حمــل رحله من جديــد وفتح خطــاه نحو حصن بابليون في منف، ومنه انطلــق نحو صومعة الأب مقاريوس في صحراء الإسقيط، فاستراح في ضيافة بعض الرهبان الذين نزلوا بجانبها، وتزود مــن أخبارهم وبركات قديسيهــم وشهدائهم، ثم أكمــل طريقه نحو المدينة العظيمــة في الشمــال، رحلة طويلة كان من الممكــن ألا تستغرق أكثر من أسبوعــين أو ثلاثة، لكنها امتدت لعدة أشهر بسبب الظروف غير الآمنة، فرغــم أن قسطنطين أعلن أن المسيحية دين البــلاد الرسمي، وأعلنت أمه هيلانة أنها مسيحية، وأمرت ببنــاء كنيسة كبيرة نقلت إليها رفات القديسة المصريــة صوفيــا، إلا أن ذلك لا يعني أن العداء ضــد المسيحية قد انتهى، فضلاً عن الذئاب والسباع وقطاع الطرق الذين لا رادع لهم.

أسلم رفائيل أمره للرب، داعيًا لبوءة الملاح أن تحميه من الأسود والذئاب، ويحميه جبرائيل نفسه من الفتنة التي اجتاحت البرية، فقد استعر الخلاف حول قبول المعترفين أم رفضهم، كان الرافضون من أتباع ميليتوس يرون أنهم أنكروا المسيح ولا يحق لهم العودة إلى شركة الكنيسة، ونشطوا في محاصرة بطرس الأول وأتباعه قبل أن يقنعوا الناس بقبولهم، وسرعان ما نزل ميليتوس برجاله فرسم قساوسة في الإسكندرية، وهو ما اعتبره بطرس تعديًا على سلطاته، فأنذره مرة وأخرى، ولما لم يستجب له أعلن حرمانه، فرد ميليتوس هو الآخر بخلع بطرس وحرمانه، واختلف الناس ما بين هذا وذاك، وانتشرت الفتنة في البر كله.

كان رفائيل ينصت ويتذكر وصية ديمتريوس الصغير:

- لا تكن فصيحًا بين الذئاب.

قالها وهو يودعه قبل نزوله من مخرِّ السيل، فظلت ترنُّ في أذنه طيلة رحلته التي استمرت لسنوات طويلة، وما إن عبرت أول قافلة من صحراء الإسقيط حتى خرج معها إلى الإسكندرية، تلك المغلقة على الرومان واليونان واليهود وقلة من أبناء كيمت، تحدث إلى الجنود الواقفين على البوابات باليونانية والعبرية، فعلموا أنه أحد أبناء اليهود، فتركوه يدخل متسكعًا في شوارعها ودروبها، مستمتعًا بروائح اليود المنبعث من البحر إلى وجهه، وقد اشتد به الشوق لشارع البحر، فأخذ يمشي على شاطئه دون أن يفكر في الذهاب إلى بيته، فأن يعتقد والده أنه مات أو قُتل في غارة للبدو أو تجريدة للجند خيرٌ ألف مرة من أن يطالبه بالعدول عن إيمانه بالمسيح.

في النهاية عبر المكتبة التي بنيت بديلاً عن المكتبة القديمة الشهيرة، التي تمددت بثقلها الكبير الجديد إلى جانب بيت الحاكم، عبر بهو مدرسة الميوزيومِ التي أصبحت جزءًا من محيط المكتبة، معلنًا لحارسها اسمه واسم أبيه سائلاً عن كيفية الالتحاق بحلقات الدرس فيها، وما إن علم بالشروط حتى عبر من جديد شارع البحر إلى الشارع الذي يقف بيت أبيه على ناصيته، ليرتمي في أحضان أمه معتذرًا عن هروبه وغيابه.

-١٩-

لم يسأل أنطونيوس الراهبَ إيمانويل عن كيفية صعوده إلى مغارته التي على الصخرة، لكنه ألح عليه في معرفة ما جرى لشيخ البلد، وكلما رسم إيمانويل ابتسامةً على وجهه تصاعد غضب أنطونيوس، حتى أنه شد أجزاء بندقيته مهددًا إيمانويل بإطلاق النار عليه، حينها نظر الراهب نحوه نظرة غضب، لم يعرف أنطونيوس ما الذي جعله يرتجف منها، وشعر أن ذراعه لم تعد قادرة على حمل السلاح، فوضعه إلى جانبه ورفع يديه مستسلمًا، فضحك إيمانويل وزال السحر عن أنطونيوس، يومها أخرج ما لديه من خبز ليباركه له إيمانويل، وبدا أنه يسخر من الرجل ومهنته وزيه، لكنه من الداخل كان ممزقًا بين التصديق والإنكار، فمنذ سنوات وهو يعيش في هذه المغارة، الكل يرغب في بقائه على نقيض ما يدَّعون في مطاردته، فجميعهم يحبون ملاك الموت حين يأتي لغيرهم، لكنهم لا يرغبون في التحليق معه.

كان أنطونيوس قد لجأ إلى هذه المغارة بعدما قام بعض الجهاديين العائدين من أفغانستان بفرض الجزية على مسيحيي قريته، لم تكن حملتهم أكثر من إعلان خروج، لكنها بالنسبة لأنطونيوس وأهله كانت كل شيء، فقد هُددوا في أموالهم وأولادهم وأنفسهم، وذكِّروا بماضٍ لم يرغبوا في عودته. كانت الحرب الروسية الأفغانية قد انتهت، ولم يكن أمام المجاهدين العرب هناك سوى أن يعودوا إلى بلدانهم، فعاد أحدهم إلى قرية مجاورة لقرية أنطونيوس، وعلى الهامش بين القريتين اتخذ لنفسه كوخًا وكون خلية من الطامعين في الجهاد لنصرة الله ودينه، ولم يكن هناك أفضل من جهاد الكفار، وردهم لما كانوا عليه في زمن الخلافة الرشيدة، فجمع رجاله وخرج بهم يدق أبواب الأقباط، لم تكن بيوتهم تزيد عن عشرين في القرية، بعضها متجاور وأغلبها متفرق، فاستيقظوا

في منتصـف الليل علـى نحو عشرة رجال بلحى طويلـة وجلابيب بيضاء قصيرة، بينما أميرهم يصرخ:

– اليـوم هو الإعلان... وبعد أسبوع التنفيذ، فإما خمسون جنيهًا عن كل رأس، وإما الهجرة أو الموت.

كان الاعـلان مفاجئًا لمن استيقظوا ليجدوا أنفسهم في مواجهة الحرب، لكنهـم لا يملكون قدرة على التفوه بغـير الموافقة، قلة حاولت أن تستفهم، واعتـبر الأمير ذلك نوعًا من الجدل، فأنهـاه بضربتين من طرف عصاه على الباب معلنًا:

– الأسبوع القادم... إما الجزية وإما الحرب.

حتـى تلك اللحظة لم يكن أنطونيوس يعلم بما يجري، فقد خطفته المدينة مثلمـا خطفـت الكثير من أبناء القرى، كان حظـه في كلية الآداب، لكنهم لم يسمحـوا لـه بدخول قسم اللغـة العربيـة، فتحمل قـدره ببساطة وقدم أوراقه لقسم الاجتماع، كان من المفترض أن تكون دراسته عن الأرامل والمطلقات حسبمـا كان يعتقد، لكنه فوجئ بأنه يدرس نظريات الفلاسفة وتطبيقاتهـا في الواقع، ومثلما جذبته الدراسـة في القسم الذي لم يتوقعه، كذلـك جذبته المدينة التـي لم يتعرَّف عليها من قبل، جذبتـه الأسر الثقافية والرياضيـة في كليته، لكن فريق الكشافة لم يرحِّـب بوجوده، فقد سيطر عليـه إسلاميـون، ومزجوا بين النشاط والطقوس الإسلامية من خطب وصـلاة وصوم وغيرهـا، ولم يكن من السهل أن يفرضـ نفسه عليهم، تكـرر الأمر في انتخابات اتحاد الطـلاب، ووقف الجميع يسخر منه حين لم يحصـل إلا على صوته، مما جعله يرحب بالانضمام إلى فريق الكشافة القبطي، لم يكن فريقًا بالمعنى المعروف، لكنه كان أقرب إلى جماعة سرية يتم اختيار أعضائها للمشاركة في أعمال خيرية، كمساعدة رهبان الأديرة في عملهـم، أو الوقـوف على أسـوار الأديرة في الصحـراء لحمايتها من اللصوص، وهـو الأمر الذي كان يستدعي اختيار ذوي القامات الطويلة من أمثاله.

في نهاية العام الدراسـي الثالث كان عليه أن يعود لزيارة أهله قبل أن يبـدأ عمله في بار مـن الدرجة الثالثة، عملٌ وفره له والـد أحد أصدقائه،

لكنه ما إن طرق باب بيتهم حتى انهارت أمامه أمه من البكاء، فقد هددهم المسلمون بالجزية أو الطرد أو القتل، أخذها في حضنه وهون الأمر عليها مؤكـدًا أمام أبيه أن هؤلاء مجموعة مـن قطاع الطرق، والقانون سوف يلزمهم عنـد حدودهـم، ودارت المناقشات في بيوت الأقبـاط عما ينبغي عمله، أغلبهم كانوا يتحدثون بعجز وقلة حيلة، وبعضهم كان متشددًا وهو يعلن أنه سيقتل من يقترب من بيته، وكان أنطونيوس يشد من عزم هؤلاء ويهـدئ من روع هـؤلاء، وفي الصباح التالي اصطحـب ابن عم له إلى مركز الشرطة ليحرر محضرًا بالواقعة ويطلب منهم حماية الأقباط، فأكد له الضابط أن أحدًا لا يجرؤ أن يؤذي مواطنًا في القرى التابعة لمركزه.

خرج أنطونيوس من مركز الشرطة كبطل قومي مثقل بالنياشين، لكنه بمجـرد وصوله لقريته خسر كل شيء، حتى تعاطف الضعفاء الذين قرر أن يحـارب من أجلهم، فما أن ترجل هو وابن عمه من العربة التى تقلهما حتـى ظهر له الأمير بصحبة عدد من رجاله، ووجدها أنطونيوس فرصة ليعلن على مسامعه أن الأقباط في حماية الدستور والقانون، يومها صفعه الأمير علـى وجهه، وأعطى أوامـره لرجاله بأن الـذي سيجمع الجزية بنفسه هو ذلك البطل المغـوار، واليوم وليس في الأسبوع القادم، وتحت وطأة الصفعات التي نالها أنطونيوس أصبح خرقة بالية في أيديهم، فكانوا يجذبونه مـن أمام كل بيت إلى الآخر، كي يطرق الباب إلى أن يفتح أهل البيت، ويسألونه عما يريد، فيرد بأنه جاء لتحصيل الجزية المقررة، هكذا مـروا على بيوت الأقباط جميعًا في قريتـه، بما فيهم بيت أبيه وأمه اللذين ماتـا كمدًا في ذلك اليـوم، وفي النهاية أصدر الأمـير أحكامه أمام الجميع بربـط أنطونيوس في أحد أعمدة النور، وجلده أمام الجميع عشرين جلدة على الأقل، ثم طرده خارج القرية.

هكـذا وجد أنطونيوس نفسه أمام عواء الذئاب ونباح الكلاب وحجارة الأطفـال والسفهـاء. لم يكـن أمامه سـوى أن يجـر أقدامـه ليخرج إلى الصحـراء دون أن يعرف إلى أيـن، كان يأمل أن يصل إلى قرية أخرى قبل أن ينـزل الليل، لكن قواه خارت وسقط علـى وجهه مستسلمًا لقدره بأنها النهاية.

-٢٠-

رسائل أوريجانوس (٢)

تلميــذي وصديقي البابا ديونسيوس، أنا الآن أتذكر ما جرى لي طوال سنواتٍ مضت، كما لو أن قطيعًا كبيرًا من الغزلان يمر أمام عيني، بعضه منتظــم وبعضه شارد، لكن الكل في النهاية يسير كخيط طويل لا ينمحي، أتذكر ما كانت تحكيه أمي عن أن أبي كان يقف بجانبي وأنا نائم، فيعري صدري وينظــر إليه كأن الروح القدس ينام فيــه، وذلك لحفظي للكتاب المقدســ كله في هذه الســن، كان شغفي بالتعلم مثــار دهشة للجميع، كنت أشعر كأن نهــرًا ينساب من السماء ليصب ماءه العذب في رأسي، لم أكن أعيــد قراءة قرأتها، فقد انطبعت على ذهني كأنها نقش على صخر، لذا لم أندهشــ مما قالته، كما لو أنها أكدت لي ما هــو مؤكد، لكنني تيقنت أن ما أفعله وما أقوله وما أصل إليه من رؤى ليس من عندي، لكنه من السماء، تلك التي لو أرادت أن يجف نهرها من صدري لفعلت، وحتى الآن أشعر أنني لدي الكثير الذي يريد أن يتدفق نحو الخارج، وأن يصدر على هيئة تفسيرات ورسائل وعظات، أعلم أن البعض يرتبك من تفسيراتي، لكنني ما جئت بها عن هواي، وما تحدث الملاك الذي في صدري بوضوحٍ أكثر من هذا، ما أفسره رمزًا الآن قد يأتي غيري غدًا ليجلو رموزه.

كان ومــا زال هــذا اعتقــادي في تفســير نصوص الــرب، فلا يمكن التعامــل مع ما يقوله الرب كما نتعامل مع ما نقوله في حياتنا اليومية، تلك المليئة بالتفاصيــل، والتي لا بدَّ من الوضوح الحازم فيها، حياتنا الفانية لا يمكن أن تكــون كحياة الإله، وكلماتنا ليست ككلماته، ولا عشقنا كعشقه، أو أبديتنــا كأبديته، الفارق واسع بين الرب القادر صاحب الاختيار وبين

العبيـد الضعفاء من أمثالنا، وعلــى الكنيسة أن تنتبه إلى هذا الفارق، حتى وإن اختــار الرب أن يمضي جانبًــا من أبديته بيننــا، وفي حياتنا الفانية، فصور الرب جزء منه، واختياراته ككلمته، كلاهما لا ينفصلان عنه.

يــا للهول يا صديقــي، هأنا أعود للرمز من جديـد، أعود للحديث عن التفسير والإيمان القويم، متناسيًا أنني أكتب لك من أجل أن أعترف، نعم صديقي أنا أريد أن أعترف، لذا أرجو أن تعتبر ما أكتبه إليك الآن هو نوع من الاعتراف، أرجــو أن تقبله مني، فضعفي وعجزي الآن لا يسمحان لي أن أقطع المسافات إليك، وأوقن أنك ستصعد فوق قدس الأقداس رافعًا اعترافي قائلاً (يــا الله الذي قبل إليه اعتراف اللص على الصليب المكرم، اقبل إليك اعتراف عبــدك الصغير أوريجانوس، واغفر له جميع خطاياه من أجل اسمك القدوس الذي دعا علينا، كرحمتك يا رب لا كخطايانا).

نعــود إلى طفولتي يا صديقي، فقد كانت الإسكندرية تلك المدينة البديعة محصَّنة بالجنود من كل اتجاه، كان الرومان يرونها الجنة التي عليهم أن يحموها من دخول الأشقياء في الأرض، وكانت بالفعل مدينة الله، وجنته التي حوت من كل شيء، كان جمالها باهرًا، ورخاؤها عميمًا، كلُّ شيء فيهــا كان بهيًّا، والدعوة إلى الله تنتشر بخفة سحابات صيف، كان والدي ليونيدســ حريصًا علــى تعليمي في مدرسته اللاهــوت، وذاع صيتي بين الطلاب كواحد من أفضل المتعلمين، وظن أبي أنه سيجلس في يوم مفتخرًا أننــي رئيســ هذه المدرسة، لكن هــذا اليوم وإن جاء فــإن أبي لم يشهده، فقــد أراد الرب أن يختبرنــا جميعًا، أراد أن يضعنا تحــت مقصلة الصبر علــى ما نكره ومــا لا نريد، إذ صعــد لعرش رومــا سبتيموس الطاغية، ولأن الإسكندريــة درة التاج فقد قرر أن يزورهــا، ويقدم على مذابحها الأضاحــي للآلهــة، وصحبه الوالي في عجلته الحربيــة ليجوب شوارعها الجميلــة، ويمر على معابدها العديدة، لكــن كاهن السيرابيوم وقف أمامه قائــلاً: كثر الخارجــون على ديانــات الآباء والأجداد، فقلَّــت الأعطيات وكثر الفساد، فانصر آلهتك أيها الإمبراطور.

يومها أقسم سبتيموس لآلهته أن يعيد مجدها، وأمر نائبه في الإسكندرية بــأن يمحــو المسيحية منها، ولم يكــن أمام الأخير ســوى أن يظهر الولاء

والقــوة، فألقــى القبض على كل من هو مسيحــي، وكل من تشكَّك في أنه مسيحي، يومها أغلقت الكنائس، وهرب الرجال إلى الصحارى والجبال، كانــت الجنود تطاردهم بالخيول وهم يفرون علــى أقدامهم الصغيرة، لا يلوون على شيء ولا يســيرون على هدى، كثيرون سقطوا تحت سنابك الخيــل، وكثيرون لعبت السيوف في رقابهــم، حتى النساء لم ينجين، فقد هاجــم الجند البيوت، ويكفي أن تكون هنــاك ولو إشارة على أن صاحبها مسيحي لتُستباح، فامتلأت السجون بمــن وردوا إليها، وامتلأت المزابل بالجثــث، وفاضت الدمــاء على الأرضــ، كانت أحجــار الطرقات تنز دماء، وتكتسي بجلود مــن سحلوا. الإسكندرية التي كانت جميلة صارت مدينــة الله الكافرة، وظن الجميع أن سبتيموســ هو المسيح الكاذب، وأن النهاية أوشكت، ولا بدَّ أن ينزل المسيح ليرفع الظلم عن الناس.

في تلك الآونة كتبتُ رسالتــي في الاستشهاد، كنت أحض الجميع على أن يقبــل مصــيره، وأن يوقن أن مــا يمنعه عن ملكــوت السماء هو تأخر نــزول سيــف الجنود على عنقه، كنــت أطالبهم أن يــبرزوا لشهادتهم في أي مــكان، فالشهادة أقصر الطرق إلى الملكوت الأبدي، فمع المسيح ذلك أفضــل، وحين قبض الجنود على أبــي لم أستطع أن أنفذ ما قلته، أعترف يــا صديقي أنني لم أستطع، للحظة خفت، وشعرت أن الموت نهاية سيئة، أن الموت ليس الطريق الحقيقي نحوً الخلود، وأن مركب الإله لا تمر عبر نهر المــوت المتدفق في شوارع الإسكندرية، أقــول إنني جبنت وتواطأت علــى منع أمي لي من الخروج، فقد جردتني من ملابسي، انتزعتها عني وجمعت مــا بالخزانة وأحرقت كل شيء، تركتني في غرفتي عاريًا كيوم ولدتنــي كي لا ألحق بأبي، هــذا الذي اكتفيت بأن أرســل له رسالتي عن الاستشهــاد، وكانت النتيجة أننــي بينما انتقل هو إلى الأمجــاد السماوية، أبي قديس شهيد، وأنا هنا أعاني آلام عذابي، أعاني آثار الطوق الحديدي الــذي صحبني في مقمورتي عامًا كامــلاً، أنا هنا موشك على الموت كعابر سبيل لا يعرفه أحد، بينما روح أبي ترفرف بجناحيها في البعيد إلى جانب الرب. فصلِّ من أجلي يا أخي وصديقي، لأنني جبنت.

-٢١-

قــررت دميانة أن تنحِّــي انجذابها نحــو أنطونيوس جانبًــا وتركِّز في القضية التي طالبها رئيس الدير بسرعة إنهائها، أحضرت مذكرة الاتهام المحولــة إليها مــن الأب جورج، تلك المذكرة التــي كان من الممكن أن يحكم فيها بنفسه، مبديًا لومــه أو تأنيبه لأنطونيوس، لكن الجرم المتهم فيه الأخير فضلاً عن مكانته كأحد التلاميذ المقربين من إيمانويل الفقير، جعل من الحرج لأيٍّ من مسئولي الدير أن يتهمه بشيء، ومن ثم لجأوا إلى المحققة دميانة كي تكون بمثابة القفاز الذي يمكنهم من خلاله تشذيب الشوك دون جراح.

ضحكــت دميانة حين تصورت أنها ستنهي قضيتها بتوصية تطالب فيها بإحالة التحقيق إلى المجلس الملى الذى قد يأمر بعزل أنطونيوس، وفكرت للحظة أنهما من الممكن أن يلتقيا خارج الدير، ويبدآ حياة تليق بآدم وحواء وليس مريم والمسيح، كان شبح ابتسامة قد ارتسم على وجهها وهي تسرح بخيالهــا في مشهد قس يضع إكليل الزواج علــى رأسها، لكنها سرعان ما استفاقت على أنها لن تبنــي بيتها على ظلم رجل تتمناه، فهذه بداية خاطئة تؤدي إلى نهايات خاطئة.

كان أنطونيوســ قد أفــاق ليجد نفســه أمام دميانــة، واستغرق الأمر منه وقتًــا كي يستعيد ذاكرتــه ويستوعب ما حدث، فقد سقــط مغشيًّا عليه إثــر ضربة جاءته مــن الخلف وهو يناديهــا أن تنتبه، لكنهــا حين انتبهت كان قــد نال ضربته، وسقــط أمامها على مبعدة مائة مــتر قطعتها هرولة نحــوه، لم تعرف ما الــذي يمكنها فعله في ذلك الوقــت، ولا كيف يمكنها أن تحملــه أو توقــف نزيفه، فصرخت بقدر ما تستطيــع، وخرج رهبان وشمامســة من قلاليهم ليلقوا برءوسهم نحو الصوت النسائي نادر السماع

في المكان، للحظة نسيت أنها المحققة التي يخشاها الجميع وانهارت في نوبة بـكاء ولطم، وأمام صراخها المتوالي توافـد الرهبان نحوها وتعرفوا على أنطونيوس فنقلوه إلى قلايته.

كان ملاك من بـين الذين خرجوا مندهشين لسمـاع صوت نسائي في الديـر، قلة هي التي كانت تعلم أن المحققة دميانـة لها استراحة فوق مبنى التحقيقـات، لكن أحدًا لم يعرف ما الذي أخرجهـا من استراحتها في ذلك الوقـت، هدأ من روعها وجود ملاك على مقربة منها، وحين ذهبت معه إلى قلايـة أنطونيوس ظلت متمسكة بوجوده كورقة تسمح ببقائها في غرفة راهـب، كان مفتاح العيادة مـع الشماس أبانوب، فذهـب مع صديق له وأحضرا بعض الشاش والقطن والمطهر، وجلست دميانة وملاك ينظفان الجرح، داعين الله ألا تكون ثمـة إصابات في الجمجمة من الداخل، ولم تعـرف لم كان عليها أن تظل إلى جانبه حتى يستعيد وعيه، فهدهدت على كتفه بعدها وطلبت من أبانوب أن يرافقها في طريق العودة إلى استراحتها، على أن يتركا ملاكًا معه حتى الصباح.

لم تنم ساعة حتى استيقظت لتكتب مذكرة بما رأت، وفي الصباح ذهبت لتلتقي جـورج المنحني في قلايتـه المجاورة لكنيسـة ديمتريوس الصغير، كانـت مساحة القلاية لا تزيد عن سبعين مترًا، قسمت إلى غرفتين وصالة وحمـام، كانت الصالة مزودة بأنتريه مـن الأرابيسك ومنضدة زجاجية في الوسـط، بينما الغرفـة الأولى بها مكتب وكرسيـان من الجلد، وعلى الجانب الآخـر كانت غرفة نوم مزودة بسرير فـردي ودولاب ملابس وخزانـة كتـب، في المدخل يقـف شماسـ في الخمسين يستقبـل القادمين ويجلسهـم في الصالون لحـين استئذان المنحني في دخولهـم عليه. جلست دميانة على كرسـي منجَّد بالقطيفة الحمراء في انتظـار خروج الشماس، حين عاد أخبرهـا بأنه يصلي، فأخذت تطالع الصليـب الكبير المعلق على الجدار وعلى جانبيه أيقونة للمسيح مصلوبًا، وأخرى للعذراء وهي تحمله في طفولتـه، لم يمضـ كثير من الوقت حتـى خرج إليهـا المنحني بصليبه الكبـير ومسبحة تتدلَّى منه، مد لها يده بالصليـب فانحنت وقبَّلت كلاهما،

رحَّـب بها ودعاها للدخول إلى مكتبـه، وبعد حشرجة في صوتها انتظمت كلماتُهـا معلنةً عن رغبتهـا في أن تقدِّم بلاغًا بأن ثمة مَـن يريد قتل القس أنطونيوس.

كان جـورج يهز رأسـه الكبير المضغـوط في جسده السمـين بتكاسل شديـد، وعبرت عيناه من أسفل نظارته إلى دميانة عن ثبات لم تعرف إن كان من قلة النوم أم شدة التركيز:

– ما أخبار التحقيق؟

دهشـت دميانـة من سؤالـه، ولم تعرف إن كان عليهـا أن تضحك أم تصرخ، لكن المنحني وضع ابتسامة هادئة على وجهه قائلاً:

– ولمن نعطي بلاغك للتحقيق فيه؟

شعرت أنها تاهت وفقدت القـدرة على التركيز، فهي مسئولة التحقيق ولا ينبغي أن تكون خصمًا لأحد، ولم تعرف كيف سيستقيم الأمر في حال هذا الإجـراء، كادت أن تجيبه بأنها "لا تدري"، لكن الكلمات ماتت على شفتيها، وظلت عيناها مشدودتين نحو المنحني، فعاد يكمل:

– أرجو أن تنتهي من تحقيقك.

أدركت دميانة أن عليهـا أن تختفي من أمامه، فقد أنهى المقابلة بطرفة عـين، وألمحت نـبرة صوته الأخيرة إلى أن الديـر يدفع لها كي تحقق مع الرهبان، لا لكي تقع في غرامهم، فانتفضت مستأذنة في الخروج، ودون أن تنتظر مجيء الشماس ليصحبها إلى الخارج اندفعت إلى الصالة، فوجدت نفسها في مواجهة الأب يوسـاب، ذلك الذي وقف كعود كخيزران يابس في وجههـا، ودون كلمة منه نظـر كلاهما إلى الآخـر متفاديًا الاصطدام بصعوبة بالغة، لينتهي الموقف بخروجها كما لو أنها جُرِّدت من ملابسها، فراحت تتلمس من تيارات الهواء الناعم أن تدثرها قبل أن يراها الناس.

في هـذه اليـوم أرسلت إلى مـلاك لا ليطمئنها علـى أنطونيوس ولكن ليخبره أن غدًا موعـده في التحقيق، ثم أغلقت على نفسها وأخرجت ملف قضيتها منحِّيةً طيف أنطونيوس وما جرى له كي تتمكن من قراءة المذكرة

بحيـاد تام، لكن وجهه لم يفارق عينيها وهي تقرأ عن القديس أنطونيوس العظيـم، واختلـط في ذهنهـا الزمان والمـكان بدير المـلاح وأنطونيوس الجريح في قلايته الآن، فلم تعرف القديم من الحديث، وظلت في متاهتها حتى دخـل عليها أنطونيوس في الصباح، فعدلت من وضع نظارتها على وجهها متجاهلة الشاش الذي على رأسه، واهتزازه أمامها وهو مقدم على الجلوس، محملة صوتها بكل ما تملك من حياد:

– من الذي كتب مقدمة الكتاب؟

– الأب إيمانويل.

أجاب أنطونيوس بهدوء المندهشـ، وكاد أن يضيف أن اسمه مكتوب في نهايـة المقدمة، لكنه رأى مدى تعكـر وجهها فالتزم الصمت، ودارت بهـا الدنيا ليختلط وجهه بأيقونة القديسـ العظيم، فجالدت نفسها كي ترفع يدها معتذرة، لأنها ستسأله عن أمر خارج القضية:

– هل اخترت اسمك تيمنًا باسم القديس العظيم؟

ابتسم أنطونيوس، وهز رأسه قائلاً:

– اختاره لي الأب إيمانويل حين رسمني قسًّا.

-٢٢-

أعرف أن المحققة دميانة تنجذب كل يوم نحو القس أنطونيوس، لكنني لا أعـرف مـا الذي جعلهـا راغبة في إنهـاء التحقيق على هـذا الوجه من السرعـة، فقد خاطبتني بحـدة لم أرها منها من قبل، قائلة بأن عليَّ إبلاغه أن موعده في التحقيق غدًا، لم تراعِ إصابته، ولم تتذكر من الأساس مدى الرعـب الذي طل من عينيها حين رَأتـه ملقًى على الأرض، أعتقد أنه لو لم تكـن عظام رأسه قوية لَتنيَّح في هذه الليلة، أعرف مثل هذه الرءوس، تبدو من الخارج صلبة كثمرة جوزة هند، ومن الداخل عنيدة لا تلين، ولا يمكنها أن تتكيَّف بسهولة مـع الظروف، لا أعتقد أن هذا الرجل سيناسب هذه المرحلة، وعمـا قريب ربما يصطدم بيوساب أو المنحني، لكن دميانة تختلـف عنه، رقيقة وضعيفة وتلين أمام الضغوط، هي في النهاية امرأة، ولا بـدَّ أنها خافت إن لم تكن ارتعـدت من داخلها، فإيمانها ليس في إيمان أنطونيوس كي تـرى المسيح أو تظهـر لها العذراء، هـي ضعيفة مثلي، تسكنها الأشباح التي تخيف البشر.

لذا فأنا أكتب هذه الكلمات كي تكون دليلاً على الخطى التي بدأت تتخذ مسارهـا على أرض الديـر، فمنذ انتقلتُ للإقامـة في مخزن المخطوطات مـع الكاتب إدورد حنـا وأنا أفكر في هذا المكان، كما لو أنني أفكر في بداية الخلـق ونشأة الحياة، حين سألته عما يدور في رأسي ابتسم لي وأشار نحو تلال الدفاتر والكتب القديمة.

- لا أفهم!

أجبته بغضب، فرفع رأسه عن كتاب في يده:

- إذا قرأت ستعرف.

كان علـيَّ أن أحسـم أمر تعلمـي للقراءة التي تحول بينـي ومعرفة ما جرى، وتعصمني من أن أكون خادمًا على بوابة الدير كميخائيل، كانت وراثتـي لإدور ومهنته هـي طريقي لتغيير المسار الـذي ينتظر طفلاً يعلم الجميع أن ميخائيل وجده ذات صباح أمام بوابة الدير، لم يسمح لي خيالي بأكثر من ذلك، فلم أفكر في أن أكون راهبًا أو شماسًا، فصرت بوابة بين الرهبـان الذين جاءوا ليعتزلوا الحيـاة في هذا الدير النائي، والقادمين من العالم الفسيح في الخارج، لذا وهبت نفسي لأن أقرأ وأكتب ما جرى.

في البـدء كانـت هضبة الملاح نهايـة العالم، وصلها المـلاح بعد شهور طويلـة من السـير، صعدها تاركًا الحيـاة من خلفـة، دون أن يدري أنه سيكـون قديسًـا يتبرك به الجميع، ويأتـي الناس من أقصـى البقاع إليه، وحـين تـولى ديمتريوس الصغـير من بعـده، رأى حـزن الناس عليه، ورغبتهـم في التأسي به، فأمـر تلامذته أن يضعوا رفـات الملاح ولبؤته وأشبالهـا في المغارة التـي اتخذها مقامًا له، وأن يبنـوا على المغارة كنيسة يصلـي بها المؤمنون، ويقدمـوا على مذبحها أعطياتهـم للرب، متناولين خبـزه وخمره، متلمسـين روحه التي تسـري في أرواحهـم، متذكرين عذاباته على الصليب من أجل خلاصهم، راضين بما يجري لهم وعليهم، مثلما رضي هو بما جرى عليه، رغم علمه به، وقدرته على تغييره.

لم يخيِّـب أبانـوب ظن أستـاذه ديمتريوس، كانت الرغبـة في النجاح تحدوه لعمل المستحيل، غـاب عن الدير عدة أسابيع أو شهور، ذهب فيها للجنـوب، حيث والده الذي ما زال على دينه القديم، سأله عمَّن رمَّم لهم معبـد إيزيس في الجزيرة المقدسة، وحين التقى به جلس أمامه معتذرًا عن سـوء أدبه، فليس مـن الحكمة أن يطلب شخصٌ تحول عـن ديانة إيزيس المعونـةَ مـن أهلها، لكـن البنَّـاء كان حكيمًا، ربـت على كتفه قائـلاً إنها تصاريف القدر، حينها شرح لـه طلبه والمكان الذي يريد بناءه، فأوضح لـه الرجل ما يحتاجه من مـواد وأدوات ورجال. وكان على أبانوب أن يعود لأستاذه كي يفكرا في كيفية تجهيز ذلك.

نـزل ديمتريوس من علـى الهضبة وبدأ في جولة لم يعلـم أنها ستكون مباركة إلى هذا الحد، فقد وجد أن كثيرين ممن عاشوا على صخرة الملاح قد دخلوا المسيحية، ولا ينقص إيمانهم سوى أن يعلمهم كاهنٌ شعائر دينهم، وجـد الجميع راغبًـا في أن يظهر علامـة إيمانه، ولم يكن هنـاك اختبار أفضل من المشاركة في بناء كنيسة للرب، ومن لم يتبرَّع بمال تبرع بجهد ووقت، كان يكفي أن يصل إلى الدير بدابته كي يفرِغ حمولته بجانب مخرِّ السيل، أو يذهب ليسلم نفسـه لأبانوب المتحمس، هذا الذي لم يكن يعرف إن كان سَّلم نفسه للبنَّاء الماهر، أم أن الأخير هو الذي سلمه عقله، فقد عكفا علـى تخطيط المـكان، والاستفادة من المغارة كي تكـون قدس الأقداس، وسرعان ما رفعوا قواعد الأعمدة العالية، فبدت كبهو معبد قديم.

رفضـ ديمتريوس أن تترك الأعمـدة بلا سقف، قال إن كنيسة الله لا بـدَّ أن تكـون مسقوفة، فبيت اللـه سر من أسـراره، وكان على الرجال بعدمـا انتهوا من تجزئة الأحجار وتهيئتها للدخول في البناء أن يبحثوا عن الأخشـاب الطويلة التي تربـط بين الأعمدة، ليبدأ أبانـوب في تعريشها، ووضـع باب لها، وبدأ المؤمنون يصعـدون إلى الهضبة ليحضروا قدَّاس الأحـد، وينصتوا لعظات ديمتريوس، ويقدمـوا أضحياتهم ويتناولوا من خبـز الرب وخمره. لكن لم تمضِ سنوات حتـى أسقطت السيول السقف على رأس المصلين، وذهب أبانوب في جولة جديدة نحو الجنوب، ليبحث عن بنَّاء آخر يمكنه أن يبني سقفًا لا تسقطه السيول.

بعد تأمل طويل للمكان والأعمدة والسقف المنهدم، قال الرجل:

– يمكننا تدعيم روابط الأعمدة وبناء أقبية عليها.

هز أبانوب رأسه قائلاً:

– افعل ما تريد.

من جديد عاد العمال وبدأ نشاطهم في تقطيع الأحجار، وتكوين الملاط مـن ترابها، وارتفعت السقالات، وأخذ البنَّاء العجوز في وضع الأحجار

علــى الدعامات والأربطة علــى هيئة داوئر تضيق كلمــا ارتفعت، حتى انطبقـت في نهايتهـا على نفسها، فكانــت أول كنيسة مقببــة يراها الناس، وبــدت في نظرهم أعجوبة، حتى أن ديمتريوســ خرج من خلوته ليرى ما تحدَّث به الرهبان.

يومها أفصح ديمتريوســ لأبانوب عن رغبته في بناء كنيسة أخرى في الطرف المقابل من الهضبة، حيث يمكنها أن تتسع لعدد أكبر من المصلين، وتكون بديــلاً يعتمد عليه حال انشغال الكنيسة الأخــرى، وكان لا بدَّ أن يتحــرك كلاهما لتحقيق الحلــم، فنزل ديمتريوس في جولــة طويلة لم يعد منهــا إلا بعــد عام أو أكــثر، جولة بشَّر خلالهــا بكنيسة الــربِّ التي على الهضبــة، ووعظ في كلِّ تجمع بقرية أو كوم، مطالبًا الجميع بالمساعدة في بناء كنيســة جديدة للرب، وأخذته جولته نزولا مــع النيل إلى الدلتا سيرًا على الأقــدام، متحدثًا عن بركات الملاح وقداستــه، لم يكن بصحبته غير راهبــين من الدير، وكلمــا سمع الناس بسيرة المــلاح ولبؤته تدافعوا لنيل البركة من رسوله، فكان يجمع بركات كل قرية منها ويبيعه لمن يجده من التجار.

عاد ديمتريوس مــن جولته ليضع ما معه من أموال أمام تلميذه مطالبًا بالشــروع في البنــاء، حينها أحضر أبانــوب البنَّاء من جديــد، ووضعوا الأعمــدة ورسمــوا أركان الكنيسة، تلك التي لم ترتبــط بمغارة ولا قدس أقداس، فتربعت على مساحة كافيــة، وارتفعت لها قباب وأبراج عالية، وحملت جرسًا كبيرًا في برجها الغربي المطل على السفح، حيث الرعاة في الصحراء والمزارعين في الحقول والأجران.

ظل العمل يجري لمدة أعوام ثلاثة، فقد رأى أبانوب أن يستثمر فائض الأمــوال التي أحضرها ديمتريوس في عمل جديد، فألحَّ عليه في بناء عدد مــن القلالي للرهبــان على حافة الهضبة، كي تحميهــم من البرد والمطر، وتكون سورًا يحمي الدير من دخول الذئاب والضواري إليه.

- ٢٣ -

رسائل أوريجينوس (٣)

صديقــي العزيــز ديونسيوس، كما قلت لك في رسالتــي السابقة، أنني مــا أكتب كي تــرد علي، أو أن تنظر في شأني علــى أي نحو، لكنني أريد أن أعــترف، ولا يوجــد الآن أفضل منك كي أعترف لــه، وربما هذا ما جعلنــي أعاود الكتابة إليك من جديد، دون انتظار رد، أو حتى توقُّع لهذا الرد، فأنا أعلــم أن الطرق صارت مكتظة بالكارهين لأبناء الرب، وأن كل حجــر في الطريق أسفله عين تنظر أو سهم ينطلق، لذا لا أتوقع مجيء رسائلك، وألتمس ألف عذر لك، لكن قلبي مليء بالآلام، آلام أكبر من تلك التي يئن تحتها جســدي، وشوقي للتخلص منها لا يقل شوقًا عن القفز في الهــواء نحو الإسكندريــة وبحرها، حيث صبــاي وتكويني، وخطاي الأولى وأيــام صعودي، هذه السنوات التي لم أحمل سواها معي، التي ما زالت تطاردني حتى الآن:

– لا تغيِّر قلبك بسببنا.

هكــذا أرسلــت لوالدي أحثه علــى الاستشهاد متمســكًا بطريق الرب، وألا يسمــح لضعفه تجاهنا نحن أولاده السبعة الصغار أن يميله عن طريق الحــق، فأن يميل رجــل مثله فهذا يعنــي أن آلاف الرجال مــن الضعفاء سيميلــون من بعده، كنت أتمنــى أن أكون مثالاً لهــم كوالدي، لكن أمي حبستنــي، جمعت كل الأسفــار والأناجيل ورسائــل القديسين فأحرقتها، أغلقــت عليَّ بــاب غرفتي وجلست تبكــي، نعم يا صديقي بكــت، بل إنها مالت علــى قدمي ومسحت وجهها فيها مقبلة وراجيــة ألا آتي لها بمصيبة أخرى بعــد مصيبة والدي، لم أعرف ما الذي يمكننــي فعله، هل أتركها وإخوتــي الصغار كي أذهب فأقول للجنود إننــي على دين المسيح، وإنهم

إما أن يتركوا والدي أو يأخذوني لأقتل معه، أم أرضخ لطلبها وأجلس في مكاني، شعرت لحظتها أن قـواي تنهار، وأن كل الكلمات التي يمكن أن نقولها عن العزيمة والإيمان لا وجود لها.

أعـترف يـا صديقي أنني ضعفـت، وأنني لم أكن مؤمنًـا بحق في هذه اللحظـة، أعترف أنني لم أكن جديـرًا برعاية المسيح لي، لـذا فأنا أتحمل آلامـي وعذاباتي بنفسٍ راضيـة، وكلما اشتـد أعداء الـرب في تعذيبي وإيلامـي كنت أبتسم، نعم كانت عيني تنزف دمعًا حارقًا وفمي يبتسم، لا لشـيء سوى أنني كنت أعلم أنه كلمـا ازداد ألمي تجاوزَ الرب عن خطئي وضعفي.

مضـت شهـور وأنا لا أخـرج من قمرة أمـي، والحال يـزداد سوءًا كل يـوم عن سابقـه، فقد أتى الجنود وانتزعـوا كل شيء من البيت، ولم يبقوا فيه سـوى حوائط عارية، انتزعوا كل ما كنا نمتلكه، وبالكاد تركوا الحوائـط بعدما بكت أمي وإخوتي أمامهم كـي يتركوا لنا مكانًا نبيت فيه، وتدخَّـل أصدقاء ومعارف والـدي لحاكم المدينة، فأوقـف الجنود أيديهم لكنهـم لم يردوا شيئًا مما نهبوه، فخرجت بحثًا عن رزق لنا، حملت كتبي وأوراقـي وذهبت إلى السيدة أوثاكا نيكيـدا طالبًا أن أقدم خدماتي لتعليمها المسيحية، تلك التي دخلتهـا مؤخرًا ولا تعرف عنها الكثير، يومها حدثتها عن استشهاد أبي، وشعوري أن روحه هي التي تحميني وتحركني، وأنها هـي التي دفعتني لأن أطـرق بابها الآن، كانت سيـدة طيبة القلب، لديها صفـاء يمتزج بطيبة واضحـة، لم أخفِ عنها احتياجـي إلى المال، وأنني كنـت مطلوبًا من قبل السلطـات، وأنني توقفت عن الذهـاب إلى مدرسة اللاهوت بعد مصادرة أملاكنا.

يومها رأيت الدموع تتقافز في عينيها، وفي لحظة احتضنتني، شعرت أنني أمام أمي التي لم تلدني، وأن التي تركتها في البيت ليست سوى أختي التي تكـبرني، حينها أرحت رأسـي على صدرها وبكيـت، كان نشيجي يتعالى كلمـا مسحت على رأسي، وكانت صورة أبـي تتحرك أمام عيني كمـا حدثني عنها الجيران، فقـد رأوا الجنود يحنونه رغمًا عنه على خشبة كبـيرة، لينزل السيـاف بآلتها على عنقه، فتتفجر الدمـاء منه كنهر ينهمر

علـى الأرض، بعض الجنود تأفف ساخطًـا حين طالته الدماء، وبعضهم ضحـك ساخرًا وهو يلعن أبـي، وبلا سبب أخذوا يركلونـه، بينما جسده ينتفضـ وهو يمـوت. بكيت في سري وأنـا أروي لها قصتـي، ثم تعالى نشيجي أكثر فأكـثر، بينما أناملها تتخلل شعـري، متمتمة بكلمات يونانية كثيرة، كما لو أنها تطارد الشرير كي يخرج مني.

في بيـت أوثاكا ذات الأربعين من العمـر أمضيت عامًا ونصف أعلمها الصـلاة وبعضًـا مـن فلسفة اللاهـوت وأفسر لهـا آيـات الأناجيل، عام ونصف تكفلت فيه بنفقات عائلتـي ومصروفات إكمال تعليمي في مدرسة الميوزيوم، وبدا لي أن الحياة أعطتني وجهها الباسم، فقد استعدت مكانتي في المدرسة، ومحبة أساتذتي لي، فضلاً عن رعايتي لإخوتي وأمي وبيتنا الذي أخذ يستعيد بعض رونقه، لكن الأيام السعيدة لا تدوم، فقد مر على بيـت السيدة أوثاكا كاهن من أنطاكيا يدعـى بولس، طالبًا أن تمده ببعض المـال لأنه يريد الذهـاب إلى البرية كي يبشر أهلهـا، فاستضافته ليعظها، وطـال مقامه في بيتها، بعدما أقنعها أنهـا لم تعرف تعاليم السيد المسيح كما ينبغي، فقـد جاء من أورشليم، وقد أمضى في معيـة كهنتها شهورًا، علم فيها أن الصلاة بهذه الطريقة ليست على صواب، فقد فهم الكثيرون صلاة المسيح وآراءه على غير ما أراد.

هكـذا تحدث الرجل بطلاقـة فاستجابت له بطيبة قلـب، وشكت في أن كل ما علمتها إياه كان خطأ، وأخذ يعلمها أن الابن ليس الآب، وأنه وإن حمـل صفات أبيه إلا أنه ليس مثله، ولا يمكن أن يحل الأب فيه، فكلاهما منفصـل عن الآخر، وبينهما الروح القدس، ولا يمكن للثالوث أن يكون واحـدًا، فكلٌّ له طبيعتـه، هكذا تحدث، ووجدتها تنظـر لي بوصفي شابًّا لم يعـرف الحقيقة بعـد، وسعت لإرشادي نحو الصـواب كما تصورته، وسعيـت لمناظرة الأنطاكـي، دافعت عن الرب ووحـدة أقانيمه، دافعت عن الامتزاج بين اللاهوت والناسوت، لكنه شككها في حداثة سني، وثقة الآباء الذين علموه الحقيقة في القدس وبيت لحم، ووجدتني غير قادر على أن أكـون في بيت يدنس بالهرطقات، فقد أعدت لـه مجلسًا، وسمحت له أن يلقي تعاليمه الغريبة على ضيوفها، فصرخت في وجهه أن يتوقف عن

حديثه، وصور لي حماسي أنني يمكنني أن ألزمه المنطق بالقوة، فأمسكت بثيابه صارخًا أمامهم بكذبه، فما كان منها إلا أن طردتني من بيتها.

هكـذا عدتُ إلى نقطة البدء، حيث أسرة مكونة من سبعة أفراد لا عائل لهم سواي، وقد صرت منبوذًا من قبل السيدة العطوف علينا، صرت أيضًا مغضوبًـا عليه من قبل الطبقة الثرية، ولم يسمح لي بالدخول إلى بيوتهم، ليس لأنني أحدثهم بغير ما يقوله الأنطاكي، ولكن لأنني لا أراعي اللياقة في الحديـث، وهذه يا صديقي أكبر، لدى الأثرياء، من الهرطقة عشرات المـرات، فهم يغفرون كل ما دونها، ولا يتسامحون مع مرتكبها، خاصة وإن كان من طبقة المستخدمين لديهم.

حينهـا فكرت طويـلاً، وقـررت أن أتوقـف عن تدريـس اللاهوت في البيـوت لأبنـاء الأغنياء، ووجدت أننـي يمكنني أن أتعامـل مع أبناء الوثنيـين، فحصيلتي مـن الأشعار والخطب اليونانية كبـير، ويمكنني أن أعتمـد عليهـا في تدريس الأدب وقواعـد اللغة لهم، يومهـا ارتديت ثيابًا وثنية وأخـذت أدور على بيوتهم طالبًا التدريـس لأبنائهم، لم يكن الأمر في بدئـه سهلاً، فكثير من الآبـاء كان ينظر لي بوصفي طفلاً وليس شابًّا، كانوا يستخفون بي وبقدرتي على حفظ الملاحم، مما جعلني أتحدى أحدهم في تعليم أبنائه، وكان عليَّ أن أنقطع لثلاثة أبناء في أعمار مختلفة لأعلمهم الشعـر والنحو والبلاغـة مجانًا. في البدء وضعت خطـة مبسطة لتحبيبهم في الأشعـار والملاحم، ثـم تدرجت في تعميقها شيئًـا فشيئًا، كانت بديهتي سريعة، وذاكرتي حاضرة، ولساني يتدفق بالحكم والمأثورات، حتى أن الرجل الذي كان ينصت من خلف الأبواب دهش، وتحدث عني لأصدقائه وأصدقائهم، ووجدتني مطلوبًا في بيت كل منهم للتدريس لأبنائهم.

في البـدء كان همي أن أجمع ما ينقـذ أمي وإخوتي من الجوع، ويمنع الدائنين عن مطاردتنا من جديد، لكن ما إن ازداد عدد طلابي حتى بدأت أعـود لكوني مسيحيًّا، وأنني لا بدَّ أن أنشر دين الرب بين عبدة الأوثان، كان ذلك بالنسبة لي مغامرة وسعيًا للاستشهاد من أجل الإيمان، مثلما فعل أبي، ومثلما قلت له "لا تغير قلبك بسببنا"، ولم أكن أريد أن أضعف أو أحيد عـن طريق المسيح، فرحتُ أشرح لهـم الإلياذة والأوديسة لهوميروس،

وقصيـدة الأعمال والأيـام لهسيود، وما تركه كل من بنـدار وسافو من قصائد مغناة، وما تركه إيسخيلوسـ وسوفوكليس ويوربيديز من أعمال محزنة، وما كتبه أريستوفان من أعمال مضحكة، وما حكاه إيسوب على لسـان الحيوان، وتركه هـيرودوت من أخبار الملـوك والدول القديمة، ومـا وصلنا من خطب ديموستينيس وغيره، وبـين هذا وذاك كنت أنشر سـيرة المسيح، تارة بوصفه حكيمًا، وتـارة بوصفه المخلص، فانجذب لي الكثيرون، كبلوتارخس شقيق البابا هيراكليس، وكلاهما آمن على يدي، وأخذ التعاليم مني، وكلاهما نبغ في العلم وباركه المسيح، لكن بلوتارخس نال إكليل الشهادة، أما هيراكليس فقد خلفني في رئاسة مدرسة اللاهوت، وكان البابا السابق عليك في كرسي مرقس الرسول.

-٢٤-

سيظــل أنطونيوس لسنوات يذكر الليلة التي قضاها إيمانويل في ضيافته بمغــارة الصخرة القائمة على تخــوم القرى، فقد كانت بداية علاقته بكلب السمــاء، هذا الــذي لم يتركه يهنأ بنوم، حتى أنه تــرك الصخرة والقرى وفــر لاهثًــا من مــكان إلى آخر بحثًا عــن إيمانويل ودير المــلاح. لم يكن الديــر معروفًا في الشمال ولا الجنوب، ولم يستطع أي ممن التقى بهم أن يخبره بمكانه، لكنه كلما تكاســل أو فكر في التكاسل طاردته المخالب ذات الأظافــر الطويلة، وسمع علــى البعد نباحًا يهز كيانه، فــكان يستيقظ من نومه مهرولاً وكأنه لن ينجو من القتل.

الطريــق إلى الدير استغرق عامين مــن البحث، وقادته قدماه للمرور على مختلــف الكنائس والأديرة، كان مساره خاطئًا في البداية، فقد اعتقد أن ديــر الملاح في الغــرب، فقطع الدلتــا سيرًا على حــواف الترع حتى وصــل إلى وادي النطرون، لم يكن يعرف بمَ سيخبر الآباء هناك، ترك سلاحــه إلى جانب خادم البوابة ودخــل ليصلي، لا أحد يمنع المصلين ولا المريديــن من الصلاة، لا أحد يمنــع السائحين من الدخول أو التنسم بهواء الديــر ورؤية قلاليه، لا أحد يمــر دون أن يتطلــع إلى أيقونات القديسين والآبــاء، البعض يشكو همومــه وأمراضه ويطلــب الاعتراف، البعض يطلــب المساعدة وربما الانضمام إلى أهل المكان، البعض يعزي نفسه بأنه في بيــت الرب وبين أبنائــه ومحبيه، لكن أحدًا لم يســأل من قبل عن دير الملاح، كثير من الرهبان لا يعرفــون، كثير من الآباء ذهبوا إلى الشمال والجنــوب، اعتكفوا هنا وصلُّوا هناك، لكن أحــدًا منهم لم يعرف أين هذا الدير، ولا الصحراء التي تحتويه.

كانوا يبتسمون في وداعة محيلين أنطونيوس إلى آباء آخرين ليسألهم، لكن حظــه لم يسعفه في العثور على من يجيبه، وشعر أن إيمانويل لم يكن سوى الملاح نفســه، وأن الأمر لم يكن سوى مسألة من المجاز، فقرر أن يعود من حيث أتى، لكنه في تلك الليلة، وأسفل جدران دير السريان رأى وجه المسيح، كان منيرًا ومبهجًا ووديعًا إلى درجة تجعل من ينظر إليه لا يفكر في النظر إلى غيره، كان يرتدي جلبابًا من الكتان الأبيض، وله شعر طويل مسترسل على كتفيه، وعينه تبدو كما لو أنها كُحلت للتو، كل شيء كان يؤكد في الحلم أنه الرب، وأنه نزل من السماء من أجل أنطونيوس، أمر واحد هو الذي أرقه في منامه، لم يكن ذلك الأمر سوى الكلب الضخم الــذي وضع المسيح يــده على رأسه، كما لــو أنه أسد روِّضــ ليصبح في وفــاء الكلب، بدا أنه راغب في الانفلات مــن يد الرب والانقضاض على أنطونيوس، لولا أن يد الرب كانت تمسح على رأسه برفق وحزم.

لم يكن أنطونيوس يدرك أن رحلته ستطول، وأنه سيتعذَّب في تطوافه إلى هــذا الحد، لكنــه كان سعيدًا أن الــرب اختاره، وأنه لا بــدَّ أن يكمل طريقــه حتى لو وصل إلى آخر العالم، ليس بحثًا عن الدير ولا إيمانويل، ولكن عن الرب الذي قال:

– ستجدني حيث يجب أن تذهب.

حين استيقظ من نومه تخيل أنه أينما ولَّى وجهه سيجد الرب، وأن ثمة صداقة قــد نشأت بينهما، فخرج من دير السريــان إلى البراموس، ومنه إلى الأنبا بيشوي والأنبار مقار، لم يكن في تلك اللحظة مشغولاً بالوصول إلى شــيء، لم يســأل أحدًا عن الملاح ولا ديره، فقــط رأى أن يتطلع إلى أيقونــات الرب وقديسيه، أن يجلس ليصلــي أمام العذراء طالبًا الرحمة، لم يعــرف لمَ الرحمة منها وليس مــن الأب أو الابن، لكنه كان يدرك في نفســه أنها وجه الله الرحيــم، فهي الرحم الذي تكوَّن فيــه المسيح، جلس أمــام أيقونتها طويلاً كأنــه يحمِّل نفسه فيض الرحمــات، ثم غادر وادي النطــرون متجهًــا إلى الإسكندرية، قائلاً لنفسه إنه لــن يطلب من أحد أن

يدلــه على الدير، لا بدَّ أن يصل إليه بنفسه، فلا ينبغي الوصول إلى الرب عبر وسطاء وأدلاء.

حــين وضع قدميــه في الإسكندرية اتجــه إلى كنيســة القديس مرقس، حيث الكرازة والكرسي الرسولي، حيث بدأت الدعوة وتوالت الأفكار، وحضــر الإلــه بتجلياته على الجميــع، ليعين المؤمنــين في مواجهة الروم والوثنيين، علم أن مبانيها ليست المباني القديمة، وأنصت إلى شرح طويل مــن شماس مختص بتاريخ المكان، علــم أن هياكلها الثلاث تحمل مرقس الرســول وميخائيل ومار جرجس، شعر أنها بمثابة الكون المصغر، وأن أضلاعهــا هي أضلاع الحماية من سيفيروســ الشرير، لكنه في النهاية لم يسمع بكلمة الملاح ولو لمرة واحدة، فتركها ونزل إلى بلقاس، حيث جلس أسبوعًــا في رحاب كنيسة العــذراء، وتشكك الآبــاء في هويته وسلاحه، ونظروا إليه على أنه يمثل خطرًا، هنالك كان كلب السماء قد انطلق من يد صاحبــه، وخرج يلهث خلفه في منامــه، فانتفض من بين جدران الكنيسة فارًّا من بلقاس إلى سخا، ترك البلدة تغط في هدوئها واتجه إلى العذراء في كنيستها هناك، لكن كلب السماء طارده من جديد إلى القاهرة، فأخذ يلهث حتــى وصل إلى أبوابها، وسقط مغشيًّا عليه أمام كنيسة أبو سيفين، فحمله الشمامسة والكهنة إلى المستشفى القبطي.

كان قــد أصبح شبحًا بلحية وشعر مهوش وجسد ناحل وعينين غائرتين في عظام وجلد محــروق، أمضى أسابيع يتلقَّى علاجًا ينقله من الموت إلى الحيــاة، كان سؤاله الدائم عن سلاحه، قال إنــه خفير في بلده، وأنه جاء لزيــارة أضرحة القديسين، حين سمحوا له بالخروج صلى للرب اعتذارًا عن تأخره عليه، وذهــب إلى كنائس أبو سرجة والمعلَّقة والقديسة بربارة وغيرها دون جدوى، فمال على كنائس الروم والأرثوذكس سائلاً عمن يعــرف دير المــلاح، لكنه لم يجده، وعاوده المرض مــن جديد، فضاقت أنفاسه، وانقبض صدره، وصرخ تحت وطأة الحمى والعرق في السماء:

– أين أنت؟

ظــل يكرر الســؤال كما لو أنه يستولد الرب مــن رحم الصراخ، لكن الــرب لم يلِنْ له، وتركه شهرًا كامــلاً في مصر القديمة يتلمَّس قوت يومه

علــى هيئة متسوِّل، لا يعرف أين تأخذه قدماه، لا يعرف متى سيأكل ولا متى سينام، وحين يجيئه النوم كان يغلق عينيه ويذهب في ملكوته البعيد. كان الناســ يمنحونــه ما في جيوبهــم ويعبرون، بعض الأطفــال أتوا بما في أيديهــم ووضعوه في يده، بعضــ الأمهات رققن لحاله ونزلن لأجله، بعضــ الشباب صفعــوه على رأسه عشرات المــرات ليعرفوا اسمه، وهو يبحــث في صدره عن كلمة الملاح، ظــل يبحث عنها في الأفواه والصدور كما لو أنها مُحيت من الوجود، لا يعرف بمَ يفسر أمره، ولا كيف يحدث الناس عن رجــل زاره في مغارة على مشارف القرى طالبًا منه أن يتبعه لدير الملاح، ولا كيف يخبرهم بكلب ضارٍ يطارده صباح مساء، يريد أن ينهشه في خطفة واحدة لولا أنامل الرب الَّتي تمسح على رأسه.

ظــل تائهًــا في الــدروب القديمة شهــورًا وأسابيع، حتــى ظهر له من جديد، جائعًا كما لو أنه لم يأكل منذ سنين، كان صوته يأتي من الأعماق، وأقدامــه تزلزل الأرض، ولم يعرف لم فرح بمجــرد سماع نباحه، فقد انتفض من مكانه صارخًا:

– الرب يتذكرني، الرب يطاردني.

جاء صراخه أمام مسجد قديم، فظنَّه الناس مجنونًا أو مخرِّفًا، وراحوا ينتصرون لله عليه، ولم يتركوه حتى هدَّه التعب، فاستند إلى جدار المسجد وغفــا، فإذ بكلــب السماء ينبح، بينمــا الأرض تهتز من تحتــه، فانتفض أنطونيوســ مهرولاً، ودون أن ينتظر إشــارة الرب كي تخبره بالاتجاه الــذي سيتخــذه، أو بالأرض التي سيحل بهــا، دخل محل حلاق، فطلب من صاحبــه أن يزيل عنه شعــره، ثم خرج للشوارع تــاركًا أمره للسيد ومشيئته.

-٢٥-

أكاد أجـزم أن دميانة أصيبت بلوثة حـين جاءها الأب يوساب غرفتها في مبنى الضيافة، لم تكن تنتظر هذا المجيء في يوم ما، وأدهشها أن تسمع صوتـه أمام بابهـا، لم تعـرف إن كان عليها أن تفتح لـه أم تترك الباب مغلقًا وتحدثه من خلفه، لكن صوته كان حاسمًا في طلب الفتح، كما لو أنه صوت مخبر أو أمين شرطة.

هي تعرف هذا النوع من الأصوات بحكم وظيفتها، تعرفها أيضًا بحكم تاريخ والدها مع الشيوعيين، فقد سجل رقمًا مهمًّا في الذهاب إلى السجن. كان في أسبوعـه الأول بالجامعة حـين أتاه زوار الفجـر بصحبة كلابهم الكبـيرة السـوداء، ثم تعددت زياراتهـم وغيابه، حتى أنـه أمضى ذات مرة عامـين من الغياب في أقبية سوداء، وفي عـام ٦٧ وقف في زنزانته لا يعـرف إن كان عليـه أن يرقـص أم يبكـي، فقد أنهى أخـيرًا دراسته الجامعيـة، لكنه فقد الحلـم وانكسرت البلاد وضاعـت القدس من جديد، خرج مـع رفاقه من السجون يبكون ويعضـدون بقاء ناصر في السلطة، مطالبـين بالصفح والبدء من جديد، لكن هذا الصفح كان من جانبهم فقط، فلـم يمض عامان حتى عادوا إلى الزنازين مـن جديد، ، ليخرجوا باكين منهارين على رحيل ناصر.

في سنـوات السـادات كان النهـر يتجه نحـو المصـب، تراخت قوى صـلاح، وأخذ الشعر الأبيض يظهر على جانبـي رأسه، ونصحه الأهل والأصدقـاء بضرورة الـزواج، وكان علىٍ الجميـع أن يساعده في تلك المهمـة، ظل يحلـم لسنوات أن يكـون بطلاً ولو في فيلـم غرامي قصير، فكل مناضل له رفِيقته، وكل مناضل له قصة حبه التي يعرفها الجميع، ما عداه، لا يعرف لمَ لمْ تقتنع به أيٌّ من الرفيقات، ظل هذا السؤال يطارده حتـى وفاته، ولم يخف عنـه ثقله إلا مكتب المحاماة الـذي فتحه مع زميله

سعد اللــه خليل، فقد نشط في التعامل مع قضايــا البسطاء، وأظهر موهبة في فهم القوانــين والبحث عن الأحكام المعضدة لها، كان ذلك في منتصف السبعينيات التي شهدت زواجه من تريزا التي احترمت محبته للآخرين، هو بدوره أفنى حياته في العمل حتى حقق سمعة جعلت الكثيرين يقصدون بابه، بعضهم كان يريــد تأميمه لصالحهم، وبعضهم كان يريد استغلاله، لكنــه لم يكــن معنيًّا بغير الهروب مــن أسئلته الخاصــة، باحثًا عن ميلاده الجديد وسط ضجيج المحاكم.

مــرت دقائق طويلة على يوساب قبــل أن تفتح له دميانة باب غرفتها، وبين ابتسامة واهنة وعين يملأها التساؤل وقفت تعتذر عن تأخرها، همهم يوساب بكلمات غير مفهومة وجلس على الكرسي المواجه للباب:

– أبونا جورج أمر بأن تأخذي إجازة طويلة.

كان الأمر مفاجئًا بالنسبة لها، فهكذا وبدون مبررات تجد نفسها خارج الديــر، وبدا على يوساب أنه لا يريد مغادرة الغرفة قبل أن تخرج منها، أشــار إليها بجمع أشيائها لأن السائــق ينتظرها أسفل الهضبة، سوف يقلها إلى السويس، ومن هناك تتخذ طريقها إلى القاهرة.

لم تعرف ما الذي عليها أن تفعله:

– لا داعي للمقاومة.

تذكــرت ما حكاه والدها عن هذه الجملــة، فدائمًا ما يبتسم زوار الفجر ويقولونها بأدب جم، ودائمًا ما كان يستوعب الإشارة فيستأذنهم في جمع ملابســه والخروج معهم، تذكرت ذلــك قبل أن تهز رأسها وتبدأ في جمع ملابسهــا بخجل واضح أمــام الرهبان المتطلعين لمعرفــة التفاصيل، كانت تعــرف أن الرهبان طوال القامة الواقفين أمام الباب قادرون على إلقائها من فوق الهضبة، دون أن يسمع أحد شيئًا.

– أنا جاهزة.

قالتهــا باستسلام كما لــو أنها تعــرف المصير الــذي ينتظرها، فنهض الرجل من مكانه:

- ألن تغيري ملابسك؟

بـدا أنها ليلة الصدمات الكـبرى، وبدت المخاوف تتزايـد في رأسها، رأت عينـه تسرح على تفاصيلها، فشدت نفسهـا ونفت رغبتها في شيء، حينهـا هز الرجل يده لتسلُّم مفاتيح الغرفة، وتسليم الحقيبة لطوال القامة، وفي مشهد شبه جنائزي تحرك يوساب ومن خلفه دميانة ومن خلفها ثلاثة من الشمامسة الذين لا تعرفهم، وقبل أن تخرج من البوابة الحديدية وقف يوساب ليودعها:

- لا أظن أنك في حاجة للحديث عن الدير ومن فيه.

صفعتهـا الكلمة، وشعرت أنها موجهة نحو أنطونيوس، فماذا سيحدث معـه، ومن سيكمل التحقيق، كانـت لديها رغبة في السؤال، لكن الخوف ألجمهـا، فكتمت أنفاسها وهزت رأسها وتركتـه دون سلام، فاستدار في اتجاه الكنيسة الكبيرة واتخذ طريقه.

تحركت في اتجاه المنحـدر وأخذت تنزل درجاتـه الرخامية الكبيرة، بينمـا الرهبان طـوال القامة يتبعون خطواتها في سيرهـا، نظرت بعينيها نحـو القباب المحاطـة بكشافات كبـيرة تطلق عليها أضـواء ناعمة، كانت الظلال مـن بين النور والظلمة تمنح أجواء مـن القداسة للمكان، شعرت أنهـا لأول مرة ترى الدير ليلاً من الخارج، وأنه تحفة جميلة، وتساءلت في نفسها عمن يكون وراء هذا الجمال. ربما لو كان ملاك الكاتب برفقتها لأخبرهـا أنه الأب يونان النحاس، ذلك الـذي لم يكن يؤمن برؤية شيء غـير نظيف، فلما تولَّى رئاسة الدير التقـى بالأنبا شنودة وشرح له أهمية المكان وتاريخه، فأوصى الأخير ثلاثة مـن العلمانيين الميسورين بزيارة الدير، وهؤلاء بدورهم فهموا الرسالة ووضعوا خططهم لثلاث سنوات.

شهد المكان ترميمـات واسعة للقباب والقلالي وغرفة الطعام والمذبح، وأصر المتبرعون على أن يكون المدخل قنطرة العبور المقدس من الملكوت الدنيوي إلى الملكوت السماوي، فأمـروا ببناء سور على جانبي المنحدر، ووضعوا الرخـام ورصفوا الأرض المتجهة نحو الـوادي الفسيح، حيث الأرض التي اعتاد الآباءُ زراعتها قمحًا من أجل غذاء الرهبان. كان من

المقــرر أن يصطحب الأنبــا في زيارته جمعًا من الآبــاء والأساقفة لإعادة افتتــاح الدير، لكــن خلافه مع الســادات كان قد تصاعــد إلى حد الإقامة الجبرية في دير الأنبا بيشوي بوادي النطرون.

كانــت المخاوف تمــلأ رأسـ دميانة وتضــرب بجناحــين كبيرين في صدرهــا، فى البدء ظنت أن طــوال القامة الذين نزلــوا معها سيتركونها فور التأكد مــن ركوبها الباص، لكنهم صعدوا معها، وتحرك السائق بها وبهــم. كانت تنظر في كل الاتجاهات في صمت علَّها تفهم ما يجري، لكن السكــون كان قد خيم على كل شــيء، فرفعت عينيها نحو القلالي والقباب صارخة في أنطونيوس أن يأتي لنجدتها.

رأت أن السائــق ليســ نفســ السائــق، ولا الطريق نفســ الطريق، فالذاهــب إلى السويس يمشــي بمحاذاة الجبل، فأين ذهبــت الجبال في هذا الظــلام، رغبت أن تســأل السائــق، لكنها انطــوت في كرسيها ولزمت الصمت، فما الجدوى من السؤال الآن.

حــين أيقنت أن هذه ليلتها الأخيرة، رفعت عينيها نحو النجوم المتوارية خلــف سحــب خفيفة، رأت القمــر يتسحب من خلف غيمــة داكنة، فتحت النافذة قليلاً ليتسرب هواء رطب لرئتيها، لم تكن تفكر فيما سيجري معها، لكنهــا كانت تفكــر في أنطونيوس، موقنة أن خروجها علــى هذا النحو له علاقة بالتحقيق، فما الذي سيجري معه؟

حين توقــف الباص بدعوى أن ثمــة شيئًا في العجلة الخلفيــة أيقنت أن النهاية اقتربت، لكنها تماسكت وظلت في كرسيها لا تتحرك، رأت الرهبان ينزلون يتداولون مع السائق، رأته يجيئها ليستئذنها في النزول لأن كريك الرفع أسفل الكنبة التي تجلس فيها، استسلمت لطلبه ونزلت لتراهم يفكون الإطــار، كانت الريــح تحمل بعض البرودة وهي تــدوي في الصحراء، شعــرت أنها بحاجة للاحتماء منها، لم تكن هناك غير صخرة على الجانب الآخر، فعبرت الطريــق وذهبت لتجلس بجانبهــا، رأتهم يفتحون الباب الخلفي للباص، يخرجون أشياء لا تعرفها، كان أحدهم يحمل ما يشبه الفأس مبتعدًا عن الباص، وآخران يعاونان السائق بانهماك واضح، تصاعدت

أصـوات الذئـاب في مكان مـا، انتابها الخوف مـن أصواتهـا المتوالية، نظـرت إلى السماء فرأت الغيوم انقشعـت، وأخذت النجوم في الظهور، والقمر ينير ما حوله، فاستبشرت وتراجعت المخاوف، وداعبها النعاس، فأغلقـت عينيها لتسأل أنطونيوس عما حدث، لكنه لم يسمعها، وأخذ يسير بصحبـة رهبان من طوال القامة على الصخرة التي تجلس تحتها، نهضت لتناديـه، رأتهم يحاولون دفعه من الخلف، صرخت فيه بفزع كي ينتبه، فانتبهت إلى أنها كانت تحلم، وأنها جالسة أسفل الصخرة ولا شيء فوقها، رأت السائق انتهى من عملـه، وأحد الرهبان يعبر الطريق نحوها، حين نهضـت من مكانها تجاه الباص لمحت الراهب الثاني يقف خلف الصخرة، فانتفضـ جسدها كمـا لو أن شيئًا تلبَّسها، وأدركـت أنها مقتولة لا محالة، فتراجعـت بخطواتها إلى الخلف، ثم انطلقـت كالريح في الصحراء، بينما الراهبان يهرولان خلفها، صارخين في السائق أن يلاحقها معهما، فظلت تهرول دون أن تدري إلى أين، لكن حركتها لم تسعفها في الابتعاد كثيرًا، فقـد لحقها أحدهما ودفعها على الأرض، بينما هجم الثاني عليها ليصفعها، لكن الراهب الـذي كان في البعيد ناداه فتوقف، وظنت أنه رسول السماء من أجلها، فتقدم بهدوء نحوها ثم ضربها بيده على رأسها فسقطت مكانها.

-٢٦-

في تلك الليلة صمت أنطونيوس ولم يفتح فمه لرفيقه في المغارة بكلمة، كانت الحيرة تكاد تفتك به، فقد صدق الراهب فيما قال، ومات شيخ البلد دون أن تنطلق من بندقية أنطونيوس رصاصة واحدة، بل ودون أدنى حضور له في القضية، ورغم أنه سعى لأن يكشف للجميع عن وجوده وقوته ودوره الذي لم يقم به، إلا أنه لم يفعل أكثر من الإعلان عن دور المسكوتي، فهو الذي استأجر وهو الذي دبَّر، ومن ثم فهو الفائز الوحيد دون خسائر تُذكر، حتى الإحساس بالذنب فلن يصيبه، ربما كان هذا هو السبب الذي دفع أنطونيوس لأن يخرج من مكمنه، وينزل أمام الناس ليسلم على المسكوتي مطالبًا ببقية أجره، ولم يستطع الأخير الاختلاف أو الرفض، فضرب يده في جيبه وأخرج مبلغًا أكبر من المتفق عليه، طالبًا من أنطونيوس الرحيل، فأخذ المبلغ ومال تجاه حقول الذرة، مطلقًا عدة رصاصات في الهواء كي يرعب من يفكر في ملاحقته، هذه الرصاصات هي التي أكدت أن المسكوتي المسئول عن الجريمة التي لم تتم، فدفعته الأكتاف والصدور بعيدًا عن طابور العزاء، ليجلس كشخص منبوذ على دكة بالقرب من الباب، وبعد قليل، وأمام أعين العمدة وأقارب شيخ البلد، خرج باحثًا عن باب بيته، وهناك تلقى الطلقة التي رسخت في صدره، وحين خرج أبناؤه ليستعلموا عما حدث وجدوه ينزف وبجانبه رزمة الأوراق الحمراء ذات المآذن الطويلة.

كان أنطونيوس قد مال وسط الحقول نحو بيت المسكوتي، موقنًا أن العمدة سيقوم بحركة شجاعة مباغتة، لأجل تبرئة نفسه من الارتباط به كقاطع طريق، وبالفعل صدق حدسه، وخرج رجاله إلى حدود القرية مع الصحراء، عازمين على الذهاب لاقتلاع أنطونيوس من صخرته، لكنهم فوجئوا بصوت الرصاص في القرية من خلفهم، فعادوا ليجدوا

المسكوتــي مضرجًا في دمائه، وزوجته وأبناءه ينوحون من حوله، فدب الضعف في أوصالهم، وتشاغلوا بتجهيز الموتى ودفنهم.

حــين عــاد أنطونيوســ إلى صخرتــه كانــت نجمــة الفجر قــد بزغت بوضــوح، حتى أن السماء التي كانت شبه مظلمة أضيئت كما لو أنها تتهيأ لفــرح ما، وانبلج القمــر على صفحتها في هيئة نصــف رغيف أو أقل، لم يكــن أنطونيوس بحاجــة للتفكير في الطريق، فقدمــاه تحفظان كل حصاة فيــه، تسلق الصخرة صاعدًا عبر شقها الواسع، وتذكر حين لجأ إليها أول مــرة هاربًا من الكلاب والذئــاب، رأى شقها كما لو أنه سلم يصعد به إلى السمــاء، ولم يكن أمامه سوى أن يتسلقه مستكشفًا النهاية، عسى أن يصل لفجــوة يبيت فيهــا حتى الصباح، حين انتهى الشق وجــد نفسه جالسًا على هضبــة تحتمي بصخرة أكــبر، وفي الصخرة ثقب واسع، حين دخله وجد نفســه في غرفة كبيرة تطل على القرى من أمامها، رأى آثار شخص كان يقيــم في المغارة من زمن، فأدرك أن المكان كان صومعة راهب أوً قاطع طريق، فقال لنفسه إن المكان إرث، وقد آل إلى مالك جديد.

مــرت سنــوات عليه وهو مقيم علــى الصخرة، الكل يعلــم بمكانه ولا يرغــب في الاقــتراب منه، الاتفاقــات تأتيه عــبر رجــال اصطفاهم من القــرى، عادة كانوا يقدمــون فروض الولاء من تلقــاء أنفسهم، يجيئون إلى الصخــرة، وينتظرون أسفلها بالساعات كــي يخاطبهم شبحها، عادة ما يظهــر لهم ملثمًا، لا أحد يعرف إن كان هــو نفسه قاطع الطريق الذي سيطر علــى مفارق الطرق أم واحدًا من رجالــه، أم أنه في حقيقة الأمر واحدٌ من أشباح المقتولين على يديه، آلاف المزاعم والهلاوس والخيالات التــي نسجت حــول الصخرة، ولا أحــد يعرف سرها، وحدهــم رجاله هم المسمــوح لهم بالاقتراب منهــا، ينتظرونه أسفلها حتــى يخاطبهم، أو يتجلى لهم، فيتفق على التنفيذ ووقت التنفيذ، لكن أحدًا لم يصعد ولو مرة إلى كفهه.

وحــده الراهب هو الذي صعــد، لا يعرف أنطونيوس كيف ولا متى، فقــد انتبه من نومه ليجده واقفًــا أمامه، مبتسمًا في هدوءٍ من يتطلع إلى أمر محبَّب إلى نفسه، حين انتفض من النوم رافعًا سلاحه في وجه الراهب وجد

ابتسامتــه تتسع، وشعر أنه يعرفه، مرَّ بذهنــه على صور كل من يعرفهم فلم يجــده، ولم ير وجهه في ملــف الذين قتلهــم، ولا الذين هرب منهم، ففتح ملف الأطياف والهلاوس والأحلام، أخيرًا عثر عليه، وجده، كأنه هو، نفس الهدوء ونفســ الابتسامة الفرحة الواسعة، نفس الهدوء المحبب للنفس، كما لو أن طيورًا حطت من السماء لترفرف من حوله، هكذا رآه منذ أيام قائلاً:

- أنا المسيح.

لم يعترضــ أنطونيوســ، ولم يتســاءل عن السبب الــذي جعل الرب يحضر إلى صخرته الفقيرة المنبوذة، لكنه استيقظ من نومه سعيدًا برؤيته، ليســ هناك ما يدعو للسؤال عن سبــب لهذه الرؤية، هو نفسه لا يشعر أن الــرب غاضب عليه، فلديه يقين دائم أنَّــه ينفذ مشيئة الرب، وأنه عبد من عباده الصالحين، ورسول مــن رسله، أو واحد من ملائكته، فهل يمكن أن يغضب الرب من عزرائيل لأنه ينفذ عمله؟!

- لو لم يكن الرب راضيًا عن عملي لمنحني عملاً غيره.

هكذا قال ساخرًا حين طلب منه إيمانويل أن يترك عمله ويتبعه، فنظر إلى الأرض وفكر كثيرًا قبل أن يرفع وجهه ليقول جملته، كان يتوقع أن الراهب سيصــاب بالإحباط والفشل، أو أنه سيتمتــم ببعض الأدعية التي تجلب هداية السماء له، لكن الأخير وقف بباب المغارة قائلاً:

- احذر من كلب السماء.

هكــذا تلقــى تهديدًا مشمــولاً بابتسامة لم يعــرف أن كانــت طمأنينة أم سخرية، يمكن القول إنها كانت شبح ابتسامة ارتسم بهدوء نابع من أحشاء الراهــب إلى وجهه، الراهب الــذي حمل صليبه ورحْلــه ونزل من شق الصخــرة ليذوب في الصحــراء مثلما نبت منها، لكنــه كان قد ألقى بذرته التي أخــذت تنمو سريعًا، فما إن نام أنطونيوس حتى رأى أن كلبًا عظيمًا يحــاول أن ينفلت من تحت أنامل الرب لينطلــق في أثره، ربما كان أسدًا

وليس مجرد كلب، كان يجري منه دون أن يعرف إلى أين، ولا من أين جاءه هذا الجرم الهائل ذو المخالب العملاقة والأظافر المسنونة والأنياب التي تلمع في الظلام، وحتى إن لم يكن الوقت وقت ظلام، فهكذا كان يراه، يشق الصخر ويخرج من أعماق المغارة، كأن جزءًا منها يتحرك نحوه على هيئة كلب يقفز باتجاهه وهو نائم، فينتفض أنطونيوس من نومه هاربًا، دون أن يعرف إلى أين، ودون أن تسعفه سرعته في أن يطلق الرصاص عليه. في النهاية خرج إلى حافة الهضبة، فرآه يخرج من المغارة خلفه، مجرجرًا ما علق بسلسلته من صخور، كانت السلسلة تعوقه لكن صوتها والنيران التي تنبثق من جرجرتها على الصخر تجعل أنطونيوس يرتعد، وخطواته تضيق، فأين يمكنه الذهاب، لم يكن أمامه سوى أن يلتقط سلاحه وينزلق من شق الصخرة مهرولاً في الصحراء، بينما صوت إيمانويل يرن في أذنه:

- ستجدني في دير الملاح.

-٢٧-

رسائل أوريجانوس (٤)

كنــت قد بلغــت السابعة عشر من عمري، وكان قــد مضى على عملي كمدرس لآداب اليونان عامًا ونصف، لكنني حققت شهرة جذبت الأنظار نحــوي، وأقنعت الكثيريــن بدخول المسيحيــة، فكنت أرسلهــم إلى الأب إكلمندســ، أستاذي في مدرسة اللاهــوت بالكنيسة، ليلقنهم الأصول التي ما كان بمستطاعي تعليمهــا لهم، لأنني أدرس في بيوت الوثنيين أنفسهم، ولو علموا بأمري ما تراجعوا عن قتلي.

في تلــك الآونــة طلب إكلمندس مــن البطريرك ديمتريوســ أن أكون مساعــدًا لــه في التدريس بالمدرســة، فوافقه على ذلــك، كان ديمتريوس يعرفنــي منذ زمن، والحق يقــال إنه شملني برعايتــه وفضله، كان ذلك قبــل أن يدب الخلاف بيننا، وقبل أن يعتبرني مارقًا مخالفًا للتعاليم، وهأنا أكتــب لك الآن عن الأمر وديمتريوس في ملكوت السماء، وكلما تذكرت مــا جرى أشعر بأننا كنا حمقــى، أضعنا أعمارنا في سوء فهم كبير، لكنني أيضًــا أشعر براحة صدر، صدقني.. أنــا الآن لا أحمل في قلبي ذرة حقد أو غضــب عليــه، على النقيض أشعر أنه ما كان لــه أن يفعل إلا ما فعله، فالإنسان ابــن طبيعته هو، ابن أوهامه وأفــكاره ولحظة اتخاذه لقراره، لذا لســت غاضبًا من ديمتريوســ، بل على النقيض ممــتنٌّ لما فعله معي، بدءًا من رعايتــه لي، وصولاً إلى تفجيره كل مكامن طاقاتي، لقد صرت العلامة بفضله، صرت صاحب مدرسة بفضله، وجاءت تفاسيري العديدة بفضلــه، لقــد كان بمثابة الإله النقيض، كان شيطــاني الذي يحركني نحو الأمام، يضيق عليَّ الخناق في مكان لأفر إلى مكان أرحب، أنا شاكر له، وأرجو أن يكون نعيم السماء قد طهَّر قلبه من الغضب علي.

شعرت حــين أبلغني إكلمندس بموافقة ديمتريوســ أن المسيح ينظر لي

من علياء السماء بعينــي الرضا، فظللت أصلي حتى خشيت أمي أن أكون قد مــتُّ على حالي مثلما مات سليمــان على كرسيه، حــين أبلغتها بالأمر رقصت كعادة المصريين حين يجيئهم خبرٌ مفرح، فأخذت بيدها ورقصت معهــا، متذكرًا أبي ولحظة الفرح التــي لا بدَّ أنه يشاركنا إياها من ملكوت السمــاء، كنت موقنًا أنه يرقص بيني وأمي، فقد صار ابنه مساعدًا لرئيس مدرســة اللاهوت، وكنت أنظر إليه بعــين الرضا، وكأنني أقول إن عليه أن ينتظــر، فأمامــي الكثير، وأنــا لا بــدَّ أن أحقق أكثر ممــا يتوقع أهلي وأساتذتي جميعًا.

كان كليمنــت أستاذي منــذ دفع بي أبي إليه لأتعلم علــى يديه، لم أبتعد عنــه إلا في العام الذي حبستني أمــي في قمرتها كي لا يلقي الجنود القبض عليَّ، تمامًا كما فعلوا بأبي، هذا العام عملت فيه لدى السيدة ثيكاتا، لكنني حــين فكرت في التدريس للوثنيين لم أستطــع أن أتخذ هذه الخطوة إلا بعد موافقته، كان عالمًا وقديسًا جليلاً، لعلك تذكر فضله في ضبط تعاليم المسيح بكنيســة أورشليــم بعدما تــرك الإسكندرية، فحين اشتد بطشــ سبتيموس ساويرس فر الجميع بأنفسهم، وكان من بينهم إكلمندس الذي قرر الذهاب إلى أنطاكيا، وفي طريقه إلى هناك مرَّ بأورشليم، واستقر فيها حتى تنيَّح.

حــين ترك الإسكندرية ظلت مدرسة اللاهوت خالية، لا أحد يرأسها، ولم يكــن عــدد أساتذتها يتجاوز أصابــع اليد الواحــدة، ولا عدد التلاميذ المترددــين عليهــا يتجــاوز الثلاثين تلميــذًا، فالــكل خائــف، لأن جنود سبتيموس في كل مكان.

عرض عليَّ ديمتريوس رئاسة مدرسة اللاهوت خلفًا لإكلمندس، ولم أعــرف بمَ أجيبه، فأن أكون في الثامنة عشر من عمري خليفة لإكلمندس الفيلسوف والمعلم صاحب "المتفرقات" و"نصائح إلى اليونانيين" فذلك شأن لم أكــن أحلم به في هذه السن، وهو مغامرة كــبرى، فتعاليم كليمنت تملأ أرجاء الإسكندرية، الفلاسفة في رأيه أطفال ينضجون من خلال الإيمان، ومــن ثم فالفلسفة ليست شرًّا، لكنها منحة من السماء، لأن البشر هم الذين يخلطون الحق بالباطل وليس الفلسفة ولا الفلاسفة، هكذا كان يزاوج بين

نقيضين لا يجتمعان، وزاد في الأمر أن قال بأن الغنوسية ليست هرطقة، لكنهـا تمتع بالإعلان عن الله من خلال السيد المسيح المعلم، لذا فغنوسي لا تعني هرطوقيًّا، بل مسيحيًّا مؤمنًا يسلك بروح الرب وينعم بمعرفة الله.

فلسفتـه هذه صارت تمـلأ الآن البر والبحر، وانتشـرت بين المؤمنين كالنـار في الهشيم، فمن الذي سيوقفها، وكيف له ذلك، ومن الذي سيملأ مخيلة الناس بعلمه عوضًا عن فلسفته ومعرفته.

يومهـا قررت أن أكرِّس حياتي لعملـي الجديد كمعلم للموعوظين، في البدء عملـت على إعدادهم وتهيئتهم للعمـاد، لا بتعليمهم الإيمان المسيحي فحسـب، وإنمـا بتقديم التعاليـم الخاصة بالحيـاة المسيحية العمليـة أيضًا، ولم يقـف عملي مع الأعداد المتزايدة على تهيئتهـم لنيل سر العماد، وإنما تهيئتهـم أيضًا لقبول إكليـل الشهادة. وقمتُ بتقسيـم التلاميذ إلى فصلين، جاعـلاً المبتدئين تحت إشـراف هيراكليس، حيث يعلِّمهـم المبادئ الأولى للإيمان، أما أنا فقد عكفت على تعليم المتقدمين اللاهوت والفلسفة، واضعًا الكتـاب المقدس نصب عينيَّ، مؤكدًا للجميـع أنني أعمل من خلال الفلسفة على خدمة النص، وشرعت في تفسير الكتاب المقدس وفقًا لمنهج رمزي، حيث أستنبط المعاني الباطنية للآيات والمواقف والأحداث، ذاهبًا إلى أنه لا يمكـن أن تخضع الكتب المقدسة لقراءة مباشرة، فهذا لا يحدث مع الخطب والملاحم، فكيف يحدث مع مواقف الرب ومقولاته!

على الجانب العملي وظَّفت طاقاتي لتقديم حياتي كمثل للحياة الإنجيلية. مهتمًّا بحيـاة النسك وممارسـة الصلاة كمنهج يساعد علـى تحرير النفس واتحادهـا مع الله، لذا جعلت مـن الصلاة نعمة خاصة مـن قبل الله لفهم كلمتـه، مؤكدًا أن الاتحاد معه لا يكـون إلا بالحفاظ على الحالة البتولية، وأن على الإنسـان أن ينسحب عن العالم وهو لا يزال مقيمًا فيه، مضحيًا بالترف ومحتقرًا المجد البشري، كي يكون حاله كله لله.

ظـل أمري على هذا النحو عامـين أو ثلاثة، والمؤمنون يتزايدون من حـولي كل يوم عـن سابقه، حتـى أن النسوة صرن يتدفقـن من أطراف المدينة لسماع موعظتي، كنت أجلسهن في صف وأجلس الشباب والرجال

في صفــين، كثيرات كــن يسعــين لأن يجذبن انتباهي، كثــيرات تفنن في إلقــاء أسئلة أو حكي مواقف تحــدث لهن، طالبات مني الرد على هواجس الشيطــان لهن، كنت أتحلَّى بالصبر قدر المستطاع وأنا أجيب عن أسئلة ما كان لبني إسرائيل أن يسألوها.

وفي غمار هذه الأسئلة التي لا إجابات لها عندي رأيت ميريت، وقعت عيني عليهــا في ثيابهــا البسيطة ووجههــا الجميل، كان مــدورًا كالبدر، ناعمًا كفراشــة، مضيئًا كشمعة في الظلام، رأيتها وسط أقرانها صامتة لا تتحــدث، ولا تفكر في طــرح سؤال واحد، فقط تجلــس كملاك نزل من السماء ليكــون شاهدًا على موعظتي، توقفت عن الــكلام، ربما خاطبتها في داخلــي أن تنهضــ لتقــول ما لم تفكــر في قولــه، ورددت بداخلي بما كان ينبغــي علي الرد به عليهــا، ربما غازلتها في صــدري، وتمنيت أن أضمهــا إلى قلبي، أو أغزوها بآلتي، فلأول مرة أشعر أن شيئًا في داخلي يتحــرك نحو الإنــاث، وأنني لست حجــرًا لحفظ الــكلام وترديده، أنني إنســان له رغبات وأحلام وخيــالات، ورأيتني أنتفض من داخلي، بينما الموعوظون يهتفون باسمي:

– أيها الأب أوريجانوس.

حين انتبهت إليهم وجــدت ابتسامات على الوجوه، بحثت عن ميريت بطرفي من جديــد، ورأيت احمرار وجهها، فعلمــت أن ثمة شيئًا ما كان ينبغــي أن يكون مخفيًّا، شعــرت أن جبهتي تنزف عرقًــا، فجففتها بيدي وعدت لما كنــت أتحدث عنه، لكنني لم أستطع أن أكمل، فقد تشتت فكري وعقلي، واهتزت قواي مني، فأنهيت الموعظة واعدًا الحاضرين بإكمالها في الغد.

يمكننــي أن أعــترف يا صديقي أمامــك الآن بأنني فكــرت في ميريت بحيوانية مفرطة، فوجهها الملائكــي وجسدها اللدن لم يفارقا مخيلتي، فقد وقفــت أنظرهم وهم يعبرون مــن الباب أمامي في طريقهــم إلى الشارع الواســع، لم أكن أفعل ذلك كثيرًا، لكن الجمــال الهادئ لتلك الفتاة جعلني

أقف مشدوهًا أمامها، باحثًا بعيني عنها بين زميلاتها وجاراتها، بدا لي أن أمها كانت معها، بدا أيضًا أنها شرحت لها الرسائل، فقد وضعت عينها في الأرض، عينها الكبيرة الواسعة ذات الرموش الطويلة السوداء، بينما رفعت يدها ملابسها عن الحصى، فبدت كملكة ترفع إزارها عن الدنس، لا أعرف كيف سمحتُ لعيني أن تمر على صدرها العريض، حتى أنني على البعد لمحتُ منبت الصدر، ونزلت بطرف عيني على الخصر المشوق كعود من بخور، وكفارس يحيي أميرة آن عبورها من أمامه انحنيت، أو هكذا تصورت، مسدلاً رمشي على عيني، بينما شبح ابتسامة صغيرة من فمها يطل عليَّ.

كنت موقنًا في هذه اللحظة أن الرسالة وصلتها، حتى أن أمها نفسها أدركت أنني أريدها أن تؤكد لي على استلامها، وظللت طيلة الليلة مبعدًا كتبي وأوراقي جانبًا، فلأول مرة لا رغبة لدي في الكلام أو القراءة، لأول مرة أشعر أنني أريد أن أجلس على سطح بيتنا لأتأمل النجوم والسحب، نعم فعلت هذا، تركت إخوتي يتسامرون في غرفة المعيشة وصعدت وحدي أرقب وجهها، تارة أراه في قرص القمر، وتارة أراه قادمًا من بين النجوم، حتى غلبني النوم في مكاني، ووجدت أمي توقظني لأعود إلى فراشي، أذكر أنني نهضت دون أن أجيب عن سؤال واحد من شلال أسئلتها المتلاحق.

في الصباح، وكان النوم ما زال ملاصقًا لعيني، ذهبت إلى المدرسة، ظللت أنتظر قدوم ميريت مع أترابها، لكنها لم تأتِ، كدت أجن، ورغبت في أن أسأل عنها، لكن ذلك لم يحدث، شعرت بنوع من التعاسة والضيق، نوع من الرغبة في الثورة والغضب، تشاجرت مع رجل سألني إن كان المسيح ابن الله فمن يكون يوسف النجار، لا أعرف ما الذي جعلني أشعر أن الرجل يهين الرب، وأن هذه الأسئلة قد تفتح أبواب الشيطان، ثرت عليه، محذرًا من أن الشيطان الذي يكمن في التفاصيل، يكمن أيضًا في طرح كل ما ليس مطروحًا، وبغضب أنهيت العظة.

سيطرت عليَّ حالة من الغضب غير المفهوم، لا أمي قادرة على

إرضائـــي، ولا أي من تلامذتـــي قادر على فهمي، حتـــى ارتباطاتي مع القساوسة والآباء اعتذرت عنهـــا، وحبست نفسي في حجرتي، مدَّعيًّا أن لدي عملاً أريد أن أنجزه، لكن العمل الوحيد المتاح كان معاقبة نفسي على ضعفها، وانحرافها عن المسار الذي وضعته لها، وأمام رغبتي في عقابها على ما حـــدث قررت أن أفعل كمـــا قال الإنجيل "يوجـــد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السمـــوات"، باحثًا بذلك رضا الرب، ملتزمًا بنص حديثه، فبحثت عن الشفـــرة التي كنت أحلق بها، وقمت إلى نفسي واضعًا حشوة من قماش في فمي، ثـــم أمسكت بخصيتي وجذذتها بالشفرة، مطلقًا صرخـــة مدوية من الألم، دخلت على أثرها أمي إلى الغرفة لتجدني غارقًا في بحر من الدماء.

-٢٨-

خرج من القاهرة منتشيًا بأن كلب السماء ما زال يعرف طريقه، وهو مـا يعني له أن الرب لم يهملـه، ولم يحكم بتركه في المتاهة والضلال، فما زال تحت عـين الله، يريـده في الطريق الصواب، لـذا كان يهرول في الطرق متسمعًـا صوت السماء وكلبها، مذكرًا نفســه بوجه الراهب الذي جاءه في المغارة، الراهب الذي لم يبت سوى ليلة واحدة وقلب حياته رأسًا على عقب، فترك مهنتة التي تخيل أنها قدره المحتوم، وأخذ يلهث خلفه في الطرقـات، متخليًا عن الرعب الذي كان يثيره في عيون الناس وقلوبهم، ليتلبَّسه هو الرعب من كلب السماء ومخالبه.

كثيرا ما تمنَّى أن تعود الأيام الخوالي، حيث قريتهم التي على هوامش القرى، والتــي تبدو كما لو أنهـا تركت سوأتها للصحـراء، فجاءها منها أصحـاب اللحى العتـاة، فطالبوا أهلها بدفع الجزيـة، لم يتوقع في يوم أن يكون مختلفًا عن الجميع، ولا أن يطالب الناس بالرفض والعصيان، لكن الجزية إهانة، الجزية إقرار دونية وتبعية، فمن الذي ذكَّرهم بها الآن؟

حـين علم الأمير بأمره قرر أن يجعلـه يطرق على باب كل بيت طالبًا الجزية مـن أهله، كان راغبًا في كسر كرامتـه وزرع الخوف في نفوس الآخرين، وكان الخـوف يغلف الجميع، هم خافوا عليه من الموت، وهو خاف علـى بيوتهم من الحـرق وأطفالهم من القتـل ونسائهم من الهتك، وحـين سمع بأحـكام الأمير وأنه لا يساكنه فيها قـط، أيقن أنه فقد كل من يعـرف، رأى والده يسقط أمامه غمًّـا، ورأى أمه لا تعرف هل تصرخ عليه أم على زوجها، فظلـت تلطم وجهها حتى سقطت بين أيدي الناس، ولم يستطع أن ينحني ليحمل أيًّا منهما، رأى القرية تطلق كلابها وسفهاءها في أثـره، ولم يعرف كم استغـرق في هلعه وخوفه، ولا كم كان عليه أن

يقفز بين الأحجار والحفر خوفًا من النباح والأنياب والمخالب، كان ينظر إلى الخلف ويجري، ينظر إلى الأمام ولا يدري أين سيضع قدميه في الأرض.

ظل الخوف يطارده حتى انكفأ على وجهه، لا يعرف من أين أتته هذه الحفرة ليسقط فيها، فالأرض لم تكن مستوية، لكن لم تكن بهذا القدر من الهبوط، كما لو أن أحدًا حفرها بفأسه ويديه من أجله، فظهرت تحت قدميه فجأة، فلم يتمالك نفسه، وسقط فيها على وجهه، فأظلمت الدنيا عليه، وغاب عن وعيه.

كان موقنًا أنهم اقتربوا بما يكفي لأن يقتلوه، هكذا سمع صراخهم ونباح كلابهم حين استفاق من موته، شعر بالتراب الذي أثارته أقدامهم، لكنه ظل كامنًا في مكانه، فهو ميت، وليس هناك ما يستحق النضال من أجله، ظل منتظرًا أن يأتيه موته على يد شخص أو شبح، لكنه لم يأتِ، هدأت الأصوات وخفت الأقدام وسطع القمر ولم يأت، هاجت الكلاب وعوت الذئاب ونزل البرد دون أن يأتي، كل ما أتى هو إحساسه بأن جراحه تزيد عليه، بينما الذئاب تنثر التراب عليه، ورائحتها النتنة تملأ أنفه، وتخيل لو أنها نزلت إليه، لكن الرب ستر، فقد ظهرت جماعة من أهل الليل، وقرروا أن يطردوا الذئاب بعيدًا عن غنيمتهم، وبدافع الفضول ألقى أحدهم ضوء كشافه في الحفرة، سطع الضوء على وجه أنطونيوس، فأخذ يئن بصوت عالٍ من مكانه، حتى أنهم تصوروا أن ذئبًا قد أكله، فألقوا إليه بحبل وجذبوه إليهم، فسار معهم إلى حيث التبة التي يأوون إليها في الجبل، فعالجوه وأعطوه بندقية يتعلم عليها التصويب وتركوه يذهب ليأخذ ثأره بنفسه.

وضع أنطونيوس بندقيته على كتفه ونزل من التبة باحثًا عن طريق عودته إلى القرية، بدت له الصحراء رغم اتساعها واضحة المعالم، فظل يمشي حتى وصل إلى قرية الجهاديين من الخلف، كمُن في مكانه منتظرًا أن يعرف من أين يمكنه أن يبدأ، كان يعلم أن أصحاب اللحى يتجمعون كل ليلة في كوخ الأمير على قناة الماء، فكر في أن يكمن في حقول الذرة منتظرًا مرور أحدهم فيقتله، لكنه عاد وقرر أن يباغت الأمير نفسه. كان

الأخـير في الأربعين من عمـره، ممتلئ بعض الشـيء، حين طرق بابه خـرج رجل آخر، وبدا أنه كان ينتظر رفاقًـا آخرين، وضع أنطونيوس بندقيته في عنق الرجل ودفعه حتى دخل به إلى الأمير، فطلب من الرجل أن يربطه من قدميه، وتحت فوهة السلاح ونظرة الشر التي ملأت وجهه أطاعه الرجل، وما إن انتهى حتى نزل أنطونيوس بمؤخرة البندقية على رأسه، ثم طلب من الأمير أن ينهض، وكان الأخير ينتفض من الرعب، فأطاعــه في كل مــا يريد، حتى أنه خلــع ملابسه ووقف عاريًـا أمامه دون تأخـير، وكان هذا آخر ما طلبه منــه أنطونيوس، فلم يستطع أن يصبر أكثر من ذلــك على قتله، حين ضغط على الزناد وانفجر الــدم أمام عينيه أدرك أنــه الآن أصبح قاتلاً. في البدء ارتجفـت أوصاله، لكن الأمير كان قد مات بالفعل، شيعه برصاصة أخرى ليتأكد عبوره نحو الرغبة الدائمة في القتل.

كان هــذا أول دم يجري على يديه، بعدهــا خرج من الكوخ، وجلس على مقربة منه حتى جــاء أتباع الأمير إلى المكان، كان يعلم أن صاحبهم لم يمـت، وأنه سيخبرهم بمــا جرى، فخرجوا باحثين عنــه، كانت ثالث رصاصــة لــه في رأس الرجل الــذي أبلغهم، وأسقط في يــد الجميع حين وجــدوا أنطونيوســ واقفًـا بينهــم وفوهة بندقيتــه على رأســ أحدهم من الخلــف، طالبًا منهم أن يلقوا سلاحهم في الأرض، بعدها أمر واحدًا منهم بــأن يقيدهم على نحو ما حدث مع الأمير، ثــم وقف ليطلق عظته الأولى على رءوسهم، مهــددًا بأنه لو علم أن قبطيًّا حدث له مكروه في القرية أو غيرها فلن يتورع عن قتلهم في بيوتهم، ثم تركهم وفر إلى حقول الذرة، ذلك الجبل الأخضر الذي يختفي فيه كل شيء.

هكذا علــم الجميع بتحول أنطونيوس من رجل يقــرأ ويكتب إلى رجل يقتــل وينهب، ولم ينس أن يخرج من القرية مثلما دخلها، فلا عزاء لأهله ولا مصافحة لأصدقائه، فقط ظل يهرول في الصحراء حتى وصل إلى تلك الصخرة التي بدت كما لو أنها في انتظاره، كان شروق الشمس وغروبها علــى جلده قد جعله يعرف كيف ينام مغمضًا عينًا وفاتحًا الأخرى، وكان عليــه أن يستيقظ في الصبــاح كي يعلن عن وجــوده كقاطع طريق وقاتل مأجور.

-٢٩-

نعق غراب عجوز على بـاب حجرتي، في البدء لم يشغلني صراخه، فعادة ما تصرخ الحدآت والغربان في المكان، لا جديد في ذلك، هكذا قلت لنفسـي حين تعلَّق قلبي بالصوت الزاعق في هذا الوقت من الليل، غير أن أذنيَّ أخذتـا ترهفان السمع، وسرعان ما انتابني إلحاح غريب كي أخرج فأستطلع الأمر، نهضت من فراشي متمتمًا باسم المسيح الحي أن ينقذنا من الشرير.

لم يكـن هنـاك ما يستدعي الريبـة، كل شيء هـادئ وساكن ووديع، حتـى الغراب الذي شعـرت أنه صرخ أمام الغرفة لم تقـع عليه عيناي، بـدا لي أن الدير أصبح مسكونًا بشبح مـا، أو أنني الذي أصيب بالجنون، نظـرت إلى صفحـة السماء العاريـة مستطلعًا نجومها، ورأيـت أن الليل انتصف ولا يمكن لأحد سواي أن يكون مستيقظًا، فركْت يديَّ في بعضهما وقررت العودة إلى فراشي متثائبًا، لكنني ما إن استدرت حتى لمحت على البعـد ضوء غرفة دميانة مضاء، لم يكـن في مبنى الضيافة غيرها في ذلك اليوم، حاولت أن أقنع نفسي أنها ربما ما زالت تقرأ رسائل أوريجانوس للبابـا ديونسيوسـس، تلك التي نشرت ضمن كتـاب أثناسيوس عن القديس أنطونيوسـس، فقـد ذكرت لي أنهـا غرقت في تفاصيل الكتـاب الذي أحيل بسببه أنطونيوس إليها.

خطفنـي من شـرودي نعيق جديد لطائر أسود عمـلاق رأيته يرفرف أعلـى الجبـل، كان نعيقًا قويًّـا ومؤلمًا، كما لـو أن أحـدًا كان يشد وثاق الغـراب تأهيـلاً لصلبه هناك، صرت موقنًا أن ثمـة شيئًا غريبًا يحدث في الدير، جلست في مكاني أمام مخزن الكتب على أمل أن تهدأ وساوسي أو

يـراودني النوم من جديد، ولم يمر كثير مـن الوقت حتى وجدت راهبيْن مـن المكلفين بحراسة الدير يعـبران باتجاه البوابة، بعدهـا وصل أتوبيس سياحي صغـير وأطلق صافرتـه مرتين أسفل المـدرج الرخامي، واتجه راهبان يتمتعان بطـول القامة نحو البوابة والمدرج، وعاد الحارسان إلى مبنـى الضيافة من جديد، حينها أيقنـت أن ثمة شيئًا ما يحدث، ووقفت في ظل الباب مراقبًا مـا يجري، رأيت الأب يوساب يمشي وخلفه دميانة في حالة من الفزع وخلفها ثلاثة من الرهبان طوال القامة، كان أحدهم يحمل حقيبة ملابسها.

ظللت أرقب المشهد حتى توقف الجميع أمام البوابة، وسمعت صريرها العجوز وهي تُفتح وتغلق، سمعت توسلات من دميانة بالبقاء حتى الصباح، بعدها عاد يوساب متجهًا نحو قلالي الرهبان المجاورة للكنيسة الصغيرة.

أغلقت بابـي وأقنعت نفسي بضرورة النوم، لكـن النوم لم يعرف لي طريقًا، فقد انتابتني الهواجس والأفكار الشريرة، حاولت طردها بمختلف السبل دون جدوى، في النهاية قررت أن أبحث عمن يحمل عني بعض ما أعانيـه، أخيرًا وصلت إلى الشخص الذي يمكن الوثوق به، لم يكن سوى أنطونيوس، هذا الـذي يهمه أمر دميانة مثلي، تطلعـت من فرجة الباب إلى مـا يجري في الخـارج، كان القمر قد انـزوى في جانب من السماء، وتكاثفـت الغيوم على وجهه، شعـرت ببرودة جعلت جسـدي ينتفض، وددت لـو أرجع مكاني لأنام حتى الصبـاح ولا ينكشف أمري، لكن كل شيء كان يدفعني نحو قـلالي الرهبان، بينما نعيق الغربان يتزايد في قمة الجبل.

كانت خطواتي تتسارع على الأرض، متسحبًا بجوار الحوائط ومتخفيًا في ظلال المباني، حين وصلت إلى قلاية أنطونيوس أخذت في طرق خفيف على بابها، كان توتري أكبر من طرقاتي على الباب، فالخوف أن يسمع أحـد غيره ويخرج لينظر ما يجري، ناديته بصوت خفيض، صوت كان يدخـل إلى جوفي أكثر مما يخرج منه، ورحت أبتهل إلى الرب بحرقة أن

يوقظـــه، ويبدو أن المسيح كان معي، فثمة حركة أخذت في الظهور داخل القلاية، حينها نزعت خوفي وركلت البــاب بقدمي، فوجدت أنطونيوس واقفًا أمامي بملابس نومه.

نحيتــه جانبًا وألقيت بنفسي إلى دخل الغرفة، حين أغلق الباب متسائلاً عمــا يجري أخــذت في إبلاغه بمــا رأيت ومــا سمعت، اشتعــل الغضب في جســده، وكل مــا سيطر عليــه هو أن دميانة في خطــر، وأنه لا بد من حمايتهــا، بدت عليه الرغبة في عمل شيء ما، شـــيء ينقذها مما هي فيه، لكنه لم يكن يعرف ما ينبغي عليه عمله، قال إنه سيذهب إلى يوساب سائلاً عمــا حدث، حذرتــه من أن ذلــك لا يفيدها في شيء، وربمــا سيزيد من ورطتها ويورطه معها، وهم لن يسمحوا لأحد أن يفضح أمرهم، شعرت أنه يستجيب لكلامي، لكنني في النهاية شعرت أن بقائي أصبح يمثل خطرًا عليَّ أنا أيضًا، فأقنعته بالصلاة من أجلها، ثم تركته عائدًا إلى المكتبة.

في الصبــاح كان كل شـــيء هادئــًا كأي يــوم آخر، خــرج الشمامسة والرهبان من قلاليهم وغرفهم مــع إشراقة النهار لتأدية أعمالهم، ونشط الفلاحــون في حرثهم وبذارهم ورعايــة مواشيهــم، وتسامعت أصوات الديكــة وهـــي تصيح ككل صباح. كل شـــيء بدا معتادًا كما لــو أن شيئًا لم يحدث، وحدي الذي كنت أترقــب أن يقع أمر غير معتاد، أو أن يفتضح الأمر غير المعتاد، ويأتي بتداعياته على الجميع، لكن شيئًا لم يحدث، حتى أنطونيوســ نفسه لم يخرج من مكانه، ورأيته بعد القداس يتجه إلى مركز التحقيقات، بدا لي أنني الوحيد المختلف عن طبيعته، ارتديت ملابسي على عجــل وذهبت خلفــه لأفتح المركــز في انتظار المحققة دميانــة التي أعرف أنها لن تجيء، ألقيت عليه تحيــة الصباح وأعملت مفاتيحي في ثقب الباب معتذرًا عن التأخر، ورد هو أيضًا باقتضاب كما أنه لا يعلم شيئًا، كدت أن أصرخ فيه عما حدث وجعله باردًا بهذا الشكل، لكن الحق يقال إن الرجل كانــت عيناه مرهقتــين كما لو أنهما لم تعرفا معنــى النوم، نظر نحوي في يأســ مشمول بالغضب، فتركته وذهبــت لأحضر له كوبًا من اللبن، لكنه بادرني:

- ألم تأتِ المحققة دميانة بعد؟

مـن جديد نظرت مندهشًا نحوه، فإما أنه أصيب بجنون أو أن ما رأيته بالأمس كان حلمًا، وأمام إصرار عينيه الواسعتين قررت أن أسايره:

- سأرسل في استعجالها.

تركته وأرسلت إبراهيم الساعي ليستعجلها، فقد انتصف النهار ولم نبدأ في أي مـن أعمالنا، ولا أدري مـا الذي جعلني أذهب لعمـل القهوة بدلاً منـه، ربما سعيـت لأن أشغل نفسي بشيء ما، حـين عدت وجدت الأب يوسـاب واقفًا أمام غرفة التحقيقات يرقـب أنطونيوس في صمت، وحين رآني سألني:

- لمن تصنع القوة بنفسك يا ملاك؟

تلعثمت قائلاً:

- أرسلت إبراهيم لاستعجال المحققة دميانة، فطلب مني أن أكمل عمل القهوة.

هز رأسه قائلاً:

- المحققة دميانة سافرت بالأمس، فقد أنهى الأب جورج عملها في الدير.

كان يلقـي بكلماته ضاغطًا على مخارج الحروف وكأنه يصبها في أذن أنطونيوسـ واحدة تلو أخـرى، حينها أدركت كـم كان أنطونيوس فطنًا حـين تعامل في هـذا الصباح كأنه لا يعرف شيئًـا، ولا أدري لم ارتاحت أعصابـي بعدما كان التوتر سيقتلني، فقد شعرت أن أحدًا فقأ دملاً بداخلي وأخرج صديده من جسدي، فوقفت أنظر للرجلين وكلاهما ينظر في عين الآخر بتحـدٍّ غريب، وحين عنَّ لي أن أنطونيوسـ قد يكشف عن غضبه ويتفوه بما لا يجب أن يبوح به، قررت أن أتدخل:

- هل سيتم انتداب محقق آخر؟

ابتسم يوساب وهو ينظر بطرف عينه نحوي:

- لا . . التحقيق مع القساوسة والرهبان سيكون في الأبرشية.

ثم استدار نحو أنطونيوس:

- ومن سيجد المجلس أن أفكاره تستحق الحرمان فلن يترددوا.

حينها رفع أنطونيوس وجهه مبتسمًا:

- هل سيراجعون أفكار الجميع؟

هز يوساب رأسه بغضب:

- ربما.

ثم استدار مشيحًا بيده في وجهي طالبًا إغلاق المكان.

-٣٠-

- أسبوع الآلام هو أقدس أيام السنة يا أنطونيوس.

هكـذا نظر باخوميوسـس إلى تلميذه وراح يتحدث كمـا لو أنه يعظه من جديد:

الملوك والأباطرة كانوا يمنحون الناس عطلة في هذا الأسبوع، يمنحون موظفـي الدولة عطلة ليتفرغوا للعبادة، ثيؤدوسيوس كان يطلق الأسرى والمساجـين ليشتركوا مع باقي المؤمنين في العبـادة، السادة كانوا يمنحون عبيدهم عطلة، لأن الوحي قـال "لا تصنع عملاً ما، أنت وابنك وابنتك، وعبـدك وأمتك وبهيمتك، ونزيلك الـذي داخل أبوابك"، الرب لم يسمح بـأن تكون روحانيات السـادة مبنية على حرمان العبيـد، فالكل للرب، يعبدونه معًا، ويتمتعون بحضـوره في قلوبهم معًا، مظاهر الحزن تكون واضحة على الجميـع، أعمدة الكنيسة تكون ملفوفـة بالسواد، الأيقونات يجللها السواد، وكثير من الجدران والمانجليا، حتى الهواء يتضمخ بألحان حزينة، والنسـاك يمضون أيامه في صلوات ونسـك، جوعًا يجوعون، وظمأ يظمأون، وآلامًا على آلامهم يتوجعون، المؤمنون لا يأكلون سوى الخبـز والملح من مساء الخميس حتى قداسـس العيد، والضعفاء لا يتذوقون حلوًا فيه، لأنه لا يليق بهم أن يأكلوا حلوًا وهم يتذكرون آلام الرب، جميع الأسرار تُعطَّل، ما عدا الاعتراف والكهنوت، فلا معمودية ولا ميرون، لا بخور يرفع ولا قداس يقام، إلا في خميس العهد وسبت النور، لا زواج ولا مسحـة مرضى ولا صلاة تجنيز، من ينتقل في أسبوع الآلام لا يرفع عليه بخـور، وصلوات الأجبيـة تعطل، وتحل تسابيـح البصخة محلها، صـلاة البكور نتذكر فيهـا ميلاد المسيح، صلاة منتصـف الليل نتذكر فيها مجيئه الثاني، وصلاة الثالثة نتذكر حلول الروح القدس، صلاة السادسة تذكرنا بصلبه، وصلاة التاسعة تذكرنا بموته.

بكى باخوميوس حين ذكر موت المسيح، وتوقف عن موعظته التي لم يجد جمهورًا لها غير أنطونيوس، ولم يشأ الأخير أن يحرمه من نشوة الانطلاق في الموعظة، تلك التي اعتاد أن يتجلى بها على الشعب في زمن صديقه إيمانويل، بوجه مبتسم، وجسد ممتلئ كبرميل صغير، لكن روحه كانت تحلق على رءوس الجميع بمرحها المعتاد كفراشة بيضاء، كان باخوميوس أيقونة الآحاد، كثيرون كانوا يشدون الرحال من أجله، الآباء والأمهات والأبناء، جميعهم يتنادون من البيوت في القرى والخيام في الصحارى لأجل سماع موعظته، الآحاد جميعها من أجل باخوميوس، ما من صلاة تمر في هذا اليوم طيلة سنوات إيمانويل إلا وباخوميوس يطلق بخورها، ويدعو الرب من أجل أن يتقبَّل الجميع في ملكوته.

– لم أسموه بالبصخة؟

سأل أنطونيوس في خشوع، كمن يبلغ صاحب الوعظة أنه بحاجة لعظته، فنظر باخوميوسٍ في وجهه مبتسمًا، ثم مد يده وقبض على رأسه ووضعها على صدره قائلاً:

– لأن فصحنا المسيح؛ وقد ذبح لأجلنا. فإننا نتذكر أن دمه كان عوضًا عنا، وأنه لا خلاص بغير الدم.

رفع أنطونيوس وجهه من على صدر باخوميوس:

– ألا خلاص بغير الدم؟!

– هذه مشيئة الرب، ونحن نتمثلها في كل تناول.

هز أنطونيوس رأسه مستسلمًا، وبغير تفكير قال:

– دميانا خطفت، ولا نعرف إلى أين ذهبوا بها.

ظهرت على ملامح باخوميوس صدمة المفاجأة، فرفع حاجبيه وترك عينيه مفتوحتين على الفراغ، فأكمل أنطونيوس:

– رآهم الكاتب وهم يرحلونها في منتصف الليل، كانوا رهبانًا غرباء، وكان يوساب قائدهم.

– هل التقيت به؟

سأل باخوميوس بخوف.

- رأيته في الصباح، قال إن التحقيقات ستتولاها الأبرشية، وستراجِع من ترى أن أفكاره في حاجة إلى المراجعة.

تنفس باخوميوس بحزن، ودار بوجهه باحثًا عن النافذة الصغيرة التي تطل على حافة الهضبة وما أسفلها، بدا أنه يبحث عن وجه صديقه إيمانويل، وسمعه أنطونيوس يقول:

- لماذا تركتنا؟

حين استدار كانت الدموع قد حفرت مجراها على وجهه، احتضنه أنطونيوس مهدهدًا على ظهره حتى تمالك الرجل نفسه من جديد.

- هل نسيت رحمة الرب ومشيئته؟

هكذا رقَّق أنطونيوس صوته وهو يحتضن وجه أستاذه بعينيه، فمد الأخير راحته ومسح بقايا دموعه قائلاً:

- تذكرت إيمانويل، وحز في نفسي ما يجري من بعده.

هز أنطونيوس رأسه:

- لقد عاش محنته، ونحن نعيش محنتنا، نتلمس منه العون، ولا نلومه على شيء.

هنالك مد باخوميوس يده أسفل وسادة قديمة أعلى النملية التي يضع فيها أغراضه، فأخرج لفافة بها بعض الحبوب متناهية الصغر، هز اللفافة أمام عيني أنطونيوس وشبح ابتسامة يرتسم على وجهه:

- آخر الذكريات مع إيمانويل، هو الذي أحضرها لي، كان يأتي ليشرب منها معي.

على ضوء موقد صغير خبأه باخوميوس أسفل سريره جلسا يتابعان الروائح المنبعثة من الحبوب التي تغلي في المياه أمامهما، وعلى مهل أخذا

يرتِّبـان تفاصيـل الأوراق التي تشابكت وتعقـدت في الدير، قالا إن خطف دميانة وترحيلها له علاقة بوضع الدير من جديد على مسار الأبرشية، وأن كلاهما المقصود بمسألة مراجعة الأفكار، ولا بد أننا سنواجَه بأسئلة عصيبة، وتشكيك لا حدود له، وربما لا ننجو من تهم الهرطقة، والحكم بالحرمان.

للحظة شعـر باخوميوس أن رفيقه في الغرفـة لا يعنيه كل ذلك، وأنه غير مهتـم بالبقاء في الدير أو الخروج منه، غير مهتم بحظيرة الرب وما فيها، فأخذ ينظر إليه بتعجب، حتى كشف له أنطونيوس عما في صدره:

– كنـت قاتلاً وقاطع طريق، بحثت عن الله في كل كنيسة ودير، حتى هنا، ولم أصل إليه إلا حينما رأيت دميانة، وجهها السمح، جسدها اللدن، صوتها الناعم، أصابعها الصغـيرة، كل شيء فيها كان يشعرني بحضور الرب، ويمنحني القدرة على السمو والتعالي، كلما فكرت فيها كنت أدرك أننـي موجود وحيّ، كلما رأيتها أدركـت أن الحقيقة تكتمل، والوجود لم يـأت من عدم، وأن الـرب كان لا بد أن يمر برحم امـرأة كي نراه، أنا الذي أهرقـت كثيرًا من الدماء على الأرض أشعر الآن أن دمي مهرق، وأن أسبوع آلامي قد بدأ.

ربت باخوميوس على كتف تلميذه متنهدًا كمـن يخرج قبضة من نار علقـت بأحشائه، لم يكن لديـه ما يقوله، لكنه كان يوقـن أن المحنة ستعبر علـى خير، وأنه لا بد من الاحتيـاط في التعامل مع الآخرين، ووضع يده في حوض الماء وبدأ يغسل الغلاية والكوبين، وأعاد الموقد إلى مكانه متأكدًا أن النمل لن يزحف على الأرض:

– يمكنك أن تذهب للبحث عنها.

ألقى العجـوز بحجر في بحيرة الصمت التي رانـت بينه وبين تلميذه، ونظر إلى الشعاع المتدفق من النافذة الصغيرة نازلاً على وجه أنطونيوس، لم يعرف الأخير بم يرد، لكن الفكرة بدت كما لو أنها جذبته:

– كيف؟

طلب باخوميوس منه أن يفتح سحارة الكنبة التي يجلس عليها، حين فتحها وجد لفة كبيرة من حبال الليف التي حبكها باخوميوس في وقت فراغه، قال باخوميوس:

– يمكنك ثقب الجدار والقفز من على الحافة.

كان المكان قد أصبح خانقًا، وشعاع الشمس يتمدد على وجه أنطونيوس، حتى أن بعضًا من قطرات العرق نبتت على جبينه، فرفع كم ردائه ومر به عليها، شعر أن باخوميوس يمر بحالة من الاكتئاب التي أودت به للتفكير في هذه الأمور، فلا يمكن لأحد أن يفكر في الهروب من الدير، وما الذي يجعله يفعل ذلك والبوابة لا تغلق؟

نظر باخوميوس بعينيه المحاطتين بأكياس دهنية وجلد مترهل إلى أنطونيوس قائلاً:

– لا تدعهم يلقون القبض عليك.

بدا لأنطونيوس أن أستاذه جادًا فيما يقول، فرفع حاجبيه موقنًا أن ثمة خطوبًا كبيرة ستقع على الأرض، وأنه سيكون في خطر محدق، ولم يعرف هل يمكنه التجاوب مع تنبؤات رجل في السبعين، أم يعتبرها تخاريف الشيخوخة، فتحرك بعيدًا عن الشعاع المسلط على وجهه، رأى الغرفة كما لو أنها مظلمة، لكنه مع إغماضة عينه مرة وأخرى رأى أن الظلمة تزول، فنظر في عيني باخوميوس سائلاً عن السبب.

– لأننا في حاجة إلى من يدافع عنا.

– لم يلقون القبض عليَّ؟!

قالها أنطونيوس غاضبًا، وانتابه يقين أن أستاذه يعرف شيئًا ولا يريد الإفصاح عنه، لكن الأخير ضحك قائلاً:

– مجرد هواجس لرجل عجوز.

-٣١-

لم يكـن رفائيل يتوقع أن يجد ملاذه في أفكار الرواقيين والأفلاطونيين الجـدد، وجـد نفسه معجبًـا بأفكار زينـون السيشومي عـن أن العالم كل عضـوي تتخلله قوة الله الفاعلة، وإن رأس الحكمة هي معرفة هذا الكل، علمًـا بـأن الإنسان لا يمكنـه أن يلتمس هـذه المعرفـة، إلا إذا كبح جماح عواطفه وتحرر من الانفعال.

انطلـق يتابع أفـكار الرواقيين عن التناغم مـع الطبيعة، والصبر على المشـاق، والأخذ بأهداب الفضيلة كمصدر السعادة، لأنها هي إرادة الله، بينمـا المشاعر الهدامـة كالخوف والحسد والجنس ليسـت سوى ضلالات وأحـكام خاطئـة، فالإنسـان الذي حقق الكمـال الفكـري والأخلاقي لا يخضـع لهذه المشاعر، ولكـي يحيا المرء حياة صالحة فلا بـد من استيعابه قوانين الطبيعة.

كان الجدل الدائر بين الأساتذة والطلاب ثريًّا، وكان رفائيل كالأرض الظامئة إلى المطر، فأخذ ينصت إلى هؤلاء وهؤلاء، في الصباح يذهب إلى الميوزيوم حيث الرواقيـين والأفلاطونيين، وفي المساء يذهب إلى الكنيسة حيث المطارنة والآباء، ومدرسة اللاهوت التي انطوت بعد أوريجانوس وخبـا ضوؤها، لكنها ظلت تعلـم المبتدئين التعاليـم الضرورية للإيمان، رأى رفائيل أن الآباء في الكنيسة لا يرغبون في الرواقيين وتعاليمهم، فقد أودت بكثـير من المتعاملين معها إلى الإلحـاد، ولا ينبغي التشبه بالوثنيين وكفرهم.

لم يكـن رفائيـل يدخل أرضًا إلا بعدمـا يتحسسها بأصابـع قدمه أولاً، ولا يحـادث أحـدًا عن شيء إلا بعدمـا ينصت إليه فيه، علمـه أساتذته في

الميوزيوم كيف ينصت، وحين لا يضيف له الإنصات فيمكنه أن يسأل، كانوا وهم أهل الجدل يكرهون الجدال، ويرون في تلاميذهم الجمهور المرجو لطرح الأفكار والنظريات عليه، وجميعها نظريات تبحث في تفاصيل التفاصيل، وتستوجب خيالاً نشطًا للتجاوب معها، لأنها تقوم على الفرض غير المتحقق، لكن احتمالية حدوثه واردة بنسبة واحد في الألف.

بعد فترة التفت رفائيل إلى القراءة، رأى أنها أفضل ما يمكن التعلم من خلاله، ومن ثم عرفت قدماه طريق المكتبة، كان يذهب بعد انتهاء المدرسة في الصباح، يجلس ليطلب من الموظف المتفاني في خدمة الرواد كتابًا لزينون أو أفلوطين، وبعد فترة عرَّفه الموظف بما جمعه تلامذة أفلوطين من محاضرات له، قال إنها التاسوعيات الست، لأنها ستة أجزاء، كل جزء منها يشتمل على تسعة فصول، مع الوقت صار رفائيل صديقًا لموظف المكتبة، يخبره بأحدث ما لديه، ويدله على الأساتذة الذين يترددون على المكان، فأقام صداقات معهم، وأخذ في سؤالهم عما يعنُّ له من أفكار، كان آخر ما يمكنه أن يسأل عنه هو المسيحية، فقد كانت لا تزال دينًا منبوذًا من الجميع، رغم اعتراف قسطنطين بها.

ظل رفائيل معلنًا أنه يهودي يتعلم في الميوزيوم، ينام في بيت والده، ويتحصل على مصروفه منه، ويذهب للمدرسة والمعبد والمكتبة بوصفه يهوديًّا، لكنه يوم الأحد يذهب سرًّا إلى الكنيسة ليحضر القداس، ظل أربع سنوات يمارس حياته على هذا النحو حتى التقى به هناك جار لهم، وفي المساء أبلغ الرجل والد رفائيل أنه لمح شخصًا في الكنيسة يشبه ابنه، كان ذلك بالنسبة لرفائيل كارثة، فقد ترك والده عمله وتفرغ لمتابعته، حين وجده يدخل الكنيسة أعد له محبسًا في غرفة خلفية بالبيت، ومنع عنه الطعام والشراب مؤكدًا أن موته أفضل من أن يدنِّس العائلة ويدخل في دين المهرطقين، كان والد رفائيل متشددًا، لكن أمه كانت سيدة تعرف أنها ليس لديها أبناء سوى رفائيل، فأدركت أن حياته ولو كان مسيحيًّا أفضل عندها من أن يكون نبيًّا ميتًا، فقررت الإفراج عنه دون علم والده.

شعر رفائيل أنه بحاجة إلى ترك الإسكندرية، فوالده لن يسكت، وسوف يستخدم كل نفوذه من أجل إعادته إلى دينه القديم، فقرر أن يعود إلى الدير، كانت حكمة ديمتريوس في ذلك الوقت أكثر ما يحتاجه، فجمع أغراضه سريعًا، وقبض على ما وفرته له أمه من مال، وأصر على أن يحمل معه هدية لديمتريوس، وليس هناك أفضل من تاسوعيات أفلوطين وشروحات إكلمندس السكندري والمبادئ لأورجانوس، وأعمال الرواقيين.

حين اكتمل ما يريده بحث عن أول قافلة متجهة إلى جنوب القلزم، فخرج معها يحادث من فيها عن اليهودية والمسيحية وعبادة إيزيس، وجد نفسه يستعير مقولات الرواقيين عن السعادة النابعة من الفضيلة، والحساب القائم على العمل، وتجسد الله في كل شيء، وأنه هو غاية لكل موجود. وجد نفسه يمزج ما بين الرواقية والأفلاطونية وآيات الإنجيل، بينما عيون من ينصتون إليه مشدوهة إليه وكأنه صوت السماء.

حين وصل إلى الدير كانت كنيسة الله قد ارتفعت على أرضه، وكان أبانوب قد أسلم قياد نفسه لمهندسه الذي أتى من الجنوب، فأخذوا يحتفلون بأسبوع الآلام مزينين بالجريد الأخضر القلايات وغرف الخدم والعاملين في المكان، كان الجبل قد أصبح كقلعة من الجريد، والرهبان يحتفلون بآلام المسيح كما لو أنهم يجمعون أعضاءه على نحو ما فعلت إيزيس مع أوزيريس.

- أخي أبانوب الطيب.. ما هكذا حدث مع المسيح.

قالها رفائيل بتوسل، خائفًا أن يقع الدير في الهرطقة، فتعاليم الكنيسة واضحة، ولا يجب الخروج عنها، لكن أبانوب لم يكن يرى في المسيح سوى أنه أب للجميع، ولا بدَّ من الاحتفال به على نحو ما يفعل المصريون بآلهتهم، فكيف يأتي العيد ولا يبتهلون إلى النور الذي سينزل ليملأ الوجود، ويرتفع به إلى مملكة السماء!

احتكم رفائيل إلى ديمتريوس، وكان الأخير قد وقع فريسة للمرض، والدير كلــه أصبح في يد أبانوب ورفاقه، فلم يرد أن يفتح باب الانقسام، وجلســ مع رفائيــل يشكره علــى هديته، وطلــب من أبانــوب أن يجهز لرفائيــل مكانًا يعلِّم فيه الرهبان ما حصَّله مــن علوم الكنيسة والميوزيوم، ويضــع فيه ما جمعه مــن كتب خلال رحلته، كان الأمــر بالنسبة للاثنين قسمة العدل، فالعلم لرفائيل، والطقوس لأبانوب، لكن رفائيل كان باحثًا عن مجال أوســع، فقرر النزول من الهضبة والذهــاب بتعالميه إلى حيث يكون الناس.

-٣٢-

لم تكد الشمس تشرق على الأرض حتى وجدت من يطرق باب غرفتي، للوهلة الأولى تخيلت أنهم علموا بأمري، وأنني مقضيٌّ علي لا محالة، انتفضت من فراشي ووقفت خلف الباب سائلاً بذعر عن الطارق، وجدته الشماس روبير، أحد تلامذة يوساب الذين تمت سيامتهم منذ أيام، قال إن الأخير ينتظرني في قلايته، شكرته على المجيء وأبلغته أنني سألحق به.

كان الصباح خارج المخزن وكتبه مختلفًا، وأفضل ما فيه رائحته، دائمًا ما كنت أستيقظ مبكرًا، باحثًا عن رائحة الصباح، متصورًا أن ملكوت الله في الأعالي بهذه الرائحة التي لا أعرف سببًا لجمالها، ربما هي بعض من يود البحر الكامن خلف الجبل، وربما هي بعض من نفحات الصخر النائم أمامنا، وربما أنفاس الله التي يطلقها على الدنيا، ويستقبلها الرهبان بالتسابيح والتراتيل، وتنطلق من أجلها أجراس الكنيسة التي توقظ كل شيء، قبل أن ينبلج النهار وتختفي الظلمة.

تذكرت طفولتي وقدمي تدوس بحذائي القديم على الحصى النائم في الأرض، وشعرت بهمتي في السير من الأنين المتوالي للحصى أسفل حذائي، حين وصلت إلى قلاية يوساب طرقت الباب بخوف وخجل، كانت رأسي تقلب الأفكار كلها وجهًا لظهر، لا أدري ما الأمر الذي جعله يرسل في طلبي، فقد رحلت المحققة دميانة بالأمس، وهو نفسه قال إن التحقيقات ستكون في الأبرشية، فما الذي ذكره بي الآن؟

لم يطل وقوفي أمام الباب، فقد فتح لي روبير ودخلت خلفه إلى غرفة يوساب:

– خذ هذه الأوراق إلى مخزنك.

هكـذا قال يوساب في حسم وهو يشير إلى صـرة من القماش في جانب مـن الغرفة، كانت الفرحة تحملني علـى جناحيها وتطير بي إلى غرفتي، فلـم أصدق أنني خرجت سليمًا معافى، فلو نما إلى علم يوساب أنني رأيته ورجالـه برفقة دميانة لألقى بي من علـى ظهر الجبل، وطيلة الطريق لم أنظر إلى أحد، ولم ألق تحية الصباح على أحد، كنت أهرول كمن نجا من المـوت، مخفيًا وجهي في أعماق الصرة التي وضعتها على كتفي، وما إن وصلـت إلى الغرفة حتى أخذت أصلي شكرًا للرب. ولم يأت في ذهني أن ما حملته هو أوراق دميانة وكتبها.

كانـت الأوراق تشتمـل على التحقيقـات التي أجرتهـا في فترة عملها بالديـر، والتقارير التي رفعتها لرئيس الديـر في نهايتها، فضلاً عن عدد من كتب القانون، وبعض سير الآباء، ونسخة من الكتاب المقدس، وعدد مـن الروايات وكتـب التاريخ، لكن أهم مـن كل ذلك كانـت التحقيقات التي جـرت مع أنطونيوس، والتقرير الذي رفعتـه إلى جورج المنحني، مطالبـة فيـه بفتح تحقيق حـول محاولة اغتيـال أنطونيوسـ، فهناك من لمحتهـم يهاجمونه ويفـرون في ضوء القمر الشاحب، كانـوا يرتدون زيًّا موحدًا بالأسود، ليس زي رهبان، ولا عاملين في الدير، وكانوا يغطون وجوههم، مما يثير الريبة في أن ثمة من يسعى لقتل الراهب المسكين.

حين قـرأت التقريـر انتابنـي الفخر لأننـي تعرفت على هـذه الفتاة، وأدركت أنها واجهت نتائج شجاعتهـا، أدركت أيضًا كم أنا صغير لأنني لم أمتلـك شجاعة فتاة وحيدة وغريبة في دير رهبان كهذا، هززت رأسي بأسى متفكرًا فيما قد يكون جرى لها على أيديهم، ولم أستطع سؤال نفسي إن كان بمقدورها الشهادة بما رأيت أم لا، في تلك اللحظة ظهر في مخيلتي أنطونيوس، فهو الرجل الوحيد الذي يمكنه أن يدفع عمره في مقابل إنقاذها والدفاع عنها، فما بالنا وأنها ذهبت ضحية الدفاع عنه، وقلت لنفسي إنه لا بد أن يقرأ هذا التقرير ليعرف كيف يواجه أعداء يحيطون به ولا يعلمهم.

حين وضعت التقرير في مكانه وجدت دفترًا بغلاف بلاستيكي أبيض، فتحته من منتصفه فطالعت:

منذ رأيت أنطونيوس وأنا أسأل نفسي أين رأيته من قبل، وجهه معتاد لدي، حتى طوله ولحيته وطريقة كلامه، ليس واردًا أننا التقينا من قبل، ففي الوقت الذي كنت أجاهد فيه كي أخرج من نفق الديون التي تركها والدي، كان هو يعيش حياته في الصحراء، سواء أكان قاتلا أم راهبًا، لكنه في كلتا الحالتين كان في أماكن أبعد ما تكون عن حياتي في سانت تريزا، فأين رأيته؟ أعتقد أنه الحلم، حيث تغادر الأرواح أجسادها، وتهيم على وجهها في الملكوت لتتعارف، ولا بد أننا تعارفنا هناك، فوجهه المستدير بعينيه العميقتين ليس غريبًا عني، ولا تلك الطمأنينة التي لا أعرف مصدرًا لها، حتى أنني أختلق الفرص من أجل رؤيته، فأطلب من الكاتب ملاك أن يبلغه بموعد جلسة تحقيق عاجلة، لكن خشيتي من أن ينتبه ملاك أو غيره إلى افتعالي الأمر تجعلني أتراجع فأطلب تأجيل الموعد.

لا أعرف إن كان ملاك انتبه لشيء أم لا، لا أعرف إن كان أنطونيوس يبادلني نفس الشعور أم لا، وحتى لو فعل، فما الذي بإمكان رجل وهب حياته للرهبنة وعزلتها أن يفعل، وهل أكون له بمثابة حواء التي أغوت آدم فأخرجته من الفردوس؟! لا بد أنه لن يوافقني، وأنا نفسي لن أرضى له بذلك، فما الذي يمكنني فعله تجاه ما يجتاحني من عواطف تسد عليَّ منافذ حياتي، فلم تعد القاهرة التي ارتبطت بها روحي تشغلني في شيء، لم أعد أهفو إلى بيتنا، ولا إلى وجه أمي، لم تعد الأيقونات تشغلني، ولا الشموع بشذاها وأضوائها المتمايلة تشدني، لم تعد أصوات الجيران ترن في أذني، ولا صوت تريزا وهي تحذرني من الغرباء، وشباب المسلمين المهووسين بالجنس، وذوي اللحى الطويلة الذين يكرهون أنفسهم، لم يعد يشغلني غير الجلوس في غرفتي لأتطلع إلى القمر في النافذة، حيث الأرنب الذي يطحن في الهون الكبير يتشكل على هيئة وجه أنطونيوس، وحيث زيه الأسود الذي يتحول إلى هالة من البياض الشديد، هالة من المحبة والنور أهيم في رحابها وأنا أتشمم رائحة اليود والنباتات الزكية التي زرعها الرهبان على حواف الصخور.

لكنني في النهاية أستيقظ على واقعي المؤلم، حيث عين الأب يوساب القاسية التي تسعى لاختراقي، لا أعرف لم لا أرتاح لها، شيء ما يتلبَّسني

كلمـا ألقى الرجل بنظـره تجاهي، أشعر كما لـو أن الشرير مسني بيديه، أعـرف أنني ظالمة، فلم يحدث من الرجل شيء يسيء لي، لكنني أعترف لنفسي هنا على الورق، ولا يمكنني أن أكذب أو أزيف الحقيقة أو أجمِّلها، هـذا الرجل يربكني، وبشجاعـة كافية يمكنني القول إنني أخافه، وليس هناك شخص واحد يمكنني الاطمئنان إليه في المكان سوى أنطونيوس وملاك الكاتب، الذي لا يملك سوى الجلوس إلى جانب أكوام الملفات التي تركت في عهدته، أكوام ورثها عشرات الكتاب السابقين عليه، ولم يفكروا تجاهها في شيء، مثلما يفكر هو، هـذا الرجل رغم عوده النحيل فإن لديه طاقة روحية وافرة، كم أتمنى أن أمتلك بعضًا منها.

حين قرأت ما كتبتـه دميانة عني شعرت أنني بالفعل شخص مختلف عما أظهر عليه للآخرين، لا أعرف لم جاءني هذا الإحساس، موقنًا أنني رجل يتمتع بطاقة روحية يمكنها نقل الجبل من مكانـه. ابتسمت ساخرًا من خيالي الواسـع، واستجابتي لكلمة مديح كتبت عني، لكن ذلك لم ينفِ رغبتي في إثبات أنني ذلك النحيل الذي يمكنه أن ينقل الجبل من مكانه.

كانت كلمات دميانة بمثابة طوق كبير نزل من السماء ليحيط بعنقي، فصرت مدينًا لها، وراغبًا في أن أكون عند حسن ظنها فيَّ، صرت أبحث عن مشاركة شخص آخر فرحتي، ولم يكن هناك أيضًا سوى أنطونيوس، ذلـك الـذي لا يكاد يخرج من قلايتـه إلا لرؤية أستـاذه باخوميوس، فقد أهمـل العيـادة التي منحوها له، موقنًـا أنها لم تكن سوى فـخ صنعوه كي يفسـدوا علاقته بالناس، لكنها لم تزدهم سوى محبـة له، وإبراز لقدراته علـى شفائهم، رغم تمسكه بفكرة الداء والـدواء، والمادة وليس الروح، حـين سألته عن ذلك قال إن أحـدًا لم يعمِّد بالروح سوى الله، وكل تعميد هـو بالمادة، ولو أراد الله لنا أن نعمد بالروح لفعل، فلمَ ننكر عليه إرادته ونزيح عنه غطاءه؟

كانت خطـاي تتخذ طريقها علـى الحصى المفتت تحت أقـدام الرهبان ومعاولهم، حين وصلت إلى قلايته طرقت الباب مرتين ولم يأتني صوت، لكننـي شعـرت أن الباب مفتـوح، فدفعته للداخل مناديًـا أنطونيوس، لم يأتنـي صوتـه، لكن جاءتنـي صورته وهو مصلوب علـى الحائط، كان

يعذب نفسه منذ حدَّثه باخوميوس بالأمس عن أسبوع الآلام. قال إنه لا بد أن يتمثل آلام المسيح بين أصحابه وهو يعلم أن منهم من سيخونه، يتمثل آلامه ويعلم أنه سيصلب مع أحط الناس وأقلهم مكانة، موقنًا أن حتى هؤلاء الأصاغر لن يرحموه، فمنهم من سيهزأ به، ومنهم من سيبصق على وجهه، وجميعهم سيطالبونه بأن يظهر علامة على أنه ابن الله، فهل يضع الله على قوس التجربة؟ هل يطلب من الله أن يرسل حمامة بيضاء كي تحمله على ظهرها وتلوح لهم بجناحها، أم يرسل ملاكًا يهدم الجبال عليهم، أم يترك المسيرة التي خطها الأب الإله بيديه لتسير في مجراها ليكفر عن خطيئة آدم، وينقذ أبناءه من جحيم عذابه؟ من أجل ذلك أتى، ومن أجل ذلك سيتحمل في هدوء، ومن أجل ذلك على أنطونيوس أن يصمت عن كثير مما يعرف، وأن يمشي في الفلك الذي خطته أنامل الله في كتابه الكبير.

-٣٣-

رسائل أوريجانوس (٥)

صديقــي العزيــز ديونسيوس، هــذه رسالتي الخامســة إليك، كنت قد انتهيــت في رسالتــي الرابعــة إلى الاعتراف بالجرم الــذي ظل يطاردني طيلة حياتي، رغم أنني لم أكن أسعى لارتكاب خطيئة، فقد فعلت ما فعلت تقربًا للرب، فاتخذت نصــ حديثه ونفذته كي أكون أقرب المؤمنين إليه، وكــي أمنع نفسي من الخطيئة أو الضعف، لقــد بترت نفسي بنفسي كي لا أسقــط من عين الله، أو أفقد محبته لي، فالذي يعظ الشعب لا ينبغي له أن يقــع في ضعف، أو أن يكون من بــين الضعفاء الذين يستسلمون لمحاصرة الشيطان، لذا فقد انتظــرت حتى جفت دمائي واحتملت ألمي، وطلبت من أمي أن تحملني إلى ديمتريوس الكرَّام، ذلك الذي أرسل في السؤال عني ثــلاث مرات، وكل مرة كانت تقول لرسوله إننــي ذهبت لبعض أقاربي خارج الإسكندرية.

رآني الرجل فانتفض من مجلسه وقام ليحملني بنفسه عن أذرع إخوتي وأمــي، حــين وضعني أمامه طلبــت منهم أن يخرجــوا، وطلبت منه أن يتقبل اعترافي الآن، وبعد محاولة من التملص والمناورة لفهم هل يستحق الأمر أمانة سر الاعــتراف أم لا اضطر أن يومئ برأسه موافقًا، فأعلنت أننــي سأعترف اعترافًا رسميًّا أمام كاهــن اعترافي الأب ديمتريوس، ثم أخبرتــه بما حدث، وكيف خطفتني ميريت بنظــرة منها، وكيف سرحت عينــي رغمًا عني على جسدها المغوي، وكيف تواطأت أمها على نظراتي نحوهــا، فشبت النــيران في جسدي ولم أحتمل الابتعــاد عن التفكير فيها، وزاحمــت الرب على مكانته في عقلي وقلبــي، فجلست في غرفتي أضغط جمــاح رغبتي، لكنني كلمــا ضغطت على آلتي انتصبــت، وكلما حاولت

خنقــه كان ينــاورني ويتملص مني، وكلمــا دفنته كان ينهضــ من جديد منتصبًــا ومنتصرًا علي، ولم يكن أمامي سوى أن أجلده إلى أن قذف بماء ساخن خــارجٍ جسدي، كان ماؤه يتدفق كبركان، وينفلت في الفراغ كما لــو أن منجنيقًا يلقي بجمره وناره في الفراغ، حين انتهيت شعرت بالذنب والخطيئة، شعــرت كم أنا ضئيل كجرذ غارق في العــار، وكم أنا منبوذ من عينــي المسيح اللتين تطلان من الجدار نحــوي، كان المسيح يحدق فيَّ بعينــين متقدتين بالشــرر، بينما أصوات كلاب تنفلت مــن عقالها مهرولة نحوي، كانت الأصوات تتعالى وتتزايد في اتجاهي، كنت أشعر أن أنيابها ومخالبها تكاد أن تنقض على صدري لتنزع قلبي منه.

بــدت الخطيئة أكبر مــن أن تغتفر، بينمــا أناملي تسعــى لتحسس الماء الــذي برد على ملابسي الخفيفة، تقززت بمــا يكفي من نفسي، وتذكرت أن المسيح يقــول "يوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات"، وتــرددت الآية في ذهنــي مرات ومــرات، وكلما وضعــت رأسي على الوســادة وجدت مــن يهتف بها في أذني، فنهضت مــن مكاني وأحضرت الشفــرة التي كان والدي يحلق بها لحيته، وكــدت أن أطيح بآلتي كاملة، لكننــي لم أستطع، وانتهيت إلى الإطاحة بالكيس الجلــدي الكامن أسفلها، فآلامــه لن تكون كآلام الطواش، فجمعت الخصيتين في يدي، وأغمضت عينــي طالبًا من المسيــح أن يغفر لي خطيئتي، وأن يتقبــل مني أضحيتي، وبضربــة واحدة محكمة فصلت بين الآلة كعمــود كبير وبين الكيس الذي انفجــر بالدم المتدفق، حين رأيت الدم انتبهــت إلى أنني فعلت فعلاً كبيرًا، فألقيــت بالشفرة ورحت أصرخ محاولاً كتــم اللون الأحمر، كنت أعوي وبطني تتقلص مني ونصفي الأسفل كله يتجمع في بؤرة انبلاج الدم.

سمعــت صوت أمــي وإخوتي يهرولــون نحوي، سمعــت صراخًا، ومحاولات شتى لإسعــافي، وسرعان ما غبت عن الوعي، لأستيقظ فيما بعــد فأجد لفافة كبــيرة من القماش تحيط بما بين فخــذي، كان الألم كبيرًا لكنه محتمل، وكنت قد صرت هزيلاً بشكل واضح للجميع، هزيلاً وبائسًا وخجــلاً، كنــت أرى آلاف التســاؤلات في عيون من حــولي، لكنني لا أستطيع أن أتحدث في شيء، ولا هم يستطيعون أن يتحدثوا.

في ذلــك اليــوم انتظرت من ديمتريوس أن يقــول شيئًا، الحق أنه ظل لفترة واجمًا، وشعرت من ملامحٍ وجهه بقدر الجرم الذي ارتكبته، لكنه بعد لحظات طرق على كتفي قائلاً:

– لقد تقبل الرب أعطيتك.

في هــذا اليوم شعــرت أنني برئت من خطيئتي، وأننـــي أستطيع السير علـــى قدمـــي دون ألم، فقد قبل الرب عطيتي، وصـــرت واحدًا من أبنائه الأبـــرار، شكرته وعدت مع أهلي إلى بيتـــي، ولم تمض أيام حتى عدت إلى مقعدي في مدرسة اللاهوت، لأعظ المؤمنين وأشرح لهم كيف استقبل الـــرب أعطيات كل مـــن قايين وهابيل، كنت أتحـــدث بصورة تمثيلية عن الرب وابني آدم، ومـــا لا أستطيع تمثيله كنت أتحدث عنه رمزًا، متذكرًا طريقـــة أستاذي إكلمندس ومنهجـــه الباطني في شرح الآيات، كان يغرق نفســـه في تصوير رؤيـــة مختلفة للنص غـــير الرؤية الظاهـــرة، ويطالب بالتفكير فيما وراء السطور وما تخفيه عن العيون.

كنـــت أجـــل إكلمندس كثيرًا، وأقـــدِّر منهجه الذي تعلمـــت منه الكثير، فلسنـــوات وأنا أنهل من كتاباته وآرائه ورؤاه، أحسبه البحر الواسع الذي فاض عليَّ بالكثير من النوات والنسائم، أتأمل أعطياته وأفرح بها، لكنني فيمـــا بعد وجـــدت أنه من الصعـــب أن تكون ثمة رؤية خفيـــة طيلة الوقت عـــن الرؤية الظاهرة، وأن هذه الرؤية محكومة بتجليات تخص القارئ، لـــذا رفضت القـــول بالتفســـير الغنوصي وحـــده، رفضت الارتـــكان إلى تصـــورات النفس الطيبة عن العالم، فمن الممكن أن تأخذ النفوس الشريرة أشـــكالاً طيبة، ومن الممكن أن يودي بنا ذلك إلى الهلاك، أو الابتعاد عن طريق الله.

لكنني أيضا لم أستطع القول بما يقوله لنا ظاهر النص فقط، فحين يقول لنـــا أن لصًّا بصق علـــى وجه الرب وهو على الصيلـــب، فلا يعني حرفية النصـــ، ولكن مـــا يرمز إليه هذا الفعل، وهو كـــون الناس قد سخروا من عجـــز الرب عـــن الرد عليه بالطريقـــة التي يعرفونهـــا، وفي الوقت الذي يريدونـــه، ومن ثم كانـــت الآلام أكبر وأكثر قوة، فالـــرب الخالق القدير

كان يمكنــه أن يزيلهم جميعًا من الوجود، كان يمكنه أن يلقي برحمته لهم فيؤمنوا لــه، لكنه اختار أن يتمثل بشكل بشري، اختار أن يكون في جسد بشري، وأن يتحمل عذابات البشري، وقلة حيلته، وعجزه أمام الجميع، اختار أن يكون آدم وألا يخرج عن طور آدم وقدراته.

وجدت شروحاتي وتفسيراتها برمزيــة الأفعال لا حقيقتها طريقها إلى قلــوب الناس، وصــار من لا يريد التفســير الغنوصي يرتكــن إلى رؤية الرمــز في حضور الآيــات، صار الناســ يطالبونني بكتابة مــا أقوله في برديــات أقدمها لهم، وصــرت أجلس في الظهيرة كي أعــظ في المدرسة وأتدبــر شئونها مع تلامذتي مــن جانب، وأختلط بالآبــاء في الكنيسة كي أسمــع منهم ويسمعــوا مني بعدهــا، وفي المساء أحضــر أوراقي ودواتي وأجلس على ضوء مصباح تملأه أمي كل يوم بالزيت، فأكتب شروحاتي وتفسيراتي، وفي الصبــاح أذهب إلى ناسخ بجانب الكنيسة فأطلب منه أن ينسخها ويبيعها لمن شاء شراءها، هكذا توزعت كتاباتي، ووجدت بعضها بخــط هذا الناسخ في بعض أديرة فلسطين وبحر القلزم وصحراء الإسقيط وجزيرة العــرب، رأيتها بعد سنوات من خروجــي من مصر، وعلمت كم اعتمد الكهنة عليها في مواجهة الغنوصية التي كادت أن تضرب أعمدة الكنيســة في مقتل، وتفتح الباب على اتساعه لمن أراد أن يتحدث بغيب عما جاء في كتاب الــرب، مدعيًا أن روحه ترى ذلك، وأن المعنى الظاهر لا معنى له.

في البدء وجد الأب ديمتريوس أنني أحقق ما تريده الكنيسة في مواجهة الغنوصيين المتأثرين بأفكار أفلوطين وأصدقائه القائمين على شرح مقولات أفلاطــون، فقد تسربت أفكارهم من الميوزيــوم والسيرابيون إلى الكنيسة عبر اليونانيــين واليهود الذين دخلوا حظيرة الإيمــان، وتلاقت أفكارهم مــع شروحات إكلمندس الروحانية للكتاب المقدس، فانتشرت كنوَّة شديدة الوطء علــى ملكوت الرب، في هذه الآونة كانت كلماتي بمثابة الماء الذي يزيل الأدران عن الأذهان، فكنت بالنسبة لديمتريوس ابنه الذي لم ينجبه، كان يباهــي بي الجميع، يقدمني للسادة والرؤساء والأثرياء وكبار الكهنة بوصفــي المعلم، مؤكدًا أهمية شروحاتي للكتاب المقدس، وأنني الدم النقي

الذي يجري في عروق الكنيسة بعد إكلمندس أو كليمنضس كما يقولون.

لم يتوان ديمتريوس عن إرسالي نيابة عنه إلى أسقفية روما في زمن بطريركها زفيروس، فجلست أنصت معه بوصفي ممثل بطريرك الإسكندرية إلى عظة طويلة من القديس هيبوليتس عن كرامة المسيح المخلص، ثم عدت إلى الإسكندرية لأخبر ديمتريوس بحفاوة الاستقبال الذي أعدوه لي بوصفي ممثلاً عنه، ولم يمض عامان حتى سمح لي بالذهاب إلى جزيرة العرب، حيث دعاني ملكهم جفنة بن عمرو لوعظ وجهاء مملكته، كان ذلك بالنسبة لديمتريوس أمرًا مهمًّا، فقد تلقى الرسالة بفرح شديد، مؤكدًا ضرورة توسعة الأرض التي تسيطر عليها الكنيسة روحيًّا، قال إنني يجب أن أخلب أذهانهم، وأن أكون حاضر البديهة للرد على كل تساؤلاتهم، فنحن لم نذهب إلى هذه الأرض من قبل، ويجب أن نجعلها تحت نفوذنا. وفي النهاية زودني بجوادين أحدهما لي والآخر لشماس اسمه بطرس جعله في معيتي، وطلب منه أن يدون كل المواعظ التي أعظ بها، كي يتيحها لمؤمني الإسكندرية وشعبها حين أعود.

قطعنا الطريق شرقًا، حيث عبرنا من أمام البحيرات النائمة ما بين فرع النيل العظيم في الغرب، وما بين صحراء القلزم، وحين انتهينا منها اتجهنا جنوبًا حتى رأينا جبال القلزم العالية، فجعلناها على يميننا وأكملنا طريقنا نحو الشرق، ملتزمين بالطريق الموازي لشاطئ المياه.

استغرقنا ثلاثة أيام حتى وصلنا إلى أورشاليم، ومررنا بالقدس حاملين رسائل من ديمتريوس إلى بعض أصدقائه وتلامذته هناك، فأصروا على أن أعظهم ببعض مما قرأوه فيما وصلهم من كتبي، فطلبت منهم أن يوجهوا لي أسئلتهم وأنا أجيب. هذا يا صديقي أسلوبي الذي تعلمه عني، فأنا لا أحب أن أجلس لألقي العظات بلا سبب ولا هدف، ومن ثم أوظفها في الإجابة على ما يحير عقول الموعوظين.

في هذا اليوم جاءني رجل وفي يده قطعة من الخشب قائلاً:

– أتحب أن أنحت لك الرب؟

لوهلة وقفت متحيرًا لا أعرف بمَ أجيب، لكنني بعد تأمل قلت له افعل، فأخـرج سكينًا من خاصرته وبـدأ في تسوية الخشبة وتشكيلها، كان ماهرًا بشـكل شد انتباه الجميع إليه، فحسدته علـى مهارته وإتقانه لعمله وسرعة إنجـازه، فقد كانـت السكين تتحرك في يده كريشـة في الهواء، بينما بدت الخشبة كما لو أنها زرع أخضر يتشكل بين يديه كما يريد، رأيته يخلق من خشبته رجلاً في صدر شبابه عاريًا إلا من إزار على وسطه، بينما ذراعاه مصلوبـان على صليب قائم على ظهره، فأمسكـت بالخشبة قائلاً إننا لدينا فنـان ماهر في عمله، وأنه يستحق المكافأة على ذلك، وأخرجت من جيبي عدة دنانير ووضعتها في يده.

ثم استدرت إلى الناس قائلاً:

– لكن هذا ليس الرب، ولا يمكنه أن يكون الرب، فالرب وإن كان قد اختـار لنفسه أن يكون على هيئة إنسان، فإننا لا نستطيع أن نمنحه صورة الآدمـي، ولا نستطيـع أن نعتقد أن نحتنا له علـى صورة الآدمي سيجعل بركاتـه تقيم بيننا، فلو أراد الرب أن يبقى بيننا كما كان لفعل، وما تجسده مـن خلال رحم أم الإله القديسة مريم العـذراء إلا ليسهـل لأهل زمانه ومكانه رؤيته والتعامل معه، وليضرب مثلاً لا ينبغي لغيره أن يضربه، ومن ثم فلا يجب أن نجسـد الإله، فهذه بقية من بقايا ثقافاتنا القديمة، بقية مـن الوثنيـة التي كنا عليها، التـي ما زالت تضـرب في عروقنا دون أن نـدري، فتجسيد الإله توثين له، ونحن نعبـد الله الذي لا يحده مكان ولا زمان، الله القدير، فلا يجب حبسه في خشبة كهذه.

حـين ألقيت الخشبـة في النار منهيًـا عظتي بكل شجاعـة وحماس بين جمـع من المؤمنـين، وجدتهم يهللـون فرحًا بما سمعـوا، وجدت الرجل الذي صنع تمثال الـرب يقف عاجزًا غير مستوعب، وللحظة شعرت أنه يريـد أن يتحدث أو يجـادل، فأشحت عنه بنظري ومـددت يدي للسلام على أصحابـي، هؤلاء الذين زودوني بجواديـن جديدين، ودلوني على الطريق إلى الجابية عاصمة ملك جفنة بن عمرو، هذا الذي ورث مملكته حدود مملكة تدمر العظيمة، لكنه ظل في خدمة الروم، وفي مواجهة أهله

مـن العرب الذين يسكنون وسط الجزيرة وجنوبها، كما في مواجهة أبناء عمومتــه المقيمين في الحيرة، هؤلاء الذين يخدمـون الفرس، في مواجهة بقية بني جنسهم من العرب في الجنوب.

كان أهل تدمر يقيمون في الجبــال، نحت بعضهم بطريقة فائقة المهارة بيوتًـا في واجهات جبالهـم، كان أمرهم يدعو إلى الدهشــة، والإحساس بالقوة، هـذه الجبال منحتهم قـوة ومنعة، فكيف استطــاع الروم انتزاع هـذه المملكة مـن يد الملكة الزبــاء، وكيف نجت قبائل جفنــة بن عمرو من القحــط الذي ضرب سبأ العظيمــة في الجنوب، ليأتي بأهلــه ويصبح ملكًا على الأنباط في الشمــال، علمت أنهم كان لهم في الجنوب سد يخزن الماء حــين تفيض به عيــون السماء، فيزرعون منه الأرضــ بالعنب والنخيل والزيتــون، ظلــوا لسنــوات طويلة ينعمــون برخاء ما بعــده رخاء حتى قرضت الفئران روابط السد وهم لا يدرون، فانهار وكسح الماء كل شيء أمامــه، وفروا من بلادهم إلى البلاد التي تلتها، حتى وصلوا في ترحالهم إلى هنا في الشمال.

استقبلنـــي الملك جفنــة استقبالاً يليق بحاكم الإسكندريــة نفسه، وقال إنه قــام ببناء كنيسة كبيرة تقربًا للرب، ولم يرد أن يفتحها بدون دعم روحي مــن كنيسة الإسكندرية وأسقفها، وحين سألت عن أفضل عالم في المسيحية بالإسكندريــة الآن قالوا إنه أوريجانوســ، معلم المسيحية الأول في مدينة الفلسفة والعلم، فأرسلنا إلى البطريرك كي يسهل مهمة مجيئك إلينا، وكي تكون أول من يجلس ويعظ فيها.

شكرتــه على دعوته، وأخذت في عدد من الدروس لم يغادرها الملك، كان دائــم السؤال عن حقوق المؤمنين، وكان أبعد ما يكون عن الفلسفة أو ما يشغل الناس غير العمليين، فلم يسألني عن تجسيد المسيح، ولا عن كونه إلهًا أم إنسانًا، لم يسألني عن سر الافتخاريا، فقط سألني عن سر الزواج، وحاول معي جاهدًا أن أجد له إجابة تتيح الزواج بأخرى، أو تتيح طلاق زوجتــه والارتباط بغيرها، لكننـــي لم أفده بشيء، وأكــدت أن ذلك من

الكبائـر التي لا غفـران لها، فما جمعه الرب لا يفرقــه العبد، وأوضحت أن الجسد هو خطيئة آدم، وكلما قلل المؤمن علاقته بجسده علا وارتفع في ملكـوت السماء، شعرت أن الرجل لم يبتهج بملكوت السماء ولا الارتقاء فيه، وإن أكد أنه مقتنع برسالتي وأمانتي في الوعظ، وأنني صرت صديقًا شخصيًّا له.

حين عدنــا إلى الإسكندرية رويت كل ما جـرى لديمتريوس، وناوله الشماســ بطرس حزمة كبـيرة من الأوراق قائلاً إنهــا مجمل عظاتي في الطريق، فأمر بنسخها وتصنيفها في رسائل، لكن الإمبراطور سبتيموس سيفيروســ كان قد رحل منذ عامــين، وأوصى بعرشــه لولديه كاراكلا وجيتــا، وأمام وصيته اضطر مجلس الشيـوخ الروماني أن يعترف بهما معًــا إمبراطورين على عرش روما، لكل منهما سلطة مكافئة للآخر، إلا أن هــذا الاقرار لم يرق للشقيقين، فقررا أن يقسما الإمبراطورية بينهما، حيــث يتولى كلاركلا الجــزء الأوروبي منها، وتكــون روما عاصمته، بينما يتولى جيتا الجزء الآسيوي وتكون أنطاكيا أو الإسكندرية عاصمته، لكن أمهما رفضت هذا الحل، وأصرت على بقاء الإمبراطورية موحدة، فمــا كان مــن كلاركلا إلا أن قتــل أخــاه أمامها كي تبقــى الإمبراطورية موحــدة، وأسرع فقتل كل رجال جيتا، وكل من كانوا يناصرونه، حتى أنه قتل أكثر من عشرين ألفًا في ليال قليلة، ثم طلب من سينكا الفيلسوف أن يعــد رسالة تبرر أمام مجلس الشيوخ هذا القتل، وأمر القاضي بابنيان أن يفرغ كل ما أوتي من مهارة وفصاحة في سبيل تلمس الأعذار لهذا القتل، لكن بابنيان وقف في شجاعة أمام الجميع قائلاً:

– إن قتــل الأشقاء أهون من تسويغ هذا القتل، فتسويغ قتل النفس ليس أسهل من اقتراف القتل ذاته.

وحــين حــاول كلاركلا أن يظهــر ما فعلــه على أنه مجــرد دفاع عن النفس، قال له بابنيان:

– إن اتهام قتيل بريء بالقتل قتل ثان له.

وكان هذا الرد حاسمًا في أن أشار كلاركلا لجنوده بقتله، فتقدم أحدهم ببلطته ليقيض عليه، فما كان من بابنيان إلا أن ثار في وجه الجندي معنفًا، إذ كيف يقتله بالبلطة وليس بالسيف، فهل أصبح إلى هذا الحد قليل الشرف لا يستحق الموت بالسيف، فاستل الجندي سيفه ثم قتله وهو يبكي من أجله.

كان كلاركلا مهووسًا بالقتل والتعذيب، فما إن استقر له الحكم بعد قتل أخيه حتى قرر أن يجتاح الشرق على نحو ما فعل الإسكندر الأكبر، فانتقل إلى أنطاكيا ليهاجم بارثيا ومنها إلى بقية مدن الشرق، حتى جاء إلى الإسكندرية، هذه التي كما تعلم يا صديقي ديونسيوس مركز الثقافة والعلم والمعرفة في الإمبراطورية، ومن ثم كان مواطنوها على معرفة بكل ما يجري في الشمال، فكونوا رأيهم عن كلاركلا من قبل أن يروه، وكتب أحدهم قصيدة هجاء طويلة سرَّبها إلى فراش كلاركلا، فنهض الأخير من نومه ليقرأ هجاءه بنفسه، هنالك أعلن غضبه على الإسكندرية ومتعلميها، فأغلق مدارسها ومعابدها وكنائسها، وأمر جنوده بمطاردة كل ذي رأي أو معرفة فيها، حتى أنه قتل أكثر من عشرين ألف سكندري في بضعة أيام، ولم يكن أمام الناس سوى الفرار إلى الصحراء أو الخروج من البلاد، كنت ممن اختاروا الفرار إلى فلسطين، حيث أصدقائي الذين استقبلوني كي أكون واعظهم الأول.

-٣٤-

لا أعـرف ما الـذي جعل الأب باخوميوس يخـرج من قلايته في ذلك الوقت المتأخر من الليل ويقف أسفل برج كنيسة الملاح صائحًا:

- طوبي للـذي يقرأ، وللذين يسمعون أقوال النبوة، ويحفظون ما هو مكتوب فيها، لأن الوقت قريب.

كان يجأر كما لو أنه أشعياء وهو يدعو على أورشليم بالهلاك.

- لكن الوقت قريب!

هكذا كـررت الكلمة خلفه سائلاً نفسي عـن أي وقت يعني، وما الذي جعله يتمثل يوحنا اللاهوتي في هذا الوقت من الليل، حيث النجوم ساطعة، والهواء يكاد يحمل الرهبان من على أرض الدير ليلقي بهم أسفل الهضبة، فما الذي جعل العجوز يخرج من قلايته في ذلك الوقت؟

حـين طرحت أسئلتي على أنطونيوس لم يرد، وظل ساهمًا كما لو أنه يفكر في أمر سيحدث، أو بالأحرى، حدث بالفعل، فرؤيا يوحنا من أجل البشارة بزوال الطاغوت وقرب النصر، هي انتصار الله عبر لسان يوحنا الحبيـب على الهرطقات التي انتشرت، وكان لا بد أن يعيد الله الدين إلى جادة الصواب، فجاء لعبده يوحنا كي يحمِّله برسالته للكنائس السبع، لتهدأ بـالاً وتطمئن أنها على الصواب، وأن الهراطقة ستغور بهم الأرض عما قريب، فهل رأى باخوميوس في الدير ما يستحق التذكير بما قاله يوحنا؟

كانت الأسئلة تجتاحني، وتعبر من صدري إلى لساني، بينما أنطونيوس صامت في قلايته، ينظر من النافـذة المطلة على سفح الهضبة ولا يطالبني بالصمت أو الكلام، فرحت أسأله:

- لم فعل الأب باخوميوس ما فعله؟

ارتسمت على جبهته تقطيبة كبيرة، وراح يجاهد نفسه من أجل الحديث:

– لأنه يوقن أنهم لن يتركوه.

كان صوته خافتًا كما لو أنه ينبع من تحت أحجار الجبل، وكلماته مبهمة كأنه يلقي بالألغاز، شعرت أن سفر الرؤيا هو الذي يتحدث، وأن حالة من التحذير سوف تتهادى إلى مسامعي، لكنه فجأة نقل الحديث إلى واد آخر:

– هل هناك جديد عن دميانة؟

لم أعرف بمَ أجيبه، فقد كنت أفكر في أن هذه هي المرة الأولى التي أدخل فيها قلايته منذ قام المجهولون بضربه على رأسه، ثم توالت الأحداث على الدير، كنت أفكر في أن الأب باخوميوس فعل ما فعله من أجل أن تجيء وقفتي بجانبه في الحلقة التي ضربت أسفل برج الكنيسة، كلانا كان يسأل بنظره عما حدث، وكان البرد يلسع الوجوه، والهواء يكاد يجرف الناس من فوق الهضبة إلى السفح، حين انتهى باخوميوس من صياحه، كان كل من في الدير قد استيقظوا وخرجوا ليستعلموا عما حدث، وحده المنحني هو الذي لم يخرج لينصت إلى سفر الرؤيا وهو يتدلى بوجع من فم باخوميوس الحبيب:

– وظهرت آية عظيمة في السماء، امرأة متسربلة بالشمس والقمر، تحت رجلها وعلى رأسها إكليل من اثني عشر كوكبًا، وهي حبلى تصرخ متمخضة ومتوجعة لتلد، وظهرت آية أخرى في السماء، هو ذا تنين عظيم أحمر له سبعة رءوس وعشرة قرون، وعلى رءوسه عشرة تيجان، وذنبه يجر ثلث نجوم السماء فطرحها إلى الأرض، والتنين وقف أمام المرأة العتيدة أن تلد حتى يبتلع ولدها متى ولدت، فولدت ابنًا ذكرًا عتيدًا أن يرعى جميع الأمم بعصا من حديد، واختطف ولدها إلى الله وإلى عرشه، والمرأة هربت إلى البرية حيث لها موضع معد من الله، لكي يعولوها هناك ألفا ومئتين وستين يومًا.

نبهنـي من جديـد أنطونيوس إلى سؤاله عن دميانة، كمـا لو أنه كان يفكـر في نفس الآيات التي وردت في رأسي، فنظرت بنصف وعي إليه، وحاولت الربط بين دميانة الحبلى المتمخضة والتنين ذي الرءوس السبعة والقـرون العشر، تذكرت ليلـة رأيتهم يأخذونها نحـو المنحدر ودرجاته الرخامية العظيمة، وكيف طلبـت منهم أن يتركوها حتى الصباح، لكنهم لم يستجيبوا، تذكرت تقريرها للأب جورج، وما كتبته في دفترها الأبيض ذي الغـلاف البلاستيكـي، كنت أفكـر في كل ذلك، لكن يـد أنطونيوس طرقت على كتفي:

– هل سمعت أخبارًا عن دميانة؟

قلت:

– لم أسمع أخبارًا، لكن لك عندي مفاجأة، فقد أرسل لي الأب يوساب، فاستلمت منـه كتب دميانة وأوراقها التي تركتهـا في غرفة إقامتها، وهي الآن بحوزتي.

حينهـا استـدار أنطونيوس عني واتجه نحـو النافذة المطلـة على سفح الهضبـة، كان النهـار قد بدأ يملأ الدنيـا بضوئه الحليبـي، بينما النسمات البـاردة أخذت تتنزل من السماء لتهبط إلى الأرض على قلوب المؤمنين. فتـح أنطونيوس صدره ورفع رأسـه ومط وجهه بقوة كما لـو أنه طائر سيعبر مـن النافذة الصغيرة، ثم فجأة أمسك بيـدي وأخذ يدور بي مرتلاً من سفر الرؤيا أيضًا:

– وحدثت حرب في السماء، ميخائيل وملائكته حاربوا التنين، وحارب التنين وملائكته، ولم يقووا، فلم يوجد مكانهم بعد ذلك في السماء، فطرح التنين العظيم الحية القديمة المدعو إبليس والشيطان الذي يضل العالم كله، طـرح إلى الأرض، وطرحت ملائكته، وسمعـت صوتًا عظيمًا قائلاً في السمـاء: الآن صار خلاص إلهنا وقدرته وملكه وسلطان مسيحه، لأنه قد طرح المشتكي على إخوتنا الذين كان يشتكي عليهم أمام إلهنا نهارًا وليلاً، وهـم غلبوه بدم الحروف وبكلمة شهادتهم ولم يحبوا حياتهم حتى الموت، من أجل هذا افرحي أيتها السماوات والساكنون فيها.

لكنــه توقف فجأة ولسانــه يكاد ينطق الآية الأخيرة مــن تلك الفقرة في الأصحــاح الثــاني عشر، فقـد أدرك أن القــادم ليس خـيرًا، وأن التنين العظيم لن يسكـت على هزيمته، فرأيته يتجمد في مكانــه، بينما يده تسقط من يدي، ولسانه يتعثر في نطقها بحزن وخوف:

– ويــل لساكني الأرضـ والبحر، لأن إبليس نــزل إليكم وبه غضب عظيم، عالمًا أن له زمانًا قليلاً.

كان أنطونيوســ قد ذهب وركع تحت أقدام أستــاذه باخوميوس أسفل برج الكنيسة الصغيرة، طالبًا منه أمام الجميع أن يتوقف عما يفعله بنفسه، ويعــود معه من الــبرد إلى دفء الفراشــ، لكن باخوميوســ الذي كان يحدق نحــو نجم بعيد في السماء دفعه بيده فأوقعــه على الأرض، ثم نظر إليه ونهره بقوة وعنف:

– أنت آخر من يقترب مني.

هكذا نطقها واضحــة وصريحة أمام الجميع، حتى أن الهمهمات بدأت تتعالى وتتسع بأن الرجل يعرف عن أنطونيوس شيئًا، وأن العداوة بدأت بينهما، هنالك تدخل الكثيرون، بعضـ الأيدي ساعدت أنطونيوس على النهوض مــن على الأرض وسحبته بعيدًا عــن الدائرة التي ضاقت حول باخوميوســ، وبعضها أخذ يهدهد على جسد الأخير طالبين منه الانصياع إلى كلامهم، كان الأمر بمجملــه بائسًا، فالصديق لم يعد صديقًا، والتلميذ أصبح عــدوًّا، والغرباء هم الذيــن يجمعون الشمل، بينمــا يوساب ينظر ويرقب ولا يتدخل، وثمة أقدام تهرول في الخفاء نحو قلاية المنحني لتبلغه بما يجري، وتحت وطأة الريح العاصفة والبرد الذي يتنزل على المكان، وإلحــاح الرهبان وشفاعاتهم، قرر باخوميوس أن يعود إلى قلايته، غير عابئ بما جرى لتلميذه القديم.

هنالــك تقدمت وحدي لأهدهد على كتف أنطونيوس، كان يقف كعمود انهار من حوله كل شيء، يقف حزينًا وغير مصدق، وضعت يدي خلف

ظهـره ودفعته نحو الأمام، لم تكن أقدامه راغبـة في الحركة، كما لو أنه غـير قادر على تحريك نصفه الأسفـل، لكنها مع الإصرار زحفت، ومع ميـل الأرض أصبح كقاطـرة كانت معطلة ثم انطلقت. حـين وصلنا إلى قلايته شعـرت أن طاقة من الغضب تمور بداخله، حاولت تسليته بالكلام والأسئلـة، ولا أعـرف ما الذي جعله يربط بين مـا فعله باخوميوس وما جـرى لدميانة، فسـأل عن أخبارها، وسرعان ما تـلا بعض الآيات من رؤيـا يوحنا، كل ذلك وأنا أحسب أننـي استطعت أن أخرجه من حزنه، لكنني وجدته يقول:

– ثمة أمر سيجري الليلة، وقد نهض باخوميوس ليحذرنا منه.

شعـرت أن ثمة نوبـة من الجنون أخذت تجتاح الديـر، فرفعت عيني وحاجبي مستفهمًا، لكنه دفعني إلى الخلف قائلاً:

– علينا أن نلحق به.

فتساءلت وأنا أكاد أسقط على الأرض:

– بمن؟

وكأنه كان يريدني أن أفهم الرسالة بنفسي، فسمعته يقول وهو يهرول في الخارج:

– ولمـا رأى التنين أنه طرح إلى الأرضـ، اضطهد المرأة التي ولدت الابن الذكر، فأعطيت المرأة جناحي النسر العظيم لكي تطير إلى البرية إلى موضعهـا، حيث تعالى زمانا وزمانـين ونصف زمان، من وجه الحية، فألقت الحية مـن فمها وراء المرأة ماء كنهر لتجعلها تحمل بالنهر، فأعانت الأرض المرأة، وفتحت الأرض فمها وابتلعت النهر الذي ألقاه التنين من فمـه، فغضب التنين على المرأة، وذهب ليصنع حربًا مع باقي نسلها الذين يحفظون وصايا الله، وعندهم شهادة يسوع المسيح.

-٣٥-

فيما يشبــه رحلة العائلــة المقدسة ارتحل أنطونيوس مــن مصر القديمة إلى المعــادي، حيث زار كنيسة السيدة العذراء بها، وسأل أسقفها إن كان يعــرف طريقًا لدير الملاح أو الأب إيمانويل، لكــن الرجل أجابه بالنفي، وقــال إن صعيد مصر به العديد من الأديــرة والكنائس، ويمكنه أن يكمل طريقه إلى هناك، فربما دله القساوسة على الملاح وديره.

اتخــذ طريقه إلى البهنسا، حيث دير الجرنوس وكنيسة العذراء، بحث عــن عين الماء التي بجوار الحائط الغربــي للكنيسة، حيث قيل إن العذراء شربت منها، فملأ كفه وارتوى متوسلاً إلى الرب في عليائه أن ينهي رحلة آلامه، كمــا أنهى آلام العذراء، واستند بظهــره إلى الحائط طالبًا الراحة مــن السير والترحــال، فما كان من كلب السمــاء إلا أن انتفض نحوه من جديد، عازمًا على ضرب مخالبه الطويلة في وجهه، فانتفض أنطونيوس مــن نومــه حاملاً حــذاءه وسلاحه وهو يهــرول، ولولا فضلــة من عقل لصدمته سيــارة في طريقها، تأسف لقائدها وتأســف ركابها إليه، ودون أن يدري إلى أين سيذهب ركب معهم، كانوا في طريقهم إلى جبل الطير، وكان مولد العذراء قد بدأ، فانقطع طيلة أيام المولد يستمع لحكايات العائلة المقدســة، وكيف أتت إلى مصر، وكيــف كادت الصخرة تسقط عليهم من الجبل، لولا أن الطفل الإله وضع يده فأقامها من جديد.

لكــن أنطونيوس لم ينشغل بالمولد وناسه المتبارين في فرحهم به، وظل يســأل كل مــن يراه عن دير المــلاح، وبدا له أن كلب السمــاء قد نسيه في هذا المــكان، فقد انفضــ المولد وأخذ الناســ في العودة لقراهــم ومدنهم، وأنطونيوســ يصرخ في كلب السماء أن يدله على الطريق، كان ينام من أجل أن يظهر له، وينهض ليبحث عنه بين النجوم والسحب، ولما لم يجده

قــرر أن يبتكر طريقه بنفسه، فترك قدماه تأخذانه كمتسول، يحمل بندقية في كتفه ويطلب من الناس أن يدلوه إلى أقرب دير أو كنيسة.

ظل في سيره حتى أوصلته عربة لنقل الماشية إلى الأشمونين، تلك التي شملتهــا معجزات المسيح بالكثير، فبحث عــن أطلال الكنيسة القديمة فيها، وجلس بين بقايــا أعمدتها الرومانية يبكي من اليأس والتعب، هنالك ظهر لــه كاهن عجوز وفي يده جرة مــاء، لم يسأله أنطونيوس أن يعطيه منها، وهو أيضًا لم يسأل أنطونيوس إن كان يريد أن يرتوي أم لا، لكنه اقترب ومال بجرتــه نحو فمه، فراح أنطونيوس يعب مــن مائها كما لو أنها نبع الحياة، حتى أن الكاهن أسرع برفع الجرة عنه:

- ماذا تريد؟

بصوت ملؤه التعب واليأس أجابه أنطونيوس:

- دير الملاح.

- اذهب إلى دير المحرق، واسأل عن الأب باخوميوس.

لم يزد الكاهن عن تلك الكلمات، وهم بالانصراف، غير أن أنطونيوس الذي دبت فيه الحياة، وكاد يطير من الفرح لأنه وجد شخصًا يدله على من يعــرف المكان، أمسك بثوبه الكاهن طالبًا أمارة لباخوميوس، فمد الكاهن يــده وخلع الصليــب الكبير المعلق في عنقه ودفعٍ بــه لأنطونيوس، فنهض الأخــير على قدميه، وارتدى الصليب مائلاً صدره بالريح والشمس، ثم استــدار ليشكر الكاهن علــى منحته، لكنه لم يجده، ولــولا أن صليبه ظل يتأرجح في صدر أنطونيوس لشك في أنه رآه.

في الطريــق إلى المحــرق كانــت حقول الــذرة الخضراء علــى امتداد البصــر، وكان الــكل يتحدث عن بركــة المسيح التي شملــت كل شيء في المكان، فهنا أقام الرب وأمه ستة أشهر، وهي أطول مدة أقاموها في مكان ببر مصــر، كانت أسوار الديــر عالية وتشبه أسوار القــلاع، والأبواب مشرعة كالجبال التي تسد الطريق، طرق أنطونيوس بيده الباب الخشبي العــالي حتــى انفرج قليلاً، وأطل خــادم عجوز برأسه مــن خلال الفتحة الصغيرة:

– أنا رسول للأب باخوميوس.

سأله الخادم من أين:

أجاب أنطونيوس مستسلمًا، كما لو أن الكلمات هي التي تجري على لسانه.

– من دير الملاح.

تركــه الخادم وقتًا ليس بالقليــل في الغرفة المجاورة للبــاب، تلك التي يبيت فيها الخادم ومن يتناوب حراسة البوابة معه، بعدها اصطحبه لقلاية رئيس الدير، كان باخوميوس راهبًا في الخمسينات من عمره، تبدو عليه ملامــح السمنة، لكنــه يتمتع بعين تلمع على الــدوام، دون أن نعرف إن كان لمعانهــا مــن البكاء أم الفرح، دفــع أنطونيوســ بالصليب الذي على صدره في وجهه قائلاً:

– هذه أمارتي.

تهلل وجه باخوميوس بالفرح، ثم نهض واستقبله بحفاوة بالغة، سائلاً إيــاه عن الصليــب وأين وجده، لم تكن لدى أنطونيوســ إجابة واضحة، فأخــذ يحكي قصة بحثه عن دير الملاح حتى وصل إلى بقايا الكنيسة القديمة في الأشمونــين، وقــد هــدَّه العجــز والتعب، فجلســ يبكي بــين الأعمدة الرومانيــة، هنالك ظهر له كاهــن يحمل جرة ماء رواه منها، ثم دله على دير المحــرق والأب باخوميوس، فلما طلب منه أمــارة خلع هذا الصليب الكبــير من عنقــه وأعطاه له، ولم يكــد يرتدي الصليــب وينتشي به حتى اختفى الكاهن وكأنه لم يكن.

دهشــ أنطونيوســ ورئيس الدير حــين علما من باخوميوســ أن هذا الصليــب يخص أبــاه في العماد، وأنه كان كاهنًا في ديــر سانت كاترين، استشهــد منذ سنــوات، كان باخوميوس يســأل أنطونيوســ عن صفته، وتتهلل عينه بدموع الفرح وهو ينصت متشممًا الصليب:

– هو هو، هذه صفاته، وهذا صليبه.

بينما رئيس الدير يضحك مؤكدًا لأنطونيوس أنه سيكون ذا شأن كبير.

كانــت هذه آخر خروجات باخوميوس من دير الملاح، وكان هذا أول لقــاء له بأنطونيوس الــذي رافقه في رحلة عودته بعــد أسابيع قضاها معه

في ضيافـة دير المحــرق، في الطريق تعضدت علاقتهمــا معًا، وحكى له باخوميوس عــن علاقته بأستاذه وأبيه في العماد، قــال إن اسمه شنودة، وكان من المحاربين الذين نالوا الشهادة في سبيل الوطن، لم يستسلم لكون اليهود احتلوا المكان، فكون عناصر مــن الشمامسة الذين ذكرهم برسائل الآبــاء الأوائل، ومــا أعده الله لمــن يستشهد من أجل دينــه أو عرضه أو وطنــه، فوافقوه على رأيه، وحفــروا نفقًا من أسفل الديــر إلى خارجه، كانوا يقومــون بعملياتهم ضد اليهود ليلاً ثم يعــودون من حيث خرجوا، دون أن يتعــرف أحد عليهم، حتى اصطدمت قدمــه في ليلة مظلمة بلغم، فتطايــرت أشلاؤه وتناثرت في الهواء، حتى أن وجه باخوميوس أصابته بعض الشذرات من دمه ولحمه، عاد باخوميوس لرئيس الدير معلنًا شهادة شنودة، فرفض رئيس الدير خروج أحد من المكان، وهدَّد بالحرمان من يخالف أوامره، فغضب باخوميوس واستأذنه في الرحيل، وظل لسنوات يتنقل من دير لآخر حتى استقر مع بداية الثمانينيات في دير الملاح.

حين وصل أنطونيوس برفقة باخوميوســ إلى المساحة المنزرعة أسفل الهضبــة استحى أن يصعــد إلى الهضبة ومعه سلاحه، فحفــر بيديه أسفل صخرة ناتئــة من جدار الهضبــة، وودع سلاحه بقبلــة وحضن طويل، ثــم وضعــه في الأرض وردم عليــه، وصعد الدرجــات الرخامية خلف باخوميوســ المجهــد اللاهث، الــذي يحيل كل شــيء إلى نكتــة حتى ثقله الزائــد، ما إن دخلا من البوابة الكبــيرة حتى وجدا إيمانويل الطبيب يقول لأنطونيوس:

– في موعدك بالضبط.

فرد عليه الأخير:

– لولا كلب السماء ما جئت.

فضحكت إيمانويل:

– ولولا أن الرب كان يحول بينكما لفاز بك.

هنالك رفع باخوميوس صليب أستاذه منبهًا عن نفسه:

– ولولا هذا ما جئتك به.

-٣٦-

رأى أنطونيوس جسد أستاذه باخوميوس الحبيب يتأرجح في فضاء الغرفة المطلة على سفح الهضبة، كان الجسد معلقًا من عنقه في حبل متدلٍ من عود خشبي في منتصف السقف، لم يستطع أنطونيوس أن يكتفي بالفرجة على تيار الهواء وهو يؤرجحه في فضاء الغرفة، هرع إلى جوف القلاية وصعد على السرير محتضنًا إياه، حاول رفعه لتخليص العنق من الحبل المطوق له لكنه فشل، جاهد من جديد مرتين وثلاثًا لكنه لم يفلح في تمرير الرأس من الطوق، وزاد الأمر سوءًا حين سقط به السرير على الأرض، فوقف عاجزًا عن فهم ما يجري من حوله، غير قادر على الوصول لطريقة يُنزل بها أستاذه، ذلك الذي أخذ يدور بوجهه وجسده الممتلئ في الغرفة كما لو أنه موشك على الطيران، رأى أنطونيوس ذلك وأدرك أنه فارق الحياة. نظر إلى صليب الأب شنودة المتدلي من عنق باخوميوس وشعر بأن ثمة ما يحثه على أخذه، مد يده وجذبه فانفلت من عنق باخوميوس إلى يد أنطونيوس، وضعه في جيبه وفكر في إكمال مهمته من جديد، غير أن كلب السماء ظهر فجأة وأخذ ينبح تجاهه.

تجمع أمام القلاية ثلاثة من طوال القامة، كأن الأرض انشقت فجأة عنهم، فأخذوا يتصايحون أن أنطونيوس قتل باخوميوس، وتطوع أحدهم بالإسراع نحو قلاية يوساب كي يخبره، في حين وقف الآخران ممسكين بباب القلاية ليمنعا أنطونيوس من الخروج، لكنه خرج، فقد جذب أحدهما بقوة إلى الداخل ملقيًا به نحو كلب السماء الغاضب، وخرج كوحش ثائر نحو الثاني، ذلك الذي لم ينتظر أن تأتيه النجدة، فقد فر من أمامه ليحتمي بالقلايات المجاورة.

في البدء تخوفت من هيئة أنطونيوس وغضبه، وكنت أقرب إلى الفرار مني إلى متابعة ما يجري، لكنني أدركت أنه لا يعرف إلى أين يذهب، فصرخت فيه بصوت خافت كي يتوجه إلى الكنيسة، كنت أقصد كنيسة الأب ديمتريوس، لكنني وجدته يتجه إلى كنيسة الملاح، تلك التي أقيمت على باب المغارة التي دفن بها الملاح ولبؤته وأشبالها، وأصبحت بمثابة قدس الأقداس، لا يتقدمها سوى غرفتي الهيكل والمذبح، ولا يكاد يدخلها أحد من زمن طويل، وحده رئيس الدير هو الذي يذهب للصلاة أمامها كل عيد، ملتمسًا البركة والعون من الملاح وأسوده النائمين في حضرته.

كثر الصياح فجأة بين الرهبان أن أنطونيوس يهرب، ورأيت شبابا لم أرهم من قبل في زي الرهبان، لكنهم أكثر طولاً ونشاطًا، تدفقوا من أماكن عديدة، متسائلين عن المكان الذي ذهب إليه، ولم ينتظروا ليستفهموا عن أكثر من ذلك، فقد تصايحوا بإشارات مبهمة للذهاب خلفه، كانوا أكثر من عشرة رهبان، تدافعوا فجأة لدخول الكنيسة، حين دخلوا تكاثروا على أنطونيوس وأحاطو به في نصف دائرة، هو بدوره قبض على خشبة في يده وجعلهم أمامه، فأخذوا يتقدمون وهو يتراجع باحثًا عن جدار يحتمي به، لكن من أين له الجدار وهم يضيقون الخناق عليه، ظل يتراجع بين صفي الكراسي المعدة للمصلين في صحن الكنيسة، بينما هم يتخطون بسيقانهم الطويلة الرشيقة المقاعد في يسر وبساطة، حتى أنهم باتوا موقنين أنه سقط في أيديهم، وأنهم بضربات سريعة سوف يقضون عليه، فظل يتراجع وهم يتقدمون حتى وصل إلى غرفة المذبح، دار حول الحوض الكبير وارتكن بجسده إلى الستارة المدلاة أمام الحوض، شعر أن ثمة تيار بارد يتدفق من خلفها، حين مد يده نازعًا الستارة من مكانها وجد بابًا صغيرًا مزخرفًا بصور القديسين، ورأى الأب يوساب قادمًا ومعه مجموعة جديدة من الرهبان الغرباء، بينما كلب السماء يتقدم الجميع بفم مفتوح تجاهه، وأقدامه تترك بصماتها الواضحة على بلاط الكنيسة.

كان انتباهه إلى خطى كلب السماء وتقدمه للرهبان قد أكد له أنه يسير في الاتجاه الصحيح، فاستدار وضرب قدمه بقوة في الباب الخشبي فكسر

قفله، ودلف منه إلى دهليـز مظلم بارد، لم يعرف إلى أين سيأخذه، لكنه وجـد نفسـه يبتعد فيه، وسمـع أصـوات الرهبان وهم يحاولـون تشجيع بعضهـم للدخول خلفه، بينما يوساب يكاد يجن وهو يصرخ عليهم بسرعة الدخول، لكنهم جميعًا سقطوا على الأرض، وفروا إلى خارج المذبح حين رأوا اللبـؤة وقد مـدت عنقها من الباب الصغير، ثـم زأرت في وجوههم وخرجـت عليهم بصحبة أربعة أشبال يافعين، زأرت من جديد وهي تقفز برشاقـة إلى حوض المذبح لتنام فيه، فتقافـز الرهبان إلى صحن الكنيسة، ودون أن يـدروا ما الذي يفعلونه داسوا بأقدامهم على يوساب الذي تعثر في الممر الفاصل بين صفوف الكراسـي، جميعهم كانوا خائفين من الموت في ذلك المكان الذي لم يجرؤ على تدنيسه أحد سواهم.

الجزء الثانى

دميانـة

ريح الجنون

-١-

كانــت دميانة تعرف أن الربيع سيأتي، دائمًا ما كانت تنتظره ويأتي، لا يخذلهــا في عــام من الأعوام، يتأخــر بعض الشيء لكنــه يأتي، تكسو الأرضــ الخضرة في الريف الذي لم تذهــب إليه غير أيام معدودة، ربما مع والدها في صغرها، وربما مع زملائها في المدرسة، لكنها عشقت شكل الأرضــ الخضراء، والأزهار على الأشجــار، تعشق الروائح الزكية، وتبحث بأنفها عن الــذرات التي تأكل الجيوب الأنفية، كانت تقول لنفسها إنهــا حبوب لقاح تنقلها الريح من مــكان لمكان، كانت تعاني بعض الشيء من حساسية في العــين، تدعس عينيها بيديها وترفع أنفها للريح باحثة عن روائــح الربيع، ذلك الذي يحاصرها برياحه وحبوب لقاحه وربما بعض الأمطــار، لكنها دائمًا ما كانــت تنتظره. تخرج مــن شرنقتها لتقف على باب البيت، الربيع فصــل الأعياد، فيه الصوم الكبير، فيه أسبوع الآلام والبركات، فيه عيد القيامة، الشموع التي توقد للقديسين، والأم العذراء، الربيع فصل النهر الجــاري لغسل النفوس من الذنوب، هكذا كانت تقول لها أمها وهما جالستان في انتظار والدها، والدها صلاح متري، الشيوعي المناضــل الذي آمن بإذابــة الفوارق بين الطبقات، فانتهــى مآله بأن ذاب بينها، ولم يترك لابنته وزوجته غير السيرة العطرة وأبواب الربيع الذي مات في مقدمتــه، فظلتا تنتظران بالسنوات والشهــور، ولما تأكد لهما أن الذي يذهب لا يعود قررتا التفكير فيما بقي من حياتيهما.

هكذا نزلت دميانة مــن برجها الوردي إلى أرض الواقع، ومرت بها السنون وهي تسأل:

– متى يأتي الربيع برجل مناسب؟

الكثير من الذين مروا بباب بيتها لم يناسبوها، لا تعرف لم كانت تراهم ثقيلي الظل، بعضهم كان مثقفًا لكنه ثقيل الظل، بعضهم كان واسع الثراء لكنــه ثقيل الظل، كانت مشكلتها أنها تبحث عن شخص تحبه، كانت تريد أن تعشقــه قبــل أن تتزوج به، رفضــت كل ما قالته أمها عــن الحب الذي يأتي بالعشــرة، والمرأة التي خلقت من ضلع الرجــل الحنون، والمودة التي تنبت بين كل ضلعين ناما في فراش واحد، رفضت أن تتزوج دون أن تؤمن:

- لابد أن أرى كي أؤمن.

هكــذا قالت لنفسها، لكن رؤيتها تأخــرت، وطال انتظارها حتى ظنت أنهــا لــن تأتي، وفي الوقــت الذي أوشكــت فيه على اليأســ من مجيئها، وجدتها أمامها، فرأتها بأم عينها مجسدة في الراهب القس، الراهب المحال إلى التحقيق بسؤال مستبطنٍ عن هرطقته، رأت الحب المحرم، ولا تدري كيف يمكنها أن تعشق رجلاً وهب نفسه للرب، هل تغويه كحواء وتخرجه من الفردوس لتتزوج به، أم تحضنته وتقفز من فوق جبل القلزم كي يتاح لروحيهما الزواج في عالم الخلود، هل يتسع ملكوت الرب للمنتحرين من فــوق الجبل كي يسكنــوه، أم أن الله لا يحب ولا يغفر للمحبين، ولا يريد إلا بشرًا يمشون على قضبان من حديد؟

كانــت ترغــب في الانفجــار عشــرات المرات بهــذه الأسئلــة في وجه أنطونيوس، كادت أن تصرخ فيه:

- لماذا تأخرت كل هذا الوقت؟

لكنهــا لم تسأل، ولم تعرف لم دفعوا بأوراقه إليها، في البدء قالت إنهم محض حمقى، لكنها بعد تأمل وجدت أنهم جنود الرب، وأن أنطونيوس هــو هدية السمــاء، لكن ما الــذي ستفعلــه بهدية محرمة، أهــي رغبة في التعذيب أم سعي للخروج من الملكوت، بعد كل هذه السنوات من الصمت والصــبر والشموع التي ذابت تحت أقدام القديسين تجيء الهدية على هيئة راهــب؟ هل يريد الــرب مني أن أدخل إلى بئر الرهبنــة، أن أترك الدنيا وملذاتها وأمضــي ما بقي من حياتي في رقعة منعزلة عن العالم كهذه، أم أموت كمدًا بحب رجل لا رجاء منه؟

هكذا أمضت أيامها الأولى في التحقيق مع أنطونيوس، الشيء الذي أنقذها من الجنون أنها وجدت نفسها تحب رجلاً مهددًا بالموت، وأن عليها إنقاذه قبل التفكير في إدانته، فالأمر لا يكمن في الجرم الذي ارتكبه، الجرم الذي لا تعرف لم يعاقب عليه، فالكتاب نفدت نسخه، ولم يعترض أحد على ما به، فأين المال المهدر، وما الذي يجعل رئيس الدير متحمسًا لإدانة راهب لا ينافسه في شيء، هكذا كانت خيوط القضية في نسيجها الأولى، قرأت كل ورقة أحيلت إليها، وكل ورقة لم تحل إليها، كانت تنزل المدينة الكبيرة لتبحث في مكتباتها وأرشيفاتها عما يعضد وجهة نظره، كانت تسأل الأساقفة الذين تعرفهم والقساوسة الذين تثق برؤيتهم عما يمكن أن يحدث مع رجل نشر بالخطأ أو العمد مذكرات علّامة مهرطق، كانت تعيد عليهم الأقوال والظروف والملابسات، وتسأل نفسها عما يجري في دير الملاح من صراعات وفتن.

– هل تعرف الأب إيمانويل؟

– ما الذي جرى له؟

– إلى أين كانت رحلته الطويلة؟

كان ملاك بوصفه نصف راهب ونصف فليسوف مرجعها الأول في الإجابة عما يجري، أحيانًا كان يتأمل قبل أن يجيب، وأحيانًا كان يخمن، لكنه في كل مرة كان يتحدث، كان ملاك يسأل الآباء والشمامسة والخدم ويجيب، جميعهم يعرفهم، فهم لا يزيدون عن أربعين راهبًا، بالإضافة إلى الخدم والعاملين في الزراعة والورش، كان ينهي عمله ويذهب ليجلس معهم، يحادثونه عما يعرفون، ويحادثهم عما يعن له، بعضهم كان يرى أنه على حافة الهرطقة والجنون، وبعضهم كان يخيفه بالأب يوساب، لكنه في العموم كان يحب أن تكون بينه وبين القساوسة مسافة، كان يقول لنفسه إنه ليس كاهنًا ولا راهبًا، وأنه لن يكون، فهو في أفضل الحالات شماس مبتدئ، إبصالتوس لا يرغب في مفارقة درجته، هو أقرب للخدم والمزارعين منه إلى الرهبان، لكن وجوده الأزلي في المكان جعله كما لو أنه مالكه، فهو لا يعرف مكانًا غيره، هو كل العالم بالنسبة إليه، مرات

قليلة التي غادره فيها، بالتأكيد في معية أي من الآباء، وبالتأكيد إلى كنيسة أو ديـر مشابه، كان يسير في شوارع المدن التي ذهب إليها خائفًا، محتميًا بجسد وروح الذي معه، لم يحب القاهرة، ولم يتمتع برؤية الإسكندرية، لكنه استطاع التعامل مع السويس، شعر أنها آخر حدود العالم، فعينه لم تتعود على الزحام، وروحه لم تعشق سوى الإيقاع الهادئ للحياة.

كان يعـرف كل حصاة في عالمـه، يعرف تاريخها والقبيلـة التي أتت منهـا، كان يعشق السمـاع وتغريه الحكايات، وحين علـم أن الكتب بها أكـثر مما يمتلكـه الناس قرر أن يتعلم كي يعـرف ما تحتوي عليه، وحين عـرف غرق، واستهواه تنسيق المخطوطـات، استهواه أن يعرف أفضل من السابقين عليه، فأعاد تنظيـم التركة، وطلب من الأب إيمانويل أرففًا كبـيرة ليضعها عليهـا، ولم يرفض الأخير، فذهب مـلاك إلى النجارين واصطحبهم معه، وظلوا عدة أشهر يصنعون المكتبة، أصر على أن يكون هـذا مسماها، وظل يكره أن يقول أحد إنهـا مخزن الورق، كان الجميع يسميها المخزن، لم يكن يشتمل على الكتب ولفافات الورق المربوط بالليف والكتان فقط، لكنه كان مكانًا لكل ما هو قديم ومستهلك، بعد جهد تم فصل كل مـا هو قديم عن كل ما هو ورقي قديم، وأخذ العمال في دهن الحوائط بالزيت قبل أن توضع الأرفف، وقام وحده بتنسيق الكتب والمخطوطات عليها، هنـأه الأب إيمانويل علـى عمله، وتغاضى عـن استغلال علاقته بالنجاريـن كـي يصنعـوا له مكتبًـا دون أن يعلـم أي من الآبـاء، وحده إيمانويل الذي علم وضحك، طلبها ملاك بهمس وتردد، فسمعها إيمانويل وضحك، ثم أومأ أنه لم يسمع، وكان ذلك يعني أن يفعل ولا يخبر أحدًا.

كانـت حياة ملاك ثرية وجميلة ولا يوجد فيها ما ينغصها، لم يكن يظن أنـه في يوم ما سيكـون شخصًا غير الذي كانه، فلم ينـذر نفسه للحب ولا للـرب، لكن ظهور دميانـة فى الأفق قلب الأمـور رأسًا على عقب، هو نفســه كان يود الهروب من قدره، كان يود أن يظل على ما هو فيه، لكن كيف ذلك وهو الكاتب، كيف يمكنه أن يهرب من قدره؟! هكذا وجد نفسه أمـام يوساب الذي أكد عليه ضرورة التعـاون الجيد مع المحققة الجديدة، عرفها بنفسه وجلس أمامها كتلميذ ينتظر أوامرها، كانت التحقيقات المحالة

إليهــا بسيطة وصغيرة، كان غالبًا ما يشرح لها كيفية التصرف فيها، فنقل إليهــا خبرته من المحققين السابقين، حتى أحيل إليها أنطونيوس ومشكلته، تلــك التي يكاد يكون قد اعترف فيها بنشــره أعمالاً لراهب مهرطق، فهم مــن دميانة أنه باعترافــه الكامل سيجردونه من رتبتــه الكهنوتية، وربما يلقى مصــير أوريجانوس ذاته، فهم أيضًا أن ثمــة ضغوطًا تمارس عليها لتنهي التحقيق في الوجهة التي يريدونها، لكنها لن تفعل.

كان مــلاك متعاطفًا مــع دميانة أكثر من أنطونيوســ، بالأحرى كان قــد سقط في حبهــا مثلما سقط أنطونيوس، كانــت في نفس سنه، وفي نفس طبقتــه إن كانت له طبقــة، جمالها ليــس صارخًا، لكــن تناسق ملامحها يمنحهــا ملاحة واضحة، ورغــم الجدية التي تسعى لفرضهــا إلا أن لديها دلالاً لا تستطيــع أن تواريه، أحيانًا تكون كطفلة تريد أن تشاكس وتلعب وتضحك، وأحيانًا تعامل الجميع ككائنات مفتقدة للعطف، فتهدهد على كل من تجــده في طريقها، لكنها في كل الأحوال خلقت للمكان روحًا مختلفة، فسعــى الجميــع لأن يكون على قــدر روحها الجميلة، مــلاك نفسه ضبط نفســه يعيد النظر في مرآته، يحلق ذقنة ويضبط هندامه ويذهب ليجلس في انتظــار تحية الصباح، يوصي الخــادم بقهوتها وبنها المخصوص ويحملها بيديه إليها، يحضر الأوراق والأقلام ويكتب بخط واضح منضبط كي لا تتعــب عيناها في القراءة، يفعل كل ما تتمناه وتحلــم به، لكنها أبدًا لم تنتبه لحبــه، لم تنظر إليه بعين المحبوب، كانت تــراه ملاكًا الكاتب، وربما أخ أو صديق، ربما خادم أو تابع، وربما ليس موجودًا من الأساس، ورغم ذلك كان غارقًا في حبها، في عطرها الهادئ الذي تعودت أن تضعه أسفل أذنهــا، كان يعشقها في صمت، خاصة وأنها تركتــه يحترق كعود بخور جــاف وأخذت تلهث خلف أخبــار أنطونيوس، وكيفيــة تمرير رأسه من حبل المشنقة التي وضعوها حول عنقه.

-٢-

لم يمض يومان على اختفاء دميانة أو إصرارها على الرحيل ليلاً حسبما قال الأب يوساب إلا وظهر الرهبان الثلاثة الذين رافقوها في رحلتها، كانوا يعبرون أرض الدير كما لو أنهم يسيرون في مشهد جنائزي، بدا كما لو أنهم مقبلون على الموت أو مساقون إليه، حين وصلوا إلى قلاية يوساب تفحص وجوههم بعناية قبل أن يفتح فمه:

- ما الذي حدث؟

وقف الثلاثة ينظرون إلى بعضهم وكأن كلاً منهم يستنجد بالآخر كي يبدأ، لكن أيًّا منهم لم يتكلم، فاضطر يوساب أن يعيد سؤاله بصوت مكتوم لكن به من الغلظة والحسم ما يجعل الأحجار ترتعد، وأمام وطأة الصوت وحدة العيون المسلطة على الوجوه خر الثلاثة فجأة على أقدامهم طالبين المغفرة، كان ذلك بمثابة وضع مزيد من الزيت على النار، فقد ثار يوساب وأخذ في صفعهم كي ينطقوا:

- هربت.

هكذا قال أحدهم باكيًا، فقبض يوساب على ياقة جلبابه:

- كيف؟

وبدا أن الحجر الذي كان في فم الراهب قد سقط، فأخذ يبكي ويدلي بكل ما يعرف دون أن يتوقف عن الارتجاف، ليس خوفًا من يوساب وما قد يفعله، ولكن رعبًا من اللبؤة وأشبالها، وما قد يحدث بسبب دميانة وما معها من ملائكة أو جن.

كان الرهبان قد انطلقوا بسيارتهم من أمام مخر السيل القديم الذي أصبح مدرجًا مكسوًّا بالرخام، وقطعوا نحو عشرين كيلومترًا في طريق

الرهبـان، صامتين لا يتفوهون بكلمة عما يجري، في البدء كانت نظرات دميانـة حائرة تحمل عشـرات الأسئلة عن الطريـق ووجهتهم، لكنها مع الوقـت هـدأت واستسلمت، وكلما فتحـت عينيها لتنظر مـن النافذة لم تر سوى النجوم المتوارية خلف غيوم تتحرك في سماء لم تغادر شتاءها بعد، بينما الظلام والرمل ينامان على الأرض بامتداد البصر، فتغمض عينيها وتسند رأسها على الزجاج مستسلمة لقدرها من جديد.

لم يكـد الباص يأخـذ سرعته على الطريـق حتى هـدأ السائق سرعته وتوقف في مكانه قائلاً إنـه لا بد من تغيير الإطار الخلفي، فنزل الرهبان معه وتشاوروا قبل أن يصعد أحدهم ليخبر دميانة بضرورة نزولها، لأن رافع العجل أسفل كرسيها، نهضت باستسلام ونزلت تنظر نحو الإطار، لكنهـا سرعان مـا شعرت بالـبرد وقوة الريـح فقررت عبـور الطريق للاحتمـاء بصخرة علـى الجانب الآخـر، وأخذت تنظـر للنجوم بخوف واضـح وهي موشكة على البكاء، كان السائق قد أخذ يرفع السيارة ويفك الإطـار، بينما فتح الرهبان الثلاثة الباب الخلفي وأنزلوا منه فأسا كبيرة، فأخذهـا أحدهم وابتعد عن الطريـق مسافة مائة متر وبدأ في الحفر، بعدها ذهب أحدهم ليخبرها أن السائق انتهى ويمكنها صعود الباص. كان القمر قـد أصبـح مضيئًا إلى حد كبير، فـرأت الشر في عينـه، ورأت عصا من الحديد في يده، وزميلـه يسعى لتطويقها من الجانب الآخر من الصخرة، فتراجعـت إلى الخلف، تراجعت حتـى أصبحت الصخـرة بينها وبينهم، ثم مـا لبثت أن هرولت في الصحراء، فانطلقـوا متصايحين خلفها، كانت خطاها رشيقة كما لو أنهـا موشكة على الطيران، وكان صراخها مكتومًا وأنفاسهـا متلاحقة، وهم لا يكلون من الجـري، حتى سقطت في أيديهم، فضربها أحدهم بيده على رأسها، فسقطت فاقدة الوعي.

مـا رواه الرهبان ليوساب أنهم ألقوا بها في الحفرة، وكانوا على وشك أن يردمـوا عليها الرمل، لولا أنهم رأوا لبؤة بصحبة أشبال أربع ظهرت كأنها نزلت من السماء أو خرجت من الأرض، وتمطت أمامهم على رأس الحفرة كما لو أنها تستعرض قواها عليهم، ثم ما لبثت أن رفعت عنقها نحو السماء مطلقة صوتها الغاضب، فتقافزوا متراجعين للخلف، جميعهم كادوا ينكفئـون على وجوههـم وهم يهرولون، لم يكن لهم ملجـأ في ذلك الوقت

ولا في تلك الصحراء الشاسعة غير الباص، ذلك الذي ارتجف قليلاً قبل أن ينطلق ليغادر المكان. ظلوا يقطعون الليل بطوله في طريق لا ينتهي، ومع انبلاج الصباح اكتشفوا أنهم على مشارف أسيوط، وأنهم لم يعد بمستطاعهم أن يذهبوا لأبعد من ذلك، فأمضوا يومين كاملين يستجمعون فيه شتات أنفسهم من الرعب قبل أن يفكروا في العودة إلى الدير.

توقف يوساب عن تأنيبهم وراح يفكر فيما يجري، فهذا المكان أنشئ على أسطورة لا أحد يعرف مدى صدقها، هو نفسه كان يعتبرها من قبيل الخرافات التي نسجها الآباء القدامى لحماية الدير من البدو واللصوص، لكن ما يجري هذه الأيام يقول بأن الأكاذيب أصبحت حقيقة، والأساطير لم تعد أساطير، فكيف يمكنه أن يعيد الماضي إلى قبوه القديم.

شعر الرهبان الذين كانوا يتوقعون الموت على يد يوساب أنه شرد بعيدًا عنهم، حتى أنه لا يكاد يشعر بوجودهم من حوله، فنهض الراهب الذي كان يرتجف منذ لحظات ونظر لصديقيه، هما بدورهما تبادلا معه النظرات، وحين طال الانتظار انفرجت الأسارير وانبسطت الملامح وضاعت الرهبة، بعضهم تلمس ما اعتبره إشارة بالخروج وأومأ للآخرين بترك الرجل في حاله، تسحبت أقدامهم واحدًا تلو الآخر من القلاية الواطئة عن الأرض، ناظرين إلى الظلال التي تحركت لتنبسط على جانب من الممشى الطويل الرابط بين الكنيستين، بينما جلس يوساب يفكر وكأن كل ما خطط له أوشك على الانهيار، جلس على الكرسي المجاور لباب الكنيف وكأنه الشماس المكلف بتنظيف القلاية والعناية بها.

-٣-

أســرع الراهب يوحنا إلى قلاية أبانوب ليخبره أن شابًّا على باب الدير يقول إنه رسول البابا ألكسندروس إلى الأب ديمتريوس، فنهض أبانوب مــن فوره لاستقبال الرسول، لكنــه لم يجد شابًّا واحدًا كما قال يوحنا، بل شابين وفي نفس الســن تقريبًا، لكن أحدهما بدا أنه أصيب بضربة شمس، ألقــى أبانوب نظرة على أسفل المنحدر فوجــد جواديهما يأكلان الأعشاب الخضراء، فأشار ليوحنا أن يوثقهما على مقربة من المنحدر.

كانــت الشمــس في ذلك الوقت ساطعــة كما لو أنها قــررت أن تشوي الأرضــ ومن عليها، فألقى أبانوب التحية على الشابين سائلاً عمن يكون رسول البابا، فأشار أحدهما إلى نفسه:

– أنا أثناثيوس... رســول البابا ألكسندروس، وهذا سيلاس، رفيق الرحلة معي من صحراء الإسقيط.

بدا على سيلاس أنه لم يعد قادرًا على احتمال مزيد من السير، فصرخ أبانوب على راهبين في القلاية المجاورة، وسرعان ما احتملاه بين أيديهما ودخــلا به إلى القلاية، ووقفا إلى جانب أثناسيوس ينظران لأبانوب وهو يذيب الملح في الماء ويضعه على رأس سيلاس وجسده.

أبــدى أثناسيوســ إعجابه بالكنيســة الكبيرة التي كانــت لا تزال تزهو بألوانها، وقال إنه لم ير في أي من الأديرة التي مر بها كنيسة كهذه، شعر أبانــوب حينها بالنشوة، وكاد أن يقول إنــه صاحب هذا الإنجاز العظيم، لكنــه تراجــع موضحًــا أن الأب ديمتريوس هو صاحب هــذا العمل، فقد كان الديــر في زمن الأب جبرائيل مجرد مكان لتجمع الباحثين عن حماية الــرب، بعضهم استمر في رهبنته، وبعضهم عاد إلى قراه من جديد، لكن ديمتريوس قرر أن يقيم لهم كنيســة تجمعهم، وبدلاً من القلايات المتناثرة

نظمهـا في صف واحـد بامتداد سور الديـر، ورتب شروطًـا للانضمام للمكان، لا يسكنه إلا الراغبون حقًّا في العزلة وحياة النسك، أما العابرون من الضيوف فإنهم يقيمون في سفح الجبل.

شـرح أبانـوب لأثناسيوس النظـام الذي وضعه ديمتريوسـس، ممتلئًا بالفخـر لأنـه يتحدث إلى رسول البابـا، موقنًـا أن كل ذرة في هذا المكان لـه بصمـة عليها، وأن من منحـه هذا الشرف هـو الأب ديمتريوس، لذا كان يذكر اسمه بإجلال واضح، متمنيًا له الشفاء من المرض الذي ألم به، فصـدره لا يحتمل الإجهاد، لذا تـرك كل شئون الدير في يده وحده ليقوم بهـا. شعر أثناسيوس أن محدثـه يسعى للاستئثار بـه أو عزله عن رؤية رئيس الدير، ومن ثـم أصر على ألا يخبره بالهدف الذي جاء من أجله، وطلـب منه أن يعـودا لرؤية صديقه سيلاس والاطمئنـان عليه، غير أن أبانوب فاجأه:

– لدينا هنا مدرسة للاهوت.

بدا علـى أثناسيوس الاهتمام، فاصطحبه أبانوب إلى المكان الذي أعده لرفائيل كي يشرح فيه للرهبان قواعد الإيمان وما يعرفه من تفاسير للكتاب المقدس، إلا أن المفاجأة كانـت في أن أثناسيوس يعـرف رفائيل، فما إن رآه حتـى نطق باسمه، بينما نهض رفائيل من مجلسه مندهشًا لاحتضانه، مبـادلاً إياه التحايا باليونانية والرومانية على مرأى من الجميع، ولم يكن أبانـوب يعرف أن علاقـة رفائيل بأثناسيوس غريبـة ومدهشة، فقد كان رفائيـل معجبًا بأفكار أريوس، كاهن كنيسـة بوكاليا غرب الإسكندرية، ومن ثم قاطع أثناسيوس ذات مرة في درسه بمدرسة اللاهوت سائلاً:

– هل الابن خاضع للآب أم لا؟

هنالـك نظر إليه أثناسيوس بعينين ملؤهما الغضب، وبعد صمت طويل سأل رفائيل:

– أأريوسي أنت؟

ادعى رفائيل عدم الفهـم، وطالب أثناسيوس بالإجابة دون مواربة، فقال:

– بالطبـع لا . . . كيـف يخضع المثيـل لمثيله، فكلاهما متسـاوٍ في القوة والعطاء والتحقق، ولولا هذا ما كان ذاك.

كان رفائيـل بحكم دراسته للأفلاطونيـة والرواقية أقرب إلى تصديق مقـولات أريوس عـن الابن، هذا الذي يـراه خاضعا لـلآب، وأنه جاء من أجل خلاصـص البشرية، ومن خلال بنوته وتضحيته تحقق الخلاص، ومـن خلال الآب اكتسب ألوهيته وقوته، ومن ثم فهو ليس مساوٍ للآب، ووجـوده تابع لوجود الآب. لكن أثناسيوسـ في ذلك اليوم اصطَحبه بعد أن انصـرف الناس في جولـة طويلة بشوارع الإسكندريـة، قال فيها إن المنظور الإيماني يختلف عن المنظور العقلاني، فرؤية العقل تقول بما اعتاد عليـه الناس، كأن يكون الابن تابعًا للأب، وأنه لولا وجود الأب ما كان وجـود الابن، ومن ثم فـالأب يتغلب على الابن، هذا ما اعتاد العقل على قولـه، لكن ما هو فـوق العقل، وما نراه بقلوبنـا ويقيننا وبصيرتنا وليس بصرنا، أن الأب والابـن متساويان، ولا يمكن التفكير في أن الآب كان يومًا بدون الابن، وإلا فكيف كان آبًا، وكذلك لا يمكن أن يكون الابن بلا آب، ومن ثم فحضورهما متلازم متكافئ متساو.

في ذلـك اليـوم شعـر رفائيل أنه بـدأ يؤمـن بقلبه وليسـ بعقله، وأن معرفـة الله تخضع لتصديق القلب وليس فهم العقـل، وأن على العقل أن يبـذل كل جهده لإثبات وجـود الله وقدراته، وليسـ لاختباره والابتعاد عـن طريقه، فأريوس ليس قويم الإيمان، وقـد اختلط عليه إدراكه بعقله البسيط، وما قرأه من فلسفة اليونانيين على نور اليقين والإيمان، ولذا تاه في منتصـف الطريـق، بعدما كان تلميذًا نجيبًا لـلأب بطرس الذي رسمه كاهنًـا، فخرج عليه وانضم إلى أشد خصومه وهو ميليتيوس، ولم يستطع الأب أرشيلاوس، خليفـة الأب بطرس الأول، أن يقف في وجه أفكاره المغلوطة، ورغـم أن الأب ألكسندروس نهى أريوس عن التحدث للناس بالهرطقات، إلا أنه لم ينته.

كان أثناسيوسـ طيلة الوقت في معيـة ألكسندروس العجـوز، متمتعًا بالبلاغـة والفصاحة وسعـة الاطلاع، وكلما سأل أحـد المؤمنين عن أمر يحتـاج لمزيد من الشرح، كان ألكسندروسـ يومئ إلى تلميذه كي يتحدث

نيابــة عنه، حتى أصبح بمثابــة المتحدث الرسمي باسمــه، في ذلك الوقت تعرف عليه رفائيل، وتحول غضــب أثناسيوس منه إلى محبة له، إلا أن الوقت لم يسمح لصحبتهما أن تتســع وتتعمق، فقد انشغل رفائيل بدراسته في الميوزيــوم، وسرعان ما ترك الإسكندرية وعــاد إلى الدير، ولم يكد تستقر أحواله فيه حتى وجد نفسه من جديد أمام أثناسيوس، هذا الذي قطع كل هــذه المسافات كي يدعوه أن يكون رفيقًا لــه في رحلته، فقد قرر البابا ألكسندروس أن يعقد مجمعًا لمراجعة أريوس في أفكاره.

-٤-

رسائل أوريجانوس (٦)

غـادرت الإسكندرية مرغمًـا، أو بالأحرى فـررت بجلدي من أمام جنـود كلاركلا الذيـن هاموا علـى وجوههم باحثين عـن كل من يعرف القـراءة والكتابة، فتحولـت الإسكندرية على أيديهـم إلى حرائق وأشلاء وجثـث، حتى أن روائح الدخان والنـتن كانت تفوح من كل مكان فيها، ولم يكـن أمامي سوى أن أحمل في يدي مـا استطعت حمله والفرار ليلاً، ودعـت أمـي وإخوتـي وتركت رسالـة لديمتريوسـ أننـي سأذهب إلى أورشليم.

علـى أطـراف الإسكندرية مـن جهة الشـرق اتفقت مـع حمَّار على نقلـي إلى الفرما، فظللنا نقطـع المسافات طيلة الليـل والنهار لمدة يومين، بعدها مكثـت بالفرما حتى أستبـين أمري، فقد خشيـت أن يقبض الجنود على الحمَّـار فيرشدهم إلى مكاني، أمضيت يومـين آخرين في كوخ على مشـارف البلدة، ثم بحثت عـن دليل يأخذني إلى بيـت لحم، فمكثت على ظهر جمـل يومين آخريـن، كانت الريـح والرمل والشمسـ هي كل ما نعرف، فلا مـكان نأتنس به ولا أناس نسترشد بهم، والخوف من الدليل البـدوي يلازمني طيلة الوقت، فقد بدا عليه أنـه ليس مسالمًا، والصحراء تغـري بما هو سيـئ، وأنا لا أفهم نصـف ما يقوله، لكننـي أخذت أوافقه طيلـة الوقت حتى وصلنا في النهاية، فضاعفت له الأجر كما طلب ورحت أتنعَّـم برؤية الناس وتفاصيل المكان، فهـا هنا ولد المسيح، ومن هنا حملته أمـه وسارت به إلى بلادي، وهنا تكلم ووعـظ وتنبأ، أمضيت أسبوعين في المـكان باحثا عن اسـترداد أنفاسي، وبعدها ذهبـت إلى القدس، حيث أصحابي الذين تركت لديهم انطباعًا جيدًا عني آن مروري بهم، سواء في

طريقي إلى روما أو إلى جزيرة العرب حيث جفنة بن عمرو.

كانت المدينة أهدأ حالاً من الإسكندرية، وكأن كلاركلا نسيها، أو أنها سقطت من دفاتره، التقيت بصديقي ألكسندر الذي أصبح أسقفًا على أورشليم، وصديقي ثيؤكتستوس الذي صار أسقفًا على فلسطين، رحَّبا بي ترحيبا كبيرًا، وأخذا يسألاني عن الإسكندرية وأحوالها، قلت إن الحرائق والسيوف التهمت أكثر من عشرين ألف نفس، ولم تترك مكانًا دون أن تتصاعد منه رائحة الموت، تأسفا لما جرى ويجري، ومكثت في ضيافتهما شهرًا أو يزيد، لا أخرج من البيت الذي جهزاه لي، ولا أتحدث مع أحد خشية أن يكون من عيون الرومان، وعكفت على بعض الكتب التي أحضراها لأطلع عليها، حتى رأيتهما في يوم من الأيام يدخلان علي إثر نقاش وجدل حاد، فقد سألهما أحد المؤمنين عن العقل ووجوده، كان السؤال محيرًا ولم تكن لديهما إجابة واضحة، ظلا يتناقشان حتى سألاني، فتأملت السؤال وتذكرت ما تعلمته في الميوزيوم على يد أمونيوس السكَّاس، وما كان يقوله عن الروح واللیجوس، فقلت إن الله ألقى في بداية خلقه للكون بالعقل، ذلك الذي يعد الصورة المثالية لله الواحد، وهو في نفس الوقت كائن وفكر وفكرة وعالم مثالي، فهو كصورة يتوافق مع الواحد، لكنه كمشتق يختلف عنه، فهو الفكر النقي نفسه، وهو العنصر الأكثر أهمية من المثالية، لأنه الطاقة التي تحيل العالم المادي إلى قدرة على الإدراك الحسي.

حين توقفت عن الحديث ناظرًا في وجهيهما لأعرف مدى فهمهما لما أقول، وجدت عيونًا مفتوحة على الفراغ، حتى أنني هززت يدي أمامها مرتين كي يستفيقا مما ذهبا فيه. حين سألتهما إن كانت الفكرة وصلت أم لا، وجدت ثيؤكتستوس يباغتني بسؤاله:

– ما رأيك أن تجلس لتعظ المؤمنين هنا كما كنت تفعل في الإسكندرية؟

راقتني الفكرة، ووجدتني أجلس في حجرة بمدخل كنيسة أورشليم لأشرح للمؤمنين مبادئ الإيمان، لأنتقل إلى بعض أسفار الكتاب المقدس، ثم بعض المسائل اللاهوتية المتعلقة بالإيمان وكيفية الحفاظ عليه، وتنزيه الرب عن التعامل معه كما يفعل الوثنيون بأربابهم، بدا لي أن

أورشليم كانت في حاجة إلى مدرسة كهذه، فهي مدينة الرب، لكنها خالية من مدرسة تعلم الناس الإيمان الصحيح، بدا أيضًا أن الناس في قرارة أنفسهم كانوا يبحثون عن المدرسة ومعلمها الأول، ووجدتني هذا الرجل الذي دفعته يد كلاركلا بحرائقه وسيوف جنوده ليخالف ما كتبه عن مقاومة الاضطهاد بالاستشهاد، ويفر بجلده إلى القدس، كنت موقنًا أنها مشيئة الرب، فجلست على وسادة بمواجهة الراغبين في الاستماع للوعظ الروحي حسبما قال لهم ثيؤكتستوس، فوجدت الرجل الذي سألهما بالأمس يقف في مكانه ليخبرني بسؤاله، فأجبته بما قلته للإكسندر وثيؤكتستوس، وما إن انتهيت حتى وجدته يقول:

– فما الروح؟

ووجدتني من جديد أتذكر محاوراتنا مع السكاس، هذه التي كنت موقنًا أنها من صحيح الإيمان، لأن السكاس كان مؤمنًا بالمسيح، معظمًا للكنيسة، وقد رافقته في الذهاب إليها مرات، وسمعت منه ونحن في الطريق إليها، ومن ثم عدلت نفسي في مجلسي وقلت:

الروح هي الصورة وناتج العقل الساكن، ومن ثم فهي ليست مادية مثل العقل، وصلتها به كصلة العقل بالوجدان، وموقعها بين العقل والعالم الحسي، مخترقة ومنورة بالسابق، لكنها أيضًا ملامسة باللاحق، ويمكن القول إن العقل هو الروح غير المجزأة، ويمكن لعالم الروح أن يحافظ على وحدته ويبقى في العقل، لكنه في نفس الوقت لديه القدرة على التوحد مع العالم الجسدي، ومن ثم قد يتفتت، والروح باعتبارها جوهرًا مؤثرًا، تولد العالم المادي أو العالم غير الظاهري، هذا العالم يجب أن يمتد من خلال الروح التي يجب أن تبقى أجزاؤها المختلفة في وئام تام، ومن ثم فلا بد لها أن تقتفى خطواتها للعودة إلى الخير الأسمى، ولا يكون هذا إلا بممارسة الفضيلة التي تؤدي الفضائل الإلهية، أما الفضائل المدنية فهي مجرد تزيين للحياة دون رفع للروح. والكنيسة هي مكتب الفضائل المطهرة، حيث تتحرر الروح من الحسية، وتقاد عائدةً إلى نفسها، ومن ثم إلى العقل عبر ممارسات الزهد والتقشف، حيث يصبح الإنسان مرة أخرى كائنًا روحيًّا دائمَ الوجود وخاليًا من الخطيئة. ولا يكفي أن يخلو

الفرد مـن الآثام فقط، بل عليه أن يسعى لأن يكـون "الإله"، أو متوحدًا معــه، وهذه المرحلة يتـم التوصل إليها من خلال نهـج وجداني يبدأ بتفكر الأشيـاء المادية في تعددهـا وتوافقها، ثم الانكفاء علـى نفسها والعودة إلى أعماق كينونتها، ثم تصاعدها إلى العقل (حيث يقع عالم الأفكار)، وحيث لا يـزال صدى ضعيف يـتردد قائلاً "نحن مـن صنعنا أنفسنـا"، لكن في المرحلة الأخيرة من هذا المنهـج الوجداني تنظر الروح في صمت ونسيان مطلق وبتوتر وتركيز شديـد في كل شيء، موقنة بمقدرتها على خسران كل شــيء من أجل رؤية مؤسـس الحياة ومصدر الوجود، لأنه أصل كل الأشيـاء وجذر الروح. في هـذه اللحظة تستمتع بأعلـى النعم غير القابلة للوصف، مغتسلة في ضوء الألوهية والاتحاد مع الله.

ما إن أنهيت حديثي الذي لم أدر كيف طال، فقد كان من المفترض أن أرد بكلمتـين علـى سؤال لا يخص المبتدئين، لكننــي وجدتني أتدفق كنهر جـار من أعلـى إلى أسفل، ووجدت محدثـي يغوص بـين أقرانه، بينماً صوتــي ينتظم ويتوالى، وإشاراتي تتضح وتزيـد، فكان الصمت حليفهم والتجلـي حليفي، ولم أنتبه إلى وجود صديقــي ألكسندر وثيؤكتستوس إلا بعدما انتهيت مـن الكلام، فقد وقفا أمام الناس بفخر متحدثين عن الساحر الــذي ساقته يد الله لأورشليم كي يقـدم فيوضاته عن الروح والعقل والله والفضائل ودائــرة الوجود كله، معلنين أنني من اليـوم سأستمر في إلقاء عظاتي على كل من يريد.

شعــرت أنني وجدت نفسي، وكلمــا زاد عدد الوافدين لسماعي زدات رغبتــي في الحديث، وتجلت قدرتي على التخيـل والاستنتاج والتفكير في مسائل أكثر تعقيدًا في أمور الإيمان، وظل الأمر على هذا النحو عدة أشهر قبـل أن تجــيء رسالة غاضبة من ديمتريوس، فكيـف يحق لي أن أجلس لأعظ أمام أساقفة أورشليم دون إذن منه.

لم أشعر بإهانة في حياتي قدر ما شعرت حين قرأت رسالته، فقد تحدث عني كما لو أني عبد يمتلكه، ولا ينبغي لي التصرف في أمر من شئوني إلا بــإذن منه، ألقيت الرسالة غاضبًا ورافضًــا كل حرف فيها، لكن صديقيَّ

رفضا أن يكون ثمة خلاف بيني وبين بطريرك الإسكندرية بسببهما، فأرسلا يعتذران عما حدث، موضحان أنهما لم يريدا غير الخير للجميع، وأنهما أوقفا دروسي للموعوظين منذ وصلتهما الرسالة. لكنه أرسل في طلبي، ولم يكن أمام الرجلين سوى أن يظلا يحثانني على الذهاب، فأي تأخير سيفهم أنه من قبلهما، وحرصا على ألا تقع الفتنة بين أسقفية الإسكندرية والقدس، فقد جمعت أشيائي وامتطيت ظهر بغل في صحبة راهبين من القدس، وأخذنا نقطع المسافات متجهين إلى الإسكندرية، لأجد ديمتريوس يستقبلني بترحاب لا حدود له، موضحًا أنه لم يقصد إهانتي قط، لكنه حسب الأعراف والقوانين الكنسية فإنه لا يجوز لرجل غير الكاهن أن يعظ في حضور الأسقف، وأن غضبه كان من صديقيَّ لأنهما لم يراعيا أصول وأعراف الكنيسة التي تربيا وتعلما في أروقتها الداخلية.

-٥-

شعرت دميانة أن يدًا امتدت لتلتقطها من الحفرة التي ألقيت فيها، حين خرجت من مكانها لم تجد أحدًا، حتى الرهبان الذين كانوا يطاردونها رأتهم أشباحًا تفر في البعيد نحو الباص، كان المكان قفرًا والريح تصفر فيه من حولها، نظرت نحو السماء واستحضرت شجاعتها لتخاطب الرب، كانت توقن أنه في الأعالي يسمع ويري، ولا بد أنه الذي أوقف الرهبان عن مطاردتها، وربما هو الذي مد يده ليخرجها من حفرتها، شعرت أن دمعة تنزل على خدها وهي تسأله:

- لماذا؟

كان سؤالها واضحًا ومباشرًا، ولم تكن لدى السماء أجوبة بوضوحه في ذلك الوقت، فظلا كلاهما ينظران تجاه بعضهما في صمت، هي بدورها انشغلت بأضواء النجوم التي تلألأت فجأة، والسماء أخذت في تغيير مصابيحها، من بين الوهج الذي اختطف عيني دميانة ظهر لها راعٍ يسير خلف أغنامه، كان المشهد بالنسبة لها مدهشًا، حين لمحته على البعد شعرت أن السماء تفاعلت مع شكواها، فاندفعت نحو الراعي وأغنامه كسهم انطلق من قوسه، كان القمر مضيئًا بما يكفي لأن يراها القادم من بعيد، والأغنام تسير تجاهها مسرعة كما لو أنها تتشمم رائحتها، بينما الراعي الطويل القامة يضع عصاه على كتفه ويغني كما لو أنه يهتف في الشياطين بالابتعاد عن أغنامه، هرولت دميانة نحوه هاتفة بالنجدة، غير أنها في منتصف المسافة توقفت عن سعيها، فماذا لو أن الرهبان قد عادوا، لكنها تحت وطأة البرد والخوف وأصوات الضواري رفعت وجهها للسماء، وأسلمت أمرها للرب، ثم أكملت طريقها مسرعة نحو القادم بأضوائه المبهرة.

حين سمع الراعي صوتها أوقف شياهه وأسرع لإغاثتها، سألها عما بها ومن أين أتت لكنها لم تجبه، فقد أذهلتها المفاجأة، كيف أتي أنطونيوس إلى هذا المكان في ذلك الوقت من الليل، ومن أين له بهذه الملابس وتلك الأغنام، كادت أن تصرخ باسمه لكن دوارًا أصابها وسقطت في مكانها. حين انتبهت وجدت نفسها في سيارة وسائق يحاول أن يحادثها، أسئلة تلاحق أسئلة، وكلمات لا تفهمها تعبر على أذنها، ما بين الحيرة والسخرية كان السائق يلتفت نحوها ويتحدث راجيًا أن تخبره بشيء، لكنها ظلت كامنة في كرسيها الخلفي لا تنطق بشيء، موشكة على الصراخ في وجهه، ودموع تنهمر من عينيها، فكل ما سيطر عليها أنها الآن تكمل الطريق الذي بدأه الرهبان، وربما عما قليل ستلتقي بهم، وظلت طلة الطريق تستيقظ بنصف وعي لتنتبه إلى بعض كلماته دون القدرة على الرد، ثم سرعان ما تتوه وتفقد وعيها من جديد.

– من أنت؟

هكذا رفعت دميانة وجهها، وضيَّقت عينيها سائلة بخوف واضح، لكن السيدة التي حملت في يدها كوب ماء من الصاج اقتربت من سريرها مبتسمة:

– أنا أسماء يا حبيبتي.

قالتها ودمعة تكاد أن تفر من عينيها شفقةً على الفتاة التي هبطت فجأة عليهم، لتصبح أمانة في عنقها هي وزوجها، تركتها في مكانها دون أن تتجاوب مع كلماتها، واستدارت بوجهها لتنظر نحو الفرن القديم والبط السارح في فناء البيت وصورة الخط العربي المعلقة على جانب من الجدار، بحثت بعينيها عن الراعي الذي أنقذها من الضواري في الصحراء، وتذكرت أنه كان أنطونيوس، فأخذت تردد اسمه كما لو أنها تطلق تعويذة في وجه الشيطان، حينها انتبهت السيدة التي في الثلاثين من عمرها إلى أن ضيفتها تتحدث.

– أخيرا تكلمت.

لكن دميانــة لم تنتبه لسؤالها، واستدارت برأسهــا من جديد لتستكشف المـكان، وتوقفـت بعينيها أمام الآيــة المرسومة بخط كــوفي يحيطها إطار معــدني معلــق على الثلــث الأخير من الجــدار، وبرق في ذهنهــا أنها في آخر مــكان يمكــن أن تتوقع وجودها فيــه، فصرخت فزعــة تتلفت على أنطونيوس، مــرددة اسمه كما لو أنها تتشبــث بالحياة من خلاله. انحنت أسماء من جديد لتهدهد عليها، وتطرد شياطينها بقراءة الفاتحة والمعوذتين على رأسها، وسرعان هدأت دميانة، وسكنت في فراشها، فأحضرت لها أسماء كوب الماء من جديد وهي تبتسم:

– حمد الله على السلامة.

كانت دميانة في حاجة إلى الماء بالفعل، قبضت على الكوب ورفعته إلى فمها، لكنها سرعان ما تراجعت سائلة:

– أنتم مسلمون؟

ند السؤال عنها فجأة كحجر أطلقته في وجه أسماء:

– الحمد لله.

– أين أنطونيوس؟

لاحقتها دميانة بالسؤال، وظهر على أسماء ملامح الشك في جنونها:

– من أنطونيوس؟!

كانت دميانة تتوقع أن تجيبها بأن أنطونيوس في الخارج، وتروي لها كيــف أتى بها إلى هنا، وكيف انتصر على الضواري في الصحراء، وقتل الرهبــان الأشرار، لكنها تشكك فيما تحلم بالوصــول إليه، فكل ما حولها غريب عليها، وهي لا تتذكر شيئًا مما حدث، وكلما أجهدت ذهنها محاولةً الوصول إلى أبعد من صــورة الرهبان وهم يلقونها في الحفرة فإنها تعجز وتشعر بالدوار، فكيف وصل بها الحال لأن تنام في بيت ريفية مسلمة؟

بدا على أسماء أنهــا فهمت ما يدور في ذهن دميانة، فمدت يدها نحوها من جديد بكوب الماء قائلة:

- لا أعرف أنطونيوس ولا غيره.

وكان عليهــا أن تخبرها للمــرة العاشرة أن زوجهــا رضا وجدها منذ أسبوع أمام البيت، كان في طريقه للعمل، حين فتح الباب وجد فتاة بملابس المدينة مغمــى عليها، حاول أن يكلمها لكنها لم تــرد، في البدء تصور أنها مقتولة، نادى زوجته لتعرف إن كانت فيها الروح أم لا، حين أتته أسماء فعلــت كما يفعلون في الأفلام، حاوت جســ نبضها من يدها، ثم وضعت أذنهــا على صدرها، في ذلك الوقــت استفاقت دميانة ونظرت إليها بعينين مجهدتين، لكنها لم تتحدث، حاولا استفسارها عن اسمها أو أي شيء يدل عليها لكنها بدت مصابــة بالخرس، وسرعان ما فقدت الوعي من جديد، في ذلــك الوقت ظهر أحد الجيران واستطلع مــا جرى، تطوع بأن يوقظ الطبيــب ويحضره من بيته، ثم عاون رضا وأسماء في إدخال الغريبة إلى بيتهما، فوضعاها على كنبة بوسط الدار.

حــين حضــر الطبيب كانــت القرية كلها قــد علمت بأمــر الغريبة التي وجــدت بين الحياة والموت أمــام دار رضا وأسماء، وظــل الكل منشغلاً بغرابــة الأمر، متعاطفاً مــع الفتاة التي دلــت ملابسها وهيئتهــا على أنها ليست مــن الصعيد، وكتب الطبيب ورقة بعدد مــن الأدوية والإسعافات المطلوبــة، ولم يتركها إلا بعدما سرى الجليكوز في أوردتها. بعدما خرج الطبيــب ذهبت السكرة وأتت الفكرة، فقــد تشاغل من حضر من الجيران بالصليب الــذي لمحوه على رسغها، وبدأت التســاؤلات حول ما إذا كان يجــوز لمسلم أن يــؤوي مسيحية في بيتــه؟ وقرر البعضــ أن يذهب ليبلغ النصارى الذين في الجانب الآخر من القرية أن يأتوا لرؤيتها، فربما أتت مــن أجلهم وضلت الطريــق، ولم يكن عدد النصــارى في القرية كبيرًا، فهــم أربعة أو خمس بيوت متجاورة، وغالبًا جميعهم أقارب. حين ذهب إليهــم أهل القرية نهض معهم رجلان وامرأة للتعرف على الغريبة، لكن المــرأة نظرت إلى الصليــب الموشوم على رسغ دميانة وقالــت إنها ليست علــى ملّتهم، ومجيئها معهــم سيحدث مشكلة لا يرغبــون في وقوعها، ثم نهضوا عائدين إلى بيوتهــم، وأصبح على رضا وزوجته أن يتقبَّلا بقاءها معهما إلى أن تشفى أو يظهر أي من أقاربها ليأخذها.

تعـاون أهل القريــة في رعايتها وتوفـير علاجها، لكن أحــدًا منهم لم يستطــع التعرف على من تكون ولا مــن أين أتت، وظل الأمر لغزًا حتى أتى لرؤيتهــا حسنين الجرف صاحب السيارة "دوبــل كابينة"، التي يذهب بهــا كل أسبوع مرتين إلى السويس لتخليصــ أوراق جمركية للشركة التي يعمل فيها، فما إن سمع في اليوم الثالث أن رضا وزوجته أسماء وجدا أول أمســ فتاة من المدينة أمام بيتهما فاقــدة الوعي، حتى بدأ يسأل عن ملامحها وملابسها، وفي النهاية قرر أن يقطع الشك باليقين ويذهب لرؤيتها بنفسه.

كانت دميانة في حالــة دوار دائم، ما إن تنهض من نومها حتى تبحث عن وســادة لتلقي برأسها عليها، ولا تملك أسمــاء كل عدة ساعات إلا أن تناولها بعضًا من الطعام رغمًا عنها، دون أن تعرف من هي ولا من أين، فدائمًا مــا تهذي مع نفسها وكأنها ترى خيــالات وشخوصًا تحدثهم، وإذا سألتهــا عن شيء فإنها تتوه ولا تستطيع الإجابة. حاولت أسماء أن تستمع لما تهــذي به ربما تعثر على اســم تعرفه لكنها جميعًا كانــت أسماء كتريزا ويوساب والمنحني ومــلاك وغيرها من الأسماء الفردية التي لا تدل على شيء، مما جعلها تفقد الأمل في معرفة من هي ولم أتت، ولم تعرف كيف يمكنها أن تتخلص من غريبة حطت أمام بيتها في صباح باكر، فاستسلمت في النهايــة لفعل الخير مع من تعرف ومن لا تعرف، حتى جاءها حسنين مستأذنًا في رؤية الغريبة التي لديهما.

حــين رآها علــم أنها الفتاة التــي قطعت عليه الطريــق وهو مسرع في طريق الرهبــان، كان الوقت قد تأخر عليــه في السويس، ولم يكن سواه على الطريــق، فأشعل الأضواء العالية لسيارتــه، وأعطى أذنيه لكوكب الشرق وهي تغني (في ليلة من ألف ليلة وليلة)، حين لمحها وسط الضباب الخفيــف مسرعة لتقطع عليه طريقه، فضغط علــى كابح السرعة بقدر ما يستطيــع، حتى أن العجل أصدر صوت احتــكاك بالأسفلت لا حدود له، وشــك أنه صدمها حــين اختفت من أمامه، فنــزل وأعصابه كلها ترتجف ليجدهــا مكومــة أمــام العجلات دون قطــرة دم واحدة، حتــى دون أثر للاصطدام بها، كان بخار الماء يتصاعد من أنفاسها اللاهثة بشكل متوالٍ، بينما تقول بوهن شديد:

- خذني معك.

حاول أن يفهم منها أكثر من ذلك دون جدوى، نظر حوله بحثًا عمن يطاردها فلم يجد غير صوت الذئاب والكلاب النابحة على بعد، ساعدها على الركوب في الكابينة الخلفية، وعاد يقطع الصحراء الصامتة من حوله مرتجفًا من هول المفاجأة، أغلق صوت أم كلثوم وأخذ يسأل دميانة عن طريقها لكنها لم تجبه بشيء، فقد استسلمت للنوم، ولم تستيقظ إلا بعدما وقف حسنين في موقف السيارات الذاهبة إلى أسيوط، أيقظها موضحًا أنه لا بد أن يذهب إلى بيته، وأنها يمكنها أن تكمل طريقها إلى أسيوط في سيارة أجرة.

كان النهار قد بدأ يلقي بمصابيحه على الأرض، فخفت أقدام الذاهبين إلى أعمالهم خارج القرية، لكن شيئًا ما أشعرها بالخوف، بينما أخذت الدنيا تتأرجح من حولها، فتسحبت بخطواتها، لكنها كلما سارت كانت البيوت تبتعد وخوفها يزداد، فظلت تمشي حتى لم تعد أقدامها قادرة على السير، وشعرت أن العالم كله يغوص من حولها، فأسندت جسدها على حائط ملتمسة منه المساعدة، لكنه سرعان ما مال بها وفقدت وعيها، ولم تستيقظ إلا على صور أشباح يحادثونها، ثم يدخلونها لدفء بيتهم، وسرعان ما علقوا لها محاليل وأدوية.

أكد حسنين أنها هي نفس الفتاة التي ألقت بنفسها في طريق سيارته، لكنه لا يعرف من أين أتت، ولا إلى أين كانت تتجه.

-٦-

كان ظهـور اللبـؤة وأشبالهـا معجـزة بالنسبة للرهبـان، فقد خرجوا متصايحين بظهور أسـد في كنيسة الملاح، وسرعان ما عدَّل من يعرفون تاريـخ الدير كلماتهـم بظهور اللبـؤة وأشبالها، وربـط بعضهم بين هذه المعجـزة وبين أنطونيوس، فمنهم من رأى أنها أتـت لتحميه من يوساب ورهبانـه، ومنهم من قال إنها خرجت لتنتقم منه لقتله أستاذه، وعزز هذا الرأي اختفاؤه.

أخذ صوت يوساب ورهبانه يتعالى وهم يقتربون من الباب الفاصل بين المقبرة والمذبح، بينمـا أخذ قلب أنطونيوس يتقافز في صدره من الخوف، لكـن حرصه على الحيـاة جعله يتخطَّى قبري المـلاح ولبؤته متراجعًا إلى الداخـل في الظلام، حينها شعر أن جدران المغارة أخذت تهتز كما لو أنها تنتفض لأجله، ورأى اللبوة وأشبالها ينسلون خارجين من مقبرتهم واحدًا إثـر الآخر، متجهين إلى الباب الـذي واربه أحدهم محدقًا في الظلام بحثا عن أنطونيوس، بينما يوساب يصرخ فيه أن يدخل خلفه، فإذ باللبؤة تطل عليهـم برأسها كقطة تقـف في المغارة، وبرشاقة بالغـة انسابت من الباب القصير لتقف بينهـم، وقبل أن تكشف عن أنيابهـا كان الرهبان المتلئون بالفـزع قد تدحرجـوا إلى الخلف، وسرعـان ما تقافزوا مـن المذبح إلى صحـن الكنيسة، غير منتبهين إلى يوساب الـذي تعثر في الأرض وسقط تحت أقدامهم، ولا لصراخه بأن يتوقفوا أو يبتعدوا عنه، لأنهم لم يسمعوه من الأصل، ولم ينتبهوا إلا لأن ينجوا بحياتهم، بعدما خرجوا من الكنيسة وقفـوا يطمئنون على أنفسهم، متسائلين عمن غاب ومن حضر، فاكتشفوا أن يوساب هو الوحيد الغائب، وأنه الذي عبروا بأقدامهم على جسده.

كانـت هذه واحدة من المرات القليلـة التي ظهر فيها جورج المنحني بعد توليه رئاسة الدير، فقد هـرع بعض الرهبان لقلايته طالبين منه النجدة، وما إن سمع حديثهم حتى نهض من مجلسه متجهًا معهم إلى كنيسة الملاح، كان الكل يقف على البـاب رافضًا الدخول، وحده المنحني هو الذي رسم بالصليـب الذي في يده ثلاثًا ثم دفع بالبـاب إلى الداخل، وبقليل من صبر العجائـز ووهنهم وجد نفسه بين صفي الكراسـي، بينما يوساب نائم على الأرضـ، غير قادر على الحركـة أو الكلام، حين رأى المنحني رفع يده متوسـلاً أن يخرجه مـن المكان، فأشـار للرهبان أن ينقلـوه إلى قلايته، ويسقوه شيئًا يرد إليه روحه.

بـدا على المنحنـي في ذلك الوقت أنـه يعرف ما لا يعرفـه الكثيرون، فالتزم الصمت واكتفى بالسير على خطى الرهبان إلى قلاية يوساب، وما إن وصـل إلى هناك حتى طلب مـن الجميع تركه وحـده برفقة صديقه، وبعد فترة من الوقت خرج بوجه تملأه سحابة من الظلام، آمرًا الأب مينا المسئول عن أمن الدير بعد يوساب ألا يصعد أحد إلى الهضبة إلا بمعرفته.

أغلـق المنحني قلايته على نفسه ولم يخـرج إلا في صباح اليوم التالي، حيـث ألقى عظة في كنيسة ديمتريوس، مطالبًـا الجميع بالانتباه لأعمالهم كي يرشدهم الرب إلى الصواب، ويمنع عنهم تمثل الشرير فيما يعتقدون، مؤكـدًا أن الشيطان يوهم أصحابه أنهـم قريبون من الرب، وهو يأخذهم إلى الجحيـم، في النهاية أمر الجميع بعـدم الحديث في شيء سوى الصلاة من أجل باخوميوس الحبيب.

بعدها اصطحب ثلاثة من الرهبان القدامى ليتفقد كنيسة الملاح، كان همه إحصاء الأضرار التي وقعت بالمكان، نظر إلى صفوف الكراسي والممشى المـدرج الواصل حتى الهيكل، حيث يلقي عظـة الأحد، كان ينظر بعينين جاحظتـين إلى آثار الأقـدام المتسخة التي هرولت في المـكان، ويشير إلى مساند المقاعد التي تهشمت من الاصطدام بها، استدار لينظر في المذبح، لم يجد ما يستحق عناء البحث، وحده الباب الفاصل بين المذبح والمقبرة، كان

مفتوحًا، ووضحت معالم تهشيمه على الخشب القديم، كانت حية ونابضة كما لو أنهــا تصرخ فيه أن يذهب إليها، وضع يديه على الخشبب الأبيض حديــث الكسر، أخذ نسيلة منــه ووضعها أمام عينه كما لو أنه يحسب عمر بقائهــا على قيد الحياة، ثم همهم بكلمة لم يسمعها سواه، وألقى بالنسيلة إلى الأرض، دافعًا برأسه إلى الداخل حيث مقبرة الملاح ولبؤته، كان الظلام يغلف كل شيء، ووصلت إلى أنفه رائحة رطوبة هواء قديم، وللحظة فكر في أن يرفع قدمه ويعبر عتبة الباب لكنه شعر أن قوته ستخذله، وأن القلب لم يعد لديه طاقة لاحتمــال مزيد من المفاجآت، فأغلق الباب وعاد بظهره إلى الخلــف معطيًا أوامــره بغلق الكنيسة لحين إصلاح مــا تهشم منها، ثم توجــه من فوره إلى يوساب في قلايته، ليخــرج من عنده طالبًا من الأب مينــا أن يشدد الحراسة على أسوار الدير، وبــدء الاستعداد لمراسم جنازة الأب باخوميوس.

لم يعــرف مينا بم يرد على المنحني، فقد وجــدوا باخوميوس معلقًا من عنقــه في حبل بوسط قلايته، وهو ما يستدعــي إبلاغ الشرطة عن جريمة انتحــار إن لم تكن قتلاً، حين قال ذلك للمنحني تغير وجه الأخير، ونظر نحــو السماء كما لو أنــه يلتمس المعونة من الــرب في المصائب التي توالت عليه، وفي النهاية هز رأسه:

– وتدخــل الشرطة لتعيث في المكان، ويفقــد الدير قداسة طالما انتظرها في عهد إيمانويل الفقير؟

شعــر مينا باتســاع المسافة بين مــا يقوله وما يراه المنحنــي، فلو علمت الشرطــة بالأمــر ستجــيء للتحقيق في جريمة قــد تفقد الديــر هيبته، وبدا للحظات أنه لم يعد يعرف الخطأ من الصواب، فطرق المنحني على كتفه:

– يا بني.. هذه محنة... وعلينا أن نحسن التصرف.

هز مينا رأسه مبديًا تفهمه الأمر، فابتسم المنحني بوهن قائلاً:

– باخوميوس كان مسنًّا وذا قلب ضعيف. دعنا نخبرهم بذلك.

مــن جديد هز مينا رأسه مؤمِّنًــا على ما قاله رئيسه، هذا الذي سرعان ما غير نغمة صوته متسائلاً:

- كيف لم تقبض على أنطونيوس؟!

حملت صيغة السؤال لومًا لمسئول الأمن، فقد شغل نفسه بالمقتول وترك القاتل يتحرك في جنبات الدير بحثًا عن جريمة أخرى، ازدرد مينا ريقه طالبًا المعذرة، فتركه المنحني واتجه إلى قلايته، كان يمشي بانحناءة ظهر تجعله يبدو كرسالة تنطوي على نفسها، كانت خطواته وئيدة على التراب والحصى، بينما الشمس تضرب أشعتها في الصخر لتنعكس على وجهه المترهل، فيلتقط أنفاسه بصعوبة وهو يطعن بعصاه في وجه الأرض، بينما صليبه يتدلى من عنقه متأرجحًا على صدره مثلما كان باخوميوس يتأرجح مشنوقًا في قلايته.

لم يستطع أنطونيوس أن يتخيل خروج اللبؤة وأشبالها من قبرهم، فشعر أن الدنيا تدور به، وسرعان ما سقط مغشيًّا عليه، فلم ينتبه إلا على دخول المنحني ورهبانه صحن الكنيسة في اليوم الثاني، حينها شعر أن تيارًا باردًا من الهواء يتدفق تجاهه، وجعلته أصوات الداخلين ينتفض من نومه باحثًا عن مكان يختفي فيه، كانت الأصوات لا تزال في صحن الكنيسة، فكتم أنفاسه مبتهلاً إلى الرب ألا يفكروا في الدخول لقبر الملاح، لكنه كلما شعر بخطواتهم تقترب كان يتراجع بظهره، متلمسًا بيديه جدران الكهف في الظلام، تلك الجدران التي أخذت تنحني على جسده الطويل حتى جلس، ظن أن هذه نهاية حدود المغارة، لكن تدفق الهواء البارد جعله يعتقد أن ثمة بقية من فراغ يمكنها أن تطوي جسده فيها بعيدًا عن العيون، فنزل إلى الأرض وتراجع بمؤخرته زاحفًا إلى الخلف، أدهشه أن المسافة التي زحفها كانت أطول مما توقع، فقد دفع بنفسه عدة أمتار في ممر طويل انتهى بحجر، في البدء اعتقد أن هذه هي النهاية، فكمن فيها منتظرًا أن يخرج مَن في الكنيسة، لكن تيار الهواء ظل يتسرب من خلفه، وأدرك أن ثمة خلاء خلف الحجر الذي وراءه، بحث بقدمه عن المكان الذي يتسرب منه الهواء فشعر أن الحجر غير مستقر، فتمتم باسم المسيح والملاح وضرب الحجر بقدمه فسقط، وتدفق مزيد من الهواء المشمول ببعض النور إلى الممر.

في البـدء ارتعد من فكـرة السقوط في هاوية ما، فأخـذ يتحسس بقدمه أبعاد الفـراغ، وأخذ يدفع بنفسه للخلف قليلاً قليـلاً، حتى شعر أن ظهره يـكاد يلامس الصخـر وهو يعبر خارج الممر، حـين اكتمل خروجه وجد نفسـه في مغارة جديدة بابهـا على البحر، وأن ما زحف فيه ليس أكثر من ممـر يربط بينها وبين مغارة الملاح، فاستدار بوجهه إلى الباب المضيء، بـدا لـه أن العالم يولد أمامه مـن جديد، فلم تستطع عينـاه احتمال الضوء الصـارخ، وتهادت إلى أذنه أمواج ناعمة لبحـر يكاد أن يكون زاهدًا في كل شـيء، لم يكـد يصدق أنـه أصبح في الجانب الآخر مـن العالم، وأن الجبـل الذي ظل الجميـع لقرون طويلة يعتقـد أنه السد المانـع بينهم وبين البحر يخبئ في باطنه أقرب وأقصر الطرق إلى البحر.

أيقـن أنطونيوس في تلك اللحظة أن المسيـح راضٍ عنه، أيقن أيضًا أن هذا المكان وصل إليه أناس غيره، فلا شيء يحول بيِنه وبين مغارة الملاح سـوى ممر وحجر غير مثبت في مكانه، شكـر الرب على عطيته وجلس يلتقط أنفاسه من الخـوف والتعب، جال بعينيه في المكان فوجده أشبه بقبو كبير يطل على البحر، دقق بعينيه في الجانب المظلم منه فرأى عدة صناديق من الخشـب، عالج أحدها بيديها فوجده ممتلئـا بمخطوطات كتب قديمة، بعضها كان باليونانية وبعضها باللاتينية والديموطيقية، مخطوطات تعود إلى أزمنـة بعيدة، ربما إلى بداية الدير أو المسيحية نفسها، صناديق تحتاج إلى أزمنة لترجمتها ومعرفة ما فيها...

حين طـرق أنطونيوس بابي كدت أموت في جلـدي من الرعب، فقد مضـت ثلاثـة أيام لا أحـد يسمع فيها بشـيء عنه، فتشـ الرهبان في كل مكان، ونظر جـورج المنحني بنفسه في ظلام قبر الملاح ولبؤته، وخرج ومـن معـه من الكنيسـة مؤكديـن أن المكان كمـا هو من مئـات السنين، كان غيـاب أنطونيوس قـد أصبح الشغل الشاغل لكل مـن في الدير، فهو العلامة الوحيدة على المعجـزة التي حدثت أمامهم، حيث قامت اللبؤة من موتهـا وخرجت تطارد الجميـع، كان الكل يتحدث في ذلـك همسًا بعدما حـرم المنحني الخوض فيه، وهـدد بعض المقربين منـه بالشلح إن عادوا ليهرطقوا بهذه الأحاديث من جديد، كان المنحني قد تحول إلى عجوز عنيد

لا يـكل من الحركة، مؤكدًا على مينا ضرورة انتباه الرهبان في حراستهم للمـكان، وألا يخرج أحد أو يدخل إلا بإذن منه، حتى لو كان من الرعاة أو الفلاحـين بأرض الدير، فأنطونيوسـس مجرم ولا بد من القبض عليه، حتى وإن تجنبنا إدخال الشرطة في أمرنا.

كانت الأيام الثلاث قـد شهدت إعداد جثمان الأب باخوميوس للدفن، إذ أرسل المنحني إلى الأبرشية في أسيوط، مثلما أرسل إلى رؤساء الأديرة التـي في الشرق والجنوب، مخبرًا الجميع أن باخوميوس الحبيب قد صعد إلى الأمجاد السماوية بعد عمر طويل من الصبر على الآلالم لأجل المسيح، وأن بركاتـه تتنزل على الدير وأهله، وأن من يمر على مقربة من هضبة الملاح سيشعر بنسائم روحه الطاهرة في المكان.

كان ذلـك بمثابة انتصـار للحكمة من قبل جورج الـذي ترك يوساب حبيسًا في قلايته، وأخذ يراجع كل تفصيلة من تفاصيل تهيئة المتنيح للدفن، مؤكـدًا ضرورة تأمـين الدير وعدم الحديث في أمـر القس الهارب، كي لا يصـل إلى آذان أحـد أن الأب باخوميوس مـات متأرجحًا من عنقه في سقف غرفته، فقـام مينا بفتح قلاية باخوميوسـس لتهويتها، وكي يقرأ فيها الرهبـان على جسده المسجـى، وتهيئة الجثمان قبل نقلـه إلى كنيسة الأب ديميتريوس، تلـك التي يمكنها أن تتسع لاستقبـال الضيوف القادمين من الأبرشية والأديرة المحيطـة، فضلاً عن أنها ليس فيها ما يستدعي الترميم وإثارة أسئلة عن أمور لا ينبغي الحديث فيها.

ظـل الديـر بمثابـة ترنيمة صـلاة طويلة على مـدار الأيـام الثلاث، فلأمـرٍ ما كان كل من في الدير قـد أصبح حريصًا على نظافته الشخصية، ومظهره العام، وسلوكه أمام الجميع، كان الكل يشعر أن الدير قد عادت إليه روحـه المبهجة في زمـن الأب إيمانويل، حيث الضيـوف القادمون والذاهبـون، وحيـث الإحساس بالقداسـة التي تشمـل كل شيء، روح مـن البهجة كانت تعم المكان، وكان الجميـع موقنًا أن هذه البهجة الجديدة تخصـص الأب باخوميوس، رفيق إيمانويل الطيب في رحلة الحياة، وأول اللاحقين به من أهل المكان.

لم يفكر أحد طيلة المشهد الجنائزي العظيم في شأن أنطونيوس، وبدا أن أحـدًا لا يريـد أن يقلق نفسه بالتفكير فيه، ربما لأن أحـدًا لم يرد أن يذكر نفسه أن باخوميوس الحباك قد مات قتيلاً، فقد منحه الجميع قداسة الشهادة دون الدخول في تفاصيل، وبدا أن اللقب الذي توقف حضوره منذ أزمنة الاضطهاد القديمة كان مفصلاً من أجل باخوميوس وحده، وقف جورج المنحني بين ممثلي الكرازة والأبرشية ورؤساء الأديرة يلقي عظة القداس أمامهم، مانحًا خلالها ألد خصومه لقب الشهادة، مؤكِّدًا أن الدير احتضن علـى مدار تاريخه كثـيرًا من الآباء المقدسين، وأن عطـر هذه القداسة لم ينمـح يومًا من دير جبرائيل الملاح، وأن لبؤتـه وأشبالها ما زالوا قائمين على حماية الدير وأهله، وحراسة نفوس المقيمين فيه من شرور الشرير، وأن باخوميوس الحبيب كان واحدًا من نفحـات القداسة على أرض هذا المكان.

كانـت عظة تأثر بها الجميع، وبكوا خلالها مـن أجل باخوميوس، ثم حملـوا جثمانه وساروا بتابوته حتى نزلوا به إلى السفح، حيث المقابر التي اعتاد الدير أن يُنزل إليها جثامين موتاه، فوضعوه هناك وعادوا يطلقون أجراس الكنيسة حزنًا عليه.

وجـدت أنطونيوس أمامـي بطولـه الفـارع يطلب منـي الدخول، واستغرق الأمر لحظـات كي أتبيَّن أنه ليس شبحًا، وأنه لم يمت، أخبرته بما جرى في تلك الأيام الثلاث، وحكى لي كيف أنقذته اللبؤة وأشبالها من المـوت، وكيف شفع الملاح لندائه وخوفه، حكى لي عما اكتشفه في المغارة التي على البحر، والكتب التي جلس طيلة تلك الأيام يطالع ما فيها، هازئًا من مخزن الكتب الذي جاهدت زمنًا كي أجعله مكتبة لا يعترف بها أحد، كان يضحـك بفزع قائلاً أن إسرار الأجداد جميعًا في تلك المغارة الخلفية، تلك التي تجمع أعمال القديسين إلى جانب تعاليم المهرطقين.

-٧-

اعتــاد الطبيب المــرور يوميًّا لرؤية مريضته، واعتــاد العمدة وبعض مشايخ القرية المرور أيضًا ببيت رضا وأسماء، بعضهم كان يترك ما تيسر مــن مال لمساعدة الرجــل، وبعضهم كان يذهب ليتفقــد الأحوال ويعرف الأخبــار، لكن أغلبهم كان يتساءل عن جواز إنفــاق المسلم على نصرانية مــن ماله، وحين بلغ الســؤال أذن العمدة أمر رضا علــى الفور أن يغلق بابه ولا يفتحه إلا للضرورة:

- الناس لا يأتي منها إلا التعب.

هكذا همس في أذنه مفسرًا الأمر. فأغلق رضا بابه وأسلم أمره لله.

كان وراء هــذه التســاؤلات بعضــ المشايــخ الذين عــادوا من الخليج تاركين اللحى وحافين الشارب، وقف العمدة يذكرهم بتقوى الله باحثًا في ذاكرتــه عن الآيات التي تعضد موقفه، ولما لم تسعفه ذاكرته تلجلج وتبلبل عقله وشعر أن موقفه ضعيف، بينما تكاثرت الذقون والجلابيب القصيرة عليه كنمل تكاثر على قطعة خبز، اتهموه بأنه جاهل لا يفقه في شرع الله، وبدا الأمر بالنسبة له صفعة لا يمكنه السكوت عليها، جحظت عيناه واحمر وجهــه وأخذ يسمعهم ما يقدر عليه مــن شتائم، فانفضوا من حوله تاركينه يكلــم الهــواء، دون أن يعرف ما الــذي يمكنه فعله، فكل مــا يحتكم عليه هــو سبعة مــن الخفر الموزعين في جنبات القرية ليــلاً تحت مسمى حراسة الأمــن، وهم غير قادرين علــى حراسة أنفسهم أو حتــى حماية بنادقهم، مــلأ صدره بالهــواء الفاسد وزفره أمامه بقوة كمن يطفــئ حريقًا يكاد أن يلتهــم كل شيء، وأسرع إلى التليفون الحكومي النائم على المكتب ضاغطًا على عدة أزرار، وبعد عدة محاولات جاءته الإجابة من عامل التحويلة،

وبعد دقائق رد عليــه ضابط برتبة ملازم، شرح له الأمر مرة واثنتين، ووعده الضابط أنه سيبلغ المأمور.

مضــى يومان قبــل أن يضطر العمدة لمعاودة الاتصــال طالبًا النجدة، فقــد قرر السلفيون تزويــج الفتاة، وذلك منعًا لاختــلاط الزيت بالنار في بيــت رضا، وحين حاول الأخــير أن يسأل عن المقصــود بالزيت والنار لكزه أحدهم بأنه لا يجوز الرد على الشيخ هاشم، فالتزم الصمت متعجبًا، وحين جــاء المساء وجد هاشم برفقة ثلاثة من رفاقه جالسًا على الكنبة التي في وسط الدار، لم يكد يرحب به حتى وجده يقول:

– يا أخ رضا، الأخ هشام يطلب منك يد الفتاة التي عندك.

فنظر إليه رضا باستنكار ودهشة:

– إنها مريضة، وفاقدة للذاكرة والوعي.

فرد الشيخ هشام:

ـ الحمد لله الذي خلقنا على الفطرة، وبفضله تتم الصالحات.

لم يعرف رضا بمَ يجيب، وفي النهاية هداه تفكيره إلى:

– العمدة ولي أمرنا، ولا بد من أخذ رأيه.

وظهر الغضب على وجه الشيخ هاشم:

– تحدثنا معه من يومين، وهو فاسق لا تجوز ولايته.

شعر رضا أن الدنيا تضيق من كل جانب، وأن كارثة ستقع على أرض بيتــه، فهــز رأسه طالبًا أن يمهلــوه للغد كي يفاتحها في الأمــر، وبدا أنهم كانــوا يرغبون في الوصول إلى هذه النقطة، فاستراحت معالم وجوههم، ومضوا طالبين من الله أن يوفق الجميع للخير.

لم يكــد نهــار اليوم التــالي ينتصف حتــى انتفض من بيتــه متجهًا لبيت العمــدة، فقد أشارت عليــه زوجته أسماء أن يبلغه بمــا حدث، حين سمع العمــدة ما جرى فكر كثيرًا، ثــم طلب من رضا أن يحضر دميانة إلى بيته هذه الليلة، وحين يسألونــه عنها يخبرهم أنها هربت، ولهم أن يفتشوا كما

يشــاءون، ثم اتصل بالمأمور راويًا لــه المأساة التي تقبل عليها قريته، لكن الأخــير اعتبره يبالغ في الأمر، ووعده بأن يرسل له غدًا سيارة تحضرها للمركز.

لا أحــد يعرف مــن أين علم السلفيون بما اتفق عليــه رضا مع العمدة، فقد جاءوا بعد صلاة العشاء طارقين بابه، لكنه لم يفتح لهم، وأخبرهم أن زوجتــه مريضة ولا يمكنها استقبال ضيــوف الآن، فأخذوا يطرقون من جديــد بقوة سواعد تجاهد في سبيل اللــه، وزاد بعضهم في الأمر أن اتهمه بأنه يأوي أجنبية في بيته بلا وجه حق، كانت أسماء تسمع وتكتم أنفاسها، بينمــا دميانة تضــع يدها على رأسهــا مرتجفة في ركن بعيــد من الغرفة، موقنة أن الرهبان قد عادوا من جديد، وراحت أصوات الذئاب والضباع تتصاعــد في أذنيها، بينمــا أنطونيوس يمشي خلــف أغنامه مترنمًا بصوته القــوي في الصحراء الفسيحة، فأخــذت ترتجف متمتمة باسمه، كما لو أنه التميمــة التي تطرد بها الشياطين مــن داخلها، ولم يكن أمام أسماء ورضا ســوى حملها بعيدًا والأصوات المتعاليــة، فدفعا بها على السلم تجاه السطح لتختبئ في الغرفة العلوية.

في ذلك الوقــت كان أحد المجاهدين قد حمل قالبًــا من الطوب وضربه في شباك النافذة المطلة على الشارع، فأحدث دويًّا يشبه الانفجار العظيم، وظهــرت في عقبه ألسنة اللهــب المحمول على أعــواد الخشب، صرخت دميانــة، وأخذت انتفاضات جسدها تتصاعد كما لو أنها سمكة خرجت من المــاء، شعرت أسماء أن الفتاة ستموت من الخوف في بيتها، وأنها عاجزة عن حمايتها، فصعدت للسطح وأخذت تصرخ مستنجدة بالناس.

مضــى أكثر من ساعــة قبل أن يصــل العمدة بخفــره إلى بيت رضا، فقد خــرج الناس ليحموا البيت من أفعال المعتديــن، بينما تنادى السلفيون وأتباعهــم لحســم الموقعة، حاملــين عصيًّا وأسياخ حديــد في أيديهم وعلى أكتافهــم، مصرين على حــرق البيت وتطهير القرية مــن الرجس، لكن الناس حالــوا بينهم وذلك، ولم يفتح رضا بابــه إلا للعمدة، فقد استنجد به النــاس، لكنه رفض أن يترك بيته قبــل أن يبلغ المأمور بما يجري، طالبًا قــوة من المركز، ثم خرج بخفره مطلقًا عــدة أعيرة في الهواء، حينها فتح

الناس لـه طريقًا إلى باب البيت، وأخذ ينادي هو وخفره على رضا الذي أطل برأسه من فوق السطوح لمعرفة القادم.

حـين انفتحت ثغـرة في الباب دخل منها العمدة وشيـخ البلد وثلاثة من الخفـر وبعض من كبار القرية، شعر رضا أن البيت قد امتلأ بالضيوف، وجاهد بمساعدة آخرين لإعادة غلـق الباب، في وسط الدار وقفوا جميعًا يستطلعـون الأمر، كانـت دماينة ما زالت ترتجـف في غرفة الضيوف، بينمـا أسماء تلطم خديهـا، ورضا تائهًا لا يعرف من أيـن جاءته كل هذه المصائـب، انتحى بـه العمدة وشيخ البلـد جانبًا، ومنحه أحـد الموجودين سيجـارة ليشعلها، ووضـع الخفر أكتافهم في الباب مـن الداخل، طالبين مـن زملائهم في الخـارج ألا يسمحوا لأحد بالدخـول، وعبث العمدة في هاتفه الصغير مرات عدة للاتصال بالمأمور، لكن الأخير لم يرد، فوضع الهاتف أمامه ونظر إلى رضا بدهشة واضحة:

– أين أهلها من النصارى؟

بدا السـؤال كأنه اكتشاف لحقيقـة أنها مسيحيـة، فالنصارى الذين في القرية على ملة مختلفة عن ملتها.

– لا إله إلا الله يا عمدة.

قالها شيخ البلد وكأنه يطلـب إغلاق ملف لا جدوى منه، فرفع العمدة هاتفه، وكأنه نسي الأمر كله، وأخذ يتصل بالمأمور من جديد، لكن الأخير كان هاتفـه مغلقًا أو خارج الخدمة، فجلس وكأنه سقط في جبٍّ عميق، إلا أن الأصوات التي في الخارج لم تترك لأحد فرصة التمتع بنعمة الصمت، فقـد صدحت مآذن المساجد بأن الفاسق يـأوي الرذيلة في بيته، ولا بد من تطهير القرية منهما، كي لا ينزل الله غضبه على الجميع، فخرج كثيرون من بيوتهم لينصـروا الله، بينما أقسم آخرون لهم بـأن رضا وأسماء من الصالحـين، وأن الفتـاة كانت بين الحيـاة والموت، لكن كيـف تقنع أناسًا بالعودة عن طريقهم وقد رأوا الجنة على بعد أمتار منهم؟!

-٨-

نزل الأب ديميتريوس بعد يومين من خلوته في أعلى الجبل، وأنصت بإجهاد واضح إلى رسالة أثناسيوس، مؤكدًا أنه سيبتهل إلى الرب كي يعينه على الحضور، فشكره أثناسيوس على نشره للإيمان القويم، واستأذنه أن يصحبه في رحلته لأديرة الجنوب صديقه رفائيل، حيث عليه أن يدعو جميع الرؤساء لحضور ذلك المجمع، وافقه ديميتريوس على طلبه، وأشار لأبانوب بتجهيزهما بالزاد اللازم للطريق.

حين نزلا من مخر السيل الرابط بين الهضبة والأرض المنبسطة تحتها قررا أن يقطعا الصحراء الواقعة بين القلزم والنهر في اتجاه ليكوبوليس، حيث ارتاحت العذراء بطفلها في مغارة الجبل الغربي، وحيث تحولت المغارة إلى كنيسة في نهاية القرن الأول من ميلاد المسيح، وما لبث يوحنا الليكوبوليسي في نهاية القرن الثاني أن أنشأ على الجبل ديرًا للعذراء، هو الآن واحد من الأديرة التابعة لميليتيوس المناوئ للبابا بطرس، وما زال الميليتيوسيين يسيطرون عليه، داعمين بحضورهم القوي ما يذهب إليه أريوس في تعاليمه.

كان أثناسيوس يشرح لرفيقه طبيعة الأرض التي يمشيان نحوها، فتلك اللحظة كانت لحظة خلاف وشقاق كبرى، فما إن انتهت الكنيسة من هرطقات الغنوصيين وتأثرهم بفلاسفة اليونان حتى دخلت في آراء أوريجانوس، تلك التي بنى عليها بولس السمساطي آراءه في المسيح، التي استل منها أريوس بعضها وبنى عليه معارضته لبطرس، فصرنا أمام هرطقات تتوالد من بعضها بعضًا، ولا سبيل لوقفها إلا بعودة المسيح نفسه كي يشرح للناس مراده وفكرته.

هكذا تحــدث أثناسيوس بحزن مــن أعماق صدره، كما لــو أنه أزاح غطاء بئــر الأسى وجلس أمامه، لكن رفائيل الــذي لم يسمع بالسمساطي من قبــل ألح في السؤال عنــه، فتنهد أثناسيوس قائلاً أنــه كاهن من مدينة سمســاط بين النهرين، كان أبواه فقيريــن للغاية، لكنه أصبح غنيًّا للغاية، فقــد سيطر بمعسول الكلام على عقل الزباء، فجعلتــه أسقفًا على أنطاكيا، كان يمشــي وأمامه مائــة من الخدام وخلفه مائة مــن الخدام، وعن يمينه امرأة جميلة وعن شماله امرأة جميلة، والزباء لا تثق بشخص سواه، مما جعل عشرات القساوسة والرهبان يفتنون به، فيصيبهم الضلال والعماء.

أنصت رفائيل لصديقه باهتمام بالغ، منتظرًا منه أن يكمل حديثه، لكن الشمس كانت قــد اشتدت على رأسه، فأخذ ينظر في الأفق بحثًا عن مكان يقيلان فيه، على البعد ظهرت ربوة بجنب شجرة عتيقة، لكن ما إن اقتربا حتى سمعا راعيًا يغني لأغنامه:

– بحسب إيمان مختاري الله... عارفي الله...

أبناء قديسين. ذوي التعاليم الشرعية الثابتة.. حاصلين على روح الله القدس...

أنا نفســي تعلمت هذا.. مــن حكمة المشاركــين.. السابقين.. عارفي الله..

حسب كل أقوال الحكماء.. أتيت أنا مقتفيًا أثر كل هؤلاء..

وأنا ذو السمعة الحميدة.. متمش بنفس العقيدة..

ومتحمل كثيرًا من أجل مجد الله.. بنفس حكمة الله.

استبشر الرفيقان خيرًا، فكلمات الراعي تمجد الله وتؤكد اتباع التعاليم الثابتة، ألقيا التحية عليه وطلبا أن ينزلا بجانبه إلى أن يزول الحر، فخفَّ الراجل لاستقبالهما، وأخرج لهما بعضًا من زاده ومائه.

بعــد الطعام التــزم أثناسيوس الصمت وكأنه دخــل في صلاة خاصة، بينمــا تجاذب رفائيــل الحديث مع الراعي عن صاحــب الشعر الذي تغنى

بــه، فأجابه بأنها أشعــار الأب أريوس، يشرح بها تعاليــم الشريعة التي تلقاها عن الحكماء والعارفين بالله، التي من أجلها تحمل الكثير.

وما إن سمع أثناسيوس هذه الكلمات حتى قطع صلاته سائلاً الراعي:

– هل تعرف أريوس؟

– نعم.

– هل التقيت به؟

– لا.

– ما رأيك في تعاليمه؟

ابتسم الراعي متحيرًا:

– أنا لا رأي لي، هذه أمور معقدة، وأنا راعي غنم.

حينها شعر رفائيــل أن رفيقه سيستعدي عليهما الراعي، وإن نجيا منه فلن ينجوا مــن غيره، فليكوبوليس عاصمــة الميليتيوسيين، وجميعها تسلم بالفكــر والــرأي لأريوس، ومنذ عشريــن عامًا وهم يناوئــون الكنيسة، فاعتــذر للراعي بــأن الشمس أثرت علــى مزاج صديقــه، وشكره على ضيافته. حــين أكملا رحلتهما لم يعاتب رفائيــل أثناسيوس، وفكر في أن يعيده إلى أمر الساموساطــيٍ من جديد، هنالك ارتاحت ملامح أثناسيوس وأرخى العنان لجواده قائلاً:

هذا المهرطق ذهب إلى أن العذراء ولدت يسوع الإنسان، ثم حلّ عليه كلمــة الله عند ولادته، فصــار إلهًا، ومن ثم فهو يــرى أن المسيح إنسان تألَّه، وليس إلهًا تأنَّس، وقال أيضًا إن للمسيح أقنومان يمثلان ابنين لله، الأول بالطبيعة وهو الكلمة، والثــاني بالتبني وهو يسوع. وأنكر أقنومية الروح القدس قائلاً إنها مجرد قوى من قوى الله، مثل العقل والفكر لدى الإنسان. ولأجل هذه الانحرافات حكمت عليه الكنيسة بالحرمان.

-٩-

رسائل أوريجانوس(٧)

كانـت المدينة أهدأ حـالاً عما تركتها عليه، فقد رحـل جنود كلاركلا، وعم السـلام من جديد، وعاد ديميتريوس مـن الصحراء، حيث كان قد هرب أمام الجنود الذين نشطوا في البحث عن الكهنة والواعظين، نشطوا في البحـث عن كل متعلم، فلمـا انتهوا من سجن وتعذيـب المتعلمين صبوا غضبهم على عامة المسيحيين، فكان كل مسيحي هدفًا لهم.

تركت المدينـة وروائح الحرائق والقتل والعطـن تفوح منها، وعدت إليهـا وقد تزينت وعـادت إلى سابق عهدها، الإسكندريـة جميلة وزاهية وبهيـة، حدائقها غناء، وشوارعها جميلـة ومرصوفة بالأحجار، مبانيها عاليـة وشامخـة أمـام الجميـع، لم أدرك أنني متيـم بهـا إلا حينما عدت إليهـا، فأخذت أجوب شوارعها من الشرق إلى الغرب ومن الجنوب إلى الشمـال، هواء البحر فيها ليس كهواء أي مدينة أخرى، وشعور المرء أنه مـن أبنائها ليس كشعوره في أي مكان آخر، كم يتعذب الذين يكتب عليهم الخروج منها، وكم هم أقوياء الذين تحملوا هذا البعد.

ربمـا كان وقوفي علي بحرها منتشيًا بهوائها المنعش هو ما جعلني أغفر لديميتريوسـ إهانتـه لي، هو نفسه اعتـذر موضحًا أنـه لم يقصد إهانتي، فقـط كان يوجـه غضبه تجـاه ثيؤكتستوسـ وألكسندر، أسقفـي فلسطين وأورشليـم، لأنهما لم يراعيا تقاليد الكنيسة التي نشآ بها، لم أجادله كثيرًا، واكتفيت بأننـي عدت إلى مدينتي، مدينة الرب عن حق، أو هكذا أشعر، فقبلت عذره وعدت لأبحث عن أمي وإخوتي.

كانـت أمي قد أصيبـت بالرمد وكف بصرها من كـثرة البكاء، وكان أخـي دانيال قد التحـق بعمل في الميناء، قال إنه يدر عليـه مبلغًا يكفيه لأن يفتـح بيتًا ويعول إخوتنا الخمس، وفهمت مـن أمي أنه يرغب في الزواج مـن ابنة رئيسه في العمل، لكنه يخشى الحديث أمامي في الأمر كي لا يثير حـزني، فذهبت إليه وربت على كتفه موضحًا أنني وهبت نفسي منذ زمن للوعـظ وشرح كلمات الرب، وسوف أكـون سعيدًا حين أراه يصطحب زوجته وأبناءه كل أحـد للصلاة، وفي المساء اصطحبته ووالدتي إلى بيت رئيسه، فطلبنا ابنته للزواج من دانيال، وما إن عقدنا نصف الإكليل حتى نشطـت معه في البحث عن بيت يصلح أن يكون بداية لأسرة جديدة، وفي عيـد القيامة التـالي عقدنا له إكليلاً كامـلاً، وزففناه وعروسـه إلى بيتهما الجديـد، في ذلـك اليوم كنت أشعـر أنني صرت والدي، فقـد كانت أمي تتكئ على ذراعي وأختي سارة تسـير أمامي وأنا أتأمل السنوات والأيام التي مرت، سنوات بها الحلـوى الممتزجة بالمرار، شعرت أنني كبرت، صرت بملامـح منحوتة، وظهـر مقوس وحمول كثـيرة، صرت شيخًا رغم أنني لم أتجاوز الثلاثين من عمري.

عـادت مدرسة الإسكندرية من جديد إلى سابـق عهدها، وإن كنت لم أعد متفرغًا لترتيب شئونهـا كسابق عهدي، فقد خصصت للوعظ من بعد الظهيرة حتى نزول الظلام على الأرض، ثم أعود لأجلس إلى منضدتي في غرفـة بيتنا، أطالع الكتب وأسجـل الملاحظات وأدون الشروح، وفي الصبـاح أذهب إلى مكتبة بطليموس فأطالع أحدث ما ورد إليها من كتب، وأشتبك في مناظرات مع أساتذة الفلسفة والتاريخ واللاهوت في الميوزيوم، كان الجـدل الفكري طعامـي اليومي، هـم بدورهم أخـذوا يفردون لي مساحـة بينهم، وكثيرًا ما يدعوننـي لنتناقش حول أمور تخص اللوجوس وطبيعة الرب وأقانيمه وروحه القدس، كان هذا النقاش يشغلني أكثر مما تشغلنـي مدرسة الإسكندرية ذاتها، وكنت كلمـا شعرت بحاجة للرد على مسألة مهمة أجلس لأكتب رسالة فيها، في ذلك الوقت كانت أمي قد عافت الحيـاة، فصارت تراودها الأحلام عن والدي، فتروي لي كيف اختصها بالثـوب الأخضر، وأخذ منها قطـع الجبن الطـري، وداعبها على عدم

معرفتها الجيدة للألـوان، كانت تحكي بفرح تارة وحزن أخرى، تحكي كما لو أنها تمهد لسفر طويل، سفر لم تخبرنا عنه إلا قبلها بيوم واحد، حين نامـت على نفسها تاركـة الطعام يحترق على النـار، أحضرت لها ثلاثة أطباء، جميعهم خرجوا في صمت قائلين:

– أطعموها ما تريده إن طلبت الطعام.

في المساء كانت قد أودعـت أمانتها إلى صاحبها، وأصبحت جثة هامدة بـين أيدينـا، لم تفعل أكثر مـن أن ألقت بمزيـد من التعب علـى كاهلي، أوصتنــي من جديد بأختي سارة وتجهيزها للـزواج، ثم بكت وهي تقول لي إن استطعـت الزواج فتزوج، وإن لم تستطع فاشتر جارية تخلص لك طيلـة حياتك، ربت علـى كتفها وأنا أطلب منهـا أن تبلغ السلام لوالدي، بعدها صعدت الروح كنزع شوكة من فراء، فجلسنا لتلقي العزاء وصلاة القداس، وعدت لأبكي وحـدي، فلم يعد لي غير هـذه الجدران وسارة التي لم تعد صغيرة، وأربعة من الإخوة الأصغر، شعرت أنني فقدت كل جـذوري في الأرض، وأنني صرت اليوم وحيدًا، صرت ريشة تتقاذفها الريـح كيف تشاء، فرفعت رأسي وطلبت من الرب ألا يحدث هذا إلا بعد أن أطمئن على أختي في بيتها، ولتفعل بي الحياة بعدها ما تريد.

مـرت بي خمسـ سنـوات في الإسكندرية، لا أخرج منهـا ولا أذهب إلى غيرهـا، ولا يختلف خـط سيري عن البيت والمدرسـة والمكتبة، لكن فيمـا يبدو أن كتبي كانت تذهب أبعـد من هذا بكثير، كانت تعبر البحر إلى الشمال حيث روما وبيزنطـة، وتسير على البحر في الشرق نحو أنطاكيا وفي الغـرب نحو المـدن الخمس، وتيقنـت أنني صرت شخصًـا معروفًا حين فوجئـت الإسكندرية بالحامية الحربية لوالدة الإمبراطور تنزل على شطآنهـا مستأذنة في التوجـه إلى الكنيسة الأم، فما كان مـن حاكم المدينة إلا أن رحـب بقائدهـا وتقدم برفقتـه طالبًا لقاء البابـا ديمتريوس، كانت المعلومات قد وصلت من القصر أن نائب الإمبراطور سيجيء لمقابلة الأب ديمتريوس، فأخـذ الكهنة يسرعون في إلقاء الأوامـر للخدام والشماسين بتزيـين الكنيسة وتنظيفهـا، بينما أحضر ديمتريوس ثيابـه الرسمية مطلقًا

البخـور بين يديه، وسامحًا للشماسـين بالترنم في حضرته كي يكتمل بهاء سلطانه حين يجيء نائب الإمبراطور للقائه.

دام الانتظـار نحو ثلاث ساعـات قبل أن يتسرب الملـل والضجر إلى الجميـع، وكنـت بطبيعـة الحال مـن بينهم، فقـررت التسلـل والذهاب للغـداء مع سـارة وإخوتها الصغار، لم أستطـع الوصول إلى ديمتريوس لأستأذنه، فأخبرت بعضًا من خدمه وشماسيه أن أختي مريضة ولا بد أن أذهـب لرعايتها، لم يعر أي منهم حديثي اهتمامًـا، وأومأ بعضهم بالموافقة حتـى دون أن ينظـر إليَّ، فخرجـت وأنا ألمح من بعيـد مظهر الجنود وهم يتراصون على جانبي الطريق، بينما على البعد تتحرك العربات الذهبية في طريقها إلى الكنيسة وسط جوقة مـن الطبول والأصوات النحاسية، خففت خطـاي متعجلاً كي لا ألتقي بأي من الآبـاء أو القساوسة فألتزم بالبقاء معه وسـط كل هذا اللهو والصخب، لكنني ما إن خلعت ملابسي واسترخيت في جلستي بالبيت حتى وجدت من يطرق الباب وكأن القيامة قد قامت.

كان حاكم الإسكندرية قد وصل إلى الكنيسة طالبًا لقاء الأب ديمتريوس، وهناك سأله عن المعلم أوريجانوس، فأسقط في يد الجميع، إذ إن أيًّا منهم لم يشغـل نفسه بمعرفة أين ذهـب أوريجانوس، وعلم ديمتريوس أن قائد حامية أنطاكيـا جاء ليطلب مني الذهاب للقـاء الإمبراطورة مامسيا والدة الإمبراطـور ألكسنـدر ساويرسـ، وفي الوقت الذي تنبـه فيه بعض من استأذنتهم في الذهاب إلى البيت كانت خطى البعض الآخر تهرول لتخبرني بطلـب نائـب الإمبراطور لي، ما زاد من صعوبة الأمـر أن قائد الحامية أبلـغ نائب الإمبراطـور أنه لا بد أن يذهب إلى حيـث يوجد أوريجانوس ليبلغـه طلـب الإمبراطورة بنفسه، فمـا كان من الموكـب الإمبراطوري إلا أن اصطحـب ديمتريوس معه باحثين عن الـدرب المتفرع من شارع البحـر، حيث أقيم مع إخوتي الصغار، وما إن ارتديت ملابس خروجي حتـى وجدت البيت قد أحيط بالجنود من كل جانب، وقائد الحامية ونائب الإمبراطور والأب ديمتريوسـ في طريقهم نحوي، فوقفت في استقبالهم وهـم يصرون علـى أن يدخلوا معي إلى البيت، كـي يسلمني قائد الحامية رسالة الإمبراطورة الأم.

دامــت هذه الرحلــة نحو ستة أشهر، لقيت فيها مــن التعظيم والإجلال مــا لم أشهده مــن قبل، كانت الإمبراطــورة مامسيا قد طلبــت من يجيبها عــن بعض الأسئلة المقلقة لديها، وخشــي الجميع أن يجيب إجابة غير التي تريدهــا، فتبرع أسقف أنطاكيا بالقــول إن في مدينة الإسكندرية علامة لم يفته من العلم شيء، وهو من نتعلم على كتبه ورسائله وشروحه، فطلبت منــه أن يكتب بنفسه رسالة باسمها إلى هــذا العلامة الكبير تستأذنه فيها أن يكــون ضيفًا علــى قصرها كي يعظها، وطلبت من قائــد الحامية ألا يترك الرسالــة لأحد، وأن يذهب إلى حيث أكون كي يسلمها لي بنفسه، ولم يجد حاكم الإسكندريــة والأب ديمتريوس بُدًّا مــن اصطحابه لإكمال مهمته، فاستأذنتــه يومين لترتيب أموري، كنت في حاجة لأن أستدين بعض المال الــذي سأتركه لسارة كي تنفق منه، وأن أوصــي دانيال بدوام التواصل معهــا وعــدم الانشغال عن إخوتــه، لكن فكرة الاستدانــة فسدت، فكيف يمكــن لرجل حضرت الدنيا إلى بيتــه أن يخرج في الصباح طالبًا المال من النــاس، الأدهش أن الجنود لم يتركوا باب البيت، وكاد الحاكم أن يصدر قرارًا بذهابي معه إلى القصر، لولا أنني رجوته أن يتركني على راحتي، فاستأذن وعاد برفقة ضيوفه.

لم تكن الأرضــ تحمل إخوتي من الفرح، وشعــر كل منهم أنه قبض علــى نجمة من السماء، خاصة سارة ودانيــال، كانا يتفاخران بأن بيتهما جاءه نائــب الإمبراطور وأساقفــة الإسكندرية، وأن أخاهــم ذاهب للقاء الإمبراطــورة الأم، لم أعرف مــا الذي ينبغي أن أقوله لهما، فقد كنت ما بين الدهشة والفرح والخوف، عالم السلطة مدهش وجميل وقاس، ومثلما يعطي فإنه يغدر ويأخذ، بت ليلتي أُخبِّئ خوفي وأفكر في مصيرنًا القادم، وفي الصباح لم أشعر بضــرورة في تأمين نفقات سارة خلال غيابي، فقد أصــر دانيال على أن ينتقل بزوجته ليكون مع الصغار في بيتنا، ووجدتُ سارة راضية بالأمر، فوافقت وبدأت أجهز نفسي للسفر.

كانت أمتع الرحلات التي قمت بها، لم أشهد إجلالاً وتقديرًا مثلما رأيت في أنطاكيــا، نزلت ضيفًا على قصر الإمبراطورة مدة ستة أشهر، علمتها فيهــا المبادئ الأساسية للإيمــان، وكلما عنَّت لها مسألة كنــت أجيبها عنها

بسلاسة ويسـر، لكنني وجدتني بعد فترة حبيسًـا كطائر في قفص ذهبي، فـلا هو أصبح شيئًا غير كونه طائـرًا حبيسًا، ولا أفاده الذهب في أكثر من كونـه سجنًا له، فطلبت منها أن ألقي بعض العظات للناس، وأن أجري بعض المناقشـات مع الأساقفـة والقساوسة، فعقدت لنـا مجلسًا في القصر لنتناقش أمامها في أمور الدين، كنت أنصت وأنصت ثم أجيب، وفي كثير مـن المناقشات كانت إجاباتي ضافية وواضحة، فكان أسقف أنطاكيا يشعر أنني رفعـت رأسه ولم أخذله، وأنني أسديت لـه معروفًا لم يكن يتوقعه. لكـن أيام الانتظار طويلـة، وكل يوم جديد بمثابة دهر يمر على جسدي، فقـد توحشتنـي الإسكندرية وناسهـا وشوارعها، حتـى ديمتريوس نفسه توحشني، وصار القلق يضرب قلبي على أختي، لا أعرف ما الذي جعل القلق يتزايد عليها بهذا الشكل، فطلبت من الإمبراطورة الإذن بالرحيل، فأصرت على أن تعيدني حاميتها مثلما أخذتني، وما إن وصلت باب البيت حتى فوجئـت بقائد الحرس يضع صندوقًا صغـيرًا من المجوهرات أمامي قائلًا:

– هذا هدية من الإمبراطورة من أجل أختك.

-١٠-

أرسـل الأب جورج في طلبي، هكذا وجدت الشماس الشاب المنوط به مرافقـة المنحني في تحركاته يطرق بابي، أيقنت أن نهايتي قد حلت، وأن ثمة من وشى بي إليهم، أغلقت الباب خلفي وذهبت مع الشماس، كنت ألعن أنطونيوس في سري، فما لي أنا بما يجري من صراعات بين الرؤساء! لم أكـن أرفع خطوة أو أضعها على الأرض إلا وأنا أقدس المسيح، طالبًا من العذراء والروح القدس أن يلقيا بمعجزاتهما عليَّ لأخرج سالمًا.

حـين وقفت أمام المنحني لم يرفعٍ نظره تجاهـي، وظل منشغلاً بقراءة شـيء ما في الكتاب المقدس، منقـلا عينيه أسفل نظارته منه إلى كتاب آخر بجانبه على المكتب، لا أعرف ما الذي كان يفعله المنحني وقتها، وما كنت أريـد أن أعرف، فقد كنت أبتهل للعذراء في سري أن تضع سترها علي، فلا يراني المنحني ولا يسمع بي، ويبدو أنها سمعت صوتي الذي لم يخرج عن جدران صدري، فقد أنهى المنحني عمله، ووضع نظارته جانبًا:

- هل تعرف دير درنكة؟

كانـت كلماتـه هادئة كما لو أنه مـا زال يقرأ في الكتـاب الذي أمامه، والحق يقال أنني بحثت في ذهنـي عن درنكة الذي نطقه بسلاسة واضحة فلـم أجـده، كانت عين المنحنـي تطل نحوي من بين الترهـلات المتراكمة أسفلهـا كما لو أنها تتفحصـ فأرًا جبليًّا غريب الطبـاع، شعرت أنها تريد الدخـول إلى روحي لتتأكـد إن كنت سأصلح لما يريـده مني أم لا، نحيَّت خوفي جانبًا، وهززت رأسي:

- لا.

أومأت وأنا أحاول قتل شبح ابتسامة بلهاء ندَّت من فمي وأنا أجيب بالنفي، فقد تصورت أنني أفسدت عليه فكرته، لكنه تغاضى عن ذلك مهمهمًا:

– أفضل.

حاولت أن أستوضح ما عنـاه بكلمته الأخيرة، لكنه وضع صيلبه على المكتب ونهض تجاهي:

– حين تذهب أسيوط، تسأل عن دير درنكة.

هززت رأسي باهتمام واضح، لكنه تجاهل وجودي:

– في داخـل الدير كنيسة العـذاراء، حين تصلها ستميـل على الجالس بجانـب الباب سائلاً عـن الأب إسطفانوسـس، ثم تنتظر حتـى يجيء من يأخذك إليه.

كانـت هذه هي المـرة الأولى التي يتكلم فيها المنحنـي معي، وهي المرة الأولى التـي يتم تكليفي فيهـا بمهمة خارج الدير، أذكـر أنني ذهبت مرة في صحبــة باخوميوس إلى أسيوط، كنــت صبيًّا ولا أعرف إلى أين كانت خطـاي تأخذني، ولم يكـن لدي اهتمـام بأكثر من مطالعـة الوجوه التي مـلأت ساحة الاحتفـال بمولد أحد القديسين، في هـذا اليوم اصطدمت بي دراجـة رجل عجوز فطرحتني أرضًا، وسرعـان ما شعرت أن الشمس تضـوي بقوة فوق جبهتي، والدنيا تظلم مـن حولي، وروحي تنسل مني كشعـرة تخرج من لوح عجين، يومها أدخلني باخوميوس إلى خيمة مليئة بالنسـاء، أحضرت لي إحداهن كوبًا من المانجـو المثلج، ما زالت حلاوته حتى الآن على لسـاني، شعرت أن روحى التي انخلعت مني ردت إليَّ، وفتحـت عيني على فتحة صدرهـا الواسعة، ورغبـت في إطالة النظر لما أسفلها، لكني أسرعت بإغماض عيني كي لا تشعر أنني عدت لوعي، وما إن فتحتها من جديد حتى وجدتها تضمني إلى صدرها ضاحكة:

– يا شقي... أنت تمثل كي تظل في حضني.

انفجـرت الضحكات من حولها، ورأيت وجوههن تحدق فيَّ كأني فأر في مصيـدة، فأصابني الخجل، وظننت لوقت طويل أن الذين في الخارج يسخـرون من الغرباء أمثالي، فكرهت الخروج من الدير، لكنني لم أنسَ الكـوب المثلج وحلاوته التي تسربت لروحـي، ولم أنسَ وجه السيدة ولا

حضنهـا الطـري، وما زاد من تذكـر غوايتها لي، هو ظهـور دميانة في حياتي، دميانة التي تشبه كأس مانجو مثلج في شهر أبيب.

كان أنطونيوس قد طرق عليَّ بالأمس بـاب المكتبة، وحين فتحت له كاد أن يغشى عليّ، وأخذت أتطلع فيه لأتأكدا أنه ليس شبحًا ولا معجزة، وكلما أطلت النظر همس في وجهي:

– أنا أنطونيوس...

سمعت منه ما جرى معه منذ دخوله قلاية باخوميوس ورؤيته معلقًا من عنقـه في سقفها، حتى دخوله مغـارة الملاح وهروبه في الممر الرابط بينها والمغـارة التي على البحـر، تلك المليئة بمخطوطـات القديسين والهراطقة على نحو سواء، وكأن من جمعها لم يكن يعاني ما نعانيه الآن.

كان أنطونيوس يضحك ساخرًا من كل شيء، وكأنه يهرب نفسه من مواجهة الحقيقة التي يعيشها، فهو الآن مهرطق ومتَّهم بقتل باخوميوس، ويوسـاب ورهبانه طوال القامة يبحثون عنـه، كان يضحك ولا يعنيه أن يسمعـه طوال القامـة فيقتحمون المكتبة علينا، ظل يضحـك وأنا أهدئ من روعه حتـى سقط في النوم كطفل صغير، ولم أجـد أمامي سوى تحريك دولابـين فارغين مـن الكتب بحيـث يحيطانه من الجانبـين، ثم أسرعت ووضعت عليه بعضًا من الكراتين الفارغة والقماش المستعمل بشكل يضمن ألا يراه أحد، ولا يفكر في الاقتراب من مكانه أحد. كان الخوف يجتاحني مـن أن يكتشفوا وجوده لدي، فالدير كله لا يشغله سوى أمر أنطونيوس، ما بين الباحثين عنه وما بين الحالمين بقدراته ومحبة الملاح له.

في النهايـة دخلـت في فراشي المعتاد بجانب المكتـب ورحت أبحث عن النوم، شعرت أن كل الكوابيـس شديدة السوء أخذت في مهاجمتي، كان أغلبها يدور حول اكتشاف أمري وسحبهم لي كي يلقوني من فوق الجبل، بعضها الآخر كان عن أنطونيوس وهم يقطعونه ويلقون به للكلاب قائلين لـه هذه لبؤتـك وأشبالها، الحلـم الوحيد الـذي راودني كان عن دميانة، كانـت تضحك بوجهها المنـير على جملة قلتها بلهجتي التـي ما بين الصعيد والحضـر، كان ثغرها يشع في الظلمة نورًا ليملأ المكان من حولي، وكان

المـكان غريبًا، لا يشبه الدير ولا يشبــه أماكن المدن، وثمة أصوات ذئاب كانت في الخارج، ذئاب كثيرة تطل بوجهها من النافذة، لكن دميانة كانت تضحـك وتضحك، وأنا أرتعد من الخـوف، والمخالب تضرب في شباك البيت وأبوابه، وأنا أقبض على يد دميانة مرتعدًا، وكلما اشدت الأصوات والطرقات اشتد تمسكي بها، حتى شعرت أنها ستموت في يدي، فانتفضت مـن نومي لأجـد الطرقات على بـاب المكتبة وليس في الحلـم، كان ذلك شمَّاسـ المنحني وقد جاء يطلبني، كنت في حاجة لأن أغسل وجهي وأغير ملابسي، لكنني خشيت أن يدخل خلفي بحجة الانتظار، فتركت كل شيء على حاله، وأغلقت الباب خلفي مبديًا العجلة في لقاء رئيس الدير.

حـين عدت من عنـد المنحني إلى المكتبة وتلافيفهـا؛ وجدت أنطونيوس مختبئًـا كفأر كبير بين الدولابـين اللذين أطبقتهما عليـه، فأخذت بصوت خفيض أنبهه لعودتي، موضحًا أن المنحني يريدني في مهمة خارج الدير، لكننـي لا أريد أن أذهـب، فنفسي ترتعد من غوايـة الشرير في الخارج، والرب لـن يحرس الجميع، فهل ألقي بنفسي من فـوق الجبل، أم أشنقها كما فعل باخوميوس الحبيب!

كنت في تلك اللحظة أبحث عن مزحة تزيل عن روحي القلق والخوف، لكنني وجدت وجه أنطونيوس الباسم يتحول إلى ظلام يقفز منه الشرر:

– باخوميوس لم ينتحر، لكنه قُتل.. وهو من الشهداء.

قالها بحدة وغضب واضحـين، حتى أنني تلجلجت، ولم أعرف كيف أعتذر، فالتزمـت الصمت وتصنعت البحث عن مخطوط تركته في درج المكتب، لكنه نبهني من شرودي قائلاً:

– لو قفزت من على الجبل، هل يلحقوا بي؟

كادت ابتسامـة تقفـز مني لـولا أنني أسرعـت في وأدهـا، خشية أن يواجهني بغضبـه، ونظرت إليـه مندهشًا، فرأيت شبـح ابتسامة شريرة يرتسـم على شفتيه، بينما يده ترسم الصليب على وجهه وصدره كمن ينهي صـلاة سرية، حين سألتـه عما يعنيه، قال لا شـيء، وأخذ ينظر في كتاب بجانبـه، حينها لا أعرف لم أخبرتـه أنني رأيت دميانة في الحلم، وأن قلبي صـار قلقًا عليها، رأيته ينظـر نحوي باهتمام واضح، طالبًـا أن أعيد عليه

الحلم كما رأيته بالضبط، لكنه بعد أن سمع ما أمكنني تذكره هز رأسه قائلاً:

- الرب معها.

أمنت على كلامه:

- ومعنا يا صديقي.

في المساء استدعاني المنحني قائلاً:

- غدًا في الصباح يأخذك الباص إلى أسيوط.

ثم أعطاني صندوقًا خشبيًّا مربعًا، وبه باب يتحرك من الجنب قائلاً:

- لا تفتحه ولا تعطه لأحد غير إسطفانوس.

خرجت من عنده ومفاصلي ترتعد، لا أعرف لماذا شعرت بالخوف، هل من نظراته أم من الإحساس بأن الأمر مريب، كنت أهرول بين الظلمة وضوء القمر الشفيف، حين عدت إلى المكتبة وجدت أنطونيوس يخبرني أنه عزم على الرحيل.

- كيف؟

تساءلت بفزع، فوضع يده على المكتب وأخذ يشرح خطته:

- لو أن قلاية الأب باخوميوس على حالها، لم يسكنها أحد ولم يؤخذ منها شيء، فالفرصة سانحة للهرب، يمكنني حسبما قال لي باخوميوس أن أزيل حجرين من الجدار، وأربط حبل الليف الطويل، الذي في سحارة الكنبة، بطرف السرير، ثم أنزل من على جدار الهضبة حتى مقابر الرهبان، بعدها أختبئ في المطبعة أو أنطلق في الصحراء.

بدت الفكرة أبسط من التوقف لتأملها، فأدرت رأسي معجبًا بها، ومتسائلاً عن كيفية الوصول إلى قلاية باخوميوس، فسحبني من يدي نحو الباب قائلاً:

- الرب سيحرسنا.

كتمنا أنفاسنا وتسللنا خارجين من المكتبة إلى جانب سفح الجبل، ثم جعلني بجانبه لا أسبقه ولا أتأخر عنه، وانحنى حتى أصبح كما لو أنه ظلي

الــذي يمتد على الأرض، حتى عبرنا من خلف كنيسة الأب ديمتريوس، ثــم ملنا بجانبهــا نحو البوابة، لنعــبر على مقربة من أكــثر الأماكن عيونا وحراســة، لا أعــرف لمَ لم يوقفنا أي منهم، فقد مررنــا أمامهم كراهبين يتناقشــان في شــأن مهم، هــم بدورهم لم يعيرونــا اهتمامًــا وتشاغلوا في الحديث عن عشائهم الذي تأخر، بعدهــا انفصل عني أنطونيوس ليلتصق كخفاشــس في جدار قلايات الرهبان، كان يظهر ويختفي من بين المنحنيات بخفــة مدهشة، في هــذه اللحظة فقط أيقنــت أن أنطونيوســس استعاد وعيه كقاطع طريــق، ولم نلبث حتى وجدته يقف أمام قلاية باخوميوس مباغتًا الراهب الذي يحرسها بطرقة على رأسه، فسقط مغشيًا عليه، بعدها عالج القفل الموضوع على الباب بآلة معه، ثم غاب في الظلام.

-١١-

انتفضت أسماء من مكانها صارخة في العمدة والرجال الجالسين وسط الدار:

- خذوها واخرجوا.

كانت صرختها قوية وواضحة، وشعر الجميع أن الموقف تطور لما هو أسوأ، فنهض رضا من بين الرجال نحوها محاولاً تهدئتها، لكنها كانت حاسمة في موقفها، موضحة أنها لا تريد لبيتها أن يحترق، والعمدة هو الحكومة وعلى الحكومة أن تقوم بدورها. كانت الكلمات تخرج من فمها كمدفع رشاش انطلق في وجه الجميع، وشعر الرجال أن آذانهم غرقت في عمائمهم، فنظروا جميعًا إلى بعضهم بعضًا، بينما مثَّل رضا دور الرجل صاحب الكلمة في البيت، فشتمها أمامهم، ورفع حذاءه ليضربها، فانتفضوا من مكانهم ليمنعوه، وانسحبت هي إلى غرفتها من جديد.

هكذا حركت أسماء المياه التي ظن البعض أنها ستظل ثابتة إلى أن يجيء الصباح، ويذهب كل إلى حال سبيله تاركًا الأمر معلقًا في صدر رضا وزوجته، أو أن تأتي الشرطة من المركز وتخلص الجميع من المشكلة، في تلك اللحظة بدأت العقول تفكر والألسن تتحرك باقتراحات للخروج من الموقف، فقال أحد الجالسين مستسلمًا:

- نخرج بها يا حضرة العمدة.

لكن العمدة الذي وجد نفسه محملاً بعبء أكبر من قدراته جحظت عيناه تجاه القائل، ممسكًا نفسه عن أن يجري وراءه بالحذاء، وبدا على الجميع أن الرسالة وصلتهم، فقرر أحدهم أن يطرح حلاً بديلاً:

- ما الرأي فى أن نأخذها من على السطوح إلى الشارع الخلفي، ومن هناك نأخدها في سيارة إلى المركز؟

بدا أن هذا الحل به نوع من الخيال لكن له وجاهته، فلا أحد سيضار ولا أحد سيتحمل المسئولية، وهكذا يخرج الجميع سالمًا، فتحمس الموجودون، ولزمت أسماء ورضا الصمت، فربما يمكنهما الخلاص مما دخلا فيه، وبدأت الاتصالات تجري بالسائقين ذوي القلب القوي، لكنهم لم يجدوا غير حسنين الجرف، هذا الذي شعر أنها قدره فقرر الاستسلام له.

كانت الاتصالات التي جرت مع السائقين قد نبهت بعضهم إلى أن ثمة ما يجري الإعداد له، وبمجرد أن سرب أحدهم الخبر حتى انتشر كالوباء، فما كان من السلفيين إلا أن بدأوا يعدون ما استطاعوا من قوة يرهبون بها أعداء الله وأعداءهم، فأسرعوا في استخراج ما بقي لديهم من قطع سلاح وعصي حديد، ووضعوا مزيدًا من الخرق المشبعة بالزيت على أطراف أعواد الخشب، وشددوا حصارهم للبيت من كل جانب فيما يشبه استعراض القوة، وفي الوقت الذي أخذت النداءات فيه لنصرة الإسلام ترج أرجاء المكان، كان العمدة ورضا ومن معهما قد جعلوا دميانة ترتدي ملابس أسماء وتصعد معهم إلى السطح، ليقفزوا منه إلى سطح البيت المجاور عبر سلم خشبي، ومنه إلى السطح الذي يليه، لكن حسنين الذي انتابه القلق من تأخر العمدة عليه قرر أن يتصل به، وسمعه أحد المارة وهو يؤكد وجوده في المكان المتفق عليه، فما كان من الرجل إلا أن صرخ بأعلى صوته:

– الكفرة يريدون الهروب.

فتجمع البعض لينظروا ما الذي حدث، وفطن آخرون إلى خطة العمدة وجماعته، فتطايرت الأعيرة النارية في الهواء لمنعهم، وبات العمدة محاصرًا على السطح لا يعرف إلى أين يمكنه الذهاب، بينما تم القبض على حسنين ومصادرة سيارته، وتحت وطأة العصي اعترف بالمخطط كله، وكانت الخطة البديلة أن ينزل العمدة ومن معه ليواجهوا السلفيين، في حين يعود رضا بدميانة إلى بيته من جديد.

ما إن نزل العمدة حتى تجمع حوله عدد من الذين رفضوا الدخول في الفتنة، فنهرهم الرجل على سلبيتهم وعدم دفاعهم عن الحق، حتى أنهم

بجبنهم يهدرون كرامة القريــة ويتركونها لمن يرهب الناس ويعتدي على حرمــات البيوت، كانت كلمات العمدة صادقــة وحارة، حتى أن كل من سمعهــا دبت في عروقه دماء الشجاعة، فضلاً عن أن من سينقذه اليوم لن ينساه العمدة غدًا، فكان كلما مر بدرب تزايد عدد من تجمعوا حوله، حتى أصبحوا كتلة أكبر من كتلة السلفيين وعددهم، وتنادى الصبية والأطفال أن العمدة قادم، فارتبك السلفيون من مواجهة قد تودي بحياة الكثيرين، ومن ثــم قرروا الإسراع في اقتحام بيت رضــا وزوجته لينهوا الأمر ويفوزوا بغنيمتهــم، حمل بعضهم جذع شجرة كبــير وأخذوا يضربون الباب حتى تكسر، ودخلوا ليجدوا أسمــاء وزوجها واقفين أمامهم، ولا إجابة لديهما إلا أن العمدة أخذ الفتاة ورحل، فجن جنون السلفيين، وانتفضوا يهشمون ما تقع أيديهم عليه، وفي النهاية أخذوا معهم رضا ليقيموا عليه الحد.

وصــل الخــبر إلى المركز عبر أطــراف عدة، من بينهــا المحافظ الذي هاتفــه بعض المسئولين سائــلاً عما يجري، ولم يكن هنــاك فضل في ذلك إلا لمواقــع التواصل التــي اشتعلت بالاستغاثة لنجــدة القرية من الاحتراق علــى يد السلفيين، راحت الاتصالات تجري بمدير الأمن المشغول بإعداد كمين لتجار المخدرات في الصحراء، فظل بعيدًا عن تغطية شبكات الهاتف المحمــول، لكنه بمجــرد أن عاد من كمينه وجد عشــرات الأرقام حاولت الاتصال به، علم بما جرى وما هو متوقع حدوثه، وتوجه بالقوة التي معه للقريــة، واستدعى معه قوة أخرى مخصصة لفض الشغب، وما إن دخل القريــة حتى أطلق عبــوات الدخان المسيلة للدموع علــى الجميع، وانضم العمدة ومن معه للرتب التي نزلت بكامل عتادها، وفوجئ السلفيون أنهم أصبحو أقليــة فقرروا الفرار، لكنهم أيضا قــرروا أن يتركوا للحكومة ما يشغلهــا عنهم عدة ساعات، فتركوا المشاعل التي معهم على أسطح البيوت المليئة بالحطب.

كان رضــا قد فكر في خدعة بسيطة حين تركــه العمدة ومن معه يعود بدميانــة إلى بيته، فخبأها وســط كومة من الحطب على سطح بيت مجاور لبيتــه، ونزل ليبلــغ السلفيين أن العمدة أخذها ورحــل، وكان من الممكن لخطتــه أن تسير في مجراها الطيب لــولا أن سارينات الشرطة التي نبهت

السلفيين للتغير الذي حدث، مما جعلهم يلقون بمشاعلهم إلى أسطح البيوت، وما إن وصلت الحكومة لبيت رضا حتى وجدوا أسماء تلطم وجهها، مطالبة الجنود بإنقاذ المسكينة من النيران، ولم يكن أمام النساء والرجال سوى حمل المياه على الرءوس والأكتاف لمواجهة النيران المتصاعدة، باحثين عن دميانة وسط ألسنة النيران، وفي خضم صراعهم الطويل لمحوا دميانة ترتجف من الأشباح التي تحيط بها من كل جانب، لكن لم يمسسها شيء منهم ببركة المسيح والعذراء مريم.

-١٢-

قطـع رفائيل وأثناسيوس مسافات طويلة في الصحراء، لكنهما لم يذهبا إلى ليكوبوليـس، فكلما مرا بجماعة من الرعاة سمعـا أشعارًا لأريوس، وكلمـا جادلهم أثناسيوس شعـر رفائيل أن العيون تتقـد وملامح الوجوه تتلـون، فكان يسحب صديقه ويفر به قبل أن يعتدوا عليه، كان أثناسيوس خطيبًا عظيمًا، ومؤمنـًا صادقًا إلى أبعد مدى، لكنه لم يكن سياسيًّا كبيرًا، كان إيمانـه الصـادق يدفعـه للدخول في جـدل مع أناس ألغـت عقولها، واستسلموا لكلمـات منظومة وأسطورة صنعها مارقـون، وكان رفائيل المثقـف ابـن المدينة يخشى أن يعـود من رحلته جثة هامـدة، وربما تكون طعامًا للذئاب، حينها أبلغ أثناسيوس بمخاوفه، مذكرًا إياه أن ليكوبوليس عاصمة ميليتيوس التي خرج منها على سلطة الكنيسة، وأن أريوس ورث رجاله وكنائسه، فجميعها تدين له، وأهلها لن يقبلوا بمناقشتهما في فكرته، وقد يعرضنا هذا للموت في تلك الصحراء.

تحدث رفائيل بأسى مطالبًا بتغيير الاتجاه إلى طيبة، حيث يمكن دعوة الكهنة هنـاك لحضور المجمع الذي يريده أثناسيوس والبابا ألكسندروس، وتحت وطـأة الإلحاح وتضخيم المخـاوف استجـاب أثناسيوس لرغبته، فتجنبـا السـير في الطرقات المعهـودة أو الدخـول في نقاشـات مع من لا يعرفونـه، ورددا أمام الناس في أماكن الخطر بعضـ أشعار لأريوس. حين وصلا طيبـة وجدا أمرهما أخـف وطأة، فالوثنيـون الذين يعبدون إيزيس كانوا على خلاف مع أساقفـة ميليتيوس وأنصار أريوس، يرون الأول متشددًا، والثاني أقرب لفكر من بقي من كهنة أخناتون.

حين أنهـى رفائيل وأثناسيوس جولتهما علـى كنائس وأديرة الجنوب اتخـذا طريقهما عائديـن إلى الإسكندرية، لم يكن الطريـق هذه المرة من

جـوف الصحراء وفيافيها، فقـد تعبا من الترحــال، وأزف الوقت الذي حــدده البابا، ولديهم أعمــال لا بد من إنجازها. كان البابــا ألكسندروس رجــلاً مسنًّا غير قادر على مواجهة المشكلات التــي تكاثرت على الكنيسة منذ انشقاق ميليتيوس على بطرس، وتضخمت المشكلات من بعده في زمن أرشلاوس، فوجد في أثناسيوس العود الصلب الذي يمكنه الاعتماد عليه، وحــين طرح الأخير فكرة دعوة الأساقفــة والكهنة لمجمع مقدس يؤكدون فيه علــى مبادئ الإيمــان التــي توارثتها الكنيســة عن الآبــاء والقديسين الأوائــل، وجدها ألكسندروس فكرة طيبة للإنهــاء على خصومه بضربة واحــدة، ومن ثم حدد الموعد وترك أثناسيوس يقــوم بجولته لجمع الآباء الراغبــين في المشاركة، إلا أنــه لم يستطع الذهاب لأساقفة ليكوبوليس ولا المحاجر في الإسقيط، واكتفى بأن أرسل لهم عبر الأديرة القريبة منهم كي يحضــروا المجمع، مبلغًا الجميــع أن الموعد هو الأول من شهر توت، ولم يكن قد بقــي على الموعد سوى القليل لاستقبال نحــو خمسة أساقفة وثمانية عشر قسًّا، وعشرة رؤســاء أديرة، ومائة شماس من الرهبان المتوحدين في الجبال.

وقــف ألكسندروس في استقبــال ضيوفه بنفسه، بينمــا كان أثناسيوس بمثابــة المسئول عن تنظيم كل شيء، بدءًا مــن إنزال الضيوف في منازل إقامتهــم، وصولاً إلى أماكن جلوسهــم في المجمع، وترتيب الوفود وبنود المناقشــات ومواعيد الاستراحات، كان هــذا دوره المعلن الذي يرافقه فيه مجموعة من الشمامسة التابعين له، لكن دوره الخفي الذي شعر به الجميع هــو أنه العقل المفكر لألكسندروســس ذي القلب الطيب واليدين المرتجفتين، فــكان أثناسيوســس بمثابة لسانه الــذي يتحدث به، وذراعــه التي يفعل من خلالهــا كل شيء، مما منحه القوة والقدرة على توجيــه أساقفة وقساوسة ورؤساء أديرة أقدم منه في خدمة الرب بزمن كبير.

لكن اللحظات الصعبة لا تمر سريعًا، ففي الوقت الذي تأخر فيه كثير من القساوسة والأساقفة الميليتيوسيين وأنصارهم عن الحضور، ظهر أريوس أمــام الجميع في الجلسة الأخيرة، وكأنــه حضر كشبح من بين الجدران، وبدا علــى أثناسيوســس الغضــب، وارتبك الحضــور جميعًــا، فيما فرح الميلتيوسيين وصفــق بعضهم لدخوله، وكان ألكسندروس حكيمًا، فرحب

بــه ككاهن مجد ومجتهد في كنيسة الرب، وأشار لأثناسيوس أن يجلسه في مكانه بين القساوسة، لكن الأخير اختار مكانًا قريبًا من أنصاره، وبدا من تحفزه في جلسته أنــه يشعر بأنه في محاكمة، وأخذ يداري قلقه بالضحك، قائــلاً لأصدقائه أن المكان الذي يجلس فيه يليق بالمهمة التي انعقد من أجلها المجمــع، فأهمل ألكسندروســس تعليقاته وإشاراته وافتتــح الجلسة بالصلاة وطلــب الهداية مــن المسيح إلى الإيمان القويم، وأخــذ يشرح قائلاً إن هذا المجمــع عقد من أجــل مراجعة مبادئ الإيمــان التي تسلمناها مــن آبائنا، وعلينــا أن نحافظ عليها نقية مبرأة من الهرطقات وزيف الشيطان، فباسم الآب والابن والروح القدس إله واحد آمين، نبدأ عملنا اليوم لمراجعة آخر بنود لائحة الإيمان القويم.

كان ألكسندروســس يسعــى للتغاضي عــن المشكلة التي توشــك أن تقسم الكنيســة فكريًّــا، كان موقنًا مــن إيمان غالبية من حضــروا الاجتماع بما اتفقوا عليه في لائحة الإيمان، فقد تناقشوا على مدار عدة أيام حول المبادئ التــي يجب إثباتها في وثيقة يوقع عليها الجميع، وكان من المفترض أن يتم التوقيــع دون جدل أو اعتراض، إلا أن أريوســس الذي ظهر في الصباح رفع يده مقاطعًا وهو يقول:

– إن إيماننــا الذي تلقيناه عن أسلافنــا، الذي تعلمناه منك أيضًا، يقول إننــا نعرف إلهًا واحدًا، وحده غير مولــود، وحده سرمدي، وحده ليس له بدايــة، وحده الذي له الخلود، وحده الحكيــم، وحده السيد الذي جبل الابــن الوحيد المولود قبــل الدهور، الذي به خلــق الأزمان وكل شيء، فالابــن خلق بإرادة الله قبل الأيام والدهــور، ومنح الحياة والأمجاد من قبل الآب، فالله خالــق الكل ليس له بداية، لكن الابن الذي جبل بواسطة الــرب، لم يكن موجودًا قبل أن يخلق، فوحده الله هو الذي كان موجودًا قبل الجميع كخالــق، ومن ثم أيضًا كان موجودًا قبــل الابن، هكذا تعلمنا منك في هذه الكنيسة.

كانــت كلمات أريوس غاضبــة وقوية وبليغة، حتــى أن ألكسندروس الذي تلجلج بدا عليه أنه غير قادر على السيطرة وجذب انتباه الحاضرين،

فاحمر وجهه والتزم الصمت ناظـرًا لأثناسيوس وكأنه يستنجد به، فرفع الأخير يديه طالبًا من الجميع الهدوء، وهو يقول:

– إن أريوس يعرف أن كل ما قاله خطأ، وأنه كذب على الحبر الأعظم البابا ألكسندروسـس، هذا الذي بمحبته للجميع تقبل وجـود أريوس بيننا، علَّـه يكون في حظيرة الـرب، وجميعنا يعرف تاريـخ أريوس ومن أين استقى أفكاره المغلوطة، فهذه ليست تعاليم كنيستنا المؤمنة بأن الله لا يتجزأ ولا ينفصـل، وأن الآب والابن والروح القدسـ أقانيم ثلاثة لإله واحد، جميعنـا يعلم أن أريوس أمونيوس ولـد في إحدى المدن الخمس بالغرب، وتعلـم في مدرسـة اللاهوت، ثـم اجتهد في تحصيل العلـم حتى ذهب إلى أنطاكيـا فأقام بين أساقفتها، وتـاه بين ما قرأه من أفكار الأفلاطونيين وما تحصله من أفكار الأنطاكيين، هؤلاء الذين تأثروا بكتابات أوريجانوس، فجاءتـه أفكار تجزئة الرب وفصـل أقانيمه، مُخضعًـا معجزاته وقدراته لمقاييسـ الفكر والقـدرة لدى البشر، غير قادر علـى التصديق بأن الرب موجـود من قبل أن يولد من العذراء، وغير مدرك أن الآب لا يمكنه أن يكـون آبًا إن لم يكن الابن موجودًا، وأن الابـن لن يكون بحال ابنًا ما لم يكن لـه آب، ومن ثم فالآب آب أزلي، والابن ابن أزلي، لا يمكن فصل أحدهما عن الآخـر، ولا إخضاع أحدهما للآخر، وما كان حمل العذراء بـه، ووضعها له، إلا تآنسًا مع الصـورة البشرية، وما كانت العذراء إلا معبرًا لهذه الصورة، والكلمـة هو السر الجامع بين الآب والابن، الكلمة هو الروح القدس، والشعاع الـذي بدونه ما كنا سنعرف بوجود الشمس ولا سنرى ضوأها.

كانت كلمات أثناسيوس بنفس قوة كلمات أريوس وقدرتها على التأثير، ولم يتخـطَّ الجمـل الأولى منها حتـى أصبحت القاعة تدين لـه بالصمت، وكأن المـلاك الحارس أخذ يرفرف بجناحية عليها لصالحه، وحين أدرك أريوس أن قضيته خاسرة، انتفض مقاطعًا:

– هـذه الخلافـات لم تناقش في لائحتكـم، خلافات في صلـب العقيدة وطبيعـة الرب، لا أظنكم تريدون مناقشتهـا، فافعلوا ما تشاءون، لكنني لن أعترف لكم بما تريدون.

ثــم حمــل صليبه وخــرج متَّهمًا ألكسندروســ بأنه مريضــ مأفون لا يستحق مكانه، فما كان من الأخير إلا أن رفع يده قائلاً:

– الآبــاء المبجلــون، إننــي أضــع أمامكــم الآن أمر الكاهــن أريوس أمونيوســ، ولكــم أن تحكمــوا في صحيح إيمانــه أو إيماننا الــذي تلقيناه وحفظنــاه عن آبائنا الشهــداء القديسين، ولا يجــب أن ينتهي عملكم الذي سهرتم عليه وقطعتم كل هذه المسافات من أجله دون أن تتموه.

ثم نــزل ألكسندروس من مكانه، تاركًا إدارة القاعة لأثناسيوس، هذا الــذي استدعــى الأب أنطونيوس المعتزل المتوحد في ديــره بجبل القلزم، فنهض من مكانه وجلس حيث كان ألكسندروس على كرسيه الكبير قائلاً:

– باسم الآب والابن والروح القدس إله واحد آمين. هكذا تعلمنا وهكذا نحافظ على إيماننا.

ثم أشار لأثناسيوس بأن يمر على الآباء المقدسين باللائحة التي نوقشت بنودهــا في جلسات سابقة كي يضعوا أختامهم عليها، فما كان من الأساقفة والقساوســة الميليتيوسيين إلا أن رفضــوا التوقيع، وخرجوا من الكنيسة، فأقرها الآخرون مطالبين بحرمانهم، فطلب أنطونيوس من أثناسيوس أن يبلغ الأب ألكسندروس برغبة المجمع في حضوره وتوقيعه على اللائحة، وحين حضر سألهم من جديد عن إقرارهم بما فيها، فوافقوا ووضع توقيعه عليهــا، هنالك طالبوه بحرمــان أريوس لأنه خارج علــى تعاليم الكنيسة ورافضــ للائحة الإيمان التي أقرها الجميــع. فوافق ووضع توقيعه على وثيقة الخلع والحرمان، وكان ذلك يعني ضمنيًّا طرده من الإسكندرية.

-١٣-

رسائل أوريجانوس (٨)

سيدي وصديقي ديونسيوسس، لا أطيل عليك، فهذه رسالتي الثامنة، أرجو أن يكون ما سبقها قد وصلك، فقد أخبرني الصديق الذي يتحمل مشقة إرسالها أنك استطعت الفرار من الجند، وأنك منذ مدة تقيم خارج الإسكندرية، ربما في صحراء القلمون أو الإسقيط، كم هي مشقة كبيرة الخروج من المدن إلى الفيافي والجبال، وكم أصلي من أجلك ألا تسقط في المشقة الأكبر، حيث الجنود المنتشون بقوتهم، الساخرون من ضعف وهزال غيرهم، غير المؤمنين بفكرتك ولا قيمتك ولا جهدك من أجل إضافة سطر أو كلمة لما يعرفه البشر، لقد قضيت حياتي بين هاتين المشقتين، فلم تكد الدنيا تبتسم لي بمعرفة الناس أن قائد حامية الإمبراطورة مامسيا وضع صندوقًا من المجوهرات بين يدي، حتى تكدرت وأظلمت وتغيرت أحوالها، فقد تكاثر الخطاب على باب بيتنا لخطبة سارة التي لم تتجاوز الرابعة عشر من عمرها، وأنجبتت زوجة أخي دانيال توأمين، وأخذت تلح عليه في أن يحصل على شيء من هبة الإمبراطورة لأختي، كنت مقتنعًا أن المجوهرات كانت نوعًا من المكافأة لي، وأن الإمبراطورة جعلت قائد حرسها يقول إنها هدية لسارة كي لا تشعرني بالحرج، كان الكل يوقن في قرارة نفسه بذلك، بدءًا من الخاطبين الذين تفننوا في لفت انتباهها إليهم، وصولاً إلى دانيال وزوجته وحتى إخوتى الأصغر.

كانت مناسبة إنجاب التوأمين هي الأفضل لطلب المساعدة، قال دانيال إنه يرغب في شراء مركب والنزول به إلى البحر، عسى أن يكون فاتحة خير وتوسعة رزق، وقالت زوجته إن والدها تقاعد ولم يأخذ شيئًا من عمله، وأنه لا بد أن يتعلما من خبرته ودرسه أيضًا، خاصة وأن حملهما

أصبح ثقيــلاً، ولديهما بدلاً من الفم الواحد اثنــين، هززت رأسي متوافقًا مع حديثهما، ونظرت إلى أختي طالبًا منها أن تجيئنا بالصندوق، فقسمت ما به بــين الجميع، فأعطيته جزءًا، وأعلنت أن جــزءًا آخر يخص سارة وزواجهــا، ومــا تبقى فهو للأطفــال الذين تركهما أبــي وأمي معلقين في عنقي.

شعــرت أن سارة أصيبت بخيبة أمل من فعلــي، وأنها في الأيام التالية لم تعــد تتحدث معي، بينما دانيال وزوجته يطيران من الفرح، بعد وقت اكتشفت أن سارة تعرفت على شاب في العشرين من عمره، وأنها تهيم به عشقًا، كان حماس دانيال وزوجته كبيرًا للرفض، فضغطا بكل ما يملكان بوصفهمــا أولياء الأمر، وكان ذلك بالنسبــة لي محزنًا ومقيتًا، حتى أنني شعرت بكم أنا ساذج في نظرهما، فقررت الموافقة عليه استجابة لرغبتها، ونكاية في تصورهما عني، أسرعت بإتمام الزواج منه، وفي مشهد مهيب وجليل قمت بتسليمها مجوهراتها أمام الناس.

بعدهــا كلفنــي ديميتريوس بالذهــاب إلى كنيســة كورنثوســ في إقليم أخائيــة باليونان لشــرح بعض الأمور لأساقفتها هنــاك، فظللت نحو ستة أشهــر أمارس عملي بوصفي مندوبًا للبابا ديمتريوس، أفصل في نزاعات وأعيــد شرح نقاط خلافية في الأناجيل، فلمــا انتهيت من عملي عدت إلى الإسكندرية لأعلــم أن الشرور لا تتوقف عن ملاحقة الإنسان أينما كان، فقــد أخبرتنــي سارة أن حقيقــة زوجها على خلاف ما يظهــر، فقد سرق مجوهراتها وفر من البيت، هدهدت عليها وأجلستها برفقتي إلى أن يعود، ومضى زمن قبل أن نعرف طريقًا له، كان ذلك حين ألقت الشرطة القبض علــى دانيال الذي أحــال مركبه الجديد إلى ماخــور دون علم السلطات، وكان زوج ســارة من بين من قبض عليهــم الجنود في المركب، لنكتشف أن زوجــة دانيــال كانت المدبر لأمر الزواج مــن البدء، وأن مجوهرات ســارة لم تسرق، لكنهــا وزوجها دخلا بها في صفقة مــع دانيال، فخسرا كل شيء، وهرب هو من وجه الشرطة التي أخذت في البحث عنه، حتى وجدته ضمن من كانوا على مركب دانيال.

حين أرسلت الشرطة لتسألني في شأنهما، لم أستطع إنكارهما ولا الغفران لهما، لكنني علمت بكل ما فعلاه من أمور سيئة وتجارات رخيصة، علمت أن الجميع مذنب في حق بعضه بعضًا، بمن فيهم أنا الذي ارتضيت للغرور والعناد أن يتمكَّنا منِّي، ولم أختر زوجًا مناسبًا لأختي، في ذلك اليوم جلسا يطلبان مني التوسط لأجلهما لدى الحاكم، فذهبت وأنا أجر أذيال العار إلى الرجل الذي كللني بالفخر منذ سنوات حين زارني برفقة البابا وقائد حامية الإمبراطورة مامسيا، ورغم تعاسة الموقف إلا أن الرجل لم يخذلني في شيء، حتى طلبي المباشر بمصادرة المركب وما وجده الجنود عليه من أموال وذهب، ففعل وهو حزين لأجلي.

كنت حزينًا ومستاءً من إخوتي وما جلبوه لي ولأنفسهم من شرور، وكانت الإسكندرية بكل جمالها قد تكورت على نفسها في عيني حتى أصبحت بمثابة نقطة مظلمة سوداء، فطلبت من ديمتريوس أن يسمح لي بالذهاب حاجًّا إلى أورشليم، حيث أريد أن ألتمس الغفران والصفح من الرب في أرضه المباركة، وكانت أخبار ما حدث قد وصلته، فلم يمانع ولم يجادلني كعادته، جهزت زادي وكتبي وبحثت عن حمَّار يوصلني إلى تل برما، ومنها اتخذت طريق حورس بمحاذاة البحر مع قافلة متجهة إلى أورشليم، حيث مررنا بتلال حبوة والحير والصيفي والبرج والكدوة ووصلنا إلى رينوكورورا، فنزلنا في خيمة حتى صباح اليوم التالي، ثم تزودنا بالماء والطعام من بعض أبناء المكان، وغيرنا ركائبنا وعدنا إلى الطريق في الصباح من جديد، لنكمل مسيرنا إلى أورشليم التي وصلناها بعد أربعة أيام من خروجي من الإسكندرية، لأجد أسقفها صديقي ألكسندر هناك، فأمضي معه فترة من الوقت حاجًّا قبل أن ألتقي بصديقنا ثيؤكتستوس أسقف فلسطين.

في ذلك الوقت لم تكن لدي رغبة في العودة إلى الإسكندرية، ولم يكن لي عمل في فلسطين، فلزمت بيتًا خصصه لي ثيؤكتستوس لا أخرج منه إلا برفقته، لكن خبر وجودي انتشر بين الناس، وجاءني من كانوا يترددون على مدرسة اللاهوت من قبل، حيث كنت أجلس للوعظ وشرح مبادئ الإيمان وبعض الشواهد من العهدين القديم والجديد، وذلك قبل أن يرسل

ديمتريوس في طلبي موبخًا صديقيَّ ألكسندر وثيؤكتستوس، فرفضت دون أن أخبر أحدًا بالسبب، وكلما زاد رفضي ازداد إصرارهم، وألحوا على صديقي في قبول الأمر، في النهاية قال لي ألكسندر أنني لا ينبغي أن أرفض الناس، فقد جاءوني مرة واثنتين، ولا بد أن أجيبهم لطلبهم، فأخبرته أنه لا ينبغي لي أن أجلس للوعظ، لأنني لست كاهنًا، حينها جلس صديقاي يضحكان، موضحان أن هذه أبسط الأمور، وأن أيًّا منهما بوصفه أسقفًا يمكنه أن يقوم بسيامتي في الغد، ولا يوجد ما يمنع ذلك.

حين علم الناس أنني سأجلس من جديد للوعظ في مدرسة أورشليم أوقدوا الشموع على المذابح للرب، وأخذوا يذهبون إلى الكنيسة كل يوم سائلين عن الموعد الذي سأكون جاهزًا فيه للوعظ، وبعد أن تمت كل الطقوس والمراسم جلست لأعظ في صحن الكنيسة نفسه، ولاقت مواعظي حضورًا قويًّا لدى الناس، بل إن الكنائس الأخرى أخذت ترسل في طلبي، فذهبت إلى صور وقيصرية وبيت لحم وأنطاكيا نفسها، تلك التي احتشدت من جديد لسماعي، فألقيت موعظة أمام ما يزيد عن عشرة آلاف مؤمن، وفي تدمر امتدت عظتي لنحو عشر ساعات أمام خمسة آلاف مؤمن.

نسيت في تلك الأيام ما جرى من دانيال وسارة، وفرحت بالسعي بين الكنائس ووجوه المؤمنين وأسئلة الحائرين، ووجدتني أناقش بجرأة وأتعلم بحرية، ووجدت بعض ما كنت أقوله صوابًا وبعضه خاطئًا، في هذه الآونة كنت أتحدث عن الروح والجسد، كانت فكرتي عن الروح القدس أنه موجود منذ الأزل، ومن ثم فالروح موجودة منذ الخليقة، ومن ثم فهي أسبق على الجسد، لذا فالمسيح الابن إله من قبل أن يتجسد في رحم العذراء، ليجيء على هيئة آدمي يمشي بين الناس.

لكن الحديث عن الروح أعادني للأسئلة عن المسيح ذاته، وكان الأساقفة في أنطاكيا يتحدثون عن وجود لله مستقل عن وجود الابن، حيث الله في السماوات والابن في الأرض، لم يكونوا مشغولين بالروح، ولا حضورها، فقط كانوا يتحدثون عن ثنائية الاب والابن، وحاولت أن أفسر الأمر بالحديث عن إيزيس وأوزيريس وحوريس، عن الشمس

والشعاع والضوء، لكنهم ما كانوا مؤمنين بثلاثية تربط السماء بالأرض، السماء لديهم منفصلة، وما بينهما ليس جزءًا منهما، فثمة من يقوم بالتبصر والتكهن، من يعرف بخبر السماء وينقله إلى أهل أرض، هو ليس سماويًّا لكن لديه القدرة على سماع صوت السماء.

عشـرات الأسئلة بدأت تمـور في ذهني، صرت أسمـع من المحيطين بـي أكثر مما أكلمهم، ووجدتني في حاجة للعـودة إلى كتب الأفلاطونيين وآرائهـم، في حاجـة إلى التبحر فيمـا تركه أرسطـو واستدلاله المنطقي، وجدتني في حاجة إلى مزيد من العلم، فلم أنشغل بالعودة إلى الإسكندرية، ويبدو أن غيابي طال وأقلق ديمتريوس، فأرسل من يتتبع أخباري قبل أن يطلب عودتي، حينها علم أننـي أعظ في الكنيسة، فأرسل غاضبًا وموبخًا لثؤكتستوس، إذ لا يجوز أن يقوم رجل بالوعظ في حضور الأساقفة وهو ليـس كاهنًا، فأجابه ثؤكتستوس بأنه ليس هناك ما يبرر كل هذا الغضب، لأن صديقنـا ألكسندر قام بسيامـة أوريجانوس كاهنًـا، وهو الآن يباشر المهمة التي أرسله الرب من أجلها.

-١٤-

فر أنطونيوس ولم يستطيعوا اللحاق به، لكنهم ألقوا القبض عليَّ، قال الرهبان المكلفون بحراسة البوابة أنهم رأوني أسير مع راهب طويل يضع غطاء على رأسه، لكنهم لم يبصروه، ولم يتوقعوا أن يكون أنطونيوس، بينما قال الراهب الذي ضُرب أمام قلاية باخوميوس أن شبحًا طويلا ذا يد ثقيلة كمطرقة هو الذي ضربه، حين أبلغ مينا المسئول عن أمن الدير الأب المنحني بما حدث وقف الأخير متحيرًا، ليس من عودة أنطونيوس إلى الحياة، ولكن من قدرته على المرور من بين الجميع دون أن يراه أحد، نظر بغضب لمينا وكأنه يتمنى أن يلقي به من فوق الجبل، ودون أن ينطق بكلمة واحدة ذهب إلى قلاية يوساب قائلاً:

- أنطونيوس هرب، ولا بد من ملاحقته.

ظهر يوساب في أرض الدير وبرفقته أربعة من الرهبان طويلي القامة، في يد كل منهم عصوان صغيرتان متصلتان بسلسلة من الحديد، وقفوا تحت الضوء الشاحب للقمر أمام الظلال المتعرجة بجانب قلاية باخوميوس، كان يوساب يخاطبهم بصوت هامس، وهم شاخصون كتماثيل نحاسية، وسرعان ما سلم كل واحد منهم شيئًا يشبه الصليب، فدسوه في ملابسهم ودخلوا القلاية ليغيبوا في ظلامها كما فعل أنطونيوس.

كانت فكرة يوساب أن أسرع الطرق لملاحقة أنطونيوس الطريق هي التي اتخذها لنفسه، فترك مينا يرسل رجاله من بوابة الدير والمدرج الرخامي الذي إلى أسفل الهضبة، حيث تقع على يمينه الأرض المنزرعة بالزيتون والخضراوات والنخيل، وعلى يساره تنام المقابر التي تشتمل على عظام الرهبان والقديسين الذين أقاموا في الدير على مدار قرون طويلة، عظام لها جلالها وتاريخها في تلك الجبانات التي أعيد ترميمها مرات ومرات،

وأقيمت لها بوابات وعين عليها حرس وخدام، وخلفها تنام ماكينات الطباعة الحديثة التي تبرع بها أحد المؤمنين الأثرياء، لينتقل عمال الطباعة من صف الحروف إلى الكمبيوتر والمونتاج وألواح الزنك.

حين نزل أنطونيوس بحبله الليف وجد نفسه بين المقابر التي كثيرًا ما جلس بين أشجارها آن عمله في المطبعة، لم يكن يعرف إلى أين يذهب، في البدء فكر في أن يحضر سلاحه من حيث دفنه منذ عشرين عامًا، لكن ما إن بدأت خطاه تسير في هذا الطريق حتى ظهر كلب السماء، رفع في وجهه صليب باخوميوس وقرأ آيات الحماية من الشرير، لكن غضبه لم يتوقف، فأخذ الرعب يجتاح أنطونيوس من أنيابه البارزة وعينه التي تقدح بالشرر، ولم يجد سوى أن يهرب من أمامه، فوجد سورًا قفز من عليه، ووجد نافذة ألقى بنفسه منها فإذا به بين مخلفات الورق المتراكم في حجرة أمام المطبعة، كان المكان مغلقًا والظلام دامسًا ولا أحد سوى البدوي الموكل بالحراسة ويغط في نوم عظيم، حين استقر بين الورق شعر أن لهاث الكلب قد هدأ في أذنيه، فلم يفكر في الهروب واستسلم للدف الذي اجتاحه فغفا في مكانه.

في نومه رأى باخوميوس وإيمانويل يسيران في نفس المقابر التي كان يجلس بين أشجارها، كانت أرضها خضراء كسجادة فرشت لهما خصيصًا، بدا كما لو أن وجهيهما يضيئان في الظلام، كان ينام كما اعتاد أسفل شجرة الكافور بجانب المطبعة، فجلسا يتحدثان بجانبه دون أن يرغبا في إيقاظه، قال أحدهما إنه في أمان، وقال الآخر: لا بد أنه أحبها. ونظرا نحو السماء حيث النجمات القليلة التي أخذت في الظهور، كتم أنطونيوس أنفاسه ليكملا ما بدآه، لكنهما شعرا أن ثمة من يتحرك خلف الأشجار من بعيد، فلزما الصمت في مكانهما، بعد وقت شعر أنطونيوس أن الأطياف رحلت، ولا يعرف لم لم يكمل صديقاه حديثهما، رفع عينيه ليرى ما الذي ألزمهما الصمت، لدهشته كانت دميانة بجانبه، دميانة بعينها الجميلة وشعرها الأسود الطويل وقد تخلت عن وقارها، ارتدت ثيابًا خفيفة أبرزت جمالها أكثر مما يعرف، كانت صفحة صدرها واسعة وكبيرة وبيضاء، بينما نهداها ينحدران بقوة نحو شيء في الأعماق، صانعين واد ناعم وسحيق وبلا نهاية، سعى للوصول إلى النهايات لكن عينه لم تستطع

الوصـــول لأكثر من ذلك، رغــم تمددهما أمامه كقطــين بريين في حديقة لا يسترهــا سوى غلالةٍ من بخار، حــين رأت ظمأه وجهده وضعت يدها على يده، ورفعتها قليلاً لتضعها على النهد الطري، كان طريًا كأنه قطعة مــن القطن الأبيض، وكبيرًا ككرة من الماء الدافئ، الماء الذي أخذ ينساب متدفقًا على فخذيه.

انتفض أنطونيوس من حلمه مبلل الثياب، موقنًا أن الشيطان يحاصره مــن كل جانب، لكنه حمــد الله أنه لم يكن في الديــر، ونفض الورق عن وجهــه وهو يسمع صوت المطبعة يغلق من جديد، بينما الحارس يعود إلى غرفتــه لينام، فــأدرك أن رهبان يوساب في الخـــارج يبحثون عنه، ظل كامنًا في مكانه حتى أيقن أن الحارس غط في نومه، ومن حيث أتى خرج متسلقًــا السور ليجد نفسه في الصحراء، وكما لــو أن كلب السماء يطارده أطلــق العنان لقدميه من جديــد، كان رهبان يوساب قــد داروا في جولة طويلــة حول الدير والمطبعــة والأرض المنزرعة مفتشــين عنه، ولم يكن أمامهــم غير أن يعــودوا ليؤكــدوا لسيدهم أنهم يطــاردون شبحًا لا يمكن رؤيته، لكن قبل العودة كان لا بد أن يتأكدوا من جديد أن المطبعة خالية، ففتح لهم الحارس وهو يلعن اليوم الذي سمع فيه اسم أنطونيوس، فأمروه أن يظل مستيقظًا ولا يفتح لأحد، فوافقهم وعاد يكمل غطيطه.

كان الوقــت قــد أوشك علــى خروج النهــار من رحم الظلمــة، فأخذ أنطونيوســ يهــرول حتى كلت قدمــاه، ورأى ضوء سيــارة قادمة على الطريــق، ففكــر أن يعود إلى دور قاطــع الطريق، لكنــه انتبه إلى لحيته الطويلــة وثيابه الســوداء وصليب باخوميوس الكبير الــذي يتأرجح على صـــدره، فاعتدل في مكانه ورفع يده ملوحًــا للسائق أن يتوقف، ولم يكن لسائق أن يفكر في مخالفة رجل دين، فوقف أمامه بإجلال:

– خذني في طريقك.

هكــذا قــال أنطونيوس، ثم صعــد في السيارة التي شــاءت الأقدار أن تركبها دميانة من قبل.

حــين عاد الرهبــان بفشلهم في العثــور على أنطونيوس قــرر يوساب أن يجــري تحقيقًا سريعًا مــع رجاله عمن شاهــدوه في الدير قبل اكتشاف

الحـادث، فأخـبروه بأسماء أناسـ كثيرين كنت من بينهـم، وما إن علم أننـي كنت خارج فراشـي في ذلك الوقت حتى برقت عينـاه، ولم يرسل في إحضـاري، لكنه هو الذي حضر وهـم برفقته، وقف في المكتبة يجول بنظـره في المكان ككل، حتى توقف أمام الدولابين الذين طبقتهما كي ينام بينهما أنطونيوس، ثم ثبت عينيه على وجهي قائلاً:

– من كان هنا؟

شعـرت أن أمـري قـد اكتشـف، وأنني آجـلاً أو عاجـلاً سأتهم بقتل باخوميوسـ، إلا أنني رفضـت فكرة الركوع على قدمـي والاعتذار أو طلب العفو، فهززت رأسي قائلاً بتعجب:

– أنا.

زم شفتيه كمن يقبل الهواء، وهز رأسه رافعًا حاجبيه:

– أين ذهبت حين مررت بالبوابة؟

هززت رأسي وأنا أعترف:

– كنت في طريقي للأب جورج.

ثم أخبرته بالمهمة التي كلفني بها رئيس الدير، وأحضرت له الصندوق الخشبي الصغير كنوع من التأكيد على حديثي، فوضعه تحت إبطه وطلب منـي أن أتبعه، أغلقت باب المكتبة وتحركـت بصحبة رهبانه، كان يمشي أمامـي بخطوات واسعة وقويـة دون أن يعطيني فرصـة للحديث، بينما الرهبان يمشون خلفي كما لو أنهم جدار يحيط بي.

عبرنا بوابة الدير، ونزلنا من على الدرج الرخامي الطويل إلى الأرض الواسعـة أسفل الهضبة، كانت هواجسي تزداد كلما نزلنا إلى الأسفل بأنهم قبضوا على أنطونيوس ويريدوننـي أن أعترف عليه، وللحظات شككت أن يوسـاب مـن الممكن أن يكون مـلاكًا طيبًا وليس كمـا أتخيل، فصليت في سري للعـذراء أن يكون عند حسن ظني، لكنني كلما تلكأت في سيري وجـدت أيدي الرهبان تدفعنـي للحاق به، فأدركـت أن العذراء غائبة، وأنـه لا يمكنه أن يكون ملاكًا ولو ليوم واحد، وما إن وصلنا إلى حظائر

الماشيـة حتى تأكـد لي أنني ميت لا محالة، فتشبثت قدمـاي بالأرض وأنا أحاول الصراخ، لكن قبضة قوية نزلت على رأسي أخرستني، ولم أستعد رشدي إلا في الصباح، حيث وجدتني في مخزن السماد.

– هل دميانة تحب أنطونيوس يا ملاك؟

هكـذا سألني يوساب بعد حفلة الضـرب والإهانة والتجويع والعطش، ففـي الصباح نزل رجالـه واستجوبوني عن أنطونيوسـ وأين ذهب، ثم تركـوني ولم يعـودوا إلا في المسـاء، ليكرروا ما فعلوه لمـدة ساعتين، ثم تركـوني كخرقة بين الحياة والمـوت، دون كسرة خبز واحـدة أو شربة مـاء، وفي الليـل جاءوا وحملـوني إلى كنيسة الملاح المغلقـة، ووضعوني أمامهـم على الأرض وهم واقفون في حلقـة من حولي أمام الهيكل، كان الدفـتر الأزرق في يد يوساب الجالسـ خلفهم، ولم أعرف بمَ أجيب، فلا بد أنهم فتشوا المكتبة وحصلوا على كل شيء، حتى أنهم قرأوا دفتر دميانة وسخروا من مشاعرها.

– لا أعرف.

هكذا قلت بعد تفكير وبيأس واضح، لكن يوساب الذي نهض من مكانه وتقدم مخترقًا حلقة الرهبان طوال القامة، ضربني بالدفتر على رأسي:

– وهذا؟

ألمتنـي الضربة، وشعرت بالغضب يسـري في عروقي، وكدت أقدم علـى فعـل أندم عليـه، لكنني لا أعرف كيـف تمالكـت أعصابي وكتمت غيظي، فنظرت إليه بعين يتطاير منها الشرر دون أن أفتح فمي.

– ماذا لو ألقينا بك الآن من فوق الجبل.. هل سيسأل عنك أحد؟

هكـذا سألني بهدوء شديـد، كان ينطق كل كلمة وكأنـه يتأمل حروفها علـى مهل وهـي خارجة من فمه، فنـزل الوهم على صـدري، وظللت ناظرًا تجاهه بعين تملؤها البلاهة وعدم الفهم، فضحك قائلاً:

– وأنـا أبحـث في أوراق المقيمين بالدير اكتشفت أنـك الوحيد الذي لا أوراق له، لا بطاقة شخصية ولا شهادة ميلاد.

أدركـت حينها أن يوساب ليس مجـرد كاهن في دير ناءٍ، لكنه شخص يتمتـع بالقـدرة علـى التفتيشـ في الأورق، وأن ما يعرفـه يفوق معرفة الكثيرين، وربما لا يكون وحده، فثمة آخرون يمدونه بما يريد، هززت رأسـي موقنًـا أنه يستطيع أن ينفـذ تهديده، لكن قلبي لأمـر ما كان يشعر في تلـك اللحظـة بالثقة، وأنه لن يقدم على جريمـة قتل جديدة في غضون أيام، لزمـت الصمت متمنيًا لو أن اللبؤة تخرج مـن قبوها لتقضي عليه، يمكننـي القـول أنني ابتهلت للمسيـح كي يظهر معجزاتـه الآن، وبدا من صمت يوساب وشـروده المفاجئ أنه يصلي لأمر ما، ربما لأن أخبره بما يريد معرفته عن دميانة وأنطونيوس، لكن فيما يبدو أن صلاتي وصلاته لم تكونا كما تريـد السماء منا، فقطع صمتنا صوت طرق هادئ على باب الكنيسة، وحين التفت يوساب ظهر راهب أبدى احترامًا كبيرًا وهو يقول لـه إن رئيس الدير يريـده. فندت عني ابتسامة فـرح، لكنني سرعان ما قطعتهـا حين أشـار يوساب لرجالـه أن يتركوني الليلة في جحـر اللبؤة، فأدركت أن السماء فهمت دعائي خطأ.

-١٥-

في ديـر العـذراء استعـادت دميانــة بعضًـا مـن عافيتهـا وشعورها بالطمأنينة، فقد خرجت من بين النيران كما لو أن آلاف الشياطين مستها، لكــن الذين وصلــوا إليها أولاً وجدوهــا تردد اسمًا واحــدًا كتعويذة لطرد الأرواح الشريرة:

- أنطونيوس.. أنطونيوس..

كانــت النيران تحيط بها مــن جوانب عديــدة، ولا يفصلها عنها سوى متريــن أو ثلاثة، فقبضت في يد علــى عصاتين متقاطعتين كصليب كبير، وفي الأخــرى على قطعة من الحطب المشتعل على هيئة شمعة تضيء لها، وكلمــا حولت الرياح وجه النار نحوها رفعــت يديها في مواجهتها مرددة اسم أنطونيوس، بدا للرجال الذين صعدوا على الأسطح باحثين عنها أنها فقــدت عقلها، فلفوها في بطانية وحملوها من بين ألسنة النار إلى الشارع، وهناك جاءهم العمــدة ومأمور المركز وعربة إسعــاف وسيارة شرطة، وانطلــق الجميع مــن القرية إلى أسيوط، حيث تلقــت علاجًا في مستشفاها العام. لكن السؤال الذي ظل يطرح نفسه لدى المأمور والعمدة هو:

- من تكون؟

كانــت مواقــع التواصــل الاجتماعي قــد جعلت مــن دميانــة والقرية الصغيرة حكاية أخطأتها حكايات ألف ليلة، وتذكر الأقباط الحوادث التي مرت بهم، منــذ رياض أفندي غالي في عصر الملك فاروق حتى حوادث الزاويــة الحمــراء والكشح وماسبــيرو، وظلت هذه المواقــع تتحدث عما فعلــه السلفيون مع الفتاة القبطيــة دون أن يكون للفتاة صورة واحدة، فقد اصطحبها العمدة والمأمــور وقيادات الشرطة إلى المستشفى العام، وهناك أمــروا بحراسة مشددة عليها، وظل الجميع يتعامل مع الأمر على أنه من

الأســرار العليا للدولة، حتى وجد المأمــور نفسه مضطرًا لنشر صورة لها علــى أمل أن يتعرف عليها أي من أقاربها. حدث ذلك بعدما فشلت النيابة في الحصــول منها على معلومة مفيدة، فقد ظلت تــردد أسماء أنطونيوس ويوســاب وملاك وتريــزا وغيرهم، دون جملة واضحــة، ومن ثم أمر وكيل النيابة بنشر صورتها، فعرضــت صورتها ضمن قوائم المفقودين، وتبــارى كثيرون في الإدلاء بمعلومــات متضاربة، مما جعلهم في النهاية يحجمون عن إعادة نشرها.

أصبحــت أسماء وزوجها مــن بين المشاهير، فقد تعامــل معهما مقدمو البرامــج على أنهما جزء من الحدث، فأسرار اللحظات الأولى والأخيرة معهمــا فقط، ومن ثــم أخذا يتنقلان مــن قناة لأخرى كــي يحكيا تفاصيل الملبس والمأكل والنوم والأحلام، وتعايشا مع اسم "أنجيل" الذي منحته لها أسمــاء، في البدء كانا يتحدثان بتحفظ لكن مع الشهرة والمال أعملا الخيال في ذكــر تفاصيل لم تحدث، وأســرار لا علاقة لهــا بالواقع، وأحضرت إحــدى القنــوات رسامًا جلس على الهــواء مباشرة أمــام أسماء وزوجها ليرســم ملامح الفتاة التي أحدثــت فتنة الصعيد، هــذه اللوحة التي راجت في وسائــل الإعلام بوصفها الوثيقة المعتمدة من قبل شهود العيان، ورأت الشرطة أن ذلك أفضل لقتل القضية برمتها.

ظلت دميانة في هذياناتها ومخاوفها حتى أيقن الجميع أنها في حاجة إلى طبيب نفسي، وبعد عدة زيارات من الطبيب قررت النيابة حفظ القضية، ولم يجد المأمور كي يخلي سبيله سوى أن يسلمها لدير الراهبات، فجهزت لهــا رئيسة الديــر الأم مريانا غرفة في مبنى الضيافــة، ووقفت بنفسها في استقبــال الضابط المكلف بنقلهــا للدير، والذي أكد ضــرورة ألا يعلم أحد بوجودها لديهم.

عاشــت دميانة في عالمها الخاص، فمنــذ هاجمها الرهبان ليلة خروجها مــن دير المــلاح وقد انفتحت لها نافــذة تنقلها لعالم غير الــذي تعيش فيه، حيــث يمكنها أن تــرى أنطونيوس ومــلاك وتريزا ومدرســة الراهبات وروب المحاماة ووالدها الشيوعي القديم صلاح متري، وحيث كانت في

أيـام الدراسة تنتظر أعياد القيامة وشم النسيم والخروج للفسحة في النيل، فجلسـت في نافـذة غرفتها بمبنـى الضيافـة تتشمم روائح الربيـع وتتأمل الزهور التي تتفتح، متذكرة أيـام طفولتها وعلاقتها الدائمة بالربيع الذي لا يخلـف موعده، وكلمـا رأت وجوهًا لا تعرفها كانـت توغل في نافذتها نحـو من تحبهـم، فتناجيهم تارة وتحذرهـم أخرى، هكذا فعلـت ليلة أن حاصـر السلفيون بيت رضا وأسماء، فوقفت بين النيران وقد تلألأت كل الألـوان في عينيها، كانـت تضحك وتبكي وهي تـرى أنطونيوس يمشي بتؤدة نحوها.

رأت أنطونيوس يمشي بين عدد من الرهبان كما لو أنه رئيس الملائكة، وحـين وقف أمامها أخذ يعرفها بأسمائهم، لكن لم يعلق في ذهنها غير اسم أوريجانوس، كان ملاكًا متأنقًا بوجه طفولي باسم، وأجنحته التي لا تغطي كامـل جسـده، بدا لها كطفل وديع فقـده أهله في ساحـة القديسين، شعره الفاحـم كان ينز بالدهن والزيـت المقدس، رغبـت في معانقته والطيران معه، لكـنْ غربان سود ظهـرت في تلك اللحظة، ظهـر الشرير برجاله وأعوانـه وأخذوا يلفونها في قماط طويـل من الكتان، كل شيء تحول في عينيهـا من النور إلى الظلام، فراحت تصرخ، وكلما ترددت الأصوات العالية الغريبـة في أذنها كانت ترتجف وتصرخ، ظلت تصرخ وترتجف حتى فتحت لها المهدئـات النافذة على اتساعها، فرأت العالم ملائكة تتنزل من البياض، فراحت تناديهم بأسمائهم:

– أوريجانوس... أوريجانوس.

كلمـا اختفـى واحد وظهـر آخر كانـت تـراه أوريجانوس، فتتأمله وتناديـه، وكلما جاءها سألته عـن أنطونيوس، ذلك الـذي يجلس وحده متطلعًـا للصحـراء والنجوم، دون أن يفكر في حبيبتـه. أنا هنا يا حبيبي، هنـا يـا أنطونيوس، أنتظر وحـدي، أنتظر وأبكـي، في كل لحظة تتأخر فيها عنـي، فإنني أنتظر وأبكي، أقطع الفيافي بحثًـا عنك، وأنت لا تنظر نحوي، فلمَ هجرتني يا حبيبي، وتركت الأبواب ترتد في وجهي.

-١٦-

رسائل أوريجانوس (٩)

مـا كان لديمتريوسـ أن يقبل فكرة الخـروج عليـه أو الانتقاص من صلاحياتـه، فقد كان مشغولاً ببسط نفوذه حتى علـى روما نفسها، ومن ثـم فقد رأى أن سيامة كاهن من أبناء كنيسته على يد أسقف آخر هو اعتداء مباشر على سلطاته ونفوذه، فأرسل شماسيه إلى مختلف الأساقفة والكهنة بالإسكندرية والمدن الخمسـ وجنوب البلاد وشرقها عاقدًا مجمعًا مقدسًا. حين جلسوا أمامه أخذ يشرح عدالة قضيته، قال إن أسقف قيصرية ارتكب جرمًا حين قام بسيامة شخص ليس تابعًا لأبرشيته، وزاد من الجرم أنه لم يستأذن أسقفية هذا الكاهن، ولو أنه فعلها لأدرك أن أوريجانوس لا تجوز سيامتـه. ثم فضح مـا اعتبرته سرًّا بيننا، قال إنني قمـت بإخصاء نفسي، وحتـى الآن لا يوجد مـن يمكنه أن يقول بسيامة من قـام بإخصاء نفسه، فلا بـد أن يكون خادم الرب والمتحدث باسمه سليمًا معافى من كل شيء، لا ينقصه العقل ولا تنقصه الخصوبة ولا القدرة على مجاهدة النفس، فهذا ضعف لا يستحق أن نكرمـه بالوقوف أمام يدي الرب كي يتحدث باسمه طالبًا المغفرة للناس.

كان أكثر من نصف الحاضريـن في المجمع المقدس تربطني بهم علاقة صداقـة وود، وعـدد كبـير مـن القساوسة كانـوا تلاميـذ لي في مدرسة اللاهـوت قبل أن تتـم سيامتهم، وهم الآن تحت وطـأة المفاجأة، فالرجل الذي علمهم مبادئ الدين وشروحـات الكتاب المقدس لم يكن قسًّا، بل إنه كان ناقص الرجولة والأهلية للوعـظ باسم المسيح، بعضهم تعاطف معي بوصفي ضحية لقوانين كنسيـة صارمة، وبعضهم حاول أن يقطع المسافة بشكل عملي، فلا فائدة من البكاء على اللبن المسكوب، فطالبوا بمقترحات

ديمتريوس في الأمر، ونظر الأخير إليهم متأملاً وجوههم وهو يقول إنني لا أستحق التعاطف من قبل أحد، لأنني مخادع مضل، فقد أخفيت عن أسقف قيصرية إخصائي لنفسي، ولو كنت أعلنت له ذلك ربما لما أقدم على هذه الفعلة التي يهتز لها عرش الكنيسة في ملكوت الرب السماوي، ولذا فلا بد أن يكون العقاب شاملاً، بإلغاء سيامته، ثم الاعتذار من قبل أسقف قيصرية وتبرير اعتذاره بعدم معرفته، ثم حرق أوريجانوس لأنه أخطأ للمرة الثانية في حق الكنيسة، ففي الأولى جلس ليعظ وهو علماني في حضور أساقفة فلسطين وبيت لحم، وفي الثانية أخفى عن أسقف قيصرية نقصانه البدني وقبل بترسيمه كاهنًا، لذا فلا بد من حرمانه وحرقه كي لا يتجرأ غيره على اقتراف أخطاء جديدة في حق المسيح وإيماننا الصحيح.

وجد الحاضرون أن مطالب ديمتريوس مبالغ فيها، فليس هناك ما يستحق كل هذا الغضب، والرب نفسه لن يسعد بقتل إنسان خصى نفسه كي لا يقع في الخطيئة، حينها حاول بعض القساوسة التخفيف من وقع الكلمات، وطالبوا بالاقتصار فقط على عدم قبولي للتدريس بينهم، وإن كان حضوري الإسكندرية سيثير غضب ديمتريوس فإنهم مع عدم دخولي لها، لكنهم ليسوا مع رفض سيامتي، ولا مع قتلي أو تعذيبي أو حرماني، خاصة أن المكانة التي بلغتها، والكتب التي عكفت على إنجازها، ويتعلم منها الجميع المسيحية وأفكارها الصحيحة، لن تجعل هذا الأمر سهلاً، إلا أن ديمتريوس أصر على اتخاذ قراره بحرماني وقتلي، وهو ما جعل أعضاء المجمع يتناقشون معًا، ساعين للوصول إلى نقطة وسط، وهو ما رفضه القساوسة، معتبرين أن رئيس المجمع لا يريد الحكم باسم الرب، بقدر ما يريد حكمه هو، وتخليص ثاراته هو، ومن ثم رفضوا التنازل عن رأيهم، وقرر بعضهم الانسحاب، فنصح الأساقفة ديمتريوس بتأجيل انعقاد المجمع لوقت آخر، وهو ما استجاب له ديمتريوس.

كان تصعيد الكرَّام مفاجئًا وسريعًا، وأصبح هذا الأمر الشغل الشاغل للكنائس الرئيسية في العالم، سواء في روما أو أنطاكيا أو قيصرية أو فلسطين أو طليطلة، أما أهل الإسكندرية أنفسهم فقد شعروا بالذهول، فالرجل الذي وقفت الإسكندرية منذ أعوام على قدم واحدة كي تشاهد

البابـا ونائـب الإمبراطـور وقائد حاميـة أنطاكيا يسيرون علـى أقدامهم تكريمًـا لعلمه، يريد البابا الآن أن يحكم عليـه بالقتل! كانت الصدمة قوية وكبـيرة، وكنـت في قـرارة نفسـي أرى أن صديقنا ديمتريوسـس العظيم يمـزح، وربما سيفاجـئ الجميع أن الأمر ليس أكـثر من سورة غضب، وربمـا عما قليـل سينسى الأمر برمته، ويتركه ليـذوب في مياه البحر أو ينطمر في مستنقعات الدلتا، لكن الأمر لم يكن مجرد مزحة، كان إصرارًا بلغ إلى حد العنـاد، وكأن لعنة تطارد كلانا دون أن نعرف سببًا لها، فقد أسـرع من جديد في عقد مجمع مقدس قصـره على الأساقفة فقط، ووقف بينهم يقـول إن طلبه بالخلع والحرمان الكنسي ليسـس لضغينة أو حسد كما يردد العامة، فليسـس هناك ما يجعلني أحمل ضغينـة لأوريجانوس، لأنه كان بمثابة صديقي، وابني الذي لم أنجبه، وهو درة الإسكندرية في العلم بعد إكلمندس، لكنـنـا حراس كلمة الرب، ولا يمكننا أن نقبل بالهرطقة في ديـن الله، لا يمكننا أن نقدِم علـى هدم تعاليم الرسـل في الكنيسة، ونتبع أمورًا لم تحدث، فأوريجانوس نفسه قال إن تعاليم الرسل في الكنيسة هي من مبادئ الإيمان، والخروج عليها نوع من الهرطقة.

في هـذه الآونة عـدت إلى الإسكندرية متخفيًا لأنظر مـا الذي ستنتهي إليه الأمور، لم أكن أريد لأحد أن يتهمني بالهرطقة أو الجبن والهروب، فقلـت إن علي أن أواجه مصيري بقـوة ووضوح، لكن ذلك لا ينبغي أن يكـون عبر تثوير الجماهير، لا ينبغـي أن أجمع الناس لأهدد أمن الكنيسة وآبائهـا، فقطعت الطريق في ثلاثة أيام لا أكاد أنام فيها. حين وصلت إلى بيتنـا وجدت أخي دانيال مقيمًا في البيت مع سارة وبقية إخوتي، فقد خسر كل شيء في واحدة من مقامراته الخاسرة، ولم يجد أمامه سوى أن يجيء بزوجتـه وابنيه ليقيم في بيت أبينـا، بينما خسرت سارة زوجها في حادث خارج الإسكندريـة، جاءها الخبر وقامت بدفنه وباعـت بيتها للعيش من ثمنه.

حين سمعت حديثهما وما جرى لهما لم أعرف هل أواسيهما أم أغضب منهمـا، فالتزمت الصمت ودخلـت إلى غرفتي، كان "المبادئ" واحدًا من الكتب التي انتهيت من كتابتها دون أن أراجعها، فوددت لو أجلس لأنتهي

من مراجعته، لكنني لم أستطع، فكل ما تمكنت من عمله هو اختيار الكتب المهمة ووضعها في أجولة، تلك الكتب التي اقتنيتها على مدار أعوام من أساتذة كبار، ومن نساخ كنت أذهب إليهم خارج المدينة، كتب أخذتها من الميوزيوم ولم أعد متفرغًا لنسخها كما في الصبا، فنسختها لدى آخرين، ويعز عليَّ الآن أن أتركها دون أن أعرف مصيرها أو مصيري، كنت أضع كل كتاب وأنا أتأمل سطوره وفصوله وأتساءل عما يجري وما سيجري، وجمعت ما أريد مراجعته، وما أريد قراءته في تلك الأجولة وأرسلت بها إلى صديقي أمبروسيوس لتبقى أمانة عنده.

في الصباح فكرت أن أذهب للقاء ديمتريوس، وأن أعتذر عن كل شيء، لكن ما وصلني مما قاله عني جعلني أكره لقاءه، فذهبت لألتقي بأصدقاء من الكهنة الذين رفضوا التوقيع على وثيقته بإدانتي، أخبروني أنني لا بد أن أغيِّر مكاني، ولا يجب أن ألتقي ديمتريوس لأن الغضب يملأه، ولا يمكن لأحد أن يتكهن بما ستنتهي إليه أفعاله، وقد ترك له نائب الإمبراطور حامية من الجند تأخذ أوامرها منه لحماية الكنيسة، ولا نظنه سيحسن التصرف حين يراك. هكذا قالوا بخوف وحزن وغضب، فطمأنتهم أنني سأفعل ما يرونه صائبًا، لكنني لن أقف لأدين ديمتريوس أو أفضح أوهامه، لأنه رغم كل ما يفعله هو البطريرك، وهو صاحب أياد بيضاء عليَّ، حتى وإن خان هذه الأيادي، فإنني لا أستطيع خيانته، ولا تجريده من ثوبه مهما حدث.

ظللت أيامًا معتكفًا في بيتي أراجع "المبادئ"، وشغلت به عن كل ما يجري في الخارج، حتى فوجئت أن ديمتريوس دعا الأساقفة فقط لمجلس مقدس، كنت موزعًا ما بين إنجاز ما أقدمت عليه وبين الغضب والخوف مما قد يحدث، لكنني في النهاية أصبت بعدم الرغبة في متابعة أي شيء، وتساوى لديَّ الموت مع الحياة، والخوف مع اللاخوف، فجلست للكتابة فقط، حتى انتهيت من المبادئ، بعدها فكرت في الخروج، لكن سارة رفضت، قالت إن البابا أرسل لنائب الإمبراطور كي يصدر قرارًا بطردك من المدينة، ولو خرجت وقبضوا عليك فإننا لن نراك.

يومها ملأ الغضب دمائي، وطلبت منها أن تعد لي شيئًا لآكله، وما إن

دخلت حتى خرجت إلى الشارع قاصدًا الكنيسة، كان الجميع يعلم بأمري، ووجدتهم يهتفون باسمي كما يهتفون بأسماء المصارعين، خفَّفت البهجة التي تلقيتها من آثار الغضب على وجهي، وارتدَّ إليَّ وقاري كرجل علم وواعظ للمؤمنين، وشعرت بالسلام يملأ قلبي، وأن ديمتريوس وأساقفته لا يمثلون شيئًا، شعرت أنني انتصرت ولا حاجة لأن أخوض حربًا لا طائل منها، فارتددت من شارع آخر إلى بيتي، لكنني ما إن دخلت البيت حتى وجدت الجند في أعقابي، قال رئيسهم معتذرًا أنه لا بد من القبض عليَّ، فلديه أوامر بذلك، كنت أعتقد أنه أحد الجنود المخصصين لحراسة الكنيسة، لكنني فوجئت به من حامية الحاكم نفسه، أيقنت أن الأمر قد انتهى، وأنه لا بد من الانصياع لأوامره، فقبَّلت سارة ووعدتها بأن كل شيء سيعود أفضل مما كان، وأوصيتها أن تنتبه لإخوتها الصغار، ثم استدرت خارجًا مع الجند من البيت والشارع والميدان والإسكندرية كلها، لأجد نفسي من جديد بعد خمسة أيام أبكي على صدر صديقي ثيؤكتستوس أسقف قيصرية.

-١٧-

كان إيمانويــل الطيــب حريصًا على أن تعود لدير المــلاح سمعته، فقد مــرت عليه سنوات لا يكاد يسمع به أحد، وربما تصور الكثيرون أنه أحد الأديــرة المنقرضة، فمع انتهاء زمن الاضطهاد لم يعد يتجه للأديرة سوى الراغبــين في حياة التقشف والزهد والتأمل، حتــى أن الأديرة التي كانت تتراص بجوار بعضها على الجبال وفي بطون الصحراء أخذت تختفي شيئًا فشيئًا، بعضها طُمر كلية وأصبح أثرًا بعد عين، وبعضها اقتصر على عدد من الرهبان المعتكفــين في الصوامع والقلالي للصلــوات والتراتيل، كان الملاح أحد هذه الأديــرة التي قل عدد المتجهين إليها، واتخذ نظامًا صارمًا في انضمــام رهبان جدد إليه، كان لا يسمــح بانضمام إلا من لديهم رغبة في المعرفة والعلم، حيــث يمكنهم أن يكونوا جزءًا من مدرسة يتجة الناس إليها. ولعقود طويلة ظل آباء الدير حريصين على توفير الرقاع والرياش والأحبار والجلوس لنقل معارفهم وما حصلوه من علوم للرهبان الجدد، فاشتهــر الدير بأنه دير الشرَّاح، وكثر الرهبان الوافدون إليه من مختلف الأديــرة طالبين شرح ما استغلق عليهم فهمه فيما لديهم من كتب، موقنين أن الإجابــة دائمًا هنا، في دير المــلاح، لكن الأزمنة تغيرت، وفقد المكان وهجه وتألقه.

كان إيمانويل من بــين الحالمين بعودة الدير إلى مكانته الشهيرة، فاهتم بتجديد المطبعة وتحديثها، وحين عرض عليه الكاتب ملاك أن يلقي نظرة على الكتــب التي في مخزنه، حضــر واستمع إلى حديثــه الطويل عما في هذه الكتب من معارف وعلوم، وما في مخطوطاتها من وثائق وحكايات وتواريــخ، ولم يرفض حــين قال الكاتــب إنه يرغب في إخــراج الكتب والدفاتر مــن الصناديق ووضعها على أرفف، فطلــب من الأب إستيفان تحويل المخزن إلى مكتبة كبيرة. وحين تولى رئاسة الدير فتح أفق الاتصال

بــين الدير والكنيسة الأم، حتى بــدا وكأنه تابع لها مباشرة، ولا علاقة له بأبرشية أسيوط، حيث أسقفها الــذي رفض الاعتراف بقداسة إيمانويل، معتبرًا رؤيته للمسيح خرافــة أطلقها لجذب الاهتمام، وخروجًا عن تبعية الديــر لــه، لكن إيمانويــل لم يقف مكتــوف اليدين، فقد دفع بــكل رهبانه المتميزين للحصول على درجات علمية من كلية اللاهوت، كان من بينهم يوســاب الذي كان مهتمًّا بالأفكار المختلــف عليها لدى أوريجانوس، لكنه لسبب ما لم يستطع الحصول على الدكتوراه، أما جورج المنحني فإنه أحد العلماء الذين لهم مؤلفات مترجمة للعديد من اللغات، إلا أنه دائم الاعتزال وتجنب الناس، مما جعل الدير يسقط في يد يوساب المسئول عن الأمن.

كان يوســاب قــد أمر رجاله بتركي أبيت في قبــو اللبؤة، وهو ما يعني السخرية مني ومن إيماني بالمعجزات، لكنني ظللت موقنًا أن ثمة معجزات تجري علــى الأرض، غير أننا لا نراها، وقد تكون هذه الليلة واحدة من الليالي الأهم في حياتي، فقد تظهر لي اللبوة بأشبالها، إلا أنني لا أعرف ما الذي سيحدث بعد ظهورها، هل ستأتي لتباركني وأصبح قديسًا يتبارك به أبناء الدير، أم أنها ستكشر عن أنيابها وتلتهمني كما التهمت أعداء الملاح. لا يحــدث دائمًا أن تكون المعجزات في صالــح المرء، وهو ما أخشاه، فلو ظهرت هرة وليس لبؤة فإنني سأموت في مكاني من الخوف، ولن يفرحني أنني مت في كنيسة الملاح أو غيره، ولا على يد لبؤته أو مخلب قط.

أخــذت الوساوس تنتابني مــن الموت، وفي سط الظلمــة التي طمرت عينــي بالســواد، لم أجد طريقة لطردهــا سوى التفكــير في تاريخ الدير، برقت الفكرة في عقلــي كمعجزة ظهرت في الظلمة للعيان، وجدتني أقسم الكتــاب إلى أبواب وفصول، وأقسم الصــراع لشخصيات وعهود، كان أوريجانوســ واضحًا في ذهني بقوة، حتى أنني تخيلته يجلس بجاني ليملي علــيَّ رسائله المفقودة لصديقه ديونسيوســ، بينما ثمة شخوص تصيح من حولي كي أكتبهــا، من بينهم رهبان معلقــون في السلاسل على جدران، معترفــين للمسيح بذنوبهم، سمعت منهم من يقول "إنني أوطيخا، أعترف أننــي أخطأت وأصابني الشطط، لكنني كنــت أسعى لخلاص البشرية من الفتن". بينما أريوس يتألم في جانب بعيد على الجدار قائلاً "ربي، أعترف

أنني أخطأت، فاسمح لي أن ألقي بنفسي من فوق الجبل، كي تنهشني الحيات".

علت الأصوات في ذهني وتداخلت، حتى أنني أصبتُ بالصمم من كثرتها، ولم أعد قادرًا على تمييز الصواب من الخطأ، وصارت كل الوجوه ملونة بالدماء، ضاربة رءوسها في الصخر رغبة في التوبة، كان أكثرهم دهشة لي هو "ميليتيوس"، ذلك الذي وقف حائرًا لا يعرف ما الذي يمكن أن يقوله، بينما الرب يسأله:

- هل نقبل اعتراف المخطئين أم لا؟

يبدو أن الرعب كان يتملَّكني من الداخل والخارج، فقد أصابتني الحمى وظللت أهذي طيلة الليل، حتى أن رهبان يوساب حين جاءوني في الصباح وجدوا حرارتي تزيد عن الأربعين، بينما العرق يغمرني من كل جانب، وبدلاً من أن يكملوا مشروعهم في تعذيبي قاموا بنقلي إلى فراشي في المكتبة، ووجدتهم يضعون كمادات على وجهي، ويغلون أعشابًا ويسقونني، ظللت على حالتي هذه ثلاثة أيام أو أكثر، بعدها استدعاني يوساب وهو يبتسم قائلاً:

- لم أكن أتصور أن قلبك ضعيف إلى هذا الحد.

كنت منهكًا إلى حد لا يمكنني معه النقاش أو الجدل، فشكرته وقررت الذهاب إلى فراشي، لكنه لاحقني:

- إذا أردت أن تخبرني بشيء فأنا في انتظارك.

هززت رأسي بالموافقة ثم انسحبت بهدوء من باب قلايته كما لو أنني طيف لا يراه أحد. في مدخل المكتبة وجدت راهبين يريدان الدخول بحثًا عن أحد الكتب، فهززت رأسي وسمحت لهما بالدخول، تركتهما يبحثان عما يريدان وارتميت على فراشي أفكر في شأن كتابي عن الدير، تذكرت أن أنطونيوس طلب مني أن أكتب ما أعرفه، وها أنا الآن رغم أنني أتعافى من الحمى فإن صور الذين رأيتهم معلقين على جدار الصخور يصرخون

فيَّ أن أحررهم من خطاياهم، وسـرد ما جرى معهم، أجد الأصوات ما زالـت حية ونابضـة كما لو أننـي أسمعها بأذني، فابتسمـت مُزيحًا صور الرهبـان القدامى، منصتًا للراهبـين اللذين يبحثان في المكتبة عن مخطوط يريدانه، فسمعت أحدهما يقول للآخر إن المحققة دميانة وجدت مقتولة في أسيوط.

حـين سمعت باسم دميانـة انتابتني رعشة كما لو أننـي أصابني المس، ولوهلة تحولت أعضائي جميعًا إلى أذن كبيرة أمام أفواههم، لكن أيًّا منهما لم يقـل شيئًا، وكأنهمـا أصيبا بالخرس فجأة، وانشغـل كل منهما بالبحث في دولاب عـن كتاب غـير الذي جاءا من أجله، وددت لـو أنني أنتفض من مـكاني لأسأل الراهب من أين علم بأمر دميانة، لكنني للحظة شعرت أن الأمـر مرتب من قبل يوسـاب، وأنه هو الذي دفع بهما ليلقيا بالمعلومة أمامي، فإذا اشتبكت معهما في الحديث فإنني معني بالأمر، أما إذا التزمت الصمت وكأنني لا أعرف دميانة ولا يعنيني شأنها فهذا أسوأ، لأن يوساب سيعتقـد أننـي شريك لأنطونيوس في هروبـه، فوجدتني متهمًـا في كلتا الحالتـين، ولم أعرف ما الـذي ينبغي عليَّ عمله، خاصـة وأن الراهبين أنهيا بحثهما فجأة وخرجا من المكتبة.

حينهـا طنت في رأسي جملة يوسـاب "إذا أردت أن تخبرني بشيء فأنا في انتظـارك"، فوجدتني أنهض من فراشي كمـن لدغته عقرب، لأقف بباب يوساب قائلاً:

– يقولون إن دميانة وجدت مقتولة في أسيوط.

-١٨-

أرسل رفائيل إلى ديمتريوس الصغير قائلاً إن والده رفض أن يدخل المسيحية، لكنه سمح بعماد شقيقه الأصغر، قال إن هذا التحول في موقف والده جاء بعد أن رأى ما وصل إليه رفائيل، فهو الصديق المقرب لأثناسيوس الذي يراه الجميع الرجل القوي في الكنيسة، ومن ثم يحظى بكل مهابة وتقدير، رغم أنه لم تتم رسامته كاهنًا، إلا أنه خلال سنوات قليلة أثبت للجميع أن رهان ألكسندروس عليه لم يخِب، رآه الأخير يلعب مع بعض أصدقائه لعبة العماد، ويمارس دور الكاهن في تعميدهم، فنال ذلك أعجابه، وطلب من أمه أن تبقيه في صحبته كي يتعلم على يديه، وبالفعل التحق بمدرسة اللاهوت، وتلقى منها مبادئ الإيمان، وتم رسمه شماسًا ضمن المجموعة المصاحبة لألكسندروس، وأظهر أثناسيوس محبة فائقة للعلم، فنهل قدر ما يستطيع من كتب الآباء والقديسين، وكانت أعمال أوريجانوس هي المهد الذي عكف عليه، ليفهم من خلالها علاقة الرب بالعالم، ثم التحق بدير القديس أنطونيوس في جبال القلزم، فصحبه مدة من الزمن، وحين عاد إلى الإسكندرية وجد أستاذه ألكسندروس يعاني ظهور الفتن، سواء الغنوصيين أو من فهموا بعض نصوص أوريجانوس خطأً، أو السابلة الذين قالوا بالأقنوم الواحد للرب، أو الميليتوسيين الذين رفضوا قبول المعترفين بخطأهم، وفي النهاية ظهر أريوس الذي تأثر بفكر الأفلوطينيين من جانب وفكر الأنطاكيين من جانب آخر، فراح يتحدث عن طبيعة المسيح، فاصلاً بين الآب والابن، وذاهبًا إلى أن الابن لم يكن موجودًا قبل أن يولد من العذراء، وأنه بنزول كلمة الرب وروحه القدس عليه ترقى إلى درجة الألوهية، وهو ما رآه أثناسيوس مغالطات تصل إلى حد الهرطقة، فجلس يتصدى لها بالشرح

والتفنيد، مدافعًا عن الإيمان الصحيح حسبما تلقاه من الأباء في الكنيسة، وما درج عليه قديسون وشهداء فقدوا أرواحهم في سبيل الحفاظ عليه.

كان ذلك بداية طريق أثناسيوس لرسالتيه "ضد الوثنيين" و"تجسيد الكلمة"، فقد رأى أن من انحرفوا عن تعاليم الكنيسة يتوهمون أن للشر كيانًا جوهريًّا، وأن ثمة إلهًا غير الإله الحقيقي ربنا يسوع المسيح، وأن هذا الإله هو الباعث للشر، ورأس كل الشرور، وأنه أيضًا بارئ الخليقة، وبذلك يكون لإله الشر القدرة على إخراج الخير من إله الخير، وهو ما يعني العدم، لأنه إذا تساوت القوى فإن الأسمى والأفضل لا يمكن إدراكه، وإذا كان إله الخير موجودًا على الرغم من إرادة إله الشر بالنقيض، فإن إله الشر يكون موجودًا على الرغم من إرادة إله الخير بالنقيض، وهو ما يعني فساد الإرادة وتحقق العدم.

كانت الرسالتان مكتوبتان بأسلوب سهل ومنطق واضح، وكانت فصولهما قصيرة، وجملهما سريعة، مما جعل الكثيرين يقبلون على قراءتهما، وراج طلبهما من النساخ، حتى أن الرهبان في الأديرة والكهنة في الكنائس كانوا يحرصون على تداولهما كما لو أنهم يتعاطون دواء ضد الوباء، مما جعل أثناسيوس محاطًا بهيبة في مجمع ألكسندروس الذي انتهى بحرمان أريوس وطرده من الإسكندرية، لكن الآخر لم يكن مجرد كاهن فرد، ولا رجل يسعى إلى حب الظهور ولو بالخطأ في تعاليم الكنيسة الأم، لكنه كان رأس فكرة تمازجت في بنائها عدة روافد، جانب منها قام على تأويلات خاطئة لبعض رؤى أوريجانوس، حيث كان أهل أنطاكيا وقيصرية يحتفون بما يعضد عدم قدرتهم على فهم معجزة الرب وطبيعته الواحدة، وكان أوريجانوس يعتمد على الرمز في كتاباته، لكن الكثيرين لم يفهموا رمزيته، وهو الخطأ الذي وقع فيه أريوس وغيره ممن اعتقدوا أن الابن تهذّب وتشكّل بهبوط قوة إلهية مجردة على يسوع، وقد مزج أريوس هذه الفكرة بما قاله بولس السمساطي الذي لم يكن يختلف هو وأتباعه عن اليهود إلا في أنهم لا يختتنون ولا يقدسون السبت.

أما الفئـة الثالثة التي جاورها أريوس، وأعاد مزج أحاديثها في فكرته فهـم من رفضوا وجود الابن والـروح القدس من السكندريين، وتحدثوا بألوهيـة الأب وحـده، مؤكدين أن الوحدانية الإلهيـة اتسعت لتحوي كل الموجـودات، ومن ثم فـإن أريوس يعتقـد أن الله واحـد، غير مولود، سرمـدي وحده، ليس له بداية وحده، حقيقي وحـده، له الخلود وحده، ليس بجانبه كائن آخر، وعن طريقه توجد قوة الحكمة والكلمة. وهذه هي المبادئ التي قـال بها بولس السيمساطي في "الوحدانيـة المقتدرة"، ويعتقد أريوس بتأثيرات من الغنوصيين أن الله وإن كان واحدًا فهو لم يكن دائمًا أبًـا، لكنـه صار أبًا عندمـا أراد أن يخلق العالم. فخلـق كائنًا واحدًا. هذا الكائن أسماه الابن، وأحيانا الكلمة أو الحكمة.

كان ديمتريوسـس الذي تحسنت صحته قليلاً ينتظر رسائل رفائيل إليه، ليقـرأ ويطالع ويعرف ما الذي يجـري في المدينة، وما الـذي انتهى إليه الآبـاء المقدسون هناك، وشغله أن يعرف من تلميذه رفائيل كيف استطاع أريوسـ أن ينشر فكرتـه بكل هذا الاتساع والسرعـة، فالجدل الدائر في العـالم الآن لا يخرج عـن أن ألكسندروس وأثناسيوسـ قالا، وأريوس قال، حتـى أن دير الملاح بدأت تصله أهازيج الرعـاة بكلمات أريوس، وصارت أفكاره تبلبل المقيمـين في الدير، فأخذ رفائيل يلقي موعظتين في الأسبوع، حيـث يتابع شئون الرهبان ويسمع منهم، ويرد عليهم، وكلما أعيـاه شـيء أرسل إلى رفائيـل ليجيبه عنه، فلا يمر شهـر دون أن تأتي رسالة من رفائيل أو تذهب أخرى إليه.

وازن رفائيـل بين التزاماته تجاه أهله الذين قبلـوا به بينهم، وبين أن يطلـع ديمتريوس على كل جديد ويلبي مـا يكلفه به أثناسيوس، ذلك الذي أخـذ يعتمد عليـه في كثير من الأمـور، خاصة وأن المعركة بـين الكنيسة وأنصـار أريوس أصبحت علـى أشدها، ولجأ الأخـير إلى أصدقائه ممن تعلمـوا على يد لوكيانوس في أنطاكيـا، وصارت لهم الآن مكانة وحظوة لدى الإمبراطور قسطنطـين، وفي مقدمتهم يوسابيوس النيقوميدي الذي أصبـح مستشارًا للإمبراطور، وسعـى لأن يجعل قسطنطين يضغط على

ألسكندروس لعقد مجمع جديد يلغي فيه قرارات مجمع الإسكندرية، لكن الإمبراطور طالبه بالحصول على قرار من أي مجمع مقدس آخر كي يتدخل، وكان لألكسندروس أيضًا رجاله وعيونه في البلاط، فأبلغوه بما يسعى إليه يوسابيوس، فما كان من أثناسيوس إلا أن خرج من الإسكندرية برسالة إلى بطريرك روما مطالبًا إياه فيها بحرمان أريوس لخروجه على تعاليم الرسل، وإلغاء ألوهية الابن، وجعله مخلوقًا وليس مولودًا، أي أنه ليس من جوهر الآب، ولكن خاضعًا له، فما كان من بطريرك روما إلا أن عقد مجمعًا حرم أريوس فيه بناء عن رسالة ألكسندروس.

ولم تكن أنطاكيا بحاجة لأن تنتظر رسالة من ألكسندروس كي تعلن تنظيف نفسها من أريوس وبدعته، فقد أسرع أسقفها مركلوس بعقد مجمع مقدس أعلن فيه حرمانه أريوس لفساد اعتقاده في المسيح، وسعيه لنشر الهرطقة بين الناس، كان ذلك بعد عامين من مجمع الإسكندرية، لكن في الوقت الذي شعرت فيه الإسكندرية أنها حققت نصرها المؤزر على أريوس وأنصاره من اللوكيانوسيين والميليتيوسيين، كان يوسابيوس قد أقنع أسقف قيصرية بعقد مجمع طالب فيه ألكسندروس بقبول أريوس وعدم حرمانه، وألح يوسابيوس على الإمبراطور أن يفي بوعده، فأرسل قسطنطين رسالة طالب فيها ألكسندروس بوقف الخلاف بينه وبين أريوس، لأن الإمبراطورية تكاد أن تنقسم على نفسها بسببهما.

بدا من رسالة قسطنطين أنه يأمر ألكسندروس ويتدخل في شئون الكنيسة، فراح الأخير يصرخ في وجه تلميذه أثناسيوس (ما لله لله.. وما لقيصر لقيصر)، وفهم أثناسيوس أن الإمبراطور يساوي بين مجمع الإسكندرية ومجمع الرعاع في قيصرية، هكذا أوضح ألكسندروس سبب غضبه، وأخذ الاساقفة والقساوسة الموجودون يهدئون انفعاله، مقترحين عقد مجمع جديد يؤكدون فيه على ما ذهب إليه المجمع الأول، وجلس أثناسيوس يكتب رسالة ألكسندروس إلى قسطنطين، قائلاً إنه لا يعارض ما يراه جلالة الإمبراطور، لكن هذا قرار مجمع مقدس، وسوف يأمر بانعقاد المجمع مرة أخرى لعرض رسالتكم عليه.

وسرعـان ما انطلق أثناسيوس ورفائيل في جولـة جديدة إلى الأساقفة والقساوسـة، جولة لم تختلـف كثيرًا عن سابقتها، سـوى أن رفائيل جاء لرؤيـة أستاذه ديمتريوس، وصديقه أبانـوب، وبدت عليه ملامح النعمة رغـم إرهاق السفر، وأصـر أثناسيوس على المبيت في ديـر أستاذه الأنبا أنطونيوس، وشرح له كل ما جرى من خطوب وأحداث، قبل أن يذهبا للقـاء الأب بولا، ثـم ينطلقا للقاء الأنبا بيشوي والأنبـا شنودة في ديريهما الملقبان بالأحمر والأبيض، ثم يعـودان إلى الإسكندرية من جديد، حيث ألكسندروس الـذي عكف على كتابـة رسائله في الرد علـى الأريوسيين وفرياتهم، آخذًا في مراسلة رؤساء الكنائس كي ينتصروا للرب.

كان وجـه ألكسندروس قد تضاءل أكثر مما هو عليـه، وعيناه غارتا واكتستـا بالهالات السوداء، بينما الإرهاق أخذ به كل مأخذ، وأثناسيوس يعرض عليه نتائج جولته، مؤكدًا أن الجميع مـا زال على تقديسه لوثيقة مبـادئ الإيمان التي وقعوهـا، وأن أحدًا لن يرضـى بالتأخر عن نصرة الرب، ودفع الهراطقة عن الكنيسة وتعاليمها منذ مرقس الرسول.

لم يمضِ أكـثر مـن شهـر ونصف حتـى انعقد مجمـع جديـد، وقرأ ألكسندروس رسالة قسطنطين علـى الرءوس، فهمهمـت الأفواه وكسا الوجـوهَ الظـلام، وما كان منهـم إلا أن رفضوا طلـب مجمع قيصرية، مؤكديـن أن بدعـة أريوس تخالـف كل التعاليم الموروثة عـن القديسين والشهداء، وأنها تنزع عـن الابن أزليته وقدرته، وتجعله جوهرًا مختلفًا عن جوهر الآب، ومخلوقًا خاضعًا له، تنفي أقنومية الروح القدس.

حـين انتهى المجمع مـن صياغة قراراتـه أرسل بهـا ألكسندروس في رسالة مطولـة إلى الإمبراطور، وحرص على أن يكـون أثناسيوس في معيتهـا، كي لا تلتقطها عيـون يوسابيوس فيقومـون بتحريفها أو تقديمها في أجـواء مناقضة. خـرج أثاسيوس من الإسكندرية بحـرًا إلى نيقوميدا حيث يقيـم قسطنطين، وحيث يرأسـ يوسابيوس النيقوميـدي أسقفيتها، وشعـر أن الأرضـ التـي يمشي عليها كارهـة له، وترجو لـو أن آلاف

الشياطـين تتخطفه، لكنه تغاضى عن كل ذلك، وحدث يوسابيوس بهدوء عن الاجتهاد في معرفة الحقيقة، وضـرورة الإيمان بما استشهد من أجله القديسون، وشعـر يوسابيوس أنه من الصعوبة اجتـذاب الشاب الذي لم يتخطَّ الخامسة والعشرين إلى جانبه، كما لن يستطيع أن يسقطه في عداوة تغير قلـب الإمبراطور عليه وعلى ألكسندروسـ في الإسكندرية، وحين فض الإمبراطـور رسالة ألكسندروسـ، شعر أثناسيوسـ أن خيبة أمل ظهـرت على وجهه، فقد كان ينتظر أمرًا غير الذي قرأه، لكنه هز رأسه وأمره أن يبلغ تحياته لبابا الإسكندرية.

شعـر أثناسيوسـ في الطريـق أن الانتصار قـد اكتمـل، وأنه أعطى لخصـوم الكنيسة ضربة ستنهي علـى وجودهم للأبـد، ولم تكذب الأيام شعوره، فقـد أكد عيـون ألسكندروس أن الإمبراطـور احترم قرارات مجمع الإسكندريـة، وانشغل بأمور السياسة، نادمًا على تدخله، واستمر هـذا الانتصار لما يقرب مـن عامين، حتى أن ألكسندروسـ بدأ يشعر أن مهمتـه اكتملـت، وأخـذ يسعى لمكافـأة رجالـه، فرسم بعضـ القساوسة أساقفـة، ورسم بعض الشمامسة كهنة، وبالـغ في الترحيب بأثناسيوس، مؤكـدًا أنه الأولى من غيره بالترسيم، لكن لا بد أن يكون ذلك في مناسبة تليق بمكانته عنده، ولم يكن أثناسيوس مشغولاً بالترسيم، فهو فتى الكنيسة الأول، والكل يشير إليه بالبنـان، ويحسده على حظوته لدى البابا، لكن الأيام الطيبة سرعان ما تنقضـي، فقد استطاع أريوس ويوسابيوس عبر علاقة توطدت بالإمبراطورة الضغط على قسطنطين لعقد مجمع مسكوني يحضره ممثلـون عن مختلف الكنائسـ، لإنهاء كل الخلافـات اللاهوتية المعلقة.

-١٩-

لم يكــن اتجاه السيــارة "دوبل كابينة" هذه المــرة إلى أسيوط، فقد كان حســين الجرف في طريقــه إلى السويس، حيث مهمته نصــف الأسبوعية في تخليصــ أوراق شحنات شركته من جمــرك السويس، وكالعادة كان عليــه أن يمر مــن الطريق الذي يقطع الصحــراء في اتجاه الشرق، حيث يلتقــي على مقربة من دير الملاح بالطريــق المحاذي لجبال القلزم، ليكمل مســاره إلى السويــس في الشمال. حين رفع أنطونيوســ صليبه ولوح به تجــاه السيارة المسرعة في الصبــاح الباكر كان حسنين يفكر في أنه قد وجد الفتاة المسيحية في هذا المكان، حيث ظهرت أمام السيارة كما لو نزلت فجأة من السماء أو خرجت من تحت الأرض، يومها ضغط على الفرامل مرة واحــدة فأطلقت العجلات صوت احتكاكها القوي بالإسفلت، لم يعرف في ذلــك الوقت إن كانت رأسهــا ارتطمت بمقدمة السيــارة أم لا، لكنه نزل فأجلسهــا بين يديــه وهي شبه فاقــدة الوعي، كان قلبه يرتعــد وكل ما فيه يرتجف، سألها إن كانت بخير فهــزت رأسها بالموافقة، فحمد الله وأطلق زفرة مكتومة وهو يسألها عن طريقها، فقالت:

- خذني معك.

لم يفكر حسنين في شيء سوى الهروب من المكان، فقد راوده شعور بأنه مسكون بالجن، وبمساعــدة منه صعدت دميانة لتركب في الكنبة الخلفية، فالسيــارة من نــوع الدوبل كابينة، ورغم كل التمتمــات التي انطلقت من فــم حسنين لحظتها كرشاش يطارد به فلول الشياطين إلا أنه بعد قليل نسي الأمــر كله، وبدأت عيناه تراقبان الفتــاة النائمة في كرسيها الخلفي، وندم أنه لم يضعها في الكرسي المجاور له، فكر في أن يوقف السيارة متعللاً بأي سبــب ليجعلها تنتقل إلى جانبه، لكنها بدأت تزوم وتصدر أصواتًا غريبة،

أجـزم بأن جنيًّا أصابها، وأن عليه أن يتخلص منها في أقرب مكان، قال إنــه ذاهب إلى أسيوط، فهزت رأسهــا بالموافقة، وأدرك أن ليلته ستكون طويلــة ومزعجة، فالتـزم الصمت وأخذ ينصــت إلى الأسماء التي تهذي بها، وما إن وصل إلى مشارف قريته حتى تخلص منها، وذهب إلى بيته ليغـط في نومــه بقية اليوم، وفي الصباح التالي ذهــب إلى مقر الشركة في أسيوط ليسلم المستخلصات التي لديه.

لا يعرف حسنين ما الـذي جعله يتوقف للراهب، فقد انتبه من شروده على صــورة أنطونيوس وهو يطل بوجهه وصليبه عليه وكأنه سيدخل في زجاج السيارة، ضغـط على دواسة الفرامل في استسلام واضح، كما لو أنه يتقرب إلى إله الشياطين كيلا تصيبه بمكروه، كان أنطونيوس ينظر له من شباك النافذة سائلاً إن كان بإمكانه أن يأخذه معه، فأطلق زفرة طويلة وهو يحاول إقناع نفسه بضرورة خدمة رجال الله من أي ملة أو جنس:

- إلى أين؟

هز أنطونيوس رأسه:

- حيث تذهب.

ثــم فتح الباب وكاد أن يصعد إلى الكرسي المجاور لحسنين، لكنه تذكر أن رجال يوساب ربما يكونون على مقربة من الطريق فيلمحونه.

- هل يمكن أن أرتاح على الكنبة الخلفية؟

هكذا قال، فهز حسنــين رأسه مستسلمًا بالموافقة، صعد أنطونيوس إلى نفســ الكرسي الذي صعدت إليه دميانة، وسرعان ما انحنى بجذعه لينام بوجهــه مثلها على الكنبــة، فأيقن حسنين أن الرجـل متعب ولم يسأله عن شــيء، لكنه فكــر في أن الفتاة التي ركبت من نفس المـكان نامت أيضًا في نفس الكرسي، وللحظة شعر أن عليه أن ينقل من هذا المكان أناسًا مصابين بالجــن، وأخذ يتابــع أنطونيوس من المرآة عســى أن تظهر عليه علامات الهذيــان أو التشنــج، لكن الأخير التــزم الصمت حتى عــبرا دير الملاح بمسافــة كبيرة، فاعتــدل في جلسته لينظر من النافــذة إلى الصحراء وقمم

الجبال مــن حوله، وراح حسنين يروي له واقعــة الفتاة التي ركبت معه من نفس المـكان، وعن مرضها الغريب، وكيــف تسببت في كارثة حلت بقريته.

لم يقــدم حسنين إشــارة واحدة تجعــل أنطونيوس يفهــم أن الفتاة التي تحدث عنها هي دميانة، ومــا كان لأنطونيوس أن يتخيل أن دميانة نجت من المــوت، أو أنها غيرت طريقها من السيوس إلى أسيوط، أطلق زفرة طويلــة وهــو يتذكرها، وسرعان ما هــز رأسه حزنًا عليهــا هي وصديقه باخوميوس، طالبًــا لهما الرحمة، وود لو أنه يستطيــع أن ينتقم لموتهما، لكنه عاد وتذكر أن الرب غفور للجميع.

ســأل السائق عن وجهته فقال إنها السويســ، ولو أراد أن يوصله إلى أي مــكان آخر فسيفعل، هــز أنطونيوس رأسه شاكــرًا حسنين، وزاعمًا أنهــا الجهة التــي يريدها، ثم سرعان ما فكر فيما سيفعــل، فلا بد أن يتأكد أن دميانــة على قيد الحيــاة، وبعدها يحدد موقفه، ومــن ثم وضع خطته بالذهاب إلى القاهرة، ثــم الوصول إلى بيتها، رغم أن كل ما يعرفه عنها أنها مقيمــة في شبرا، وأنها ابنة محامٍ يدعى صلاح متري، فهل يمكن أن توصله هذه المعلومات إليها؟

ما إن وصل حسنــين إلى السويس حتى توقف أمــام موقف السيارات الذاهبة إلى القاهرة، وما إن أدرك أنطونيوس أنه خرج من الدير بلا مال حتى شعر أنه سيواجه أزمة كبرى، وللحظة فكر في أن يطلب من حسنين أجرة الطريــق، لكنه شعر بثقل الأمر على قلبــه، فشكره على معروفه، وسأله عن اسم الفتاة التي أخذها إلى قريته، فقال إنها أنجيل.

لم يكن يفكر في الطعام، لكن رائحة متصاعدة من عربة كبدة في الموقف ذكرتــه أنه لم ينل كسرة خبز واحدة منذ الأمس، وشعر أن أمعاءه أخذت في التحــرك، أشاح بوجهــه بعيدًا مؤجــلاً كل شيء للقاهــرة، فقد علمته الرهبنــة وحياتها كيــف يؤجل رغباته إن لم يستطــع قتلها، ومن ثم أطاح بالفكــرة ككل وحدق في الشمس التي اشتعلت علــى الرءوس، كان يرى

العيــون وهي تنظــر إليه تارة بإجلال وتارة بخــوف، فلا أحد يرغب في الاحتــكاك بقس في هذه الآونة، لا أحد يرغب في شبح فتنة تتقافز بمختلف أنحاء البلاد.

فكــر أنطونيوســ أنه منــذ اجتاحت الثــورة مفاصل البــلاد والحياة لم تعــد طبيعية، وما سمعه من المؤمنين الذين كانــوا يحجون إلى الدير جعله يفكــر ألف مرة في عدم الخروج مــن قلايته، فقد ازدادت إهانة المسيحيين والاعتــداء عليهــم مع فقدان الأمــن، وراح الرعب يجتــاح الكنائس مع صعود نجم الإسلاميين ووصولهم إلى البرلمان، وأخذ الجميع يتساءل عن المصير الذي سيواجهونه، وما إن فاز الإخوان بالحكم حتى شعر الأقباط بالنكبة، واتخذ بعضهــم قراره بالهجرة، لكن ما إن بدأت تلوح في الأفق علامات الخــروج على الإخوان حتى استبشروا خــيرًا، وأخذ الكهنة في الكنائســ والأديرة يجيبون بأن الكنيسة لا دخــل لها في السياسة، لكنها لا تمنع أحــدًا من ممارسة حقــه في الاعتراض والتمــرد، وكان ذلك إيذانًا بــأن يلقي المؤمنــون رهانهم على أراقم الثــورة، ولم يكن هناك كثير من الأوراق في ظل احتياج الناس إلى الجيش كقوة تحميهم من الميليشيات.

هز أنطونيوس رأسه وهو يركــب سيارة الميكروباس، وشعر بعضهم أنه يلقي السلام عليه، بينما شعر آخرون بالامتعاض، تجاهل أنطونيوس الجميــع ومسد لحيته الطويلة بيديه راسمًا بالصليب على وجهه، لكن ذهنه ظل مشغولا بما آلت إليه الأوضاع حتى بعد سقوط الإخوان، فقد تزايدت الضغــوط وتكاثرت المحن وغاب المسيح برحماته عن الجميع، فلا ندري أي غضــب ينظر به إلينا الآن، وأي خطيئة ارتكبناها كي يحدث لنا كل ما حدث.

مــا إن خــرج الميكروباصــ مــن الموقف حتــى أخذ الــركاب في جمع الأجــرة، ولمــا كان أنطونيوس شــاردًا عما يجري من حولــه فقد اضطر أحدهــم إلى تنبيهه لدفعهــا، وهنالك تذكَّر أنه بلا مــال ولا أوراق هوية، فرقَّق من صوته معتذرًا.

– معذرة... ليس معي.

مـا كان من الرجل إلا أن صاح في السائق بأن القس ليس معه أجرة، هنالك ضغط السائق بقوة على الفرامل حتى انكفأ الركاب على وجوههم، وتجاهل لعناتهم وغضبهم صائحًا فيهم:

– ينزل!

هنالك التفتت كل الأعنـاق نحو القس، متطلعة في وجهه وكأنها تنتظر رد فعلـه، وشعر أنطونيوس بالإهانة، فاعتذر للناس وطلب أن يفتحوا له الباب، لكنه سمع من نهاية المكروباس من يقول:

– لا تنزل.

انتقلت العيون إلى صاحب الصوت، كان شابًّا في الثلاثين من عمره، يحدق بعين قوية في أعـين الآخرين، وهو شاهر ورقة من فئة المائة جنيه أمامه:

– أجرته.

كانت الكلمة مسموعة للجميع بمن فيهم السائق الذي شعر بخطئه، فنكس رأسـه وعاود الانطلاق على الطريق من جديد، لم يكن وحده الذي شعر بالخجل، فقد استدارت العيـون نحو أنطونيوس لتعتذر في صمت، طالبة منـه أن يبادرها بالكلام، لكن الأخـير كان غاضبًا ومصرًّا على غضبه، فظـل صامتًا لا يقبل منهم اعتذارًا ولا يبوح لهم بسر، وحده السائق الذي اعتذر بوضوح، مبررًا غضبه بغلاء المعيشة وأن أجرته في اليوم لا تزيد عن أجرة راكبين، فهز الجميع كتفه مبدين تعاطفهم معه، وخائفين من أن يوقف السيارة أو يعود بهم إلى الموقف.

وجـه الـركاب طاقاتهم نحـو موضوعات شتـى، من بينها مـا كتبته الجرائـد عن الفتاة التي أشعلـت الفتنة في إحدى قرى الصعيد، قال أحدهم إنها مسلمة، وأن أهلهـا رفضوا تسليمها لزوجها فهربت منهم، ورد آخر أنهـا مسيحية لكن السلفيـين اعتبروها غنيمة لهم، كانـت الأفواه تدور في العربة دورة تنتهي من بعيد بوجه أنطونيوس، وكأنها تسأله عن الحقيقة، أو وجهة نظر الكنيسة في الأمر، لكن أنطونيوس الذي لم يكن يعرف شيئًا

التزم الصمت، وحين ضيق عليه أحدهم سائلاً عن رأيه، ابتسم مكتفيًا بهز رأسه، فما كان من راكب آخر إلا أن قال:

– من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر.

فنظر إليه أنطونيوس نظرة أماتت الابتسامة على وجهه، ويبدو أن هذه النظـرة وصلت إلى الجميع في نفس الوقت، فأصيبوا بالخرس المؤقت، ثم سرعان ما غطوا في نوم أو حكايات ثنائية.

حـين وصلت السيارة إلى نهايـة رحلتها في ميدان رمسيس، لم يكن قد بقي فيها غير بضعة أفراد من بينهم أنطونيوس والشاب الذي تطوع بدفع الأجرة له. توقع أنطونيوس أن يكون قبطيًّا أخذته الغيرة على رجل دين من أهـل، لكنه فوجئ أن اسمه أحمد، وكان في زيارة لعائلته بالسويس، وتملكتـه الرغبة في معرفة من هي أنجيل ومـا الذي حدث معها، فما كان من الشاب إلا أن دعاه لتناول كوبي شاي كي يحكي له ما يعرفه.

لا يعرف أنطونيوس لماذا لم يندهش حين علم أن الجالس أمامه صحفي في جريدة قومية، لكنه فتح له قلبه وأخذ يحكي عن دير الملاح، بوصفه دير الشرَّاح العظيم، لكن الأنظار اليـوم لا تعيره انتباهًا، فمساحته صغيرة، ورهبانـه لا يكادون ينزلون من هضبتـه العالية، وقبابه لا تكاد ترى من على الأرض.

لم يمض كثير من الوقت حتى مد الصحفي يده بورقة من فئة المائة جنيه تجاه أنطونيوس قائلاً:

– هذا قرض سأسترده حين أزورك هناك.

تـردد أنطونيوسـس في رفض القرضـ، إلا أنه تحت وطـأة الاحتياج وعـدم المعرفة اضطر لقبوله، كما اضطـر لأن يكشف عن سره للصحفي الغريب، فأخبره أنه جاء للقاهرة لملاقاة شخص لا يعرف عنه غير اسمه، لا يعرف حتى إن كان حيًّا أم ميتًا، بدت على وجه أحمد علامات الدهشة، لكنه في النهاية نصحه بالاتصال بالدليل عسى أن يصل إلى تليفونه، وحين أدرك أن أنطونيوسـس قادم من مكان لا علاقة له بتقنيات الاتصال، قرر أن يساعده عبر هاتفه الشخصي، في المرة الأولى لم يتوصلا لاسم دميانة،

لكنهما عـاودا الاتصال بحثًا عن صـلاح مترى المحامـي، فحصل على العنوان ورقم الهاتف.

اتصـلا بالرقم ووجدا أنه مرفوع من الخدمة، ولم يكن هناك كثير من الحلـول سـوى الذهاب إلى العنـوان، وسرعان ما نـزلا درجات المترو واتخذا القطار إلى سانت تريـزا، وهناك سألا عن الشارع ورقم البيت، شعـر أنطونيوس أن أحمد ملاك نـزل إليه من السمـاء ليوفر عليه عبث البحـث عن إبرة في كومة قش، حين وصـلا إلى البيت ودعه أحمد تاركًا في جيبه رقم هاتفه.

البيت قديم ومكون من عدة طوابق، رفع أنطونيوس عينه ليعد طوابقه الأربعـة، رأى على الدور الثالث لافتة تراكـم عليها التراب حتى أخفى معالمهـا، دقق النظر فيها حتى لمح كلمة مـترى، وتأكد أن دميانة حافظت كل هـذه السنين على اسـم والدها مرفوعًا على مكتبه، هـز رأسه مطمئنًا نفسـه أن الرب معه، وما إن أسلم قدميـه لدرجات السلم حتى ظل يصعد إلى أن وجـد لوحة على الباب باسم صلاح متري المحامي، فطرق بهدوء وخجـل على الزجاج، لكن أحدًا لم يفتح، وخشي أن يرجع من حيث أتى دون أن يـرى وجه دميانة أو يعرف خبرًا عنها، فترك الخجل والزجاج وطرق بقـوة على ضلفة البـاب، وكاد أن يستدير مسلمًـا نفسه للسلم من جديد لـولا أن سمع مزلاجًا يتحرك من الداخـل، فتوقف حتى أطل عليه وجـه سيدة في نهاية الخمسين من عمرهـا، لكنها بدت أكثر عجزًا مما هي عليه، قلبت عينيها في وجهه بدهشة، فما كان من أنطونيوس إلا أن سألها:

– أنت أم دميانة؟

لمعت عيناها بالفرح وهي تقول:

– هل وجدتها الكنيسة؟

وقـف أنطونيوسـ لا يعرف بمَ يـرد، وللحظة شعر أنـه لم يعد قادرًا علـى الاحتمال أكثر من ذلك، فانهمـرت من عينيه دمعة بحجم حبة عنب صغـيرة، وأخذت تسيل حتى توقفت على غابـة الشعر النابت في وجهه،

فمسحهـا ونظر متطلعًـا للسيدة تريـزا وكأنه يشم ريح يوسـف، فانتبهت الأخـيرة إلى أن عليها الاحتفاء بالقسـ ثم استجوابه على مهل. أفسحت له كي يدخل البيت، وبدا كما لو أنه كان ينتظر مثل هذه اللحظة منذ سنوات، فقد شعر أنه وصل إلى مصدر الرائحة التي جذبته كل هذا الطريق، وأخذ يتطلـع إلى الجدران والحوائط كأنه يتشمم كل جزء فيها، لاحت له دميانة بثـوبٍ بيـت وردي خفيف، وظهر على فمها ابتسامـة صغيرة موجهة له وحدهٍ، لاحقته كلمات الأم المندهشة من تطلعه إلى كل ما في البيت.

انتبـه إلى أن عليـه أن يختـار مكانًـا للجلوس كي يطمئـن السيدة على ابنتهـا، فانتهت رغبتـه في التشبع بريـح دميانة، ورفـح حاجبيه مدركًا أن مهمتـه الآن أصبحت ثقيلة، فالسيدة لا تعـرف شيئًا، ويبدو أنها شكت للكنيسة تأخرها، فوعدوها بالسؤال والرد، لكن أحدًا لم يهتم، وعليه الآن أن يبلغهـا بما يثلج صدرها، فأخذ يهيئ صوته لأن يكون أكثر هدوءًا وهو يمارس أول كذبة له بعد خروجه من الدير، فما الذي يمكن أن يقوله لها؟

-٢٠-

مـا إن سمعت مريانا بقصة دميانة حتى أمـرت بتجهيز غرفة لها تطل علـى الطريق المؤدي إلى الدير، وهو واحد من الأديرة القديمة، يقال إن أثناسيوسـس لجأ إلى مغارته هربًا من تعقب الرومـان له، فأقام عدة سنين فيـه، في البدء لم يكن يعرف بأمره غـير صديقه رفائيل، لكن في يوم لجأ أحد الرعاة إلى المغارة، ووجد نفسه وجهًا لوجه مع رأس الكنيسة، فخرج صائحًـا في الناس أنه وجـده، وأخذ يخبر من يـراه أن أثناسيوس مختبئ في مغـارة الزاوية، فتكاثر الناس لرؤية أبيهـم الروحي، طالبين منه أن يعترفـوا بخطاياهم على يديـه، جلس يعظهم من علـى الجبل، ويباركهم بالماء المقدس، ولما رأى على البعد جنود الرومان قادمين نحوه أمرهم أن يصعـدوا للمغارة، ورغم كثرة الناس فإنها اتسعت لهم، حتى لم يبقَ غير الذي دلهم على المغارة، فسأله الجنود عن مكانه، لكنه لم يعرف بما يرد، فقد اختفت بمن فيها، وأصبح الجبل بلا ثغرة تدل على أن أناسًا كانوا هنا، فأخذه الجنود وعادوا إلى ثكناتهم.

بعدها عادت المغارة من جديد، وعاد الناس إليها كل يوم متلمسين رؤية القديسـس أثناسيوسـس، لكنهم مرة يجدونه ومـرات لا يجدون غير النساخ الذيـن صحبوه في رحلته، فكانوا ينتظرونه حتى يظهر لهم، هؤلاء الذين تعـودوا الجلوس إلى باب المغـارة أوجدوا لنفسهم عملاً يفيـد الناس، فقد تعلموا من النساخ أن يكتبـوا عظات أثناسيوس ويبيعوها لغيرهم، فعرف الديـر باسم دير النساخ، وباسم دير أثناسيوسـس، وفيه أملى الأخير على نسَّاخه سيرة أستاذه القديسـس أنطونيوس، ومنه خرجت عظاته للرد على الأريوسيين وهرطقاتهم، وخرجت رسائله إلى رؤساء الأديرة والكنائس لترشد الجميع إلى طريق الإيمان القويم.

نالـت دميانة رعايـة طيبة على يـدي الأم مريانا وبناتهـا الراهبات، وتـردد عليها في الأيام الأولى طبيب نفسي أعطاها عقاقير مهدئة، ونصح مريانـا بمساعدتها على ممارسـة الرسم والكتابة، وفَّـرت مريانا بعض الأوراق والألـوان، وألزمت إحدى الراهبـات بمرافقتها، ومع الهدوء والطمأنينـة بـدأت هلاوسها تتراجـع، وذاكرتها البعيدة تعـود على هيئة مشاهـد متقطعة، كان أبرزها التحقيق مع أنطونيوس، كانت هذه لحظاتها الأثـيرة، فكلما هـدأت أعصابها وخلت إلى نفسهـا تذكرتها، ومع الوقت أخـذت توسع المشاهد والذكريـات، حتى فاض بها الوجـد إليه، فأخذت تحكي للراهبات عن حبيبهـا البعيد، وأخذت الكلمات تسري حتى وصلت إلى مريانـا، فشعـرت أن أحجـار الدير العتيق سوف تتهـاوى، فعاقبت الجميع وقررت التخلص من الضيفة غريبة الأطوار.

لم تكـن مشكلة مريانا أن دميانـة تحب راهبًا أو علمانيًّـا، لكن المشكلة تكمن في إحياء المشاعر التي خلفتها الراهبات خارج أسوار الدير، نعم جئن مـن أجل الـرب، وأمضين حياتهن في العمل والعبـادة، متناسيات العالم الخارجي برغباته وشهواته، منتصـرات على مشاعر الجسد واحتياجه، لكنهـن في النهاية نسـاء، أقل كلمة قد تحيي بداخلهـن الذكريات، وتشعل نيرانًا كانت قد خمدت في النفوس منذ أمدٍ بعيد، كان ذلك مصدر خوفها، فقررت الاتصال بالمأمور طالبة منه استعادة ضيفته، ولأنها لا تستطيع أن تشـرح له أسبابها، فقد اعتقد أنها لا تود أن تتعاون، وراح يوضح لها كم سيرتبـك نظام الدير أكثر لو أن المتشدديـن فكروا في دخول الدير، حينها وصلت مريانا رسالته، فتراجعت في موقفها، متمتمة لنفسها:

- ربنا لا تدخلنا التجربة.

بعد ليلة طويلة من التفكير رأت مريانا أن تعزل ضيفتها عن الراهبات، وتضعهـا في قلاية بعيـدة منعزلة بأعلى الجبل، ولا يدخـل عليها سواها، موفرة لها كل ما قد يساعدها على الشفاء بالكتابة والرسم كما قال الطبيب، مع الوقت عرفت دميانة مـن جديد طريقها إلى الكتابة، فراحت تسجل ما

تــراه وما تتذكره، وبقليل من الجهد استطاعت أن تتجاوز محنتها بأسرع ممــا توقعت، وانتبهت إلى أن ما تكتبه يخصها وحدها، فعمدت إلى إخفائه في دفتر لا يطلع عليه سواها.

اعتادت مريانا الذهاب لدميانة في قلايتها، اعتادت الجلوس معها بعيدًا عــن هموم الدير ومشكلاته، واكتشفت أنهــا يمكنها أن تحكي عن همومها لفتــاة لا تزيــد عن كونها مجــرد أذن كبيرة، فراحت تحدثهــا عن أن هذا الديــر لم يكــن في الأصل ديرًا للراهبــات، فمنذ لجــأ أثناسيوس الرسولي إلى مغارتــه طالبًا مــن الرهبان الذين معــه أن ينسخــوا رسائله وعظاته للناســ كي يطلعوا عليها وقد أصبح هذا المكان ديــرًا للنساخ، يجيئه الناس من كل مــكان، طالبين كل جديــد في كتب اللاهوت، ويجيئــه القساوسة والأساقفــة طالبين نسخ رسائلهم وعظاتهــم، هكذا كان الجميع يلتقي هنا، وكانــت الكتب، كل الكتب، حتى الممنوعــة والمحرمة، تنسخ بين جدران هــذا الديــر، يسهر عليها آبــاء تدربوا منذ صغرهم علــى رسم الخطوط، وتفننــوا في صنع أدواتهم من الغاب والبردى، الجميع كان يأتي إلى هنا، يقطعون المسافات ليقتنوا أحدث الأعمــال، ثم يحملوها إلى دير الشراح، طالبــين تفسير ما غمض فيها، دير الشراح ليس بقريب، لكنه على مسافة طريــق طويل في قلب الصحــراء، طريق يبدأ من أسيــوط إلى هضبة في جبــال القلزم، طريق عرف من كثرة الساعين فيه باسم طريق الرهبان، حيــث يجلس آباء أمضوا حيواتهم في قــراءة الكتب الغريبة، مطلعين على الأفكار التي مع المسيح وضده، موقنين أن العلم لا انتماء له، وأنهم ليسوا مــع الكنيسة ولا ضدها، لكنهم مع المعرفة، فجهدهم الذي يعيشون منه منذ وضع الملاح رحله على هذه الهضبة النائية هو المعرفة.

لكن دير النساخ فقد بهاءه حين أغلقه يوساب الثاني في الخمسينات، كان الخلاف قد تزايد بينه وبين "الأمة القبطية"، وكان يعلم أن عددًا كبيرًا من عناصرها يقيمــون هنا، وما إن فشلت محاولتهم في الإطاحة به حتى قرر القضــاء عليهم، فأمر بإغلاق هذا الدير، لكنهم لم يتركوا المكان، كثيرون

منهم ظلوا مختبئـين في الجبل، معتبرين رحيلهم بمثابـة إقرار بخطيئة لم يرتكبوها، وظلوا يضغطون على البابا لإعادة فتح الدير، ورغم استجابته بعـد عامين لهذه الضغوط إلا أنه أصدر قراره لأن يكون للراهبات فقط، موقنًا أن تلك أفضل طريقة للتخلص من الأمة القبطية ومهنة النسخ أيضًا، لكن الرجال ظلوا مختبئين في قلالٍ خلف الدير، آخذين على عاتقهم تعليم الراهبات الصغيرات فنون النسخ التي أصبحت محرمة.

كانـت مريانا تحكي وهي موقنة أن حديثهـا لن يخرج من بين جدران القلايـة، لأن ضيفتها ليست أكثر من أذن لا تتحدث ولا تتذكر شيئًا. لكن دميانـة فاجأتهـا بسؤالها عن مصير النسخ التـي يرسمنها، فتوقفت مريانا عن الحكي، ليس تفكيرًا في إجابـة مناسبة، ولكن لاكتشافها أنها تورطت أكـثر مما ينبغي، وللحظة ساورها الشـك في أن تكون دميانة عينًا عليها، فاصطحبتهـا في جولة بالديـر، قامت خلالها الأخـوات بالبحث في قلاية دميانة عـن أي شيء غريب، ولم يستغرق الأمـر كثيرًا كي يعثرن على الكراسة التي كانـت دميانة تدرب فيها نفسها على استعادة الذاكرة، فكان من بين ما كتبته أجزاء طويلة تخص مريانا وحكاياتها في الدير.

-٢١-

رسائل أوريجانوس (١٠)

الأب المبجل ديونسيوس، أعلم أن ما قيل عن العداوة بيني والأب ديمتريوس كثير، أعلم أن الحديث عما جرى بيننا قد ملأ الأسماع والأفهام في مختلف بقاع الأرض، فقد اشتط ديمتريوس في عقابي على شيء لا أعلمه، ولم يتراجع قيد أنملة عن السعي لإخفائي من الوجود، ولم يكن أمامي سوى أن أنصاع لدفعات الجنود في الشوارع وهم يخرجونني من الإسكندرية، لا تلامذتي ولا أساتذتي ولا حتى نائب الإمبراطور في المدينة العريقة استطاع الشفاعة لي، الجميع وقف مكتوف اليد، بل شعروا بالفخر والنصر أنهم استطاعوا أن ينقذوا عنقي من القطع وجسدي من الحرق، أنا أيضًا شعرت أنني قد آذيت الرجل، وأنه لا بد أن أستجيب لما اتفق الجميع عليه، لا بد أن أنهي هذه الحرب التي بلا معنى ولا سبب، وأن أخرج في هدوء مع الجنود إلى حيث الميناء، فخرجت في حراسة مشددة، وصعدت إلى ظهر مركب مليء بالجنود، جميعهم كانوا ينحنون احترامًا لي، أغلبهم لم يكن مصدقًا ما يجري، فالعالم الجليل الذي بجَّله الجميع يخرج الآن منفيًّا من مدينته بلا مبرر، ويُحرَم من أن يكون قسًّا لا في بلاده ولا بلاد غيره، بعض القادة كانوا يعتذرون لي وهم يأمرونني بالصعود أو النزول، بعضهم كان يبكي غضبًا، والبعض حاول مجاملتي بالسب في ديمتريوس، لكنني رفضت، قلت لهم إنه راعينا باسم المسيح، وإنه يجلس الآن على كرسي مرقس الرسول.

في ذلك اليوم تعجبوا مما أقول، فطلبت منهم أن يجلسوا أمامي، فجلسوا، ولكنني لمحت على وجه بعضهم نظرة هزء وسخرية، إذ إنني سأعظهم رغم كوني مشلوحًا، لكنني تجاهلت ذلك وسألت:

– أتدرون من هو ديمتريوس الكرَّام؟

لكـن أحدًا لم يرد، فقد بدا السؤال مباغتًا لهم، وبدت الدهشة أكبر على الوجوه، فعدت أسأل من جديد حتى رأيت أن نظرة السخرية طارت من أعين المارقين منهم، وانفتحت الأعين والآذان رغبة في المعرفة، فنظرت في وجوههـم قائلاً: حـين اقترب البابا يوليانوس مـن أجله رأى في منامه ملاك الرب يقول له:

– غدًا يأتيك فلاح بعنقود عنب. . . كنيسة الرب في حاجة إلى عنقوده.

ولمـا انتبـه يوليانوس من حلمـه نادى الأساقفـة والقساوسـة وأعلمهم برؤيـاه، متسائلاً عن معناها الذي يعرفه في قلبه، لكن أحدًا لم يخبره به، لأن الجميع ظن أنها هلاوس الحمـى، ظلوا بجانبه يواسونه حتى فوجئوا بفـلاح ذي قامة طويلة، ويدين مشققتين وقدمين حافيتين كبيرتين، يدخل عليهـم، وفي يـده عنقود عنبٍ كبـير، ولم يكن هذا وقت العنـب، إلا أن الفـلاح كان قد قرر زيارة الرب في كنيسته ولم يجد ما يحمله إليه، فرأى في منامه من يقول له يا ديمتريوس اذهب إلى كرمك تجد عنقودًا استوى، احمله إلى الرب معك، فلما نزل الحقل وجد العنقود أمامه مضيئًا كأنه من حقل سماوي، فأعجبه منظره واكتمال حباته، فحمله في كم جلبابه وخرج من قريته حتى دخل الكنيسة، حينها تطلعت العيون إلى قامته وهيئته وثيابه المليئـة بالطمي والعرق، تطلعت إليـه بدهشة وهو يخرج عنقوده كمسبحة مضيئة أمامهم، فنظروا إلى بعضهم ثم نظروا إلى يوليانوس معترفين أنه الحق من الرب.

حينها نهضـ يوليانوس من مرقـده، وتجمع الأساقفـة والكهنة حول القادم من الحقول البعيدة بعرقه وترابه، ليجلسوه إلى جانبه، مترفقين به، محضريـن له الماء المبرد المزوج برائحة الورد، طالبين منه أن يصلي من أجلهـم، كل ذلـك وديمتريوس يزداد تعجبًا في نفسه مـن أمرهم، حتى أنه فكر في النهوض والعودة لحقله البعيد، لكن يوليانوس أمسك بذراعه قائلاً:

– ليس الآن يا بني.

وكلمـا زاد المرض على يوليانوسـس بكى ديمتريوس مـن أجله ماسحًا عرقـه بيديه، وصابًّا علـى رأسه ووجهه من الماء، حتـى فارقت روحه جسده الضئيل، واجتمـع الأساقفة ينظرون من سيخلفه في كرسي مرقس الرسول، ولم يكـن أمامهم غير الذي جاء من القرى ومعه تقدمة لا تزيد عـن عنقود كرم سابق لأوانه، فذهبوا إليه وهو جالس في ركن بالكنيسة، ينتظـر كغيره مـن المؤمنين اختيار الـرب، ففاجأوه أنهـم أجمعوا أمرهم واختاروا ديمتريوس الكرَّام ليكون على رأس كنيسة الرب.

نظرت في وجوه الجنود على المركب وأنا أقول:

- هـذا ديمتريوس الكـرَّام، اختاره الرب لأمر عظيـم، فعكف يتعلم القـراءة والكتابة وهو رئيس الكنيسة، لم يخجل ولم يتعالَ ولم يترك أمرًا دون الإقبـال علـى معرفته، الرب نفسـه لم يخجله في شـيء، فتح آفاقه وأذنيه لكلماته المقدسة، فحفظ التعاليم، ودرس التفاسير، وصارت أقوال النعمـة تتدفق من فمه وهو يعظ الجميع، حين رأى أن قيامة المسيح تجيء مـع فصح اليهود عز عليه أن يحتفـل بقيامة المسيح في عيد من قتلوه، نظر في السمـاء وأخذ يعد ويحسب الشهور والأيام، حتى وضع نظامًا محسوبًا بدقة الفلاح لمواقيت الصوم والأعيـاد، جاعلاً الأربعين المقدسة وأسبوع الآلام في وقت واحد. وكتب بذلك إلى كل من أغابيانوس أسقف أورشليم ومكسيموس بطريرك أنطاكيا، فاستحسنوه وعملوا بقواعده.

هـذا ديمتريوس الكـرَّام الذي منحـه الله موهبة تخصـه، فحين يكمل قداسـه يتقدم لتناول القربان المقدس، فيعطي مـن خبزه كل من يستحق، أمـا إذا تقدم من لا يستحـق فالمسيح يظهر له ذنبه، فـلا يسمح له بالتناول حتى يعترف بخطيئته، فيؤنبه عليها قائلاً:

- تنح عن خطيئتك وتب... ثم تقدم بعد ذلك لتناول الأسرار المقدسة.

هذا ديمتريوس الذي تذمَّـر الخطاة وتجمعوا عليه فاضحين السر الذي ستره الرب سنوات طويلة، فقالوا كيف يوبِّخنا على خطايانا وهو متزوج، فلا يصلح أن يكون رأسًا للكنيسة، لكن ملاك الرب أتاه في الليل قائلاً:

- يا كرام لا تطلب خلاصك وتترك غيرك يهلك في شكه.

فبكى قائلاً:

– وكيف أخلصهم من الشك؟

قال الملاك:

– تكشف عن سرك فيزول عن النفوس شكها.

في الصباح أقام القداس الإلهـي، آمرًا الشعب ألا يخرج من الكنيسة، معترفًا أمام الجميع أنه متزوج منذ أربعين عامًا، لكن زوجته حتى الآن بتـول، فلم يعرفا بعضهمـا يومًا مثلما يعـرف الأزواج بعضهم. غير أن المزايديـن تصايحوا بأنهم لا يصدقونـه، فما كان منه إلا أن أمر الشمامسة بإشعال النار حتى تلألأ ضوؤهـا، فأخذ بيد زوجته ووقف أمام المحراب داعيًا الله أن يحرقهما بنيرانه إن لم يكونا بتولين، ثم ملأ إزاره وإزارها بالجمر وطاف أمام الجميع، طاف بالجمر المشتعل في حجر ثيابه دون أن يصيـب جلبابه أثر للنـار، طاف وطالب المزايديـن أن يلتقطوا الجمر من حجره، فلمـا فعلوا أكلت النيران أصابعهم، وصـاح الجميع باسم الكرَّام مؤكدين أنه اختيار السماء وليس اختيارهم.

حين أنهيت حديثي عن الكرَّام وجدت الكل محدقًا نحوي ما بين متعجب ومتأثر، كانت العيون تكاد تصرخ فيَّ بأن الرجل الذي أتحدث عن مآثره هـو نفس الرجل الـذي سعى لخلعي والحكم بهرطقتـي، لم أقل لهم إن ما حـدث للكرام بشأن التشكيـك في بتوليته، ونصرة الرب لـه أمام الشعب في الكنيسـة، حوله من فـلاح بسيط إلى محارب عنيـد، لا يعرف معنى الهزيمـة، ويصر دائمًا على النصر، وما موقفه معـي إلا واحدة من تلك المعارك، فقـد راهن عليَّ في وقت مبكر، وأعطـاني المدرسة التي رأسها إكلمندس من قبلي، ذلـك الفيلسوف والعلامة صاحـب التفاسير الجليلة، وتعجـب الجميع أن يـوكل مدرسة اللاهوت لصبـي في الرابعة عشر من عمره، فتوقعوا فشلي وربما فشلـه أيضًا، لكنني استطعت أن أملأ الفراغ الـذي تركه إكلمندس، كان ذلك بدعم مـن الكرَّام، اعتبرني ابنه الذي لم

ينجبه، وكان يريدني أن أبقى معه، لم يتفهم رغبتي في الصعود والتحليق بعيدًا، لم يتفهم أن أجنحتي كبرت، وصار دور التلميذ ضيقًا عليَّ، حاول أن يحتويني عبر إرسالي لبعض الكنائس، لكن ذلك لم يكن كافيًا، كان صعودي أسرع من توقعاته، رحلاتي في الشرق كانت مدهشة للجميع، عظاتي كانت تدون وتذهب إلى أفاق بعيدة، كتبي كان النساخ يعملون عليها ليل نهار، الحفاوة التي استقبلتني بها ماميسا جعلت اسمي يضوي في البلدان والآفاق، كنائس روما وطليطلة وأنطاكيا واليونان دعتني لزيارتها، لكنه أخذ في الرفض، كان يقول إنه في حاجة إليَّ، كان يقول إنني ابنه الذي يخاف عليه من الغبار، لكنه في الحقيقة كان لا يريد لي ألا أخرج بعيدًا عنه.

لم أقل لهم كلمة من ذاك، فقد انتحيت جانبًا وتركتهم يعتقدون ما يعتقدون، بعضهم رآني مثالاً للنبل، وبعضهم رأى أنني صاحب خطيئة والكرَّام على حق، وأن ما قلته هو اعتراف بصدق الرجل وهرطقتي، لكنني لم أحبذ الطعن في الرجل الذي رباني، لو رأيته وقد أصبح كهلاً تجاوز المائة، يحمله شمامسته على محفة أمام الجميع، لشعرت بكم يستحق الرثاء، فرغم كل هذا العجز يرى أنني حربه الأخيرة، وأنه لا بد أن يدمرني مثلما صنعني، أشفقت عليه، ورأيت أنه أصبح شيخًا فانيًا، لا ينبغي أن أكسره أمام شعبه، ولا أن أستعرض معرفتي عليه، رأيته وأنا في طريقي إلى قصر الحاكم، كان محمولاً على محفته، وددت أن أستوقف الحراس لوداعه، فرغم كل ما فعل بي أجدني أحبه، وأوقن في قرارة نفسي أنه يحبني، غير أنه العناد والكبر الذي أخرج الشيطان من الجنة، لذا فصلِّ من أجلي ومن أجله، صلِّ كي يخلصنا الله من خطيئتنا، ويمنحنا من عفوه ما تستحقه قلوبنا الرقيقة.

-٢٢-

هز يوساب رأسه وهو يبتسم ابتسامة خفيفة قائلاً:

- لو تأخرت ساعة واحدة كنت سأشك فيك.

لم أستوعب أنني نجحت في الامتحان، فهززت رأسي بشكره، مؤكدًا أنني خادمه المطيع، ارتسمت ابتسامة أكبر على وجهه وأشار لي بالاقتراب، كان لا يزال جالسًا إلى مكتبه وتحت يده عدة أظرف صفراء، وضع يده في أحدها وأخرج أوراقًا سميكة ملونة:

- تعرف ما هذه؟

أومأت برأسي نافيًا، فأدخل الأوراق وأغلق المظروف، ثم نهض ليدور حولي دورة كاملة، قبل أن يضغط على كتفي كي أجلس على الكرسي المواجهة لمكتبه:

- هذه شهادات ميلاد كل من بالدير، الجميع له شهادات ميلاد أو بطاقات شخصية، شخص واحد لا توجد له شهادة ولا بطاقة، شخص ولد ونشأ بين جدران الدير، ليس معروفًا من أبوه ولا من أمه، وجده خادم أمام البوابة، رباه وكبره دون أن يهتم بإثباته في أوراق حكومية. هل تعتقد أن هذا الشخص لو غاب أو قتل ستنتبه الحكومة لغيابه؟

تحدث يوساب بطلاقة كما لو أنه تدرب على حديثه عشرات المرات، فأدركت أنه عازم على الخلاص مني، شعرت أن حياتي أرخص شيء في هذا المكان، ارتجفت من الداخل كورقة في فصل الخريف، لكن يوساب عاد ليبتسم، أدى دوره وجلس على كرسيه وهو يبتسم، ضم الأظرف لبعضها ومد يده بها نحوي:

– نريد أن نؤسس قاعدة بيانات للدير، لا يصح أن نعرف الأشياء بالصدفة، يمكنك أن تشارك معنا في عمل قائمة بالكتب التي لديك.

سمعت الكلمات كما لو أنني أنصت إلى حكمٍ بالبراءة، فعادت الدماء إلى وجهي وأنا أتسلم المظاريف منه:

– بالطبع... لكن ماذا أفعل؟

استدار بوجهه إلى جهة أخرى كما لو أنه مهتم بالبحث عن شيء أكثر أهمية من الشخص الواقف أمامه، فعدت إلى سؤاله من جديد، حينها استدار نحوي:

– انزل للمهندس عماد في المطبعة، هو ينتظرها، ولا تتأخر في بيانات الكتب.

هززت رأسي واستدرت للخروج من قلايته، لكن صوته لاحقني:

– ملاك... أنت من الآن أحد رجالي، فلا تغضبني.

كانت الجملة الأخيرة بمثابة السيف المسلط على عنقي، فقد صرت من رجاله، وهو ما يعني أنني سأصبح تحت نظره، وقد يطلب مني ما لا أستطيع تنفيذه، لكن على كلٍّ هذا أفضل من قبل، فقد كنت أنتظر الموت في كنيسة الملاح. قضيت ليلة مليئة بالهواجس، في كل لحظة كنت أشعر أن الباب الفاصل بين المذبح ومقبرة الملاح يفتح، وأن اللبؤة تعبر منه في اتجاهي، كانت الظلمة والصمت والأفكار الشريرة هي كل ما أمتلكه في ذلك الوقت، كنت أرى أشباحًا تلعب أمامي على الجدران، أرى قساوسة وقديسين يُقتلون، مشاهد موتهم لا تغادر ذاكرتي، كنت أشعر بدمائهم وهي تتطاير لتستقر على وجهي.

في الطريق إلى المطبعة أسفل الهضبة تذكرت أن أنطونيوس كان المشرف عليها لعدة سنوات، قبل أن يتنيح الأب إيمانويل، وقبل أن يتهم في نشر رسائل أوريجانوس، تذكرت أن عماد كان مساعده في التجهيزات، وأنه الآن أصبح مديرًا لها بعد أن تغيرت الأحوال، تذكرت ما سمعته عن المعركة التي خاضها إيمانويل في بداية انضمامه للدير، معركة كبيرة

أعلن فيها عما يتمتع به من شجاعة وحكمة، كان ذلك في عهد الأب يونان النحاس، حين كثرت غارات البدو على مزرعة الدير ومطبعته، كانت المطبعة في ذلك الوقت ماكينتين تصف في دولابهما الحروف، وتطبع كل منهما ورقة ورقة عبر ذراع يدوي طويل، في ذلك اليوم جمع إيمانويل الرهبان الجدد ومن تطوع من القدامى، ووقف في كنيسة الملاح يحثُّهم على الشجاعة والشهادة، موضحًا أن القديسين نالوا أمجادهم السماوية بتضحياتهم من أجل الآخرين، والآن جاءت هذه اللحظة كي يعلنوا أنهم يسيرون على دربهم.

حين نزل إيمانويل من مكانه واتجه إلى باب الكنيسة كان خلفه نحو عشرة رهبان وثمانية شمامسة، لكن حين وصل إلى أسفل الهضبة لم يجد خلفه سوى عشرة رجال فقط، فانحنى وملأ يديه بالتراب ورشهم به، ثم أكمل سيره، كان البدو مختبئين خلف المطبعة، يطلقون الرصاص على بوابة الدير، لكنهم فوجئوا بالرهبان يقفون خلفهم، ففروا أمامهم من الرعب، وكلما التفتوا وجدوهم يهرولون وراءهم، فكانوا يقعون على وجوههم ثم ينهضون ليهرولوا من جديد، ظل إيمانويل ومن معه يطاردونهم بالعصي والحجارة حتى أبعدوهم عن المكان، وعادوا غانمين بعض أسلحتهم وما كان معهم، في ذلك اليوم كان يوساب واحدًا من الرهبان الذين أظهروا قدرًا من الشجاعة، فرشحه إيمانويل كي يتولى حراسة المكان وحمايته، فاختار رجاله ووزع عليهم الغنائم.

كان عماد يقف أمام منضدة كبيرة عليها لوح زجاجي أسفله لمبات مضاءة، وعليه فرخ من الورق الشفاف، كان يقص ورق الزبدة المليء بالكتابة ويلصقه على وجه الفرخ، سألني دون أن ينظر نحوي عما أريد، هذبت صوتي قائلاً إن الأب يوساب أرسل معي المظاريف التي يريدها، وأنني سأتعاون معه في وضع قائمة بأسماء الكتب التي في المكتبة، رفع نظره نحوي كما لو أنه يعترض على كلمة "سأتعاون"، ثم أمرني أن أضع المظاريف على كرسي أمام جهاز كمبيوتر، حينها صدرت أغنية من جهاز صغير كان بجوار الشاشة:

- هات الموبايل.

لم أستطع سمــاع الكلمة جيدًا، فتحرك بنفسه ورفع الجهاز الصغير في وجهي مرددًا:

- موبايل.. موبايل.

سمعته يتحدث مع شخص آخر، لا أنكر أنني سمعت بهذا التليفون الذي يتحرك مع الناس، لكن هذه كانت المرة الأولى التي أراه فيها، كان يصدر غناء واضحًا لصوت أنثوي جميــل، وكانت على شاشته أيقونة العذراء، وحين تحدث فيه كنت أكاد أسمع صوت من يحدثه، لكنني لم أرد أن أتلقى إهانــة جديدة، فشاغلت نفسي بقراءة بعض من سطور ورق الزبدة الذي علــى الفرخ الشفــاف، كان العنــوان "أبوكريفون يعقــوب" مكتوبًا بخط عريض في ورقة وحده، ليس فيها غير كلمة "نصوص نجع حمادي" التي وضعــت على جانب في أسفل الصفحة، مررت بعيني سريعًا ونظرت إلى التي تليها، فوجدتها تقول:

عليــك الســلام من السلام، والمحبــة من المحبة، والنعمــة من النعمة، والإيمــان من الإيمان، والحياة من الحيــاة المقدسة! بما أنك قد طلبت مني أن أرســل لك كتابًا سريًّا كُشف إلي أنــا وبطرس من السيد، فلا يمكنني لا أن أرفضــ طلبك، ولا أن أكلمك مباشــرة، ولكني كتبته بحروف عبرية وأرسلتــه إليــك - لك أنــت فقط - ولكن بقــدر ما أنت وكيــل على خلاص القديسين، فتصرف بهمــة وخذ حذرك أن لا تحكي هذا الكتاب لكثيرين، هذا الذي لم يرغب المخلص أن يحكيه لنا كلنا، نحن تلاميذه الاثني عشر. ولكن مُبارك هــؤلاء الذين سيُنقذون بالإيمان بهــذا الحديث. لقد أرسلت لك منذ عشرة أشهر كتابٌ سريًّا آخر كشفه لي السيد، ولكن ذاك عليك أن تعتبره بهذه الطريقة، كما أوحي إلي أنا يعقوب.

نسيــت نفسي وأخذت في قراءة النصــ الغريب علي، كنت أعرف أن أبوكريفــون تعنــي باليونانية الكتابات السرية لــدى بعض طوائف اليهود والمسيحيين، هذه الكتابات تعــود إلى القرنين الأول والثاني، حيث كانت المسيحيــة مستهدفة من الجميع، فلجأ الآباء إلى هذا النوع من الكتابة، كنت

أعرف أن هناك كتابات مرفوضة كإنجيل توما ومريم وغيرهما لما تضمنته من تعاليم وأوامر لا تتفق مع لائحة الإيمان، وأن الإرشادات التي جاءت في تلك الكتب ادعى أصحابها أن المسيح أعطاها لهم بعد قيامته، وهي في غالبها تشير إلى أفعال غير متفق عليها لدى الآباء، كالقول بأن ملاكًا لعب دورًا في حمل مريم، أو أن المسيح تزوج من مريم المجدلية، لكنني للحق لم أقع على أيٍّ من هذه النصوص، وكنت أعتبرها خرافات، لكن ها أنا الآن أمام واحد منها.

حرص عماد على ألا أنصت إلى مكالمته فخرج من الغرفة ليتمشى بين ماكينات الطباعة، مما سمح لي بالاستغراق في القراءة، وكدت أن أقرأ المزيد لولا دخوله عليَّ كما لو أنه رأى عفريتًا في المكان:

- ماذا تفعل؟

لم أستطع أن أخبره بأنني أقرأ المكتوب، ولا حتى بمناقشته في حرف منه، فذهني قد تبلبل، وأخذت الشكوك تراودني حول ما يجري، وما كان يحدث وقت تولي أنطونيوس لأمر المطبعة في زمن إيمانويل الطيب. في النهاية أجبته أنني أستمتع بالفرجة، لكن عماد أزاحني عن المنضدة قائلاً:

- استمتع بعيدًا.

هززت رأسي وأنا أؤكد عليه بتسليمي له مظاريف يوساب، وأنني سأكتب له قائمة بالكتب التي في المكتبة، فهز رأسه وكأنه لا يعنيه ما أقوله، وانشغل من جديد في قص الأوراق الصفراء ولصقها على فرخ ورقي جديد.

-٢٣-

كان لا بد من الاستعداد للمجمع المسكوني الذي سيحضره مئات الأساقفة مـن مختلف كنائس العالم، فلا بد من حسم العديد من القضايا التي أربكت الكنيسة، في مقدمتها بدعة أريوس، وانشقاق ميليتيوس، والخلاف حول موعـد الاحتفال بقيامـة السيد المسيـح، وبتولية الكهـان، كان أثناسيوس يصـر على أن توضع هذه القضايا جميعًا على جدول أعمال المجمع، مغلقًا الباب الذي أطلت منه الفتن والبدع والهرطقات على مدار سنوات، فأخذ يعد لاجتماعات مطولة بين البابـا والأساقفة من جانب، ومراسلة كنائس القدس وأنطاكيا وروما وقرطبة واليونان من جانب آخر، لم يكن ينام لا هـو ولا رفائيل الذي صاحبـه في كل خطوة يخطوها، حتى أن البعض كان يرى أن أثناسيوس الذراع اليمني لألكسندروس، ورفائيل الذراع اليمنـي لأثناسيوس. العديد من الاجتماعات عقدت، والعديد من الرسائل أرسلـت، والأوراق المصاحبـة كتبت ونسخت في عشـرات الصفحات، حرص أثناسيوس على جمع الآيات والعظـات والشروح التي تفند خطأ أريوس وبدعتـه، وأوكل لرفائيل أن يقوم بـدور أريوس نفسه، فيعمل فكـره في عرض أفـكاره ورؤاه، باحثًا عما يعضدها مـن الكتاب المقدس وأناجيل الرسل وعظات الآباء وقصائد أريوس نفسه، حتى أنه كان يشك في بعض اللحظات أنه أصبح مهرطقًا، فيستأذن أثناسيوس في الاعتراف بأن بعض أفكار أريوس تترك تأثيرها عليه، لكن أثناسيوس كان يضحك قائلاً:

- إن لم تتقن دور الشيطان فلن نستطيع هزيمته.

في النهايـة خرجـت سفينـة كبـيرة مـن الإسكندرية محملـة بعشرات الأساقفة من مصر والقدس وأفريقيا، ومعهم عشرات الشمامسة والخدم

المصاحبين، فضلاً عن الجنود الذين أرسلهم حاكم الإسكندرية ليكونوا برفقة البابا ألكسندروس وحماية موكبه، وهو الأمر الذي حرص ألكسندروس على إظهاره للجميع في نيقية، فهو الأسقف الوحيد الذي يلقبه أتباعه بكلمة بابا، وهو ابن مدرسة الإسكندرية العريقة في السياسة والحرب والثقافة والفن، كان ألكسندروس يعي كل ذلك وهو يفكر في إلقاء الرعب بنفوس أعدائه، فثمة مهام لا بد من حسمها من اللحظات الأولى، ولا ينبغي للرءوس أن تتساوى، ولا للجدل أن يأخذ مجراه طويلاً، الحسم هو العلاج الذي تحتاجه القضايا الكبرى، كي لا تتسرب المياه بفعل الزمن من بين الجدارن.

أرسل رفائيل بعدما عاد من نيقية إلى ديمتريوس الصغير قائلاً:

– ظللنا أكثر من أسبوعين في عرض البحر، قطعنا فيهما بحر الروم إلى الشمال، ومررنا بتكريت وجزر اليونان، لكننا لم نتوقف بها، فبعد يومين دخلت السفينة مضيقًا طويلاً اسمه الدردنيل أو جناكالي، ومنه وصلنا لبحر واسع اسمه مرمرة، فقطعته السفينة كاملاً نحو الشمال الشرقي، وهنالك نزلنا إلى اليابسة، فوجدنا عربات تجرها الخيول في انتظارنا، ظلت الخيول تقطع الأودية الفسيحة الخضراء على جانب بحيرة تتمدد نيقية في طرفها الشمالي، هي ليست مدينة كبيرة بحجم الإسكندرية، لكنها نظيفة وهادئة وبسيطة، لا يسكنها الكثيرون، بها خضرة تكسو كل شيء، وأمطار تتساقط طيلة النهار، كانت مزدانة بالصلبان والأعلام وأيقونات القديسين. وضعتنا العربات أمام الكنيسة الكبيرة، فنزلنا منهكين على نحو واضح، حتى أن بعض الآباء والأساقفة لم يستطيعوا السير، فأحضر الشمامسة المرافقون محفات وحملوهم إلى الداخل، كانت مهمتي أن أكون في معية البابا ألكسندروس، أن أكون عصاه التي يتوكأ عليها حسبما قال أثناسيوس، لا أتركه ولا أعيقه، وأكون عقبة في طريق من يقترب منه دون إذن، كانت هذه هي المهمة الأكثر إرهاقًا، فكثيرون كانوا يريدون السلام عليه، كثيرون كانوا يسعون لنيل البركة منه، ولم يكن أمامي سوى أن أستخدم الفطنة، وإن صعب الأمر فعليَّ أن أشير للحرس المرافق بالتدخل كي يفسحوا الزحام.

صلينـا في الكنيسة صلاة شكـر للمسيح على حمايته لنا طيلة الرحلة، ثم خرجنـا نبحث عن أماكن المبيـت التي أعدها مطران نيقيـة ساؤغنس، لم يكن بالمدينة غير نزُلٍ واحد بسيط، ومن ثم فقد طلب ساؤغنس من الناس أن يفسحـوا لنا أماكنهم في البيوت، ويبدو أنه أمر عددًا ليس بالقليل بترك منازلهم لأجلنا، كان لا بد من أن ينزل كل أسقف بالشمامسة المصاحبين له في مكان واحد، والحقيقة أن البيت الواحد كان ينزل به نحو ثلاثة أو أربعة أساقفة بمن معهم، كان عدد الأساقفة الذين وصلوا على مدار أسبوع نحو ثلاثمائـة وثمانية عشر أسقفًا، معهـم شمامسة وخدم مصاحبون، فنُصبت الخيام في الشوارع وعلى التلال والشواطئ، وظهر بعض الباعة الجائلين، وقد اشتريت كتابين للعلامة أوريجانوس من هناك، وبعضًا من الشروحات الغنوصية لأستـاذه إكلمندس السكندري، وأسرعت بدسها في حقيبتي كي لا يسألنـي أحد عن احتياجي لها، فـلا أحد سيفهم ما أريده من جمع نسخ نادرة من كتب الآباء والقديسين، وإرسالها إلى دير الملاح الآن، هذه الكتب يجب أن تقرأ بعناية وتفنَّـد بعناية وتشرح بعناية للناس، يجب أن يعاد النظر إليها على ضوء ما سيقرره المجتمعون هنا في هذه المدينة.

في اليـوم الثالـث لوصولنا أمرنا البابـا ألكسندروس بدعـوة الأساقفة وجميع الحاضرين لقداس سيرأسه، وأمر أثناسيوس أن يجهز نفسه لأمر مهـم في هذا القداس، لم نعرف على وجـه التحديد ما الأمر، لكن مع بدء انطـلاق أجراس كنيسة نيقية في صباح اليوم التالي أخبرني أثناسيوس أن البابا سيرسمه كاهنًا كـي يحق له أن يعظ في حضور الأساقفة، ولا تكون لأريوسـ وأصدقائه أوسابيوس أسقف نيقوميديا ومارس أسقف خلقدونية وأوسانيوسـ أسقف قيصريـة وثاؤغنس أسقف نيقيـة، حجة الاعتراض علـى مخاطبته لهم أمام الأساقفة. فهمت منـه أنه ليس له دخل في الأمر، وأن الـذي نصح ألكسندروس بذلك همـا صديقاه بفنوتيوس أسقف طيبة، وبوتامـون أسقف هرقيلية بأعالي النيـل، فأخبرهما ألكسندروس أنه كان ينتظـر المناسبة اللائقة، وها قـد جاءت، ومن ثم استـأذن أسقف نيقية في إقامة القداسـ، وفي نهايته وأمام جميع الأساقفـة والشمامسة الحاضرين قام بترسيمه كاهنًا.

في اليوم التالي حضر إلى المدينة الإمبراطور قسطنطين، فاستراح يومًا ثم أمر ببدء أعمال المجمع في اليوم التالي، فكان افتتاحه يوم العشرين من مايو، وكان الإمبراطور وأسقف نيقية قد رأيا أن يكون المجمع برئاسة الأنبا أوسيوس أسقف قرطبة، لكن أوسيوس وجد حرجًا في رئاسة المجمع والبابا ألكسندروس موجود، خاصة وأن أغلب الحضور أساقفة الشرق الذين يجلونه، فقد حضر من الشرق نحو ثلاثمائة وعشرين أسقفًا، بينما لم يحضر من أساقفة الغرب سوى ثمانية فقط، فاعتذر أوسيوس مطالبًا الإمبراطور بدعوة ألكسندروس لرئاسة المجمع.

في البدء رأى ألكسندروس أنه لا يجب أن يكون الخصم والحكم، فمن المفترض أن القضية الأولى التي جاء المدعوون لمناقشتها هي الهرطقات التي يقولها أريوس، والحكم فيما إذا كانت من صحيح الدين أم لا، لكن أثناسيوس تحدث أمام الإمبراطور قائلاً إن هذه واحدة من القضايا التي اجتمع الأساقفة من أجلها، فهناك قضايا سيتم النظر فيها من قبل الحضور، من بينها بَتوليَّة الكهان، فهل يحق للكاهن أن يتزوج أم لا، وإذا تزوج فهل يحق له أن يكون أسقفًا أم لا؟ وهل يحق للأسقف أن يرسم كهانًا خارج أسقفيته أم لا؟ وهل تقبل الكنيسة عودة المعترفين بكفرهم في زمن الاضطهاد كما فعل بطرس وأرشيلاوس وألكسندروس، أم ترفضهم كما فعل ميليتيوس وأتباعه؟ وهناك لائحة الإيمان التي اعتمدها أساقفة الإسكندرية في مجمعهم، فهل يعتمدها المشاركون في نيقية لتكون قانون الإيمان الحاكم للجميع أم لا؟

كانت أسئلة أثناسيوس قوية وواضحة، حتى أن الإمبراطور دهش من حضور بديهته، فوافقه هو وألكسندروس، وجلس الإمبراطور في اليوم الأول أمام منضدة كبيرة في مواجهة المجتمعين، طالبًا من أسقف نيقية أن يجلس بجانبه، ثم طالبًا من البابا ألكسندروس أن يجلس بجانبهما، فعاونا ألكسندروس في سيره حتى جلس على يمين الإمبراطور، فألقى الأخير كلمات بسيطة عن السبب الذي دعا من أجله لمجمع مسكوني، موضحًا أن الخلافات قد كثرت بين الكنائس، ولا يريد لها أن تفتت إمبراطوريته،

ومــن ثم فإنه ينتظر من المجتمعــين في نيقية أن يجدوا حلولاً لكل الخلافات الكبيرة، وما ينتهون إليه سيكــون بمثابة القانون الحاسم لكل الأمور، ثم طلــب من الأساقفة أن يعلنــوا عن القضايا التي ينبغــي لمجمعهم المقدس أن يفصــل فيها، وكان ذلــك إيذانًا ببدء النقاش من أجــل إدراج القضايا التي يجــب مراجعتهــا، فقام كثــيرون ووعظــوا وطالبوا بــإدارج العديد من القضايــا، لكــن أريوس ومن معه اعترضــوا على جلوســ ألكسندروس بجــوار الإمبراطور، فما كان مــن أتباع ألكسندروســ إلا أن وصفوهم بالمهرطقــين الذين لا يحق لهم الحديث، فــرد أتباع أريوس بأنهم يستقون أفكارهم من الوثنيين، وأن الوثنية تسيطر على كنيستهم، فعلت الأصوات واختلطت الوجوه، واعتدى أحد الأساقفة على غريم له بالضرب.

كان ذلك بمثابة إهانــة للإمبراطور، وعدم تقدير لحضوره، فما كان منــه إلا أن نهض تاركًا الجلسة، واضطر ثاؤغنســ أسقف نيقية أن ينهي اجتمــاع اليوم الأول، وسرى الخبر بين الجميع أن الأساقفة الكبار ذهبوا إلى خيمــة الإمبراطور معتذرين عما حدث، مؤكدين أن ذلك لن يتكرر، ومــن ثم عاد الإمبراطور في الصبــاح لكرسيه، وبدأت النقاشات هادئة، لكــن حدتها سرعان ما تصاعدت، وشعــر قسطنطين أن الأمور ستخرج عن سيطرة ثاؤغنس من جديد، فنهض من مكانه قائلاً:

– لم أكــن أتوقع من كهنة الرب وأساقفتــه مثل هذا السلوك، عليكم أن تخجلــوا، لأن مــن يعلو صوته في كنيسة الرب فإنــه لا يستحقها، لقد جئنا لننهي خلافات الكنيسة لا لنبدأ خلافات جديدة، ومن كانت لديه هذه الرغبة فإنني أعتــذر لكم، فما يشغلني أكثر من انتصاراتكم لأنفسكم، وعن نفسي أرى أن الاحتفال بقيامة السيد المسيح في وقت احتفال اليهود بفصحهم أمر غير لائق، وأن رئاسة الإمبراطور لمجمع مقدس أمر غير لائق، لذا فمن سيرأس هذا المجمع هو أسقف مدينة الإسكندرية لما لها من مكانة عظيمة في نفوسنا جميعًا.

كان الإعــلان عن رئاسة ألكسندروس للمجمع بمثابة الصاعقة بالنسبة لأريوس وفريقــه، ففي الوقت الذي هلل فيه كثير مــن الآباء ترحيبًا فإن

أريوس وأوسابيوس ثارا معلنين رفضهما، وهو ما أعاد الغضب إلى وجه الإمبراطــور من جديد، حتى أنه أشار لقائــد حرسه بالوقوف على الباب بكامل عدتــه الحربية، فوصلت الرسالة للجميــع، وساد الصمت برهة لم يقطعهــا إلا صــوت ألكسندروس وهو يتلو صلاة الشكــر للرب على نعمه وعطائه لشعبه وبني الانسان.

أدى انتقــال ألكسندروســ إلى رئاســة المجمــع إلى أن وقعــت المهمــة الرئيسية في رفض بدعة أريوس وهرطقاته على كاهل أثناسيوس، فوقف يشــرح ويفنِّد ويرد على كل كلمة يقولهــا أريوس وأعوانه، منتهيًا إلى أن تعاليم أريوس تؤدي إلى أمرين غير لائقين، الأول أنها تنهي على القول بالثالوث المقدس، وتفتح الباب للاعتقاد بتعدُّد الآلهة، إذ إنها تسمح بعبادة المخلوق، أمــا الثاني فإنها تنهي على فكرة الخلاصــ للأبد، لأن المخلص الذي يخلص البشرية يلزمه أن يكون حاصلاً على اللاهوت الكامل، وإذا كان الكلمة قد أخذ على عاتقه أن يؤله الإنسان، فكيف يمكنه أن يقوم بذلك وهــو ليس واحدًا في الجوهر مع الله؟ فالمسيح لم يصر ابنًا لله جزاء لكماله الأدبي، بل على العكس، فإنه هو الذي ألهنا، أي جعلنا إلهًا، ومن ثم فإنه لم يكن إنسانًا ثم صار إلهًا، لكنه كان إلهًا ثم صار إنسانًا كي يؤلهنا.

كان أثناسيوســ يلقي خطبتــه والقاعة تكتم أنفاسهــا، فالكل تحول إلى آذان كبيرة وعيون شاخصة، وحده ألكسندروس كان جالسًا على المنصة إلى جانب الإمبراطور مبتسمًا وهو يهز رأسه موافقًا على ما يقوله تلميذه، ويبدو أن أريوس شعر أن البساط قد سحب من تحت قدميه، وأن أشعاره التــي كان يتغنــى بها هــو وتابعوه لم تعد تجــدي نفعًا، فنهضــ من مكانه مخاطبًــا ألكسندروس في حيلة أخيرة لخلط الأوراق، وإظهار الأمر على أنه من بدئه محض مؤامرة دبرها ألكسندروس، فراح يصرخ فيه:

– لقــد تلقينا إيماننا منك، ومن تعاليمك، ومن عظاتك لنا، فلمَ ترفضها الآن، لمَ تخرجنــا من عباءتك، وتلقي علينــا بغضب الأساقفة والأحبار، وكأننــا لا نريد وجــه المسيح، ولا فعــل الحقيقة، لم ترفضنــا الآن ونحن تلامذتك؟

هنالك ضجت القاعة بالهمهمات، وأخذت الأصوات في التعالي، وبدا على وجه الإمبراطور أن الصراخ موجه له هو، فقطب جبينه وحدق في أريوس بعينيه، لكن البابا ألكسندروس رفع يديه عاليًا، مشيرًا للجميع بالصمت، فخفتت الأصوات من جديد، حتى أن أريوس نفسه أدرك أنه ارتكب خطأ لم يكن في الحسبان، فخفض من حدة صوته، ثم سرعان ما التزم الصمت كالجميع، فما كان من ألكسندروس إلا أن سأله:

– يا أريوس . . . أتؤمن بأن المسيح إله مخلوق وليس من جوهر الآب؟

فقال أريوس:

– نعم.

فساله ألكسندروس:

– وإنه كائن وسيط بين الله الإله الحقيقى (الآب) وبين العالم المخلوق، لأنه لا يليق أن يتصل الله بالخليقة، وأنه أسمى من أن تكون له علاقة مباشرة بها؟

فأجاب أريوس:

– نعم

فسأله ألكسندروس:

– وهل عبادة من خلقنا أوجب أم عبادة من لم يخلقنا؟

فوجئ أريوس بالسؤال، والتزم الصمت، لكن ألكسندرس ألح عليه بالإجابة حتى قال:

– بل عبادة من خلقنا.

فرد ألسكندروس:

– فإن كان الابن خلقنا كما وصفت وهو مخلوق فعبادته أوجب من عبادة الأب الذي ليس بمخلوق، بل تكون عبادة الخالق كفرًا وعبادة

المخلـوق إيمانًـا، وهذا أقبح القبـح، وأنا بـريء منه، لأننـي أؤمن بإله واحد، هو الله الآب، ضابط الكل، خالق السماء والأرض، ما يُرى وما لا يُـرى، أؤمن برب واحد يسوع المسيح، ابن اللـه الوحيد، المولود من الآب قبـل كل الدهور، نور من نور، إله حـق من إله حق، مولود غير مخلوق، مسـاوٍ للآب في الجوهر، الذي به كان كل شيء. هذا الذي من أجلنا نحن البشرً، ومن أجل خلاصنا، نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء، تأنَّس وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطي، تألم وقُـبِر وقام من بين الأموات في اليوم الثالـث كما في الكتب، وصعد إلى السمـوات وجلس عن يمين أبيـه، وأيضًا يأتي في مجده ليدين الأحياء والأموات، الذي ليس لملكه انقضاء. أؤمن بالروح القدس، الرب المحيي المنبثق من الآب، أسجد له وأمجده مع الآب والابن، الناطق في الأنبياء. أؤمـن بكنيسة واحدة مقدسة جامعـة رسولية، وأعترف بمعمودية واحدة لمغفـرة الخطايا، وأنتظـر قيامة الأمـوات وحياة الدهر الآتـي. آمين.. آمين.

-٢٤-

لم يتوقع أنطونيوس أن تسـير الأمور على غير ما فكر فيه، فقد كانت العلاقـة بين دميانة وأمهـا بسيطة وواضحة، دفعتهمـا الوحدة لأن تكونا صديقتـين، حتـى أن دميانة كانـت تحكي لها كل ما يـرد في ذهنها وليس ما يحدث لهـا فقط، حين جلس أنطونيوس على الكنبـة التي في الصالة لم يعرف بمَ يستطيع الرد على سؤال تريزا إن كانت الكنيسة قد وجدت ابنتها أم لا، فنكس رأسـه في الأرض واستجمع قواه كي يقـول إنه من الدير الـذي كانت تعمل فيه، وأنه جاء ليسأل عنهـا بعدما غادرت الدير فجأة. بدا علـى تريزا أنها تتفهم ما يقولـه الكاهن الجالس أمامهـا بثيابه السوداء ولحيتـه الطويلة وصليبة الكبير الذي ينام علـى بطنه، سكتت قليلاً وكأنها تبتلع حزنها، ثم سألت:

- هل تعرف أنطونيوس؟

هنالـك انفرجت أساريره ولمعت عينـاه بابتسامة كبيرة وهو يهز رأسه كطفل صغير قائلاً:

- أنا أنطونيوس.

ردت عليـه بهدوء موضحـة أنها تعلم أن ابنتهـا في ضيق كبير، وأنها رأتهـا في الحلم تعاني من هـذا الضيق، فذهبت لتسـأل عليها في الكنيسة، لكنهم أخبروها أنهم لا يعلمـون عنها شيئًا، ذكرت لهم أن ابنتها تعمل منذ ثلاثـة أعوام محققة في دير الملاح، وأنهـا رأت العذراء في منامها تمد لها يـدًا لتخرجهـا من بئر سقطت فيها، ولا بد أن ابنتهـا التي لم تعد للبيت منذ نحـو شهر تعاني خطرًا ما، ولا بد مـن إنقاذها، لكنهم ضحكوا وظنوا أنها تهذي، وحين ملُّوا سماع حكايتها تجهم أسقف كبير في وجهها قائلاً:

– هذه هرطقة وتجرؤ على العذراء.

حينها لملمت حزنها الذي طرحته أمام الجميع، وخرجت منكسة الرأس تعـزي نفسها، كانت تدرك أن دميانة تعاني أمـرًا يحتاج إلى معجزة كي تنجـو منه، وأنها لا طاقة لها بالمعجزات، فعـادت إلى بيتها، ودخلت إلى الركـن الذي تحمل فيه العذراء طفلها المسيح على ذراعيها، فأشعلت عشر شمعـات وجلست تبكـي، كانت عيناهـا تتفجران بالدمع كما لـو أنه حمم تتدفق من جـوف بركان نشط، ظل وجهها معلقًا بصـورة ابنتها وأيقونة العـذراء والشموع المتلألئة حتـى غلبها النعاس فنامـت في مكانها، حينها رأت أنطونيوسـ، بنفس الهيئة التي يجلس بها الآن، كان طويلاً وصامتًا كملاك أرسله الرب ليقف ببابها، لم تعرف بمَ عليها أن تحدثه، فقط ألقت بنفسهـا أسفل قدميه وبكـت، فقبض عليها ورفعها عاليًـا، كانت تطير في الهـواء وهي تنظر في وجهه المبتسم، ووجهـه المظلم الغاضب يتطاير منه الشـرر، كانت تبكي خوفًا مـن غضبه وتضحك فرحًـا لابتسامته، بعدها أوقفهـا على الأرض وأشـار نحو السماء، كانت دميانـة تسير إلى جانب العـذراء في سحابة خفيفة بيضاء، رفع يديه لتصبـح بالتقاطع مع جسده، وضـرب بقدميه الأرض فاندفع في الهواء نحـو السحاب، وانطلقت معه دميانة إلى عالم بعيد.

كانت تريزا تنتظر أن يجيئها أنطونيوس، فأغلقت بابها على نفسها ولم تخرج، كأنها كانت تخشى أن يجيء في وقت خروجها، حين فتحت الباب ورأتـه طويلاً وفارعًا أمامهـا، أدركت أنه الملاك الـذي كان في الحلم، وأن ابنتها ستكـون من اليوم في أمان، لكنها لم ترد أن يختلط عليها الحلم بالواقـع، فأبعدته جانبًا وتعاملت بالعقـل، سألته إن كانت الكنيسة وجدت ابنتها؟ صمته كان الإجابة الأبلغ، فالملاك لا يكذب ولا يصدم، لذا يفضل الصمـت، رحبت به وأدخلته ليجلس حيثما تجلس ابنتها دائمًا، ومن جديد عاودت السـؤال، لكنها في هذه المرة كانت أكثر تحديـدًا، فسألته إن كان يعـرف أنطونيوس، هذا الاسم الذي تردد طيلة الحلم في أذنها كالصدى، وانتظرت إجابة حاسمة، فالملاك لا يكذب ولا يصدم.

كانـت دميانة قد حكت لأمها عن أنطونيوس الذي رأته في الدير بسمت الملائكة، هادئ وبسيط لكنه في نفس الوقت يعمل قاتلاً مأجورًا، كان ذلك قبـل أن يدعوه إيمانويل الطيب للتخلي عن حياتـه والمجيء خلفه، لم تكن دميانــة تعرف سببًا لحكيها عنه، لكنهـا كانت تدرك أنه سيصبح جزءًا من حياتها، فثمة تآلف بين روحه وروحها، ثمة لهفة عليه، وارتجافة نحوه، ثمة يقين بأنهما سيرتبطان معًا، لكن كيف؟ هذا ما لم تكن مخيلة دميانة ولا أمها قادرتين على تصوره.

لكـن الأيام دائمًا ما تفصحِ عما كانت تخبئـه، فها هو أنطونيوس الحلم والحقيقـة يجلس أمامها بديلاً عن ابنتها، يجلس بخجلِ راعٍ بسيط في نفس مـكان دميانة، وربمـا جاءها بديلاً عنهـا، فالرب أَعطـىً والرب أخذ، والــرب معنا في الضيــق والفرج. هكذا هزت رأسهـا لنفسها وهي تعد له شيئًا يأكله.

فهمت منه أنه ترك الدير بعد وفاة صديقه باخوميوس، هذا الذي حدثتها دميانة عنه أيضًا، وفهمـت أنه الآن مطارَد وربما متهم بقتله، فأيقنت أنه في نفســ الجب الذي سقطت فيه دميانة، وراودهـا شعور بأن تحسن إلى ابنتهـا فيه، فعرضت عليه أن يبيت الليلــة بشقتها، حين علا وجهه الحرج من المبيــت في منزل سيدة وحيدة، قالت إنهـا في منزلة أمه، وأنه راهب وهــب حياته كلها للرب، وهذا البيت طالمـا كان مسكونًا بأناس آمنوا بالله على طرائقهم المختلفة، فلم لا يكون واحدًا منهم؟!

في المســاء جلس في مكتب صلاح متري يقيم صلواته الخاصة، ثم أوى إلى كنبــة بجوار المكتبة ليفرد عظامه عليهـا، كانت عينه معلقة على أيقونة العذراء المعلقة في مواجهته، ظل يتأمل ملامحها التي رأى أنها تشبه ملامح دميانــة كثيرًا، لكن دميانة جاءته باكية، رأى جسدها متعريًا وهي تبكي، وخشــي عليها من الثعابين التي تتقافز نحــو قدميها، صرخ فيها أن تنتبه، ودلهـا على أماكن الخروج، لكنها لم تكن تسمعــه، ولم يكن أمامه إلا أن يلتقط الثعابين بيديه ويلقيها للسماء، وفي غمرة حماسه شعر بلدغة في قدمه فانتفض جالسًا في مكانه.

نهضــ من الفراش ملقيًا اللعنة على الشياطين وأباطيلها، مستجيرًا منها بالسيد المسيح، باحثًا عــن مكان غير جمرة النار التي نهض منها، لم يكن هناك سوى كرســي من البلاستك أمام منضدة عليها شاشة كمبيوتر، لكنه فضــل أن يجلس على كرسي المكتب، باحثـا بعينيه عن شيء يساعده على نسيــان ما رآه، كان المكتب مليئًا بكتب غريبــة، قلب في عناوينها فوجدها جميعًا في القانون، لكن عينه وقعت في النهاية على عنوان كبير "دفاعًا عن أوريجانوس"، كان على مجموعة كبيرة من الورق المطبوع بالكمبيوتر، والموضــوع في ملف بلاستيكي شفاف، دقق بنظــره باحثًا عن مؤلفه ولم يصدق أنه "صلاح متري المحامي" والد دميانة.

مــا إن انتهى من قــراءة ما كتبه صلاح متري عــن أوريجانوس حتى شعــر أنه أصبح شخصًا مختلفًا، فنهض مــن مكانه باحثًا عن النافذة ليلتقط هواء الصبــاح الجديد، كان النهار قد ظهر بضوئــه الحليبي في الخارج، وأخــذت أصوات العصافير تظهر على استحياء في الشارع، وسرعان ما تعالت بعض الصيحــات هنا وهناك، تمنى لو أنه يستطيع الخروج الآن، لكنــه لم يرد أن يكــون ضيفًا مزعجًا، فألزم نفســه بالبقاء في كرسيه حتى طرقت عليه تريزا الباب، وجدها أعدت فطورًا وجلست تناقشه في خطتها للبحث عن دميانة، بعدها نهضا متجهين إلى الكنيسة الأم، حيث الردهات المليئــة بالأساقفة والقساوسة والعاملين في المكان، قالت إنها ذهبت من قبل وعادت كسيرة الخاطر، بعدما شعــرت أنها تتسول الاطمئنان منهم على ابنتهــا، هز أنطونيوســ رأسه مؤكدًا أنه لن يتركهــا تخوض هذه الحرب وحدها من جديد.

مــا إن وصلا للكنيسة حتى غابا في الردهة الكبيرة الطويلة، كان يتلقى التحية بوصفه قسًا، لكنه من داخله كان يرتعد كهارب في شوارع المدينة، مــا إن وصلا إلى مكتب أسقــف التحقيقات الكنسية حتــى طلبا لقاءه، لكن القس الذي يتولى إدارة مكتبه نادى تريزا:

– كنت هنا من قبل؟

نظرت إليه تريزا بتحد وحزن:

– ابنتي مختفية منذ شهر.

وقبل أن يفتح القس فمه كان أنطونيوس قد تدخل:

– أنا من دير الملاح، وهي مختفية بالفعل.

نظر الأسقف إلى أنطونيوس طويل القامة ذي اللحية الكثة والرداء الكهنوتي، ثم أمر أحد العاملين في مكتبه لإحضار مقعد للسيدة والقس، متوقفًا في نطقه لكلمة القس وكأنه يتساءل عن اسمه، وبتلقائية شديدة أجابه:

– أنطونيوس.

سأل تريزا عن اسم ابنتها والدير الذي كانت تعمل فيه، ثم سأل أنطونيوس إن كان من رهبان هذا الدير أم لا، وشعر أنطونيوس أنه أمام تحقيق، وأن قدمه انزلقت أكثر مما ينبغي، ففضل الصمت على الكذب، وتدخلت تريزا لتجيب نيابة عنه موضحة أنه ابن أختها، ويعمل راعيًا لكنيسة في المنصورة، فهز أنطونيوس رأسه وكأنه يؤكد كلامها.

وضع مدير المكتب ابتسامة لزجة على وجهه وهو يستأذنها للدخول إلى الأسقف، ولم يستطع أنطونيوس أن يمنع نفسه من الابتسام حين لمحه يتحرك كبرميل صغير نحو الباب الفاصل بين مكتبه ومكتب رئيسه، لكنه ما إن أغلق الباب خلفه حتى مالت تريزا منبهة أنطونيوس إلى أنه رجل شرير، فاشتعلت حواسه، وراحت عيناه تتنقلان في المكان، رأى أن الحركة غير عادية، وأن عدد الضيوف المنتظرين قد تضاءل، فأدرك أن ثمة من يمنع الناس بالباب من الدخول، لم يحتج الأمر كثيرًا من الوقت كي يدرك أنه عما قليل سيواجه مشكلة في المكان، فطلب من تريزا أن تسبقه إلى البيت، وما إن خرجت أمسك بنسخة من الكتاب المقدس وأخذ يترنم:

– ها أنت جميلة يا حبيبتي، ها أنت جميلة، عيناك حمامتان من تحت نقابك، شعرك كقطيع معز رابض على جبل جلعاد، أسنانك كقطيع الجزائز الصادرة من الغسل اللواتي كل واحدة متئم وليس فيهن عقيم،

شفتـاك كسلكة من القرمز، وفمك حلو، خـدك كفلقة رمانة تحت نقابك، عنقـك كـبرج داود المبني للأسلحة، ألـف مجن علق عليـه، كلها أتراس الجبابـرة، ثدياك كخشفتي ظبية، توأمين يرعيـان بين السوسن، إلى أن يفيـح النهار وتنهـزم الظلال، أذهب إلى جبل المـر وإلى تل اللبان، كلك جميل يا حبيبتي ليس فيك عيبة.

كان صـوت أنطونيوس رخيمًا وقويًّا، وكانت صورة دميانة في عينيه وهـو يتصبـب في حبها، لم يكن يقـرأ بقدر ما كان يستحضـر روحها إلى جانبـه، لم يكن منتبهًا إلى أن الشمامسة والموظفـين والعابرين في الردهة الواسعة قد توقفوا لسماعه، وأن الأسقف الكبير خرج من مكتبه ليراه وهو يتغني بحبيبته الغائبة وسط حلقة كبيرة:

– مـا أجمل رجليك بالنعلين يا بنت الكريم، دوائر فخذيك مثل الحلي، صنعـة يـدي صناع، سرتك كأس مدورة لا يعوزها شـراب، ممزوج بطنـك صبرة حنطة، مسيجـة بالسوسن، ثدياك كخشفتـين توأمي ظبية، عنقـك كبرج من عـاج، عيناك كالبرك في حشبون عنـد باب بث، ربيم أنفك كبرج لبنـان الناظر تجاه دمشق، رأسك عليك مثل الكرمل، وشعر رأسـك كأرجوان ملـك قد أسر بالخصـل، ما أجملك، ومـا أحلاك أيتها الحبيبة باللذات.

لم يكـن أمام الأسقف إلا أن أخذ يصفق محاولاً إنهاء إنشاد أنطونيوس البديـع، وتفريق الناس من حوله، لكن الأخـير تحرك نحو الباب مكملاً إنشـاده بين مستمعيه، كانت ترانيمه القويـة الباكية المتصببة تزداد روعة كلمـا خطا خطـوة في الردهات، حتى أن الجميع ظـن أنه راهب منجذب بالبتـول مريم، فما بين مـادح وما بين متأسٍّ لحالـه، تركوه يتحرك في الردهـة نحو البـاب الخارجي، ولم يملك الأسقـف ولا أي من رجاله أن يعترضوه، فخرج أمامهم ليذوب في الشارع الكبير.

-٢٥-

ثمــة أمران حالا دون أن تلقي مريانــا بضيفتها من فوق الجبل وتنتهي من أمرهــا، كان الأول خوفها من مساءلة الشرطــة لها، فقد جاءتها عن طريقهــم، وربما كانت عينًا لهــم لمعرفة أسرار الدير، الأمــر الثاني أنها حــين طالعت الكراسة التي وجدتها الأخوات في قلايتها قرأت اسم صلاح متري، وحــين سألتها عنه أخبرتها أنها ابنته، للحظة فكرت مريانا في أن الدنيا قد تكون صغيرة إلى هذا الحد، فصلاح متري أحد المؤسسين لجماعة الأمة القبطية، فهل يمكن أن تكون ابنته حقًّا؟

في سريــة تامــة أرسلت مريانــا في لقاء الأب يؤانس كــي تشرح له ما جــرى، وكان عليها أن تنتظر يومين قبل أن ينتقل من دير درنكة ليجيء قلايته القديمة في الجــزء الخلفي من دير النساخ، فحملت في يدها الكراسة وما بها من حكايات وأسماء، وأمرت بفتح الباب السري الفاصل بين دير الراهبات والجزء الذي اختبأ فيه الرهبان حين أمر يوساب الثاني بإغلاق الدير، لم يكن إيمانهم بفكرة النسخ التي أفنوا فيها أعمارهم هو وحده الذي يلزمهم بالبقاء قريبين من ديرهم، لكن إيمانهم أيضًا بضرورة الحفاظ على رسالتهم في تقديم كل الرؤى، ســواء اتفقت مع الكنيسة أم اختلفت معها، فجميعها تبحث في وجود الله وطبيعته، ولا بد من تدبر أوجه الحكمة فيها.

كانت مريانا في سنوات طفولتهــا قد وهبت نفسها لمهنة النسخ، فجلست تتعلم وتمارس فنون التعامل مع الهوامش والمتون، لكن الدير كان قد فقد الكثير مــن قدراته، وحُرم من الراغبين في شــراء مخطوطاته، وتحول الناس لدير الشراح، حيث أحضر آباؤه مطبعتين وبدأوا في نسخ ما لديهم من أعمال، فأصبح الدير النائم على هضبة في جبال القلزم، قبلة الباحثين عن الأمهات والأصول في الكتب.

حين انفتح الباب ودخلت مريانا إلى الجانب الآخر من الجبل، رأت بعض النساخ القدامى جالسين في قلاليهم يمارسون أعمالهم بنفس الدقة والانتظام رغم تقادم العهد وتقدم العمر، وقفت أمام قلاية تبدو من الخارج متهدمة وطرقت بابها بأدب شديد، سمعت سعالاً وصوتًا يأذن لها بالدخول، كان ذلك صوت الأب يؤانس الذي تجاوز التسعين من عمره، رأته نائمًا في سريره يعاني نزلة برد، لم يكد جسده يتضح من بين ثنيات الفراش، ولولا لحيته الطويلة التي يهذبها بزيت الكافور ما عرفت عيناها الطريق إليه، حاول الاعتدال في جلسته، وهي حاولت مساعدته في النهوض، ثم حكت له ما حدث بدءًا من اتصال المأمور بها حتى عثورها على أوراق دميانة واسم صلاح متري.

ما إن تناول يؤانس الأوراق من يدها حتى كتم سعاله وبدأ يطالع ما كتب فيها، ثم أرسل بعد يومين إلى مريانا كي تعيد عليه كل ما قالته من جديد، أعطاها أذنه وعينه وجلس ينصت باهتمام لا حدود له، وحين أنهت كلامها قبض على يدها طالبًا رؤية الفتاة ليتأكد من بعض الأمور، حاولت مريانا أن توضح أن وجودها في الدير قد يعرضهم لمشكلات ينبغي تجنبها، وأن الحل يكمن في التخلص منها بطريقة لا تجعل الشرطة تطالبهم بها، لكن العجوز هز رأسه مبتسمًا، وفتح عينيه مصرًّا على رؤية دميانة، فنهضت مريانا من مكانها كلبؤة في طريقها إلى فريسة.

تطلع يؤانس في وجه دميانة، ثم طلب منها أن تجلس بالقرب منه، حين فعلت داعبها كجد عجوز، ممتدحًا خجلها وجمال طلتها، وراح يسأل عن تعليمها، واسمها بالكامل، كانت دهشته كبيرة حين تأكد أنها ابنة صلاح متري، وببساطة سألها عن أمها تريزا، فصعقت من معرفته بها، ورأته يضحك حتى سقط طاقم أسنانه من فمه، ثم أومأ لمريانا أن تتركهما معًا، فشعرت دميانة أنه الملاك الذي أرسله الرب لإخراجها من هنا.

– وماذا عن أوريجانوس؟

سألها بدلال كما لو أنه يطلب منها الحديث عن أنطونيوس، فضحكت، وتذكرت ما كتبه والدها في أوراقه، تلك التي بفخر كتبتها في ملف على

الكمبيوتــر طبعت منه عدة نســخ، كان واحدًا منها لا يفارق مكتبه. كانت سعيدة بما قــرأت فيه، وفخورة بأن والدها شخصــص مختلف عن أقرانه، لأنــه ليس محاميًــا للفقراء فقط، لكــن كاتب له رسالة، حتــى وإن كانت رسالته عن شخص حرمته الكنيسة.

حــين لمس يؤانس يدها انتفضت مستيقظة من أحلامها، سألها عن سبب شرودها، فردت عليه بتوجس:

– من أين علمت؟

هز العجوز رأسه وكأنه يسترجع الزمن البعيد:

– كنــت مدرسًا للألعــاب، وكان والدك تلميــذي، كان صغير الحجم ولا يصلــح لشــيء، أنقذته عدة مرات من أيــدي زملائه، لكنه كان كثير الجدل، أحببته لشجاعته وعناده، ورغبته في تعليمه كيف يواجههم، لكنه فشــل، رغم ذلك صرنا أصدقاء، وحين دخلت الدير كان الوحيد من بين الذين علمتهم الذي أحضر والده وجاء لزيارتي، لذا حين فكرنا في إشهار الأمــة القبطية أصررت على أن يكون من بين المؤسسين، لم يكن يتجاوز الخامسة عشر من عمره، لكنني اعتبرته ابني الذي لم أنجبه، ودافعت عن حقه في الثورة.

-٢٦-

رسائل أوريجانوس(١١)

عزيــزي ديونسيوســ، أرسل إليك هــذه الرسالة وقــد تمكنت الآلام منــي، فأماكن القيود والجلد والكي تحولت إلى قُــرح لا تريد أن تندمل، ولا تشفع معها وصفات المجربين ولا حيل الأطباء، وزاد الأمر سوءًا أن الضلــع المكسور أسفل إبطي تورم وحرمني النوم، حتى أن نومي لا يزيد عــن غفوات وأنا جالســ على حالي، تلامذتي وأصدقائــي يعاونونني في كل شـــيء، بدونهم ما كان لي أن أكمل يومًا واحدًا على قيد الحياة، لكنني بحــق أشعر أنني أثقلت عليهم أكثر مما ينبغي، ويبدو أنه لا مفر من الموت لعجــوز منهك مثلي، فالموت سترة، المــوت دواء العظام الهرمة، سيظل الكائــن الوحيد المتاح له أن يدب علــى قدميه ليل نهار إلى أن يفني كل من على الأرض.

صديقــي، لا أعــرف سببًــا واضحًا للكتابــة إليك، فربما لأنــك أبديت رغبتــك في عودتي إلى بلادي، وربما لشعــوري بدنو الأجل، ورغبتي في الاعــترف على يديك، رغم بعد المسافة بيننــا، وربما لأنني أردت أن أترك شهادة مني للجميع بما جرى، فأنا على يقين أن الكثيرين سيختلفون حول ما جرى، وربما يراني البعض قديسًا، بينما سيراني آخرون بمثابة الشيطــان اللعين، لكنني لا هذا ولا ذاك، أنا محض رجل محب للمعرفة، لا يغلق ذهنه على فكرة بعينها، ويوقن دائمًا أنه لا عمل مكتمل، وأنه مهما كنا على صواب، فثمة احتمال وارد بأننا على خطأ، وعلينا أن نحترم هذا الاحتمال وندقق فيه مثلما ندقق في أقوالنا الصائبة، فأنا محض رجل مؤمن بالله وباحث في كل ما يتعلق به، لكنه غير مغلق لذهنه على فكرة أو قول،

مؤمن بكل ما سبق، ومؤمن بالشك فيه أيضًا، وعدم القدرة على تصديقه كاملاً، لا أدعي القداسة ولا يمكن اعتباري محض عابر في طريق خطأ.

إنني يا صديقي أراهن على الزمن، فحين ينسى الناس الخطأ فإنهم يمكنهم أن يروا الأمور بحياد واضح، وحين يتحررون من الحب فإنهم يمكنهم أن يروا الأمور بحياد واضح، تذكرت أن الخطأ والوقوع في الحب يؤديان إلى فقدان الصواب، وكلا الأمرين حدثا معي، الكنيسة ومن بها من رجالك وأصدقائك لن تنسى أنني خرجت عليها، وصرخت في البرية بخطأ ديمتريوس في استبعادي منها، مؤكدًا أنني لدي الكثير مما يستحق النظر إليه، وما أقوله ليس هراء ولا هرطقة كما يزعمون، أما أصدقائي هنا في الشرق، هؤلاء الذين عشت بينهم، وتعلموا على يدي، فلا يمكنهم أن ينفلتوا من إسار حبهم لي، وما إن أرحل حتى سيتسع الخلاف، وكل فريق سيكون فرحًا بحكمه، وهو ما سيجعل اسمي يتردد في كل بيت، ويجلب آخرين من بعدي ليكملوا ما قد بدأت، وسيضيق صدر الكنيسة بهم مثلما ضاق صدرها بي، وستلجأ إلى كتبي ورسائلي ليس للرد عليهم فقط، ولكن لإلزامهم بحدود الإيمان القويم.

أراهن على الزمن يا سيدي، وأعرف أنه سيكون في صالحي، وأخشى ما أخشاه على كنيستنا الموقرة من الثبات والجمود، أخشى عدم فتح أذهانها لاستيعاب الآخرين، هؤلاء الذين يشاركونها في البحث عن حقيقة الله، هم ليسوا كفارًا يا صديقي، هم باحثون مثلنا، ربما أخطأوا، وربما ضلوا الطريق، لكن إسهامهم أضاء مناطق ما كنا نعرفها، ولا أظن الله بكارهٍ لها، لأنها تجعل اسمه يتردد في كل بيت وعلى كل لسان، يتردد بوعيٍ وليس مجرد ترتيل أو تكرار، هؤلاء لهم شرف المحاولة، فضيلة الخطأ، لأننا لا نتعلم بغير الخطأ، ولو لم نكن مخطئين ما كنا بشرًا، وما نزل الله ليخلصنا من خطايانا.

في صباي كنت أتردد على الميوزيوم، وأنصت لفلاسفة الرواقيين والأفلاطونيين، مثلما كنت أتردد على إكلمندس، ذلك الذي جلس أمامي ذات يوم قائلاً:

– ليســت الغنوصية كل الغنوصية على خطــأ، هي فقط تأثرت ببعض أفــكار الوثنيين واليونانيين، لكنهــا في مجملها ترى الله بعين محب وليس كاره، هــي مــع الله وليست ضــده، فجنوسيس تعني المعرفــة الروحية، وهــي خليط من فلسفات اليونــان والفرس واليهود، وهــي التي حافظت علــى انتشار المسيحية في مهدهــا الأول، وبدونها ربمــا لم يكن للناس أن تعشــق المسيح، كان سيمون الساحر الوارد ذكره في سفر أعمال الرسل، هــو الغنوصي الأول، شرح من خلالها أصل ومصير الروح، فقد كانت في البدايــة في عــالم سماوي منير، لكنها سقطت فجــأة من هذا العالم المنير إلى الأرض، فأصبحت سجينة الجســد الحسي، وتأثّر الإله الأعظم تأثرًا كبيرًا لسقوطها، فأرسل المخلص ليخلصها من هذا السجن، فاتخذ المخلص مظهر الإنسان، لأن الإله لا يمكن أن يتحد بالمادة المرئية، فاستطاع بهذه الطريقة أن يعلن للعارفين أنهم من عالم سماوي.

لم يكــن إكلمندســ يبشــر بالغنوصيــة التــي انتشرت في زمانــه، لكنه تعلــم منها طريقــة جديدة لشرح الكتاب المقدس، طريقــة لرؤية العالم من حولــه، فالغنوسية تؤمن بثنائية الخير والشر، ومــن ثم ينقسم العالم لديها إلى مملكتــين، الأولى مملكة النور، وفيها الإله السامي الذي خرجت منه طاقات متنوعة الدرجات، أما الثانية فهي مملكة الظلام التي يسيطر عليها إبليس برفقــة أعوانه الشياطين. الغنوصيون يــرون أن المادة شر، وكل اتصــال بما هو مادي شر، وإله الخــير بعيد كل البعد عن المادة الشريرة، لذا يرفضون القول بأن المسيح اتخذ جسدًا ماديًّا، ويقولون إنه أخذ مظهرًا جسديًّــا، كان هذا التفسير منتشرًا في زمن يوحنــا الرسولي بأفسس، فرد عليهــم بالآية الرابعة عشر مــن إنجيله قائلاً "والكلمة صــار جسدًا، وحل بيننا، ورأينا مجده، مجدًا كما لوحيد من الآب، مملوءًا نعمة وحقًّا".

إكلمندســ درس لي هــذا، ولم يخَف عليَّ من الوقــوع في الزلات أو الإيمــان بالهرطقات، لأنه كان يؤمن أن الاطلاع على فكر الآخر أفضل طريقة للحماية منه، لم يكن الخوف قد عرف طريقه بعد إلى قلب كنيستنا،

ولم يكـن ديمتريوس الكرَّام أصبح ذلك الشيخ الهرم الذي يؤمن بأن المنع أولى، والتحـريم أفضل، كان لا يزال شابًّـا قويًّا، يفرق بنور القلب بين المخطـئ والمصيب، لكنـه الزمن، هذا الذي أراهن عليـه، هو نفسه الذي يجعل الخلايا تضعف وتتشبث بكل ما كان يرشدها نحو الصواب، تتمسك فقـط بالطـرق المعتـادة والبعيدة عن الرهـان، هذا ما آملـه منك في فترة رئاستك للكنيسة الأكبر والأكـثر وعيًا ونضوجًا بين غيرها من الكنائس، الكنيسة التي تحمل الآن ميراثًا عظيمًا من مواعظ الآباء والقديسين وتقاليد الإيمـان القـويم، هـذا الإرث الـذي بقدر مـا سيحميها من الخطـأ، فإنه سيكبلها، وقد يخرجها من دائرة التفاعل مع الزمن.

صديقـي.. أشعر بمشقة في إملاء الكلمـات، فجروحي تنزف، وألمي يزداد، وصدري يضيـق، ولا أعرف متى سيأتيني الموت، أشعر بمشقة لكننـي أرغب في الحديث معك، لدي كثير مما يجـب أن يقوله عجوز في مثل سني، لو قيض لي أن أتعافى قليلاً، أو أهرب نفسي من الألم على نحو أو آخر، فإننـي سأقص عليك ما جرى لي بعد خروجي من الإسكندرية، فقد ارتقى شأني، وزادت رغبة الناس في علمي، حتى أن كنائس الشرق والغرب صارت تدعوني لألقي عظاتي بها، وصارت رحلاتي نحو بلدان العـرب تزاد وتكثر، وانفتح فكري علـى رؤيتهم للمسيح، فرحت أمزج بين رؤية كنيستنا ورؤية كنائسهم، رؤية أصدقائنا في الشمال وأصدقائهم في الجنوب، باحثًا عن الله، باحثًا عن طبيعته، وموقفه منا، باحثًا في شأن الروح القدس، وجوهره وقدراته وسبب وجـوده، وكلما بحثت كانت الطريـق تنفتح أمامي، حتى أنني لم أعد قادرًا على العودة إلى النقطة التي بدأت منها.

-٢٧-

الحق أقول إنني افتقدت أنطونيوس في المكان، وشعرت بكم أنا وحيد، لا علاقة حقيقية تربطني بأحد هنا، والحق أقول أيضًا إن وحدتي ورعبي ازدادا بعدمـا علمـت أن موتي لن يهـم أحد، فأنا بلا شهـادة ميلاد، ولا وجود لي في أوراق الحكومة، إذا غبت فلن يفكر أحد في غيابي.

كانـت رأسي تـدور بالهلاوس عن طريقة قتلـي، وشعرت أنني ليس أمامـي سوى أن أسايـر يوساب ورجاله في كل مـا يريدونه، فعدت إلى المكتبـة أسجل أسماء الكتـب ومؤلفيها، وأسماء البطارقـة الذين كتبت في عهودهم، كان عملاً مضنيًا تصورت أنني تخلصت منه منذ عدة سنوات، حـين طلب مني إيمانويـل إعادة تصنيف المكتبة، فطلبـت منه عمل أرفف تتسع لتصنيفهـا، وعكفت على توزيعها حسـب الموضوعات والعصور، وأعـددت لنفسي مكتبًا يليـق بكاهن ذي شأن في الديـر، وجعلت فراشي بجانبـه، فصارت المكتبة بيتـي الذي أختفي فيه عـن الناس، ولولا كوني كاتبًا لتحقيقات الدير ما خرجت منها.

انهيت قائمة طويلة بالكتـب المتاحة في المكتبة، وتوجهت بها بعد يومين إلى قلايـة يوساب، محاولاً الإعراب عـن اندماجي في مجموعة التابعين له، مكفرًا عن خطيئة أنني كنت صديقًا لأنطونيوس، وما إن رآني الرجل حتى ابتسم ونهض لاستقبـالي، تفاءلت خيرًا وقلت إنني قطعت مسافة في إقناعـه بإخلاصي، مددت يـدي بقائمة الكتب فأخذهـا وألقاها على مكتبه دون أن ينظر فيها، وكأن الأمر لا يعنيه، أو لم يكن مطلوبًا من الأصل، ازدردت ريقـي وتأسفـت لنفسي وفكـرت في العـودة إلى مكتبتي، لكن

الرجل جذبني من ذراعي ليجلسني في الكرسي المواجه له، ثم سألني إن كنت قد خرجت في نزهة خارج الدير من قبل؟ ارتبكت للحظة، وشعرت أنه يفكر في الخلاص مني، ويبدو أنه انتبه من ارتباكي لما فكرت فيه فربت على فخذي قائلاً:

- لا، لا تقلق... فقط جد أمر بسيط قد يستدعي ذهابك أسيوط.

عاد الهدوء إلى نفسي وتذكرت رسائل أوريجانوس التي أرادني المنحني أن أوصلها لصديقه هناك، قلت إنني ذهبت مرة في صغري مع باخوميوس، ولا أعرف الطرق، فنهض من كرسيه مبتسمًا وهو يقول:

- الأب جورج يريدك أن تذهب برسالة منه إلى بعض أصدقائه، وأنا أريدك في مسألة أكثر أهمية.

ارتسمت معالم الدهشة على وجهي، ولم أعرف بمَ أجيب:

- تحت أمركما.

هكذا قلت، فاتسعت الابتسامة في وجهه كما لو أنني كافأته على شيء لم يتوقعه، إلا أنه فجأة أغلق فمه وجز على فكيه كما لو أنه يعاني حالة من التشنج قائلاً:

- تصور أن صديقك أنطونيوس قدم بلاغًا يتهمنا فيه بقتل دميانة؟

وقعت الجملة على سمعي كحجر ارتطم في وجهي، فتركني الرجل أستوعب ما سمعت وأخذ يتأمل ملامح وجهي، فرسمت كل ما أملك من معالم الدهشة، وأنا لا أعرف هل أدافع عن أنطونيوس أم أصب عليه اللعنات، ووجدتني كفأر في مصيدة أحاول المراوغة والتفوه بكلمات بعيدة عن مشاعري وما يدور في ذهني، لكن أيًّا من ذلك لم يُجدِ، فقد اتخذ الرجل قراره بأن أذهب إلى أسيوط كي أثبت لمسئولي التحقيق هناك أن أنطونيوس كان قاطع طريق، وأنه المرشح الأول لقتلها.

كنت أسمع ولا أتفوه، متخيلاً أنني السكين التي ستقطع عنق صديقي،

فظللت أزدرد ريقي، بينما يوساب يهون الأمر ويشرحه بطرق مختلفة، فأهـز رأسي متجاوبًا معه تارة، وشـاردًا عنه تارة أخرى، حتى طالبني بالحديـث. كان خوفي قد منع صوتي من الخروج، لكن عينه تحولت من نظرة الود إلى الزجر، فسألت مستوثقًا:

- هل فعل أنطونيوس ذلك؟

تنفسـ الرجل الصعـداء وكأنه كان يتوقع مني الرفضـ، ثم أخذ يقسم بالمسيـح أن هذا ما حـدث، وأن هذه فرصتي كي أثبـت ولائي له وللأب جورج والدير كله:

- هل أنت معنا أم لا؟

فأجبته وأنا شبه منوم:

- معكم.

تركـت الرجل ينـام في قلايتـه مطمئنًـا، وخرجت أبحث عـن نسمة هـواء على حـواف الهضبة، ألقيت بنظري نحو القـلالي المصفوفة كسور مطـل علـى المطبعة والمقابـر في الأسفل، تذكـرت الليلة التـي هرب فيها أنطونيوسـ، تصورته مـا زال يهرول بين المقابـر وأرض المطبعة هربًا مـن رهبان يوساب، ورغمًا عني بحثت عـن قلاية باخوميوس الحبيب، كما لو أنني رغبـت في التأكد من أنها ما زالت على حالها، وللحظة رأيته جالسًـا أمامها كما كان يفعـل ساعة الغروب، حتى أننـي كدت ألقي عليه التحيـة، لكني انتبهت إلى أن القلاية مغلقة وأنـه غير موجود، فاستدرت بوجهي وتسحبت بأقدامي بعيـدًا في طريقي إلى المكتبة، ولم أكد أجلس في مـكاني حتى ظهر على الباب اثنان من رهبان يوساب، كانا طويلي القامة مفتولي السواعد، أومأ لي أحدهمـا برأسه كنوع من التحية، فأجبته بالمثل وأنا أسأل نفسي عن نوع الشر الذي يتدحرج في أقدامه نحوي:

- الأب يوساب يريد محاضر التحقيقات التي لديك.

رفعـت رأسي محـاولاً الاستفسار إن كان يقصـد التحقيق مع شخص بعينـه أو في فترة بعينها، لكنه أكد أنه يريد كل محاضر التحقيق، فنهضت مـن مكاني وذهبـت إلى رف كنت قـد خصصته للدفاتر التـي سجلت فيها

التحقيقات، حين أشرت إليها أزاحاني جانبًا وحملاها بين أيديهما وخرجا.

شعرت أنني مهما حاولت أن أنتمى إلى يوساب ورجاله فإنني سأظل غريبًا عنهم، شعرت أيضًا أن كل ما أخشاه آت لا محالة، فأنا بالنسبة لهم شخص بلا ثمن، ولن يسأل عني أحد حال غيابي أو اختفائي، لكنني لا أعرف ما الذي يمكنني عمله، أغلقت باب المكتبة على نفسي وجلست أتأمل حالي، كان الضعف يتصاعد بداخلي كفيضان شديد، حتى أن أعصابي انهارت فجأة، وأخذت أعضائي ترتجف كورقة شجر في فصل الخريف، وسرعان ما انخرطت في بكاء أعقبه نشيج طويل حتى فقدت وعيي.

لم أستيقظ إلا في منتصف الليل ناسيًا كل شيء، فقط وجدتني أعاني صداعًا خفيفًا، لكنني على كلٍّ صرت في مزاج أفضل، وطاقة أكثر حيوية ونشاطًا، حتى أنني لم أشعر بالرغبة في معاودة النوم، وأدركت أن جسدي يطلب الخروج لتنسُّم الهواء في فضاء الدير، فجلست أمام المكتبة كما كان باخوميوس يفعل أمام قلايته، كان الهلال يفرش ظلال القلالي على الأرض، فرحت أرقبها متأملاً أطوالها وهيئاتها، لكنني فجأة لمحت ظلاً طويلاً يتنقل من قلاية باخوميوس إلى قلاية يوساب، لم يكن ظلاً واحدًا، فقد تبعته عدة ظلال تتسحب بجوار الجدران، أخذ الفضول يغذي مخيلتي ولم أستطع أن أتمالك نفسي، فنهضت لأعرف ما يجري، ورحت أسير بنفس الطريقة في ظلال القلالي.

كان الدير يغط في نوم عظيم، ولم يكن لأحد أن يتوقع أن ثمة من هو مستيقظ في ذلك الوقت، وبدا أنهم عما قليل سيعودون إلى قلاية باخوميوس من جديد، فقد تركوا الباب مفتوحًا، حاولت أن أقنع نفسي أنني تجاوزت الحدود المسموح بها للتطفل، لكن شيئًا ما كان يدفعني للدخول، دفعت الباب بهدوء ومددت قدمي لأجدني داخل القلاية التي لم أدخلها منذ تنيح صاحبها، كانت الظلمة تملأ المكان، لكن كانت ثمة ثغرة نور قادمة عبر الفجوة التي أحدثها أنطونيوس، وعبر من خلالها بحبال باخوميوس إلى أسفل الهضبة، حين نظرت إليها شعرت أن عيني اعتادت الرؤية بدرجة ما، رأيت السرير في المنتصف، ورأيت في السقف عود الحديد الذي تدلت منه مشنقة باخوميوس، وفي ركن بعيد كانت كومة كتب قديمة تنام على

الأرض، وسرعان ما شعـرت أن ثمة أقدامًا تقـترب، ولم يكن أمامي سـوى الخروج من ثغرة أنطونيوس، حيـث المطبعة والمقابر في الأسفل، تمسكـت بالجدار ودفعت نفسي خارج القلايـة، كانت ثمة مساحة لا تزيد عـن شبرين بين القلاية وحافـة الهضبة، ألصقت نفسـي بالجدار وكتمت أنفاسي وأنا أرتعد خوفًا من أن يعرفوا طريقي.

كان الداخلـون هـم أصحـاب الظلال، عددهـم نحو ثلاثـة أو أربعة رهبان، جاءوا محملـين بكتب وضعوها بجانب الكومة السابقة، وسمعت أحدهـم يهمس لآخر أن يضع الدفتر الذي معه بين الكتب، بحيث لا يرى إلا بعـد البحث عنه، كنت أسمـع همسات تعليماتهم لبعضـ، حين انتهوا خرجـوا وأغلقـوا الباب، فكرت سريعًا في أن أخـرج قبل أن يعودوا من جديـد، لكن الباب كان قد أغلق من الخارج، ولم أشعر بثقل الكارثة التي وضعت نفسي فيها، فقد أخذت أتلمس الضوء الخفيف المتسرب من الفجوة الصغيرة لأنظـر في العناوين، كانت المفاجأة أنهـا كتب تخص الغنوصية والأبيونيـة والماركونيـة والانتحاليـة والسابليـة، وبعضهـا يعـود إلى أوريجانوس كالمبـادئ والتفسيرات، وبعضها يخص أريوس كالأشعار، وفي واحـد منهم عثرت علـى كراسة صغيرة كتب عليهـا بخط قلم جاف "اعترافي الأخير".

لا أعـرف لم أعـدت ترتيب الكتب كما كانت، بينمـا وضعت الكراسة الصغـيرة أسفل جلبابـي، وبدأت أفكر في الخـروج، كان من العسير أن أحـاول فتح الباب، ولم يكـن أمامي سوى ثغـرة أنطونيوس التي أحدثها في الجدار، فمددت نفسي وخرجت منها إلى الفضاء الواسع، كان الهلال قـد انحنى أكـثر في الأفق وبدا أنه يوشك على الـزوال، وقفت إلى جانب الحائـط من الخـارج متمنيًا على المسيـح ألا أموت ميتـة شنعاء، وأخذت أتحرك وأنـا ملتصق بالحائط حتى وجدت جدارًا به نتوء، فشمرت ثيابي وربطهـا على وسطي كفلاح في حقـل، وتسلقت بخوف لا حدود له حتى صـرت فوق النتوء، ومـددت نفسي حتى تلمست سطـح القلاية فتمسكت بـه، وحاولت حتى نجحت في الصعـود، وكان علـيَّ أن أظل في مكاني مختبئًا إلى أن يختفي القمر تمامًا ويسود الظلام.

-٢٨-

عاد الجميع مــن مجمع نيقية وكلهم شعور بالفرح والانتصار، فقد أقر المجمع لائحة الإيمان، وحكم بإدانة أريوس وتعاليمه، وزاد الإمبراطور بأن أمر بنفيه، ويبدو أن غضب قسطنطين عليه كان شديدًا، فقد سيق مكبلاً في السلاسل من نيقية إلى نيقوميديا، ومن هناك تم نفيه إلى الليريا، كان كل ما جرى مرضيًـا لألكسندروس، هذا الذي بقي في نيقية بعد انتهاء المجمع حتى ودع جميع الأساقفة والكهنة وهم في طريق العودة إلى أوطانهم، ثم استـأذن الإمبراطور وأسقف نيقية في العـودة إلى الإسكندرية، فخرجت بنـا السفن في موكب بهجة وسـرور، فظللنا ننشد التراتيـل طيلة الطريق فرحًـا بسقوط أشباح الشر، لكن أثناسيوسـ كان يقول إن الصعب لم يبدأ بعـد، فقد زرعوا الكثير من الآلام في الطريـق، وعلينا نزع الشوك من الأقدام.

لم يكــن رفائيــل مستوعبًـا ما قاله صديقــه، وبالأحــرى لم يكن مهتمًّا بالتفكـير في ماهية الشـوك والآلام، فقد أغلق على نفســه قمرته بالسفينة وأخــذ يراجع حصيلة الكتب التي جمعهــا، كتب عن الأبيونية والماركونية والبنويونيــة والغنوسيــة والأفلاطونيــة والوثنيــة القديمــة، كتب تشرح رؤيتهــم للعالم على نحــو مخالف لما تقره الكنيسة وتــراه. كان يتسلل من بــين الآباء والأساقفة في المساء ليبحــث عن ناسخي الكتب متفقدًا ما لديهم، وكلمــا وجد عملاً مهمًّا لم يستطع أن يمنــع نفسه عن شرائه سواء كان من أعمــال القديسين أو الهراطقة العتاة، حتــى تحصلت لديه كومة كبيرة من الأعمال وضعها في جوال كبير وحملها إلى قمرته، حين فاجأه أثناسيوس وهو يخبئها قال له أن الإمبراطور لو رآها لحكم عليه بالنفي مع أريوس، فضحــك رفائيل مؤكدًا ضــرورة دراسة الهراطقــة وأعمالهم كي نعرف

علــى أي حجة يستندون، فرفع أثناسيوس حاجبيــه دهشة ثم أغلق القمرة على صاحبه ومضى.

كانــت الآلام والأشــواك التي تحدث عنهــا أثناسيوس تكمن في تطهير الكنيســة من الأريوسيين والميلتيوسيين، ومــن ثم فقد بدأ بإرسال نسخ من لائحة الإيمان إلى رؤساء الكنائس، مطالبًا بنسخها والعمل بها، مؤكدًا أن من يخالفها سوف يحرم وينفى، ولأنه كان عليه أن يتأكد من وصولها إلى الرؤســاء بأنفسهم، فلم يكن أمامه سوى أن يرســل أكثر الناس ثقة وقربًا منــه، ولم يكن هنــاك سوى رفائيل الذي يمكنه أن يأتمنــه على رحلة تبدأ من الإسكندرية إلى الأسقفيات والكنائس والأديرة البعيدة في بلاد النوبة، مرورًا بالمدن الخمس وصحراء الإسقيط والقلمون وجبال القلزم وأرض الفـيروز، فخرج في رحلة طويلة مع ثلاثة من الشمامسة ليسلموا الكنائس نسخهــا، وكانت خطته أن يبدأ رحلته من جبــال القلزم، حيث قرر حمل كتبــه إلى دير الملاح، فهــو المكان الأكثر أمانًا بالنسبــة إليه، وحيث الحلم الــذي تمناه أستــاذه ديمتريوس بــأن يصبح دير الملاح قبلــة من يريدون العلــم، كان ديمتريوس قد ظهر له في منامه صامتًا وحزينًا، حتى أنه قلق عليه، فقرر الذهاب لرؤيته، متخذًا النيل حتى وصل إلى منف، ومنها إلى كلسيما على بحر القلزم، ولم يتوقف في كنيسة أو دير لأكثر من يومين.

كانــت قلالي الديــر تعطي ظهورهــا من علــى الهضبة العاليــة للقادم للمــكان، حتى أن الذي يمر لا يكاد يــدرك أن الهضبة عليها حياة، فحتى مخــر السيل الذي يتسلقه الرعاة في طريقهم إليها جرف الماء الأحجار التي وضعوهــا للصعــود، فوقف أريوســ متأملاً المكان وكأنــه غريب عليه، متفكــرًا في كيفية الصعود، لكن أحد الشمامسة المرافقين له نبهه للبكرة التي ثبتها أبانوب على جانب الهضبة، فتصايحوا باسم أبانوب حتى أطل عليهم بعضــ الرهبان، وجهوا الرافعة نحوهم لتنزل منهــا شبكة في أسفلها لوح خشبي عريض، فوضع رفائيل ورفاقه رحالهم بها وصعدوا.

على الهضبة تلقاهم أبانوب بالأحضان والقبلات، وأخذ يدور بهم على قلالي الرهبان قائلاً:

- هذا رفائيل... صاحب أثناسيوس والبابا ألكسندروس.

كان رفائيل يضحك مؤكدًا أن صاحبه يبالغ، والآخر يقسم إنه يقول الحقيقة، حين سأله رفائيل عن ديمتريوس الصغير أبلغه أبانوب أنه مريض، ولم يخرج من قلايته منذ شهور، فالسعال يلازمه، وصدره يشد عليه من أدنى مجهود، تركه رفائيل وخفَّ خطاه إلى قلاية ديمتريوس، وجده هزيلاً أكثر مما كان، وبدا أن نور عينيه آخذ في الانطفاء، إلا أنه نهض من مكانه فور سماع صوت رفائيل، فقام ليحتضنه ويقبله، وعلى ضوء ما تبقى له من نور في عينيه أخذ يدقق في ملامحه وكأنه يطبع صورة جديدة له في ذهنه، ثم دخل في نوبة سعال طويلة قبل أن يطلب منه أن يحكي له ما جرى في نيقية، فبعض الأمور لم تكن الرسائل توضحها.

مكث رفائيل في دير الملاح نحو أسبوعين، حكى فيهما لديمتريوس عن كل شيء، ثم ذكره بحلمه القديم حين أرسله ليتعلم في الميوزيوم بالإسكندرية بأن يصبح دير الملاح قبلة الراغبين في العلم، قائلاً إنه جمع من نيقية كل ما وقعت يده عليه من كتب مهمة، حتى لو قيل إن أصحابها مهرطقون أو على خلاف مع الكنيسة، فمعرفة أفكار المهرطقين لا تقل أهمية عن معرفة أفكار القديسين لراغبي المعرفة، لأنها ستخبرنا عن الطرق التي يدخل من خلالها الشيطان إلى عقل الإنسان وقلبه، وكيف يمكننا أن نسد هذه الثغرات ونرد عليها، لكن هذه الكتب وما سيتلوها لا ينبغي أن تتاح لحديثي الإيمان، لأننا في محيط من الرعاة الذين كانوا مؤمنين بديانات وثنية، وسوف يجدون فيها ما يفتنهم، فتضل عقولهم وتتشابه عليهم الهرطقة مع الإيمان الصحيح. لذا لا بد من حفظها بعيدًا عنهم، في مكان لا يصل إليه إلا كبار الرهبان ومن يمكنهم فهمها وتبسيطها للناس.

كان أبانوب يسمع ويفكر في الطريقة والمكان الذي يمكنه أن يضعها فيها، فقال متحمسًا لرفائيل أن كل ما يحلم به سينفذ، حتى لو صل الأمر إلى أن ننقب الجبل ونضعها فيه، كانت الكلمة عفوية وصادقة ككل ما يرد على ذهنه، لكن ديمتريوس نظر إلى رفائيل مبديًا إعجابه بالفكرة، وتساءل ساخرًا عن كيفية تنفيذها، فضرب أبانوب على صدره بحماس:

– بمشيئة الرب نفعل.

ضحـك رفائيـل ونهضـ باحثًا عـن رفاقـه، طالبًا منهـم أن يجهزوا أغراضهم، لأنهم في الصباح سيقصدون ليكوبوليس وكهنتها الأريوسيين.

أمضـى رفائيل ورفاقـه أربعة أشهـر يجوبون البلاد مـن شرقها إلى غربهـا، ومن شمالها إلى جنوبها، ثم عادوا إلى الكنيسة ليجدوا أثناسيوس في انتظارهـم، أبلغـوه بكل ما رأوا وما سمعوا، فقـد كان الغضب يجتاح كنائسـ ليكوبوليس والمدن الخمس وأديـرة الإسقيط، بينما الفرح يسيطر على كنائس الدلتـا والقلزم وطيبة، أما أرض الفـيروز فقد انقسمت على نفسهـا تجاه أريوس وآرائه، لكـن أثناسيوس قلل من شأن الغضب مؤكدًا أن شيئًـا لن يحدث، وإذا حدث فجيوش الإمبراطورية ترابط على مقربة مـن الجميع، وافقه رفائيل على ما قاله ثم أوى إلى فراشه باحثًا عن النوم عبر تراتيل المساء التي تهادت إلى مسامعه.

كان الأب ألكسندروسـ قـد دخـل في نوبـة مرض شديـد، حتى أن المحيطـين به توقعوا أنه سيفارق مملكـة الأرض إلى ملكوت السماء، لكن يبدو أن مملكـة السماء رأت غير ذلك، فنهض مـن مرضه مقيمًا القداس الإلهـي، ومتابعًا شئـون الكنيسة بقوة وحزم، حتى ظـن الجميع أنه أحد الخالديـن الذين لن تصيبهم عصا الموت، خاصة أنـه أخذ في التشديد على الأساقفـة ورؤسـاء الأديـرة بمتابعة عظـات الكهان، فمن تفـوه بتعاليم أريوسـ أو غيره مـن الهراطقة عليهم أن يستوقفـوه، ومن خالف لائحة الإيمان يقومـون بطرده من كنائسهم، ومضى عـام كامل قبل أن يسقط ألكسندروسـ في مرضـه الأخير، ليسلـم الروح في وداعـة على صدر أثناسيوسـ، مبتسمًا في وجه الأساقفـة والكهان من حوله، وكأنه لم يعانِ ألمًا قط.

أخـذ أثناسيوس يدير حركـة الكنيسة، فأرسـل إلى نائب الإمبراطور مبلغًـا إياه بالخبر، كي يقوم من جهته بإبـلاغ الإمبراطور، وأخذ يرسل لرؤسـاء الكنائسـ الكـبرى كأورشليم وأنطاكيـا ورومـا والقسطنطينية وقرطبـة نيقوميدا واليونان وصقلية ليعلمهم بالخبر، ونشط الشمامسة من حوله في إبلاغ رؤساء الكنائس والأديرة في مصر، وظل الإعداد للقداس

الجنائـزي ممتدًّا لمـدة شهر، بعدها كان لا بد مـن الدفن بمباركة عشرات الأساقفـة والكهـان الذين حضروا، لكن هذه المـدة لم تخلُ من مشاورات جانبيـة للإجابة عن سـؤال: من الـذي سيخلف ألكسندروسـ في كرسي مرقس الرسول؟ وبدا على السـؤال أنه أصبح محسومًا بعدما علم الجميع أن الإمبراطور عفا عن أريوس وأعاده من منفاه.

نجـح أصدقاء أريوسـ ورفاقه من تلامـذة لوكيانوسـ الأنطاكي في إقناع الإمبراطور قسطنطين بأن صديقهم لم يهرطق، لكنه فهم الأمر من أساتذتـه في مدرسة الإسكندرية على نحو خاطئ، وما إن استوعب الأمر على وجهه الصحيح حتى أعلن قبوله لائحة الإيمان التي أقرها المجتمعون في نيقيـة، ونقلوا للإمبراطـور شهادة مغلوطة مـن أريوس اعترف فيها بصيغـة إيمـان تتشابه مع صيغـة نيقية، حتـى أن قسطنطـين الذي تابع جلسات المجمع بنفسه لم يستطع التمييز بين الصواب والخطأ فيها، فتراجع عن غضبه على أريوس وسمح له بالعودة من منفاه.

جـرى ذلك في الشهور الأخيرة من حيـاة ألكسندروس، تلك الشهور التـي انشغل فيهـا الجميع بمرض الرجـل دون أن يتوقعوا هبوب الرياح بغـير ما تشـاء السفن، ولم يعرف أحـد أن أريوس عاد مـن منفاه إلا مع مجـيء ممثلي أنطاكيا وأورشليم، هنالك بـدا الغضب واضحًا على وجوه الجميع، مما حسم موقفهم في اختيار أثناسيوس ليكمل مسيرة ألكسندروس وأرشيلاوسـ وبطرس الشهيد، فليس هناك أفضـل منه كي يقود الكنيسة في هـذه الأيام الحبلى بالمخاوف، ولم يكن أمام رفائيل سوى أن يكون في معية صديقـه، فقد ترك له ألكسندروس تركة ثقيلـة وصراعًا لا يريد أن ينتهي.

-٢٩-

اتجه أنطونيوس بعد خروجه من الكنيسة الأم إلى رمسيس، لا يعرف كيف وصل إلى هناك، لكنه كان يشعر أن كلب السماء يلهث خلفه، جاءه هذا الشعور بمجرد أن دخل مدير مكتب أسقف التحقيقات إلى غرفة رئيسه، فما مالت نحوه تريزا وهمست في أذنه حتى اقشعر جلده وتهادى إلى مسامعه لهاث الكلب السماوي، فطلب من تريزا أن تسبقه إلى البيت، ثم أخذ في ترنيم نشيد الأنشاد، لم يكن صوته قديمًا بمثل هذه الروعة والجمال، لكنه حين دخل إلى الدير وأصبح أبصالتيوص، كانت مهمته الأولى هي الترتيل والإنشاد، تعلم كيفية ترخيم الصوت، وعشق التنغيم والتأثير في المستمعين، هو نفسه لم يكن يتوقع أن لديه هذه الموهبة، لكن إيمانويل رأى أنه يمكن الاستفادة منه في شئون أخرى، وأوعز لصديقه باخوميوس أن يلزمه بمزيد من الأعباء الكنسية، فعمل في كل شيء، كان يعمل بنفس الروح التي يغني بها، حتى أن العاملين معه ما كانوا يرتاحون إلا على صوته، فيطلبون منه أن ينشدهم من الكتاب المقدس ما يعِنُّ له، فأصبح معروفًا بالشماس ذي الصوت الجميل، وكاد أن يعتقد أنَه لأجله سمح إيمانويل بدخوله الدير، لكن الأخير كان يفكر في كيفية إنضاجه ووضعه على طريق الصواب.

في زحام العابرين بميدان رمسيس وقف أنطونيوس يتطلع إلى الشمس العالية البعيدة في الأفق، كأنه يريد أن يسألها عما يجري له، وأين يمكنه الذهاب، كان يقينه يتزايد بأنه لو عاد إلى منزل تريزا سيلقون القبض عليه، فثمة رابط بين ما يجري في الدير ومكتب أسقف التحقيقات، ثمة من يتواصل مع من في جبال القلزم وخارجها، شعر أنطونيوس أن بعضًا من رجال الرب ليسوا رجال الرب، وأن عليه أن يكتشفهم كي يحذرهم،

فهؤلاء لا يرغبون في إصلاح الكنيسة ولا جمعها على كلمة واحدة، هؤلاء لديهم القدرة على التعامل مع الشيطان من أجل أغراضهم البسيطة.

فكـر في أن يركب قطارًا ويتجـه إلى أبعد مكان ممكن، هو لا يريد أن يصـارع أحدًا، ولا يريد أن يكتشف مسـاوئ أحد، لكن إلى أين، وكيف يمكنـه أن يـترك دميانة دون أن يعلم مصيرها، فهـل رحلت أم ما زالت على قيد الحياة؟ كانت أقدامه قد دخلت به إلى أرصفة المحطة، فجلس على رخامـة كبيرة في انتظار شيء لا يعرفـه، لكنه من جديد شعر بتشمم كلب السمـاء له، فنهض من مكانـه ودار في جولة على الرصيف قبل أن يسأله أحد مفتشي التذاكر عن وجهته، وجد نفسه يقول أسيوط، فأشار له الرجل نحو الرصيف الذي يقف عليه هذا القطار، طالبًا منه السرعة.

هـرول كأي مسافـر اكتشف فجأة أن قطاره سيغـادر الرصيف، وما إن وصل إلى كرسي شاغر حتى ألقى بجسده فيه، موقنًا أنه اتخذ الطريق الصـواب، وما إن أخذت الأذرع الحديدية تتحـرك برتابتها المعتادة بين العجـلات الضخمة حتى تخدر جسده ودخل في نـوم عميق، ولم يستطع المحصل أن يقطع عليه نومه، فتركه موقنًا أن قسًّا ينام نوم الملائكة لا يمكنه أن يغالط الرب في أجرة تذكرة.

حين وصل القطار إلى محطته الأخيرة نزل الجميع، وحده أنطونيوس الـذي استغـرق وقتًا كي يستوعب ما الذي حـدث، كأنه كان يعيد ترتيب ذهنـه ومخيلته، تذكر أنه ألقى بجسده على الكرسي الشاغر وسرح بخياله متفكـرًا في دميانة وما يمكن أن يكون قد حـدث لها، تذكر وجهها الجميل وهـي تجلس أمامـه لتسألـه، لم تكن أسئلتهـا تجيئه بصيغـة المحقق، كانا يبـدوان كحبيبين يتناغمان معًا، كان يتحـدث دون أن يفكر، يقول ما في قلبـه بمحبة وثقة، موقنًا أنها تعاملـه بنفس الطريقة، وأنها مثله تلغي عقلها وتتحدث من قلبها إليه، شعر أن دميانة تترك كرسيها في مكتب التحقيقات وتصعـد، كانت ترتدي قميصًـا أبيض سماويًّا طويـلاً وهي تصعد، كان ينظر إليها بطرف عينه وهي تعلو مخترقة الأسقف والحواجز والقلزم وما حولـه وتصعد، كان صعودها ناعمًا، وخلفـه موسيقى هادئة، وفراشات

وطيـور بيضاء وزرقاء، خلفها حديقة مليئة بالـورود والروائح الطيبة، وأنطونيوس يغلـق على المشهد كـي لا تضيع منه مفرداتـه، أنطونيوس يـذوب مـن داخله، ويشعر أنه تـرك جسده على الكرسـي كجثة تغط في نومهـا من أجـل أن يحلق خلـف دميانة في السمـاوات السعيـدة، وكلما تأرجـح القطار وازدادت سرعته حلـق أنطونيوس عاليًا، وزادت متعته بالتحليق، ظل في أحلامه السعيدة حتى وصل القطار إلى أسيوط، فتبرع الناس بإيقاظه من أجل النزول.

في أسيـوط تذكـر أنـه لم يأت هذه المدينـة منذ سنوات، حـين أتى من الأشمونين إلى ديـر المحرق كي يلتقي باخوميوسـ الحبيب، ومعه بدأت رحلتـه إلى دير المـلاح، فراوده الحنـين لزيارة المحـرق والإقامة فيه، تـرك خطاه تقوده إلى جبل قسقام، صاعدًا بخطوات متئدة الدربَ الجبلي المـؤدي إلى بوابتة العظيمة، وما إن فتح له الخـادم حتى سأله عن كنيسة العـذراء، مر بالقلايات والمطابخ وأماكـن طعام الرهبان، ثم عرج على الكنيسـة للصـلاة، وكاد أن يخرج منهـا لولا أن لمح شخصًـا يشبه ملاك الكاتب، فاتخذ مكانًا قصيًّا وجلس يصلي من جديد.

كانت عينه ترقب ملاك وهو يصلي، ظل لا يقترب منه ولا يرفعها عنه حتـى نهض الأخير مـن مكانه واتجه إلى الباب، حينهـا أنهى أنطونيوس صلاته ونهض ساحبًا غطاء رأسه على وجهه، ظل يسير خلفه حتى خرج من الديـر، ووجده يصعد باصًا مـن النوع الذي يستأجـره الدير لقضاء أبنائـه مهامهم في المناطـق البعيدة، فانتظر حتى تحـرك الباص، وأشار لسائق تاكسي أن يتبعهم.

وظل صامتًا طيلة الطريق حتى بدأت السيارة في صعود الجبل الغربي، كان مرتفعًا عن الأرضـ الزراعية من حوله بنحو مائة متر على الأقل، بينمـا الخضرة تحيطه من كل جانب، كانـت السيارة تعاني في صعودها، فابتسـم السائق قائلاً إنه ديـر درنكة، جاءت جملته كما لو أنها اعتذار عن عـدم كفاءة التاكسي، ونوع من طمأنة أنطونيوس إلى أنهما يعرفان الآن إلى أيـن اتجه الباصـ، ومن ثم فلا قلق من تأخرهمـا الآن، حين وصلا

الدير كان الباص واقفًا أمام الساحة التي أمامه، جال أنطونيوس في المكان بعينيه بحثًا عن ملاك لكنه لم يره، ولم يعرف إلى أين يمكنه أن يذهب، في النهايـة فتش نفسه حتى وصل إلى المائة جنيه التي تركها له أحمد مع ورقة بها رقم هاتفه، فمنحها للسائق وكاد أن ينزل لولا أن أوقفه الأخير ليعطيه ما زاد عن الأجرة، بحث بعينيه عن مكان يواري نفسه فيه إلى أن يخرج من ملاك ومن معه، فـرأى بجانب البوابة رجلاً يضع قبعة على رأسه، كان يشرح لمجموعة من الأجانب تاريخ المكان قائلاً:

– هذا جبـل درنكة، وهذا الدير يسمى باسمه، لكنـه أيضًا يسمى باسم القديسـة العذراء، لأنها جاءت المغارة التي بني عليها الدير، ونزلت بها، جاءتها بعد ستة أشهر قضتها في جبل قسقام، حيث دير المحرق الآن.

رأى ذو القبعـة أنطونيوس يقف مبتسمًا في خلفية الأجانب، وشعر أن الأخير يثمن ما يقوله، فرفع صوته وتحـدث بثقة مستشهدًا بأنطونيوس، فابتسم الأخير كما لو أنه يتواطأ معه على صحة حديثه، وشجع ذلك الرجل لأن يكمل موضحًا:

– حـين قطعت العذراء المسافة من قسقـام إلى ليكوبوليس لم تجد سفينة علـى وشك الإبحار للشمال، فقررت الانتظـار إلى أن تأتي سفينة، لكنها خشيت على نفسها وطفلها والنجار وابنة خالتها من الأذى، فقررت العودة إلى الجبـل، حيث يلجأون إلى إحدى مغاراته، فصعدوا إلى هنا، وأقاموا في تلك المغارة، التي بني عليها الدير فيما بعد، وسمي باسم العذراء مريم.

مضى أكثر من ساعة قبل أن يخرج ملاك وطويلي القامة برفقة راهب آخر، فصعدوا جميعًـا إلى الباص، بحث أنطونيوس بعينيه عن تاكس في المـكان لكنه لم يجـد، ولم يكن أمامه سوى أن يطلب مـن المرشد السياحي أن يلحـق بالباص. كان الأخير قد انتهى من شرحه للأجانب، ويبدو أنه تلقـى مكافأة مجزية، فقـرر أن يعود إلى بيته، لكنه ما إن أعمل المفتاح في دراجتـه النارية حتى وجد أنطونيوس ينقض عليـه، طالبًا منه أن ينطلق خلـف الباصـ وسوف يعطيه ما يريـد، لم يفكر الرجل في المـال بقدر ما

فكـر في أن أنطونيوس كان شهمًا معه، فلم يقاطعـه، ولم يفضح أمره، فما هـو إلا مدرس تاريخ بمدرسـة ابتدائية، لا يحمـل تصريحًا بالتعامل مـع السياح، ولا يملك إلا أن يرد له الجميـل، فأردفه خلفه وانطلق على الإسفلت كالرمح.

استسلـم أنطونيوس إلى الضجيج المنبعـث من موتـور الموتوسيكل، وصـوت صاحبه وهو يكمل دور المرشـد السياحي متحدثًا عن دير درنكة والمحـرق، لكـن الباص الـذي كان متجهًا في طريقه نحـو مركز الغنائم ترك الطريق الرئيسـي واتجه غربًا نحو قرية الزاوية، هكذا قال مدرس التاريخ الذي استمتع بدور المرشد السياحي، حيث أشار لأنطونيوس نحو الجبل قائلاً:

هذا دير النسـاخ، قديمًا كان يعرف بدير الأنبا أثناسيوس، لكنه تحول إلى ديـر للراهبـات، كان ذلك في زمـن البابا يوساب الثـاني، حين اشتد الخـلاف بينه وبين جماعة تدعـى الأمة القبطيـة، وكان بعض أعضائها مـن أبناء هـذا الدير، فاختطفه خمسـة منهم وأجبروه علـى توقيع تنازل عـن منصبه، وجعل العلمانيين المشاركين في انتخاب البابا أكثر من رجال الإكليروس، ثـم أخذوه مـن الكاتدرائيـة إلى وادي النطـرون، حيث احتجـزوه هناك، لكـن حكمدار القاهـرة شك في تنازله بمحض إرادته والدخول في عزلته قبل انتخـاب البابا الجديد، فأخذ يبحث في الأمر حتى اكتشـف الجناة، وأعـاده إلى منصبه من جديد، فمـا كان من يوساب إلا أن أمـر بحل الجماعة، وإغـلاق هذا الدير، دير الزاويـة أو النساخ كما يقولون.

-٣٠-

رسائل أوريجانوس (١٢)

كنت قد تجاوزت السادسة والأربعين من العمر حين نزلت فلسطين من جديد، فقد رست بنا السفينة على شاطئ يافا، في ذلك اليوم تذكرت أنني أكملت عامي السادس والأربعين، ترجلت من السفينة وأنا لا أعرف هل أشكر الحراس أم أشيعهم باللعنات، هم أيضًا لم يعرفوا بأي درجة من التقديس عليهم أن يودعوني، في النهاية تبادلت كلمات سريعة مع قائدهم شكرته فيها على حسن المعاملة ونزلت، كنت أتوقع أنني سأكون وحيدًا في بلد لا أعرف عنه الكثير، لكن ما إن وطأت قدماي الشاطئ حتى وجدت صديقي ثيؤكتستوس وألكسندر وبصحبتهما بعض من تلامذتي في أورشليم وقيصرية.

بدا على الوجوه الحيرة في استقبالي، فلم يعرفوا إن كان عليهم أن يفرحوا لوجودي بينهم أم يحزنوا لخروجي منفيًّا من مدينتي، تلقيتهم بترحاب كما لو أنني غريق وجد من يتلقفه من الماء، لكنني لم أستطع أن أزيل الحزن كثيرًا عن صدري ووجهي، فالإسكندرية كانت كل شيء لي، هي ميلادي وحبوي وتعليمي وشهرتي وعظاتي، هي رفات أبي وأمي وشقاء إخوتي وأحلامي الكبيرة، هي السيرابيون والميوزيوم والمكتبة والكنيسة والبحر وأمبروسيوس وديمتريوس الكرَّام، هي كل شيء، وما عداها ليس سوى محطة أعبرها لأعود من جديد إلى مسقط رأسي.

احترم الجميع حزني وغضبي أيضًا، وطالبني بعضهم بالرد على ديمتريوس، لكنني رفضت، فلو شئت ذلك ما خرجت من الإسكندرية، كان بإمكاني حين أخبرتني سارة أن ديمتريوس أرسل لنائب الإمبراطور

كي يصدر قـرارًا بنفيي أن أفر إلى الصحراء أو الجبال، كان بإمكاني أن أجمع القساوسة الذين رفضوا حرماني وأحدث صدعًا في صفوف الكنيسة، لكنني لم أرد، راهنت على أن يستفيق من عناده، راهنت على قلب الأب الذي أعرفه أكثر من غيري، لكنه ظل سادرًا في كراهيته وعنفه تجاهي، فلـم يكتفِ بأن أرسل لمختلف الكنائس يعلمهـا بعزلي وحرماني، لكنه أخذ يشيـع بين الجميـع أنني مهرطق، وأننـي غنوصي تخفَّى في ثـوب أستاذ لمبادئ اللاهوت.

كان كل ما يقوله يصلني، كانـت أصداء رسائله إلى جميع الأبرشيات تـدوي من حولي، فجميعها عقد مجامع مقدسة أقرت فيها قراره، وهو لم يألُ جهدًا في السعي لمحوي من الوجود.

ما إن وصلنا قيصرية حتى طلبت من صديقيَّ أن يستأجرا لي بيتًا صغيرًا أجلس فيه، فلم أرد أن أزيدهما هموما ولا أن أربطهما بي، وتحت ضغط مني اضطـر ثيؤكتستوس أن يستجيب لطلبي، في هـذه الليلة بكيت حتى فقـدت الوعي من البكاء، وكنت أميل لأن أصعـد على سطح البيت فألقي بنفسـي منه كي أموت وأتخلص من همومي، لكنني ما إن سقطت في جب النـوم حتى رأيت أبي يجيئنـي بطعام كثير، وضعه أمامـي قائلاً "كل"، فنهضـت ألتهمه، أحضر لي من جديد فأكلت، وظللت كلما أتي بشيء آكل ولا أشعر بالامتلاء، وكلمـا نظرت إلى وجهه رأيته مبتسمًا، وكلما أكلت ازداد وجهـه فرحًا. حينها نهضت من نومي هادئ البال، أشعر بطمأنينة لا أعـرف سببها، حين أخبرت ثيؤكتستوس بما رأيت قال إن عطية الميت خير، وأخذه شر، وأنني على أبواب منح كبيرة.

ظللـت معتكفًا في البيـت الجديد للصلاة واستقبال الذيـن جاءوا للسلام علي، كان الكثيرون يشدون الرحـال من القرى المجاورة لرؤيتي، كما لـو أنني تحولت في نظرهم لقديس يتبركون به، كان الأمر يبهجني لكنني لم أجـد فيه ثمرًا ليبقى بـين الناس، فقررت أن أخـرج بعيدًا عن المدينة، حينها تذكـرت الإسكندرية وجولاتـي في شوارعها، كلمـا كان يؤرقني شـيء كنت أتخـذ شارع البحـر مسارًا لي، ثـم سرعان مـا أعرج على

الـدروب والحـارات الداخلية، فأتشمم رائحة اليـود، وأتطلع إلى المباني القديمـة، وأنظر إلى السماء ونجومهـا، وأستمتع بمطرها الخفيف، حينها أعود نقيًّا وصافيًا، كأن شيئًا لم يعكر صفوي.

تذكـرت ذلك وأنا أهـم بالخروج إلى حيث لا أعـرف، فتركت قدمي تمشيـان إلى حيـث تريـدان، حتى وجدتني علـى أبواب المدينـة، هنالك فكـرت في أن أذهب في رحلة إلى الجابية للقـاء جفنة بن عمرو، هذا الملك الـذي أكرمني حين ذهبـت إلى دياره، حـين فاتحـت ثيؤكتستوس بذلك طلـب مني أن أنتظر ريثما تمر موجـة الرسائل التي بعثها ديمتريوس إلى الكنائس، فبـدأت أنتبه إلى ما يجري من حولي، وطلبت من ثيؤكتستوس أن يحضـر لي ورقًا وحبرًا كي أشـرح لرؤساء الكنائس موقفي، فوجدته في اليوم التـالي يأتيني بورق ورياش وأحبار وثلاثـة نساخ يجلسون في البيـت، حتى أنني تحرجت من وجودهم، فمن أين سأطعمهم وأنا أمضي أيامي صيامًا كراهب في قلاية على عامود من الصخر.

أحصينـا الكنائس المهمة، وقسمنـا درجة معرفتنـا برؤسائها، ومدى تعاطفهـم معنا ومدى رفضهم لنا، ثم أرسلنا لهم رسائل باسم ثيؤكتستوس شارحًـا لهم الأخطاء التي وقع فيها ديمتريوسـس، فقد رأيت أنني لا ينبغي أن أدخـل في خصومة مـع ديمتريوس، وألا أكتـب للناس في مواجهته، وألا أشرح لهم خطأه، فما بيننـا أكبر من أن تتناوله الرسائل والعظات، في النهايـة وافـق ثيؤكتستوس وأرسـل باسمه للجميع، كنـا نتوقع رفضًا عامًّـا لقرار ديمتريوس، لكـن الأخير مارس ضغوطـه ملوِّحًا بخصومة بينـه وبين من يرفضـ، ولم يكن لأحد أن يعادي بطريـرك الإسكندرية لأجل واحد من شعبه، لكن جهود ثيؤكتستوس لم تذهب هباء، فقد نجح في إقناع كنائس أنطاكيا واليمن وتدمر فضلاً عن أورشليم وقيصرية برفض القـرار، أما كنائسـ روما وطليطلة ونيقوميديا وأثينـا والمدن الخمس فقد رضخت لرغبتـه، وبات واضحًا أنني لم يعد لي غـير فلسطين وصحراء العرب.

لم أعـرف فيمَ سأستفيد مـن النساخ الذين يجلسـون في البيت طيلة اليـوم، فأنـا لم أحضـر أيًّا من كتبي معـي، حتى الكتابـين اللذين انتهيت منهما، راجعتهما علـى عجل وتركتهما لأمبروسيوس في الإسكندرية، فقـد خرجت بملابسي كمـا يقولون، من بيتي إلى الشـارع إلى البحر إلى قيصريـة، كنت في حاجـة إلى إعادة النظر في أحدهمـا أو كليهما، خاصة المبادئ الذي يحتوي على آراء قد تبدو ملتبسة بعض الشيء، إذ عكفت فيه على التفرقـة بين الغنوصية المقبولة والغنوصية المرفوضة، شارحًا مبادئ الإيمـان القويم، تلك التي نعرف من خلالها ما يجب علينا قبوله وما يجب علينـا رفضه، فلا يدخل الشيطان إلى قلوبنا من طرق ملتوية، أما الكتاب الثاني فهو الجزء الخامس من تفسيري لإنجيل يوحنا.

– أظـن أن علـيَّ أن أكمل الآن هذا العمل الكبـير، فلم يبقَ منه حسب خطتي له سوى الجزء السادس، فلم لا أبدأ فيه الآن؟!

هكذا قلت لنفسـي، وفي الصباح حدثـت ثيؤكتستوس عن عزمي على إتمـام شرحـي لإنجيـل يوحنا، فابتهـج كما لـو أنه عثر علـى شيء كان مفقودًا، قال إن هذا أفضل ما سمعه مني منذ وصولي لقيصرية، غير أنني قللـت من فرحه حين أخبرته أن مـن الصعوبة البدء فيه الآن، لأن الناس يتزايدون في المجيء إلى البيت، سائلين عن أمور كثيرة، ولا أستطيع أن أغلـق الباب أمامهم، ولا أن أمنع نفسي من الـرد على مسائلهم، فأصبح الوقـت كله ملكهم، وكلما خلوت إلى نفسي وجدت من يطرق الباب طالبًا السلام والمحادثة.

حينها فكـر ثيؤكتستوس طويلاً، ثم سرعـان ما فتح عينيـه مبتهجًا، وكاد أن يصـرخ مثل أرشميدس "وجدتها"، حين سألته عن سبب فرحه، وجدته يسألني:

– ولم لا نفتح مدرسة للاهوت، كمدرسة الإسكندرية؟

بـدت لي فكرة جيـدة، إذ يمكنها أن تعيد لي عملـي السابق، وتنظم لي وقتي، وتدفعنـي لملاحظة ما يشغل العقول في أمـور الدين، غير أنني لم

أتحمس، وأخبرته أن ذلك سيعتبره ديمتريوس تحديًا له، ونحن لا نرغب في زيادة الأمور سوءًا، فهو في النهاية الأب ونحن الرعية.

لم يكن حديثي على هـوى ثيؤكتستوس، فزم شفتيه وتركني على أمل أن أغير رأيي، لكن رأيي لم يتغير إلا بعدما وجدت صديقي أمبروسيوس يرسل لي مـن الإسكندرية قائلاً إنه أعطى للنسـاخ كتابي المبادئ والجزء الخامس من إنجيل يوحنا، فقاموا بنسخهما على عجل، رغبة في الرد على ديمتريوسـس وما يتحدث به، ويبـدو أن الإسكندرية كلها كانت ترغب في الرد بطريقتها علـى ديمتريوس، فتنافس الناس على الكتابين كما لو أنهما آخـر الكتـب، وعكف نساخ آخـرون في أماكن أخرى علـى توفير نسخ لآخرين، وهكذا امتلأت المدينـة بالكتابين، ولم يعد لها حديث إلا عنهما، حتـى أن ديمتريوس نفسه أرسل من يحضر له نسخـة ويقرأها له، بعدها حدثت الكارثـة، فقد وضع يده على بعض العبـارات والجمل، وأرسلها إلى الأساقفة والقساوسة، طالبًا رأيهم فيها، فقالوا إنها هرطقة، فأمر بعقد مجمع مقدس وأصدر قرارًا باعتباري مهرطقًا.

-٣١-

لا أعـرف كيـف انتهت تلـك الليلة، فقـد التصقتُ بسطـح القلاية التي صعـدت عليها، حينهـا رأيت خلف أرض المطبعـة مجموعة من الرهبان الذين يمارسون تماريـن رياضية، كانوا يقفون في صفوف على مسافات متباعـدة، وأمامهم رجل يعطيهم أوامر بالزحـف أو الركض، وضعت خدي علـى يدي لأحميه من وخـزات الحصى، ورحـت أرقب الظلال وهي تجري على الرمال، لم يمض كثير من الوقت حتى وجدتهم يدخلون في عـراك مع بعضهم بعضًا، كنت أرى خيالات العصي التي في أيديهم، ولم تكـن المسافـة وضوء القمـر الشاحب يسمحان برؤيـة أكثر من ذلك، تأكـدت من حركاتهم المنظمة أنهم يتدربـون على شيء ما، وأن هذا ليس لقاؤهـم الأول، وأصبح السؤال المثار في ذهني: أين يقيم هؤلاء الرهبان؟ فالديـر ليس كبيرًا، وكل مـن على الهضبة أعرفهم منـذ صعودهم إليها، لكـن الوجوه الجديدة بدأت تكثر هـذه الأيام، ولا أحد يعرف من أين أتى أصحابها، تذكرت ما كتبته دميانـة في مذكراتها عن الذين كانوا يرتدون ملابسـ سوداء وهـم يهاجمون أنطونيوس، تذكرت مـا قاله الأخير عن الصناديـق التي كانـوا يحملونها بـين أيديهم، أدركـت أن ثمة من يسعى لتحويل الدير الهادئ إلى نقطة مظلمة في جوف القلزم.

حـين خدر الطـل النازل مـن السماء جسـدي رأيت نفسـي في مدينة مزدحمة بالناس، وثمة شعور أن هناك من يطاردني، لم أكن أرى أحدًا، لكننـي كنت أشعر بلهـاث في إثري، ظللت أهرب مـن طريق إلى آخر، وأتخفَّى بـين جدران الحوائط حتى وجدتني في صحراء تطل على القرى مـن بعيد، كانت دميانة هناك، لكنهـا لم ترني، كنا قريبين حتى أن أيًّا منا لـو رفع نظره لـرأى الآخر، لكننـا لم نفعل، وسرعان مـا أصبح المكان

مزدحمًا بالرهبان، وظهرت نباتات بـردي، رأيت راهبات يضعنها في المـاء، وأخريات يضربنها بعصي طويلـة ويفردنها على طاولات، كنت مفتونًا بالراهبات وهن يتابعـن أعمالهن، بينما دميانة تنظر ولا تشارك، تركتهـا ورحت أبحث عما جئت مـن أجله، وجدتني أمـام أنطونيوس، تخيلته لن يراني مثلها، لكنه اقترب وطعنني في جنبي.

نهضت من نومي متوجعًا، وجدت الظلام حلَّ على الدير، ولا وجود لمستيقـظ سواي، ألقيت نفسي بقفزة هائلة علـى الأرض، وقطعت المسافة الفاصلة بين القلالي وكنيسة الملاح على أطراف أصابعي في غمضة عين، وأنـا أدين للخـوف بالرشاقة التـي تلبَّستني في تلك الليلـة، فما بين ظلال ونتوءات كنت أتحرك كطيف في الظلام، في النهاية وجدتني أمام المكتبة، دخلت ودسست نفسي في فراشي، موقنًا أنني فزت بعمر جديد، لكنني في الصباح نهضت على طرقات رجال يوساب:

– أين كنت بالأمس؟

هكذا قال أحدهم.

– متى؟

– في حدود الحادية عشر.

– ذهبت لأقضي حاجتي في الخلاء.

كان الحوار حـادًّا وسريعًا، ولا أعرف ما الـذي جعلني أتحدث بهذه الجرأة، يبـدو أن شجاعتي في الرد الأول أجبرتنـي على إكمال الطريق بنفس الحدة، هز الرجل رأسه بطريقة أقرب إلى الندم:

– الأب يوساب يريدك.

تذكـرت ما جرى بالأمس، وودت لو أنني أسـأل عن السبب، لكنني أغلقـت المكتبـة وسرت خلفهـم، كانوا ثلاثة، وكنـت أتخيـل أن أيًّا منهم سيستديـر ليحملني على كتفه ويلقي بي من علـى الهضبة، لكنني روضت خـوفي، وقلت إنهم لو كانوا رأوني ما تركوني أنام ليلتي في فراشي، ولو كانوا مضطرين لتركي فإنهم لن يأذوني حتى ينتهوا من حاجتهم.

حـين وصلت إلى هذه القناعة شعرت أنني أستنشق الهواء ملء رئتي، وأنني قادر على مواجهة عزرائيـل، فظللت أقطع الخطى خلفهم وكأنني سأسبقهـم، حتي وصلنا إلى قلاية يوساب. كان ينتظرني وحده، حتى أن الخـادم الذي لا يفارق مكانه بالقرب من البـاب لم يكن موجودًا، وحين طـرق الشماس وجدنا يوساب هـو الذي يفتح لنا، ثم أومـأ لهم فانسحبوا لنصبـح وحدنا. كان قـد تجاوز الخمسين، وبدا علـى وجهه تعب السنين وخطوطهـا، حـاول أن يبتسم لكن التوتر كان غالبًـا عليه، قال إنني غدًا سأذهـب إلى أسيـوط لألتقي محققًا هنـاك، فأسلمـه الأوراق التي تجزم بأن أنطونيوس هو المرشـح الأول لقتل دميانة، تاريخه واعترافاته تشهد بذلـك، بعدها تبدأ المهمة الأخرى، حيث سأسأل عن الأب إسطفانوس في دير المحرق، وحـين أصل إليه أخبره أنني قـادم من قبل الأب جورج، وهو سيتكفل بكل شيء.

كان علينـا أن نذهـب لملاقاة المنحنـي في قلايته، فانتظـرت حتى بدل ثيابه، وخرجنـا نمشي تحت وهج شمس أخـذت في الإعلان عن نفسها، وددت أن أخبره أن الأب جورج أبلغني أن أسأل رجلاً يجلس على باب كنيسة العـذراء في دير درنكة عن إسطفانوسـس، وليس في دير المحرق، لكنني فوجئت بيده تمتد نحوي بالدفتر الذي كنت أدون فيه تحقيقات دميانة مـع أنطونيوس، ما إن رأيتـه حتى كدت أشم رائحتهمـا، قال إنه وضع خطوطًا حمـراء تحت الأجزاء المطلوبة، وأن كل ما عليَّ هو تسليم الدفتر والشهادة بصحة ما فيه.

حين طرقنا بـاب المنحني ظهر خادم عجوز غير الـذي رأيته في المرة السابقة، تأملت وجهه ثم تركته ودخلت خلف يوساب، كان المنحني جالسًا إلى مكتبه ناظـرًا من خلف نظارته ذات العدسـات الصغيرة في صفحات كتـاب قديم، حين رآنا مد يده بصليبـه، فانحنى يوساب لتقبيلهما، وفعلت مثلـه بنفس الحماس واليقين، حينها ابتسـم ووضع صليبه على مكتبه قائلاً ليوساب:

– هل أخبرته بما سيفعل؟

نظر يوساب نحوي:

– ما يخص التحقيق وإسطفانوس.

رسم المنحني ابتسامة وديعة على وجهه من جديد، وأخذ يشرح لي كيف كان دير الملاح قبلة للعلماء والآباء والقديسين، وكيف حافظ الذين تولوا رئاسته منذ ديمتريوس الصغير حتى وقتنا الراهن على تراثه، لكن في السنوات الأخيرة سعت جماعة من الرهبان المندسين على المسيحية لتخريب كل شيء، معلنين أن المسيح منحهم سره وقداسته، هؤلاء الكذبة نشروا في عظاتهم الكثير من الهرطقات، وقاربوا بين ما يريده الرب وما يريدونه هم، للأسف تسلل بعضهم إلى هنا، ووصلوا إلى أماكن متقدمة، ولولا أن الرب كان لطيفًا بنا لانتهى كل شيء، وربما لوصلت هرطقاتهم للكنيسة الأم، لذا ليس أمامنا سوى أن نقاوم البذرة التي وضعها الشيطان، كي نرفع غضب المسيح عنا.

كان المنحني يتحدث بعينين مغرورقتين وصوت باكٍ حزين، حتى أنني كدت أن أبكي معه، معلنًا تصديقي لكل حرف من حروفه، معترفًا بما رأيته بالأمس، لكنني ازدردت ريقي، وظللت لا أفتح فمي ولا أرمش بعيني حتى سمعته يقوله:

– هل أنت معنا؟

أجبته بحماس:

– بالطبع.

فرد بطمأنينة:

– المسيح يحفظك.

ثم استدار وأغلق الكتاب الذي أمامه، كان ورقه قديمًا وغليظًا، وكان المنحني يتعامل معه بحرص شديد، حين أغلقه ظهر لي غلافه المصنوع من جلد الماعز، وتذكرته على الفور، فقد كان في حوزتي ليلة أن فر

أنطونيوس، وأخذه مني يوساب معلنًا تأجيل مهمتي. وضعه المنحني في قطعة حرير أخضر، وأخرج الصندوق الخشبي الذي يفتح من الجنب فوضعه فيه، ودفع به نحوي كمن يسلم علم مدينة منهزمة لمستعمر جديد.

في البدء كنت أشعر أنني أحد رسل السماء لقرية ضالة، ولا بد أن أؤدي رسالتي كما طلبها الرب مني، فلا أفتح الصندوق ولا أقترب منه، أنا فقط حامل رسالة وليس لي علاقة بما فيها، لكن الفضول جعلني لا أنام دون أن أخرجه من مكانه وأنظر في محتواه، في المرة السابقة لم أستطع أن أتأمله، فقد فر أنطونيوس وأمضيت الليل مرتعدًا، أزحت قطعة الحرير ورحت أتطلع إلى ورقه الذي يكاد يتفتت بين الأنامل، كان مرسومًا بخط اليد على ورق كبير ذي هوامش واسعة، حيث وضعت كتابات صغيرة على الجانبين، كان الناسخ الذي كتبه قد رسم عنوانه بعناية ومحبة واضحة، ما إن تأملت العنوان المحفور بالكي في جلد الماعز (الرسائل) ثم اسم المؤلف (أوريجانوس)، حتى تذكرت أنني كدت أعترف وأطلب الغفران من المنحني، وشعرت أنني موشك على الجنون، فما عدت أعرف القديس من المهرطق.

-٣٢-

لم يكن أثناسيوس مــن بين الذين تقدموا بأسمائهم لشغل كرسي مرقس الرســول، لكن ظهــور أريوس في الأفق جعل الجميــع يأتي به من نهاية المشهــد ليضعه في مقدمة الصفوف، هكذا اتخذ الأساقفة والكهنة المجتمعون في كنيسة الإسكندرية قرارهم، ليجــد أثناسيوس نفسه محملاً بعبء تخلى الجميــع عن حمله، وباركوه بأنفس راضية لشــاب لم ينهِ عقد العشرينات مــن عمــره، ليقف في وجه أمــواج لم يتوقعها أكثر المتشائمــين منهم، فقد قضــى نحو أربعــين عامًا من الصراع مع أريوســ وتابعيه، فما إن اتخذ قسطنطــين قراره بعــودة أريوس من منفاه، حتى بــدأ اللوكيانوسيون في الضغط لعودته إلى كنيسته.

كان الأريوسيــون والميليتيوسيــون مــن أتبــاع ميليتيوســ قــد قويت شوكتهم، وتعاظم وجودهم في الشق الشرقي من الإمبراطورية، خاصة أن يوسابيوس أسقف نيقوميديا كان أحد تلامذة لوكيانوس، تعلم على يديه مثلما تعلــم أريوس حين ذهب إلى أنطاكيا، ووجــد يوسابيوس تلاقيًا فيما يطرحه أريوس مع ما ورثه عن أستاذه، وما توارثوه من بعض تفسيرات أوريجانوســ للكتاب المقدس، كان يوسابيوس بمثابة رأس الحربة القوى للأريوسيــين والميليتيوسين، خاصــة أن نيقوميديا كانــت العاصمة الثانية للإمبراطوريــة، مما جعــل لأسقفها مكانــة لدى الإمبراطــور، فاستغلها لإعــادة صديقه من المنفى، وسرعان ما طلب من الأخير أن يعيده لشركة الكنيسة.

أرســل قسطنطين لأثناسيوس طالبًا أن يقبــل أريوس في كنيسته، وبدا أثناسيوســ غير قــادر على الرفض أو القبول، ولم يكــن أمامه سوى أن يجتمــع بالأساقفــة والكهنة ليسألهــم عما يمكن عمله، فقــرروا عقد مجمع

مقدس لحرمــان أريوس من جديد، وفكــروا في أن يهملوا الأمر وكأنهم لم يسمعــوا به، وفي النهايــة انتهوا إلى ضرورة اللجـوء لأصدقاء يمكنهم أن يشرحــوا للإمبراطور خطــورة الأمر وخطئــه، ولم يكن هناك غير يوليوس أسقف روما، هذا الذي تكفل بالتدخل شارحًا موقف أثناسيوس، ومخففًا من وطــأة رفضه طلب الإمبراطور، وبــدا أن قسطنطين لم يكن يشعــر بالعدل في طلبه، فتسامح مــع الرفض وكأنه لم يطلبه من الأصل، وهو ما جعل يوسابيوس وأريوس يشتعلان غضبًا، وفكرا في طريقة تفقد الإمبراطور ثقته في أثناسيوس.

أبحر ثلاثــة أساقفة مــن الميليتيوسيين إلى نيقوميديا ليقدمــوا اتهامًا ضد أثناسيوس بأنه حطم كأســ الأفخارستيا الذي يستخدمه الكاهن أسخيراس في كنيســة ليكوبوليســ، بينما تقدم آخر باتهام قال فيــه إن أثناسيوس قتل الكاهــن أرسانيوس وأخفــى جثته، وما كان مــن أوسابيوس إلا أن حمل عريضتهم على وجــه السرعة إلى الإمبراطور، موضحًــا أن أثناسيوس الــذي يتعاطف معه قاتل ومخرب لبيوت الرب، وأن ما يحدث للمؤمنين منه معلق في عنقك كراع للشعب وكنائسه ومؤمنيه، فما كان من قسطنطين إلا أن استدعــى الأساقفة الثلاثة، وعرضهــم على بعض الحاضرين لديه مــن أساقفة وكهان روما، طالبًا منهم أن يحكمــوا على أثناسيوس قبل أن يحكم هــو عليه، فظلوا ينصتون حتى انتهى الأساقفة من رواية ما حدث، والتأكيــد على أنــه حدث، هنالك قام أحــد أساقفة روما سائــلاً عن كنيسة ليكوبوليســ وموقعها، ثم هز رأسه واستدار نحو الإمبراطور قائلاً إنه لا يجــوز، بحكم المنطق، فلا يمكن لأثناسيوســ أن يكسر كأس الأفخارستيا بكنيســة هذه المدينــة، لأن كهنتها تابعــون لميليتيوس المنشــق على بطرس الشهيد، وكانت عاصمة لهم حتى مجمع نيقية، وهو ما يعني أن هذه المدينة مركز يود أثناسيوس القرب منه، وليس خلق ثورة عليه.

بــدا علــى الإمبراطور تفهمه لمــا قاله الأسقف، لكــن الأمر ظل مجرد إثبات منطقــي، وإن قبل المنطق في هذه الواقعة فلا يمكن قبوله في جريمة قتــل كاهن وإخفاء جثتــه، هنالك تدخل يوليوس أسقــف روما قائلاً إنه لا بــد من أن يرد أثناسيوس بنفسه على هــذه الاتهامات، علمًا بأنها ما زالت

مجرد اتهامات، ومن ثم فإنني أقترح أن نرسل في استقباله ليشرح الأمر على نحو لا يضعنا في مواجهة مع شعبه. تفكر قسطنطين في الأمر، ثم هز رأسه موافقًا على أن تجري الأمور كما طرحها يوليوس، وكان هذا بداية انفلات الأمور من يد أريوس ورفاقه.

أرسل يوليوس إلى أثناسيوس يخبره بما يحاك له، طالبًا منه أن يحضر أدلة قاطعة على براءته، هنالك طلبت من أثناسيوس أن يترك الأمر لي، وأرسلت إلى أبانوب أخبره أن كاهن ليكوبوليس يقول إن أثناسيوس كسر كأس الأفخارستيا في كنيسته، فتحقق من الأمر. أرسل بدوره بعضًا من رهبانه ليتحسسوا ما جرى، فما كان منهم إلا أن نزلوا ففتشوا بيت الكاهن حتى وجدوا الكأس التي أخفاها، فقبضوا عليه وأخذوه لدير الملاح، وهناك أخبره أبانوب أنه لن ينتظر حتى ينظر الرب في عقابه، لكنه سيقوم بذلك بنفسه، فما كان من الكاهن إلا أن انهار معترفًا أنهم أغروه بالمال، وأنه لم يكن ليدَّعي كذبًا على البابا أثناسيوس، لكنه المال والضعف، فقد هددوه بقتل زوجته وابنه إن لم يتعاون معهم، وفي طيات الاعتراف جاء ذكر أرسانيوس الذي سافر إلى صور بصحبة أحدهم.

أرسل أبانوب بما توصل إليه، فانتشينا بالخبر، وطلبت منه أن يجهز الكاهن للسفر معنا على نفس السفينة، بينما طلبت من أثناسيوس أن يبحث لنا في صور عن أرسانيوس، فأرسل إلى أسقفها قائلاً "لي صديق لديكم لا تبلغوه سلامي" ثم ذكر اسم الكاهن، ولم يمض أسبوع حتى جاءه الحمام برسالة تقول "رأيناه ولم نكلمه"، فأبحرت بنا السفينة إلى نيقوميديا حيث كان الإمبراطور هناك، ولم يتحدث أثناسيوس كثيرًا، بل الذي تحدث هو أسخيراس، فقد قدم للإمبراطور الرشوة التي أخذها، وذكر بالأسماء الكهنة الذين أغروه بها، وفضح أمر أرسانيوس المختفي في صور، هنالك وقف قسطنطين لا يعرف كيف يعتذر لأثناسيوس، وقد علا وجهه الغضب.

كنا نتصور أن هذه ستكون نهاية أريوس ويوسابيوس، لكنهما استطاعا الدفاع عن نفسيهما، فليس هناك ما يلصق بهما، ولم يأت ذكرهما في شيء، حتى أرسانيوس ادعى أنه لا علاقة له بالأمر، وأنه كان في

زيــارة لصديق، بينما قال الكاهن الذي قـدم عريضة يتهم فيها أثناسيوس بقتل أرسانيوس أنه أخطــأ في اعتقاده، إذ ظن أن التوتر بين الميليتيوسيين والأثناسيوسيين أودى بحياة صديقه. فأمر قسطنطين بجلدهما وحبسهما، لكنــه لم يجد دليــلاً على الذين فكــروا وخططوا، ومن ثــم لم يمض كثير مــن الوقت حتى عقدوا مجمعًــا مقدسًا اتهموا فيــه أثناسيوس بإفقاد عذراء بتوليتها.

كان أثناسيوســس في ذلــك الوقت قد شعر ببعضــ الراحة من التهم التي سيقــت ضــده، وقرر أن يقــوم برحلة رعوية إلى الجنــوب، حيث يمكنه أن يخفف من غلواء الميليتيوسيــين وأنصارهم على الشعب، كما يمكنه أن يبســط نفوذه بنفسه هنــاك، فركبنا مركبًا وسبحنــا في نقيض التيار، حتى وصلنا إلى منــة الرب التي كانت معروفة في زمن الفراعنة بمنعة خوفو، فنزلنا بكنيسة السيدة العذراء التي شيدت في نفس زمن كنيسة القبر المقدس بالقدســ، فأقام بهــا أثناسيوس قداسًا للشهداء، ورسم عــددًا من الأساقفة والكهــان، ثــم أكملنا طريقنــا نحو مدينــة ليكوبوليس حيــث مدينة الذئب المعروفــة بسيوت، حيث نزلنا بكنيسة العــذراء، وهي المغارة التي نزلت بها السيدة العذراء حين قدمت ليكوبوليس، واستقرت بها حتى جاء الملاك لخطيبها يوسف النجار بالبشــارة، معلنًا أنهم يمكنهم العودة إلى فلسطين، فأقــام أثناسيوس القداس الإلهي، ورسم عددًا من الأساقفة والكهان، كما رسم أسقفًا خاصًّا بأكسوم هو فرومنتيوس الذي لقب بمعلن النور.

في هــذه الرحلــة أبحرنــا إلى أقاصــى الجنــوب، حيث مدينــة الذهب المعروفــة بسوان، وهناك رغــب أثناسيوس في لقــاء الأب باخوميوس، وكان معتــزلاً في جبل وعــر، لكن باخوميوس لم يأت مــع الرسل الذين ذهبوا إليه، فقرر أثناسيوس أن يذهب له بنفسه، فصعدنا الجبل عبر طرق قاسيــة، حتى وصلنا إلى المغارة التي يلازمها باخوميوس، لكننا لم نجده، انتظرنــا ظهوره وناديناه لكنه لم يظهر، حتى أن أثناسيوس شعر بالإهانة وغضــب، وحزن الجميع لغضب البابــا، ونزلوا معه إلى الكنيسة يعدون لقداس الغد، لكن أثناسيوس وجد رجلاً يسأله عن سبب طلبه لباخوميوس، فقال إنه يريد أن يلتمس البركة منه، ويسأله الصلاة لأجله، فنظر الرجل

ثلاث مـرات لأثناسيوس قائلاً: فقط؟ وأثناسيوس يقـول نعم، في النهاية قال الرجل أن باخوميوس هرب في الجبل خشية أن ترسمه أسقفًا أو قسًّا، وهـو لا يريد إلا أن يعبد المسيح كما هو في عزلته. فضحك أثناسيوس قائلاً "له ما يريد، لكن لا يحرمني من رؤيته"، فتركنا الرجل وصعد الجبل، وفي الصبـاح وجدنـا باخوميوس حاضرًا في القداسـ، يرتل مع المرتلين ويتنشق نسمات العطر المقدس.

كنا قـد تعبنا من رحلتنـا وتطوافنا على الكنائسـ والرهبان في القلالي والكهـوف والجبال، لكـن أثناسيوس أبى إلا أن يخـترق صحراء القلزم لرؤيـة الأب بـولا والأب أنطونيوس، وكان كل منهما قـد اتخذ له ديرًا في الجبـل، ما إن وصلنا إلى جبال القلزم حتى تنسمت ريح الملاح والأب ديميتريوسـ، فتركت أثناسيوسـ ومن معه يكملـون مسيرتهم نحو بولا وأنطونيوسـ في الشمـال، وأخذت أصيح على رهبان المـلاح أن ينزلوا لي بكـرة أبانوب، فلما عرفوني أنزلوها، صعـدت أقبل كل من رأيته في طريقي، وكان في مقدمتهم أبانوب الذي أصبح وجهه منحوتًا بقسوة، كأنه قـد صار جزءًا من الجبل، اصطحبني بترحاب وحفاوة لقلاية ديمتريوس الصغير، كانت صحته أفضل، وذكرياته عن الإسكندرية كثيرة، فجلست بصحبتـه ثلاثة أيـام، ثم طلبت منـه أن ينزل معي للقـاء أثناسيوس، فقد تعـب الرجـل ولا أريـده أن يتحمل المزيـد، وكدنا ننزل مـن الدير حين رأينـا أثناسيوس ومن معه يتخذون طريقهم لصعود مخر السيل، فصحت عليـه أن ينتظر، ونزلت مع ديمتريوس وأبانـوب في البكرة للقائه، قال إن الأب أنطونيوسـ عاتبه على عدم المرور بالأب ديمتريوس، فقررت العودة للصلاة في ديره وإقامة قداس بكنيسته.

كنـا مشفقين على الرجل من رحلته الطويلة، فاكتفينا بأن مر معنا على القـلالي يسلم على الرهبان، ويبارك الكنيسـة قبل أن يرسم أبانوب كاهنا فيهـا، ورسم له شماسين من تلامذته همـا ساويرس ولاون، بعدها نزلنا جميعًا لزيـارة الأب أنطونيوس في ديره، هذا الـذي يحمل له أثناسيوس إكبـارًا أكثر من أي راهـب آخر، فظللنا في صحبتـه يومين، عاد بعدهما ديمتريوس وأبانـوب إلى دير الملاح، وأكملنا طريقنا نحو الإسكندرية في

الشمــال، حيث وجدنا رسولاً من يوسابيوس القيصري أسقف صور جاء يدعو أثناسيوس لحضور مجمع مقدس هناك.

أوعــز يوسابيوســ النيقوميــدي ليوسابيوســ القيصــري أن يدعــو أثناسيوس لحضور مجمعه في صــور، فرتب الأخير أمره للذهاب برفقة عــدد من القساوســة والشمامسة في موكبه، وهناك عاملــه الجميع بتقدير واحــترام كبير، لكن لم يمض يومان على بدء المجمع، وفي ذروة احتدام المناقشــات، إذا بسيدة تدخل صارخة بنجدتها، فقد اعتدى عليها أثناسيوس أسقــف الإسكندرية وأفقدهــا عذريتها، كان الأمر مفاجئًــا للجميع، وثار لغط بين الآبــاء المجتمعين، ولم يعرف أثناسيوس بمَ يــرد، لكن الله ألهم الشماس تيموثاوس أن وقف في مكانه سائلاً المرأة بفزع:

– هل رأيتك من قبل يا امرأة؟

فما كان منها إلا أن قالت:

– نعم، بالأمس هاجمتني وأفقدتني عذريتي، ولن أسامحك.

كانــت جملتها خاطفة وسريعــة، حتى أن الذين أدخلوهــا لم يستطيعوا إنقاذها، فصرخ فيها تيموثاوس:

– أنا؟!

فأعادت تأكيدها من جديد:

– نعم أنت يا أثناسيوس..

فمــا كان من أثناسيوســ إلا أن نهض من مكانه، وخــرج غاضبًا من الكنيسة، وصرخات الأساقفة تطالبــه بالانتظار، وبين خروجه وصياح الأساقفــة المطالبين بمحاسبــة الساقطة، كان يوسابيوســ القيصري قد فقد السيطــرة على الأمور، فأنهى الجلسة وخرج يبحث عن أثناسيوس، لكن الأخير صاح في وجهه:

– أرأيــت ما يريدونــه؟! أرأيت كيف يساعدهــم الإمبراطور؟ إنني لا أريدها حربًا، ولو أردتها لحرمت روما من وصول حبة قمح إليها.

تحدث أثناسيوس بانفعال أمام الجميع، وتوالى الأساقفة يقبلون رأسه، لكنـه الشيطان كان حاضرًا بقوة في ذلك الوقت، فأمرنا أثناسيوس بإعداد السفينة لمغادرة صور، فأقلعنـا دون أن نعرف إلى أين سنذهب، فقد ظل محدقًـا في المـاء، فاتحًا صدره للهـواء عسى أن يزيل مـا به من غضب، وكان الربـان يريـد أن يعـرف إلى أي جهة سيذهب، كنـت أتصور أننا عائـدون إلى الإسكندرية، لكن أثناسيوس فاجأني برغبته في الذهاب إلى رومـا، فلا بد من ملاقاة قسطنطين لحسـم الكثير من الأمور، خشيت أن ندخـل روما وهـذا الغضب جاثم على صدره، فتخـرج منه كلمة تغضب الإمبراطور منا، فنصحته بالذهاب إلى القسطنطنية، فنستريح ونفكر فيما يجب أن نوضحه للإمبراطور، بعدها نبحر إلى روما.

يمكننـي أن أعترف أن أثناسيوس كان على صواب، وأنني كنت على خطأ، فلو كنـا قد خرجنا من صور إلى روما كما أراد ربما لتفادينا الكثير من الأمور، فقد شعر يوسابيوس النيقوميدي بالخطر على نفسه ورفاقه، فأسـرع بالذهاب إلى روما، حيـث التقى قسطنطين قائـلاً إن أثناسيوس يهـدد بمنع خروج القمح من بلاده إلى رومـا، فما كان من قسطنطين إلا أن أمر بالقبض على أثناسيوس، فلما أحضر إليـه أمر بنفيه إلى تريف، فهاج أثناسيوس صارخًا في وجهه مرات ثلاث:

– الرب يحكم بيني وبينك.

-٣٣-

قــال أنطونيوس إنه حــين رآني في دير المحرق توقــع أنني مختطف، فكمــن بعيدًا يرقب الموقف ويتحين الفرصة كــي يحادثني، لم يكن يعلم أن شيئًا ما جعلني أشعر بحضوره في الدير، ربما كان الحلم الذي رأيته على سطح القلاية قبل أن يتم تكليفي بهذه المهمة، وربما حدس من قبل السماء، علــى كل كان حضوره يتزايد كلما اقترب مني، حتى أنني اضطررت أن أميــل برأسي كي أراه وهو يصلي في كنيسة العذراء بدير المحرق، وحين تركتــه وخرجت لمحته بطرف عيني، لكنني لم أشأ أن ينتبه لوجوده أحد، وحين خرجــت من دير درنكة لمحته أيضًا، كنت في كل حركة أبحث عنه كمــا لو أنني أسعى للتواصل معه بالروح، فأجذبه إلى الطريق الذي أسير فيه قبل أن يضل عني، وأفقد فرصتي في النجاة.

في صباح ذلك اليوم استيقظت على طرقات أحد الرهبان طوال القامة علــى باب المكتبة، أخــبرني أن الباص ينتظرني أسفــل الهضبة، غسلت وجهــي وغيرت ملابسي وحملت صندوق المنحنــي معي، ولم أنس دفتر التحقيقــات ولا كراسة "الاعتراف الأخير"، فقــد وضعتها أسفل ملابسي تحسبًــا لأن يتــم تفتيش المكتبة بعد خروجــي، في الباص وجدت اثنين من الرهبــان يتمتعان بطول القامة، وصلتني الرسالــة ولزمت الصمت طيلة الطريــق، مــا إن وصلنا إلى ديــر المحرق حتى سألت عــن كبير المحققين الكنسيــين هناك، كان أسقفًــا كبيرًا، ما إن عرَّفتــه بنفسي حتى رحب بي وطلــب منــي الأوراق، حاولــت أن أراوغ فسألته عمــا يعنيه، نظر لي بغضــب متسائلاً عن سبب قدومــي، فهمت الرسالــة وأخرجته من أسفل إبطــي، بدوره فتح دفترًا كبــيرا دون فيه بعض الكلمات، ثــم سألني إن كنــت أقر بأن كل ما في هذا الدفتر صحيــح وغير ناقص أو مزور، وقبل أن أجيب كان قد كتب:

- نعم صحيح.

ثم عاد ليسأل:

- هل تشك أن أنطونيوس قام بقتل باخوميوس؟

ولم ينتظر إجابة مني، فقد كتب بصوت شبه مسموع:

- لقد اعتدى عليه أمامي، لكن باخوميوس مات بعدها بثلاثة أيام ميتة طبيعية في قلايته، فقد كان عجوزًا مسنًّا وغير قادر على احتمال الإهانة.

هكذا وجدت التحقيق قد دار عن باخوميوس، لكنه كان يحاصر أنطونيوس من كل جانب، خاصة حين سأل:

- إن كانت المحققة دميانة قد اختفت، فهل تعتقد أن أنطونيوس مسئول عن اختفائها؟

فأجبته سريعًا:

- لا.

رفع وجهه عن الدفتر، ونظر لي بلوم واضح، ثم عاد ليجيب:

- لا أعرف، لكنه كان قاتلاً وقاطع طريق قبل أن يدخل الرهبنة، وقد ذكر لها هذه المعلومات أثناء التحقيق معه كنوع من الترهيب.

وكان سؤاله الأخير:

- ما الذي خشي أن تكشفه دميانة في تحقيقاتها؟

نظر لي كي أهمس ببنت شفة، لكنني لم أستطع التجاوب معه، فعاد ليكتب في دفتره:

- كان يطبع كتب المهرطقين ويوزعها على الناس.

بعدها طلب مني أن أوقع، ثم كتب أسفل توقيعي أن التحقيق تم بمعرفته وقام بالتوقيع. بعدها ضغط زرًّا بجانب مكتبه، ظهر راهب ممشوق القوام مزجج الحواجب، فأمره أن يوصلني إلى الخارج، لكنني التفت إليه سائلاً:

- أين يمكنني أن أجد الأب إسطفانوس؟

نظر نحوي بغضب، ثم أعطى إشارة للراهب بالخروج قائلاً:

- سيخبرونك.

أدركت أن هذا الرجل جزء من حلقة كبيرة، وأنني وهو نسير وفق مخطط اتفق عليه مسبقًا، وليس أمامي سوى الانصياع إلى أن تجيء فرصة لكسر الحلقة والخروج منها.

حين خرجت من مكتبه وجدت الراهبين طويلي القامة ينتظراني، بينما أشار مزجج الحواجب بانتظاره، تركني ودخل إلى الغرفة من جديد، ثم عاد ليستدعي شماسًا كي يرافقنا، لم أشأ أن أسأل عن شيء، فقد تركت نفسي أمشي خلف الشماس، بينما يمشي خلفي طويلا القامة، ظللنا نصعد درجات رخامية وننزل درجات حجرية، وندخل ردهات ونصعد أدوارًا حتى وصلنا إلى سلم في نهاية الدير، أشار الشماس لطويلي القامة أن ينتظرا، وأشار لي بالصعود، أخذت في ارتقاء درجات مظلمة لسلم خلفي يدور حول عمود لا نهاية له، في النهاية وجدت نفسي أمام ردهة مظلمة، فلم يكن أمامي سوى دخولها، انتهت بسلم صغير ينتهي بباب لغرفة بدت كما لو أنها صومعة نُسيت منذ أمد بعيد، طرقت على الباب فوجدته مفتوحًا، واربته ونظرت بنصف عين فوجدت شخصًا تخطى المائة من عمره يجلس في كرسي من جريد، لم أصدق أن كل هذا التعب من أجل الوصول لهذا العجوز، سألت مستفسرًا:

- الأب إسطفانوس؟

أومأ برأسه إيماءة خفيفة، ومد شفتيه إلى الأمام قليلاً، كانت عينه عجوزًا جدًا، حتى أنها لم تكد تظهر من بين التجاعيد التي ملأت جفنيه وخديه، من جديد حرك شفتيه مرتين إلى الأمام والخلف كما لو أنه يجهزهما للكلام، ثم عاد فهز رأسه وكأنه يسألني عن هويتي، ولم يكن أمامي سوى أن أقول:

- أنا من طرف الأب جورج المنحني.

ارتسم شبح ابتسامة على وجهه، وهز رأسه مشيرًا بأنامله الرقيقة نحوى، فدفعت ما بقي من الباب ودخلت، كان النور في الخارج قويًّا، حتى أنني لم أستطع أن أكشف ما بداخل الغرفة قبل الدخول، ولدهشتي كانت غرفة كبيرة مستطيلة، على نقيض ما ظهرت عليه من الخارج، كانت مستطيلة ومبطنة بأرفف مليئة بالكتب من كل جانب، وفي وسطها دولابان يتركان مساحة صغيرة لإسطفانوس كي يتخذ جلسته المريحة هذه، ثم يمتدان إلى نهاية الغرفة، كانت رائحة الكتب التي أعرفها جيدًا تتصاعد في أنفي، فأشار لي إسطفانوس بالجلوس على كرسي في مواجهته، وهمس بصوت ضعيف:

– ماذا معك؟

أخرجت الصندوق من طيات ملابسي، ووضعته أمامه، فمد يدًا عجوزًا مدربة وفتح الغطاء الجرار، ثم أزاح قطعة الحرير الأخضر فظهر غلاف الكتاب، نظر إلى العنوان وهز رأسه ثم أعاد الحرير إلى موضعه وأغلق الدرج في هدوء:

– أبقه معك.

هكذا قال، ثم سعل مرتين قبل أن يشير لشماس كان مختفيًا في ظلام الدواليب، فأمره أن يأخذني إلى كنيسة العذراء للصلاة، حملت الصندوق من جديد بين ملابسي ونزلت خلف الشماس، ما إن وصلت إلى نهاية السلم حتى بحثت عن طويلي القامة فلم أجدهما، لم أصدق أنهما سيتركاني أكمل الرحلة وحدي، درت مع الشماس حول المبنى الرئيس للدير، وتعجبت من قدرة الشماس على القفز والسرعة في السير، حين وصلنا إلى باب الكنيسة جلست ألتقط الأنفاس وأنا أصلي، دون أن أعرف ما الذي ينبغي عليَّ عمله أكثر من ذلك، بعدها جاءني قس يشرح لي كيف تحملت أم النور بمشقة هائلة رحلتها من بيت لحم إلى هنا، وأنها رأت في منامها قرب انتهاء أزمتها، لكنها لم تشأ أن تتحدث عن شيء لم يتحدث به المسيح بعد.

- فلا تتعجل شيئًا.

قالهـا وهـو يبتسم في وجهـي، ففهمت أنـه يبلغني رسالـة، وأنه جاء يعاوننـي على الانتظـار، ولا يتركني أتصرف بحماقـة، في هذه اللحظة تذكرت أنطونيوس، وشعرت بوجوده، بدا لي كما لو أنني تمنيت وجوده فظهر، شعرت أنه يدخل من الباب، يقف قليلاً ثم يختار مكانًا ليجلس فيه، كانت عينه تكاد أن تخترقني وهو يحاول التأكد إن كنت أنا أم لا، بدوري كنـت أشعـر أنني جالـس على نار، وأننـي أود أن أتأكـد مما يراودني، فانتهزت فرصة أنني أحاول أن أواري ابتسامتي بعيدًا عن القس ونظرت خلفي، لمحته في أقصى الصحن جالسًا يصلي، شعرت بالطمأنينة والدهشة أيضًا، فقـدت الشعور بالانتظار، ولم أنشغل بمـا يقوله القس، حتى عاد الشماس هامسًا لي بالخروج، فنهضت خلفه خارجًا من الكنيسة.

كنت أدرك طيلة الوقت أنه خلفي، حتى لما ذهبنا إلى كنيسة العذراء في جبل درنكة كنت موقنًا أنه موجود، رغم أنه لم يدخل، وخيرًا فعل، لأنهم لو قبضوا عليه كانوا سيلقون به من فوق الجبل، فقد ظهرت القوة والقسوة بعـد دخول الكنيسـة، كان التفتيش صارمًـا، كما لو أن حدثًـا ما سيقع، حتـى أن طويلي القامـة تم حجزهما بالخارج، فوقفـا يرقبان ما يجري، بينمـا قام القس الذي صاحبني في هذه المرحلـة بالصعود معي إلى الجبل، كانت النباتات الجبلية كثيرة ومتنوعة، شعرت أنهم يزرعونها لأغراض كالطب، وعـبر ممرات ومدقات جبلية دقيقـة أوصلتنا للجانب القديم من الدير، حيث بوابة لا تكاد تظهر للعيان، فوقفنا أمامها وانتظرنا فترة حتى تحركت، وجدنا خادمًا عجوزًا يكاد ينام على نفسه، حييناه برأسينا ودخلنا مـن جهة المطابخ، مررنا من بين الأواني التي يغسلها الرهبان، ومن بين مخازن الغـلال والخضار، وصعدنا سلمًا نحو طابـق أو اثنين، ثم سرنا في ممـر مرصوف بالأحجار ينتهي بسلم يـؤدي إلى غرفة تكاد أن تكون مظلمة، كان الخـادم الجالس على بابها عجوزًا تمامًا، فوقف أمامه القس بإجلال وهو يطلب ملاقاة الأب يؤانس، لكن الخادم الذي تعاطف معنا،

وكأنه يدرك مشقة رحلتنا، قال إنه ذهب إلى دير الزاوية لأمر هناك.

كان آخـر ما يمكن أن أتوقعـه هو أن أرى دميانة في دير الزاوية، فقد عدنـا إلى الباص الذي أحضرنا مـن دير الملاح، صعـدت والقس الذي يرافقنـي ومن خلفنـا صعد طويلا القامة، وطلبنا مـن السائق في عجلة أن ينطلـق بنا إلى دير الزاوية. ما إن وصلنا حتـى تركنا الأتوبيس وطويلي القامة عند البوابة، فليس مسموحًا بدخول الرجال إلى دير الراهبات، لكن القس همس في أذن الحارس بكلمات كي يبلغها لإحدى الخادمات، فغابت الأخيرة قليلاً في الداخل قبل أن تخرج إحدى الراهبات المتقدمات في السن لملاقاتنـا، تهامس معها القس بكلمات لم أسمعها، لكنني رأيته يشير بأنامله نحـوي، فتركته وعـادت إلى الداخـل، وبعد فترة ليسـت طويلة عادت لتقودنا في ممر شبه دائري حول الفناء الداخلي للدير، هناك رأيت دميانة، كانـت تمشي خلف راهبة في نفس سنها، وددت أن أناديها، لكنني نظرت نحـو القس المرافق لي وتمالكت نفسي، هو بدوره كان يحث الخطى خلف الراهبة التـي لم تكن تلتفت يمينًا ولا يسارًا، وكـدت من فرط النظر نحو دميانة أن أتعثر في حجر فأنكفئ على وجهي، لكن الرب أنقذني، فأكملت طريقـي وأنا أتساءل عما يجري، في نهاية الطريق وجدنا سلمًا يؤدي إلى ممـر في الأسفل، نزلنا حتى وصلنـا إلى حائط رطب، شعرت أن الظلمة تضغط على نفسي، هنالك جذبـت الراهبة شيئًا في الجدار مرتين، وجدنا جـزءًا من الجدار على هيئـة قرص من الرخام الأسـود يتحرك، عبرنا مـن الثغرة التي انفتحـت ورأينا اثنين من طويلي القامـة يقفان أمامنا، ما إن رفعـت نظري عن جسديهما المتشابهين حتى وجدتنا أمام مجموعة من القـلالي القديمة، أخذتنا الراهبة إلى واحدة منها، حيث جلس راهب مسن في انتظارنا، فمد القس رأسه بأدب شديد نحوه سائلاً:

– الأب يؤانس؟

هز الراهب العجوز رأسه بالإيجاب، راسمًا ابتسامة رقيقة على وجهه.

أضاف القس:

– هذا الخادم من قبل الأب إسطفانوس.

اتسعت ابتسامة يؤانس وهو يشير للراهبة أن تأخذ القس ويخرجا، فطرقت بأنامل قطة عجوز على كتف الرجل، وأشارت له أن يتبعها.

حاولت أن أشرح المهمة التي جئت فيها من قبل الأب جورج، لكن الرجل الذي كتم سعاله بشدة، أشار بأطراف أنامه أن أخرج الكتاب، فما كان مني سوى أن وضعت يدي في طيات ملابسي، ومددتها إليه بالصندوق، ففتح بابه وأزاح قطعة الحرير، ناظرًا إلى الغلاف المصنوع من جلد الماعز والورق القديم المتآكل، ثم عاد فأغلق الصندوق ووضعه أمامه على السرير قائلاً:

– شكرًا لك.

-٣٤-

لم يكن يؤانس مجرد راهب متنسك في دير العذراء، لكنه كان مناضلاً مــن أجل فكرة آمــن بها طوال سنــوات عديدة، فقــد كان مدرسًا للتربية الرياضيــة في المدرســة التي كان يرتادها تلميذه الأثــير صلاح عبد المسيح متري، والد دميانة، وكان صلاح صغير الحجم قليل الكلام، لكنه يمتلك رأسًــا شديدة الصلابة والعنــاد، حتى أنه يدخــل في مشاكسات مع تلاميذ أكبر وأقوى منه، فكان ينال من الضرب ما استدعى تدخُّل يؤانس لإنقاذه عدة مــرات، أعجب يؤانس بعنــاده وأخذ يبسط رعايتــه عليه كي يحميه مــن التلاميذ الأشرار، ولم يلبس أن عاملــه كابنٍ لم ينجبه، وكلما تعقدت مشكلته مع زوجته ازدادت بنوته له.

لم يكــن أحد يعلم أن يؤأنس ذا الجسد العملاق كلاعب سلة، والصوت الهادئ والابتسامة الودود يعاني مشكلة ذكورية، حتى فوجئ الجميع بأن زوجتــه قد هجرته، وسرعان ما ذهبــت إلى كنيسة كاثوليكية ليتم تعميدها هناك، فما كان من الكنيسة إلا أن فرقت بينهما، وكان ذلك بالنسبة ليؤانس أكبر هزيمــة في حياته، ليس لأنه كان يحبها بجنــون، ولكن لأن الجميع تصوَّر أنه غير قادر على القيام بمهامه الزوجية، وعبثًا حاول أن يشرح للكنيســة أن اعتناقها للكاثوليكية مجرد خدعــة للحصول على الأبناء، لكن القساوسة لم يستوعبوا الأمر على النحو الذي شرحه، ولا الناس استوعبوا أن سيــدة جميلة ومؤمنة تذهب باختيارهــا للجحيم بحثًا فقط عن الأمومة. فقــرر بعد مرور عامين من الانفصال الموجع أن تكون العزلة طريقه إلى الله، فحمل أغراضه الخفيفة وذهب ليدق أبواب دير البراموس في وادي النطــرون، طالبًا منهم الانخراط في حياة الرهبنــة، فتم ترسيمه شماسًا، ليبدأ في دراسة اللاهوت ويصبح فيما بعد قسًّا في نفس الدير.

التلميـذ الوحيد الذي حمل والده على الذهـاب لرؤية يؤانس في عزلته كان صلاح متري، يومها فرح يؤانس بلقائهما، واعتبر صلاح ابنه الذي كان يجـب عليه أن ينجبـه، وبمرور الأيام التقى يؤانـس بإبراهيم فهمي هـلال في إحـدى المحاضرات بالديـر، اقتنع بحديثه عـن مؤتمر الأقباط الأول عـام ١٩١١، الذي عقـد في أسيوط عقب اغتيـال بطرس غالي، برعايـة من المحامي أخنوخ فانوس، وطالب هلال يومها بعقد مؤتمر ثانٍ للأقباط، كما طالب بتأسيسس جمعية أهلية باسم "الأمة القبطية" يكون منْ أهدافهـا إصلاح شئون الكنيسة، وإصـدار جرائد تكون منبرًا للدفاع عن الأقبـاط في مصر والخارج، ويكون شعارهـا الله ربنا، ومصر وطننا، والإنجيل شريعتنا، والصليب علامتنا، والقبطية لغتنا، والشهادة في سبيل المسيح غايتنا.

حـدث إبراهيـم فهمي هلال القسـ يؤانس عن حقـوق الأقباط وعدم تمثيلهـم بما يكفي في المراكز القيادية، وإفسـاح المجال لمزيد من العلمانيين كـي يشاركوا في اختيار البابا وتفسير الكتاب المقدس، كان حماس إبراهيم لإدخـال العلمانيـة إلى الكنيسة كبيرًا، حتى لو استلـزم ذلك فرض الأمر بالقـوة، وكان مشهد تفريق الكنيسة ليؤانـس عن زوجته ما زال حاضرًا في مخيلة الأخير، فوضع يده في يد هلال مبايعًا على إحداث التطوير ولو بالقوة.

حين حصـل إبراهيم فهمي هـلال على ترخيص بإنشـاء الجمعية كان صـلاح متري من مؤسسيها، فقد أصـر يؤانس على وضع اسمه في قائمة المؤسسـين رغم صغر سنـه، ولم يكن لأحد أن يغضبه بعدمـا أسندوا إليه مهمـة اختيار العناصـر الشابة وتدريبها، ولم تمضِ شهور على صدور الترخيص حتى ذهب إبراهيم فهمي هلال بوصفه وكيلاً عن الأمة القبطية ليشـرحٍ للبابا يوساب الثـاني رؤيته للتطوير، لكن البابـا الذي استمع إليه طويـلاً، والذي كان يعاني مـن صراعات كبـيرة في الكنيسة والأديرة، اعتبر أن مـا يقوله إبراهيم محض هرطقة جديـدة، وهدده بالحرمان إن

تحدث بمثل هذه الأمور، ولم يكن أمام إبراهيم سوى أن يبلغ أعضاء جمعيته بما قاله يوساب الثاني، فاعتبروا ذلك تهديدًا لوجودهم، واتخذوا قرارهم بتذليل العقبات.

في ذلك الوقت كانت الجماعة تعمل على ضم شباب الأقباط الذي يحمل درجات علمية، ويهدفون إلى النهوض بالشعب القبطي عن طريق الإصلاح من خارج الكنيسة، وكانت مصر متشبعة بالتيارات التي كانت سائدة في ذلك الوقت كالإخوان المسلمين والضباط الأحرار، فطالبت الجماعةُ الحكومة بإنشاء محطة إذاعة خاصة بالأمة القبطية، وإنشاء مقرات للجماعة بالقرب من الأحياء القبطية، وذلك لتحقيق أهدافها في تقديم المساعدات للمحتاجين والعاطلين، وهو ما وافقت عليه الحكومة لكنها لم تدعمه، ولم يتم دعمه إلا برعاية من عبد المسيح باشا حين انضم للجماعة، فوفر لها المقرات ومنحها التجهيزات، وسهل اختلاط أعضائها بالأقباط في الأحياء الفقيرة، كي تنتقي منها العناصر الصالحة لدخول الجهاز الخاص، هذا الذي ترأسه يؤانس على نحو ما فعل عبد الرحمن السندي في جهاز الإخوان.

وضع يؤانس برنامجًا تثقيفيًّا رياضيًّا أسبوعيًّا للشباب، وأخذ في حثهم على زيارة الأديرة والكنائس الكبيرة، قائلاً إن هذا بداية الطريق للشباب المؤمن، الشباب الذي يحمل فكر الكنيسة ورؤية العلمانية في قلب واحد، لكن الأمر لم يأتِ بالنجاحات التي كان ينتظرها، خاصة بعدما تصاعد الخلاف بين إبراهيم والبابا يوساب الثاني، فقد قرر الأخير حرمان الجمعية وأعضائها، فخرج إبراهيم من مقر الجماعة في شارع الفجالة متجهًا إلى وادي النطرون، وهناك التقى بيؤانس شارحًا المأزق الذي تعيشه الجماعة، وأنه لا بد من تذليل العقبات كي تتمكن الأمة من تحقيق أحلامها.

استيقظت البلاد يوم الرابع والعشرين من يوليو عام ١٩٥٤ على قيام خمسة من شبان الأقباط بهجوم مسلح على المقر البابوي في شارع كلوت بيك، مقتحمين بوابة دار البطريركية، شاهرين مسدساتهم على

عاملي البوابة والنظافة، وجردوهما من عصيهما وملابسهما، وقيدوهما في أماكنهما، ووقف أحد الشبان الخمسة أمام الدار ليمنع أي شخص من طلب النجدة، بينما وقف آخر عند مدخل جناح البطريرك ليمنع أي محاولة للاقتراب من غرفته، وشق الثلاثة الآخرون طريقهم إلى غرفة يوساب العجوز، فاستيقظ على وجوه الشبان الذين أشهروا أسلحتهم في وجهه، مطالبينه بالإسراع في ارتداء ملابسه لأنه سيذهب معهم، وما إن ارتداها حتى وجدهم يضعون أمامه ثلاثة قرارات كنسية ليقوم بتوقيعها، كان القرار الأول هو تنازله عن العرش البابوي، وتعيين الأنبا ساويرس مطران المنيا بدلاً منه، أما الثاني فكان دعوة المجمع المقدس والمجلس الملي العام لانتخاب بطريرك جديد، في حين كان الثالث توصية منه بتعديل لائحة انتخاب البطريرك، بحيث يشترك في انتخابه جمهور رعاياه من العلمانيين.

بعدها خرج الشبان الخمسة ومعهم البابا ليركبوا سيارة وقفت على مقربة من مقر البطريركية، فانطلقت بهم إلى أديرة وادي النطرون، حيث كان يؤانس هناك في انتظارهم، فقام باحتجاز البابا في إحدى القلايات القديمة، وكلف مجموعة من الشبان التابعين له بحراسته ومنع أحد من الوصول إليه، وما إن عاد الشبان الخمسة إلى مقر الجماعة في الفجالة حتى وجدوا إبراهيم فهمي هلال قد بدأ تنفيذ الجزء الثاني من مخططه، حيث أرسل بيانًا إلى مختلف الكنائس والجهات الرسمية في الدولة معلنًا تنازل البابا عن منصبه، وإقراره بوجود فساد مستشرٍ في الكنيسة، مطالبًا الشعب القبطي بانتخاب بطريرك آخر، ومحذرًا الدولة من التدخل في الشئون الداخلية للأقباط.

كانت الدولة وقتها قد فرغت من الاحتفال بالذكرى الثانية لقيام ثورة يوليو وسط أجواء بالغة التعقيد، فقد كان الصراع بين محمد نجيب وجمال عبد الناصر على أشده، قدم نجيب في تلك الفترة استقالته لمجلس قيادة الثورة، لكنهم أعادوها إليه من جديد، كانت مفاصل الدولة

مشغولــة بالصراع بين الفرقاء علي السلطة، وهــي الفرصة التي اغتنمها يؤانســ وإبراهيم فهمي هلال لتنفيــذ مخططهما بعزل البابا بعيدًا عن أعين الدولة، وهو ما تم لهما بالفعل، وحرصًا من مجلس قيادة الثورة على ألا تتدخل الدولة في شئون الأقباط كما قالت توصية البابا المعتزل فقد أرسلت الحكومــة وزير التمويــن القبطي جندي عبد الملــك إلى المقر البابوي، ولم يكــن أحد يشــك حتى ذلك الوقت في وجود شبهــة جنائية في الأمر، فالكل كان يعتقد أن ما حدث محض خلافات داخلية تخص المسألة القبطية داخل الكنيسة، لكن ما إن التقــى جندي عبد الملاك بإبراهيم فهمي هلال في مقر البطريركية حتى أيقن أن ثمة شبهة جنائية، فعاد على الفور إلى مقر وزير الداخلية ليبلغه بالأمر، فأمر الأخير بذهاب قوة لمهاجمة مقر الأمة القبطية وإلقــاء القبض على مــن فيه، ومع بداية التحقيق اعــترف البعض بمكان وجود البابا، فتحركت على الفور قوة من الشرطة والجيش إلى دير الأنبا بيشوي، وهنــاك ألقت القبض على يؤانس وخمســة وثلاثين من الشباب الذين برفقته، وعادت برفقة البابا إلى المقر البابوي في كلوت بيك.

ألغت الدولة ترخيص الجماعــة، وأصدرت أحكامًا بالسجن تراوحت مــا بين عامــين وخمسة على المقبوضــ عليهم، واستغــل يوساب الحادث في الخلاصــ من مناوئيه، فعــزل مطران المنيا متهمًا إيــاه أنه كان وراء المسلحــين الذين هاجموه، ونشط في نقل عدد مــن رجال الإكليروس من مناطق عملهم، وعــزل آخرين في مناطق بعيــدة ومتفرقة، منهم رئيس دير الأب أنطونيوس، وهو نفس الدير الذي خدم فيه يوساب، كما عزل رئيس دير الملاح الأب فلوباتــير، وأخيرًا أمر بإغلاق دير النساخ متهمًا مــن فيه بترويــج الهرطقة، وإيــواء المناهضين للكنيســة. كانت مجموعة القــرارات التي اتخذها يوساب بمثابــة انقلاب على الجميع، وهو ما جعله في مرمــى كراهية الجميع، ولم يمض عامان على حــادث اختطافه حتى تعرضــ لمحاولة قتل فاشلة من قبل بعض عناصر الأمة القبطية التي لم يتم القبضــ عليها، ثم اجتمع المجلس الملي واتخذ قــرارًا بنفي يوساب إلى دير المحرق مع الإبقاء على رئاسته للكرسي البابوي.

لم يكـن هذا كل مـا في الأمر، فالحلم بالأمة القبطيـة تزايد مع وصول الأنبـا شنودة إلى رئاسـة الكنيسة، خاصـة بعدما قام السـادات بنفيه إلى وادي النطـرون، فاعتمد شنودة على المخلصين لحمايته وتوصيل رسائله ونصوص عظاته إلى الجميع، ولم يكن هناك غير يؤانس ورفاقه، هؤلاء الذين شعروا أنهم ظُلموا وحان الوقت ليعترف الجميع بجهودهم، فأخذت الدمـاء تتدفق في العروق، ونشط يؤانس في جمع الرهبان الذين يتمتعون بالشبـاب وطول القامة ومحبتهم لتعلم فنون القتال، كانت الأديرة البعيدة وغـير الشهيرة هي مقـر معسكراته، وكان دير المـلاح صاحب التجربة الأولى، فهـو غير معـروف وغير مطـروق، هنالك بـدأت التوسعات في زراعـة الأرض، وتبرع عـدد من رجال الأعمـال الأقباط لتجديده ووضعه على خريطة السياحة، لكن الأمر برمته دخل طي النسيان بموت السـادات، فقد اختفى طويلو القامة من الأديرة والكنائس، وتم الاقتصار على الكشافة لتحمل مسئولية الحماية والتنظيم.

كان يؤانسـ أول المقبوض عليهم في حادث اختطـاف الأنبا يوساب، فحكـم عليه بخمسة أعـوام وتم شلحه من الكنيسة وطـرده من الخدمة في الديـر، وحين خـرج كانت الدنيا قـد تغيرت، والجماعة قـد وهنت، إلا أنـه ظل يحلم بالأمة القبطية وتحقيـق أهدافها، ولم يكن وحده الذي عاش الحلـم ورفض التنـازل عنه، فكل مـن دخلوا السجن معـه لم يرغبوا في الاعـتراف بهزيمتهم، وظلوا مؤمنين بتغيـير المستقبل، فشرعوا في تجنيد الراغبـين مثلهم في التغيـير، سواء من الإكليروسـ أو خارجه، للضغط على الكنيسة من أجل التغيير من الداخل وفقًا لما تقوله مدارس الأحد، لكن العنف الإسلامي أعطـى في السبعينات يؤانس ومن معه قبلة الحياة، فعاد لتدريب الشبان الأقباط على حماية الكنائس والأديرة، والظهور بأسرع ما يمكن لنصـرة إخوتهم في مواجهة الإسلاميـين، وكان حادث الزاوية الحمراء أول ظهورهم، لكن أكـبر حضور لهم كان بعد ذلك بسنوات في قرية الكشح.

لم ينسَ يؤانس يومًا تلميذه صلاح عبد المسيح متري، لكن صلاح لم يكن من طويلي القامة، ولم يحتمل التدريب في الصحراء، فظل يتابع دروسه حتى تخرج في كلية الحقوق، وانتظم في سلك المحاماة، واختار طريقه الخاص في الدفاع عن الأمة القبطية، وما إن وضحت معالم طريقه حتى فاجأ يؤانس برغبته في الزواج، فوقف الأخير لا يدري بمَ ينصحه، إلا أنه في النهاية طلب منه أن يصطحب خطيبته إلى المستشفى ليجريا فحوصات الخصوبة، فلا يتكرر معه نفس المصير، لم يكن صلاح قادرًا على مفاتحة تريزا وأهلها في الأمر، مما اضطر يؤانس للنزول من الصحراء كي يلتقي بهم، وهناك رأى تريزا وحكى لها مشكلته القديمة، فتفهمت مخاوفه واصطحبت صلاح لإجراء الفحوصات دون علم أهلها.

-٣٥-

رسائل أوريجانوس (١٣)

لم أكـن قد راجعت كتابـي المبادئ بشكل جيد، فقـد عملت تحت ضغط الأحـداث والرغبة في الهـروب منها، وكان الأمر يحتـاج مني مراجعة ثانيـة، خاصة أننـي أعمل علـى تفند أفـكار الهراطقـة، وكان لا بد من توضيح بعض الفقـرات والجمل بشكل كاف، لكـن الأحداث اضطرتني أن أسلمـه لصديقي أمبروسيوسـس تحسبًا لما هو قادم، وصدق حدسي، فقد فاجأتني قوات نائب الإمبراطور بقـرار رحيلي عن الإسكندرية، ويبدو أن أمبروسيوسـس تصـور أنني انتهيت بشكل كامل مـن "المبادئ" والجزء الخامس من تفسيري لإنجيل يوحنا، فقرر أن يدفع بهما للنساخ في محاولة للدفاع عني.

وكانـت النتيجة أكبر مما توقع، هكذا قـال أمبروسيوس بعد مجيئه إلى قيصريـة، إذ عكف النساخ على نسخ العملين وبيعهما للناس، وبلغ الأمر أن وصلـت ديمتريوس الكرَّام نسخـة منهما، فطلب من شماس أن يتفرغ لقـراءة المبادئ عليه، فوجد فيه الفقرات التي كانت تحتاج إلى توضيح كي لا يتصـور القارئ أنني مؤمن بما يقوله المهرطقون، فأرسل من فوره ما قرأه إلى الأساقفة، ولم ينتظـر أن يشرحوا ما قرأوه وما وصلهم منه، إذ دعـا لمجمع مقدس، أخـذ يصيح في أساقفته وآبائـه بالجمل والفقرات التي أخرجها حتى أقروا معه بأنني مهرطق.

كان الخـبر أكثر صدمـة بالنسبة لي عـن خروجي مـن الإسكندرية، فقـد أخـذ ديمتريوس علـى عاتقه نشر قـراره بأسرع ما يمكـن، مرسلاً الفقرات التي توقف أمامها إلى كنائس روما وقرطاجة واليونان وطليطلة

وأنطاكيا، شعرت أن الرجل يحاصرني من كل جانب، وأنه قصد إيذائي بكل الطرق، وزاد من سوء الأمر أن العديد من الكنائس اتخذت موقفه، فعقد أسقف روما مجمعًا أقر فيه بقرار ديمتريوس، وهكذا فعلت طليطلة وقرطاجة، شعرت أنه لم يبق لي غير كنائس الشرق، خاصة بعدما رفضت كنيسة أنطاكيا رسالته إليها، وهكذا فعلت نيقوميديا والقدس وقيصرية، فعكفت أملي على النساخ الذين وفرهم ثيؤكتستوس رسائل إلى الأساقفة والقساوسة في مختلف الكنائس، شارحًا موقفي لهم، موضحًا أنني أبعد من يكون عن الهراطقة، فأنا من نذر نفسه لمحاربة أفكارهم في هذا الكتاب، فهل يختلط على القراء الأمر إلى هذا الحد، وهل يعقل أن يتم الحرمان دون مناقشة صاحب الأمر فيما كتب؟!

لم يخفف عني سوى انتقال صديقي أمبروسيوس للإقامة في قيصرية، قال إنه شعر بالذنب تجاه ما حدث لي، وأنه سعى بكل ما يملك من صداقات ومعارف لدى الأب ديمتريوس كي يخفف من حملته، لكنه كان مندفعًا نحو محوي من الوجود، وكأن وجودي كان نفيًا لوجوده، وهو ما لم أسع إليه، ولم أفكر فيه من قريب أو بعيد، لكن هكذا حمل الرجل كل سنواته وقوة نفوذه وتاريخه كي يصب لعنته علي، قال أمبروسيوس أنه حينما أدرك أن ديمتريوس لن يتراجع عما عزم عليه قرر أن يترك له المدينة، فباع كل ممتلكاته وحمل في سفينة كبيرة كل كتبي وكتبه وأتى بها إلى قيصرية قائلاً:

– لم أستطع أن أقيم بينهم وحدي، فجئت لأقيم بعيدًا عنهم معك.

الحق أنني أنست بوجود أمبروسيوس معي، فرغم كل ما فعله ثيؤكتستوس وألكسندر كنت أشعر بالغربة، لم أدرك هذه المسافة التي تفصلني عنهما إلا بعد مجيئه، فهو ابن مدينتي، وتلميذي الذي أنقذته من السعي خلف الهراطقة، وهو الثري الذي تكفل بي سنوات طوال، وهو الآن كل أهلي وتاريخي الذي اختفى من بين يدي، شعرت أن روحي ردت لي، وبدأت أفكر بشكل حقيقي في إكمال مشروعاتي التي توقفت، بدأت أفكر في أن أنتج شيئًا كي يتربح منه هؤلاء النساخ الجالسون بلا

عمـل، ولم يكن هناك سوى أن أبدأ في الجزء السادس والأخير من تفسير إنجيـل يوحنا، فأخذت أملي عليهم ما يعن لي مـن إشارات، وأخذ الناس يسمعـون أنني أشرح الكتـاب المقدس فيتوافدون على البيـت الذي أجَّره ثيؤكتستوسـ، وشعرت بالحرج منهم، فقد تشتـت الوقت ما بين الشرح والإمـلاء، فشكوت لأمبروسيوس ما أعانيه، فمـا كان منه إلا أن جدَّ في شـراء بيت جديد لإقامتي، مقترحًا أن يكون بيت ثيؤكتستوس مكانًا للناس والشرح.

كانـت هذه بداية مدرسة قيصرية التي نشأت في بيت من غرفتين وفناء صغـير، في هـذا البيت أنهيـت شروحـي وتعليقاتي على إنجيـل يوحنا، وشرعـت في شروحاتي لإنجيل متى، ثم المزامـير، لكن أعظم ما عكفت علـى إنجازه هو هيكسابلا، وهي سفر عظيم، تكونت فيه الصفحة الواحدة مـن ستة أعمـدة، خصص العمـود الأول للأصل العـبري، ثم خصص العمود الثاني للأصل الذي بالحـروف اليونانية، والثالث لترجمة أكويلا اليونانية للأصـل، والرابع لترجمة سيماخوس، والخامس للسبعينية التي ترجمهـا سبعون حبرً يهوديًّا في زمـن بطليموس الأول إلى اليونانية، أما العمـود السادس فـكان لنسخة ثيودوشـن، عكفت على إنجـاز هذا السفر في نحـو ثمانية وعشريـن عامًا، حتى أصبحـت النسخة الوحيـدة المنقحة والمنضبطة لـكل نسخ الكتاب المقدس، فهي المرجـع الذي يشتمل على كل المراجـع، ويضاهـي كل النصوص ببعضها، ويعلـق على كل اختلاف، ويثبـت كل نقصـ، ويحـذف كل زيـادة، فاشتهـر بأنـه السداسيـة أو هيكسابلا، وانتقل من كنيسة لأخـرى، ومن دير لآخر، وأصبح المرجع الأول للكتاب المقدسـ في الشرق والغرب، وهو ما رد لي اعتباري أمام اتهامات ديمتريوس، وجعل العالم الذي تسابق على حرماني إرضاءً له، يأخـذ في دعوتي لزيارته، لكنني كنت قد حددت بوصلة توجهي، فلم يعد لي غـير النساخ الذين أملـي عليهم، ولو وجدت جهـدًا للحركة فللكنائس التي دعمتني وقـت حاجتي إليها، وللبلدان التـي لم تخض حربًا ضدي، وربما حملت لي مزيدًا من الود منذ زيارتي القديمة لها في عهد الملك جفنة بن عمرو.

جاءت فكـرة عملي علـى الهيكسابلا حينما بدأت في شـرح المزامير، ووجـدت قلقًا في بعض النسـخ، واختلافات في نسخ عـن نسخ، فتركتها وعـدت إلى التوراة السبعينية التي ترجمهـا شيوخ اليهود عن العبرية إلى اليونانية، فوجدت بعض القلق أيضًـا، فعدت إلى النسخة العبرية نفسها، لكـن بعضـن اليهـود أكدوا لي أنهـا قد دخلهـا الزيف، فوضعـت فوضى النصوصـ والاختلافـات أمامي وجلست أفكر في ضبـط كل هذا النسخ، ولم يكـن أمامـي سوى أن أقسـم الكتاب على ست أعمـدة، أثبت فيها كل نسخـة في مقابل الأخرى، مـبرزًا الاختلافات، ومنقحًـا النصوص من الزيـادات، وهـو عمل بـدا في البدء نوعًا مـن العبث، لكنـه سرعان ما اتضحـت رؤيته بعد الجزء الثاني منه، وتسـارع الناس إلى اقتنائه، وهو مـا جعل النسـاخ يطالبونني بإكماله، ورغم الإرهـاق الذي لاقوه إلا أن حماسهم كان شديدًا، ورغبتهم في إنجاز عمل كبير كانت قوية وواضحة، فكانـوا يطاردونني لأكمل ما بـدأت، وأنا أحاول أن ألتقـط أنفاسي عبر الانشغال بالوعظ، فكانوا يكتبون المواعظ خلفي ويوزعونها على الناس، وكأنهـم يقولـون لهم خذوا هـذه الآن واصبروا، لكننـي في النهاية كنت أنصاع لرغبتهم رغم ما عانيـت من إرهاق في تصحيح النصوص وتفنيد الأخطاء.

عادت لي شهرتي من جديد، وبدا العالم متسامحًا معي أكثر مما توقعت أن يفعل في يوم من الأيام، وأخذ الطلبة يتوافدون على البيت حتى تحول إلى مدرسـة تضاهي مدرسة الإسكندرية، ولم يكن أمامي سوى أن أجعل أحد تلامذتي عريفًا عليهم، حيث يراعيهم حتى أتفرغ لهم، وكان من بين من اعتمـدت عليهم في هذا الشأن هو جريجوريوسـ الذي يعرفه الجميع الآن بلقـب صانـع العجائب، فقد تتلمـذ في مدرستي نحـو خمس سنوات كاملة، لاحظـت نبوغه أكثر من شقيقه، وانتبهـت إلى أنه أشبه بالأرض الظامئـة إلى الماء، فأخـذت أرويه بالعلم كل يوم حتـى اكتملت معارفه، ووقف يلقـي موعظة يوم انتهـاء تعليمه وعودته مـن قيصرية، موعظة ودع فيها زمـلاءه وأصدقاءه، ونصحهم أن ينهلـوا من معرفتي بقدر ما يستطيعون.

كان جريجوريوس وديعًا ومحبًّا للناس والمعرفة، فعهدت إليه أن يكون عريفًا على زملائه، يشرح لهم المبادئ الأولى للإيمان، ويكلفهم بدروس ومراجعات بسيطة حتى أجيئهم، قام بعمله على أفضل ما يكون، وكان واسطة راقية بيني وزملائه، ما زلت أتذكر خطواته الوئيدة الواثقة وهو متجه نحوي في غرفة النسخ كي يبلغني أن زملاءه حضروا، أو أنه سجل في دفتر جديد محاورته لي حول ما قاله أفلاطون وما استفاد منه الغنوصيون في فلسفتهم، كنت أتحدث بإسهاب معه كما لو أنني أتحدث إلى نفسي، ولا ألبث أن أطالبه بالرفق على نفسه، فالفارق بين الإيمان والهرطقة شعرة، والناس عمي لا يبصرون، فكان يضحك دون أن يحدثني بما في نفسه، وكنت أدرك أنه يريد أن يقول إنه لن يكون مثلي، ولن يسمح للناس أن تختلط عليها المعارف مثلما سمحت بذلك في كتبي، فكانت النتيجة أنني محروم من ملكوت السماء وملكوت الأرض.

-٣٦-

كان آخر ما توقعه أنطونيوس أن يكون ملاك شاهد الإثبات في اتهامه بقتل دميانة، لكن هكذا اعترف له ملاك عقب هروبهما من طويلي القامة. كان أنطونيوس قد أقنع مدرس التاريخ الراغب في أن يعمل مرشدًا سياحيًّا بأن طويلي القامة قد اختطفا شقيقه، وأنه يرغب في تخليصه منهما، فجلسا ينتظـران خروج ملاك من دير النساخ، وما إن رأياه اقترب حتى وقف مدرس التاريخ بالموتوسيكل على جانب البوابة، وانتظر إشارة أنطونيوس له نحـو ملاك والراهبين، فتحـرك بالموتوسيكل كمن فقـد السيطرة على سرعتـه، فاصطدم بهم وألقاهم على الأرضـ، هنالك أسرع أنطونيوس لمساعـدة ملاك علـى النهوض، ودفع به في تاكسـي كان بالقرب منهما، وطلـب من السائق التحرك سريعًا، انتبه طويـلا القامة إلى فرار ملاك، وبدلاً من أن يشتبكا مع سائق الموتوسيكل قفزا في الباص الذي ينتظرهما، حاثين سائقه على ملاحقة التاكسي، لكن مدرس التاريخ كان مؤمنًا بعدالة قضيـة أنطونيوسـ وشقيقـه، فراح يلاحـق الباص ويضيق علـى سائقه الطريق مطالبًا إياه بالتوقـف، مما جعل أحد الراهبين يخرج عن شعوره ويوجه عجلة القيادة نحوه، فكاد الباص أن يخرج بهم عن الطريق، لولا ردة فعل سريعة من سائقه أعادت الأمور إلى نصابها، لكنه ضرب بقدمه علـى كابح السرعة بقـوة جعلت العجلات تصدر صـوت احتكاكها العالي بالأسفلت، لتبدأ مشاجرة بينه وبـين الراهبين، فتركهم سائق الموتوسيكل وانطلق ليلحق بأنطونيوس وملاك.

ما إن سمـع أنطونيوس صـوت احتكاك عجلات الباصـ حتى التفت ليتابـع ما يجري، ومـع أول انحنـاءة للطريق طلب من سائـق التاكسي

التوقف، وبحث هو وملاك عن صخرة اختفيا خلفها، وأخذا يرقبان الطريق حتى شاهدا مدرس التاريخ يمر مسرعًا كي يلحق بالتاكسي، ثم سرعان ما شاهدا الباص بنفس السرعة في نفس الاتجاه، فعلما أن عليهما الابتعاد عن الطريق قدر الإمكان، ولم يكن أمامهما غير الصحراء التي يتوه فيها الجميع، فقضيا ليلة طويلة فيها، ولم يكن زادهما فيها غير الذكريات وإعادة ترتيب الأحداث، فلما سأله أنطونيوس عن سبب نزوله من دير الملاح، أخذ ملاك يضحك قبل أن يخبره أنه كان يشهد عليه بأنه قتل باخوميوس ودميانة.

كانت أكثر الأمور دهشة لأنطونيوس أن دميانة المتهم بقتلها تقيم في دير النساخ، لكننا لم نعرف كيف أتت إلى هذا الدير المشتمل على أسرار أكثر مما يتوقع الناس، فخلفه دير مهجور، يقيم به عدد من النساخ العجائز، ظل ملاك يتحدث عما جرى في دير الملاح، وكيف أن يوساب والمنحني لم يستطيعا أن يتهما أنطونيوس بقتل باخوميوس، فقد خشيا أن يصبح الدير ساحة للتحقيقات، واضطر المنحني في عظته لأن يلمح لقداسة باخوميوس وإيمانويل الطيب.

لم يكن أنطونيوس منتبهًا لما يقوله ملاك، فقد هيجه الشوق لدميانة بمجرد معرفته أنها على قيد الحياة، شرد بذهنه في أحوالها، وما أوصلها إلى دير النساخ، شرد في ذهابها إلى بيتها، وإفطاره مع تريزا، وقراءته لكتاب أبيها "دفاعًا عن أوريجانوس"، ظل شاردًا بذهنه حتى كلت قدما ملاك من السير، وشعر أنه على وشك الإغماء عليه، فبحثا عن ربوة عالية وجلسا يتسامران.

كانت أصوات الذئاب قد بدأت تعوي، وشعر ملاك أنها ستهاجمهما في أقرب وقت، فأمسك بذراع أنطونيوس مرتعدًا، وأخذ الأخير يستدعي خبراته بالصحراء حينما كان يعيش فيها وحيدًا، فطالب ملاك بالهدوء كي لا يهيجها بفزعه، وأخذ يبحث عن شيء يساعدهما في الدفاع عن نفسيهما، وجد قطعة من الصاج فطلب من ملاك أن يطرق عليها ليخبر الذئاب أنه

مستيقـظ، ظل يسلي نفسه بالطـرق حتى غلبه النوم، فتـولى أنطونيوس الحراسة والسهر، وعلى أصوات الذئاب وأضواء القمر تخيل أنطونيوس أن دميانة تقوم بـدور الأم الراعية لهما، فأخذ يستنجد بقدرتها حتى رآها تجـيء على ظهر لبؤة كاشفة عـن أنيابها، لترسم حولهما دائرة من نور، ظلت الذئاب تعوي أمامها ولا تقترب منهما، حتى سمع أصواتًا تطن بقوة مـن حوله، ففتح عينيه ليرى ملاكًا يتحدث مع صبـي يرعى أغنامًا أسفل الربوة.

كان الصبي قد رآهما نائمين فقرر أن يوقظهما، زج بأغنامه حتى صعد بعضها نحوهما، فاستيقظ ملاك على تفحص إحداها لوجهه، بينما الصبي يضحك على تقززه منها، فما كان من ملاك إلا أن زجره، هنالك استيقظ أنطونيوس على شجارهما، ولم يمض كثير من الوقت حتى اعتذر الصبي لهمـا، ثم حلب إحـدى عنزاته في إنـاء قدمه لهما مع بعضـ من الخبز، ونصحهمـا بالذهاب إلى القرية المجاورة لأن غالبيتها أقباط، فانطلقا خلف إشارته حتى وصلا إليها.

دون تفكير كبير قرر أنطونيوس أن يعلن أنه يجمع مالاً لبناء كنيسة في الشمال، وقام ملاك بوظيفته المعتادة ككاتب، كان يكتب أسماء المتبرعين والأرقـام التي تبرعـوا بها مهما كانت صغـيرة، بينمـا أنطونيوس يلقي عظـة عن مـال الرب الذي يجـب أن يذهب إليه، فـكان الناس يطالبونه بـأن يبارك بيوتهم عـبر صلاة قصـيرة بها، وملاك يحصـي الجنيهات والقروشـ ويكتب الأسمـاء، ومع اقتراب اليوم مـن نهايته كان السؤال الذي يلح عليهما: ماذا بعد؟

مع غروب الشمسـ كانا يركبان الميكروباس المتجه إلى القاهرة، ومع الشروق كانا على موعد مع نفس المقهى الذي جلس فيه أنطونيوس وأحمد في رمسيسـ، فتناولا فطورهما قبل أن يتخذا المـترو لسانت تريزا، وفي المسافة التي بين المحطة وبيت دميانة فاجأ ملاك أنطونيوس قائلاً:

– هل تحب دميانة؟

لم يكـن لهذا السؤال من قبل وجود في مخيلة أنطونيوس، ربما لأنه لم يتوقـع أن أحدًا سيسأله إيـاه، وربما لأنه لا ينبغي لراهب أمضى أكثر من عشريـن عامًا في الصحراء بحثًا عن الله وإفناء لرغبات الجسد أن يتحدث عن الحب بين رجل وامرأة، فوقف لا يعرف بمَ يرد، فكلمة حب لديه من المفترض أن تسع الجميع، دون تمييز لشخص عن آخر، ورغم أنه ينهار من الداخل بمجرد سماع اسم دميانة، وأن صورتها لا تفارق مخيلته ليلاً ولا نهارًا، وأنه لم يعد يستطيع تغيير ملابسه إلا في الظلمة خشية أن تراه، رغم كل هذا إلا أن خجله منعه من أن يقول: نعم.

فالإعـلان عن الحب يحتاج إلى شجاعة، وربما إلى صفاقة لا تتفق مع الإيمان بالخجل المصاحب له دائمًا.

تفكر أنطونيوس كثيرًا قبـل أن يجيب صاحبه بالنفي، وكلما أعاد عليه ملاك السـؤال كان يرفع رأسه نحو السماء متهربًـا من النظر في عينيه، محافظًا على تماسكه وإصراره قائلاً:

- لا.

حينها فاجأه ملاك من جديد:

- هل تمانع في أن أحبها؟

هـذه المـرة لم يعـرف أنطونيوسـ بمَ عليـه أن يجيبه حقًّـا، ولا كيف يتخلصـ من الموقـف مع الاحتفاظ بحقه في أن يحبهـا وحده، تمنى لو أن الصمـت يطـول أو أن ملاك ينسـى، لكن الأخير لم ينسـ، والصمت لم يطـل، فقد لاحقه بالسؤال كما لو أنه يطلب منه البركة فورًا، فما كان من أنطونيوسـ إلا أن توقف في مكانه وفرد صـدره للأمام، ثم سحب قدرًا وافيًا من الهواء قبل أن يقول:

- لا أمانع.

هنالـك علت الفرحة وجه ملاك كمـا لو أنه بشِّر بلقاء المسيح، وضرب على صدر أنطونيوس مكررًا كلمة الشكر مرات، بينما أنطونيوس واقف

في مكانــه كقائد عسكري تنــزع عنه أوسمته ونياشينه، ظـل صامتًا حتى دفعه ملاك ليكمل معه الطريق، دون أن ينتبه إلى أن الحزن جعل وجهه قطعــة فحم. فظلا يســيران، أحدهمــا يتراقص فرحًــا، والآخر يحترق كمــدًا، حتى واجهتهما اللافتة التي ما زالت تحمل اسم صلاح متري، كما لــو أنها ظهرت فجأة لتنقذهما ممــا يغوصان فيه، فتقدم أنطونيوس ليصعد السلالم، وتبعه ملاك بعينين تحتضنان كل ذرة تراب على الجدران، وما إن ضغط أنطونيوس زر الجرس حتى ظهرت لهما جارة دميانة قائلة إن تريــزا أصيبت بنوبة قلبيــة أول أمس، وإن سيــارة الاسعاف نقلتها لمعهد ناصر، وهي الآن ترقد هناك بين الحياة والموت.

الجزء الثالث

مـلاك

إشارة الروح

-١-

لا أعـرف لماذا كنت سأطير مـن الفرح حين أجابني أنطونيوس بأنه لا يحـب دميانة، ولا يمانع في حبـي لها، شعرت كما لـو أنني فزت برؤية المسيح، كنـت أنانيًّا للغاية، فكرت في سعادتي فقـط، ولم أسأل نفسي إن كان بمقـدور دميانـة أن تحبنـي أم لا، هـل يمكن للمحققة التـي ينتظرها مستقبل كبير أن تربط حياتها بشخص ليس لديه ما يثبت وجوده في الحياة، شخصٍ في أفضـل الأحوال روح تتجول في أماكـن لا تعرفها، وتتحمل عذابات لم تتوقعها، روح خرجت من رحمها بهضبة الملاح لتعيش معاناة البشـر، ونضالهم اليومي تجاه كل شيء، ولأجـل أي شيء، فكم هؤلاء البشر مساكين، وكم هم جبابرة قساة، فما الذي أدخلني تجربتهم؟

كان علينا أن نذهب إلى معهـد ناصر لرؤية تريزا والاطمئنان عليها، دار بنـا سائق التاكسي نحو ساعتين في شـوارع القاهرة قبل أن يوقفنا في إشارة مرور قائلاً:

- باب المعهد من هنا.

سرنـا على أقدامنا نحو عشـر دقائق قبل أن نصـل إلى الباب، وسألنا عن تريزا أم دميانـا وزوجة صلاح متري، لكنهم طالبونا بمعرفة اسمها بالكامل، ظللنا نحو ساعة أمام الباب نطالب الأمن بالدخول وهم يطالبوننا بالاسـم، في النهاية تحدث أنطونيوس بوصفـه مندوبًا من الكنيسة لزيارة السيـدة تريزا، هنالك لم يسألـه أحد عن اسمه ولا ما يثبت هويته، فقد أخذ الجميـع يبحـث في أوراقه عن اسم تريـزا، ولم يكن هنـاك غير اثنتين، الأولى في الثلاثين من عمرها دخلت في حادث سير، والثانية في الستين، حالة ذبحة صدرية في العناية المركزة.

كانـت تريزا قد خرجت من الكنيسـة الأم والحزن يفيض عليها، فهي لا تعرف أين ابنتهـا ولا مصيرها، حتى الرجل الذي توهمت أنه سيكون عونًـا لها في البحث عنها اتضح أنه مطارَد مـن قبل الأمن، قطعت تريزا المسافـة مـن الكنيسة إلى رمسيس سـيرًا، لا تدري بنفسهـا إلا وهي على مشـارف الميـدان، لم تفكر في أن توقف ميكروباصًـا ولا تاكسى أو حتى تستقل المترو، كانت شبه فاقدة للوعي وهي تسير على قدمين منتفختين من الورم، وما إن وصلت رمسيس حتى ذهبت لدرجات المترو، فألقت نفسها في أول قطار متجه لسانت تريزا، ولم تعرف كيف نجت من السقوط أسفل عجلاتـه، فقد التقطها الناس قبل أن تزل قدمها أمام القطار، وهي تحاول أن تبتسـم في وجوه لا تراها، ولا تـدرك تفاصيلها ولا معالمها، ودت أن تبكـي حسرةً، كانت بالفعل تبكي بداخلهـا، ودموعها تتحول عرقًا يتدفق من مسامها، وأنفاسًا متقطعة في صدرها. أجلسها أحدهم في مكانه، ونبهها لاقتراب محطتها، وبطريقة آليـة صعدت الدرجات، سارت في الشارع ووقفت أمام بـاب البيت تلتقط أنفاسها، ثم زجت بنفسها على السلم متغلبة علـى ألم في كتفها، حين أدارت المفتاح بالباب لم يطاوعها، مسحته بريقها وعـادت تفتح فلم يستجـب، أخيرًا انتبهت إلى أنه ليـس المفتاح الصحيح، دققـت في مفاتيحها وأخرجت غيره، لكن النفـس المتقطع كان يزيد، وألم الكتف يصرخ، فاستندت بيدها إلى الباب، واعتدلت بظهرها إلى الحائط، ثـم نزلت لتجلس علـى البلاط، هنالك فتحت جارتهـا سيمون، وحاولت سؤالها عما جرى، لكن تريزا رسمت شبح ابتسامة على وجهها، وزاغت عيناهـا قبـل أن ينفـرط جسدها على الأرضـ، رنت سيمـون بالصوت العـالي، فحضر جـيران آخرون، وحملوهـا إلى معهد ناصـر، وهناك علموا أنها تعاني ذبحة كادت أن تودي بحياتها.

وقـف أنطونيوس أمـام تريزا في غرفـة العناية كما لو أنـه واحد من طـوال القامة، مسح على رأسها وكتفها وهو يتمتم بصلاة طويلة للمسيح، صلاة لم أسمع بكلماتها، لكن تعبيراتها كانت واضحة على ملامحه، فتارة كان يقطـب حاجبيه كما لو أنه يطـرد ماردًا، وتارة كانت ملامحة تنبسط

وأساريــره تنفرج وأسنانه تبين من بين فرجات ثغره، لا أعرف ما الذي جعلنــي أفكر في أنه لا يصلي، لكنه يتواصل مــع دميانة عبر تريزا، كان قابضًــا على يدها وهــو يبتسم، وتريزا ترسم ابتسامــة حقيقية على وجهها رغــم المرض، لم أعرف سببًا لابتسامتها، هــل فرحًا بعودة أنطونيوس، أم شعــورًا بالتحســن، لكن كان واضحًا أنها تشعــر بالسعادة، وأنني شبه غريب في عائلة متآلفة، ففضلت الانسحاب نحو الباب، تاركًا لهما فرصة الإفصــاح عما لا يريــدان لي أن أعرفه، غير أن هذا لم يحدث، فقد ربت على كتفها، وهي هزت رأسها له. حين سألته إن كانت تعلم أن دميانة في دير الزاوية، وجدت كلاهما يومئ برأسه.

خرجنــا مــن المعهد وكل الطرق مســدودة في وجهينــا، لا نعرف إلى أيــن نذهب، تريزا تنام على سرير بارد في مستشفى واسع، ودميانة تقيم في ديــر بجنوب البلاد، لا أحد يدخله ولا أحد يخــرج منه، وكأنه سجنها الأبــدي، ودير الملاح أصبح الجحيم لا المأوي، وفي الكنيسة الأم ينتظرنا أعــداء أكثر من طوال القامــة، فأين نذهب؟ هكــذا تساءلنا ونحن نحصي الأماكــن، ولم نجد أمامنا ســوى أن نعود إلى بيت تريــزا، حيث نمضي الليلة إلى أن يتجلى المسيح على الدنيا بجديد.

في الطريــق إلى البيــت رفضنــا أن نركب تاكسي، فضلنــا السير على الأقــدام كي نتعرف على المدينــة التي لم أنزلها من قبــل، سألنا عن كيفية الوصــول لمحطــة سانــت تريزا، وتركنــا لأقدامنــا العنــان، كان الناس ينظــرون لصليب أنطونيوســ الكبير وهو يتأرجح علــى صدره وبطنه، بينمــا أهرول كي أسير بجانبه، مــا إن وصلنا إلى المحطة حتى تعرفنا على الشــارع الذي سيوصلنا إلى البيت، هنالك رفضــت أن أذهب إلى بيت لا أعرفه والجوع يقتلني، فتركت أنطونيوس على أحد المقاهي وذهبت لمطعم كــي أشتري ما يأكله الناس، ووقفت منبهرًا وأنا أشاهد صاحب المطعم يعد لي طلبــي، ثم أخذ في لفه بأوراق الجرائد ووضعه في كيس حملته وعدت إلى أنطونيوس. حين وضعت الطعام أمامه بدا أنه كان أكثر جوعًا مني،

فأخذنا في التهام الطعام دون أن نفكر في شيء، لكن بعد قليل وقعت عيني على رسم بخط اليد أقرب ما يكون لوجه دميانة، تأملته قبل أن أقرأ العناوين الحمراء (قصة الفتاة التي أحدثت فتنة في الصعيد... السلفيون حاصروا القرية واشتبكوا مع الشرطة بسببها)، الملامح أقرب لملامحها، وتاريخ النشر بعد اختفائها، حينها رفع أنطونيوس يده قائلاً:

- أعرف من يمكنه أن يفسر لنا اللغز.

كان الصحفي أحمد قد منحه ورقة عليها اسمه ورقم هاتفه، فأخرجها وطلب من عامل المقهى أن يتصل به، حين جاءه صوت أحمد تهلل وجهه فرحًا، وأخبره بأهمية لقائه، ثم أعطى الهاتف للعامل كي يخبره بالعنوان واسم المقهى، انتظرنا نحو ساعتين قبل أن يجيئنا، وقبل أن نتحدث في شيء سأله أنطونيوس:

- كيف نصل لكاتب هذا المقال؟

تطلع أحمد للعنوان واسم الكاتب وقال إنه لا يعرفه شخصيًا، لكنه يعرف أصدقاء في نفس الجريدة يمكنهم أن يدلوه عليه.

ثم تساءل عن السبب، فنظر إليه أنطونيوس:

- لأننا نعرف أين هذه الفتاة.

-٢-

- مات أريوس.

هكذا انتشر الخبر في المدينة كما ينتشر الهواء العليل في الصدور، وعلت الوجوه الفرحة والراحة والحبور، ورقصت النسوة في البيوت والآباء في الحانات والكهنة رتلوا الأناشيد وأقاموا القداسات، لكن أين أثناسيوس الآن ليشهد هذا الفرح العظيم، ويعلم أن الرب معه، ناصره ومعمده في فرح النور بالنور، أين البابا الكروز بالعلامة المرقسية في الشرق والغرب، إنه الآن ما زال منفيًّا في تريف منذ غضب عليه قسطنطين، فهل يمكن أن يكون موت أريوس على هذا النحو المهين نهاية لآلام أثناسيوس العظيم؟ هكذا تساءل الجميع.

كان موت أريوس إعلانًا واضح من قبل السماء أن المسيح غير راض عنه ولا عن تعاليمه ولا أنصاره، فقد سعى هؤلاء جميعًا لإعادته لشركة الكنيسة لكن الرب لم يرد، ورفض سعيهم بشتى الطرق، فقد استغلوا نفي أثناسيوس إلى تريف، وتدشين قسطنطين كنيسة القبر المقدس في أورشاليم، تلك التي بنيت على الجبل الذي صلب به المسيح، حيث المغارة التي دفن بها جسده، وحيث قامت قيامته من بين الأموات بعد ثلاثة أيام من الموت على الصليب، فسميت كنيسة القبر المقدس، كما سميت كنيسة القيامة، هذه الكنيسة التي زين يوسابيوس النيقوميدي وأتباعه من الأريوسيين للإمبراطور أهمية تدشينها عبر عقد مجمع مقدس بها، فوافقهم على الأمر، حيث دعوا أنصارهم من القسوس والأساقفة ليعيدوا مناقشة تعاليم أريوس، معلنين خطأ ما وصل إليه الذين اجتمعوا في نيقية، وأن تعاليم أريوس ليست إلا دفاعًا عن الله، هذا الذي لا ينبغي له أن يلد

ولا أن يولد ولا أن يكون له مثيل أو شبيه لا في الهيئة ولا في الجوهر، وأن أريوس مجدد وليس مهرطقًا، ولا ينبغي أن يترك خارج حدود الكنيسة، إذ لا بد أن يكون في شركتها مع غيره من الآباء والقديسين.

كان قرار المجتمعين في أورشليم بهذا المجمع مطالبًا الإمبراطور بإعادة أريوس إلى كنيسة الإسكندرية، واستخدم يوسابيوس النيقوميدي علاقته بشقيقة الإمبراطور، تلك التي كانت مقتنعة بتعاليمه وأفكاره، فضغطت على قسطنطين كي يعيد أريوس إلى مكانه بالإسكندرية، فقد أجمع الآباء من القساوسة والأساقفة المجتمعين في أورشليم على أنه مجدد لا مهرطق، وكان الإمبراطور لا يزال غاضبًا على أثناسيوس، راغبًا في كسر شوكته ومحو أنصاره من الوجود، ولم يكن هناك أفضل من إعادة أريوس إلى الإسكندرية ليقضي على أثناسيوس وأنصاره، فأمر بسفينة مجهزة بالعتاد والرجال كي يحرسوا أريوس ويجلسوه في كرسي أثناسيوس، وكان ذلك أكبر أعلان للحرب على السكندريين، هؤلاء الذين تلقوا الخبر كما لو أن حكمًا بإعدامهم جميعًا وفي لحظة واحدة قد صدر، وما إن ترجل أريوس من سفينته، ظانًّا أن القوة المرافقة له ستحميه وتمكنه من رغبته في الوصول إلى كرسي مرقس الرسول، حتى فوجئ أن العواصف قد اشتدت، والأمواج قد هدرت، بينما الناس خرجوا يعصفون بكل شيء، مشعلين الحراق في كل مكان، مهاجمين الجند بأي طريقة وفكر، محاصرينهم حيث وجدوهم، مما جعل حاكم الإسكندرية ثيوذوروس يأمر بإعادة أريوس ومن معه إلى الميناء، مرسلاً إلى قسطنطين راجيًا منه أن يسحب أريوس من المدينة كي لا تحترق بمن فيها، فالشغب والعنف يجتاحها منذ سمع الناس بخبر مجيئه إليهم، ولا أظنه سيتوقف قبل أن يخرج منها أو تحترق عن بكرة أبيها.

لم يجد قسطنطين حلاً سوى النزول على رغبة ثيوذوروس، وسحب أريوس من المدينة الكارهة له إلى المدينة الجديدة التي يبنيها كي تكون عاصمة لملكه في الشرق، وأرسل إلى ألكسندروس بطريرك القسطنطينية

بخطاب يلزمه فيه بقبول أريوس متى وصله في شركة كنيسته، وهو الأمر الذي شق على ألكسندروس قبوله، وشعر أنه سيقدم على خطيئة لا تقل جسامة عن الكفر، وأنه لم يعش كل هذه السنين كي يقبل مهرطقًا في شركته، فلزم في كنيسته صائمًا مصليًا للرب كي يخلصه مما ألزمه به الإمبراطور، ولما رأى الرب صدق إيمانه استجاب لدعوته، فأصاب أريوس بمرض الإسهال وهو في طريقه إلى الكنيسة، وظل يسهل حتى مات في مرحاض عام بالمدينة، فاقتنع قسطنطين أن رهانه على الأريوسيين كان خاطئًا، وسرعان ما أصابه المرض، فشعر بدنو الأجل، وخشي من غضبة أثناسيوس عليه، فاستدعاه من منفاه واعتذر له، ثم سمح له أن يعود إلى الإسكندرية، فخرجت المدينة عن بكرة أبيها لاستقباله بالأناشيد والأغاني.

لم يكن استدعاء أثناسيوس واعادته إلى كرسيه في الإسكندرية هو الأمر الجليل الذي أقدم عليه قسطنطين في عامه الأخير، فقد أقدم على أمرين آخرين أكثر أهمية وخطورة، كان أولهما هو إعلان مسيحيته بشكل واضح وتام، هذا الأمر الذي تأخر فيه منذ إعلانه مرسوم ميلانو، حين أعلن إلغاء العقوبات المفروضة على من يعتنق المسيحية، وقام برد أموال الكنيسة إليها، هذا الأمر الذي تأخر نحو أربعة وعشرين عامًا، ولم يشعر بضرورة حسمه إلا مع سقوطه في مرضه الأخير، فاستدعى يوسابيوس النيقوميدي كي يقوم بتعميده، ليعلن للجميع انتماءه إلى المسيحية، وليسد الباب أمام عودة الوثنية إلى الدولة من جديد، أما الأمر الثاني فكان توصيته بتقسيم مملكته بين ابنيه، حيث يحكم قنسطانطيوس الجزء الشرقي وعاصمته القسطنطينية التي بناها كقلعة مسيحية، بينما يحكم قسطانس الجزء الغربي وعاصمته روما بتاريخها الطويل.

كان تعميد قسطنطين على يد يوسابيوس النيقوميدي إعلانًا واضحًا بإيمانه بفكر أريوس وأنصاره، حتى وإن سعى إلى رد اعتبار أثناسيوس وإعادته إلى كرسيه في الإسكندرية، فقد تسرب إلى أبنائه شعور بأن

يوسابيوس النيقوميدي على صــواب، ومن ثم سقط قنسطانطيوس حاكم الجــزء الشرقي من الإمبراطورية في التبعيــة الواضحة ليوسابيوس، هذا الذي جــاءت رغبة قسطنطين في أن يتعمد على يديــه بمثابة قبلة الحياة له ولأنصــاره مــن جديد، فبعدما تشــكك الجميع في مدى قبــول الرب لفكر أريوس وأنصاره بعد موته المهين بمرحاض عام قبل أن يقبل ألكسندروس شركته في كنيسة القسطنطينية، ومن ثم فقد انتقل يوسابيوس إلى العاصمة الجديــدة بمجرد انتقال قصر الحكــم إليها، ليتخذ مكانتــه الكبيرة في قصر قنسطانطيوســ، مصــورًا له أن مــوت أريوس لم يكــن إلا نتيجة لطعام مسموم وضعه له جنــود ثيوذوروس على السفينة، وأن أهل الإسكندرية لم يرفضــوا أريوس ولا تعاليمه، وإنمــا كان الأمر حيلة من ثيوذوروس صديــق أثناسيوســ، والراغــب هو وصديقــه في الانفصــال بمصر عن روما، فأثار الشغــب ضد أريوس، ليضع قسطنطين في موضع المنهزم، وليضع العامة على طريق الشجاعة في المطالبة بالانفصال، ومن ثم فلا بد من الإطاحة بثيوذوروس وإرســال فيلاجيوس الكبادوكي القوي عوضًا عنــه، فقد حكــم الإسكندرية من قبــل، ويعرف كيف يخضــع أثناسيوس وأنصاره للإمبراطور.

مــا إن وصل فيلاجيوســ إلى الإسكندرية حتى أصبحــت المدينة ساحة حــرب، فقد تداعى الأريوسيون مــن أنحاء البلاد كافــة ليقوموا بالشغب والعنــف والقتل العلنــي في المدينة، متهمــين أثناسيوس أنــه سرق أموال الفقــراء، وأن عودتــه إلى الكنيســة ليســت صحيحــة، لأنــه عــاد بإذن الإمبراطور وليس بقرار من مجمع مقدس، وهو ما أوحى لقنسطانطيوس أن وجود أثناسيوس في الإسكندرية سينزع عنها السلام الدائم، وأنه لا بد من نفيه، فلم يكن أمامنا سوى أن نستنجد بالآباء الكبار في الأديرة البعيدة كــي ينزلوا لتعضيــد أثناسيوس ووجوده بالمدينــة، فأرسلنا إلى الأب بولا والأب أنطونيوســ والأب باخوميوس والأب ديمتريوس والأب بيشوي في أديرتهم لنصرة الرب، بينما رأى أثناسيوس أنه لا بد أن يذهب ليناور مــن طريق آخر، ولم يكــن هناك غير طريق صديقــه يوليوس بطريرك

روما، فجلسنا نفكر في كيفية الخروج من تلك المدينة التي تعج بالأعداء والكارهين، حتى أن كل حجر فيها أصبح مثيرًا للريبة، لكن أحد التجار المؤمنين بعدالة موقف أثناسيوس قرر مساعدته في الهروب، فأحضر له ملابس تاجر وجعله يخرج برفقة اثنين من عبيده، وما إن ابتعدو عن المكان حتى عرجوا على الميناء فصعدوا إلى سطح سفينة تنتظرهم هناك، وسرعان ما أبحرت بهم حتى وصلت إلى روما، فنزل أثناسيوس في ضيافة صديقه يوليوس، وذكر له ما يدبره يوسابيوس، وكيف أقنع أنصاره الناس أن عودة أثناسيوس إلى كرسيه غير صحيحة، فما كان من يوليوس إلا أن سطر رسالة طويلة إلى يوسابيوس ثم أمر بعودته، وهو أمر سياسي لا علاقة له بصحة معتقد الرجل ولا أحقيته بكرسيه، فما كان من يوسابيوس إلا أن أقنع الإمبراطور قنسطانطيوس بعقد مجمع في أنطاكيا، وأرسل يوسابيوس من القسطنطينية إلى يوليوس في روما بخطاب يسخر فيه من وقوفه في الجانب الخاسر، ولم تمض أربعة أيام على صدور قرار العزل في أنطاكيا حتى وجدنا جريجوريوس الكبادوكي يصل إلى الإسكندرية كأسقف بديلاً عن أثناسيوس.

في روما لم يتوقف أثناسيوس عن العمل على تعليم الناس طرائق الوصول إلى الله، فقد استأذن في الاعتزال في إحدى الصوامع أو القلالي بالجبل، ولم يكن الرومان يعرفون الرهبنة، فشرح لهم كيف يخرج الراغبون في الانقطاع لعبادة الرب كي يقيموا في قلال متناثرة في الصحراء، وكيف تحولت حياتهم من الحالة الفردية إلى الحياة الجماعية، وهذا ما فعله الأب باخوميوس في جنوب مصر والأب جبرائيل الملاح والأب أنطونيوس في شرقها، ثم صعد أثناسيوس إلى الجبل فصعد معه عدد من الراغبين في حياة الاعتزال، فظلوا نحو شهرين في قلاليهم، لا يلتقون إلا ساعتين في النهار، يجمعون فيهما الأشجار التي تكفي لتدفئتهم، ويتقوتون بما توافر بين أيديهم، ثم يعودون لقراءة الأناجيل وتأمل شروحها، ويصلون قداس الصباح وقداس المساء معًا، وينصتون إلى عظة واحدة في اليوم الواحد.

في هــذه الزيارة سمع إمبراطور الغــرب قسطانس بأثناسيوس وحياته وعزلتــه في الجبــال، فطلــب لقاءه والسمــاع إلى سبب العــداء بينه وبين يوسابيوســ، فذكر له أثناسيوس ما جرى بينــه وبين أريوس وأنصاره، فاقتنــع الإمبراطــور بموقفه، وزادت قناعتــه حين أعلمــه أتناسيوس أنه علــى استعــداد أن ينظر مجمع مقدس من أساقفة الشــرق والغرب معًا في أمــره، وليس أن تعرض قضيته على مجمــع يشكله يوسابيوس وأنصاره مــن الأريوسيــين، فوجدها قسطانســ فكرة صائبــة، فأرســل إلى أخيه قنسطانطيوس إمبراطور الشــرق في القسطنطينية قائلاً: إن الفُرقة الدينية ستمزق جسد الإمبراطورية، وأن أثناسيوس ليس مجرد أسقف لكنه راع لكنيســة كبيرة، وله أنصــار وأتباع بلا حصر، ولن يقتنــع أتباعه بعزله في مجمــع محلي بأنطاكيــا، فلم لا ندعــو إلى مجمع عام يحضــره أساقفة الشرق والغــرب لمناقشة قضيته، ويكون قرارهــم ملزمًا للجميع؟ فوافقه قنسطانطيوس على رأيه رغم مقولات يوسابيوس وغيره من الأريوسيين عن أن أثناسيوس هو الذي أثر على قسطانس وخدعه. لكن قنسطانطيوس لم يتراجع عما اتفق عليه مع أخيه، وقرر أن يعقد المجمع في مدينة سرديكا التــي على الحدود بــين الإمبراطوريتين، فجاء انعقــاده بعد نحو عام من زيارة أثناسيوس إلى روما.

كان أثناسيوس ما زال في رومــا مشمولاً برعاية صديقه الإمبراطور قسطانســ، وكان بطريرك روما يوليوس هــو المسئول عن دعوة أساقفة الغــرب للمجمع، بينما كان يوسابيوس مسئولاً عن دعوة أساقفة الشرق، إلا أنــه أصيب بمرض مفاجئ ومات قبيل انعقاد المجمع بنحو شهر واحد، وأصيــب الأريوسيون بصدمة أفقدتهم القدرة على مواجهة يوليوس ومن معهــم، ولم يكن أمامهم من حل سوى الانسحاب من المجمع، فاعترضوا على وجود أثناسيوس وأنصاره، وأصروا على أنه معزول من قبل مجمع أنطاكيــا ولا يجوز حضــوره، وتأكيدًا على موقفهم عقــدوا مجمعًا خاصًّا بهــم في مدينة فيلوبوليســ المقابلة لسرديكا من قبل حــدود مملكة الشرق، وفيه حرمــوا يوليوس وأثناسيوســ وعددًا آخر مــن الأساقفة المتضامنين

مع أثناسيوس في عدم عزله، ثم أرسلوا خطابًا ليوستاثيوس كاهن كنيسة سرديكا يعتذرون فيه عن اضطرارهم للعودة إلى القسطنطينية تلبية لدعوة الإمبراطور قنسطانطيوس الذي عاد منتصرًا من حربه مع الفرس، لكن ذلك لم يفت في عضد الآباء الذين جاءوا ليجتمعوا في مدينة سرديكا، فقد عقدوا مجمعهم الذي ثبَّتوا فيه أثناسيوس على كرسيه في الإسكندرية، وحرموا في المقابل أحد عشر أسقفًا أريوسيًّا سعوا لحرمانه دون حق.

لم يترك الأريوسيون سبيلاً لمنع أثناسيوس من العودة إلى الإسكندرية إلا وطرقوه، فأحكموا قبضتهم على غضب إمبراطور الشرق، هذا الذي لم يصحُ ضميره إلا مرة واحدة، حين شعر أن الأريوسيين بحماقتهم سيشعلون الحرب بينه وبين أخيه، فاتخذ عدة إجراءات سريعة كنوع من الاعتذار وإعادة ضبط الأمور في مجراها الصحيح. حدث ذلك حين أتى بعض الأريوسيين بامرأة شريرة ودخلوا بها إلى أسقفين كانا مرسلَيْن من قِبل الإمبراطور قسطانس إلى أخيه إمبراطور الشرق، وحين دخلت المرأة إلى حجرة أحد الأسقفين صرخت مدعية أنه قام بالاعتداء عليها، وظلت تصرخ وتصرخ حتى استيقظ كل من في القصر وسمعها كل من في المدينة، وفتحوا عليها بابها وهي تولول بأن الأسقف اعتدى عليها، لكنها لم تكن رأت الأسقف، ولم تتوقع أن يكون في هذه السن، فقد قيل لها إنه شاب في الثلاثينيات من عمره، لذا لم تستطع أن تتدارك خطأها، وأسقط في يدها بمجرد أن علمت أنها دخلت الغرفة الخطأ، لم تملك سوى الاعتراف بأن إسطفانوس أسقف أنطاكيا هو الذي طلب منها أن تفعل ذلك مع أسقف يدعى أثناسيوس، لكنها ضلت الطريق ودخلت إلى غرفة مندوب الإمبراطور قسطانس. هنالك كان لا بد أن يتخذ الإمبراطور قنسطانطيوس موقفًا ينقذ من خلاله العلاقة بينه وأخيه. فأعلن غضبه على الأريوسيين، وأمر بعودة المنفيين بسببهم إلى بلادهم من جديد، وكان أثناسيوس في مقدمتهم، فأرسل له ثلاثة رسائل اعتذار، معلنًا فيها شوقه لرؤياه، راجيًا عودته إلى كرسيه الرسولي، وقبل أن يذهب أثناسيوس إليه قرر الذهاب إلى صديقه يوليوس أسقف روما، هذا الذي فرح كثيرًا

للعفو عنه، فكتــب إلى شعب الإسكندرية يهنئهم بعــودة أبيهم المناضل إلى كرسيه، بعدهــا التقى أثناسيوس بقنسطانطيوســ في القسطنطينية، وتقبل منــه اعتذاره، وصلى من أجــل غفران خطاياه، ثم خــرج في سفينة من سفن الإمبراطــور محملة بالهدايــا إلى الإسكندرية، ليجــد شعبه واقفًا في انتظاره علــى الشاطئ بالتهاليل والأناشيد تعبيرًا عــن الفرح بعودة أبيهم بعد غياب دام سبع سنوات في بلدان أوروبا وجبالها.

-٣-

وجدت دميانة نفسها فجأة في عالم كبير واسع لم تكن تعرف شيئًا عنه، عالم سري لا يقل ثراء في أحداثه عما تعيشه في العالم المعلن، وكان الأكثر دهشة لها أنها ابنة أحد المؤسسين لهذا العالم، فصلاح متري، المحامي اليساري الذي نذر نفسه للدفاع عن حقوق الفقراء هو نفسه العضو المؤسس في جماعة الأمة القبطية، وكان من الممكن أن يكون أحد أفراد تنظيمها المسلح لولا أن بنيته الجسدية لم تساعده، فلم يحتمل التدريب في الصحراء، وآثر أن يكون طابورًا خامسًا للجماعة، يدافع عن حقوقها المدنية، ويكون رابطة العقد بين المتدربين وذويهم في القرى والنجوع والبيوت والحارات، هكذا عهد إليه يؤانس بمهمة جمع التبرعات وتوصيلها إلى من نذروا أنفسهم لخدمة الرب، لكن هؤلاء لم يكونوا على وفاق دائم مع الكنيسة، فهي تارة تراهم خارجين على قانونها، وتارة ترى أنها في حاجة لدفاعهم عنها، ومواجهة القوى الدينية العائدة من الخليج، هم بدورهم لم يكونوا راغبين في هدم الكنيسة، لكنهم غير راضين عن تحفظها، يرون أنه لا بد من توسيع رقعة العمل، وتجديد الدماء والأفكار، بما يتوافق مع القرن العشرين وليس مجمع نيقية.

جلست دميانة تنصت إلى يؤانس وهو يحدثها عما جرى في السنين الخوالي، وكيف استطاع أن يكون جيشًا من المتطوعين لحماية الكنيسة من السلفيين الذين لن يتوقفوا عن مضايقة الأقباط ما لم يجدوا من يصد هجومهم، فقانون الغابة يقول إن توازن القوى هو الذي يصنع السلام على الأرض.

- لكن الكنيسة لم ترضَ بالإعلان عن قوتنا.

قالهـا يؤانس مـبررًا عدم مهاجمتهـم الإسلاميين مثلمـا يعتدون على الأقباط في سيناء وغيرها.

تفهمـت دميانـة ما يعانيـة يؤانس، فحتـى الآن ما زالـت الفكرة التي ترك من أجلها الحيـاة العلمانية ودخل إلى الرهبنة متجردًا من كل شيء، لم تتحقـق، وما زالـت الكنيسة تعيشـ انقسامًا حولها، فالبابـا الجديد مع التقارب مع العالم، والرغبة في الانفتاح على الكنائس الأخرى، والقبول بمعموديـة الكاثوليك، متجـاوزًا خلافات الماضي، فقـد ضعف الجميع، وتكتلـت الضربات على البيت المسيحي، سواء في الشرق أو الغرب، ولم يعد بالمستطاع الوقوف عند حدود العصور الوسطى، وليس أمامنا سوى أن نعيـد النظر في مختلـف القوانين القديمة، ليس أمامنـا سوى أن تكون ديانتنـا أكثر إنسانية ومعاصرة، فالشعب مثقل بالهموم، وبين فكي رحى التطـور الذي يعيشه كل يوم، والثبات الروحي الذي وضعه قديسون في أزمنـة غابرة، فكيف يمكن الوصـول إلى حياة قبطيـة مطمئنة ومبهجة؟ هكـذا يتساءل البابا ورجـال الإكليروس، لكن ليسـ كل تساؤل له إجابة واضحـة، فكل رجال الرب حريصون على إرضاء الرب، إلا أن الرب لم يحـدد لنا طريقـة إرضائه، لذا فالكل يجتهد، والـكل يخطئ ويصيب، وليس لدينـا أوريجانوس الآن كي نهتدي بـه، ولا أثناسيوس كي نرمي بأنفسنا خلفه في البحر.

ظـل يؤانس يتحدث مع دميانة عن ذلك العالم السري الذي لا تعرفه، وعيناها تتسعان دهشة أكثر فأكثر، موقنة أن العالم على شفا حرب مؤجلة، ولـولا الدواعش لقاتل الأقباط بعضهم بعضًا على التجديد والتغيير، لكنها لم تستطـع الربط بين ما جرى معها وما حدَّثها عنه يؤانس، فقد تصورت أن ديـر الملاح بعيد عمـا يجري في المنيا وأسيـوط وسيناء، تصورت أن المـلاح بقعة منعزلـة عن العـالم، وأن أحدًا لم يكن يعرفهـا سواها، حين روت ليؤانس أنها تخرجت مثـل والدها في كلية الحقوق، وعملت محققة في بعضـ الأديرة والكنائس، كان آخرها ديـر الملاح الذي تعرضت فيه لمحاولـة قتل على يد بعض الرهبان، حينهـا انتبه يؤانس لما تقول، وطلب

منهـا أن تعيد عليـه حكايتها في الدير، مظهرًا تعجبه مـن أن يتهم يوساب والمنحنـي تلامـذة إيمانويل بنشر كتـب الهراطقة، فمنذ متـى وهذا الدير يفصل في تعاليمه بين القديسين والهراطقة، تاريخه كله أقرب إلى العلمانية منه إلى الإكليروس.

شعـرت دميانة أن يؤانس لم يلتفت إلى مصيبتها بقـدر ما توقف أمام مـا جرى على دير الملاح مـن تغير، وبدا لها أن المـكان أصبح شيئًا أكبر ممـا كانت تظن، فطيلة عامين كانت تراه منفًى حقيقيًّا، ولولا ما يمنحونها إياه من راتب كبير ما ذهبـت إليه، ولولا ظهور أنطونيوس في حياتها ما تذكـرت من أمر الديـر شيئًا. ودَّت لو تحكي له عـن ميلها لأنطونيوس، وعـن صورته التـي تراها في منامها على هيئة راعـي غنم في حقل مليء بالأعشـاب، لكنهـا لم تستطـع، وأغلقت قلبهـا على مشاغلـه وهمومه، وعـادت إلى الغرفة التي جهزوها لها، وظلـت تتشاغل من جديد بالكتابة والرسم عن عزلتها.

لم تمضـ أيـام حتى همست لهـا مريانا أن الأب يؤانـس سوف يغادر الدير، فثمـة أمور جدت وسيغادر من أجلها، كانت هذه هي المرة الأولى التي بدت فيها مريانـا كأم بالنسبة لها، حين التقت بيؤانس أكد لها الخبر، وسألهـا إن كانـت تريد المجيء معه أم ترغب في البقـاء مع مريانا، لكنها باستسلام شديد هزت رأسها قائلة أنها تريد رؤية تريزا، أمرها يؤانس أن تكتـب خطابًا تشكر فيه مريانا على استضافتها لهـا، وتبلغها بأنها خرجت من دون علم أحد كي لا تقع في أيدي السلفيين.

بعـد يومين أخبرتها مريانا أن الباصـ ينتظرها في الخارج، وودعتها هي وباقي الأخوات قبل أن تستقل الباص، وجدت فيه الأب يؤانس ومعه ثلاثة من الرهبان طويلـي القامة، نظرت في عين أحدهم ورأت أنه ممن سعـوا لقتلها ليلة نزولها من دير الملاح، شعـرت أن جسدها يرتعش وأن كلبًـا ينبح عليها من ركـن خفي بالباص، توقفـت في مكانها وترددت أن تخطـو بقدمها إلى الأمام، لكن يؤانس نظر إليها متعجبًا، ثم مد يده وأشار لهـا بالصعود، لم تعـرف بمَ تجيبه، ونـزل أحد الرهبان ليأخـذ حقيبتها

ويعاونهـا. كان الراهـب الذي شـارك في مطاردتها لا يـزال جالسًا في كرسيـه، كما لو أنـه لا يريد أن يعلن عن نفسه، تـردد في النظر نحوها، تـردد في الاستجابة لطلب يؤانـس، وظل خانعًا في كرسيـه كفأر مبتل، وكان الكلـب السماوي قد مال بعنقه في فتحة بـاب الباص مصدرًا صوتًا أشبـه بالعواء، تاركًا مساحة بالكاد تكفي لمرورها من جواره، كان يعوي كمـا لو أن أحـدًا ركله في صدره بقـدم ثقيلة، حين صعـدت لم تجد مكانًا بجانـب يؤانس، ولم ترغب في الجلوس بجانـب الرهبان الذين احتل كل منهم كرسيًّا يجلس عليه اثنان، فاختارت كرسيًّا فرديًّا وجلست تنظر بعين على يؤانس وعين على الرهبـان، وضعت حقيبتها أسفل قدمها وتذكرت تلك الليلـة التي خرج بها الباص مع الرهبان من أمام هضبة الملاح، كان الخـوف يتملكها إلى حد الفزع، فهل يمكن أن ينجـح يؤانس فيما فشل فيه رهبانه من قبل!

حين تحرك الباص بدا لها أنه اتخذ طريقه نحو الشرق وليس الشمال، لم تكـن تعرف الطريق لكنها أعملت غريـزة الشعور بالاتجاهات، رأت الباصـ يعبر على كوبري طويل، رأته يمشـي في اتجاه الجنوب ويعرج علـى طريـق واسع ليـدور بعيدًا عـن النيل وليسـ في محاذاتـه، رأت الصحـراء تتسع مـن حولها من كل جانب، مدت البصـر بقلق علها ترى ملمحًـا للبيـوت هنا أو هناك، لكنها لم تعثر إلا علـى خيمة لراعٍ أو حجرة صغـيرة في الرمـال، كانت عينها تـرف ما بين يؤانـس والرهبان الذين جلسوا كما لو أنهم تماثيل نحتت على مقاعد، بينما مال يؤانس برأسه على كتفه ونام، كيف لهـذا العجوز أن يأمن على نفسه برفقة رهبان كهؤلاء، في باصـ يقطع صحـراء شاسعة كهـذه؟! ودت لو أنها تذهـب لإيقاظه، لكنها لم تجرؤ علـى فتح فمها أو التحرك من مكانها، استحضرت في قلبها صورتي تريزا وأنطونيوس، وظلت تتلمس منهما الشجاعة على مواجهة المصائر غير المعروفة، وبالحدس أدركت أنها ذاهبة إلى دير الملاح، حين رأت جبلاً يعلو من بعيـد خايلتها صور المقيمين هناك، وحين مال الباص بحذائه أيقنت أنها باتجاه موطئ موتها القديم، ظلت تصلي في قلبها للمسيح وللسيدة العـذراء والقديسة تريزا كي يكونوا معها في هذا اليوم العصيب،

ظلت تردد كل ما تعرفه من أناشيد وآيات ومزامير، وكأنها ذاهبة إلى الموت، مرتجفة تارة وباكية أخرى، بينما الكلب السماوي أصبح فجأة بحجم لبؤة تنام على سلم الباص، لبؤة وضعت يديها إلى الأمام ومالت برأسها عليها، كأنها لا يعنيها ما يدور حولها، حسدتها دميانة على هدوئها في رحلة كهذه، وودت لو أنها تسأل الرهبان إن كانوا يرونها على سلم الباص كما تراها، أم أنها خيالات الصحراء وسرابها، لكنها لم تجرؤ على شيء، فلزمت مكانها وأغلقت عينيها مستدعية أنطونيوس وتريزا وصلاح متري، وحده يؤانس الذي قطع عليها مخاوفها وصمتها، فقد استيقظ فجأة ومال برأسه نحوها سائلاً إن كانت تعرف إلى أين يذهبون الآن، هزت رأسها بالنفي، فقال إنهم الآن في جبل الطير.

حكي لها أن كنيسة العذراء بنيت على المغارة التي لجأت إليها العذراء وابنها المسيح، ويبدو أن عوامل التعرية كانت قد طمرت المغارة، فكلفت الإمبراطورة هيلانة، والدة الإمبراطور قسطنطين من بحث عنها حتى كشفها، ثم بنت عليها الكنيسة، كان ذلك في زمن البطريرك أثناسيوس، لم يكن وقتها موجودًا في مصر وقتها، فقد نفي سبع مرات بسبب صراعه مع الأريوسيين، وكان العالم المسيحي منقسمًا على نفسه بسبب هذا الصراع.

ظلت دميانة تنصت لكلماته وهي تصعد بجواره درجات سلم طويل في اتجاه الكنيسة التي تعلو الجبل، كان يصعد درجتين أو ثلاث ويتوقف ليلتقط أنفاسه ويحكي، بدا كما لو أنه يستمتع بتعذيب الرهبان الذين جاءوا معه في الباص، أو حتى الذين ظهروا بمجرد أن وطأت قدماه المكان، بدا أيضًا أنه ملك غير متوج، وأنها يمكنها أن تلعب دور الأميرة، لكن خوفها من الاقتراب من العالم المظلم جعلها تطيح بالفكرة جانبًا وتسأله عن سبب مجيئه إلى هنا، فتأمل خطواته قبل أن يمد يده إلى أحد الرهبان طالبًا الصندوق، فأخرج الأخير صندوقًا صغيرًا فتحه قائلاً:

– انظري.

أومأ برأسه لها كي تزيح قطعة الحرير لترى الكتاب، حين نظرت إلى الغلاف المصنوع من جلد الماعز، أمرها أن تقرأ العنوان:

- الرسائل. . . أوريجانوس!

هكـذا قالت بصوت خفيض، فأعطـى الصندوق من جديد إلى الراهب كي يعيده كما كان:

- هل تعرفين أين كان هذا الكتاب؟

هكذا قال منتظرًا إجابة بعينها، حين أومأت بالنفي ابتسم قائلاً:

- دير الملاح.

ثـم تأمل معالم الدهشة على وجهها، ويبدو أن هذه اللحظة من الحيرة والارتبـاك التي بدت على وجه دميانـة أصابته بالمتعة، فأخذ يطيل النظر نحوها في هدوء سائلاً:

- هل تعرفين كم يساوي؟

لم يرفـع عينيه عن وجهها، وظل يـردد أنفاسه بهدوء في صدره كمن يعيـد تنظيمها من جديـد، وحين لم تجبـه استدار نحو المـدق الصاعد إلى الكنيسة قائلاً:

- احسبيها بالدولار.

-٤-

رسائل أوريجانوس (١٤)

عزيــزي ديونسيوســس، علمــت أن الطاغيــة فاليريان أمــر بنفيك إلى وادي خفــرو في منطقــة المدن الخمس بالغــرب، لا أعرف كلمات يمكنها أن تواسيــك في محنتك هذه، فالنفي عــن الوطن هو أصعب الآلام التي قد يعانيها المرء، لكن عزاءك الوحيد أنك تنفى وتعذب من أجل الله، فعذابك مقدس، ونفيك مقدس، وكل فعل تقوم به من أجل شعبك هو فعل مقدس، فاصــبر وادع الرب أن يضيء طريقك نحو الصواب، لأن الظلم ظلمة، وظلمــة الظلم تعمي القلــوب لا الأبصار، فصلِّ من أجــل أن يُبقي المسيح عينيك مفتوحتين على الطريق الصواب، فلا تزل ولا تخطئ ولا ترتكب الهفوات.

عزيــزي.. اسمــح لي أن أصلي من أجلــك، وأن أتلــو التسابيح كي يرفــع المسيح عنك محنتك، فحين تــولى مكسيميان التراقي الإمبراطورية أمــر بالقضاء على الأساقفــة والكهان المسيحيين، وكانــت طريقته عجيبة وقاسية، فقــد أباح دماءهم للشعب، هنالك خــرج الوثنيون لينقضوا على كل مسيحــي، وأصبح كل رجل دين مسيحي مستهدفًا، لأن من سيقتله أو يجرده مــن أمواله أو يحرق بيته لن يناله عقاب، فهكذا حكم الإمبراطور الذي استمر حكمه نحو عامين وشهر، ولولا أن أبناءنا الضعفاء في بيوتهم ظلــوا يصلون من أجل نجاتنا مــا كنا سننجو، هكذا قــرر الجميع أن يغلق بيتــه ويفر إلى الجبــال، يومها كنــت في قيصرية كييادوكيــا، وودت أن أعــود لأكون بــين أبنائي وأحبائــي في قيصرية فلسطين، لكــن أصدقائي في كييادوكيــا رفضــوا السمــاح لي بالخــروج من ديارهم، قلــت لهم إن

الشخص الذي حفز الآخرين على الاستشهاد لا يمكنه أن يتكاسل عن مبادئه، لكنهم رفضوا أن أخرج من بيت جهزوه لي في قلب الجبال، ولم يبق معي في البيت سوى خادم صغير، خادم لا يعي من أمره شيئًا، كان يتمتع بصنوف البلاهة التي تبقيه بجانب شخص مستهدف من كل جانب مثلي، حين انتهت المحنة وعدت إلى قيصرية فلسطين وجدت كيف أباح مكسيميان دماء كهنة المسيح، وكيف أجبر الناس على ترك المسيحية وتقديم الأضحيات للأوثان، كنت أنظر إلى كل ما حولي فأجد آثار الدماء عليه، دماء أصدقائي وأبنائي الذي عذبوا أو قتلوا في بيوتهم، لا لشيء سوى أنهم كانوا مؤمنين.

ذكرتني الحكايات التي سمعتها في قيصرية بما سمعته عن اضطهاد نيرون للمسيحيين، كان ذلك هو الاضطهاد الأول، ولم يكن مضى على قيامة المسيح سوى ثلاثين عامًا، لكن الذين آمنوا به كانوا في ازدياد، وكانت النخب الرومانية لا تخشى على نفسها إلا من تلك القلة المسيحية التي تكثر كل يوم، لذا حين احترقت روما لم يجد نيرون ضحية جاهزة سوى المسيحيين، خطب كعادته في مجلس الشيوخ قائلاً إن هؤلاء الخونة هم الذين حرقوا روما العظيمة، وصدقه النبلاء، صدقوه لأنهم ما كانوا يريدون أن يزعجوا أنفسهم بالحقيقة، صدقوه وصفقوا له رغم يقينهم أنه الذي ترك النيران تشتعل في العشش المحيطة بالسيرك، وأن الريح ساعدت رغباته الشريرة، فجلس قصره يتابع وينظر ولا يأمر بالإطفاء إلا حين تأكد أن النيران أتت على كل شيء، وأنهم مهما أخمدوها فلن تنطفئ، لم يكن نيرون مجنونًا، لكنه كان يحلم بإعادة بناء روما.

لم يكن نيرون الوحيد الذي اتهم المسيحيين كذبًا، ونصب لهم المشانق وشدهم على آلات التعذيب، فبعد رحيله بنحو خمسة عشر عامًا، شن دوميتيان اضطهاده للمسيحيين، حتى أن سمعان، الأسقف الذي جلس على كرسي أورشليم خليفة للقديس يعقوب الرسول، مات مصلوبًا، والقديس يوحنا الرسول عُذِّب بالزيت المغلي، ثم نُفِيَ إلى بطمُس، وهناك رأى رؤياه التي سجلها في سفر الرؤيا، وفي عصر دوميتيان صدر

قانون يقول "لا يُفـرج عن مسيحي أمام المحكمة ما لم يجحد دينه"، وكان يلقي باللوم علـى المسيحيين بسبب أي مجاعة أو زلزال أو وباء يحدث في البـلاد. وبعد نحو عشرين عامًا حـرَّم تراجان المسيحيـة نهائيًّا، وصلب سمعـان أسقف أورشليم وهـو في سِن المائة والعشريـن، وفي نفس السنة استشهـد الأسقف الأنطاكـي أغناطيوس الرسولي، الـذي خَلَف الرسول بطرس علـى كرسي أنطاكيا، وأُلقِيَ للوحوشـ الضارية في الكلوسيوم، ثـم ازداد الاضطهاد قسوة وضـراوة في عهد هادريـان خليفة تراجان، فاستشهد في عهده نحو عشرة آلاف مسيحي.

كان الاضطهاد يا صديقي موجـات إثر موجات، حتى أن الشهداء في الموجـة الرابعة أثناء حكم أوريليوس أنطونيوسـ كانوا يسيرون بأقدامِهم الحافية فوقَ الأشواك والمسامير، ومن فرط ما شهده المسيحيون في رومَا والإسكندريـة ونابلسـ وسيسليا وإفريقيـا وآسيا الصغـرى من مطاردة وتعذيب، كانـوا يحفرون السراديب تحت الأرضـ ليختبئوا فيها مقيمين صلواتهـم وقداساتهم بعيدًا عـن القتل، قائلين (يـا رب.. اضطهاد فوق الأرضـ... وصلاة تحت الأرض... أنقذنـا يا الله). بينما أوريليوس يصـر على أن المسيحيـة خرافة مصطنعة، فيأمر جنـوده بمزيد من القتل والإبادة لكل ما هو مسيحـي، حتى ملأت جثث الشهداء الطرقات، ومن بينهم القديس بوليكاربوس أسقف أزمير، وتلميذ القديس يوحنا الحبيب.

ورغم أن الإمبراطور ساويرس كان يعاني مرضًا عضالاً، ولم يُشفَ منـه إلا على يد طبيب مسيحـي كان يكثر الصلاة لأجله، إلا أن ساويرس تنكـر لصلواتـه، وأبـاح دمـاء المسيحيين في عصـره، فعصـف الجنود والوثنيـون بكل ما لـه علاقة بالمسيحية، على يد جنـوده استشهد والدي، كمـا استشهد فيكتور أسقـف روما والقديسة بوتامينـا والضابط الروماني باسيليدسـ الـذي آمن علـى يدهـا بالمسيـح، وإيريناؤس أسقـف ليون، وأسكليياس أسقف أنطاكيا، وكاليستوس وأوربان أسقفا روما.

في كل موجـة كانت عظامي تحتمـل التعذيب والاضطهـاد، لكنها في اضطهـاد ديسيوس خانتنـي ولم تحتمل، ربما لأنني ضجـرت، ولم أعد

قـادرًا على الاحتمال، وربما لأن السنـين استطاعت أن تأكل طبقات من روحـي، فوهنت، واشتدت القيود على معصمـيَّ، وحزت السلاسل في أضلعـي، وتقيحت الجروح، ونزفت الشرايـين والأوردة، نزفت حتى صرت كحشـرة وقعت في شباك عنكبوت، فلم أقـوَ على تخليص نفسي، ولا الهروب من مبادئي، فأنا الذي طالما حفزت الآخرين على الشهادة ما كان لي أن أبحـث عن طريق للهروب منها، لكنها لم تدركني، وتركتني أعاني الموت كل لحظة.

عزيـزي لا أقول لك ذلك كـي تضعف أو تهن، فما زال أمامك الكثير لتقدمـه، فأنت وريث مرقس الرسول، وأمينه علـى الشعب من بعده، وعلـى الإيمان القويم، أنت البقعـة الصلبة في بحرٍ يمور بالهرطقات، لقد تعبت من مواجهتهـم، تعبت من الشرح والتفسـيرٍ والحفاظ على الأمانة التـي منحني اللـه إياها، وها أنـا الآن أشعر أنه قد اقـترب الوقت لرفعها عـن عنقي، وأظنك الـذي سيتسلمها ليكمل المسيرة في وجـه الذين اختلط عليهم الطريق، فانهض ولا تألُ جهدًا، فالطريق لم يبدأ بعد، والهراطقة يحتاجون قديسًا مثلك كي يناهض أكاذيبهم بسيف بيانه.

-٥-

شعـرت أن الحيـاة دبت مـن جديـد في أنطونيوس بعد لقائنـا بصديقه الصحفـي أحمد، فبعدما تواصل الأخير ببعض أصدقائه توصل إلى هاتف زميلهم كاتـب "قصة الفتاة التي أحدثت فتنـة في الصعيد"، واتفقا على أن نلتقـي سويًّـا في الغد، حينها شعـر أنطونيوس أن عليـه أن يترك الرهبنة ويعـود إلى الحياة، حيث يمكنه أن يعـارك الدنيا كما تعاركه، لينتصر في معركة حياة أو موت بالنسبة له.

في ثـورة حماسه وهـو يتحدث عما سيقـوم به أيقنت أننـي لن أقتنص دميانـة منه، فقد عاد ذلك الجبار القديم، ولن يترك ثأره ولن يتنازل عن حبيبتـه، فأنى لي بصراعه! هززت رأسي مؤمنًـا على ما يقوله، ودخلنا محل حلاق في الطريق، فحلق لحيته وهذب هيئته، وأخذتنا أقدامنا لمنطقة أبو العلا القريبة من الجريدة التي يعمل بها أحمد، فاشترى قميصًا وبنطالاً وجاكـت قديمًا، كان يرغب في أن يغير مـن صورته، كما لو أنه سيتنكر للهـروب خارج البـلاد، حين سألته عن السبب قـال إنه بحث عن الله ما يقرب من عشرين عامًا في دير الملاح، وأنه يريد أن يلتقي به الآن كواحد من البشر العاديين الذين لا تميزهم الملائكة بصلبان كبيرة ولا لحى طويلة ولا ثياب سوداء.

لم أعـرف مـن الذي يتحـدث، هل القديـس أنطونيوس أم المهرطق أنطونيوس، لكنه في كل الحالات كان لا يـزال مشغولاً بالله، لم يفارقه ولم يرفضـه، يختلف في طريقـة البحث عنه وربمـا في تصوره. لزمت الصمـت وسرت خلفه كملاك يسعى لأن يعرف كيف سيصل البشريُّ إلى ربـه دون منهاج سابـق، وجدته وضع جلباب الرهبنـة والصليب الكبير في كيـس بلاستكي وخرج مرتديًا بدلة وقميصًا وبنطالاً، بدا لي كأستاذ أو

تاجـر، لكن كلما قارنت صورته مع المارة كنـت أراه كمتسول، البعض كان ينظـر إليه مبتسمًا، وما أدهشنا أننا حين كلت قدمانا من السير وجلسنا علـى الرصيف نستريح وجدنا مـن ألقى في حجره بعضـ المال، في تلك اللحظـة أدرك أنطونيوسـ غرائبيـة ما يرتـدي، وأصر علـى أن يكمل الطريق الذي بدأه، فليس مهمًّا من وجهة نظره كيف يراك الناس، ولكن كيف ترى الناس.

لم نكن نعـرف مكانًا يمكننا الذهاب إليه، قررنا العودة إلى بيت دميانة مـن جديد، متلمسـين الاستضافة من قبل أي من الجـيران، اتخذنا المترو وصعدنـا سلالمه الطويلة واتجهنا في الشارع الطويل حتى استقبلتنا اليافطة الخشبيـة التي تقشـرت ألوانها الزيتيـة، ولم يبق سوى بقايـا كتابة يجتهد القـارئ في إكمالهـا، لم يكن أمامه سـوى أن يضغط علـى جرس الشقة المواجهـة لشقة دميانة، حيـث السيدة التي أبلغتنا بمـا جرى لتريزا، حين رأته السيدة سيمون أو أم مايكل، هكذا عرفنا منها فيما بعد، لم تصدق أنه هو، ولوهلة تصورت أنه الرجل الذي يجمع القمامه واستدارت لتحضرها له، لكنه استوقفها شارحًا أنه قريب السيدة تريزا وابنتها دميانة، وأنه خلع زي الرهبنـة بعدما اتسخ ولم يعد صالحًا للسير به في المدينة، هزت السيدة رأسهـا وقد بدا عليها أنها لم تفهم الكثـير، لكنني لاحقتها متسائلاً إن كانت تعـرف مكانًا نبيت فيـه حتى تخرج تريزا من المستشفـى، فأوضحت أنها احتفظت بمفتاح تريزا حـين نقلوها للمعهد، ويمكننا أن نبيت في شقتها إلى أن تعـود. شعرنا أن العـذراء والقديسات راضيات عنـا، فأخذنا المفتاح وذهبنا لنبيت في تلك الشقة التي بات فيها أنطونيوس منذ أيام، وباتت فيها دميانة طوال حياتها.

تخفـف أنطونيوس بخجـل من ملابسـه ودخل إلى الحمام كـي أسمع صوت تدفق المياة، كانت المرة الأولى التي أعرف فيها ما يسمونه الدش، فليس مسموحًا في حمامات الدير بهذه الأشياء، ولم يكن الدير به حمامات مـن الأصل حتى تم تجديد السور، فقـام المهندس ببناء عدد من الحجرات الصغـيرة، وبنى فوقها صهريجًا كبيرًا كان الرهبان يحملون إليه الماء من بئر أسفل الهضبة، وكان يوم ملء الصهريج يجيء كل أسبوع مرة، ولم

تكـن الصنابير تفتـح إلا ساعة في اليوم، حيث يملأ الخـادم المعني بنظافة الحمامـات جراكن بيضاء كبـيرة بالماء، بينمـا القلايات نفسهـا فليس بها أحواضـ أو غيره، ولكل راهب ثلاثة لـترات من الماء في اليوم الواحد، كان يشـرب ويغسل نفسه منهـا، ومن يريد الاستحمـام كان ينزل أسفل الهضبـة، حيث يملأ من البئر جركن ماء كبير يذهـب به إلى غرفة خالية ليهـرق الماء على جسـده، وإن وجد شيئًا يدعك به ما على الجسد من صدأ فهو من المحظوظين.

رفضـت أن أستحـم، وحين اشتـدت بي الرغبة في دخـول الحمام لم أعـرف كيف أتعامل مع الكرسي ذي اللون الأزرق الموضوع في الغرفة الصغيرة، قال أنطونيوس إنه الحمام، وشرح لي كيفية استخدامه، وكيفية تنظيـف النفس، فخلعـت حذائي وصعـدت بأقدامي على فوهـة الكرسي المثقـوب ثقبًـا واسعًا وعميقًـا ورحت أتـبرز، هكذا انتهيت مـن معاناتي واجتهـدت في الاغتسال حتى نظفت نفسي، لكنني كنت قد كرهتني إلى حد عدم الرغبة في دخول الحمام من جديد، لكن مع الوقت والتعود أصبحت أستوعب الأمور، وأتعامل كشخص ولد في أزقة المدينة.

في صبـاح اليوم التالي التقينـا بالصحفي أحمد في مقهى بجوار الجريدة التـي يعمل بهـا، بعد قليل من الوقت جاء زميله نائـل صاحب المقال الذي قرأنـاه ونحـن نتناول سندوتشات الفـول، قال إن مقالـه كان عن قضية شهيرة، جاءت في العديد مـن الصحف والبرامج الحوارية، لكن أحدًا لم يستطـع أن يعرف شيئًا كبـيرًا عن الفتاة التي اختفـت بعد مجيء الشرطة وهـروب السلفيين، هنالك بدأ أنطونيوس يروي كيف تعرَّف على دميانة في دير الملاح، وكيف قـام رئيس الدير بترحيلها في الليل، ونظر لي كما لو أنه يطلب مني التأكيد على ما يقول، فتدخلت بالحكي عما رأيته، وكيف نزلـت بصحبة يوسـاب والرهبان، حكيت عن ذهابـي إلى دير الزاوية، ورؤيتي لفتـاة تشبهها في ملابس الراهبات، لكنني لست موقنًا، ولا أملك دليـلاً على شيء، وكل ما أعرفـه أن أنطونيوس متهم بقتلها، وأن أسقف التحقيقات في دير المحرق سعى لانتزاع اعتراف مني بذلك.

كان نائـل يسجـل حديثنـا على جهـاز في يـده، وأحمد يكتـب أسماء الأشخاصـ والأماكن، وفي النهاية قلت إننـا نشك في أن دميانة هي الفتاة التي أحدثت الفتنة، لكننا لا نعرف كيف ذهبت إلى دير الزاوية. قال نائل إنـه لا يستطيع أن ينشر موضوعًا ليس في يده دليل عليه، ظللنا نرجوه أن يعيـد النظر في الأمر، فالنشر هو الطريقة التـي ستضمن بقاء دميانة على قيد الحياة، لكنـه رفض، وبعد تفكير طويل توصلنا إلى أن نزور الكنيسة الأم ونسأل أسقف التحقيقات عنها.

في اليـوم التـالي التقينا في محطة مـترو رمسيس، وذهبنـا إلى محطة غمرة، ومنها سرنـا على الأقدام حتى وصلنا الكنيسـة، كان أنطونيوس الـذي هذب شعـره ولحيته مـا زال مرتديًا الجاكت والبنطـال والقميص الكاروهـات، كان يتمتع بهيئـة متسول حقيقي، ويبدو أنـه لأمر ما أجاد تمثيل هذا الدور، فلم يكن يفرد قامته، وكان يسير كما لو أنه يعاني عرجًا خفيفًا، بينما فمه مفتوح بزاوية كما لو أنه مجذوب أو مصاب بعته، خشيت عليـه من أن يكون القديسون قد غضبوا عليه، فوضعت يدي خلف ظهره لأسنده ولأحتمـي به، عبرنا البوابة بعدما نظر الشرطي في بطاقات أحمد ونائل، بينمـا تركنا نعبر كما لو أنه رأى الصليـب موشومًا على جباهنا، وكما لـو أن كل من يرسـم صليبًا محب للكنيسة، في الردهـة الطويلة بدأ أنطونيوس الذي أصبح خبيرًا بالمكان يقودنا لمكتب أسقف التحقيقات، حيث وصلنا إلى الكاهن المسئول عن إدارة المكتب، تأخر أنطونيوس وتقدم نائل سائلاً عن اختفاء المحققـة التي تعمل في دير الملاح، سأله مدير المكتب عن مصـدر المعلومة، فأجابه بأنهم أهلهـا، رد الرجل بهدوء شديد مطالبًا بأن يحضرهـم، لأنه لا يدلي بمعلومات للصحافة، ولا يتحدث إلا مع صاحب الشأن.

هنالـك حـدث أمر لم يكـن في الحسبان، فقـد سرت جلبـة في الردهة الطويلـة، ودخـل أحد الرهبـان العجائز محاطًا بعدد من طـوال القامة، نظرت من فوق أكتافهم لأتعرف على صاحب السطوة، فرأيت أنه الأب يؤانـس، كان الكاهن قد تحول إلى فأر مذعـور وهو ينحني في استقباله، ولم يتوقـف ليخـبر رئيسه بحضـوره، لكنه أسرع وفتح بـاب الأسقف،

همســت في أذن أنطونيوس أن هذا هو يؤانس الذي أوصلت إليه "رسائل" أوريجانوس، وهو بدوره همس لأحمد ونائل بالأمر، بعدها خرج مدير المكتب معتذرًا وطالبًا من الجميع المجيء في الغد، وخرج من بعده رهبان يؤانســ يطالبون الناس بالخروج مــن المكتب، وأمــام الأجسام الفارعة اضطررنا للخرج، لكن فضــول أحمد ونائل كان قد اشتعل، ورغب كل منهمــا في معرفة ما يحدث، ومن الــذي يلقى عناية كبار الأساقفة، رحت من جديــد أحكي لهم قصـــة "رسائــل أوريجانوس"، وكيــف أخذتها من المنحني وذهبت بها إلى يؤانس في دير الزاوية، وهناك رأيت دميانة.

-٦-

كنـت قد ضجرت من الإقامـة في الإسكندرية إلى جوار بطريرك غير مقبـول من قبل الجميع، وما كان لي أن أكـون في معية أحد غير صديقي أثناسيوس، وكانـت الصراعات قـد مـلأت المدينـة، والصدامات بين الأريوسيين وشعبها تزايدت إلى درجة لم تعد محتملة، جاهدت نفسي نحو ستة أو سبعة أشهر على أمل أن يعود أثناسيوس إلى كرسيه من جديد، لكن في النهاية تسرب إلى نفسي اليأس والضعف، فقررت اعتزال الحياة والعودة إلى ديـر الملاح، جمعت ما استطعت حمله من كتب ومخطوطات لفلاسفة وأساتـذة أحبهم، حتـى أنني ذهبت إلى النساخ المقيمـين بجانب الميوزيوم واشتريت منهم ما رغبت فيه من أعمال للأفلاطونيين والرواقيين، فضلاً عـن شروحات الكتـاب المقدس لأساتـذة مثل إكلمندس وأوريجانوس، ولم أعترض على كتابـات المهرطقين كالسابليين والأريوسيين وغيرهم، جمعـت كل ما توافر تحت يدي وقررت أن أعـود إلى دير الملاح، حيث يمكننـي العكوف علـى قراءة كل هذه الأعمال مـن جديد، واتخاذ موقف واضح منها.

تلقـاني أستـاذي ديمتريوس وصديقـي أبانوب بترحـاب شديد، بدت علـى ملامحي معالم الأزمـة التي أمر بهـا، قالا إنني يمكننـي أن أعاود إلقـاء الوعظ علـى الرهبان، لكنني كنت أشعر بثقـل على صدري، كنت أشعـر أنني كجـدار متهدم، ولم تكن لدي رغبـة في النهوض من جديد، تـركاني في قلايتي أستجمع قواي، لم يشـأ أي منهما أن يكسر الخلوة التي أردتهـا أن تطول قدر ما تستطيـع نفسي من احتمال، كأنني كنت أعاقبني علـى ذنـب لم أرتكبه، حتى بـدا أنني موشك على المـوت. حينها وجدت

ديمتريوس المريض يحمله راهبان من الرعاة على نقالة ويأتيان به إلى قلايتي، حين رأيت المشهد أدركت كم عذبت الرجل من أجلي، وحين جلس أمامي وبكى لم أفهم سببًا لبكائه، لكنني بكيت أيضًا، وبدا أن كلاً منا كان يغسل همومه في تلك اللحظة بالبكاء، كنا نتطهر على مذبح الدمع سويًّا، حين جفت عيوننا من الدموع أشار لراهبيه أن يحملاه ويخرجا، ورأيت في عينيه أن أخرج معه، فلم أستطع البقاء من دونه. وضعاه أمام قلايته أسفل شجرة سدر تفنن أبانوب في زراعتها وريها، وجدته يأمر لي بفراش إلى جانبه، فأحضر الرهبان جلد ماعز قديم ووضعوه لي، تبسم وهو يمسح بقايا دموعه عن وجهه، وأسر لي أن أيامه لم تعد كثيرة، وأنه هو نفسه تعب من الحياة، فما رآه من المرض أكثر مما رآه من العافية، لكنه يريد أن يترك الدير في حالة من الوحدة، يريده أن يكمل طريقه منارة للرعاة في الصحراء، يجتذب بأنواره النفوس الضالة، ويهدي بعلاماته الرءوس الشاردة، وليس لذلك سبيل سوى أن يكون أبانوب الرئيس من بعده.

بطبيعة الحال كنت أعلم أنني ابتعدت عن الدير كثيرًا، وأن عالمي في الإسكندرية وربما ما بعدها أصبح أكبر وأكثر اتساعًا، لكنني لم أتوقع أن المحنة تصبح شديدة وكثيفة هكذا، فاستيقظت في يوم واحد لا أجد لي مكانًا في الإسكندرية ولا هنا، فهذا ما لا أستطيع احتماله، وما لا أعرف سببًا لحدوثه في نفس الوقت وبهذه السرعة، مرت على نفسي هذه الأسئلة سريعًا، وربما طفت ظلالها على وجهي رغمًا عني، فوجدت ديمتريوس يبتسم وهو يقول إنها المحنة، لكنني سأترك لك شيئًا أفضل من كل ذلك، سأترك لك هذه الشجرة، وتلك القلاية والجلسة، سأتركك هنا الشارح والمفسر، هذا ما حلمت به منذ أن أرسلتك إلى الميوزيوم، هذا ما أردناه سويًّا، وأظنك الآن اكتسبت ما يكفي لأن تجلس لأجله في هذا المكان، كي تشرحه للرهبان والرعاة الوافدين من الصحراء طلبًا للماء ولقمة الطعام.

لم تمض أيام كثيرة حتى تنيح الأب ديمتريوس، فاضت روحه في قلايته، لازمته أيامه الأخيرة، فلم أتركه لا في جلسته تحت شجرة السدر،

ولا في قلايتــه الفقيرة الخانقــة، تعبت حتى تأقلمت مــع المكان من جديد، وكان ينظر في وجهــي بعينين ملؤهما الوهن والمحبة ضاحكًا، وبدا لي أنه وجـد سلواه من مرضــه في التخفيف عني، كان يــترنَّم بالمزامير بصوت جميـل، ويطالبنــي أن أشرح له معناهــا، كنت أضحك لأنني موقن أنه يعــرف، وهو يضحك قائلاً إنه يحب أن يسمعها مني، وليس هناك أفضل مــن أن تسمع ما تحب بصوت من تحب، كنت أضعف في النهاية وأرضخ لرغبتــه فأبدأ في التفسير، وأمزج بــين مقولات السكندريين والمقدونيين، وأميل برأسي نحــو خيالات الأفلاطونيين وبــدع الرواقيين، وأقول إن هــذه جميعها رؤى متباينــة، لكنها ليست حاسمة، فاللــه أعلم بحاله، وما نحن إلا قراء لآياتــه وأقواله، كان يهز رأسه وكأنه يستشرف ما ستؤول إليــه الأحوال، وفي النهاية أسلم روحه بأمــان ووداعة كأنه طائر وضع قدميه على الأرض ثم رفرف وطار.

كنــت أول مــن أعلــن للرهبان عن تنيُّحــه، وقبل أن يدخــل أحد عليه أخبرتهم بما قاله لي، مؤكدًا أنه أوصى لأبانوب برئاسة الدير، وأن أبقى في قلايتــه وتحت شجرتــه، فأذعن الجميع للوصيــة، وبدأنا نرسل للناس بتنيــح الأب ديمتريوس تلميذ الأب جبرائيل الملاح ورئيس ديره في جبال القلزم، وانتظرنا ثلاثة أيــام في صلوات وتراتيل دائمة على جسده، فلما اكتمل الوقت الذي حددناه للناس حملناه على محفة ونزلنا ببكرة أبانوب، بينمــا لحق بنــا الرهبان من مجــرى السيل الرابط بــين الهضبة والسفح، حيث أقمنا أول قبر أسفل الهضبة، فدفناه فيه، ووضعنا شاهدًا عليه باسمه وأفضاله، ثم عدنا إلى أعلى الهضبة باكين يتملَّكنا الشعور باليتم.

لزمــت قلاية ديمتريوس، وتخليت عن قلايتي لأحد تلامذتي النجباء، قلــت له إن هذه منحة مني، فيجب ألا يفــرط فيها، وكان الدير يقيم قداسًا يوميًّا على ديمتريوس، حتى مضى أربعون يومًا على رحيله، هنالك قال أبانــوب إنه يجب أن نرسم قسين وخمســة شماسين لخدمة المناطق القريبة من الديــر، فالرعاة صاروا يتكاسلون في صعود الهضبة، ونحن لا نملك

من البركة ما كان يملكه الملاح ولا ديمتريوس، وافقته على الأمر، وتركت له فرصة اختيار من يريد ترسيمهم، وجلست أفكر فيما يجب عليَّ في الأيام القادمة.

كان موقف أثناسيوس غائمًا، فقد غاب في بلاد أوروبا أكثر مما نتوقع، ولم نكن نعرف إن كان سيعود أم لا، تسرب الشك إلى نفوس الكثيرين، وانتشر أتباع أريوس في كل مكان، وبدا كما لو أن المؤمنين بقانون نيقية أقلية في جحور مظلمة، أصابني ذلك بالخوف مما سيأتي، وشعرت أن عليَّ النزول إلى الوادي كي أعيد نشر قانون الإيمان من جديد، وأن أوضح للناس أخطاء أريوس وأتباعه، وأن المعركة لم تنته بعد، وأن أثناسيوس عائد إلى كرسيه من جديد.

حين نزلت من على الهضبة وذهبت إلى البدو والرعاة في خيامهم ومضاربهم، وإلى الفلاحين في قراهم وبيوتهم أيقنت أن الناس قد ملت من أتباع أريوس، وأيقنوا أنهم مفروضون عليهم من قبل الإمبراطور ورجاله، كان التعاطف مع أثناسيوس كبيرًا، لكنه تعاطف المغلوب على أمره، لم أكن أفعل أكثر من أن أجلس في خيمة لأحكي للناس ما حدث في نيقية، وأبلغهم ما وصلني من أخبار عن أبيهم الحبيب في منفاه البعيد، كنت بالنسبة لهم الطريق الذي يعرفون من خلاله ما يجري في أوروبا والإسكندرية وما يجريه الأريوسيون من مؤامرات يخزيهم الرب بفضحها.

ضمنت لي جولاتي في الوادي الخروج من حزني على ديمتريوس وغضبي لأجل أثناسيوس، هكذا وجدتني أفرغ همومي في التعامل مع الناس، واكتشفت موهبتي في خطابهم باللين والمحبة، اكتشفت قدرتي على جمعهم من حولي، فقد أحبوا بساطتي في التعامل، ولم ينسوا أنني صديق أثناسيوس ورفيقه في رحلة نيقية، كانوا يسمعون لي ويطالبونني بمزيد من الوعظ، وأنا أطالبهم بصعود الهضبة، حيث يمكنهم حضور قداس الأحد وعظة أبانوب فيه، وحيث يمكنهم أن ينصتوا لأصوات الرهبان الرائعة وهم يرتلون المزامير والأناشيد، لكنهم كانوا يقولون إن الوقت لا يكفي للرعي وصعود الهضبة.

أوعـزت لأبانوب أن الدير يحتــاج إلى طبيب، ويحتــاج أن نفكر في طريقــة نضمن بها توافـر الغذاء، فلا يمكننا أن نمضــي حياتنا على هبات الرعــاة، فما كان منــه إلا أن أرسل في طلب طبيب يقيـم معنا في الدير، لكن أحدًا لم يرغب في أن يقيم على هضبة عالية قرب السماء، وإذا تورط يومًا أو يومين فإنه لا يحتمل العزلة والحر وقلة الطعام، لا يحتمل مواجهة السماء وجهًا لوجه في الليل وفي النهار.

في النهاية توصلنا إلى أن نرسل راهبين لتعلم الطب، كانت أقرب المدن لنا هــي ليكوبوليس، لكننا لم نرغب فيها، فأتباع أريوس هناك كثيرون، ولا نريد أن يتسرب إلينــا الشك من بين أيدينا، فنصحته أن يرسلهما لمنف في الشمــال، وفي النهايــة أرسلهما لبعضــ معارفه في طيبــة، حيث تلقيا تعليمًــا لعدة شهور في معبــد إيزيس، ثم عادا لا ليقيما في الدير ولكن ليمرا علــى الرعــاة والمزارعين في قراهــم ومرابعهم، حتى أقــر الجميع أنهما قادران على مداواتهم، فعرفت أقدام الناس من جديد طريق الدير، كانوا يقصدونه من أجل العلاج.

في الطريــق إلى الكنيسة كان الناس يجدون راهبًــا جالسًا أسفل شجرة سدر، يقرأ في كتاب ويخط على ورق أمامه، كنت أنا الجالس أمامهم وهم ينظــرون لي، أنادي من أجد عينه متعلقة بما أفعــل ليجلس ويفعل مثلي، هكــذا جذبت أقدامهم نحوي، فكان الفلاحــون يحملون أولادهم إلى الدير كــي يتعلموا الكتابة على يدي، وكنــت أدرس لهم اليونانية والهيروغليفية إلى جانب مبادئ الحساب والرسم.

لكن أبانوب كان بنــاء حقيقيًّا، فقد شحذ همة رجاله نحو زراعة جانب مــن الأرض النائمة علــى جانبي مخر السيــل أمام الهضبــة، فحفر بئرًا ربطهــا بمجــرى السيــل، وجعلها خزانًا يتســع لكميات كبــيرة من الماء، وجلب أشجارًا على عربات تجرها البغال والجياد إلى الهضبة، حيث حفر حفــرًا عميقــة غرسها فيها، ثم نــزح عليها من مياه البئــر، وبدا الأمر في أولــه أنه لن يكلل بالنجاح، فقد ذبلت الأشجــار وجفت أوراقها، لكن من

قلب الجفاف والموت نبعت الخضرة والحيـاة، رأينا أشجار الزيتون التي أتـى بها من أرض الفيروز شمال القلزم، وأشجـار النخيل التي أتى بها مـن الأشمونين في الغرب، ومضت سنوات قبـل أن يتعلم الرهبان كيف يستخرجون الزيت من كليهما، لكنهم كانوا قد علموا كيف يخزنون الثمار ويبادلونها مع الفلاحين والرعاة.

مـا إن وصلني خبر اعتذار قسطنطينوس لأثناسيوس، وسماحه بعودة المنفيـين بسبـب الأريوسيـين لبلادهم حتـى تركت ما في يـدي، موضحًا لأبانـوب أننـي ذاهـب إلى الإسكندرية، كـي أكون في استقبـال صديقي حـال وصوله، فلم يمانـع ولم يبارك، لكنه أبدى تخوفـه عليَّ من السير في موكـب البطريرك، هونت من مخاوفـه، وذكرته أن أثناسيوس ليس مجرد بطريرك، لكنه صديق وأخ يصعب التخلي عنه.

-٧-

في كنيسة العذراء بجبل الطير قادت المفاجأة دميانة إلى أن تعلم الكثير عن يؤانس، فقد شاهدت رجاله وهم مجتمعون كجيش صغير من حوله، جميعهم يرتدون ملابس رياضية سوداء، جميعهم يحملون في أيديهم أسلحة بيضاء، ويجأرون في الهواء كما لو أنهم يصرون على إخافة الملائكة في السماء، بدا لها أن الجبل الذي تقوم عليه مغارة الكنيسة أصبح ساحة للحرب، كانوا يعبرون الموانع ويطيرون في الهواء ويلقون ببعضهم بعضًا على الأرض، كانوا يعملون في حمية ويقين لا مثيل لهما، بينما يؤانس جالس على كرسي أمام طاولة يشاهد العرض الذي يجري أمامه.

عكف يؤانس على هذا الأمر منذ تولى مسئولية النظام الخاص في الأمة القبطية، ورغم أن الجماعة انحلت، وأغلب أعضائها سجنوا وشردوا إلا أنه ظل مؤمنًا بأن الأمة القبطية تحتاج لمن يحميها، وعلى مدار سنوات طويلة ظل رقمًا صعبًا في معادلة الإكليروس والعلمانيين، رقم لا يمكن تجاوزه لدى كثير من الآباء ورؤساء الأديرة، فهو الذي يمدهم بالرجال القائمين على حمايتهم، يمكن لرجاله أن يصلوا لمن يريدون وقتما يريد، لكن الأمور لم تجبره على فعل ذلك منذ فشلت محاولة اغتيال يوساب الثاني، فقد ظل حبيسًا بين جدران السجون حتى نكسة السابع والستين، بعدها خرج في ظل تغيرات كثيرة طالت المجتمع ككل، ورغم أن الجماعة أصبحت منحلة أو محظورة إلا أنها ظلت حية في ذهنه، وثمة ما يدعوه للعمل من أجلها، هذا الهاجس سرعان ما تحقق مع مجيء زمن السبعينات، وظهور الجماعات المسلحة التي بدأت في إرهاب الأقباط،

وسرعـان ما دب الخلاف بين الأنبا شنودة والسـادات، فأيقن الكثيرون أن الأمـة القبطيـة في خطر وأنه لا بـد من نصرتها، فظهـر نجم يؤانس كرجل الضرورة الذي لا غنى عنه.

كان مدهشًا لدميانة أنهـا ويؤانس والرهبان طوال القامة ليسوا المدعوين فقـط لصعود جبل الطير، فقد رأت أناسًـا يتوافدون ما بين قسوس ورهبان وعلمانيـين، شعـرت كمـا لو أن اليـوم عيد العـذراء، لكنه بـلا احتفالات وطقوس، كان مسموحًـا لها أن تتحـرك كما تريد، فقد بـدت كواحدة من المدعويـن، ولم يكن ظهورها نشـازًا أو غريبًا، فثمة نسـاء بين الحضور، لكنهـا كانت توقن أن هناك مـن يراقب تحركها من بعيد، خرجت من غرفة الضيافة التي نزلت بها لتنظر المشهد ككل، رأت أن الدير يعلو السفح الأخضر الموشـوم بالنخيل والمحاصيل المنزرعة أمامه، رأت الكنيسة وهي شامخة في طريقها نحو السماء، ودفعها حنين قديم لرؤية الوافدين عن قرب.

خرجت مـن مبنى الضيافـة إلى ساحـة الدير، واختلطـت بالسائحين والزائريـن العاديين، دخلـت إلى الكنيسـة التي زارتهـا في صغرها مع والدهـا، تذكرت حديثـه عن كيف ساعـدت الصخور المليئـة بالكالسيوم البنائـين القدامـى على نحت المذبـح في قلب الجبل، تذكـرت وجه والدها وحركات يديه قائلاً إن هذه الكنيسة من عمر كنيسة القيامة، دارت بعينيها منبهـرة بروعة المـكان، إلا أنها ظلـت خائفة، فثمة شعـور راودها بأن الأحجار الكبيرة التي تعلو الممرات ستسقط على الناس.

حـين وصلت إلى المغارة التي أوت إليهـا العذراء وطفلها أخذت تتأمل الأيقونـة الكبيرة لهما، وللحظـة ساورها السؤال عـن كيف يكون الرب طفـلاً رضيعًا، وهل كان ربًّا وهو يمارس أفعال طفولته، أم أن الألوهية لم تنـزل عليه إلا ساعة تعميده بالماء؟ كانت تحملق في اللوحة ذات الألوان الزاهية وهي مغرقـة في تساؤلاتها، للحظة شعرت أنها تجدف بهرطقات لا ينبغـي لها أن تطلقها، فمالت لتقبض على الشمعدان القائم أمام الأيقونة المقدسة لتشعل شموعه.

ضمت يديها أمام عينيهـا طالبة من العذراء أن تنقذها، إلا أنها شعرت أن العـذراء لـن تستجيب لها، وأن أنطونيوس سيظـل بعيدًا، وأن تريزا تعيشـ معاناة ما في مكان غريب، لوهلة شعرت أنها غير مؤهلة للصلاة، فنهضـت وأخذت تشعـل شموعًا أخـرى، حتى أن الرف المعـد للشموع المضاءة امتلأ، وبـدا أسفل أيقونة العذراء أشبه بالنجوم المتلألئة في صفحة السمـاء الزرقاء، حين مرت بعينيها على العذراء لم تشعر تجاهها بشيء، ومـا إن نزلت بطرفها علـى وجه المسيح في طفولته حتـى وجدته يبتسم، لوهلـة شعرت أنـه ابنها، وأنه يتحـرك بداخلها كجنين، شعـرت أنها في حاجـة لأن تنجب طفلاً، وأن يكون من بطنها نسل يملأ الأرض بالخير، لم تشعـر يومًا أنها ترغـب في الزواج والإنجاب أكثر مـن هذه اللحظة، فبكت وجلست في مكانها تصلي.

كانـت الأصوات المحيطة بالمكان قد بـدأت تعلو، لم يكن علوها محض ضجيـج فحسب، لكنه كان أقـرب إلى شجار، لم تكن تعرف من أين أتت كل هـذه الضجـة، لكنها كانت شعـرت أنها قريبة، ربمـا لا يفصلها عنها سوى جدار واحد، فمن أين تأتي الضجة، ومن هؤلاء الذين يختلفون في مكان مقدس.

تتبعـت الصوت حتى وصلت إلى صحـن الكنيسة، حينها رأت منضدة بجانب الهيـكل يجلس عليها يؤانس غاضبًا، وعلـى الجانب الآخر أسقف علمت أنه ممثـل الكنيسة الأم، وفي الوسـط كان رئيس الدير الذي تكفل بـإدارة الحوار بين المنضدة وجماعات تفرقـت على الصفوف الخشبية في صحـن الكنيسة، تطلعت إلى شعاع ضوء منكسر وهو يغزو المقاعد الخلفية ليسقـط على وجه رجل بدا كما لـو أنه أنطونيوسـ، تعجبت من وجوده في هذا المـكان، وودَّت لو أنها تستطيع تخطي كل هذه الرءوس للوصول إليه، لكن الأصوات التي تعالت جعلتها تفكر فيما اجتمعوا من أجله.

مـا إن أخضع رئيس الدير الأصـوات المتعالية للعقل والحكمة والعودة للهـدوء حتى التقـط ممثل الكنيسـة المايكروفون موضحًـا أن البابا حزين

لما يحاك ضـده من مؤامرات، وأنه لديه غيرة كبـيرة على الكنيسة، ولا ينتظر من أحد أن يعلمه مهامه، لأنه منذ جلس في كرسي مرقس الرسول وهـو لا ينام من فرط التفكير في هموم الأقباط ومشكلاتهم، ورغم آلامه المبرحـة إلا أنه أصر على سماع شعبـه والتواصل معهم، ويؤلمه أن يعتقد ابن للكنيسة أنها تظلمه.

لم يتنتظـر يؤانس أن ينتهي معضدو البابا مـن تصفيقهم، لم ينتظر أن يقدمه رئيس الدير للحضور، لكنه انتزع المايكروفون بغضب وهو يقول:

– إن البابـا قال إنـه يتشاور معنا حـول قانون الأحـوال الشخصية، ولم يفعـل أحد ذلك، ولو فعل لرفضناه مـن اللحظة الأولى، لأنه هرطقة وخروج على الإيمان النيقاوي، وما آمن به ديمتريوس الكرَّام حين حرم أوريجانوسـ وهرطقاته، مرورًا بأثناسيوس الـذي تصدى للأريوسيين وهرطقاتهـم، وثاؤفيلوس الذي حارب الوثنية في كل مكان، هذا القانون يستحـق أن ندعو المجمع المقدس كي يتخذ قـراره بعزل ذلك الجالس على كرسـي مارمرقس، لانحرافـه عن صحيح الإيمان، فمـا بالنا ببدعته في صناعة زيت الميرون المقدس، واجترائـه على إباحة الطلاق كالمسلمين، ورغبتـه في توحيـد المعمودية مـع الكاثوليك، وكأن مـا حدث في مجمع خلقدونيـة عام ٤٥١ لم يحـدث، وأن دماء الشهداء التـي سالت على كل أرض هذه البلاد للحفاظ على الإيمان القويم، على مدار كل هذه القرون، لا معنى لها في عقيدته.

كانـت دميانة تنقل عينيها ما بين يؤانس ووجوه الجالسين أمامه، رأت أنهـم لا يقلـون غضبًا عنه، وما إن انتهى من حديثـه حتى هاجوا راغبين في التعليـق، وأخذ رئيس الدير يطالبهم بالنظام، فقال ممثل لجماعة حماة الإيمـان أن من يتعدد فى أسباب الطـلاق كالمحرض على عبادة الأوثان والشـذوذ، لا بد مـن شلحه، ورفع أيقونـة أثناسيوس هاتفًـا "فى انتظار المجمع المقدس لشلح الهرطوقى"، فهتف كثيرون خلفه بشلح البابا، هنالك ارتسمت أمارات الراحة على وجه يؤانس، وطلب الكلمة من جديد:

- اليوم ذكرى نياحة عمود الدين كيرلس الأول الذى جاهد ضد نسطورس وبدعته، لكن الله لا يترك نفسه بلا شاهد -فى كل جيل- يثبِّت شعبه على الإيمان القويم، والكنيسة دائمًا فى سلام ما لم يهيِّج الشيطان أحد خدام الكنيسة ليحرِّف الايمان، فيضطر القديسون أن يهبوا للدفاع عن صحة إيمانهم، ويصير فى الكنيسة انزعاج وانقسام وجدل، ويظن الناس أن المدافعين عن إيمانهم هم سبب الانقسام، ويتناسوا أن السبب هو الشيطان وخدامه من الهراطقة، وما أشبه اليوم بالبارحة، وما أحوجنا الآن إلى أثناسيوس العظيم وكيرلس عمود الدين وغيرهم من الآباء القديسين الذين حفظوا دين الرب من الهرطقات والبدع في زمانهم، ويحفظوا كنيسة الرب من الأدعياء والمخالفين.

حين صفق غالبية من في القاعة أغمض يؤانس عينيه بانحناءة رأس بسيطة، لكن بعضًا من الشباب، حيث يجلس أنطونيوس متابعًا بحذر ما يجري، هتفوا ضد من يريدون أن يشعلوا الكنيسة حربًا، هؤلاء الذين يديرون المؤامرات، كي تظل الكنيسة تحت قبضتهم، مدعين أنهم أتباع مثلث الرحمات، ومثلث الرحمات منهم بريء، مؤكدين:

- كنيستنا واحدة، وستظل دون انقسام أو احتياج لأحد.

بطريقة الساحر حين يقف على المسرح ويخرج من قبعته أرنبًا، وقف يؤانس أمام المنضدة وشكر الجميع على حسن ظنِّهم فيه، ثم أخرج من طيات ثيابه كتابًا على غلافه صورة القديس أنطونيوس، ولوح به للشباب الهاتفين ضده، كانت دميانة تعرف هذا الكتاب، فقد حققت مع أنطونيوس بسببه، نظرت بعينيها نحو الأخير في نهاية الصفوف فلم تجده، عادت بوجهها نحو يؤانس فوجدته يسأل الجالسين أمامه عن اسم الكتاب وصاحب الأيقونة، والناس تجيبه بأنه سيرة القديس أنطونيوس، لكنه يفاجئهم بنزع بعض من صفحاته قائلاً:

- ستكون ديانتكم جميعًا كهذه الهرطقات.

حين ينظر فيها الحضور يجدون أنفسهم أمام الرسالة الأولى من رسائل أوريجانوس للبابا ديونسيوس، كان ينزع أوراق الكتاب وينثرها عليهم، قائلاً بكل ما أتاح له سنه من غضب:

– هذا مـا تطبعه كنيستكم الموقرة الآن، هـذه الهرطقات ستقضي على كنيستكم، فاقرأوا كي تعلموا من أين تجيئكم الهرطقات.

حينهـا نهض الشباب الذيـن في مؤخـرة الصفوف هائجـين متهمينه بالتآمـر، ونزل بعضهم من أماكنهم متجهين نحو المنصة بغضب واضح، فاشتبكـت معهم جماعة حماة الإيمـان وجماعة العظـام الزرقاء وصخر الكنيسة، والتـف طوال القامة حول يؤانس ليحمـوه، ويخرجوا به بعيدًا عن المعركة التي دارت بالأيدي والأقدام بين الجماعات المقدسة. في ذلك الوقـت بحثت دميانة بعينهـا عن أنطونيوس، رأت ظلـه وهو يخرج من الكنيسـة، وشعرت أن كلب السماء أخذ يلهث في أذنها، فانتابتها قشعريرة خـوف واضحـة، وتركـت قدميهـا تتسللان من بـين الأيـدي والأقدام المتشاجرة لتلحق بأنطونيوس.

كان طـوال القامـة مشغولين بحمايـة يؤانس، مصطحبينـه إلى مبنى الضيافة في الدير، بينما انتشر عدد ممن كانوا في صحن الكنيسة خارجها، كانت دميانـة لا تعرف أين يمكنها أن تذهب بعيـدًا عن الكلب السماوي، رأت المساحـات الواسعـة تسحبهـا للنظـر في البعيد، وبوابـة الدير تفتح ذراعيهـا لها، تركـت قدميها ونفسهـا المقبوض يقودانها بحثًـا عن الهواء النقي، كانت تسمع الصوت السماوي وهو ينفلت من السلاسل التي قيدته، بينمـا قدماها تتحركان على الرمل والحصى كما لو أنها تتقافز على سجادة مـن هواء، عبرت بوابـة الدير وأسلمت نفسها للمنحـدر المتجه إلى صفحة النيـل، وكلما زاد تقوس الجبل وميل المنحدر وجدت نفسها على وشك أن تطـير، كانت دموعها تسيل وهي تصلي بداخلهـا مستنجدة بأنطونيوس، لم تكـن تبتهل إلى اللـه ولا العذراء، لكنها كانت تنتحب من أجل أن يظهر أنطونيوس. حين ظهر بطولـه الواضح ولحيته الكبيرة ومسوحه الطويلة كان الكثيرون يهتفون فيها بالتوقـف، لكنها كانت كسهم انطلق من قوسه نحو هدفه المنشود.

-٨-

رسائل أوريجانوس (١٥)

كانــت أحوالي في قيصرية قد أصبحــت طيبة، فقد ذاع صيتي أكثر مما كان عليــه في الإسكندرية، وأخــذ الكثير من القساوســة والأساقفة يجيء لسماع عظتي، بعضهم كان يسأل عن أمور لم يكن يعيها جيدًا، وبعضهم كان يأتــي لمحاورتــي، لكن الغالبيــة كانت تجيء لتكون مــن التلامذة أو الأصدقاء أو حتى ممن التقــوا بي وسمعوا مني، كنت أرى كل ذلك نوعًا مــن الوهم أو الحلم الــذي سرعان ما سأستيقظ منه، فقــد كان لديَّ ما هو أكــثر منه في الإسكندرية، وكنت في يوم الرجل المقرب من الإمبراطورة مامسيا، وكنــت أنزل في ضيافة أساقفة روما واليونان، وكثيرًا ما ذهبت في رحلات نائبًا عن البطريرك، كل هذا في لحظة زال وانتهى، وصرت منبــوذًا مــن قبل الجميع، وأصبــح عليَّ أن أدافع عــن نفسي، صرت بلا وطــن ولا بطريرك ولا كنيســة، فما الذي سيفيده لي مجــيء العالم لينام أمام بيتي وأنا بلا بيت؟

تركــت بيتي للنساخ ولمريدي التعلــم في مدرسة قيصرية، وانتقلت من جديــد إلى البيت الذي اشــتراه لي صديقي أمبروسيوســ، كان بيتًا كبيرًا ومتعــدد الغرف، لكن الكتب التي حملها معه مــن الإسكندرية استحوذت عليــه، ففيه مكتبة والدي، ومكتبتي التي كونتها بجهدي طوال سنوات في الإسكندريــة، ومكتبة السيدة أوثاكا نيكيدا التــي رعتني بمالها وعطفها في صباي، وحين حضرتها الوفاة أصرت أن تكون المكتبة التي طالما تركتني أبيــت فيها إرثي منهــا، أما مكتبة أمبروسيوس فقــد كانت مخطوطات بلا حصر، جمعها عن أبيه وجده، فضلاً عن جهده في جمع كل ما عنَّ له.

كانت السفينة التي نزل بها أمبروسيوس حدثًا فريدًا في قيصرية، فلأول مرة يرى الناس سفينة كل حمولتها من الكتب، حين فاجأني بالتلال التي أحضرها جلست أضحك حتى دمعت عيناي، وشعرت أنني لأول مرة أضحك منذ سنوات طوال، لم يكن أمامه سوى أن يبحث عن بيت ليضع فيه كل هذه الكنوز بشتى اللغات التي نعرفها، بينما عكف النجارون على صناعة أرفف تليق بكامل الجدران، حتى لم يبق مكان يقيم فيه، فما كان منه سوى أن تنازل مختارًا لي عن هذا البيت قائلاً إنه يريد أن يتزوج ويتمتع بالحياة، وليس لديه رغبة مثلي في حياة النسك، تفهمت رغبته في الاعتذار لي، وتعويضي بمكتبة عن مدينتي التي فقدت، فهززت رأسي مبتسمًا وشاكرًا في نفس الوقت.

كان أمر المكتبة حدثًا فريدًا، ويصعب عليَّ أن أتركها للحشرات كي تسكن فيها، لذا خصصت لها خادمين لرعايتها، وتركت لمن يريد القراءة أن يقيم ويقرأ، ولمن يريد أن ينسخ منها ما يشاء أن يجلس وينسخ، فصارت قبلة للكثيرين، حتى ظننت أن الناس ما كانت تأتي من أجلي، ولكن من أجل المكتبة وما فيها من معارف وعلوم، ولم أدرك حقيقة الأمر إلا بعدما وجدت الناس تجلس حيثما أجلس لتسألني، فأدركت أنني أستاذ اللاهوت ورئيس المدرسة، وأن المدرسة ليست سوى شخصي، فحيث ذهبتُ ذهبتْ معي، وحيث جلست تصبح المدرسة، وصار تلامذتي يرافقونني في سيري ومقامي طيلة الوقت، حتى أنني كنت أهرب منهم ومن الناس، وأبحث عن مكان أنام فيه، وكلما سمعت بمكتبة في مكان كنت أذهب إليها، فأطلع على ما فيها، ولا أخرج منها حتى أشعر أنني ألممت بكل ما تحتويه، فأتركها إلى غيرها، حتى أن أصحاب المكتبات كانوا يرسلون في استضافتي كي أقرأ ما لديهم، ويغروني بكل جديد لم أطلع عليه، لأذهب وأقيم ويجتمع الناس حولي هناك، ويبدأ النساخ في كتابة ما أمليه عليهم.

ظلت الحياة على وتيرتها الجيدة حتى جاء ماكسيميانوس التراقي إلى الحكم، وكما تعلم يا صديقي، كان مهووسًا بفكرة محو المسيحية عن الأرض، هكذا قال لأعوانه ورجاله، طالبًا منهم ألا يتركوا مسيحيًّا في

شارع أو بيت، وأن يعذبوا الجميع حتى يقدموا الأضحيات لأرباب روما وآلهتهـا، في ذلك الوقـت كان صديقي فرمليانوسـ الكيبادوكي قد أصبح أسقفًـا على قيصرية كبادوكيـا قرب البحر الأسـود، كان الرجل قد قطع المسافـات الطويلة وجاء من أجلي في قيصريـة فلسطين، فقررت الذهاب لتهنئتــه، ولم أكــن نزلت كبادوكيا من قبل، وجــدت كنيستها محفورة في الجبــل، لم تكن وحدها التي نحتــت في الجبال، فبيــوت العامة والأغنياء أنفسهــم حفرت في الجبال، وبدت لي في حــد ذاتها آية رمزية إلى ملكوت الله الثابت، فتعجبت من سحرها ومتانة بنائها، وصعوبة الوصول إليها، وقــوة أهلها وبأسهــم في البناء وإعمار المدن، أعجبتهــم إشادتي ببلادهم، وأصــروا أن أبقى معهــم فترة لأعظهم، وليتعرفوا علــى رأيي في بعض المسائل التي تحدث فيها السابليون وغيرهم، فرضخت لطلبهم، ويبدو أن القدير كان قد قدَّر لي أن أجيئهم في ذلك الوقت الذي أمر فيه ماكسيميانوس رجاله بسجــن وتعذيب رجال الدين المسيحيين، وجعــل الشعب كله يقدم الأضاحي للأوثان.

كانت أيامًا عصيبة، ولم يسمح لي فرمليانوس بالخروج من كيبادوكيا، فقــد تفننوا في إخفائي عن الجنود والعيون، وكانت المدينة محض مغارات وسراديب محفورة في الجبال، ومن البدء يصعب الوصول إليها أو دخولها بقوات كبيرة، فكان الجنــود يتجاهلونها كما لو أنها ليست موجودة، ما لم تكــن هناك أوامر واضحة لهم بالقبض علــى شخص بعينه، ولا أعتقد أن أمــري كان يهم الإمبراطور إلى حد أن يرســل قوة لمطاردتي بين شقوق الجبال، لكنهــم ألقوا القبض على صديقــي أمبروسيوس وبروتوكتيتوس كاهــن قيصرية، فوضعا في السجــن وعذبا عذابًا شديــدًا، ومثلما أرسلت لوالــدي في سجنه برسالــة تحضه على الاستشهــاد، ووضعت كتابي عن الاستشهــاد في زمن اضطهاد الإمبراطور ساويرس كي أحض الناس فيه على التمسك بالإيمان والاستشهاد من أجل المسيح، فقد كتبت رسالة طويلة إلى أمبروسيوســ وبروتوكتيتوس أوضح لهما فيها أن الاستشهاد هو أحد البراهين علــى صحة الحق المسيحي، بوصفه استمــرارًا لعمل الخلاص،

فمثلما افتدى المسيح بنفسه البشرية من خطيئة آدم، فإن المستشهدين يفتدون إخوانهم بأنفسهم من عذاب الجبابرة الطغاة.

في أيام بقائـي في قيصرية كبادوكيا وصلت إلى فرمليانوس رسالة من إسطفانوس أسقف روما يحـرِّم فيها تعميد التائبين الراجعين إلى الكنيسة. كان فرمليانوس يقبل معمودية الراجعـين إلى الكنيسة من الهرطقة، كما يحـدث في كنائس الإسكندريـة وآسيا، وكان ترتليـان فليسوف قرطاجة الشهير قد كتب رسالة كبيرة ضد قبول معمودية الهراطقة، رافضًا عودتهم لكنيسـة الرب، هذه الرسالة آمن بهـا إسطفانوس في روما، وأخذ يراسل الأساقفة في الشرق والغرب طالبًا منهم ألا يقبلوا العائدين من الهرطقة.

عرض علـيَّ فرمليانوس الرسالة التي جاءته من إسطفانوس، ووقف الكبادوكيـون ينتظـرون منـي ردًّا يكتبونـه في رسالتهم إليـه، فتعجبت من هـذه القدرة على الحرمان مـن ملكوت الله، كما لـو أن الرب جعلنا أبناءه كي نمنع الناس عن دخـول ملكوته، فرفضت رسالة إسطفانوس، وقـررت أن أكتـب ردًّا على رسالة ترتليان، الـذي لم يسلم من السقوط في هرطقة المونتانيين، فقد ادعـى رئيسهم مونتانيوس أن النبي ليس أكثر مـن آلـة موسيقية يلعب عليها اللـه، ومن ثم فما يخرج مـن فم النبي ليس كلامًـا بشريًّـا، إنما هو وحـي ورؤى إلهية، وزاد في الأمـر فادعى أنه هـو البارقليط الموعود بـه في الإنجيل، وأنه يتمتع بوحـي الروح القدس الـذي ينطـق على لسانـه، وأخذ يتكلم بحالـة من الدهشـة والذهول أمام الناسـ كما لو أنه يتحدث برؤى إلهية، مما جعـل أصحابه يحسبونه نبيًّا، هؤلاء المنتانيون وصفهم إكلمندس بأنهم أنبياء كذبة، ووعد بتصنيف كتاب اسمـه "النبوة" للرد على زعيمهم مونتانيوسـ وأفكاره، وكنا نتصور أن ترتليان، الفليسوف والمفكر القرطاجي الشهير لن يسقط في حبائل مثل هذا المهرطق وأتباعه، لكنه سقـط فيها، ومن فرط حماسه وقناعته بها طالب بعـدم قبـول من لم يؤمنوا بهـا، بوصفهم مهرطقين، ثم مـر الوقت لنجد إسطفانوسـ الآن يتبنى ترتليان، دون أن ينتبـه إلى أن ترتليان خطَّأ قبل موته آراء مونتانيوس وتأليهه لنفسه.

هكذا قلت لفرمليانوس ومن جلسوا ينتظرون مني ردًّا على رسالة إسطفانوس، فكتب إليه منتقدًا تدخله في شئون الكنائس الأخرى، ومطالبًا إياه بالالتزام بوحدة الكنيسة، كان رد فرمليانوس قويًّا وقاسيًا، دون أن يتطرق إلى مزيد من الجدل، أو إعلان رأي واضح، فقد سعى لغلق الباب سريعًا، دون شرح الأسباب والدوافع، وهو ما اعتبرته خطأ في الطرح، لأنه إذا كان يغلق باب الجدل فإنه أيضًا يغلق باب المنطق والعقل، والإيمان لا بد أن يقوم على العقل والمنطق، فما يرفضه العقل ولا يقبل به، لا يمكن اعتباره في صحيح الإيمان، لأن الله لم يخلق لنا رءوسًا كي نحفظ فيها أوامر ونواهي، ولكن للناقش سنة الكون ونتعلم من حكمته وبديع صنعه، والمنطق يملي علينا أن نفتح أذرعنا لكل شارد يرغب في العودة إلى كنيسته، فليس من العقل أن الله خلق الحياة لأجل أن يعذب البشر، ولا أن يتصيد لهم الأخطاء، ولكن لأن يدركوا أنه الإله العظيم القدير، ولو كان يترصد ويتصيد ما افتدى البشرية بنفسه، وما تجسد في هيئة بشري كي يكون مثالاً لهم في الفداء والرحمة، فهل يعقل أنه سيرفض الراغبين في العودة إلى حظيرته؟ كانت هذه الأسئلة بداية ما تحدثت به في كبادوكيا، ورحت أعظ الناس بأن يفتحوا أيديهم للعائدين من الضلال، لأن الله لا يرغب في تعذيب البشر، لكنه يرغب في خلاصهم من الآثام والشرور.

-٩-

كان مــن المفترض أن نخرج من الكنيسة ونعود مــن حيث أتينا، لكن أنطونيوســ الذي عاد إليه حس قاطــع الطرق فرد طوله بملابسه المتسخة ووقف في وجه أحد القساوسة المتعجلين في الردهات الداخلية قائلاً:

- ماذا يفعل يؤانس هنا؟

لا نعرف هل تصــور القس أن أنطونيوس يعرف شيئًا أم لا، لكنه رد عليه في نبرة ساخرة وهو في عجلة من أمره:

- غير مقتنع بالبابا.

كانت هذه الجملة كفيلة بأن ترفع قرون الاستشعار لدى أحمد ونائل إلى عنــان السماء، ونظر كل منهما إلى الآخر موقنًــا أن ثمة خلافًا على البابا الجديد، وربما تصل الأمــور إلى حالة من الانشقاق أو السعي لشلحه من منصبه، شعرت أن كلاً منهمــا مبالغ إلى درجة لا يمكن قبولها، فمنصب البطريرك منحته يد الــرب لصاحبه، ولا ينتزع إلا بيد الرب من جديد، وليس من السهولة الحكم بخلعه دون مجمع مقدس، وهو الوحيد الذي في يــده دعوة المجمع للانعقاد، لكن أنطونيوس أوضح أنه لا يوجد مستحيل، والعــالم علــى حافة الجنون، وكل مــا يحدث لنا هو جزء مــن تفاصيل لم نستطع إدراكها بعد.

قررنــا في ذلك الوقت ألا نمشي مجتمعين وكأننا في حالة تجمهر، وأن نسعى لتلقط الأخبار عسى أن نفهم شيئًا مما يجري، اصطحبت نائل واتجهنا من جديد نحو مكتب أسقف التحقيقات، بينما رغب أنطونيوس في الصلاة بالكنيســة البطرسية، فاصطحب معه أحمــد ليتعرفا عليها، حيث وقفا أمام الحوض الرخامي الــذي في مدخلها، وتطلعا إلى صفــي الأعمدة الكبيرة

المحيطة بصحنها، وفيما جلس أنطونيوس يصلي أخذ أحمد يتأمل جدارية يوحنا المعمدان وهو يعمد المسيح في مياه نهر الأردن، واللوحات التي علت الأعمدة الرخامية، حيث قدم فيها الفنان الإيطالي بريمو بابتشيرولي حياة المسيح والرسل والقديسين، وحين وصل أحمد بخطاه على مقربة من الهيكل، حيث أيقونة المسيح الجالس على العرش وعن يمينه العذراء وعن يساره مرقس الرسول، سمع اسم يؤانس ينطلق بين اثنين من الأساقفة، فأرخى سمعه لتتهادى إليه الكلمات المعبرة عن غضب يجتاح الكثيرين، فلا يمكن القبول بتوحيد العماد مع الهراطقة، والكرازة ليست لعبة في يد أي من كان، ولا بد من وضع حد لانتشار المهرطقين فيها.

كانت الكلمات تتقطع وتتواصل، تخفت أحيانًا وتعلو أحيانًا، لكن الأسقفين كانا منغمسين في حديثهما بغضب، ظلا يتناقشان دون انتباه إلى أن ثمة من ينصت إليهما، وحين ظهر أحد طوال القامة بالباب، لمس أحدهما يد الآخر مومئًا بضرورة تركه، فهز الآخر رأسه بالموافقة ثم اعتدل في اتجاه الهيكل وأخذ يصلي.

اتجه أحمد نحو أنطونيوس وجلس بجانبه قائلاً إن ثمة أمورًا غريبة في المكان، أنهى الأخير صلاته وخرج من الكنيسة ليلحق به أحمد، وبدآ في البحث عني أنا ونائل، كنا قد وقفنا أمام باب أسقف التحقيقات كما لو أننا في انتظار الدخول، لم نكن وحدنا المنتظرين، فكل من أخرجهم طويلو القامة ظلوا واقفين، رأينا أحد المطارنة يجيء مسرعًا وخلفه أسقف وقسيسان، أفسحنا لهم الطريق للدخول، تأكد لنا جميعًا أن الأمر سيطول، انتحيتُ بقس كان في الداخل وخرج معنا، سألته عن الراهب الذي أخرجونا من أجله، قال إنه الأب يؤانس المسئول عن أمن الأديرة، ويبدو أن هناك مشكلة لديه. كان فضولي سيقتلي وأنا أتساءل عما إن كان للأديرة أمن، فنظر لي الرجل كما لو أنني أسعى لاستدراجه كي يفصح عن واحد من أسرار الكهنوت، حاولت أن أخبره أنني لا أعرف سوى الكشافة الذين يساعدون في الاحتفالات، فهز رأسه:

– الدنيا معقدة.

ثـم نظر في الناحية الأخرى معبرًا عن عـدم رغبته في الكلام، أسفت علـى خيط الحديث الـذي انقطع، وعدت بنظري أبحـث عن نائل، كان قـد أغلق كم قميصه علـى رسغيه وأخذ يلقي سمعـه إلى كل ما يتهامس به الآخرون، تركتـه يرسل أذنه حيث يشاء وتفحصت المكان بحثًا عن أحمد وأنطونيوسـس، حين رأيتهما قادمين مـن نهاية الممر المـؤدي إلى الكنيسة البطرسية اتجهت للقائهما.

لم يمضِ كثير مـن الوقت حتى انفتـح باب مكتب أسقـف التحقيقات، وخـرج يؤانسـ ورجالـه وبعضـ القساوسـة والأساقفة، لكـن أسقف التحقيقـات لم يكن من بينهم، ورفض القسـ المسئول عن مكتبه أن يُدخل أحدًا، فظل الناس واقفين أكثر من نصف ساعة قبل أن يفتح لهم الباب من جديد، حين عاد نائل إلى مديـر المكتب ليسأله من جديد عن المحققة دميانة التـي كانت في دير الملاح، والتي لا يعرف أهلها عن مصيرها شيئًا، رفع الرجل حاجبيه سائلاً:

– هل تقصد دميانة صلاح؟

– نعم.

أغمض عينًا وفتح أخرى ثم نهض من مكانه قائلاً:

– انتظرني.

غاب مدير المكتب في غرفة أسقف التحقيقات دقائق بدت كالدهر، حتى أن أنطونيوسـ همسـ في أذن أحمد أنه مرتـاب في الأمر، ثم جذبني من يـدي لنكون على مسافة ونرقب ما يجري من بعيد، فنحن لا نملك أوراقًا ولا حمايـة من أحد، وضعنـا أنفسنا مع المنتظريـن دورهم في الدخول، بعدها خرج المدير طالبًا من نائل وأحمد مقابلة الأسقف، وسرعان ما عاد يسألهما:

– هل كان معكما أحد؟

هز كلاهما رأسه بالنفي، فضغط لهما على أكرة الباب.

وقفنا في الخارج ننتظر ما ستسفر عنه المقابلة، لم يكن لدينا أفكار كبيرة عمــا يجري، وكنا نتصور أن الأسقف ســوف يعدهما بالبحث في الأمر، وربمــا يتصل بالدير لمعرفة الموقــف، فبحثنا عن مــكان نجلس في انتظار خروجهما، كان أحد القساوسة يحمل ورقة ملونة وبها كلمات بالإنجليزية والعربية، حين رآني أتلصص على ما فيها ابتسم قائلاً:

– هذه مواقع إلكترونية ضالة.

لم أستوعــب ما قاله، فراح يشرح لي أنها صفحات على الفيس وتويتر وغيرهمــا، لكنهــا صفحــات ومواقع تهــدف لهــدم الكنيســة، فأصحابها يهاجمون البابا ويعترضون على سياسته، معترضين على قانون الأحوال المدنية، معتبريه يبيح الطلاق كما يفعل المسلمون، حينها تدخل أنطونيوس سائــلاً القس عن موقفه هو، فرد أن الطلاق ليســ له علة غير الزنا، فما جمعه الرب لا يفرقه الإنسان، ولا يجب التحايل عليه. سألته إن كان يؤيد ما تقوله المواقع الضالة، فنظر نحوي بارتياب قائلاً إنه لا يؤيد أي انشقاق في صفــوف الكنيسة، فالمسلمون ينتظرون خطأ واحدًا كي يدخلوا ويعبثوا في ديننا.

لم نرغــب في إثــارة غضب الرجل أكــثر من ذلك، هو بــدوره شعر أننــا غرباء على المكان، وربما نكــون من جهة ما تراقب وترصد، فجمع أوراقه وأبعدها عن تطلعي، فنظر إليه أنطونيوس وكأنه يتهمه بشيء ما:

– هل يؤانس هنا من أجل ذلك؟

لكن الرجل أغلق الباب كاملاً:

– أنا لا أعرف يؤانس ولا غيره.

هكــذا قالها وهو ينهضــ من مكانه متجهًا نحو بــاب مدير مكتب أسقف التحقيقات، فتركناه ورحنا نتحدث عن الأسباب التي تجعل رجلاً كيؤانس يترك دير النساخ في الجنوب ليأتــي إلى العاصمة، لكن أنطونيوس الذي شرد بذهنه انتبه فجأة نحوي قائلاً:

– دميانة!

سألتــه عما يعنيه فقال إنه يشعر بوجودها، وهو أمر لم يشعر به منذ كنا في دير الزاوية، كان شعوره يزداد قوة وكأن شيطانًا قد تلبسه، حتى أنه أخذ ينظر بعينيه كما لو أنه سيجدها واقفة أمامه، للحظة تصورت أن عقله قد شــط، أو أنه أوشك على الجنون، لكنني بعد قليل تذكرت أنني شعرت بوجــوده هو حين كنت في دير المحــرق، فهل يمكن أن تكون دميانة هنا، وهــل يمكن أن يكون يؤانس في الكاتدرائية من أجل دميانة، هل يمكن أن يكون يوساب ورهبانه طوال القامة على علاقة بيؤانس؟

كانــت الأسئلــة تتوالى على ذهنــي ويرددها لساني، بينمــا أنطونيوس ينصــت ويشجعنــي بعينيه على أن أكمــل، كنت أحــاول أن أربط بين ما أقوله ومــا سمعته في دير الملاح، لكن جلبة حدثت إثر ارتفاع صوت أحد الزائريــن صارخًا بأنهم يريــدون قتله، وعلى الكنيســة أن تحميه منهم. لم نكــن الوحيدين الذين ذهبنــا لنستطلع ما يحدث، لكننــا الوحيدين الذين وصلنــا شعور بأن الخلافات ازدادت داخل الكنيسة، حتى أن الرجل أخذ يصــرخ بأنه يريد مقابلة البابا، وأنه لن يتحرك من مكانه دون لقائه، مما اضطــر القساوســة الذين تجمعوا للتعامل مع مشكلتــه أن يخبروه أن البابا غير موجود، ولا أحد يعلم متى يمكنه أن يأتي، فقد دخل في نوبة اعتزال وتأمل بأحد الأديرة، ولا يمكن التنبؤ متى سيخرج منها.

ربمــا كان الرجــل يعاني هلاوســ مرضية، وربمــا كان هناك تهديد حقيقي، فالسلفيون يضيقون علــى المسيحيين، والدواعش يستهدفونهم في سيناء، أما ما يجري في الجنوب فهو ما لا يريد أحد الاعتراف به، وليس أمام المسيحيين سوى الصــبر والاحتمال، أو مطالبة البابا بما لا يملك ولا يستطيــع، فهل ساد الجنون الجميــع، أم أن العالم مندفــع للصدام بأقوى وأسرع مما يتوقع أحد. انسحبنا من الحلقة المضروبة حول الرجل، قائلين لأنفسنــا إنه لا يريــد البابا، لكنه يحث عن يؤانــس، فنظر لي أنطونيوس مؤكدًا أنه لا يستبعد أن يكون يؤانس نفسه هو الذي أرسله، وأن هذا الفعل الجارح لهدوء الكنيسة لا يملكه غير رجل راغب في الصدام، فهل يؤانس يملك هذه القدرة، أم أنه نفسه مجرد مقدمة لرجل آخر ينام في الظل؟

خــرج أحمد ونائل مــن مكتب أسقـف التحقيقات وأخـذا يبحثان عنا، حــين التقينا سألناهما عما حدث، قالا إن الديــر لا يعلم عنها شيئًا، فحسب التحقيقات التي لديهم أن دميانة هي التي طلبت من رئيس الدير العودة إلى القاهرة لأن والدتها مريضة، حتى أن الأب يوساب أحضر لها باصًا، وقام بتوصيلها من غرفة إقامتها إليه، ومنذ ذلك اليوم والدير لا يعلم شيئًا عنها.

بــدا أن الأمــر يحتــاج إلى جلسة لمناقشة مــا سمعــاه، ومطابقته مع ما شاهدتــه بنفسي وما جرى معي في التحقيــق، قررنا الخروج للجلوس في أقرب مقهى للتفكير في الأمر، لكننا على البوابة التي دخلنا منها في الصباح وجدنا أمين شرطة يستوقفنا طالبًــا أوراق هويتنا، تساءل أحمد ونائل إن كان ذلك يحدث أثناء الدخــول أم أثناء الخروج؟ فأجابه ضابط الأمن أن ثمة بلاغًــا بوجود شخص مجهــول الهوية يسعى لعمــل إرهابي، أخرج أحمد ونائل أوراقهما، ووقفت أنا وأنطونيوس لا نعرف بم نجيب. حاول أنطونيوس أن يرسم دور المتسول المجذوب، بينما وقفت أرتعد في جلدي بجانــب نائل، وفي النهاية رفع الضابط عينــه نحوي سائلاً عن أوراقي، فأجابه نائل بأنني ضيفه من أسيوط، وأنني نسيت أوراقي في البيت، فهز رأسه وسمح لي بالمرور، وحين جاء الدور على أنطونيوس، غيَّر الأخير مــن صوته وزاد من اعوجاج فمه ويديــه، متحدثًا بطريقة غير مفهومة، فما كان مــن الضابط إلا أن أشار لمن معه بالقبضــ عليه، حاول نائل أن يتدخــل، لكن الضابــط غيَّر ملامحه وهو يأمرنا بالخــروج، فما كان من الجنود إلا أن اتجهوا نحونا ودفعونا خارج البوابة.

-١٠-

عاد أثناسيوس إلى أرض الإسكندرية من جديد، وخرجت الجماهير الغفيرة لترحب بوجوده بينها، وكأنها كانت تبعث رسالة للإمبراطور بأن أثناسيوس هو الذي يمثلها، وأن ذلك البطريرك الذي عيَّنه لكنيستها لا يمثل سوى نفسه. دامت الأفراح نحو شهر كامل في شوارع المدينة العظيمة، وتفنن النحاتون والرسامون في عمل تماثيل وأيقونات للمسيح والعذراء والباباوات المصريين، تفنن الشعراء في نسج قصص عن أثناسيوس المنتصر ورحلته الطويلة، وجلس الأخير يستقبل في مقر الكنيسة الوفود التي جاءت إليه كما لو أنها ترغب في تجدد إيمانها على يديه.

كان أثناسيوس متعطشًا لإعادة تعميد البلاد وفقًا لقانون الإيمان النيقاوي، فلم يمضِ أسبوع على وصوله الإسكندرية حتى أقام القداس الإلهي في مسرحها الكبير بحضور نائب الإمبراطور وعدة آلاف من الرومان واليونان والمصريين واليهود المتنصِّرين، في هذا اليوم رسم أثناسوس عددًا من الشمامسة قساوسة، وعددًا من القساوسة أساقفة، وعمَّد الراغبين في دخول المسيحية، وعقد إكليل الراغبين في الزواج، ولم تمضِ أسابيع حتى دشن كنيستين بالمدينة، وأعلن عزمه على القيام برحلة للَكنائس والأديرة البعيدة.

تركت أبانوب في دير الملاح ونزلت الإسكندرية بمجرد معرفتي نبأ عودة أثناسيوس، شعرت أن الروح ردت إليَّ، فلم أنتظر أن أركب بكرة أبانوب وهرولت على المنحدر غير عابئ بالأحجار التي تملأه، كان في صحبتي راعٍ تبرع بأن يحضر حصانه ليوصلني للمدينة، وأصر تلميذي جورجيوس علَى أن يصحبني، رافضًا أن أنزل المدينة وحدي، فجهز الراعي حصانين، حملني على واحد، وامتطى هو وجورجيوس الثاني،

وظللنا نقطع المسافات حتى وصلنا الإسكندرية قبل نزول أثناسيوس من سفينته إلى شاطئها بيوم واحد.

التقاني الجميع بمحبة غامرة، والتقيتهم بوحشة لم أكن أتوقعها، فقد جعلنا الفرح في حالة من التسامي لا حدود لها، وانصهرنا في العمل من أجل خدمة الآخرين، حتى أن الراعي ظل عدة أسابيع غير راغب في العودة، أما جورجيوس فقد أبى أن يترك المدينة ويعود إلى الصحراء، قال إنه يرغب أن يتعلم فيها مثلما تعلمت، وأن يكوِّن صداقاته بها مثلما كوَّنت صداقاتي، فشعرت كما لو أن شيئًا مني ينمو أمامي، فودعنا الراعي وعدنا للعمل مع الآباء والأساقفة فيما كلفنا به.

ظللت أؤجل رغبتي في معرفة ما جرى مع أثناسيوس في أوروبا حتى فاجأني برغبته في القيام من جديد برحلتنا نحو الجنوب، كان الأمر بالنسبة لي مفاجأة كبرى، فقد تصورت أن السنوات والأحداث قد باعدت بيننا، وأن هناك من هو أقرب إليه مني الآن، لكن الرجل ظل على عهده ومحبته، فأخذت في التجهيز للرحلة، ومن سيصطحبوننا ومن سيبقون لأداء المهام الروحية، وألححت على أثناسيوس أن يرسل لنائب الإمبراطور كي يعد حامية لحراستنا، لكنه رفض قائلاً:

– كنت أتحرك في جبال أوروبا بمفردي، فهل أصطحب حامية لحراستي في بلادي؟!

أبديت له تقديري لفكرته ومشاعره، لكنني كنت أدرك طبيعة الأرض التي سنتحرك فيها، فذهبت لقائد حرس حاكم الإسكندرية، وأخبرته بأهمية حماية البابا في رحلته ولو من دون علمه، ثم أرسلت لأبانوب أن يبعث لنا بخمسة من الرهبان القائمين على حماية الدير، وأبلغت أثناسيوس أنهم نساخ سنحتاجهم لكتابة العظات التي سيلقيها على الشعب.

كانت القافلة مكونة منا وثلاثة قسوس والرهبان الخمس، وكان أثناسيوس يؤنبني كلما تأخرنا في حركتنا قائلاً:

– لقد صرنا كالملوك نسير في المواكب.

وكنت أضحك موضحًا أن هذه الأرض سقطت سبع سنوات كاملة تحت وطأة الأريوسيين، وهناك من فرحوا بعودته، وهناك من كظموا غيظهم، ولا بد من الحذر، فكان يسخر من حديثي قائلاً إنه لا حذر يمنع قدرًا، وكنت أسخر من نفسي قائلاً:

– وماذا لو علم أن رجال الحاكم يتابعوننا عن قرب ملابس عادية.

كنت أعرف سيماهم على جسور النيل ومدقات الصحراء، كنت أشعر بأنفاسهم وهم يسيرون أمامنا أو خلفنا، لكني لا أحادثهم ولا هم حدثونني، ولا أخبرت أثناسيوس بأمرهم، ولا هو فكر في سؤالي عن شأنهم.

مررنا بعدد من الكنائس في طريقنا من الإسكندرية إلى منف، حيث ألقى أثناسيوس بعض عظاته ورسم قساوسة وأساقفة بكل منها، ثم صعدنا إلى الأشمونين، حيث الكنيسة الجديدة التي أمرت الإمبراطورة هيلانة ببنائها على المغارة التي لجأت إليها السيدة العذراء وطفلها، وهناك رسم أثناسيوس رئيسها أسقفًا، ورسم معه اثنين من تلامذته قساوسة، ثم صعدنا إلى لكيوبوليس، وهي معقل الأريوسيين والميليتيوسيين، فعقد مجمعًا مقدسًا أعاد فيه كل القساوسة والآباء الذين تم حرمانهم إلى كنائسهم وأديرتهم، أكملنا طريقنا نحو طيبة في الجنوب، حيث يعتزل الأب باخوميوس في الجبال، ومنه علمنا أن الأب أنطونيوس مريض في ديره، فعدنا إلى ليكوبوليس، ثم عبرنا الصحراء شرقًا حتى وصلنا إلى دير الملاح، فارتحنا من سفرنا يومًا بليلة، ثم أكملنا سيرنا نحو الشمال، فصعدنا للقاء الأب بولا في ديره، ولم نبِت معه سوى ليلة واحدة، فقد كنا جميعًا مشغولين بمرض الأب أنطونيوس.

وجدناه يعاني من حرارة وعرق غزير، فجلس أثناسيوس بنفسه يطبِّبه، وما إن استعاد وعيه حتى رسم ابتسامة واهنة كبيرة على وجهه، مخبرًا أثناسيوس أنه كان يصلي لأجله طيلة الوقت، وأنه أرسل لنائب الإمبراطور رسالة طويلة، اعترض فيها على تعيين بابا لا يعترف به الناس، لكن نائب الإمبراطور كان مغلوبًا على أمره، فأرسل معتذرًا ولم يزد عن ذلك كلمة، وقال أنطونيوس إنه كان يجل يوسابيوس القيصري لما كتبه في سيرة أوريجانوس عن علمه وفضله، لكنه لم يستطع فهم موقفه

لا هــو ولا تلامذته الكبادوكيين الثلاثة، وقــد أرسل إلى القيصري مدافعًا عن أثناسيوس وصحيح اعتقــاده في مواجهة اعتقاد أريوس، لكن الأخير وتلامذته كانوا قد قطعوا شوطًا طويلاً في طريقهم.

قــاد أثناسيوســ قداســ الأحــد في الديــر، وصلــى مــن أجــل الأب أنطونيوســ، وظل بجانبه حتى شعر أنه تعافــى، فاستأذنه في العودة إلى الإسكندريــة، وأخذنا طريقنا بمحاذاة الجبال القاسيــة نحو الشمال، حتى وصلنــا إلى ميناء كليزمــا على خليج القلزم، ثم جزنــا ناحية الغرب حتى مررنا بتبيس، وهناك رسم أثناسيوس أسقفًا وقسيسين، ثم أكملنا الطريق نحو الإسكندرية.

تصورنا أن الحياة قد أعطتنا وجهها الحسن، لكن لم تمض شهور حتى علمنا بمقتل الإمبراطور قسطانس صديق أثناسيوس وحاكم الغرب، على يد ماجنتيوســ حاكم روتيا، وهو أحد قادة جيشــه، لكنه تمرد عليه وقتله في إقليــم الغال، قيل إنه اغتصب ابنة أخت قسطانس وقسطنطينوس حاكم الشرق، وأنه أعلن نفسه إمبراطورًا على الغرب، فلما علم قسطنطينوس بالأمــر قطــع حربه مع الفرســ وعاد بجيشــه إلى رومــا، وفي الطريق انضــم إليه كثــير من حكام الغــرب، وعلــم ماجنتيوســ أن روما مالت لقسطنطينوس، فتركها وذهب لبلاد الغال، فتبعته جيوش قسطنطينوس، ودارت الحرب سجالاً بينهما، فلما طالت اتصل قسطنطينوس بقادة جيش ماجنتيوســ، ووقف الأخير ذات صباح يلقي خطبة في قلعة مورسا، فإذا برجاله يهتفون بحيــاة قسطنطينوس، فتركهم وفر بمن بقي معه منهم إلى أقصى بلاد الغال، وهناك انكفأ على سيفه منتحرًا.

كان الأريوسيــون في استقبــال قسطنطينوس فــور عودته من حربه، فأوعــزوا لــه أن أثناسيوس شريك في قتل أخيه، فهــو صديق ماجنتيوس المتمــرد، وقد أرسل له طالبًا الخلاص مــن قسطانس، وحرض الأساقفة في فلســطين على التمرد، وعقــد مجمعًا هناك برئاســة مكسيموس أسقف فلســطين، بغير إذن الإمبراطــور، ورسم أساقفة وقسوسًــا في أبرشيات خارج سلطانه.

جعلت هذه الوشايات قسطنطينوس يعلن الحرب من جديد على أثناسيوس وأتباعه، فأمر بنفي بول أسقف القسطنطينية، وأوصى الجنود الذين اصطحبوه لمنفاه في كبادوكيا بقتله في الطريق، وعين للقسطنطينية أسقفًا أريوسيًّا ملأ السجون بالكثير من المؤمنين، لا لشيء سوى أنهم ليسوا أريوسيين، وخلع مارسيللوس أسقف أنقرة من منصبه وعين بدلاً منه مجرمًا يدعى باسيل، وأمر بأن يلقي بلوسيوس أسقف أدرينوبل في السجن، وأن تعلق في عنقه الرقيق سلسلة ثقيلة من الحديد، فمات في سجنه، أما أثناسيوس فقد نزل الجند للقبض عليه ونفيه، لكن الشعب رفض، ودارت معركة في الكنيسة بين الناس والجنود، معركة راح ضحيتها الكثيرون، وكان أثناسيوس رافضًا لفكرة الهروب، إلا أن رهبان أبانوب خلعوا عنه زيه، وألبسوه رداء راهب منهم، وخرجوا به في أثناء الشغب والحرب الدائرة بين الجميع، واختفوا عن العيون مدة قبل أن يتجهوا به نحو الجنوب.

تخلص الإمبراطور من أعدائه وتفرغ لأثناسيوس، فأمر أساقفة الشرق والغرب بعقد مجمعين في آرل وميلان لعزله ونفيه، فتحمل بعضهم عذاب السجن والنفي، بينما رضخ آخرون موقعين على وثيقة بعزل أثناسيوس، هذا الذي احتمى بشعبه، وظل هاربًا في صحبة الرهبان الخمس مدة ست سنوات، يتنقل من دير إلى آخر، حتى وصل إلى مغارة بالقرب من ليكوبوليس في جبل غرب النيل، فأقام بها ومعه الرهبان الخمسة، يملي عليهم سيرة الأب أنطونيوس، كما يملي دفاعاته عن صحيح الإيمان، ورسائله إلى أساقفة مصر والمدن الخمس والحبشة، وتأملاته وتفنيده لأخطاء الأريوسيين، والرهبان يكتبون وينسخون، والناس يعادون الأسقف جورج الكبادوكي الذي عينه الإمبراطور لهم حتى هرب من الإسكندرية، ويأتون من كل طريق ودرب ليجلسوا أسفل مغارة أثناسيوس في الجبل الغربي، طالبين منه أن يمنحهم رسائله التي تعينهم على صحيح الإيمان، فكان النساخ ينسخون عظاته ويعطونهم إياها، وكلما طلبوا منه أن يشرح ما غمض فيها عليهم، كان يقول لهم:

– اذهبوا لرفائيل على هضبة الملاح.

-١١-

ظهـر كلب السماء لدميانة حين سمعت يؤانس يهـدد بأنه سيتخذ موقفًا من كل ما يجري، وأنه لن يسمح بمرور قانون يتيح الطلاق لأسباب غير الزنا، لأنه التفاف على قانون الإيمان النيقاوي، وخروج على صحيح الدين.

لم يكـن صـوت يؤانس الوحيد الـذي تعالى في الكنيسـة، فقد رد عليه آخـرون بأنه ينفـخ في نار الفتنة، ويريـد أن يجعل الأقبـاط دولة داخل الدولـة، خالقًا شبـح الخوف ليظل مهيمنًـا على الجميـع.. حينها صمت يؤانسـ وقرر الخروج مـن الكنيسة، وبـدا عليه أنه بلـغ أعلى درجات الغضـب، فضغط على فكيـه ونهض من مكانه خارجًـا، دون أن يلتفت لأيٍّ مـن الأصوات التـي راحت تصرخ أو تشـرح، حينها عوى الكلب السمـاوي، وشعرت دميانة بلهاثه في أذنها، وأدركت أن عليها أن تترك المكان قبل أن ينشب مخالبه في جسدها.

لم تكـن تعـرف إلى أين تذهب، حشرت نفسها بـين جموع الخارجين مـن الكنيسة وفرت إلى الفضـاء الواسع، هنالك شعـرت أنها قادرة على التنفس، فملأت رئتيها بالهواء، وتركت لقدميها حرية التجول في الدير. لم يكـن لديها خطة للهروب، ربما لم تكن تفكـر في ذلك من الأصل، فقد كانـت ترى يؤانسـ هدية السماء التـي أنقذتها من الشـرور، كانت تراه جدهـا الذي لم تره يومًـا، جلست تنصـت لماضيه وأسـراره مصدقة كل كلمة فيهـا، ولم تر فيه كل هـذه السطوة والقـوة، كان بالنسبة لها الوجه الآخر من المناضل صلاح متري، لكنه اختار العمل في الصحراء، العمل علـى حراسة الثغور والقلاع البعيدة، فأمضى حياته في البحث عن شباب لتدريبهـم على حماية الكنائس والأديرة، كانت تـراه الرجل الذي أحاط نفسه بكثير من الأساطير كي يحتمل الكثير من الهزائم في الحياة، لكنها لم

تتخيَّـل أنه قادر على مناوأة البابا، واتهامه بالتحايل على قانون الإيمان، وربما السعي لإسقاطه وتنحيته.

مـا إن خرجـت دميانة مـن الكنيسة حتـى خفَّف الكلـب السماوي من عوائه، فالتقطت أنفاسها شاعرة أنها أصبحت في أمان، لكن ما إن اقتربت من بـاب الدير حتى شعرت بمخالبه تخمشـ الأرض، ونباحه ينطلق في الهواء، فارتجفت في البـدء بخفة، وسرعان ما تحركت كما لو أنها ريشة تمر من الباب، دون أن يلتفت الواقفون لمرورها، وما إن وجدت منحدرًا يـؤدي إلى الـوادي المنحصر بين النهر والجبل حتى تركـت نفسها تنحدر معه، رأت على البعد أنطونيوس يقود نعاجه ناحية النهر، فدفعت بقدميها تجاهـه كقطرة مـاء تنحدر على وجه ورقة خضـراء، لكن أنطونيوس لم يكـن يسمع لهاثها تجاهه، وظـل يقود نعاجه نحو السفـن العابرة، فظلت تندفـع خلفه كسهم انطلـق من قناته، منادية إياه، حتـى توقف صوتها في فمها، فبكت من عجزها، وهرولت أكثر لتلحق به، وكلما اقتربت من الماء ناداهـا الناس أن تتوقف، لكنها لم تكـن ترى سوى أنطونيوس، ولم تكن تسمع إلا غناءه العالي خلف النعاج، حتى وجدت نفسها في الماء، وأنفاسها تتقاطع، بينما جسدها ينزل ويصعد على مرأى من الجميع.

بطريقة رجل مـدرب على إنقاذ الآخرين، اتخذ ربـان سفينة سياحية عابـرة عدة خطـوات قبل أن يقفز كسمكـة كبيرة في الماء، ومـا إن شعر بهـا تجذبه معها إلى أسفل حتى ضربهـا على رأسها ضربة أفقدتها وعيها، وسحبها نحو السفينة ليحملها مساعدوه إليها.

ساعدها على خروج المـاء من جوفها، وراح يسألها عن اسمها وسبب رغبتهـا في الانتحـار، لكنها ظلت صامتة لا تتحـدث، وكلما توالت عليها الأسئلـة زادت حالة الخوف والخرس التي انتابتها، حتى أوشكت السفينة علـى دخول بني سويف، وفكر الربـان في أن يسلمها للشرطة كي تعيدها إلى أهلهـا، لكنها انتبهت وأخذت تتجاوب مع مـن حولها، فأخبرتهم أنها كانت نائمة وتحلم بأن ذئبًا يجري خلفها، وأن القاهرة هي وجهتها.

تبرعـت بعضـ السيـدات علـى السفينة بمنحهـا ملابسـ عوضًا عن ملابسهـا المبتلـة، وأنزلها الربان في غرفـة مساعده كي تبيـت فيها حتى الصباح، وحـين وصلت إلى القاهرة مع شـروق الشمس أصر الأجانب علـى التواصل معها بوصفهـا عروس النيل، وتركوا لهـا أرقام هواتفهم وعناوينهـم الإلكترونية، بينما اعتبرها الربان جنية البحر، ومنحها هاتفه وبعضًا من المال كي تصل لأهلها بأمان.

لم يكـن معها مفتاح لتدخل، ضربت جرسـ البيت عدة مرات قبل أن تفكر في الذهـاب لجارتها سيمون، فاجأتها الأخيرة أن تريزا محتجزة في معهـد ناصر، وأن قريبها أنطونيوس وزميله ذهبا في الصباح إلى الكنيسة الأم لمعرفـة سبب اختفائها، فقد قلق الجميع وتصوروا أن شيئًا حدث لها، فطمأنتها دميانة وأخذت منها المفتاح الذي تركه أنطونيوس وزميله لها قبل خروجهما.

كان آخـر ما يمكن أن تتوقعه دميانه هو أن يأتي أنطونيوس إلى بيتها، فمـا الذي أتى به، وكيف جاء؟! هكـذا سألت نفسها قبل أن تلاحق سيمون بعشـرات الأسئلة عن اسمه وشكله وملامحـه، حتى أن سيمون شكت في أن يكون الرجل لصًّا أو قاطـع طريق، فتركتها ودخلت شقتها باحثة عما يؤكـد صـدق ما سمعتـه، لم يكن هناك غـير ملابس الرهبنـة التي خلعها أنطونيوس، حـين أمسكتها بيدها تصاعد إليها عطر لم تكن تشمه إلا حينما يدخـل أنطونيوس إلى غرفة التحقيقات، هزت رأسها موقنة أنه آن لمحنتها أن تنتهي.

كان لا بـد أن تذهب للاطمئنان على تريزا التي ترقد بين الحياة والموت على سرير في معهد ناصر، تركت الماء الساخن ينساب على جسدها وهي تفاضل بين صورتي تريزا وأنطونيوس، ارتدت ملابسها وأخذت ما معها من نقود وهرولت على السلم، وما إن انطلق بها التاكسي حتى شردت في السبـب الذي جعل أنطونيوس وملاك ينزلان من هضبة الملاح إلى بيتها، وراحت مشاهد الدير وشخوصه تمر على ذهنها حتى توقفت أمام يوساب ورهبانـه طوال القامة، تذكرت أن نفس الآلة التي شكلت هؤلاء الرهبان

هــي التي شكلت رهبان يؤانس، وأنهم هم الذيــن اعتدوا على أنطونيوس في الديــر، وأرادوا الخلاص منها في الطريق بعــد خروجهم من الدير، تذكــرت أطوالهم وصمتهم وحركتهم الرياضية الجافة، وأنهم لا يختلفون عن الذيــن قدموا استعراضهم أمام يؤانس علــى جبل الطير، تذكرت أن يؤانس قال بالأمس إنه سينزل غدًا في الصباح للبابا في كنيسته، ولا بد أنه الآن برجاله في الكنيسة الأم.

لا تعــرف ما الــذي جعلها تتذكر سيمون وهي تخبرهــا أن أنطونيوس ومــلاك ذهبا للكنيسة، حينها شعرت بمخالب كلب السماء تخمش في حقيبة التاكســي، سمعت صوته يــزوم وعواءه يتعالى، ووجــدت نفسها تطلب مــن السائق أن يغير طريقه إلى الكنيسة الكبيرة، وكلما أبطأ في سيره كان الكلــب السماوي يضرب مخالبه في مسند الكنبة، السائق ينظر إلى جسدها الــذي يرتجف خلفه، موقنًا أنهــا موشكة على الصراخ مــن الألم، فيزيد مــن سرعته ليسابق الريــح قبل أن تنفجر الصرخات منهــا. ما إن وصل إلى قرب الكنيسة حتى أعطتــه ما معها وهرولت لدخول المبنى الذي طالما دخلــت وخرجت منه، عــبرت من جهاز الكشف عــن المعادن ووقفت لا تعــرف إلى أين تذهب، في البدء بحثت بعينيها عن أنطونيوس، لكنها حين لمحــت واحدًا من طوال القامة أدركت أنها في خطــر، ولا بد أن تتحسس خطاها، مبتعدة عن الأماكن التي يقفون فيها كي لا تضع نفسها في أيديهم.

لم تمضــ دقائق على دخولها من البوابــة الإلكترونية حتى شعرت أن كلــب السماء هدأ وتركهــا تنقل عينيها بين الناس، حــين أدركت أن عليها أن تدخل إلى مــكان بعيد لم يأت على ذهنها غير مكتب أسقف التحقيقات، لكنهــا حين قطعت الردهة المؤدية إليه شعــرت بزمجرة الكلب السماوي، ورأت على البعد راهبين أو ثلاثة من التابعين ليؤانس، حاولت أن تقترب من التجمهر الموجود أمام المكتب لكن فاجأها تدافع الناس وخروج يؤانس غاضبًــا، كان رجالــه يسرعون من أمامــه ومن خلفه، يدفعــون الناس بأيديهــم فاتحين له طريقًــا آمنًا كي يمر مــن بينهم، شعــرت أن عليها أن تختفي من المكان، فتركت قدماها تصعدان أول سلالم وجدتها في طريقها، أحنت رأسها بخشوع وتضرع حين فاجأها عدد من القساوسة في طريقهم

إلى الأسفـل، سمعتهم يتحدثون عـن يؤانس وما يثيره من مشكلات، قال أحدهم إنه يجب على البابا أن يصدر قرارًا بحرمانه، فلا ينبغي أن يتركه يثير الرعب في نفوس المؤمنين، وقال آخر إن الكنيسة لم تعد مكانًا مقدسًا، فقد باتــت تدخلها الأسلحة، لكن أحدهم رد بأن الرجل لم يخطئ، فالمجمع المقدس هو الذي جلب لنا كل هذه المشكلات، وإن حرمه البابا فإنه لن يعدم أن يجد من يقف وراءه ليحرم البابا، وربما ينشئ كنيسة مختلفة.

ما إن سمعت دميانة تلك الكلمات وتخيلت ما قد يحدث شعرت بقشعريرة تسري في بدنها، وارتجف جسدها فجأة كسمكة خرجت من الماء، ولم تجد أمامها غــير متابعة ارتقاء الدرجات، حين انتهــى السلم وجدت نفسها في ساحة خالية من كل شيء ما عدا غرفتين متجاورتين في البعيد، لم يكن في الساحة سوى كرسي وحيد يجلس عليه أسقف عجوز ممسكًا بعصا كبيرة في يده تنتهي بالمسيح المصلــوب، اقتربت أكثر لتتطلع إلى العجوز النائم بعيدًا عــن كل ما يجري من حولــه، شعرت أنه مثلها يبحــث عن مكان يمضي فيــه ما بقي من سني عمره بعيدًا عن الصــراع والهموم والملاحقة، كانت دهشتها كبيرة حين اقتربت أكثر وتعرفت على وجهه ولحيته الطويلة ويده الكبــيرة التي تظهر عروقهــا كخارطة أسفل الجلد، إنــه الأسقف الكبير، هكذا قالت لنفسها وهي تعيد النظر إلى ملامحه من جديد، حتى وجدته يفتح عينًــا ويترك الأخــرى مغمضة كأنه لا يريد الخــروج من عزلته، وقفت غــير قادرة على الكلام، رغم أن عشــرات الأسئلة كانت تجتاح رأسها، حين رآها متحيرة ولا تعــرف من أين تبدأ عدل رأسه وفتح عينه الثانية، وأطلق ابتسامة وادعة من بين ثغره قائلاً:

– لماذا جئت؟

ارتســم على وجههــا شبح ابتسامة وهــي تحاول أن تبحــث عن إجابة سريعًــا في رأسها، لكنها لم تجــد، فعادت تبتسم وهــي تستجمع أعضاءها وأنفاسهــا، متذكرة أنهــا تبحث عن أنطونيوس الــذي تشم رائحته في كل مكان هنا، لكنها لا تراه:

– أبحث عن صديق.

هز الأسقف رأسه متنهدًا:

– جميعنا نبحث عن أصدقاء.

انتظـر أن توضح زائرته شيئًا جديدًا، لكن صمتها طال، فرفع حاجبه الأيسر قائلاً:

– أين تركتِه؟

شعـرت دميانـة أن الرهبة قـد فارقتها، وأنها يمكنهـا أن تتحدث على طبيعتها:

– لم أتركه، لكننا افترقنا في دير الملاح، أنا محققة وهو راهب، وهناك من حاولوا قتلي واتهامه بذلك، وها نحن نحاول أن نفهم ما يجري معنا.

ندت عن الأسقف ضحكة هادئة:

– وفهمتِ؟

– للأسـف، كلمـا تصـورت ذلك وجـدت الدائرة تتسـع، والخيوط تتشابك، فأتوه حتى عن نفسي.

خرجت كلماتها كمدفع رشاش بطيء، مدفع لا يريد أن يتوقف، لكن لديه رغبة في تأمل كل كلمـة يقولها، كان حزنها واضحًا وهي تترك ما بداخلها يعـبر إلى الخارج، بينما الأسقـف يجلس مصغيًا في انتبـاه شديد. حكت له عمـا جرى معها منذ تكليفها بالتحقيق في دير الملاح وصولاً إلى هروبها من يؤانس، وأوضحت عدم رضا الأخير عن قرارت المجمع المقدس، ورفضه لقانون الأحوال الشخصية وتوحيد المعمودية، حين انتهت من كلامها أشار إليها أن تقترب، ثم وضع يده على رأسها ناظرًا في عينيها:

– هل تحبين أنطونيوس؟

لمعـت عيناها بضوء مـن الفرح، كما لو أنه كشـف عن سرها، فهزت رأسها ولم تفتح فمها.

– الرب القدير يصنع ما يريد. . . ربنا لا تدخلنا التجربة.

هكذا رفـع عصاه وأشار إلى وجهها، ثم أومـأ لها بالنزول، فتسحبت أقدامهـا نحو السلم، ثم توقفـت لتسأل عما يجري، لكـن الأسقف كان قد عقـد يديه على عصاه، وأغلق عينيه سارحًا في ملكوت الرب، ففهمت أن منحتها انتهت، وأن عليها أن تذهب لتكمل طريقها بحثًا عن أنطونيوس.

-١٢-

رسائل أوريجانوس (١٦)

انتهى اضطهاد ماكسيميانوس، وعدت من قيصرية كبادوكيا إلى قيصرية فلسطين، حيث تلقَّاني أصدقائي أمبروسيوس وتيؤكتستوس وألكسندر، قالوا إن رسالتي إليهم في السجن أسعدتهم كثيرًا، وإن وصولها أعطاهم القدرة على تحمل التعذيب، فقد ألقوا بهم في أقبية مظلمة أسفل الأرض، وتركوا عليهم الأفاعي والفئران والخفافيش، كان الرعب يأكل أرواحهم أكثر من ضربات الجلادين وآلاتهم المحمية في النيران، وسط كل هذا الظلام كان بعض الجنود مسيحيين، لكنهم لم يعلنوا عن مسيحيتهم، هؤلاء هم الذين أوصلوا رسالتي إليهم، لا أعرف كيف تم التوصل إليهم، ولا كيف تمت مخاطبتهم دون أن يكتشف أمر من خاطبهم، وكان وصول رسالتي لأمبروسيوس في عمق هذه الأقبية المظلمة دلالة على أن الرب معهم، وأن ما بينهم وبينه ليس سوى الشهادة، فكانوا كلما عذبوا أيقنوا أنهم منتصرون، فإن لفظوا أنفاسهم دخلوا ملكوت الرب، وإن ظلوا على قيد الحياة حملوا الأمل والقوة لمن سيأتي بعدهم.

مررنا على كثير من تلامذتي في بيوتهم وأماكن عملهم، كنت مصرًّا على القيام بتلك الزيارة إليهم، أباركهم وأصلي وأمسح على رءوس من تحمَّلوا التعذيب، مؤكدًا مكانتهم عند الرب، أما من جبنوا وقدموا أضحيات للأوثان فقد كنت أصلي لأجلهم، وآمرهم بحمل أضحيات أكبر إلى مذبح الكنيسة، هكذا وعظت أمام القساوسة والأساقفة، وقلت إن هناك من يرفض توبة المذنبين وغير المعترفين، هؤلاء لا يُسمع لهم، ولا يُأخذ بعظاتهم، فالرب لم ينزل ليخلص البشرية من خطيئتها كي نحرم أبناءه

من الخلاص، الرب أعظم من أن يرد الراغبين في دخول حظيرته، حتى عبـدة الأوثان إن تابوا فإن الـرب يقبلهم، وعبدة الأوثان الذين لم تبلغهم دعوة الـرب فإنهم في ملكوته، أما من تصلهم دعوته ويرفضونها فهؤلاء هـم المحرومون مـن الملكوت، وأمرهـم في مشيئة اللـه، إن أراد قبولهم قبلهـم، وإن رأى رفضهـم رُفضوا، وليس لنـا أن نحكم في أمر الرب، ليس لنا سوى أن نبلغ رسالته لمن لم يعرفها، ونذكر المؤمنين بالعظات كي لا ينسوا ولا يضلوا.

كنـت أرى في بعضـ الوجوه تغـيرًا، البعض لم يكـن يرغب في أن يتساوى مع الذين قدموا أضحيات للأوثان، والبعض يصر على أن عبدة الأوثان مُبعدون عن الملكوت الإلهي، ولا يمكن قبولهم فيه، وكنت أهدهد على الأكتاف موضحًا أننا لا نشترط على الله شيئًا، فلا نقيده بإيماننا، ولا نغـل يده عن تخليصه لبقية البشر مما هـم فيه، لكننا فقط نفرح بأن خلصنا مـن الشرور، وضمن لنـا بقاءنا يوم الدينونـة في ملكوته، وضربت لهم مثـلاً بأنه لو كان للسماء كلـب تطلقه على المؤمنين كي لا يضلوا الطريق، فهـل في ذلـك فضل للمؤمنين على السمـاء، أم أنها هي التـي تتيه بفضلها عليهـم لأنها أرسلت كلبها ليلزمهم الطريق الصواب؟ ظللت أشرح الفكرة مـرات ومرات حتى قبل الناس أن يغفروا للجنود وعبدة الأوثان وكهان المعابـد أنفسهم، موقنين أنهـم بغفرانهم لهم يعملون عمـل الرب، وليس ملائكة الجحيم.

كان الجنـود قد دخلوا مدرسة قيصرية وفتشوا فيها عني، ثم أخذوا كل مـن وجدوه هناك، أما المكتبة فقد وجـدوا فيها أمبروسيوس فألقوا القبض عليـه، وسألوه عني فادعى أنني ذهبت إلى أثينـا، لم يصدقوه وبالغوا في تعذيبه، لكنه رفض أن يعود إلى الوثنية من جديد، وقال لي إنه كان على وشك أن يضعف ويلين لولا أن سلمه أحد الجنود رسالتي، وتركه يقرأ فيها علـى ضوء شمعة حتى الصباح، ثم أخذها منه ليوصلها إلى تيؤكتستوس، حـين مررنا على المدرسة شعرت بالحـزن عليها، فقد حولتها النيران إلى جدران متهدمة، لكنني حين ذهبت إلى المكتبة ورأيت ما حدث فيها شعرت أن قلبي سيتوقف، فقد أظلمت الدنيا ولم أعد قادرًا على الوقوف، قالوا إنها ظلت مدة أسبوع كامل مشتعلة، وأن السكان القريبين منها تركوا منازلهم

وذهبوا إلى منازل أخرى خشية أن تنتقل النيران إليهم، هكذا أتت النيران على آلاف الكتب والمخطوطات، أتت على مجهود سنوات وإرث استلمته مـن عائلات، أتت على كتبي وكتب والدي وكتب أمبروسيوس وكل من عرفتهـم، كانت أعمال بلغات مختلفـة، ومخطوطات نادرة لا يوجد منها إلا في المكتبة الجديدة بالإسكندرية. في النهاية أخذني أمبروسيوس إلى بيته الجديد، وقال إننا سنقيم هنا إلى أن نعيد ترتيب الأمور.

ظللنـا نحو ستة أشهر نرمم المدرسة والمكتبـة وبيت أمبروسيوس الذي نهـب بالكامـل، ودعـا تيؤكتستوس وألكسنـدر المؤمنين للتـبرع لترميم الكنائـس، هكـذا عشنا نجمع تبرعـات من الناس كي نصلح مـا أفسدته يد البطشـ والجـبروت، حتى عـادت الأماكـن إلى سابق عهدهـا، لكن ما فقـد لم يعد كمـا كان. فضلت أن أقيم حيث كانـت المدرسة، في ذلك البناء الصغير المكون من حجرتين وباحة صغيرة، وتركت مكان المكتبة ليكون مدرسـة، كان ذلك تعديلاً غير مرضـ لأمبروسيوس، لكنني أصررت عليه، وفاجأتـه بأنني أفكر في أن أنفذ ما قالـه للجنود عني حين اعتقلوه، حين بدت عليه علامات عدم الفهم شرحت له أنني أريد الذهاب إلى أثينا، لم يكـن في ذهني أكثر من أننـي أريد أن أرد على بابـا روما إسطفانوس بشكل ما، لكننـي لم أشأ الذهاب إلى روما كي لا يصبح تعديًا على سلطاته الروحية هنـاك، لذا فكرت في الذهاب إلى مدينة لها نفس القيمة والمكانة، ولم يكن هناك غير أثينا.

كان علـيَّ قبـل أن أشرع في تنفيـذ رحلتي أن أدعم إعـادة بناء كنيسة قيصريـة، فقد اقترح عليَّ تيؤكتستوسـ أن ألقي بها عظاتي يومي الجمعة والأربعـاء، هززت رأسي وفهمت ما يرمي إليه، حيث يمكنني أن أحث الناسـ على تقديم أضحياتهم لمذبح الرب، والتبرع لله ببعض ما لقيصر، فأخذت أتردد على الكنيسة في هذين اليومين، بينما يجيء الناس للاستماع إلى العظات التي كانت تطول من الصباح حتى ما بعد الظهيرة، كنت أرد علـى التساؤلات، ثم أبدأ في تفسير الكتـاب المقدس، كنت أشعر أن الرب يفتح عليَّ بعبارات لم أستخدمها من قبل، فأتحرى الدقة في استخدامها قدر مـا أستطيع، حتـى إذا عجز ذهني عن الوصـول إلى الكلمة الأكثر تعبيرًا عما أريد قوله كنت أتوقف عن الشرح، وأطلب من الحاضرين أن يصلوا

لأجـل أن يلهمني الرب الكلمة المناسبـة، ودائمًا ما كان الله معي، يوفقني لما أريـده، والناس يفرحون بحالتي، وعدم خجلـي من أنني لا أعرف، فكانوا يدعونني بالأمين في كل شيء.

ما إن انتهينا من إعادة بناء الكنيسة حتى أعلنت لتيؤكتستوس عن رغبتي في الذهـاب لأثينا، حيث سألتقي بأسقفها وأهديه نسخة من كتابي "المبادئ" و"هكسابلا"، كان المبادئ بالنسبة لي هو الأهم، وكنت أود له الانتشار في تلـك البلدان والأسقفيات البعيدة، ففيـه لم أكتفِ بالرد على المهرطقين من الغنوصيين وغيرهم، لكنني حددت طريق الإيمان بوضوح، فلم يعد يكفي القـول بأن الدين القويم ليس كذا ولا كذا، فقد بات من الضرورة أن نقدم للمؤمـن تعريفًا وطريقة إيمانية واضحة، وهو ما أخذت على عاتقي عمله في الأجـزاء الأربعة لهذا الكتاب، فخصصت الجـزء الأول للحديث عن الوحدانية وروحانية اللـه، موضحًا خطأ مرقيون وغيره من الغنوصيين في تمييزهم بين إله العهد القديم وإله العهد الجديد، كما تحدثت عن الثالوث المقدس وعلاقتهـم بالخليقة، أما الجـزء الثاني فقد تحدثت فيـه عن العالم المادي وخلقـة الإنسان كنتيجة لسقوط الملائكة، وذهبـت إلى أن الإنسان هـو روح ساقطة وليس جسدًا ماديًّا، وفي الجزء الثالث تحدثت عن اتحاد الجسد بالنفس، وأن ذلك يعطي فرصة للجهـاد والنصرة، وأن الملائكة تساند الإنسـان في هذا الجهاد، بينما الشياطين تقاومه، مما يشعر الإنسان بالحيرة، ولا يحسـم الأمر بين الملائكة والشياطين سـوى إرادة الإنسان واختيـاره، وهو ما ينفـي فكر الغنوصيين عن عدم حريـة الاختيار، أما الجزء الرابع فقد خصصته للتعاليـم الأساسية للمسيحية، وفيه تحدثت عن الكتاب المقدس بوصفه مصـدر الإيمان، وعن الوحي وتفسيراته الحرفية والأخلاقية والروحية.

كنـت أريد لهذا الكتاب أن يأخذ صـداه، لأنه يخاطب العقل، ويشرح المبـادئ الأساسية للإيمان باللـه، ويعطي الإنسان القـدرة على الاختيار وحريـة الإرادة، ولا يجعله مجرد عبد تابع بـلا قوة ولا منطق، فالله لم يخلـق البشر كي يكونـوا عبيدًا ولا أنعام سائمـة في الفراغ، ولكن منحهم

التكليف عبر العقل، وسيحاسبهم على اختيارهم وليس اختياره، وإلا فإنه يقدم على فعل ينافي المنطق ذاته، ويلغي قدرة الإنسان على الاختيار والعمل، وينفي دوره في مجاهدة الشرير والانتصار عليه. كنت متحمسًا لأن أجعل الإنسان مركز الفعل وليس رد الفعل أو تابع لإرادة ينسبها الغنوصيون للرب، لكن حماسي هذا لم يلق قبولاً كبيرًا لدى أساقفة اليونانيين، فقد بدا عليهم عدم القدرة على فهمه، وفي الوقت الذي تحمس له كثير من القساوسة فقد شعر كثيرون أيضًا أن فيه خروجات لم يألفوها.

كانت بثينية رقعة مقدسة بالنسبة للآباء الأوائل، لذا حرصت على زيارتها، والالتقاء بأساقفتها وقساوستها، هؤلاء الذين استقبلوني استقبالاً حافلاً، وأقاموا قداس شكر لوصولي بلادهم، وأصروا على أن ألقي عظة من على منبرهم، تركوني أعظ من الضحى حتى الظهيرة، والناس تطلب المزيد، حتى شعرت بالحرج أن أطيل أكثر من ذلك أمام الأساقفة، فصليت شكرًا لمجيئي إلى بلادهم، وفي الوقت الذي أهديتهم فيه كتابي "المبادئ" و"هكسابلا" أشرت لهم أن اضطهاد ماكسيميانوس أتى بالحريق على المكتبة التي وضعت فيها كل كتبي، فما كان منهم إلا أن جمعوا لي من كل كتاب لديهم نسخة، فتحصلت على مكتبة وضعتها في صناديق من الخشب على ظهر السفينة قبل أن أكمل مسيرتي إلى اليونان.

تركت بثينية ولديَّ مشاعر فرح وحبور، فقد تعامل الجميع معي بإجلال، وحين شرحت لهم ما أردت الوصول إليه في المبادئ تلقوه بمحبة واضحة، بعضهم قال إنني بذلك أقطع الطريق على المهرطقين وأوضح قواعد الإيمان القويم، لكن في أثينا تغير الموقف من الفرح بحضوري إلى بلادهم، والصلاة شكرًا لوجودي بينهم إلى حالة من القلق تجاه أفكاري، فاضطررت أن أجعل أيام بقائي بينهم معدودة، وعدت بما لدي من كتب إلى قيصرية موقنًا أنني في حاجة إلى رحلة جديدة لبلاد جديدة كي أشرح ما قدمته في المبادئ، وكانت بلاد العرب هي الفكرة التي طرحها تيؤكتستوس بدلاً من الذهاب إلى الشمال.

-١٣-

كان مـن المفاجئ لنا أن نجد دميانة واقفة أمـام الكنيسة الأم تبحث عن شـيء ما، كنا قد خرجنـا خلف الجنود الذين أخـذوا أنطونيوس محاولين إقناعهـم أنه بـريء، ولا شيء ضده، لكنهـم لم يلتفتوا إلينـا، في النهاية أخـرج أحمد كرنيه نقابة الصحفيين من حافظـة أوراقه وقدمها للضابط، فتوقف الأخير باهتمام واضح لسماع شكوانا، إلا أنه في النهاية أبلغنا أنه لا يستطيع أن يترك أنطونيوس إلا إذا أبلغه الضابط المسئول عن أمن الكنيسة بذلـك، فهم الذين اشتبهوا به وأبلغونـا بالتحفظ عليه، حينها قررنا العودة لمكتب الأمن في الكنيسة، كي نقنعهم ببراءة أنطونيوس، لكن المفاجأة التي ألجمت لساني أنني وجدت دميانة أمامي، كانت عيناها زائغتين كما لو أنها تبحـث عن شيء ضائع، حين رأيتها لم أصـدق أن الدنيا صغيرة إلى هذا الحـد، فقد رأيتها من قبل في دير الزاوية، فما الـذي أتى بها إلى هنا وفي هذا الوقت؟ لم أعرف ما الذي يمكنني أن أتحدث به، فأخذت أشير لأحمد ونائل بأنها هي، لكنهما لم يفهما ما أريد قوله، وأنا لم يسعفني لساني بنطق أكثر من كلمة هي، وفي النهاية ذهبت لأنظر في وجهها عن قرب كي أتأكد أنني لا أحلم ولا أهذي، وجدتها تنظر لي قائلة:

- ملاك!

هنالـك اتسعت الابتسامة المندهشة علـى وجهي، وشعرت أنني سأطير من الفرح، وكأنني أتأكد لأول مرة أنها حية، وأن كل ما قيل عنها محض هلاوسـ نثرتها الشياطين في رأسـي، أجبتها بأنني ملاك بشحمه ولحمه، وأن الواقفين بجانبي هما صديقان لي ولأنطونيوس، فوجدتها تتجاهل كل ذلك سائلة عن الأخير، بلعت غصة مرت في حلقي وأجبتها بأنه هنا، لكن

الأمن يشتبه به، وعلينا الذهاب لملاقاة الضابط كي يأمر بالإفراج عنه.

توجهنـا إلى مكتب الأمـن سائلين عن الضابط المسئـول، كان شابًّا في الأربعـين من عمره، تركنـا وأخذ ينظـر إلى دميانة، سألهـا عن اسمها فترددت قبل أن تقول "أنجيل"، استند بظهره إلى الكرسي وأغمض عينيه كما لو أنه يبحث عن اسمها وصورتها في ذاكرته، في النهاية فتح عينيه:

– هل التقينا من قبل؟

أجابته بالنفي، وقبل أن يحول اللقاء إلى تحقيق معها تدخل نائل وسأله عـن سبب احتجازهم أنطونيوس، فقال لأننـا نشتبه فيه، وهو لا يحمل ما يثبت هويته، وعلينا إذا كنا مهتمين بأمره أن نسرع بإحضار أوراقه، قبل أن تأمر النيابة بسجنه.

تركناه وخرجنا موقنـين أن أنطونيوس وقع في بئر عميقة، وعلينا أن نـترك المكان قبل أن يتهمونا بأننـا خلية إرهابية، فلا أنـا ولا دميانة لدينا أوراق تثبت هويتنا. فوقفت أنا وهي بعيدًا عن عربة الترحيلات، وأخذنا ننظـر إلى أحمد ونائل وهما يحاولان محادثة الضابـط بها، لكن السيارة الكبيرة أغلقت بابها وأخذت في مغادرة المكان.

بكت دميانة وهي تعرف ما جـرى لأنطونيوس بعد اختفائها، وأصبنا بالوجوم ونحن نسمع منها ما جرى لها، وكيف فرت من يؤانس ورجاله حتـى أتت لتجدهم هنـا، ظللنا ننصـت بدهشة وهي تبكي تـارة وتضحك أخـرى، حدثتهـا عـن رؤيتي لهـا في دير النسـاخ، لقائي مـع يؤانس، شهادتـي على أنطونيوس بأنه المرشـح الأول لقتلها، كنا نحكي كما لو أننا نعيـد ترتيـب الأوراق التي اختلطت علينا، وكان نائـل وأحمد متحمسين لكتابـة ما نقول، لكن دميانة رفضـت أن ينشر أي منهما شيئًا عما جرى، قائلة إن هذا الأمر مسألة قبطية، شعرت أن وجوههم تغيرت، وأنهما على وشـك الانسحاب، لكنني أصررت على بقائهما، موضحًا أننا لا حماية لنا سواهما، فنحن بلا أوراق ولا طعام ولا مال، فضحكا ونسيا ما قالت.

كنــا قد اتخذنا تاكســي واتجهنا من فورنا إلى مبنــى قسم الشرطة الذي ستصل إليه سيارة الترحيلات، لكننا وصلنا أسرع منها، فبحثنا عن مقهى نجلســ فيه، وبحث نائل عن مطعم اشترى منه عدة سندوتشات، وما بين الطعــام والحكي وصليل الملاعــق في أكواب الشاي جلسنــا ننتظر مجيء أنطونيوســ، وما إن ظهرت السيارة الكبيرة حتــى تركنا نائل وأحمد في المقهــى وذهبا ليسألا عــن أنطونيوس، إلا أن نائل عاد بعــد قليل طالبًا منا أن نعــود إلى البيت، فقد هرب أنطونيوس وهم يبحثون عنه الآن بوصفه إرهابيًّا، أسقط في أيدينا، ولم نملك سوى أن نترك المكان.

كان مــن المفترضــ أننا سننزل في محطــة سانت تريــزا، لكن دميانة أخبرتنــي بأنها لم تــزر والدتها إلى الآن، فاضطررنــا لتغيير وجهتنا إلى معهد ناصر، حيث صعدنا لغرفة العناية المحتجزة بها تريزا، لكنهم أبلغونا أنها خرجت منها في الصباح، ويمكننا رؤيتها في الغرفة.

مــا إن دخلت دميانة الغرفة حتــى ألقت نفسها في حضــن أمها وجلستا تبكيان، بدا لي أنهما في حاجة إلى هذا البكاء، فتركتهما تنزفان ما بداخلهما مــن ألم، ورحت أمشِّي قدمي في الردهة المرصعــة بالرخام، شعرت في تلــك اللحظــة أنني أضعــف شخص في العــالم، فلا أهــل لي ولا بيت ولا أوراق هوية، شعرت أنني مجرد شبح، وإذا اختفيت فلن يسأل أحد عني، لأننــي كما قال يوساب ذات يوم، غير مثبت في أي ورق لدى الحكومة، تمنيت لو أن أحمد ونائل موجودان لأسألهما عن كيفية استخراج مثل هذه الأوراق لرجــل لا أوراق لــه، وتوصلت مع نفســي إلى أنني يمكنني أن أقتــل أي شخص وأسرق أوراقه، لكــن دميانة وأمها ضحكتا على الفكرة كمــا لو أنهمــا لم تضحكا من قبل، ودعت عليَّ تريــزا لأنني سأوقف قلبها مــن الضحك، شكرتهمــا وطلبت ألا يشغلا نفسهمــا بمشكلتي، لكن دميانة فاجأتنــي بتعاطفها معي، قائلة إنني يمكننــي أن أستخرج أوارق هوية من نوع جديد، كانت لهفتي على معرفة كيفية ذلك كبيرة، فسألتها عن ذلك، غير أنها ضحكت قائلة:

– تنشر كتابًا وتضع عليه اسمك وصورتك.

حينها شعرت أنها تسخر مني، وقلت لها إنها لا يشغلها سوى مشكلة أنطونيوس وحده، فوجدت وجهها قد أظلم، وساد الصمت بيننا، ولم أعرف كيف يمكنني أن أعالج الأمر، فخرجت للوقوف أمام الباب، وتكفلت أمها بالحديث معها، بعد قليل جاءتني قائلة أنها حين تنهي مشكلة أنطونيوس سوف تستخرج لي شهادة ميلاد ورقم قومي، لكن الأهم من ذلك هو المسألة القبطية، فكل ما جرى يجب تدوينه، كل ما حدث في دير الملاح منذ نشأته حتى وقتنا الراهن يجب إثباته في كتاب يحمل اسمك وصورتك، فهذا الكتاب هو الهوية التي يجب أن يراك عليها الجميع.

-١٤-

كانت الرسائل بينـــي وأثناسيوس لا تنقطع، يسألني عما يجري خارج المغارة التي لجأ لها، وأنا أسأله عما يقصده في بعض ما يمليه على النساخ، فقد تحول دير الملاح إلى مكان مزدحم بالمريدين، ونشأ درب في الصحراء الشرقيــة يربط ما بين الجبل الغربـــي في ليكوبوليس وجبال القلزم، حيث نشطــت الخطى ما بين الديرين، فلا وقت لدى أثناسيوس ليعظ المريدين، ولا يأمــن على نفسه حـــال جلوسه للغرباء المتوافديــن، ولولا معجزة من المسيــح حدثت له لكان قد تنيَّح منذ شهوره الأولى في المكان، فقد فرح أحد المؤمنــين بمعرفة مكانه، وأخـــبر الناس عنه فتوافدوا عليـــه، فما كان من أحدهــم إلا أن أبلغ حامية الإمبراطور في ليكوبوليس، فجاء قائدها للقبض عليــه، لكنه دعا الـــرب أن يحميه وأهل دينه، فنـــزل الغمام على الجبل، وجـــاء الجنـــود فلم يجدوا شيئًا، حتـــى أن قائدهم اغتاظ مـــن الرجل الذي أبلغه الخبر، فأمر بصلبه وقتله، كان من الممكن لولا مشيئة الرب أن يقتل أثناسيوســـس في هذه الواقعة، أو يعذب عذابًـــا لا قبل له به، لكن الله القدير حماه بمعجزة تخصه.

ولأن الدير لا يتسع للأعداد التي أخذت تتوافد عليه، فقد تركت شجرة ديمتريوســـس على الهضبـــة ونزلت بجـــوار أشجار الزيتـــون التي غرسها أبانوب أسفل الهضبة، وشرعت في شرح الكتاب المقدس على النحو الذي قدمـــه أوريجانوس في كتبه وتأملاتـــه، لم يكن يؤمن بفهم الناس على نحو مـــا هو موجود في الكتاب، كان يقول إنه لا بد من إعمال العقل والمنطق، فاللـــه لا يقول كلامـــه مباشرة في كل الأمور والأحـــوال، لكنه تارة يشير وتـــارة يومئ، وعلى القارئ أن يكون واعيًـــا بالحالات التي تجيء عليها

الآيات، اللــه لا يريد من شراح كتبه أن يكونوا ببغاوات تردد ولا تفهم، لكنه يريد عقولاً تستوعب قبل أن تتحدث.

كان الناس ينجذبـون لهذه الطريقـة في الشرح، ويؤمنـون بأن الله كلفهـم بالعقل، ومن ثـم تقع عليهـم مسئوليات الفعل، ولـو كانوا مجرد ناقلـين دون إعمال للوعـي لأصبحوا حيوانات لا تجـوز عليها المساءلة، ومـا كان اللـه بحاجـة إلى تخليصهـا مما هـي فيه. لاحظـت أن شرحي يجـذب من كانوا علـى طريق أريوس، مثلما يجـذب من هم على طريق أثناسيوس، فتجنبت إعلان الخلاف مع الأريوسيـين، وقلت لنفسي إأن أوريجانوس رفض عذاب المخالفين والمرتديـن والوثنيين، فكيف لي أن أركـز على حرمانهم، وهل جاء اللـه ليخلص البشرية ويدخلها ملكوته أم يتفـنن في حرمانها وتعذيبها، فنشطت في قبول كل من يرغب في الجلوس إلى مجلسـي، وتحاورت مع كل من أراد السـؤال عن شيء في الدين أو الفلسفـة، ولم أفصل بينهما، قلت إن العقل هو ميزان التكليف، فإن تنافى الدين مع العقل فسد من تلقاء نفسه.

كان أبانوب قد جهز رجالاً من قبله ليكونوا في الإسكندرية، فيطلعونه على كل جديـد هناك، أما تلميذي جورجيوس فقد آثر أن يبقى في الكنيسة الكبـيرة كي يكـون على اطلاع بكل مـا يجري من البابـا الجديد جورج الكابادوكـي، ويراسلنا بكل جديد هناك، فهـو أسقف أريوسي عنيد، أخذ علـى عاتقه تغيير ديانة المصريين بالقوة، ومـا كان المصريون ليستسلموا ولا أن يقبلـوا دينًا غير دين آبائهم، فتحملوا أذاه وسجنه وتعذيبه وأساقفته وقسوسـه، لكنهـم لم يخضعوا له، وهاجمـوه في كنيسته وبـين رجاله، وفشـل الجنـود في حمايته أكثر من مـرة، حتى أنه اضطـر للهروب من الإسكندرية، تاركًا البلاد بلا بطريرك سوى أثناسيوس المختفي في أديرة الصحراء.

كنـا نرسل لأثناسيوس بـكل جديد حيثما كان، فقـد كان يتنقل من دير لآخر ومن مغارة لأخرى، لا يصحبه سوى رهبان أبانوب ومن في مثل أمانتهم عليه، ورسائله تذهب إلى كل الأساقفة والكنائس والرؤساء، فكتب

مقالاته ضد الأريوسيين، ورسائله لسيرابيون أسقف تمى، وخطاباته عن الروح القدس، وكتابه المجامع، وعبر البحر من جهة الغرب إلى سردينيا في الشمال، رغم أن الإمبراطور قنسطانطيوس كان جادًّا في طلبه.

ظـل أثناسيوس مختفيًـا حتى مـات قنسطانطيوس، وتـولى من بعده يوليانوس إمبراطورًا في روما، فأمر بعودة المنفيين لبلادهم، هنالك أظهر أثناسيوس نفســه، وعاد إلى كرسيه من جديـد، وبصحبته لوسيفر أسقف كلاديوس، وأوسابيوس أسقف فرشيلي، اللذين كانا منفيين بالصعيد، ثم عقــد في العام التالي مجمع القديسين والمعترفـين، فكل من حضروه كانوا في المنفــى والسجون، وتصور الجميع أن الإسكندرية فرضت كلمتها على الكل، وشعــر يوليانوس بخطورة ذلك، فأرسل لنائبــه على الإسكندرية موضحًــا أنه أمر بعودة المنفيــين إلى بلادهم فقط، وليســ إلى كراسيهم، فثارت ثــورة الشعب، ورفضوا إبعاد أثناسيوســ عن كرسيه، لكن ذلك لم يضعــف يوليانوســ، ولم يجعله يتراجع، بل أرسل قــرارًا جديدًا بنفي أثناسيوســ إلى خارج بلاده، فاعتبر الشعــب الدفاع عن بطريركه قضية حيــاة أو موت، ورفض أن يصل الجنــود إلى أثناسيوس، واختبأ الأخير في مقــبرة أبيه ستة أشهر، حتى تمكن من الفرار إلى الجنوب، ومن هناك عبر طريق الرهبان إلى هضبة الملاح، حيث أقام معنا نحو عام لا يعرف عنه أحد شيئًا.

كان قد أرسل لى في دير الملاح بأنه لا يعرف أين يمكنه أن يذهب، فقد ضيق الرومان عليه الداخل والخارج، ولم يعد يأمن على نفسه، فالعيون قــد كثرت من حوله، وجدت أبانوب يتســاءل عن السبب الذي يمنعه من المجــيء إلى دير المــلاح، فهو آخــر الأماكن التي يتوقــع الرومان مجيئه إليهــا، قلت إن الديــر صغير، ويمكن تفتيشه في دقائــق، وليس له امتداد في الصحراء كي يتمكن من الهروب فيه، فكيف يمكننا أن نخفيه عن الجنود إذا حضــروا! قال إنه بالفعل كذلك، لكــن لا يمكن اقتحامه، فليس له سوى مدخل واحد عبر مخر السيل، وإذا صعد الجنود إلى الهضبة، وقلبوها رأسًا على عقب، فلن يجدوا غير الذي نريدهم أن يجدوه، فللملاح معجزاته.

حين تساءلت مندهشًا عما يعنيه، أخذ بيدي ودخل إلى الكنيسة التي أقيمت على مغارة الملاح، حيث دفن فيها رفاته ورفات اللبؤة وأشبالها، دخلنا إلى المذبح ثم عبرنا الباب الفاصل بينه والمقبرة، كان المكان مظلمًا، وبالكاد يظهر القبو الذي فيه جسد الملاح وبجواره القبو الذي وضع فيه رفاة اللبؤة وأشبالها، كانت رائحة الرطوبة والظلام يكادان أن يصيبا صدري بالاختناق، لكن أبانوب أحضر شعلة أضاءت المكان:

– ما رأيك؟

عدت بنظري إلى المغارة وقد امتلأ جوفها بقطع من الأحجار والصخور، فأبديت امتعاضي من أن نستضيف بطريرك الإسكندرية في مقبرة، وإن كانت الظروف قد أجبرته على اللجوء لمقبرة أبيه، فإنه لا ينبغي لنا أن نفعل ذلك، ترك أبانوب الشعلة في يدي ودخل في عمق الكهف، والكهف يضيق وينحني أمامه حتى جلس على قدميه، ثم نبش بعضًا من الرمل والحصى الموضوع في نهايته، فظهر ممر أشبه بسرداب في باطن الجبل، نام على بطنه وزحف بخلفيته كقط يتراجع إلى الوراء، حتى أنه اختفى عن عيني، فتقدمت بالشعلة حتى رأيته في نهاية السرداب يرفس بقدمه حجرًا، حين سقط الحجر من مكانه تهادى إليَّ نور ونسيم ووشيش بحر، بينما اختفى أبانوب من أمامي ولم أعد أراه، غير أنني سمعت صوته يناديني أن أترك الشعلة، فأسندتها على قبر الملاح وزحفت في السرداب حتى وصلت مغارة أكبر وأوسع من جهة البحر.

– كيف توصلت إلى هذه؟

هكذا سألت أبانوب، فأجابني:

– في إحدى المرات التي غاب فيها ديمتريوس بخلوته أعلى الجبل، تصورنا أنه تنيح دون أن نعرف بأمره، فأخذت بعضًا من الحبال والرهبان وتسلقنا الجبل، لكننا ضللنا المكان الذي اعتاد ديمتريوس الاعتزال فيه، وظللنا نفتش عنه حتى وصلنا إلى قمة الجبل، فأخذنا نشاهد البحر العظيم وهو يتدفق من أسفل القلزم الشامخ، ذاهلين عما يجري

حولنـا، حتى أن قدم أحد الرهبان زلت عن الصخر، وبدلاً من أن يسقط من فـوق الجبل إلى المـاء في الأسفل تعلق جسده بنتـوء في الجبل، وكان علينا أن ننزل لننقذه، فتعلقنا في الحبال التي معنا ونزلنا حتى وصلنا إليه، وبينمـا نربطه في الحبال كي يجره الرهبان إلى أعلى، إذا بأعيننا تقع على تلـك المغارة، فنزلنا إليها مرات ومرات، وفكرنا في موقعها والمسافة التي تبعدهـا عن مغارة الملاح، وفي نهاية الأمـر فكرنا في حفر سرداب يربط بـين المغارتين، ورحنا نجرب إمكانية الحفـر في الصخر، حين اتضح لنا أن الأمـر ممكن فعدنا إلى قبر الملاح، وذهبنـا إلى عمق مغارته، وأخذنا في الطرق على الصخر وتفتيته، حتى استطعنا أن ننقب سردابًا يربط بين المغارتين.

جلسـت وأثناسيوس في المغارة التي على البحر أكثر من عشرة أشهر، أكمـل خلالهـا كتابه عن القديسـ أنطونيوسـ الذي تنيَّح بعـد شهور من زيارتنـا له، وأكلمت قراءتي لرسائل أوريجانوس التي كان يرسلها للبابا ديونسيوسـ، لكن الحظ لم يسعف الأخـير في قراءتها حال وصولها، فقد كانت تصـل إلى دانيال شقيق أوريجانوس، هذا الذي لم يستطع أن يصل إلى ديونسيوسـ في منفاه، فما كان منـه إلا أن أخذ يحتفظ بها حتى كونت لديه ما يشبه الكتاب، فسلمها لناسخ وأخذ منه مقابلها مبلغًا من المال، فمان كان مـن الناسـخ إلا أن عمل عليها ليل نهار، حتـى أن نسخها وأصبحت منتشـرة أكثر من الكتاب المقدس ذاته، فوصلت إحداها إلى ديونسيوس في منفـاه، فلمـا قرأها بكى، وحين فكر في أن يرسـل في دعوة أوريجانوس للعـودة إلى الإسكندرية، كان المرض قد اشتد به، وانتقل من قيصرية إلى صـور، وهناك انتقلـت روحه إلى الأمجاد السماويـة، فبكي ديونسيوس وبكت الإسكندرية وربما العالم المسيحي ككل.

لم نكـد نصدق مـا أرسلـه لي تلميـذي جورجيوس، فقد كتـب قائلاً: مات الإمبراطـور يوليانوس وتولى الإمبراطـور جوفنيان، وورد من الأخـير خطاب لنائبه في الإسكندرية يطلـب منه الاعتذار رسميًّا إلى البابا أثناسيوس، ويعيـده إلى كرسيه البابوي، ومن ثم فالإسكندرية كلها الآن

تبحث عن البابــا أثناسيوس ولا تعرف طريقه. حين قرأ أبانوب الخطاب علينا كدنا أن نطير من الفرح، وودت لو أخبرِ جورجيوس أن أثناسيوس لدينا في دير الملاح، لكن أثناسيوس رفض قائلاً إنه لا ينبغي أن يعرف أحد بهــذا المكان، فلا أحد يعرف تقلبات الزمــن. أمَّنا على كلامه، مستسلمين لرغبته في أن يعود ســرًّا إلى الإسكندرية مثلما خرج منها، وهناك يحتفل به الشعب كما يريد.

كان جوفنيــان يعرف قدر أثناسيوســ، وكان أميل إلى قانون الإيمان النيقاوي، فأرسل لنائبه مؤكدًا عــودة المنفيين جميعًا ليس إلى بلادهم فقط ولكن إلى كراسيهم أيضًا، فشعرت الإسكندرية أن عصرها الذهبي قادم، وأخــذ الناس يحتفلون بعودة أبيهم إليهــم، وزاد في الفرح وصول دعوة جوفنيــان إلى أثناسيوس لزيارته في روما، فأسرع أثناسيوس بعقد مجمع مقدســ أعاد فيه التأكيد على قانون نيقية الأول، وأرسل خطابات لمختلف الكنائســ والأديرة بلائحة الإيمان القويم، وأن من يخرج عنها فقد خرج عن صحيح الدين.

ركــب أثناسيوســ البحر واتجــه إلى رومــا حيــث كان الإمبراطور جوفنيان في انتظاره، فاستقبله في احتفال مهيب كواحد من أعظم باباوات الإسكندريــة والعالم، وطلب منــه أن يقود القداســ الإلهي الذي حضره الإمبراطــور ووجوه دولته ورجاله، ثم عــاد إلى الإسكندرية على ظهر سفينــة محملة بالهدايا لشعب الإسكندريــة، لكن لم تمض أسابيع قليلة حتى مات جوفنيان، وتولى من بعده الإمبراطور فالنتينيان، وسرعان ما ولى الأخير أخاه فالينس على القسم الشرقي من الإمبراطورية، وكان فالينس أريوسيًّــا متعصبًا، فأرسل منشوراته لمختلــف أنحاء الإمبراطورية بعودة جميع الأساقفــة الذين نفاهم يوليانوس إلى أماكــن نفيهم من جديد، فحمل أثناسيوســ رحله ونزل إلى أعماق الدلتا ليقيم بين الفلاحين في بيت ريفي صغير.

كان أثناسيوس في هذه المرة منكسرًا ومستسلمًا إلى أبعد الحدود، فلم يشأ أن يقاوم أو يخالف الأمر، لم يكن راغبًا في مزيد من التصعيد، ربما لأنه

اقـترب من السبعـين، وربما لأنه روحيًّا كان قد ضعـف، ولم يعد قادرًا على ركوب الأمواج العصية، لكن شعب الإسكندرية كان على النقيض، فقد رفض أن يكون مجرد تابع لهوى الأباطرة الذين يتعاقبون على روما والقسطنطينيـة، رفض أن تحدد له دينه أهـواء الجبابرة الذين لم ينظروا يومًا في وجه فلاح بسيط، فخرج المصريون رافضين القبول بأي بطرك تسوقـه الإمبراطوريـة، وحين أمـر فالينس بعودة جـورج الكابادوكي إلى كرسـي الإسكندريـة لم يمكنه أحد من دخولهـا، وظلوا يطاردونه في الشـوارع حتى عاد برجاله مـن حيث أتى، وفي الطريـق قتله الوثنيون الذيـن طالهم ظلمـه، وظلت الثورة مستمرة في الشـوارع أشهر طويلة، فشلـت خلالها قوات الرومان في قمـع المتظاهرين، حتى أن الإمبراطور فالنتينيان أرسل إلى أخيه في القسطنطينية آمرًا بعودة أثناسيوس لكرسيه، فعاد ليتوج ثورة شعبه بالفرح، فعقد مجمعًا مقدسًا ضم تسعين أسقفًا، أعلن فيه تجديد إيمان الجميع وفقًا لقانون الإيمان النيقاوي.

-١٥-

كان لقــاء دميانة مــع الأسقف الكبير أشبه بنقطــة الانطلاق نحو الأفق الأعلــى، فقد شعرت أنها ليســت الوحيدة التي تعــاني، وأن معاناتها من الممكــن أن تكون تجربة كبــيرة أرادها لها القدير، كــي تصنع من خلالها رسالتها في هذا الحياة، آمنت دميانة أن ما تعيشه من آلام يعني أنها جاءت لتصنع شيئًا، فأخــذت تتعافى سريعًا من غضبها، وأخذ ذهنها يحسب لكل خطــوة حساباتها العديــدة، وشعرت أن الخير يحتــاج إلى بعض الأظافر كــي يظل خيرًا، فالنقاء ليس موجــودًا في طبيعة البشر، والخير والشر لا يشبهان سوى فعل الولادة، حيث الألم والفرح لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.

جلســت دميانة في غرفة والدتهــا تتأمل ما جرى لها، لأول مرة تشعر أن عليها أن تأتي بفعل كبير، لكنها لا تعرف ما هذا الفعل، هي الآن موقنة أن يؤانســ ورجاله وراء كل ما يجــري لها، لكنها لا تدري إن كان ذلك محضــ صدفة أم عن قصــد، لا تعرف أين كان من الممكــن أن تصل بها رحلتهــا مع يؤانس لــو لم تقدها خطاها إلى الهرب مــن رجاله، وأين من الممكــن أن يكون أنطونيوس الآن، وهل أخذتــه الشرطة بالفعل أم أن ما جرى كان مجرد حيلة لتسليمه ليوساب؟

كان ذهنها في حالة عصــف لا تهدأ، حتى أنها كانت تخشى على نفسها من الجنون، وتردد في سرها أنها ما زالت عاقلة، وأنه لم يؤثر فيها أي من كل ذلــك، فهي التي ادعت الجنون كمهرب، وهي التي تمسكت بالصمت كحائــط صد، وهي التي تعــرف أن القدير يرعاها، تسمــع أصوات كلبه وضربــات أقدامه، تعــرف الاتجاه الذي يريدهــا أن تمشي فيه، وتدرك بالحدســ أنها كانت على صواب، لكنهــا لا تعرف السبب، فقط تشعر أن عليها أن تسير حيث يرشدها قلبها، وقلبها يقول إن أنطونيوس يحلق الآن

بعيدًا، فهل تحرر من جسده أم أن الكلب السماوي يطارده ليذهب إلى مكان أبعد مما تتوقع.

كانت تريزا قد استندت في جلستها على سريرها وهي تنصت إلى ما حكته دميانة عما جرى لها، ولم تفعل سوى التنهد والصلاة، وفي النهاية احتنضتها باكية ومقبلة رأسها، وكأنها تعتذر عما فعلته شرور العالم بها، لكن دميانة التي بكت، كما لو أن بكاءها كان مؤجلاً إلى أن تلتقي بأمها، جففت دموعها ونظرت في عين تريزا سائلة:

– ما رأيك في أنطونيوس؟

لم تستطع تريزا أن تمنع نفسها عن الابتسام، فابنتها تفكر كغيرها من البنات، لكنها عادت وتنهدت ثم صمتت، وحين أعادت دميانة سؤالها أجابتها:

– راهب!

استوعبت دميانة الرسالة، وفهمت أن البحث في قلبها عن رجل نذر نفسه لملكوت الرب أمر قاس وفاسد، وأنها لا ينبغي لها أن تقع في هذا الأمر، لا ينبغي لها أن تفكّر في منافسة الرب على قلب شخص ما، فاضطجعت على الكنبة المواجهة لسرير تريزا وأغمضت عينيها بحثًا عن النوم.

تأملت تريزا نوم ابنتها على كنبة صغيرة بجوار النافذة، وتذكرت وجه يؤانس حين جاء ليقنعها بإجراء الفحوصات الطبية، كانت يومها مخطوبة لصلاح متري، وكان يؤانس رافضًا لهذه الخطوبة، كان يخشى أن تتكرر مشكلته مع زوجته، تلك التي اضطرت لتغيير ملتها كي تحصل على الطلاق من الكنيسة، لم يكن حديثه مقنعًا، لكن تجربته كانت حزينة، وصلاح كان متأثرًا به، وللحظة شعرت أنها قد تفقد خطيبها، فهزت رأسها وأومأت أنها ستفعل ما يريده، وفي الصباح ذهبت مع صلاح إلى المستشفى، وأجريا التحليلات التي ظهرت نتيجتها بعد عدة أيام، كان خوفها خلال هذه الأيام واضحًا، لكنها تماسكت وصلَّت للقدير ألا يكسر قلبها، ذهبت إلى الكنيسة وأشعلت الشموع للرب وللأم العذراء، ولم تتمالك نفسها حين علمت أن النتيجة جيدة، فرقصت وغنت بصوت

واضح أمام أهلها الذين لم يعرفوا بما حدث، لكنهم سعدوا لسعادتها، بينما اعتذر لها صلاح مرات ومـرات، وشعرت أنها ترغب في رؤية يؤانس كي تخبره أنه ليس أكثر من شيطان يزرع الشك في القلوب.

ورغم أنها حين رأته فيما بعد أخبرته بأنه حموها الفعلي إلا أنها لم تكن تحبـه، ظلت طوال ما بقي من عمـر صلاح تحترم ذكره أمامها، وتخفي وساوسهـا تجاهـه، فقـد كانت تحب صـلاح بجنون، وتقدسـ شخصيته الوديعـة، موقنـة أنـه المسيح الجديد الـذي يهدر حياته مـن أجل خلاص الآخريـن، ولم تسعها الدنيا من الفرح حين علمت أن زوجها أصبح على خـلاف مع يؤانس وجماعتـه، فأخذت تخفف عنه وتوضـح له الفوارق بينهمـا، قالـت إنه يهرع لنجـدة النـاسـ في أي وقت وأي مـكان، يرفع القضايـا ويسهر على كتابة المذكـرات ويضيع وقتـه في الجري بردهات المحاكـم للدفاع عن أناس لا يعرفهم دون أجر، أمـا يؤانس فإنه لا يؤمن بغير القوة والقتل والتفريق بين الناس بتشدده، كانت الحياة في بيت تريزا تـدور بالكاد، لكنها كانت مليئة بالحـب، وكانت دميانة التي تأخر مجيئها كثيرًا هي خلاصة المحبة التي جمعتها بصلاح مترى.

تأخرت دميانة في مجيئها، وكأنها كانت تريد أن تقول لأبيها إن الحذر لا يمنع قدرًا، وإن الله محبة وليس طبًّا وفحوصات، وكأنها أيضًا لم تكن راضيـة عن يؤانس وشروطه، وكانت تريـزا كلما مرت السنوات دون أن تنجب لا تذكر زوجها بما حدث، ولا تخبره أن الله لا يقبل أن يُشترط عليـه، هو أيضًا لم يكن يسألها عن السبب، ولم يفكر للحظة أن يطلب منها الذهاب لطبيب، قال إنه راض بمشيئة القدير، وليس هناك شرط على الله.

حين تـوفي صلاح ظهـر يؤانس، قـال إن صلاح كان ابنـه الذي لم ينجبـه، وإن له في عنقه الكثير، ولابنته حقـوق والدها عليه، لكن تريزا التي أمنت على كلامه لم تفكر للحظة أن تلجأ إليه، كانت توقن طيلة الوقت أنه ليس أهلاً للخير، وأن قلبه مات من القسوة بين ضلوعه.

حين حكت لها دميانة عن يؤانس الذي قال إنه صديق والدها وأستاذه، شعـرت تريزا أن قلبها الضعيف غير قادر على احتمال مزيد من الأسى، كانت دميانة تحكي وتريزا تصلي للمسيح أن ينقذ قلبها من الخوف والألم،

ومــا إن انتهت من الحكي حتــى احتضنتها وبكيتا معًا، ظلتــا تبكيان حتى جفــت من عيونهما الدموع، وفجأة وجــدت تريززا ابنتها الوحيدة تسألها عــن أنطونيوس. من كل قلبها كانت تود أن تنهض من سريرها وترقص فرحًا، فقد طال انتظارها لهــذه اللحظة، وكل أمنياتها أن ترى دميانة في ثوب الزفاف، ترى البنات يرقصن حولها والقس يعقد إكليل زفافها، لكن عقلها تذكر أنهــا تحدثها عن راهب، كيف يمكن لها أن تتزوج برجل نذر نفسه للحياة البتولية، كيف يمكنها أن تجرؤ على ذلك؟

عادت تريزا بنظرها نحو ابنتها النائمة على الكنبة المخصصة للمرافقين وتمنت أن يرزقها الله بأفضل الرجال، ثم أغمضت عينيها لتسرح بخيالها في زوجهــا الراحــل منذ سنوات، زوجهــا الذي طالما حدثهــا عن العمال والثــورة ثم مــات قبل أن يشهد أيًّــا من أحلامه تتحقق، كانــت تتمنى أن يكــون معها الآن، يمسح على رأسها ويقبل جبينها قائلاً إن أحدًا لا يجرب القدير، فأين هو الآن ليأخذ ابنته في جولة عبر النيل ويحكي لها المزيد من قصص القديسين والشهداء، أين هو ليحميها من يؤانس ورجاله؟!

في الصباح نهضــت دميانة منشرحة الصدر، ممتلئة بالتفاؤل، لم تكن تعــرف سببًا لدبيب الأمل في روحها من جديد، لكن والدتها رأت ذلك في عينيها ووجهها، شعرت بإقبالها على الحياة، ورغبتها في تجاوز ما جرى لهــا، احتضنتها بــود وأخذت تصلــي للمسيح والعــذراء، وعلى الفطور أخــذت تذكرها بالصلاة التي كان والدهــا يقولها على الطعام كل صباح، بالــكاد تذكــرت دميانة بعض الكلمــات منها، لكن تريــزا كانت ما زالت تذكر كل حرف فيها (ربنا أعطنا خبزنا كفافنا، وبارك لنا في أرواحنا من اليأس والهم والعطب، وأعطنا قلوبًــا منفتحة على العالم، وعقولاً قادرة علــى الاتساع لمعاني كلماتك ومعرفة وجوهك، ربنــا إنا أخطأنا واعترفنا بخطئنــا، فاقبلنا في ملكوتك مع الطيبين، وباعــد بيننا وبين الشرير، باعد بيننا وبين الخطيئــة والزلل، واحفظ أجسادنا وألسنتنــا من أفعال الشرير وأتباعه، ربنا آمين آمين آمين).

كانـت تريزا تتلـو الصلاة التي تعلمتهـا من صلاح مـتري، قائلة إنه وجدهـا ذات يوم في كتاب عن العلامة الكبير أوريجانوس، حينها دهشت دميانة وسألتهـا عما تعرفه عن أوريجانوس. أوضحت تريزا أنها لم تكن تعـرف شيئًا عنه حتى تزوجـت صلاح، بعدهـا رأت اهتمامه بكل شيء عنه، وجدت كتبًا له في مكتبته، وأوراقًا عليها اسمه وصوره، حين سألته عنه قال إنه علامة كبير، لكن حظه كان سيئًا، فقد لعن وحرم وطرد من مدينتـه، لأن ديمتريوس الكرَّام غار منه، لكـن حضوره كان قد تخطى حـدود المدينة، وأصبح معروفًا في العالم المسيحي كله، كانت تريزا تحكي بأسى وكأنها تتذكر زوجها وحياتـه وفكره، لكنها في الحقيقة كانت تشعر من داخلها أن خطيئة ما أصابت زوجها بسبب حبه لرجل حرمته الكنيسة، حاولت طوال السنوات التي عاشتها معه أن تتغاضى عن هذا الأمر، لكنها في قـرارة نفسها كانت تشعر بخطيئة ما، كانت تصلي للمسيح كي يتجاوز عن ذلك، ويقبله في ملكوته، ولا يجعله مع المحرومين.

كان عليهـا أن تجـري اتصـالاً مـن موبايـل تريزا بنائل كـي تطمئن علـيَّ، وحينها فكـرت في أن تشـتري موبايل لها وآخـر لي، وتمنت لو كان لأنطونيوس موبايل كي تتمكن من الاتصال به، كان عليها أن تفكر في كيفية دفـع حسابات المستشفى، فجميع أوراقهـا فُقدت في الليلة التي تم ترحيلها فيها مـن الدير، لا تذكر كيف فقدت لكنها وجدت نفسها بلا وثيقة واحـدة توضح هويتها، وهو ما جعل رضا وزوجته يمنحانها اسم أنجيل، لا تعرف لمَ اختـارا هذا الاسم، لكنها انصاعت للتعامل به خلال وجودها معهما، وحتى بعد أن ذهبت إلى دير النساخ، لم تتخلص منه إلا بعد لقائها بيؤانس.

مـا إن ظهرت صـورة يؤانس في مخيلتها حتى تذكـرت تعامله الرقيق معهـا، وكيف أصبحت تتمتع بمكانـة في الدير بسببه، وكيف كان الرهبان طـوال القامـة يحرسونها طيلة الوقـت، تذكرت أنهـم لم يوقفوها في جبل الطـير، ولم يسعوا لملاحقتها حين ألقت بنفسها هرولة نحو النيل، ولا حتى ملاحقة السفينة التي أقلتها مع ركابها إلى القاهرة، فهل كان كل ذلك صدفة؟

فجـأة ظهر هذا السؤال في مخيلتها وهي تعيـد ترتيب الأحداث، كانت تريد أن تعـرف إن كان يؤانس معها أم ضدها، فحسم ذلك الأمر سيحدد الخطوات التي عليها أن تتخذها الآن، في هذه اللحظة اتصل بها نائل ليخبرها أنه وأحمد وملاك على باب المستشفى، فدعتهم لرؤية والدتها التي تنام في حجـرة خاصة، ولم تمض دقائق حتـى كانت الغرفة تمتلئ بمشاعر المحبة والخجل والدعاء والشكر، بعدها نزلنـا للجلوس على كافيتريا المستشفى، قال نائل وأحمد أنه لا بد من إبلاغ الشرطة عن أن أنطونيوس تم اختطافه مـن قبل رجال يوساب ويؤانس، لكن دميانة قالت إنه هرب من الشرطة نفسهـا، وفي حـال غيابه العـادي فإننا لا نملك الإبلاغ عـن غيابه إلا بعد مـرور ثمانية وأربعين ساعة، ثم أوضحت أن الحل يكمن في نقل المعركة إلى بيتهم، أي أن تقوم هي باتهام يوساب والمنحني بمحاولة قتلها.

كنـت أنظـر إليهـم وهـم يتبادلون الخطـط والأفـكار وكأننـي لست موجـودًا، فقط أتأمـل حماسهم ورغبتهم في سد الثغـرات، ولم يفكر أي منهم أن يسألني عن رأيي، حتى أنني اضررت في النهاية لأن أرفع يدي في وجوههم طالبًا الكلام، حينها انتبهوا لي:

– صحيح.. ما رأيك يا ملاك؟

سألتنـي دميانة بحماس واضح، فرسمـت ابتسامة ساخرة على وجهي وأنا أقول:

– نتهمهم بقتل باخوميوس، ونشر أعمال منافية لتعاليم الكنيسة؟

بدا على وجوههم أنهم لم يستوعبوا، وأخذوا يسألونني عن أدلة ذلك، فرحـت أحكي عن شنق باخوميوس، وعـن القصاصات التي قرأتها حين نزلـت للمهندسـ عماد في المطبعـة، ما إن سمعـوا ما أقولـه حتى تلونت وجوههم وزاغـت عيونهم، وبدا كما لو أنهم مقبلـون على حالة حرب. تحـدث أحمد عن أهمية أن يعرف الرأي العام مـا توصلنا إليه، لأن ذلك يفسـد عليهم ما يخططون له، لكن نائل هذه المـرة هو الذي قال إن كل ما

يجــري في دير أو غيره مسألة قبطية، ولا ينبغــي للمسلمين التدخل فيها، فأكــدت دميانة أن الشرطــة هي الحل، لكن تشريح جثــة باخوميوس يعد إهانــةً لمكانته، وفي حال ثبوت أن الدير تجري بــه أعمال مخالفة للكنيسة فإنه سيغلق.

بدا الأمــر كما لو أننا أمام معضلة لا حلول لهــا، فوضع الجميع رأسه بين يديه وجلسوا كما لو أنهم في حالة حداد على عزيز لديهم، مرت دقائق علــى هذا الحال قبل أن يفتح نائل موبايلــه مستطلعًا آخر الأخبار، وكانت المفاجــأة التي ألقــى بها علينا، أن يوساب أصبــح رئيسًا لدير الملاح، بينما المنحني أصبح أسقفًا لأبرشية أسيوط.

-١٦-

رسائل أوريجانوس (١٧)

عزيـزي ديونسيوس، أعرف أن رسائلـي قد كثرت، وأن الأصدقاء الذين يتكفلـون بحملها إليك قد تضرروا من كثرتها، أعرف أنهم يرونني الآن عجوزًا مصابًا بالجنون، ويتمنون إبلاغي أن أحدًا لا ينتظر رسائلي، لكننـي كما أخبرتك، أشعر أنني أريد الاعتراف على يديك، وليس أمامي سـوى هـذه الرسائل لأقـول كلماتي الأخـيرة، كنت أتمنى لـو كتبت لي الشهادة ككثير ممن عرفت في حياتي، توقعت أن ذلك سيحدث في ظلمات السجـن، توقعته وأنا أئن أسفل الطـوق الحديدي الملتف على عنقي، بينما قدماي مثبتتان بشـكل زاوية منفرجة على لوح خشبي بالأرض، في هذه اللحظات كنت أشعر بما شعر به المسيح منذ أمد، كنت أدرك آلامه ووهنه، وأرى رسـل السماء تلوح براياتها البيضاء علـى الجدران المظلمة، بينما ترتيلها لنشيد الأنشاد يتهادى إلى أذني:

في الليل على فراشي طلبتْ من تحبه نفسي، طلبته فما وجدته

إني أقوم وأطوف في المدينة في الأسواق وفي الشوارع أطلب من تحبه نفسي، طلبته فما وجدته

وجدني الحرس الطائف في المدينة فقلت أرأيتم من تحبه نفسي

فما جاوزتهم إلا قليلاً حتى وجدت من تحبه نفسي فأمسكته ولم أرخه، حتى أدخلته بيت أمي، وحجرة من حبلت بي

أحلفكـن يا بنـات أورشليم بالظباء وبأيائل الحقـل ألا تيقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء.

كنــت أغني مع الرسل على أنغام لا أعرفهــا، وأتوقع أنني عما قريب سأصعــد، لأنهم واقفون في انتظــاري، كنت كلما اشتــد الوهن أشعر أن لحظــة الشهادة قد اقتربت مني، تلك التي نالها أناســ أقل محبة لها، نالها عبيد وإمــاء وعاملات في الحقول، نالها رجــال أمضوا حياتهم في عبادة الأوثــان وتقديم الأضاحي، حتــى الجنود الحمقى الذيــن عذبوا الأرض ومــن فيها نالها بعضهم، هؤلاء لم يروني أهلاً للشهادة، فما كانوا يصبون الزيــت المغلــي على رأسي، واكتفــوا فقط بجلدي وكــي أضلعي برءوس قضبــان متلألئة في النار، كانوا يطفئــون ضوأها في جلود المصلوبين على عرائســ خشبية كما كان المسيح في يــوم عرسه، كنا ننزف ونشتم حرائق أجسادنــا ونضحك، نغنــي مع الرســل المتمايلين على الجــدران السوداء المظلمة ونضحك، نمسح جلودنا المحترقة في الجدران المطلية بالقار الأسود ونضحك، نمســح أرواحنا المتساقطة ونغني ثم نضحك، منتظرين اللحظة التي سيرفع الرسل فيها راياتهم، ويحملون أرواحنا عنا، لكنهم لم يفعلوا، الجنود الذين كانوا يبكون لأجلنا لم يفعلوا، الجنود الذين كانوا يزغردون كلمــا مات واحــد منا لم يصبــوا الزيت على الرءوســ، ولم يمنحونا حق الموت المكلل بالشوك على أيديهم.

كنــت قــد اتفقت مــع أمبروسيوس علــى أن نذهب إلى بــلاد العرب، فخرجنــا متجهين نحو الجابية، تلك التي التقيــت فيها منذ سنوات بصديقي الملــك جفنة بن عمرو، حــين نزلنا بمدينته لا نعــرف كيف وصله الخبر، فوجدنــا عربة بجوادين ناصعي البياض تقف بمحاذاتنا في أحد شوارعها، نزل منها رجل يشبه جفنة لكنه ليس هو، كان ابنه عمرو بن جفنة، قال إن والده أرسله لاستقبالنا، حينها رأيت آثار الفرح على وجه أمبروسيوس، شكرتــه على جميل صنعه، وذهبنا برفقتــه إلى القصر، كان جفنة ما زال قويًّــا يخيف مــن لا يعرفه، لكنه كــريم، طيب القلب، وفي لمــن يثق به، أبــدى ترحابه الشديــد بنا، وكان صادقًا في فرحه، فمــا زال يتذكر لقاءنا القــديم، يتذكر ما سمعــه من عظات، حتــى أنه كان يعيد علــى مسامعي بعضــ مقاطعها، لا أعرف كيف لرجل حــربٍ مثله أن تحتفظ رأسه بكل

هـذه الكلمات، ضحكت وأنا أنصـت إلى طريقته مقلدًا حديثي، أمضينا في ضيافته عدة أيام، حضرنا فيها قداس الأحد بكنيسة الجابية، ووعظت فيها مرتـين أو ثلاث، ثم تركـت له نسخة من كتابي هكسابـلا، واستأذنته في الذهـاب لمملكة تدمر المجاورة، لمحاورة المهرطقين بها، وعظة الناس من السمـاع لهم، فزودنا بجوادين، وأرسل معنا واحدًا من قادة جنده، حتى جاوزنا حدود بلاده، فتوقف قائلاً:

– أذينة ملك كريم، لكن مزاجه غادر، فتوخيا الحذر.

شكرنـاه على نصحه وكرمه وتركنا بـلاده المنحوتة في الجبال مكملين طريقنـا نحـو الشرق، حيـث تدمر الجميلـة وملكها العربـي، فرحب بنا في كنيستهـا أسقفهـا مارجيلوس، وسمح لنا أن نعـظ في وجوده مرتين، واصطحبنـا لنلتقي ببعض المقيمين خارج المدينـة، وكان بعض الكهان قد سمـع بوجودي في بلادهم فأتى يسألني عن أمـور تختلط عليه، فلما تعدد مجيئهم للسؤال عن طبيعة الرب، وإن كان أقنومًا واحدًا أم ثلاثة، سألت أسقف المدينة عن سبب تكرار هذا السؤال، فقال إن أسقفًا يدعي كريسبوس جاء من أنطاكيا وأقام في بعض القرى البعيدة في الجبال، فأخذ يعلم الناس أن الـرب أقنوم واحد وليس أقانيم ثلاث، وتمثل بالزهد والورع في كل شيء، حتى أن الناس كانوا يتركونني ويذهبون إلى الجبال ليسمعوا منه، فطلبت من مارجيلوس أن يعقد مجمعًا كنسيًّا لأساقفة بلاده وكهانها، ومن بينهم كريسبوس، كي نتحاور فيما يقوله وما نؤمن به.

كانـت أفـكار الهراطقة منتشـرة في كل مـكان، وكان علينـا أن نعيد الأذهان إلى مواضعها في الرءوس، فتركنا مارجيلوس يعد لمجمعه المقدس وأخذنا ندور على القرى نسمع من الناس ونعظ من نجده في طريقنا، بعد نحـو أسبوعين كان قد اجتمع نحو ثلاثـة أساقفة واثنا عشر كاهنًا في كنيسة تدمر، ووقف مرجيليوس أمام الهيكل معلنًا للجميع فرحه بوجودي بينهم كعلامـة تدور الاجتماعـات في مختلف الكنائس لمناقشـة آرائه وتفسيراته للكتاب المقدس، وأنهى حديثه بأنه في الآونة الأخـيرة سمعنا من قال إن الـرب أقنوم واحد وليس ثلاثة أقانيم، هنالك وقـف الأسقف كريسبوس

مشيحًـا بيده في وجه مرجيليوس، معلنًا أنه رجل دين وليس مهرجًا، ولا يحـق لأي من كان أن يطلب منه عرض أفكاره على رجل لم يرسم حتى كاهنًـا، بل إن أستاذه ديمتريوس حرمه وقام بطرده من كنيسته، وأرسل لجميع الكنائس مطالبًا بحرمانه.

بدا علـى وجه مارجليوس الغضب، وشعرت أنـه يتمنى لو ينزل من مكانه فيصفـع كريسبوس على وجهـه، لكنني وقفت في مـكاني مبتسمًا، وأخذت أنظـر في وجوه الحضور الذين تعالـت أصواتهم غضبًا في وجه كريسبوس، ظللـت أبتسم مطالبًا إياهم بالهدوء، وحين شعرت أن صحن الكنيسة أصبح صامتًا في انتظار ما سأقوله، عاودت الابتسام من جديد قائلاً إن الأب كريسبوس على حق، وإنني ما جئت إلى هنا لأعظ الأساقفة، فلا يجـوز لعلماني أن يعـظ رجل دين من الإكليروسـ، وأظن الأب المبجل أساء فهم كلمات الأب مارجليوس، وحدث بهذا السبب لغط يحتاج منا أن نتوقـف اليوم للصلاة من أجله، ونبـدأ اجتماعنا غدًا، فما جئت إلا لأسمع وأتعلم وأقول، إن فتح الرب عليَّ بشيء من نور معرفته، بدا أن الجميع فوجئ بكلماتـي، فلم أقف لأعظ أو أرد ما قالـه كريسبوس، فقط طالبت بتأجيل الاجتماع إلى الغد، ثم أومأت مبتسمًا لمارجليوس، فطلب منهم أن يوافقوا على طلبي فوافقوا.

كان أمبروسيوسـ يود لو يصل إلى عنـق كريسبوس ليمزقها، لكنني أمسكـت بيده قبل أن أنهضـ طالبًا الحديث، وزاد غضـب أمبروسيوس حـين وجدني أبتسـم مؤكدًا صـدق حديـث كريسبوس، لكنـه كتم غيظه والتزم الصمت حتى يرى خطتي، ولم يكن لدي أكثر من أنني شعرت بما شعر بـه كريسبوس، فالنصيحة على الملأ تعني إدانة للأبد، وكان الأخير يخشى أن يقر أمـام الجميع بأنه كان على خطأ، أو أن يصر على عناده، فيتخـذ المجمع قرارًا بحرمانه، لذا فضلـت أن أبقيه منتصرًا وأحفظ له ماء وجهه، وجلست في البيت الذي أعده مارجليوس لضيافتنا، أؤكد أن سوء الفهم هو الـذي أحدث هذا الخطأ، وأن الرجل لم يفتئت عليَّ، فما قاله هو مـا حدث بالضبط، وإن كنت أرى أن ذلك محنة واختبارًا لي من الرب، فإن الرجل لم يحكم إلا بما علم.

بعد الظهيرة سألت عنه فقيل إنه ترك المجمع وعاد إلى قريته، فقلت لهم دلوني على مكان إقامته، فقالـوا إنه في الجبال، ويصعب الوصول إليه، قلـت إنني لن أنام في مكان قبـل أن أذهب وأتناقش معـه، فأحضروا لي ولأمبرسيوس بغلين وخرجنـا نتبع خطى أحد الشمامسة، حتى وصلنا في الظـلام إلى بيت كريسبوس بعد سفر مجهـد وطويل، كان الليل قد أوشك على الانتصاف ونحن نقرع الباب، ولم تصدق امرأته أننا قطعنا كل هذه المسافة لنتناقشـ في شئون الدين، وأنه لا طعام ولا شراب قبل أن يقنعني أو أقنعه بحجته أو حجتي.

في البدء قلت له إنني سأقبل اعتذاره عما قاله لي أمام الأساقفة والكهان هـذا الصباح، وسأعتذر له لو أقنعني بحجتـه، وسأمشي في ركابه حاملاً حـذاءه في يـدي عشرة أيام كاملـة، حتى يعلم جميع الناسـ أنه على حق وأننـي على خطأ، أما إن اتضح لـه خطأ قوله وتعاليمه فعليه أن يعتذر لي أمام الناس غدًا، ثم طالبته بالحديث أمام زوجته وأمبروسيوس والشماس الـذي اصطحبنا، كي يكونوا جميعًا شهودًا علينـا، أخذنا ننصت إليه وهو يتحـدث عـن الآب بوصفه مصدر الحياة، وأنه أعطـى الابن قدرته على الخلـق حين خلقـه، وأن الروح القدس لم يكن لـه دور في عملية الخلق. حين انتهى مـن حججه من الكتاب والمنطق والاستـدلال بالعقل، صفقت لـه، وقلت أتعني أن هناك مسافة في الزمن بين وجود الله ووجود الابن؟ فقـال نعم، فعدت أسأله أو تعني أيضًـا أن الابن مخلوق خلقه الرب؟ قال نعـم، وأنه لا وجود للـروح القدس إلا كرسول بـين الآب والابن؟ قال نعم، قلـت وأن الآب أنزل ابنه كي يفتدي بـه الخليقة؟ فأجاب نعم، قلت فكيف يغفر الابن الخطايا، وكيف تعبد مخلوقًا وتترك الخالق، وأين كان العـالم قبل أن يخلق الرب الابن؟! وأخـذت أحاصره بأسئلتي عن العلاقة بين الأقانيم الثلاث ووحدتها، حتى شعر أن ما يطرحه من تعاليم لا يمكنها أن تسـد الثغرات التي تفتحها، وضحكت زوجته وأمبروسيوس، واحمر وجه الشماس وظهرت عليه علامات عدم الفهم، فأخذت أرتب له أفكاره من جديـد، وأوضح لـه أن الآب والابن والروح القدسـ أقنوم واحد،

لا يمكــن الفصل بــين أي منهم، جميعهم من أصــل واحد، وقوة واحدة، وطبيعة واحدة، جميعهم الله، وليس أي منهم يمكنه وحده أن يكون الله، لأن الله ليس وجهًا واحدًا للحياة.

ظللــت أشرح وأعظ، وهــو يسأل عما خفي عنه حتــى ارتفعت شمس اليوم التالي عــن الأرض، وشعر بضحالة علمــه، وعدم معرفته، فأخذ يعتذر عما بدر منه في اجتماع الأمس، وبينما أحضرت زوجته طعامًا لنا أخذ يتجهــز هو كي يعود معنا إلى المدينة، فيعلن اعتذاره لي أمام الجميع، لكنني رفضت، قلت إنني لا أحتاج منه سوى أن يراجع نفسه في تعاليمه، فإن أدرك أنــه على خطأ فعليه أن يكفر عن خطئه بتصحيحه لدى تلاميذه ومــن أخذوا عنه، أما الاعتذار لي فسوف أبلغ مارجليوس وبقية الأساقفة والكهان أنــك متوعك، وهذا سبب انسحابك دون رغبة في إقلاق أعضاء المجمع.

وقــف كريسبوس وزوجته في وداعنا فرحــيْن شاكرين، بينما أقسمت أمامــه علــى أمبروسيوس والشماســ المرافق ألا يتفوهــا بكلمة عما حدث أمامهمــا، وأن يذيعــا أمام الجميع أنــه مريض ويبلغهم تحياتــه، وما إن وصلنــا في المساء حتــى شاع خبر مرضه، فتصور الــكل أن غضبي عليه كان سببًــا في ذلك، بينمــا لم يتطرق أحد إلى أفــكاره ولا تعاليمه، ونسيه الجميــع خلال اليومين اللذين انعقد فيهما المجمع، وكان دوري أن جلست أرد على أنواع البدع التي علموا بها أو لم يعلموا، مؤكدًا أن الكتاب المقدس لا يفســَّر بطريقة تفسير كلام البشر، ولا يتعرضــ له إلا رجل يتدبره في عقله ليل نهار، أما هؤلاء الذين يأخذون بعضه ويتركون بعضه، فهؤلاء يضلــون أنفسهم قبل أن يضلوا غيرهم، ولا يزيــدون الناس إلا فتنة على فتنهم.

-١٧-

كان علـى أنطونيوس في سيارة الترحيلات التي تم الـزج به فيها أن يفكـر في المصير الذي ينتظـره والماضي الذي هرَّبه منـه أستاذه إيمانويل الطيـب، فتذكر كونه قاطع طريق يجلس على صخرة في الصحراء على هوامش القرى، مثلما تذكر نشاطه في الجامعة، تذكر كيف انضم إلى فرقة الكشافة القبطية حين التقى به اثنان من زملائه مادحين جسده الفارع وسلوكه القويم، قالوا إنهما يمكنهما أن يدرباه ليصبح رياضيًّا مهمًّا، فلديه الإمكانيات لكنه يحتاج إلى عناية أكبر.

لم يكـن أنطونيوس مهتمًّا في يوم أن يكون لاعبًا رياضيًّا، لكنه أمام الكلمـات والاهتمـام المبالغ فيـه شعر بنوع مـن الزهـو، وكان عليه أن يستجيـب لصحبـة زميليه كي لا يفقـد ما يراه في عيونهمـا من حفاوة، لم يمض أسبوع حتى وجد نفسه في أوتوبيس يقطع الطريق إلى بني سويف، حيـث التقى هناك بعدد أكبر من الشباب طـوال القامة الذين توافدوا على الديـر، أمضى أسبوعًا كامـلاً هناك. كان الأمر في بدئـه أشبه بنوع من تأديـة الخدمة العامة، وسرعان ما تحـول إلى نوع من الجندية والالتزام الواضح بالتدريبات القاسية، كانت رغبة أنطونيوس واضحة في التفوق، حتـى أنه حقق أرقامًا قياسية في السرعـة والقوة ودقة الملاحظة، في نهاية الأسبـوع سمـع أن الأب يؤانـس سوف يجـيء لزيارتهـم، لكن هذا لم يحدث، فقد اعتذر لانشغاله بالسفر.

علـم أنطونيوس أن هـذا المعسكر بمثابـة اجتماع يعقـد كل شهرين، فيجيء الأعضـاء لتمضية وقت معًا، وسماع عدد من العظات المهمة التي تحضهم على الدفاع عن دينهم القويم، وأن من يرغب في إكمال تدريباته

الرياضيــة فإن قائد الكشافة يتكفَّل بذلــك، شريطة أن يكون التدريب على لعبة يحتاجها الفريق، دهش أنطونيوس أنه أيضًا سيحصل على مقابل عن كل يوم أمضاه في المعسكر.

كان حماســ أنطونيوســ كبــيرًا للانضمام إلى الجماعــة، حدث ذلك في العــام الثاني من الجامعــة، واستمر مدة عامــين يواظب على حضور تدريبات المعسكر التي تعلم فيها حمل السلاح، كانت المرة الأولى في حياته التــي حمل فيها سلاحًــا، ووقف في العام الجامعي الثالــث خدمة لحراسة الدير، أما حمل العصا فقد تكفلت به تدريباته على الكونغفو في الساحة التي اشترك بها، وبقدر ما سمع عن الأب يؤانس إلا أنه لم يلتق به، وبقدر ما بذل من جهد في التدريب بقدر ما جاءته رسائل برضا الأب يؤانس عنه، وفي نهايــة العام الثالــث أصبح قائدًا لمجموعة، وعاد مــن معسكره سعيدًا بمــا معه من ترقية ومــال، لكنه فوجئ بأهله يندبــون حظهم، إذ ظهرت جماعــة سلفيــة في القرية وراحــت تطالبهم بالجزية، كان مــن الممكن أن يدفــع أنطونيوس ما معه ويفتدي نفسه وأهلــه، لكنه كقائد وطالب جامعي مــا كان له أن يخضع لمنطق الإذلال، فقــرر أن يلجأ إلى الشرطة لحمايته وأهلــه، فمــا كان من الضابــط إلا أن طمأنه، موكــدًا أن عمله هو تحقيق دولة القانون، في ذلك اليوم خســر أنطونيوس كرامته وسمعته وحياته، فقد تحول من طالب جامعي إلى قاتل وقاطع طريق.

هــز أنطونيوســ رأسه مؤكــدًا لنفســه أن منطق البلطجة هــو القانون الحاكــم، وتذكر الكارثة التــي يعيشها، وما ينتظره مــن اتهامات، شعر برائحــة كلب السماء وهي تتصاعد مــن أحد أركان العربة الضخمة، كان صندوقهــا الكبير أشبه بزنزانة متنقلــة، نظر في وجوه الذين معه فوجدهم مــن المتسولين وأطفــال الشوارع، وضع يده في فمــه وأخذ يحرك لسان اللهــاة لديه حتى تقلصت أمعاؤه وأفرغت ما بها، وراح يطرق على باب السيــارة مؤكدًا أنه يموت، ومع قليل من التشنج تأكد الحارس الجالس في الخــارج أن ثمة مصيبة نزلت على رأسه، فمــا كان منه إلا أن فتح الباب ودخــل ينظر ما يجري، لكن الــذي كان يموت جذبه من سترته وضرب

رأسه في الأرض، ثم قبض على مسدسه وطلب منه أن يفك قيده، وما إن حدث ذلك حتى قفز من السيارة، وانحرف بسيره في الشوارع الجانبية.

كان أنطونيوس يدرك أنهم لا يعرفون اسمه ولا شيئًا عنه، ومن ثم فمجرد هروبه من بين أيديهم سيجعل الأمر كما لو أنهم لم يروه من قبل، وكان عليه أن يغوص قدر ما يستطيع بين الناس، فقفز في أوتوبيس لا يعرف وجهته، وتكفل أحد الركاب بدفع تذكرته، وما إن سمع المحصل يعلن عن محطة رمسيس حتى وجد نفسه يتحرك مع النازلين، ليتوه في الميدان الكبير، ويقف لا يعرف أين يمكنه الذهاب، ولا يعرف لم لاحت في ذهنه صورة أستاذه باخوميوس، وشعر أنه موزع بين الهروب من الشرطة والعودة إلى بيت تريزا لارتداء جلبابه وحمل صليب باخوميوس.

شعر بالعجز حين بحث عن مال معه فلم يجد، وللحظة رأى الدنيا مظلمة من حوله، فلا مال ولا أوراق ولا قدرة على اختيار المصير، جلس بجانب جدار المحطة يتذكر ما يواجهه من صعاب، صعبت عليه نفسه وما آل إليه كمشرَّد في طرق لا يعرفها، فأخذ يبكي، لكن رائحة كلب السماء لاحت من جديد، كانت زمجرته ضعيفة وناعمة كما لو أنه أيضًا يبكي لأجله، شعر أنطونيوس هذه المرة أنه ليس مطلوبًا منه أن يجري، فأغمض عينيه واستسلم للخدر الذي بدأ يسري في جسده.

شرد بذهنه في دميانة، وكيف هي الآن، كان آخر خبر سمعه عنها أنها في دير الراهبات بالجبل الغربي في أسيوط، هل يمكن أن تقرر البقاء في الدير، هل يمكن لفتاة مثلها أن تقتل جسدها على نحو ما فعل أوريجانوس؟ تصور أنه يرى أوريجانوس العظيم ومن حوله المشاعل المضيئة، من حوله جماعات تتوافد بأضوائها المشتعلة، كانت عينه تبحث عن دميانة بينهم، لكنها لم ترها، تقدم بخطوات بطيئة ليسأل العلامة الكبير عنها، لكن الأخير هز رأسه بالنفي، وأشار نحو الأفق، حيث السحب التي تمر من فوق الجبال، وحيث السهول الفسيحة، كان أنطونيوس يهرول كما لو أنه يريد أن يلحق بدميانة قبل أن تسقط السماء في بيتها الليلي، كان يجري كما لو أن كاميرا سينمائية تجري به، حين وصل إلى المغارة التي

في باطـن الجبل وجد دميانــة تسجل بقلم كبير في دفتر عظيـم، سألها عما تفعل وأجابت بأنها تكتــب حكاية رجل وفتاة أحبا بعضهما دون كلمة حب واحدة، وكلما تفرقا عن بعضهما تعمقت المحبة في قلبيهما، ردد الجملة في فمه كما لو أنه يتذوق ثمرة تين.

استفاق على أنه نائم على الأرض، وأن بين يديه أموال لا يعرف من أين أتته، دهش من وجود هذا الكم من الجنيهات، فأخذ في عده وترتيبه، زاد المبلــغ عن مائة جنيه، وضعه في جيبه وشعر أنه في حاجة إلى طعام، نهضــ من مكانه بحثًا عــن شيء يساعده على التماســك والتفكير بهدوء، أخذ يتناول سندوتشات الكبدة بلذة لم يشعر بها من قبل، وذهب إلى المقهى الــذي جلس فيه مع أحمد طالبًا شايًــا، تطلع إلى كل الوجوه آملاً أن يكون من بينها صديقاه أحمد ونائل، لكن ذلك كان من الخيال.

جلســ يرتــب أوارقه من جديد، كان عليه أن يبدأ مــن لقائه بإيمانويل الطيــب، حين فوجئ بــه في المغارة التي تحصن بهــا أربع سنوات، دون أن يتمكــن أحد من دخولها، فكيف صعد إليها؟ هــذا السؤال الذي لم يجبه إيمانويــل، وترك كلــب السماء يطارده في كل مكان حتــى أدخله الدير، جلســ عامين قبــل أن يصبح شماسًــا، كان الجميع يتصــور أنه لن يطيق الحياة في الدير، لكنه استطاع أن ينتصر على نفسه، وأن يروضها لتعيش في حــدود عالمها الجديد، بعدها حدثه إيمانويــل عن أوريجانوس، وكيف جاهــد ضد الصعاب التي واجهته حتى أصبح علامة كبيرًا، لكنه لم يستطع أن يمحو لعنة الحرمان، كان إيمانويل يتحدث بفتنة عن ذلك الرجل الذي لم يستطع أن يكون راهبًا ولا رجل دين ولا حتى علمانيًّا عابرًا في سبيله، ورغم ذلــك وضع الأسس التــي عمل عليها الجميع، حتــى أن الهراطقة خرجوا مــن عباءته، والقديسون أيضًا خرجوا من عباءته، يومًا بعد يوم تسرب إلى أنطونيوس الاهتمام بــه، وشعر أنه يمكنه أن يبدأ دراساته في اللاهــوت من خلالــه، ولنحو سبع سنــوات كاملــة كان أنطونيوس عبدًا في معبــد أوريجانوس، ولم يسمع في يوم بكتاب لــه أو عنه إلا وأحضره لــه إيمانويــل، كان ذلك سرًّا بينهمــا، لكن باخوميوســ كان دائمًا يخبره

أنهــا أعمال محرمة، ولا ينبغـــي التعرض لها بالتقديســ ولا المدح، وفي الضرورة يمكن ذكرها بحياد تام.

كان أنطونيوس يمارس حياته كشماس بسيط، لكنه في الواقع كان الابن المقرب لإيمانويل وباخوميوس، كما لو أن سرًّا ما يجمعهم معًا، يتناقشون في أوريجانوســ كما لو أنهم يتحدثون عن رئيس الدير، يحللون كل كلمة قالهــا علــى وجوهها العديــدة، واضعينها في سياقها وزمنهــا ومشكلاته، متلمســين أثرها فيما أتي من صراعات على الكنيسة، كانت مهمة إيمانويل أن يشــير وأنطونيوس يبحث، وباخوميوس يتابع، مع الوقت اكتشف أنه ليســ الوحيد الذي يبحث في كتب المهرطقين، فثمــة آخرون بنفس الدأب والسرية يعملــون، وإيمانويل مشغول برعايتهــم أيضًا، وكان يذهب في جــولات طويلة مــن أجلهم، كان يزورهم في كنائســ وأديرة بعيدة، فقد اتسعــت سلطاته بعدمــا رفضت الكنيســة الاعتراف بقداستــه، كما لو أن السلطة جاءت بديلاً عن القداسة.

حين أنهى أنطونيوس دراسته في كلية اللاهوت تم ترسيمه قسًّا، يومها فــرح باخوميوســ كما لو أن شيئًا كبــيرًا رُفع عن عنقــه ليوضع في عنق شخص آخر، وأخذ ينسحب يومًا بعد يوم ليعيش حياة العزلة، بينما خطى أنطونيوســ تتقدم حتى أصبح مسئولاً عــن أخطر ما في الدير، حيث نشر الكتب التــي تعضِّد إيمان الشعب، لكن في الوقت الذي كان إيمانويل يدفع به للأمام، كان ثمة آخرون يدفعون بأنفسهم من طريق آخر.

لم يكن مفاجئًــا لأنطونيوس صعود يوســاب وتمركز كل السلطات في يده، لكــن المفاجأة كانــت في السرعة التي حدث بها ذلــك، كانت الثورة التــي ضربــت الشوارع قد خلطــت الأوراق كلها، ولم يكــن مطلوبًا من الكنيســة أن تبدي موقفًا واضحًا، شعــر أنطونيوس أن السياسة طالت كل البشــر، بمن فيهم آباء الكنيسة أنفسهم، وكان موقفه مختلفًا عن ذلك، كان يرغــب في أن يعلن موقفًا من النظام الذي أوصل الأقباط إلى هذه الحال، وأن الكنيســة يجب أن تكون حيث يكــون الشعب، فهي خلاصه ومرشده الروحــي، لكن إيمانويل كان يعرف أن مــن في الكنيسة الأم يعرفون في

شئون السياسة أكثر مــن الساسة أنفسهم، وأن الاتجاه الذي اختاروه قائم على توزان القوى، وليســ مستحبًّا أن تتم معاداته في ظل ما حصل عليه إيمانويل وتيــاره من مكاسب، يكفي أنهم يتحدثــون عن أوريجانوس في قاعــات الدرســ، وأجبروا البابــا على أن يعظ عنه أكــثر من مرة، لكنه رفضــ قبوله في كنيسة الــرب لأنه لا يستطيع أن يخالــف الآباء السابقين فيمــا ذهبــوا إليه، كانت جملته رغــم بساطتها إلا أنها محبطــة للتيار الذي قــاده رجل علمــاني بسيط، رجل وهب حياته للدفاع عــن حياة الأقباط، مطالبًــا بقانون أحوال شخصية لهم، مطالبًا بإعادة النظر في أوريجانوس وحرمانه، رجل مات قبل أن تتحقق أي من أحلام ثورته.

-١٨-

مــات أثناسيوســ . هكذا بلغني الخبر وأنا في مــكاني على هضبة الملاح أدرس مبادئ الدين، مات أثناسيوس وتركني وحيدًا لا أعرف ماذا أفعل مــن بعده فيما تبقى لي من عمر، مات ولم أره، فما إن استطعت التوصل إلى عربــة يجرها جواد كي أصــل إلى الإسكندرية حتى وجدت المدينة بلا موطئ قدم لزائر جديد، فما بين حراس وجنود ورهبان وقساوسة وأساقفة وشعب ينام في الشوارع وعلى الأرصفة وشواطئ البحر، جميعهم كانوا في انتظــار وداع رئيسهــم وأبيهــم، نزلت في صحبة أبانــوب الذي كان يغالب الحمى، لكنه أصر علــى أن يأتي لوداع أثناسيوس، كان الرهبان يحتلون كل مكان بزيهم الأسود، بينما الشعب يحمل السعف في يديه مرتلاً خلف القراء والمنشدين أجزاء من نشيد الأنشاد. تلقانا تلميذي جورجيوس بحزن واضح، ودخل بنــا إلى صحن الكنيسة لنلتقي بعشرات الوجوه من كبار الرهبــان والأساقفة في الشرق، بالكاد سمح لنا الآباء المسئولون عن تجهيــز أثناسيوس لرحلته الطويلة بالدخول لوداعه الأخير، فطفنا به وهو نائــم في صندوقــه الخشبي، قبلته علــى لحيته التي تفوح بمــاء الورد وأنا أبكــي، بينما أبانوب يغالــب مرضه ويمنعني من الانهيــار، حتى وجدته هو الذي ينهــار مني فجأة، فصرخت في الشمامسة الواقفين على الأبواب لحمله من بين يــدي، فأسرعوا وأخرجوه من بين الصفوف والزحام إلى خــارج الكنيسة، لم أعرف هــل أبقى مع صديقي الــذي فارقني أم ألحق بصديقي الموشك على فراقي، ولم يكــن أمامي سوى أن أترك أثناسيوس مسجــى في صندوقــه لألحــق بأبانوب بين أيــدي الرهبــان، حينها جاءنا جورجيوس وصديقان له، طلبت منه أن ينقله لمكان يرتاح فيه، أخذنا إلى دار كانت نزلاً لوالد أحد أصدقائــه، وضعناه على سريره وجلسنا بجانبه

إلى أن أتانا الطبيب، أعطاه شربة هدأت من تصاعد الحمى، وجعلته يستفيق من هذيانه وشروده عنا، وحين دقت أجراس الكنيسة معلنة بدء القداس الجنائزي توكأنا على عجزنا ونزلنا كي نلقي لصديقنا بتلويحة الوداع الأخير.

حين مات أثناسيوس تصور الأريوسيون أن حجر العثرة في طريقهم قد زال، فتجمعوا حول رجل يدعى لوسيوس، كان قد سيم أسقفًا خارج البلاد بطرق غير شرعية، فأحضروه لينصِّبوه بطريركًا للشعب، لكن الناس ما إن علموا بعودته حتى طاردوه إلى أن فر عائدًا للقسطنطينية، وأسرع الآباء والأساقفة باختيار بطرس الثاني، هذا الذي سيم على يد أثناسيوس، وكان أمينًا لأسرار الكنيسة في سنواته الأخيرة، وقيل إن أثناسيوس هو الذي أشار عليهم في مرضه الأخير باختياره من بعده، فالتف الأساقفة من حوله، ورسموه بطريركًا للإسكندرية وشعبها، قاطعين الطريق على لوسيوس الأريوسيين والذين معه.

شعر الإمبراطور فالينس أن اجتماع الأساقفة واختيارهم لبطرس الثاني تحديًا له، وما إن وصله الخبر حتى عين أوزوسيوس الأريوسي بطريركًا على الإسكندرية من قِبله، وأرسل معه كتيبة من الجند على رأسها أمين خزينته القائد ماجينوس، فهاجم الأخير الكنيسة للقبض على بطرس، لكن الشعب والرهبان الذين نزلوا من أديرتهم لوداع أثناسيوس لم يكونوا قد غادروا بعد، فحالوا دون وصول الجند لأبيهم، وبمحبة من الله ظهر المؤمنون على الأريوسيين، فتراجع ماجينوس بجنده للخلف، وطور المؤمنون موقفهم من الدفاع إلى الهجوم، حتى أن أوزوسيوس اضطر للهروب، فظن الجميع أن الأمر قد انتهى، لكن رد الإمبراطور كان قاسيًا، إذ أمر نائبه بتنصيب لوسيوس من جديد في كرسي الإسكندرية.

كانت حالة أبانوب قد تحسنت قليلاً، فرأيت أن نغادر الإسكندرية وهو متماسك، ذهبت لأستأذن البابا الجديد في العودة إلى هضبة الملاح، فهو صديق قديم، أعرفه منذ سامه أثناسيوس كاهنًا، لكن السفر والترحال لم يتركا لي فرصة لتوثيق العلاقة به، قلت فلأذهب لأستأذنه في العودة،

لكنــه رفض قائلاً إنه ينوي الذهــاب إلى روما ويريدني معه، نظرت إلى سنــه وهو في الأربعينيات من العمر، وسنــي وقد شارفت على السبعين، فعلمــت أن الشراكة التي كانت بينــي وبين أثناسيوســ لا يمكنها أن تنبت مــن جديد، فاعتذرت لســوء حالتي الصحية، وأكــدت أن ابني وتلميذي جورجيوســ أكثر فائدة مني في الحل والترحال، فإن أذن فله أن يقبله في وفده، ويعتمد عليه في حركته.

تركت معــه جورجيوس الذي سعــد بتقديمه ليكــون في صحبة البابا، وعــدت أنا وأبانوب عجوزين متهالكين علــى عربة تشبه السفن الكبيرة، لكنهــا تسير على دوائر خشبية، وتجرها خيول أوشكت على الموت، حتى أن عجلاتها كلما غاصت في الرمال كنا ننزل نجرها مع الخيل، هكذا ظللنا نعمل في خدمتها حتى أقسمنــا بالمسيح ما نعود من جديد لركوبها، فأعطينا صاحبها أجره وعدنا نبحث عمن يكرينا جوادين إلى دير الملاح.

رفعنــا الرهبــان ببكرة أبانــوب إلى الهضبــة النائمــة في حضن الجبل الشامــخ، التفتُّ لأبانوب كي أعرف كم هــو سعيد بمنجزه، لكنني وجدته شــارد الذهن، منهك الجسد، سألته عن سبب شروده فقال إن ديمتريوس والمــلاح توحشــاه، هدهدت على كتفــه وواريت دمعة فــرت من عيني، لم تكــن الحمى مــا هاجم أبانوب، لكنــه الاتصال بــأرواح السابقين، فقد كانت روحــه ترفرف على عتبات الملكوت السمــاوي، ولم يأتِ الصباح حتــى وجدناه فــارق الحياة، شعــرت بالهزيمة ومرارتهــا، فمنذ شهور أثناسيوس، والآن أبانوب.

أمــرت الإخوة في الديــر بإرسال الخــبر لرؤساء الأديــرة والعشائر والبطــون، وأرسلنا من يبلــغ أسقف ليكوبوليس برحيــل الأب أبانوب، وحددنــا موعدًا للدفــن في رسائلنا بعد ثلاثة أيام، وأمــرت الرهبان بدق الأجراســ وبدء التراتيل الجنائزية، ووقفنــا نستقبل المعزين، تركت أمر تجهيــز أبانــوب إلى الآباء العالمين بهــذا الأمر، وجلســت أتابع ما يجري بنفســ منكسرة، وعظام هدهــا الحزن، وفي النهاية حملنــاه ونزلنا أسفل الهضبة، حيث بنى الرهبان مقبرة له إلى جانب مقبرة ديمتريوس.

انتهـت المراسم وودعنـا الضيوف، جاءني ساويرسـ وشنودة اللذين رسمهما أثناسيوس شماسين لأبانوب، قالا إن الأخير أوصاهما بأن أكون رئيسًـا للدير من بعده، فنظرت إلى سنهما وعلمـت أن فارق الزمن بيننا يزيـد عن الضعف، ونظرت إلى نفسي فعلمـت أن السنين جرت عليَّ بما يكفـي، ولم تعد لدي طاقة لشيء، فقلت لهما أن ينتخبا من يرونه مناسبًا، فردًّا بأن هذه وصية أستاذهم، ولا يمكن مخالفتها.

لم تكن لدي طاقة على الفعل أو الكلام، فقررت أن أعتزل في قلايتي، وأن أهرِّب نفسي من الحزن بالكتابة، ولم يكن هناك أمر أفضل من كتابة ما جـرى من جبرائيل وديمتريوسـ وأبانوب في بناء هـذا الدير، فلبثت في عزلتـي شهورًا لا أخـرج من قلايتي، حين خفَّت وطـأة الحزن عني أدركـت أنني صرت مسئولاً عن الديـر، وأن ثمة أمورًا تنتظر كلمتي في الخارج، ففتحت بابي ونظرت للجبل الشامخ أمامي، حين رآني الرهبان بـدوا كما لو أنهم رأوا شبحًا، في البدء أخذوا مني، لكن الفرح ما لبث أن دب في أوصالهـم وهم يرونني أمشي بينهم، طالبًا منهم أن يطلعوني على شئونهم.

كان جورجيوسـ قـد انطلق في معية بطرس الثـاني إلى روما، حيث قوبـل بحفـاوة بالغة، كنت قد قلت لـه أن يطلعني عـبر الرسائل على كل مـا يجري، ورتبـت معه طريقة لوصولها إلى الديـر، على نحو ما رتب معـي ديمتريوس قديمًا، وبالفعـل جاءتني رسائله تشرح كيـف استقبلهم داماسوسـ أسقف رومـا بكل تبجيل، وعقـد مجمعًا مقدسًـا لأساقفته كي يطلعهم علـى ما جرى من الأريوسيين، فاتخذ المجلس قراره بحرمانهم، وأرسل قراره إلى مليتوس أسقـف أنطاكيا، فعقد بدوره مجمعًا أقروا فيه حرمان الأريوسيين.

استغل لوسيوس غياب بطرسـ في روما واقتحم الكنيسة بمعية الجند، وجلسـ في الكرسي البابوي بالقوة، وسرعان ما أمر بنفي الأساقفة الذين تصور أنهـم يحرضون الشعب على مقاطعته، وأمـر الجند بالقبض على الرهبـان الرافضين له في الأديرة، وراح يرسـم أساقفة من الأريوسيين

ليحتلوا أماكن المنفيين، وظل يعيث فسادًا في شئون الكنيسة خمس سنوات كاملة، حتى شاءت الأقدار أن دخل فالينس حربًا جديدة مع الفرس، فانشغل بها عن الإسكندرية وأهلها، فعاد بطرس الثاني من روما إلى الإسكندرية، وفر لوسيوس إلى القسطنطينية، لكن السماء كانت قد صرفت نظرها عنه، إذ إنه فور وصوله القسطنطينية فارق فالينس الحياة.

جلست تحت شجرة السدر التي زرعها أبانوب، ورحت أشرح للرهبان ما جرى من الميلتوسيين والأريوسيين ضد البابوات السابقين، بطرس وأرشلاوس وألكسندروس وأثناسيوس، وأطلت في الحديث عن حرب أوريجانوس مع المتشددين من جانب والهرطقة من جانب آخر، وقلت إنني لو كنت أمتلك من القوة لعكفت على كتابة سيرة أوريجانوس مثلما كتب أثناسيوس سيرة القديس أنطونيوس، لكنني سأكتفي بشرح ما جاء في رسائله لصديقه وتلميذه البابا ديونسيوس.

كنت أتحدث عن المهرطقين، وجدت شابًّا صغير السن يسألني عن أيهما أحب إلى قلبي، أريوس أم أوريجانوس؟ فوقفت متحيرًا لا أعرف بمَ أرد عليه، ثم طلبت منه أن يرافقني لمدة أسبوع، وبعدها يخبرني بمن أحبه منهما، كان الشاب يدعى بنيامين، وهو ابن ليهودي يعمل بالتجارة، لكنه لا يعرف في حياته غير السعي وراء المال، فعاقبته السماء بأن جذبت ابنه للمسيحية واعتزال الحياة، وألقت به على هضبة الملاح، دون أن يدري أي منا أنه هدية السماء لي كي أملي عليه كتابي، وفي غمرة انشغالنا بالكتابة كانت رسائل جورجيوس تتوالى لتخبرنا بما يجري في العالم.

تولى الإمبراطور ثيؤدوسيوس خلفًا لفالينس، فأرسل إلى بطرس الثاني كي ينقذه مما يجتاح القسطنطينية من هرطقات، فذهب واجتهد في إصلاح الكنيسة وأساقفتها وكهانها، وتوصل إلى أن جريجوريوس النزينزي هو أفضل من يتولى شئونها، وكان جريجوريوس زاهدًا في الأمر، لكنه استجاب في النهاية لرغبة بطرس الثاني أن يكون في كرسي القسطنطينية من يطهرها من الأريوسيين ويعيدها إلى الإيمان القويم، وكانت هذه آخر الأعمال الجليلة لبطرس الثاني قبل تنيُّحه.

-١٩-

لم تتوقـف المفاجآت عند تولي جورج المنحنـي أبرشية أسيوط، وتولي يوسـاب رئاسة دير الملاح، فقد فاجـأت تريزا ابنتها في المساء بأن صلاح متري سعى لتأسيس جمعية باسـم أوريجانوس، وأنه أمضى سنوات من عمره في طرح فكرته على العديد من الآباء في الأديرة البعيدة، ظل يقوم برحـلات متوالية في أنحاء مصر من شمالهـا إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها، أقنع نحو عشرين راهبًا وقسًّا فضلاً عن العلمانيين المقتنعين بفكرته لتأسيـس الجمعية، وعقد لهم اجتماعًـا ذات مساء في بيته، فتح المكتبة على الصالـة وغرفة السفرة، وجمع كراسي من مختلف الجيران، قال إن هذا هو الاجتماع التأسيسي، وأخـذ توكيلات باسمه من مختلف الحاضرين، بعدهـا حدثت لقاءات لم يحضرها أكثر من خمسة أو عشرة أعضاء، كانوا يتناقشون معـه في أمر الجمعية التي رفضت الحكومـة الموافقة عليها، فقد تقدمـت الكنيسة بشكوى قالت فيها إن أوريجانوس تمت إدانته بالهرطقة، ولا يجـوز السمـاح بنشر أفكاره وتعاليمه التي تخالـف الإيمان القويم. لكـن ذلك لم يثنِ صلاح عن فكرته، فقد ظـل يجتمع على فترات بأعضاء جمعيته، موقنًـا أنهم يمكنهم إعادة الاعتبـار لأوريجانوس، فهو المخرج الوحيد من حلقة التشدد التي سقطت فيها الأمة القبطية.

قالـت تريـزا أن يؤانس ثـار وغضب حين علم بسعـي صلاح لإقامة جمعيـة باسم أوريجانوس، لكـن صلاح كان قد أصيـب بخيبة أمل حين علم بخطف يوساب الثاني، ورأى أن الأمة القبطية ليست المشروع الذي يحلـم بالمشاركة فيه، لأن حجر أساسها قـام على العنف، وهو طريق لن يـؤدي إلا لمزيد من العنف والتشـدد، حتى وإن رفعت شعارات التحديث والتمـدن، فأخـذ يبحث عن فكـرة يمكنها أن تحقـق التحديـث بعيدًا عن

العنـف، ولم يهده فكره لغير أوريجانوس، فظـل يتحدث عنه حتى مات تـاركًا عشـرات التوكيلات والمسـودات والمذكرات، كل هـذه الأوراق اعتبرتهـا تريـزا الخطيئة التي أخـذت منها زوجها وحياتـه، فجمعتها في صندوق وأغلقت عليه دولاب ملابسها.

كانت دميانة تسمع بانبهار شديد عن والدها وجرأة تفكيره، ولم تعرف مـا الذي يمكنهـا أن تقوله عنه، لكنها فكرت قبـل كل شيء في العودة إلى البيـت وفتح هذا الصندوق للتعرف على الوجه الـذي أخفته عنها تريزا، كـي لا تتمثل به ولا تسـير في طريقه، لكن ما دام الحـذر لا يمنع القدر، وما دامـت دميانة قد دخلت هذه المتاهة، فلا بد مـن رواية كل شيء لها. هكـذا قالت تريزا لنفسها وهي مقدمة على فضح ما خبأته في صدرها، ولم يكن أمام دميانة سوى أن تتركها ترتاح من ثقل السر الذي حبسته كل هذه السنين، كي تعود إلى البيت فترى كل شيء بنفسها.

نامـت دميانة على سريـر أمها ومن حولهـا الوثائق التـي حبست في صندوق خشبي نحـو خمسة وعشرين عامًا، كانت الأوراق تحتوي على ظـرف أبيض كتب عليه بخـط كبير "جمعية أوريجانوسـ"، حين فتحته وجـدت به توكيلات من نحو خمسين شخصًا لصلاح متري، وتوقيعاتهم علـى وثيقة مبـادئ الجمعية وأهدافهـا، أخذت تطالـع الأوراق وتراجع أختـام التوكيـلات وأسمـاء أصحابهـا، لم يكـن الأمر يحتـاج إلى تفكير كبـير، فغالبيتهـم كانوا أسماء مشهـورة، يحتلون مراكـز مرموقة سواء داخـل الكنيسـة أو خارجها، كان أول مـا نبهها إلى التدقيـق فيهم توكيل باسـم إيمانويل مراد يوسـف، شماس بدير الملاح، حـين طالعته شعرت كمـا لو أن أحدًا ضربهـا على رأسها، أخذت عيناهـا تتسعان وهي تتخيل قدر اتساع الشبكة التي يمكنهـا أن تطلب منها المساعدة، فجميعهم أصدقاء والدهـا، وجميعهم مؤمنون بفكرته، ولوهلـة أدركت أنها أمام جماعة ما زالت قائمة حتى وإن لم تقبل أورقها في المحاكم.

مـن جديد توقفت أمـام اسم إيمانويـل الطيب، وتذكـرت أنطونيوس وعلاقتـه بأستاذه، وتساءلـت في نفسها إن كان يعرف بأمـر الجمعية أو

له علاقــة بها؟ أخذت تعيد النظــر في الأسماء والتوكيــلات ومحال إقامة أصحابهــا، لم تجد اسم أنطونيوس بالطبع، لكنها قــرأت اسم باخوميوس سعد إبراهيم، شماس بدير سانت كاترين، تذكرت ما حكاه ملاك الكاتب عــن الأب باخوميوس، وأنه في الأصــل أحد رهبان دير سانت كاترين، وبعد مشكلة كبيرة مع رئيس الدير ترك المكان وتنقل لعدة أديرة أخرى، ليستقر أخيرًا في دير الملاح، فعادت بذهنها من جديد إلى أنطونيوس لتتذكر علاقتــه بإيمانويل، وكيف أقنعه الأخير بالنزول عــن صخرته التي على هوامش القرى كي يتبعــه إلى دير الملاح، ليحوله من قاتل وقاطع طريق إلى متخصص في مذاهب الهراطقة.

في الحلــم كان أنطونيوس سعيدًا بما توصلت إليه دميانة، وبدا عليه أنه غير مبــال بثورتها في وجهه، بدا كما لو أنــه يضحك وهو يعتذر لها، في الحلم أيضًــا رأت والدها بصحبة إيمانويل الطيب، لم تكن رأته في الحقيقة مــن قبل، لكنها عرفته من تلقاء نفسهــا، وخاطبته باحترام وتقدير لم تكن تتوقع أنهــا ستظهرهما له، هو أيضًا كان بهيًّــا وجميلاً، تفوح منه رائحة جعلتهــا تنجــذب إليه، مــا أدهشها أنــه كان يمشــي وراء صلاح متري، مثلمــا يمشي خلفه كثيرون، بعضهم كانت تعــرف صورهم في الإعلام، وبعضهــم كانت ترى وجوههم علــى صفحات الجرائد، ومــا أيقظها من نومهــا أنها رأت كلــب السماء وهو يزمجر خلف الجميــع، لكنه بدا وديعًا وهو يسير بجــوار شاب في مطلع الثلاثينيات من عمره، لا يرتدي سوى جلبــاب من كتان أبيضــ، لحيته ليست طويلة ولا قصــيرة، لكنها سوداء ولامعــة مــن أثر الزيت الــذي دهنها به، وفي يده عصــا راع يتكئ عليها تارة، ويلوح بها لكلبه السماوي تارة أخرى، حين رفعها وأشار بها نحو دميانة رأت كلب السماء يقفز نحوها كسهم خرج من قوسه، فانتفضت من نومها تلملم الأوراق لتضعها في صندوقها الخشبي.

-٢٠-

رسائل أوريجانوس (١٨)

كان علينـا أن نتخذ نفسـ الطريق الذي اتخذه أستـاذي بنتينوس، هذا الذي ذهب إلى الهند فكرز ووعظ هناك، كان وفد من تلك البلاد البعيدة قد حضر إلى الإسكندرية، بعدما علم بشأن المسيحية ودعوتها للسلام والمحبة، فجلسـوا كمبتدئين ينصتـون إلى دروس بنتينوسـ في مدرسة اللاهوت، وكان أول من درّس بها، وحين جاء وقت رحيلهم رفضوا أن يعودوا إلا بصحبته، كي يعظ ويكرز أهليهـم هناك، فما كان من ديمتريوس الكرَّام إلا أن وافـق، ولا نعلم حتى الآن إن كان قـد رسم بنتينوس كاهنًا أم لا، فقد أباح لـه أن يعظ ويكرز مؤمنين جددًا، وهو الأمر الذي لم يرضَ لي بأقـل منه، لكنه في العموم كان يحب بنتينوس، كان يجله ويعرف قدره، فبنتينوس الذي درس مع الرواقيين في الميوزيوم هو الذي تصدى لتفسير الكتـاب المقدس بدءًا من سفر التكوين حتى سفـر الرؤيا، لكن تفسيراته لم يبق منها الكثير، لأنه لم يكن يملي على أحد، ولم يفطن إلى أهمية النساخ.

استخـدم بنتينوس لغة لم تكن معروفة، وضـع فيها الحروف اليونانية إلى جانـب حـروف لا يعرفها إلا أبنـاء الإسكندرية ومـا يتبعها من قرى ومـدن، هذه اللغة ارتبطت بالكنيسة وأبنائها، وأصبحت لغتهم السرية في التعامل بعيدًا عن الرومان وعيونهم، فانتشرت بانتشار الاضطهاد، وكل الفضل في وضعها يعود لبنتينوس المحب للخير والجمال كما علمه أساتذه، فالرواقيـون يحسبـون الخـير الأعظـم في الفضيلة، ويؤمنـون بناموس الطبيعـة وناموس الضمير والواجب. ويـرون في الله الطاقة المتغلغلة في كل شـيء، بها خلق العـالم الطبيعي وبقي محفوظًا فيـه، هكذا كان يعلمنا

بنتينوس ونحن نتردد على دروسه في الصغر، منه تعلمت حب الفلسفة، وأدركت كم تفتح لقارئها ملكات الخيال ورؤاه، وكم توسع مداركه وقدرته على الاستنتاج، لكن أحدًا لم يأخذ على بنتينوس محبته للفلسفة بقدر ما توجسوها مني.

ذهب معهم في رحلة طويلة إلى الهند، فاتخذوا طريقهم إلى الجنوب في البحر، حتى نهاية بلاد العرب، ثم غابوا في بحر لا حدود له حتى وصلوا إلى بلادهم، مكث معهم نحو عام يعظ ويكرز، وبنى لهم كنيسة كبيرة يقيمون فيها الطقوس والأسرار، ثم عاد بنفس الطريقة إلى بلاد سبأ وحضرموت، فجلس عدة أشهر يبشر ويعمد من يتبعه، ثم بنى لهم كنيسة يقيمون الأسرار والطقوس فيها، وتنقل مع الساحل يبشر ويكرز، حتى وصل إلى الأرض الواقعة على المحيط والخليج، فوجد أناسًا ينصتون لدعوته، فعمَّدهم وأقام لهم كنيسة، ثم تركهم وصعد مع خليج الفرس، حتى وصل بلدة يقال لها بصرى عند ملتقى الماء واليابسة، فجلس مدة يدعو أهلها، وكانت له طريقة تفتن الحجر، فتبعه كثيرون، فبنى لهم كنيستين، ورسم لكل كنيسة كاهنًا، وبصرى كما تعرف تتبع اللخميين بالحيرة جنوب فارس، ثم أكمل طريقه في اتجاه الشمال، حتى دخل أنطاكيا، وتحصل على نسخة من إنجيل متى الرسول بخط يده، أعطاها له واحد من أثرياء المدينة، طالبًا منه أن يسلمها لديمتريوس الكرَّام، تعبيرًا عن تبجيل أنطاكيا وأهلها لبطرك الإسكندرية وشعبها.

بعدما انتهيت من مشكلة كريسبوس في تدمر، أردت أن أمر بالطريق الذي اتخذه بنتينوس في عودته، لكن أمبروسيوس رفض، قال إنه لا يمكنه أن يترك تجارته مدة أطول من ذلك، لذا يجب أن نعود إلى قيصرية كي يتابع شئون حياته، هززت رأسي موضحًا أنني أيضًا أصبت بالإجهاد، ولم تعد لي قدرة على متابعة السير والانتقال من مدينة لأخرى، فقد تسربت الشيخوخة إلى جسدي، ضحكنا وقفلنا عائدين إلى قيصرية من جديد، رغم أنني كنت أتمنى أن أطوف بلاد العرب مثلما فعل بنتينوس، لكني لم أرد أن أشعر أمبروسيوس أنه بدلاً من أن يكون عونًا

لي أصبــح ثقلاً عليَّ، فأقنعته بعجزي ورغبتي في الأمر، وعدت معه إلى ثيؤكتستوس وأسقفيته في قيصرية، وألكسندروس في أورشليم، وجلست أملــي على نساخي كتابًا جديدًا في الرد علــى الهراطقة، فقد أحصيت أكثر من عشر هرطقات جديــدة يتناولها الناس، بعضها نتاج هرطقات قديمة، وبعضهــا استحــداث من قبــل الشيطان الــذي يبيض ليل نهــار في أذهان ضعــاف النفوســ، وإن كنت ظللت أقلب أقوالهــم في ذهني طيلة الوقت، فلــكل قول منطق وفكر، ولا يجب أن نغلــق أذهاننا وقلوبنا على ما منحنا الله من فكر فقط، فقد منح الآخرين عقولاً، وهي تعمل مثلما تعمل عقولنا وأكثر، لذا كنــت أمنح نفسي فرصة التفكير فيما يقولون، وأسعى للتوفيق بين ما نؤمن وما يؤمنون به، ما دام سعينا للخير، ورغبتنا في معرفة الله حــق معرفته، الحق أقول أيضًا إنني لم أرغــب في أن أكرر معهم ما فعله ديمتريوس الكرَّام معي من قبل.

لم يمضــ عام علــى رحلتي إلى بــلاد جفنة بن عمــرو ومملكة جذيمة الأبرشــ في تدمر، حتــى جاءني رسول من أقصى شــرق بلاد العرب، حيــث مدينة بوسترا التي قــرر أسقفها عقد مجمع مقدســ موسع لقساوسة وأساقفة بلاد العرب، ليناقشوا أسقفًــا يدعى بريليوس يعلم بأقوال وأمور لا تتفــق مع تعاليم الكنيسة الأم، كان ذلك عام أربعة وأربعين بعد المائتين مــن ميــلاد السيد المسيح، فوجــدت أن الرحلة التي قصــرت في قطعها قد جاءتنــي من جديد، وأنــه يمكننــي الآن أن أذهــب إلى أقصى الجنوب، فاستأذنت ثيؤكتستوســ وأمبروسيوس في السفر، لكن الأخير قال إنه لن يتركنــي أتحرك وحدي، فقد قطعنا في رحلة العمر معًا ما يكفينا لأن نكمل مــا بقي منها معًا، فوافقته على طلبه وبدأنا في سفرنا، وما مررنا بقرية أو مدينة إلا واجتمع لنا أهلها طالبين أن نعظهم في بعض أمورهم، كنا نمكث معهــم وقتًا قبــل أن نكمل رحلتنا مــن جديد، حتى أننا أضعنــا وقتا طويلاً في سيرنــا، فوصلنــا إلى بوســترا والمجمع موشك علــى الانتهاء، شرحنا أسبــاب تأخرنا وعــدم القدرة على مجافــاة الناس، فعلــق بنيامين أسقف بوســترا أنه نفسه ما كان سيتركني لو مررت بأرضه، فضحكت وشكرته

علــى كرمه، وجلست أنصت لما جرى في المجمــع قبل مجيئنا، ففهمت أن الأسقــف بريليوس انحــرف عن تعاليــم الكنيسة، وقــال إن الرب أقنوم واحد، ورفض أن ينصاع لما أجمع عليه الآباء المبجلون في المجمع، وأنهم أجمعوا على حرمانه ونفيه.

كانــت جملتــه الأخيرة قــد نزلت كالزيــت المغلي على رأســي، لكنني أغمضــت عيني وابتلعت لعابي في جوفي محتويًا رغبتي في الغضب، حتى أن بنيامين شعر أنه أخطأ، ولم يعرف كيف يتجاوز خطأه، فطلبت منه أن يدلنــي على مكان بريليوس، حين اقتربنا من المكان طلبت منه أن يتركني وحدي معه، فلما جلسنا بمفردنا سألته عما يعتقده في الرب، فتجاسر على القــول بأن مخلصنا وربنا لم يكــن موجودًا من تلقاء ذاتــه قبل حلوله بين البشــر، وأنه ليس فيه أى شيء من اللاهــوت بذاته، فما لديه هو لاهوت حلول الآب فيه.

جلست أنصــت إلى بريليوس مثلما فعلت مع كريسبوس في قرى جبال تدمر، حتى لم يبق في جوفه كلام، ثم أخذت أستوثق منه ما يعنيه بقوله، حتــى وصلت به إلى أنه الآن يعبد مخلوقًا وليس خالقًا، فهل يستقيم هذا في منطقــه، حينها بدأ يتراجع في حديثــه، وبدأت أزيد من شرح سوء فهمه، حتــى أيقن بالكلية أنه قد انحرف بفكره عن فكر الكنيسة، ثم تركته وعدت إلى المجمــع، باحثًــا عــن الأساقفة الذين ظلــوا في انتظار عودتــي إليهم، فطلبت مــن بنيامين أن يقيــم قداسه، ويوزع علينا خبــز الرب وخمره، وجلسنًــا ننصــت إلى عظتــه، فإذا به يتوقــف عن الــكلام، وإذا بنا نلتفت إلى الوراء لنجــد بريليوس واقفًا بباب الكنيســة باكيًا، فنهضت من مكاني وأخذت بيده وذهبت إلى حيث يقــف بنيامين أمام الهيكل، واستدرت إلى النــاس قائلاً إنني أعرف شخصًا سعــى إلى أن يطبق ما قاله الرب بالكلمة في كتابه، فمــا كان منه إلا أن دفعه إيمانه الشديد إلى أن تخلص من منحة الــرب في جسده، فخصى نفسه كــي يكون عبدًا مخلصًا لا تساوره الرغبة ولا التفكــير في غــير الله، فهل كان على حــق؟ لا لم يكن على حق، لكن الخطــأ كل الخطأ أن نحاسبه على رغبتــه في الإخلاص للرب، الخطأ أن

نحكم بحرمانه لأنه كان يسعى لأن يكون مؤمنًا أكثر من كل المؤمنين، هذا الرجل لو لم يجد أبًا حكيمًا يتفهم خطأه لما أصبح الآن بينكم أستاذًا ومعلمًا.

لم أفسر أكثر من ذلك في عظتي الصغيرة، وتركت بنايمين يمارس دور الأب الحكيم القوي الرحيم، تركت كل الآباء والأساقفة يحتضنون بريليوس ويقبلونه، بينما هو يقبلهم ويعتذر عن خطئه، هنالك أشرت لأمبروسيوس بضرورة أن ننسحب، فجهزنا في الغد رحلنا وودعنا بنيامين والآباء الآخرين وتركنا بريليوس دون أن نخبره، وما إن خرجنا من المدينة حتى فوجئنا برجل يركب جوادًا مسرعًا في أثرنا، حتى أننا خشينا أن نكون قد سرقنا شيئًا من متاع القوم، لكن ما إن أماط الفارس لثامه عن وجهه حتى رأيناه، كان ذلك بريليوس الذي عز عليه أن نتركه ونمشي دون أن يقول لنا شكرًا، فربَّتُّ على كتفه بأنه لا شيء، فكلنا في طريقنا نخطئ، وطوبى لمن أخطأ في طريقه إلى الرب وعاد إليه.

حين عدنا إلى قيصرية أخذ أمبروسيوس يحدث الناس بما جرى، والناس تأتي لتسألني عما قلته للمهرطق حتى عاد إلى رشده بهذه السرعة، فشعرت أن أمبروسيوس يفتن الناس بي دون سبب، فما وفقني إليه الرب لا يجب أن يتسرب إلى نفسي بالفرح، فهذه منحة منه وليس اجتهادًا مني، وغضبت من أمبروسيوس قائلاً إنني لن أصطحبه في رحلة لي فيما بعد. وبدا أنه تأثر بما قلته، فتركني وعاد إلى بيته، وسعيت طيلة الليل أنحي غضبي عني فلم أستطع، لكنني في الصباح تمكنت من هزيمة نفسي، وذهب إلى بابه باكيًا طالبًا مغفرته، إلا أنه رفض أن يفتح لي، ظللت أعود إلى بيته في اليوم الواحد ثلاث مرات على الأقل، وأطلب من كل من أعرفه أن يرقق قلبه عليَّ، حتى أن نساخي توقفوا عن عملهم، وتلامذتي صاروا يجالسونني ولا أحادثهم، ولم يخرج من بيته حتى جلست أمام بابه ساعات طوال، وكلما مر أحد جلس، حتى أن قيصرية كلها جلست معي أمام بيت أمبروسيوس، فما كان من جارية له إلا أن تشاجرت معه، وفتحت لي الباب قائلة أدركه قبل أن يموت من البكاء.

لم يكن أمبروسيوس وحده الذي يبكي، فقد بكيت وبكى أهل بيته وبكت قيصرية كلها معنا، وجلست أحدثهم عن أمبروسيوس الذي التقيته بعد

مـوت والدي بشهـور، كنت وقتها مسئولاً عـن أم وستة إخوة لا أعرف ماذا أفعل من أجل إطعامهم، فقـد صادر الرومان أملاك أبي ليونيدس، ذلـك الذي مات شهيد اضطهاد وسجون سبتيموس ساويرس، فلم يتركوا لنا سـوى مكتبته التي لم يقـدروا أهميتها، فما كان منـي إلا أن أخذت في عرضـ كتبها على الأثريـاء العاشقين لامتـلاك الكتب، في هـذه الآونة تعرفـت على السيـدة أوثاكا نيكيدا التي اهتمـت برعايتي، كنت أشرح لها مقولات اليونـان وقصائد شعرائهم مقابل مبالـغ ضمنت لي الإنفاق على أسرتـي وإكمال تعليمـي في الميوزيوم، لكن الخطـوة الأهم كانت تعرفي علـى أمبروسيوس بعد ذلـك بعام واحد، كان كما اعتدتـه دائمًا ثريًّا، لا يمكـن القول إنه في يـوم ما عاش فقيرًا، لكن لا يمكن القـول أيضًا إنه في يوم ما عاش لنفسه، كان دائمًا ما يعيش من أجل الجميع، حتى ظننت من فرط كرمـه أن الرب أرسله لي وحدي، وأنه رسـول المسيح كي ينقذني مـن فقري الدائـم، ويمكِّنني من مواصلة حياتـي بعزة، وحين اضررت لترك الإسكندريـة وضعت إخوتي أمانة في عنقـه، وحين اضطر للحاق بـي ترك لهم ما يعينهم على العيش حيـاة كريمة، وهو الأمر الذي لم يقله حتـى لي حـين أتى إلى هنا، لكننـي علمته، لذا فهو لا يعلـم قدره عندي، وشعوري أنه ملاكي الحارسـ، وشقيقي الذي لم ينجبه أبي، إنه روحي التي تلهمني الحياة.

حينهـا توقـف أمبروسيوس عن البـكاء، ونهض في مكانـه قائلاً إنني لسـت وحدي الذي يعـرف كيف يعظ، فهـو واعظ أجمـل مني، فهتف فيـه الناس أن يعظهـم، قال إنه حين التقاني في صغرنـا كنت بالفعل فقيرًا وأسعى لبيع بعضـ الكتب له، يومها اشتريت منه بعضها شفقة عليه، ولم أره لمـدة عام كامل، هو نفسه نسيني خلاله، حتى أنني حين التقيته وكلمته لم يعرفني، في ذلك اليوم طلبت منه أن أشتري ما معه من كتب، فرفض قائلاً إنها ليست للبيع، لأنه يدرسها، وكان ذلك مصدر اهتمامي به، فهذا الصبي يدرس ويقرأ هذه الكتب الكبيرة، بعد عام آخر وجدته يتردد على الكنيسـة ومدرسة اللاهوت، ولم أصدق نفسي حين وجدته أصبح مدرسًا

بهـا خلفًا لإكلمندس، يومها ذهبت لأتناقـش معه، كنت ممن اختلط عليهم طريق الإيمان، وضللت سبيلـه القويم بسبب بعض الغنوصيين، فوجدته يحـاورني كعالم كبـير، يسألني وهو يعـرف الإجابة، يسـأل وأنا أجيب حتـى أصل بنفسي إلى مـا يريد قوله من البـدء، لم يهزمني، لكنه تركني أفكـر وأفكر حتى وصلت إلى الحقيقة بنفسي، لم يقل إنه قال، لكنه تركني أشعر أنني الذي فعلت، يومها أدركت أنه ساحر، وأنني كنت على خطأ، فارتبطت خطانا معًا.

سعدت بمغفرة أمبروسيوس لي، وانشغلت في عملي وكتبي وتلامذتي دون أن أدرك أن أمبروسيـوس يتسـرب كالمـاء من بين يـدي، فلم يعد يـتردد كثيرًا علـى المدرسة، ولم يعـد يسير كظلي في كل مـكان، لم يعد يطلـب مني أن أبارك عمله في المال كـي لا تأخذه الشياطين، وكان يتعلل بأمـور كثـيرة وأنـا لا أرغب في مطاردتـه، قلت كفى أننـي أخطأت في حقـه مرة، وهكذا فعلت حـين أتى رسول من بلاد اليمـن في جنوب شبه جزيرة العرب، داعيًا لحضور مجمـع لأساقفتها وأساقفة البلاد المجاورة في إثيوبيا وعمان، لمراجعة مـن يتحدثون بهرطقة عن النفس وموتها مع الجسـد، وعدم قيامتهـا إلا يوم الدينونـة، وهو ما يشـكك في قيامة السيد المسيح، فوافقت علـى الحضور، وذهبت فرحًـا لأمبروسيوس كي أبلغه أننا لدينا دعوة للبلاد التي كنت أتمنى الذهاب إليها منذ أمد بعيد، وعلينا أن نتجهـز من الآن، لكنه بدا غير راغب في الذهـاب، حاولت أن أعتذر له وأستسمحـه أن يوافق، لكنه قال إنه متعب ولا يملك القدرة على الخروج مـن قيصرية. شعرت أنه لم يغفر لي، وأن التاريخ الذي بيننا لم يشفع لي عنـده، وربما يشعر بفخـره علي لأنه الذي يمتلك المـال لتجهيز الرحلة، فحملتهـا في نفسي، وتركتـه وأخذت في تجهيز رحلتـي، لكنني لم أتخيل أن هـذه ستكون آخر مـرة أراه فيها، فما إن عدت من رحلتي التي طالت شهورًا في الصحارى المقفرة حتى صفعني أمبروسيوس بخبر استشهاده، فشعرت بمرارة اليتم وهو يجتاحني من جديد.

-٢١-

جـن الليل على أنطونيوس وهو في مقهى محطـة رمسيس، كان يفكر فيمـا جرى معه منـذ التقائه بجماعة الكشافة في الجامعـة حتى وفاة أستاذه إيمانويـل، وحين أصابته رعشة من البرد فكـر في العودة إلى بيت تريزا ودميانة للحصـول على ملابس الرهبنة وصليب باخوميوس الكبير، لكن كلـب السمـاء ظهر له فجأة، وأخـذ يزمجر غاضبًا كما لو أنـه يؤنبه على تأخـره عن شيء ما، فانتفض يهـرول أمامه، حتى وجد نفسه أمام قطار آخذ في الانطلاق فقفز بين ركابه.

كان القطـار متجهًـا إلى الإسماعيلية، ولم يكـن لأنطونيوس حاجة في الذهاب إليها، لكنه ما إن شعر أن لهاث الكلب السماوي هدأ في أذنيه حتى أيقن أنها الوجهة التي عليه الذهاب إليها، بحث عن أحد الكراسي الشاغرة وألقـى بجسده فيه، وعلى إيقاع صوت العجـلات الرتيب شرد بذهنه في دميانـة التي ارتبط مصيره بها منذ أول يوم رآهـا فيه، مر بذاكرته على عدد اللقاءات التـي جمعتهما معًا، كان أغلبها في مكتب التحقيقات بالدير، وفي وجود ملاك الكاتب، حيث كانت تسأل عن آلية نشر الكتب في مطبعة الدير، ومن الذي يختار الكتب، ومن آخر من يوقع عليها للطباعة، كانت اللقـاءات كلها أسئلة، وكانـت دائمًا هي الجانب القـوي، ودائما كان هو الجانب الضعيف، لكنه تعلق بهـا، ولم تعد صورتها تفارقه، مرات قليلة التـي رآها فيها خارج مكتبهـا، أكثرها تعلقًا في ذهنـه حين ضربه رجال يؤانـس علـى رأسـه فأغشي عليه، وحـين فتح عينيه ووجدهـا تطببه في قلايتـه، فهل يمكـن أن يكون ذلك هـو الحب، الحب الـذي لم يدركه في سنـوات الجامعة؟ وهل يمكن أن يتأخر حب الرجـل للمرأة في ركن بعيد بقلبه كل هذه السنوات، وهو لا يدري؟ وهل يكبر الحب بين رجل وامرأة يركب كل منهما قطارًا في اتجاه معاكس؟

ظل أنطونيوس يعدد في ذهنه المواقف والتفاصيل التي جمعت أو حالت بينهما، حتى تذكر ذهابه إلى بيتها، ونومه في مكتبة والدها، ولمع في ذهنه اسم المخطوط الذي قرأه على المكتب، "دفاعًا عن أوريجانوس"، تذكر أن ملاك أخبره ذات مرة أنها ابنة محام أمضى حياته للدفاع عن الفقراء، وأن إيمانويل كان أول من نبهه إلى قيمة أوريجانوس وأهميته، تذكر أيضًا أن إيمانويل حكى له ذات مساء عن محام كتب عنه رسالة بعنوان "دفاعًا عن أوريجانوس"، كانت في الأصل مذكرة للدفاع في ردهات المحاكم عنه، لكنه طورها إلى كتاب لم يتمكن من نشره، كان محاميًا فقيرًا ويعيش في شقة ورثها عن أبيه في القاهرة، لكنه امتلك شجاعة عالم أو فليسوف، لم يقل عن نفسه سوى أنه محام محب للفقراء، ومهنته هي الدفاع عن المظلومين، ومنذ قرأ في صباه عن أوريجانوس وهو يدرك أنه ظلم، وكلما توسع في قراءته أيقن أننا في حاجة لاستعادته من أجل الثورة والتجديد.

لوهلة شعر أنطونيوس أن الرجل الذي جذب إيمانويل إلى طريق أوريجانوس من الممكن أن يكون والد دميانة، وأدرك كم المسافات قريبة، فإيمانويل هو الذي استدعى دميانة لتكون محققة مساعدة له في الدير، كان يرغب في أن يبقيها قريبة منه، وربما يرد لها بعض فضل أبيها عليه، لكن هل كانت تعلم بذلك، وهل كان مخططًا لهما أن يلتقيا على نحو غير الذي تعارفا من خلاله، أم أنها الصدفة التي حكمت كل ما جرى؟ شعر أن خيوط الحكاية عادت لتتعقد في ذهنه، وأنه لم يعد قادرًا على التفكير، فأغلق عينيه شاعرًا بخدر يجتاح أعضاءه، وسرعان ما تمطى على بساط النوم ذاهبًا مع سحابة الأحلام.

رأى دميانة ممسكة بشمعة وفي طريقها لأن تضعها أمام أيقونة العذراء، كانت العذراء تحمل طفلها كما لو أنها تقدمه لدميانة، بينما الأخيرة تتقدم تجاه الضوء المنبعث من الأيقونة كأنها تريد أن تدخل فيه، كان أنطونيوس يدرك أنه يحلم، وأن دميانة جزء من الحلم، لكنه شعر أن الأيقونة أصبحت بوابة تنفتح لها، وأنه سيفقدها للأبد إذا تقدمت أكثر من ذلك، فراح يصرخ فيها أن تتوقف، يصرخ وهي تسير نحو البوابة

التـي تتسع كلمـا اقتربت منهـا، رأى نفسه يهرول حتى اقـترب منها بما يكفـي، ومد يده ليمنعها من الدخول، لكـن ما إن رفع يده حتى انتبه على مـن يهزه من كتفه، حين فتـح عينيه وجده المحصل ينبهـه إلى أن القطار وصل محطته الأخيرة.

جلـس على مقاعـد الانتظار لا يعرف أين يمكنـه الذهاب، كان يتوقع أن كلـب السمـاء سيظهر من جديـد ليطارده نحو الطريـق التي يريدها، لكن ذلك لم يحدث، وطـال انتظاره دون جدوى، فقرر أن يترك قدميه تتسكعان علـى الأرصفة، وسرعان ما خرجتا به مـن المحطة ليتمشى في الطرقات الجانبية، ظلت التقاطعات تقوده إلى أخرى حتى وجد نفسه أمام كنيسة صغيرة، نظر إلى الصليب الواقف أمامه وتذكر باخوميوس بصليبه الكبير، تمنـى لو أنه كان يرتدي زيه الكهنوتـي ويحمل صليبه في عنقه، كان سيدخـل معززًا على رئيسها طالبًا منه مكانًا يرتاح فيه، لكنه الآن لا يملك سوى الدخول من الباب كأي مسيحي علماني، هز رأسه بأسى وقال إنها التجربة التي كتبها عليه الرب، ولا بد أن يتقبلها بنفس راضية.

طأطـأ رأسه ودخل مـن البـاب دون أن يسأله أحد عمـا يريد، جال بنظـره في المكان باحثًا عن صحن الكنيسـة، ارتقى عدة درجات رخامية ووقـف أمـام الباب، كان القس بجـوار الهيكل يلقي عظـة أمام عدد من الشخوصـ الذين لم ينتبهوا لدخوله، وحده القسـ نظر نحوه وهو يجلس في الصـف الخلفي، أومـأ للقس كما لو أنه يستأذنه فأومـأ له الآخر مكملاً عظتـه، عاد بظهره إلى المسند الخشبي الممتد خلفه وأخذ ينصت كمن يؤدي واجبًـا علميًّا، لكن أذنه بعد دقائق أخـذت تضيق وتتسع كما لو أنها تتشمم شيئًـا بين الكلام، كان القس يتحدث عن الفتنة التي ظهرت في زمن الأنبا ثاؤفيلوس، فقـال إن الأخير كان رافضًا لتجسيـد الرب كأوريجانوس، وتشـدد في تنفيذ ما آمن به، فالله ليس ماديًّا، وليسـ مكونًا فزيقيًّا، ومن فهم نقيض ذلك من آيات الكتاب المقدس هم من قرأوه قراءة حرفية، وهم متأثرون بالوثنية وتجسيدها للآلهة.

كان ثاؤفيلوس متحمسًا لمحاربة الوثنية وما يمكن أن يتسرب منها إلى الدين الصحيح، مقتنعًا أن ما قاله أوريجانوس صحيحًا، ومن ثم أرسل إلى الرهبان في نتريا والإسقيط مشددًا على محاربة تجسيد الله في أديرتهم، لكن رسائله لم تخلق سوى مزيد من الفتنة، فقد رفضها الكثيرون، حتى أن أحد الرهبان انهار باكيًا، لأنه باختفاء التماثيل شعر أن الله ذهب من قلبه، فألقى بنفسه على الأرض صارخًا:

– إنهم يحرموننا من الله.

كانت كلمات الراهب حارة ومثيرة للشفقة، حتى أن صرخته وصلت لمختلف الرهبان في البراري، وكان رهبان آخرون في نتريا والإسقيط غير قادرين على انتزاع صور الرب من مخيلتهم، فقرروا النزول من الجبال والصحارى لملاقاة ثاؤفيلوس، كان عددهم كبيرًا، وحماسهم عظيمًا، مما أدى إلى اضطراب أحوال المدينة، وراح بعضهم يفكر في اغتيال البابا، فانتبه الأخير إلى الوجه الغاضب للرهبان، موقنًا أنه بتمسكه بما يعتقده سيفقد القوة التي ورثها عن أثناسيوس وبطرس الثاني، فقرر أن يلتقي وفدًا منهم، وما إن دخلوا عليه حتى قال "إنني أرى نور الله في وجوهكم"، وسرعان ما انقلب على أوريجانوس وأفكاره، وحارب كل من رفض التجسيد.

كان أنطونيوس يجلس في نهاية الصفوف مبتسمًا، وكأن إيمانويل الطيب بعث أمامه من جديد ليتلمس خطى أوريجانوس وآثاره، موضحًا كيف لجأوا إلى أفكاره ثم عادوا لينكروها، فظهرت الفتن التي قالوا إنه مصدرها، فمع تراجع ثاؤفيلوس عن رفض التجسيد كان الرهبان الذين آمنوا بالرفض قد أصيبوا بخيبة أمل، ومن بينهم الإخوة الطوال الذين خاضوا حروبًا لرفض التجسيد، فلما تراجع ثاؤفيلوس عن موقفه لم يستطيعوا التراجع، فأرسل قوة من الجيش لانتزاعهم من أديرتهم، وحين قرروا النزول لعتابه رفض لقاءهم، قائلاً إنه اجتثهم بمنجل النبي.

-٢٢-

قمت برسم ساويرس وشنودة قسين، وعينت ساويرس للقيام بالطقوس ورعايــة الديــر ومن فيــه، وكلفت شنودة بعظــة بقية الشعــب في القرى والــبراري، ورسمت أربعــة شمامسة جددًا هــم لاون ويوحنا وبنيامين وتواضروس، وزعــت عليهم مهامهم أيضًــا، وأبديت رغبتي في تجديد سقــف الكنيستــين كي لا يسقطا تحت وطأة المطر، ثــم جلست أسفل شجرة السدر أقرأ الكتب وأفسرها للرهبــان، وحين أرسل تلامذة أبانوب الذين كانــوا في صحبة أثناسيوس يسألوننــي عما ينسخوه للناس، أرسلت لهم في مغــارة الجبل الغربي بعدد من الرسائل والعظات التي كنت سأعكف على شرحهــا، وطلبت منهم نسخها وإعطاءها للناســ، وأن يخبروهم بما قاله أثناسيوس قديمًا، أن من غمضــ عليه شيء في رسائله وكتبه فليذهب إلى دير الملاح، هناك سيجد من يفسرها.

أرســل جورجيوس يخبرنــا أن الأب بطرس الثاني تنيَّــح، وأن أخاه تيموثاوســ قد تولى كرســي الكرازة، كانت تربطنــي بتيموثاوس علاقة أقــوى من علاقتي ببطرس، وما زلــت أذكر موقفه في مجمع صور حين ادعــت امرأة على أثناسيوس أنه زنى بها، وكادت المكيدة أن تنجح وتأتي بنتائجها الوخيمة، لولا أن تيموثاوس نهض من مكانه وكلمها أمام الناس على أنه أثناسيوس: فردت عليه بتبجح أنه أثناسيوس الذي أفقدها عذريتها بالأمس.

تذكرت ذلك وأنا أملي على الشماس بنيامين رسالة تهنئة لتيموثاوس، متمنيًــا له فيهــا النصر على الهراطقة، ويبدو أنــه كان أكثر حظًّا من أخيه بطرســ، فقد قضى في كرسيه ست سنوات دون نفي أو مطاردة، ودعاه الإمبراطور ثيؤدوسيوســ لرئاسة مجمع مقدس لمناقشة هرطقة بطريرك القسطنطينيــة مقدونيوس، ورفضه ألوهية الروح القدســ، قائلاً إنه أقل

مــن المسيح، ولا يمكن تأليهــه. لكن تيموثاوس رد عليــه، وبيَّن له فساد رأيــه، فاتخذ المجمع قرارًا بحرمان تعاليمه لتنافيها مع الإيمان النيقاوي، كمــا حرم هرطقة سابيليوس القائل بأن الله أقنوم واحد وليس ثلاث، فهو الآب حينمــا خلــق، والابن حينما خلص، والــروح القدس حين يقدسنا. وحــرم هرطقــة أبوليناريوس الذي نفى عن المسيــح جانبه الإنساني، كي لا يكــون شخصــين، أحدهما إنســاني والآخر إلهي، مخالفًــا بذلك قانون الإيمان.

لكــن تيموثاوس عاد حزينًا مــن هذا المجمع، فقد أعطــى الإمبراطور امتياز الشرف بعد كنيسة روما لكنيسة القسطنطينية، وهي المكانة التي كانت تتمتع بها الإسكندرية، فشعر تيموثاوس ومن عادوا معه أنهم يحملون على أكتافهــم عار العالم، فقد التزم الصمــت مقابل رضا الإمبراطورية وعدم الدخول في صــراع جديد، لكنه استغل ذلك في مد نفوذه على الرهبان في الصحراء، ساعيًا لتوحيدهم تحت رئاسته، والخلاص من الأريوسيين في المشرق والمغرب، إلا أنه سرعان ما فارق الحياة.

أرســل لنــا جورجيوســ سعيــدًا بترسيمــه قسًّا علــى يد البابــا الجديد ثاؤفيلوســ، هذا الذي قال عن نفسه أنه ولد لأب وأم كانا وثنيين، وأنهما ذات يــوم تركاه وشقيقته في عهدة خادمة حبشيــة، فخرجت بهما للصلاة بمعبــد أرتميس، ومــا إن دخل المعبد حتى اهتــزت التماثيل وسقطت على الأرضــ، وفي اليــوم التالي كانا في طريقهما لحديقــة عامة، فوجد رجلاً يقول له إنه رأى ما حدث بالأمس، وإنه سيكون له شأن عظيم في تطهير البــلاد من عبادة الأوثان. حين سأله عــن اسمه قال إنه أثناسيوس كروز الديــار المصرية، فانجذب للنور المنبعث من وجهــه، وتبعه هو وشقيقته، حيث رسمــه أثناسيوس شماسًا، وأرسل شقيقتــه لتقيم في دير للراهبات، حتى بلغت سن الزواج فخرجت منه، وتزوجت وأنجبت طفلاً.

تركــت جورجيوس سعيــدًا بقوة ثاؤفيلوس الــذي لم ألتقِ به من قبل، وأدركت أنني صرت عجوزًا بما يكفي ألا أتابع كل ما يجريَ من حولي، لم أعد قادرًا على السماع أو الكلام بما يكفي، وساويرس وشنودة يبذلان

كل ما بوسعهما من أجل الدير، أما بنيامين فإنه يلازمني طيلة الوقت، وهو المسئول عن صناديق الكتب التي خصصنا لها مخزنًا أسفل جدار الجبل، حيث يطل جزء منه ليحميها من المطر، كما أنه الواسطة بيني والنساخ في ديرهم بالجبل الغربي، أما تواضروس ولاون فإنهما يجلسان أسفل شجرة السدر، يجيبان على أسئلة المبتدئين، كنت أمضي معهما المساء في شرح ما استغلق عليهما فهمه، حتى أصبحا قادرين على البحث في بطون الكتب وحدهما.

لم تمض شهور على تربع ثاؤفيلوس على كرسي مرقس الرسول حتى أرسل خطابًا يثني على سيرتي في صحبة أثناسيوس، وكوني رئيسًا لواحد من أقدم أديرة القلزم، طالبًا مني الحضور للتشاور بشأن ما يحتاجه الدير. علمنا أن أديرة أخرى جاءتها خطابات مشابهة، ولم يكن أمامنا غير جورجيوس لمعرفة ما يجري في الإسكندرية، لكن الأخير كان قد أصبح مشغولاً، فثاؤفيلوس كان راغبًا في توسعة نفوذه، وبدا أن لديه رغبة في جعل المسيحية الدين الوحيد في البلاد، فراح يبدي استياءه من المعابد الرومانية واليونانية، وسرعان ما أرسل للأديرة رافضًا تجسيد المسيح، لأن ذلك من أفعال الوثنية.

أنصتُّ لبنيامين وهو يخبرني بأمر الشجار الذي دار أسفل الهضبة، فقد تجمَّع عشرات الراغبين في السؤال عن تجسيد الرب، مختلفين مع بعضهم إلى حد التشاجر، سألته عن رأيه هو فقال إنه مع عدم التجسيد، وإن كان شنودة وساويرس مع التجسيد، وقد وعظا الناس بأن التجسيد تذكير بقيامة الرب من بين الأموات، كنت أدرك أن شنودة وساويرس أبناء خلص لثقافة هذه البلاد، حيث التاسوع الإلهي الذي يربط السماء بالأرض، ويمجد إيزيس في جمعها لأعضاء زوجها، الذي ينهض من بين الأموات ويهبها ابنهما حوريس، فقلت لنفسي إن زمن الفتن قد بدأ.

لم يمض كثير من الوقت حتى أرسل جورجيوس قائلاً إن الإسكندرية شبه محتلة، وأن البابا محاصر لا يعرف كيف يخرج من الكنيسة، فقد نزل الرهبان من أديرة نتريا والإسقيط والقلمون والقلزم يجوبون

شوارع الإسكندرية، منتظرين اللحظة المناسبة لينقضوا فيها على البابا. بعدها جاءتنا رسالة تقول إن البابا تراجع عن رفض التجسيد، وإنه سيحصد بمنجل النبي من يردد مقولات أوريجانوس.

بدا أن بنيامين كان مستاء من رسالة البابا، فبعدما أظهر فرحًا بالتجسيد في مواجهة ساويرس وشنودة وجد البابا يغير موقفه ويرحب بالمجسِّدين، أدركت أن الدير في حالة انقسام حقيقي، وأن من يجلُّون أوريجانوس سيعيشون أيامًا عصيبة، هززت رأسي وأنا أطلب من بنيامين أن يبلغ ساويرس رغبتي في رؤيته، حين جاءني سألته عن موقفه فقال إن البابا مع التجسيد، سألته عن رأيه في أوريجانوس، قال إنه يجله، لكنه لا يتفق معه في كل ما ذهب إليه، نظرت في عينيه قائلاً إن هذا الدير أمانة تحملناها من أبانوب وديمتريوس والملاح، هنا أقام أثناسيوس وأقر كل ما فيه، لدينا كنوز تخص كل أصحاب الرؤى والفكر، ومنهج منفتح على الجميع، ولسنا تابعين إلا لربنا القدير، فعلينا أن نحفظ أنفسنا بعيدًا عن الانحياز لأحد، وأن نبحث لكنوزنا عن مكان يحفظها من عبث اللصوص والمتنطعين. فهز رأسه مؤمنًا على ما قلته، وموقنًا أن عليه تنحية انحيازه لجمع الكل تحت عباءته، حينها طلبت من بنيامين أن يجمع الكتب التي يصعب على العامة فهمها، وأن يضعها في صناديق وحدها.

-٢٣-

لم تعرف دميانة ما الذي يمكنهــا أن تفعله بوثائق والدها، شعرت أنها أمام كنز يجب أن يعلم بأمره الجميع، لكنها لا تعرف ردة فعلهم، فهل ما زالوا على إيمانهم بفكرته أم أن الزمن مال بهم إلى طريق مخالف.

نهضــت من مكانها وقررت الذهــاب إلى المستشفى كي تتابع إجراءات خــروج أمها، كان نائل وأحمد قد اتفقا على إقراضها المبلغ الذي تحتاجه، حــين التقت بهما أخبرتهما بشأن جمعيــة أوريجانوس وأعضائها، وقالت بفــرح واضــح أن إيمانويل وباخوميوســ كانا من المؤسســين، وأن ثمة أعضاء يحتلون الآن مراكز مهمــة في الكنيسة وخارجها. نزلت الكلمات علــى وجوهنا بمزيج مــن الفرح والدهشة، وضاع وقــت في التفكير فيما يمكن عمله، وفي النهاية قرروا تأجيل الأمر لحين خروج تريزا.

ذهبت مــع دميانة إلى المستشفــى، وعاد نائل وأحمــد إلى عملهما، في الطريق سألتنــي إن كان أنطونيوس كان يعلم بأمر الجمعية أم لا، ظننت أننــي أستطيع الجــزم بأنه لم يكن يعرف، لكنني تــرددت، لم تنتظر مني ردًّا، فقد أخذت تتحدث عن اجتماع عقده يؤانس في جبل الطير، حضره عدد من الجماعات المناهضة للبابــا الجديد، جميعها ترى أن أوريجانوس مهرطــق، جميعها يحركها رجال ينتمــون إلى الماضي، ولا يرغبون في التنــازل عن مكاسبهم. وما إن وصلنا معهــد ناصر حتى تركتني قائلة إن عليها الذهاب للكنيسة، فثمة ما يجب أن تستوضحه من الأسقف الكبير.

عشت ما يقرب من ساعتين في دوامة إنهاء الأوراق المطلوبة للخروج، بعدهــا أحضرت كرسيًّا متحركًا وأنزلت بــه تريزا من الأسانسير الكبير، ثــم اتخذنا تاكســي إلى البيت، في الطريــق سألتني عن دميانــة، أخبرتها بأنهــا ذهبت للقاء الأسقف الكبير، عسى أن يساعدها على مواجهة يوساب

ورجاله، فهزت رأسها قائلة ويؤانس أيضًا. علمت أنها تعرف عن يؤانس ما لا نعرفه، فسألتها إن كانت تراه خيرًا أم شريرًا.

– وما الخير والشر؟

هكـذا أجابتنـي سـؤالاً بسؤال، ولم أعـرف بم أرد عليهـا، فالتزمت الصمـت باحثًا عن إجابـة مناسبة، حين طال صمتي قـررت هي التدخل لإنقـاذي، قالت إن أحـدًا لا يعرف ما هو الشر ولا ما هو الخير، فالجميع يتصـور أنه يسعى لمنع السماء من السقوط على الأرض، دون أن يدري أنـه مـن أجل ذلك يقتـل في طريقـه كل الذين رفعـت من أجلهـم السماء وخلقـت لهم الأرض، الكل لا يرى إلا ما يعتقده فقط، بينما الخير والشر متلازمان في جسد واحـد، هكذا كان صلاح متري يتحدث وهو يقرأ من كتـاب لأوريجانوسـس، كان يشرح لي لمـاذا يتمسك بموقفه بينمـا يؤانس متمسك بموقفه، لكن الفارق بينه وبين يؤانس أنه رافض للقتل، لا لشيء سوى أنه لا يعلم تمام اليقين إن كان على صواب أم خطأ، وحتى لو كان على صواب فإنه لا يعلم إلى أي مدى سيستمر هذا الصواب، فالحياة تتغير والبشر ليسوا قطع شطرنج ولا قطارات تسير على قضبان ثابتة.

حين امتدحـت لتيريزا ثقافتها نظـرت لي مبتسمة، ثم شـردت بذهنها قائلـة إنها حاصلة على دبلـوم تجارة في زمن كان المتعلمـون فيه يعدون علـى أصابع اليد، كما أنها كانت بمثابـة سكرتيرة لصلاح متري، تعد له القضايـا، وتكتب المذكرات علـى الآلة، وتتابع معه مـا يجري في البلاد من أحـداث، وحين توفي أخـذت تعطي دروسًا لأبنـاء الجيران، "هكذا كانوا يتعاونون معي في تربية دميانة، وهكذا نجونا من الموت، فما زرعه والدها ما كان ليضيع هباء".

شعـرت أن تريزا تتمتع بحكمة كبيرة، وحسـدت دميانة لأن لديها أمًّا مثلهـا، وتساءلت بحزن في نفسي عـن أبي وأمي اللذين تركاني على باب ديـر في صباح بـارد، أخفيت ألمي في نفسـي ووقفت أساعـد تريزا على النـزول من التاكسي، حين رآها الجيران تدافعوا للسلام عليها، أخبرتهم أنـه من المجهد لهـا أن تصعد السلم علـى قدميها، فتطـوع بعض الشباب

بإحضـار كرسـي وصعدوا بها، هـي بدورها أخبرتهم أننـي ابن أختها، وأننـي منذ اختفاء دميانة أقوم برعايتها والتردد على بيتها، أكدت كلامَها جارتهـا سيمون أم مايكل، وكانت شهادتها حاسمة في أمر الترحيب بي، واعتباري واحدًا من بينهم.

مـا إن استراحت في بيتها حتى طلبت منـي أن أذهب لغرفة المكتب كي أبـدأ فيما اتفقت عليه مع دميانة، حين ترددت نهضت من مكانها وأخذتني إلى الكرسـي الجلد العتيـق قائلة هنـا كان يجلس صـلاح، وأشارت إلى منضدة بالقـرب من باب البلكونة قائلة وهناك كنـت أجلس أنا، حيث آلة الكتابة التي باعتها دميانـة واشترت طابعة كمبيوتر، ومدت يدها إلى زر تشغيـل الجهاز النائم أسفـل المنضدة، حين أخبرتها أننـي لا أعرف كيفية التعامل معه، جلست وفتحت صفحة بيضاء قائلة:

– اضغط على هذه الحروف وسوف تظهر أمامك على الشاشة.

كان نائـل قد أحضر لي هاتفًا، حين سمعت صوت صفيره وقرأت اسم دميانـة عليه فتحته على الفور، قالت إن ثمة تفجيرًا مريعًا وقع في الكنيسة الكبيرة، وعلينا أن نفتـح التلفاز لنتابع ما يجري، ثم طمأنت أمها إلى أنها في مكان آمن، وأن هناك من يبلغها سلامه، فارتسمت على ملامح تريزا ابتسامة شاحبة وهي تغلق الخط.

كان مشهـد التدمـير كبـيرًا ومرعبًـا، وكان الجـيران الذيـن يأتون للاطمئنان علـى تريزا يتحدثون برعب واضح، قالـت إحدى الزائرات إن أختهـا كانـت في الكنيسة ولا تعرف مصيرها حتـى الآن، ثم سرعان مـا طلبت منـي أن أذهب لأم مايكل طالبًـا منها أن تأتي لتعـد لنا طعامًا، فأخبرتهـا أنني كنت أمارس الطبخ في الديـر سرًّا، ولدي أكلات رائعة، هزت رأسها مستسلمة، فنهضـت أبحث عن شيء يصلح للطبخ، لكن كل ما استطعت التعرف عليه كان البطاطس.

في الليـل عادت دميانة وتحول مكتب صلاح متري إلى غرفة اجتماع لنـا، فقد أنهى نائل وأحمد عملهما وأتيـا للاطمئنان على تريزا، جلسنا في نفـس المكان الذي كان يجلـس فيه أعضاء جمعيـة أوريجانوس القدامى،

وأخذنا نتداول الأخبار، قالت دميانة إنها كانت في غرفة الأسقف الكبير، وإن حديثها معه هو الذي أخره عن موعد عظته الأسبوعية، ولا تعرف إن كان هو المقصود بالتفجير حقًّا، أم أن التفجير كان مجرد رسالة، قالت أيضًا إن الأمن وجَّه التهمة إلى داعش التي لم تتبنَّ الحادث بعد.

السؤال الذي طرأ على أذهاننا فجأة كان عن أنطونيوس، فقد ظهرت صورته على إحدى صفحات مواقع التواصل الاجتماعي، وسرعان ما تداولها الناس بصيغة التساؤل عن ماهيته، وفهمنا أن ثمة من يسعى للزج باسمه بوصفه الفاعل، أو طرف خيط يمكن من خلاله الوصول إلى الفاعل، تساءل نائل بدهشة إن كان من الممكن أن يكون لأنطونيوس علاقة بالأمر، وأخذ أحمد يتجاوب مع فرضياته، لاحظت أن وجه دميانة كان يتلون بشتى ألوان الطيف، بينما عيناها تغوصان في محجريهما وهي على وشك الصراخ، لم يكن أمامي سوى أن أنهض إلى حيث وضعت عباءة أنطونيوس الكهنوتية السوداء، وصليب باخوميوس الكبير الذي ورثه عنه أنطونيوس، فرفعتهما على يدي قائلاً:

– كيف يفجر الكنيسة بهذه الملابس وهي هنا؟

كان سؤالي بمثابة وضع النقاط على الحروف، ففتحا عينيهما بدهشة، وراحا يعيدان التساؤل نفسه، بينما نهضت دميانة من كرسيها لتحدثهما عن أنطونيوس، هذا الذي لا يعرفانه، ولا يمكنه أن يفكر في عمل كهذا، أنطونيوس الذي ظهرت له العذراء، وحاربه الجميع في دير الملاح كي لا يعترفوا له بالقداسة، كيف يمكنه أن يسهم في قتل نفس واحدة.

كانت كلماتها سريعة وأسئلتها كطلقات الرصاص المتوالي على الرءوس، حتى أنني نفسي وقفت صامتًا لا أستطيع النطق بكلمة، وتأكد لي أن دميانة تعشق أنطونيوس، وأنني مهما فعلت فليس لي نصيب منها سوى الأخوة على أفضل تقدير. هززت رأسي وابتلعت أفكاري في جوفي وأنا أشاهد أحمد ونائل منبهرين بذلك القديس، وفي النهاية تساءلت دميانة عن الوقت الذي التقطوا فيه صورة له بهذه الملابس، فقلت إنه كان

قد ذهب مع تريـزا إلى الكنيسة، فتركتنا وذهبت لأمها. قالت تريزا إنهما ذهبـا لأسقف التحقيقات ليسألاه عن سبـب غياب دميانة، لكن أنطونيوس طلـب منهـا أن تتركه وتخـرج، بعدهـا رأت عددًا من طـوال القامة في طريقهـم للدخول عليـه، ورأت أنطونيوسـ بملابسه السـوداء وصليبه الكبير يترنم بصوت واضح وجميل نشيد الأنشاد، حتى أن الكثيرين كانوا يـرددون معه، ويمشون في معيته وكأنهـم يحرسونه، فلم يستطع طوال القامة الاقتراب منه، حتى وصل إلى باب الكنيسة، وبعدها لا أعرف أين ذهب، حتى رأيته من جديد في غرفة العناية المركزة.

-٢٤-

رسائل أوريجانوس (١٩)

استشهـد أمبروسيوسـ وفقدت المحبـة التي كانـت في حياتي، لم يكن استشهـاده من أجل مال ولا نساء، لكنـه كان من أجلي، فقد سمع شرطيًّا يصفني بالمهرطق فاشتعل الغضـب في جسده، وأمسك بالشرطي وصفعه علـى وجهه، قائلاً إن النعـل الذي أرتديه أصدق منـه ومن رئيسه ومن ملكـه وإمبراطوره، حملهـا الجندي وذهـب إلى قائده، فخـرج الأخير بكتيبـة من الجند في كامل عتادها، كما لو أنهـم اكتشفوا فجأة الوجهة التي يكمـن فيها الأعداء، فدهسوا كل شيء في طريقهـم من أجل الوصول إلى بيـت أمبروسيوس، لم يطرقـوه ولم يستأذنوا في دخولـه، لكنهم أعملوا فيـه أدوات نقـب الحصـون والقـلاع حتى هدمـوه على رءوس العبيد والنساء، بعدها وجـدوا أمبروسيوس جالسًا في مكتبته العملاقة كما لو أنه في انتظارهم، وهـو يقرأ في كتاب المبادئ، نزعـوه منه، وصفعوه على وجهـه حتى أغشي عليه، ثـم جروه خلفهـم إلى أن أخرجوه مما بقي من البيت، وأشعلوا النـيران في الشجر والحجر، فظلت ألسنتها تطلق دخانها علـى رءوس أهل قيصرية أسبوعًا كامـلاً، دون أن يجرؤ أي منهم على الاقتراب منها.

لم يكن السجن في انتظار أمبروسيوس، لكنه العذاب الأليم، فقد احتفلوا بـه بينهم مدة أيام، تناوبـوا عليه بشتى صنوف العـذاب، قصوا له لسانه بمقراض حوافر الخيل، وخلعوا أظافره من أنامله، وصلبوه على صليب كبـير من الخشب، ثـم نسلوا عروقه من جسـده، وفي النهاية أخذوا جثته وألقـوا بها على قارعـة الطريق، فحمله عبيـده إلى الكنيسة، حيث انتشر الخـبر وعم الحزن في المدينة، فجاء ثيؤكتستوس لينظر إلى الرجل الكريم الذي بذل حياتـه من أجل أن يرد كلمة عني، بكـى ثيؤكتستوس، وبكت

قيصرية كلهـا، ووقف الجميع في القداس يتضرعـون إلى الرب أن يقبل أمبروسيوس مع الشهداء والقديسين.

لم أكـن أعرف بمـا سيجري، لم أكن أعلم أنني فـور دخولي قيصرية ستنظر العيون في وجهي وتبكي، دون أن يخبرني أحد بشيء، حتى أنني فكـرت في مختلف النوائب التي يمكنهـا أن تقع على رأسي، ومن بين كل الأماكن والشخوص خفق قلبي لصورة أمبروسيوس، وشعرت أنه أغلى ما يمكـن أن تصيبني الدنيا فيه، فلم أذهـب إلى بيتي، وقررت المرور به أولاً، هنالـك رأيت بيته الذي كان قبلة للجميع وأصبح ساحة للخراب، لم أستطع الوقوف من هول ما رأيت، شعرت أن روحي تنسل من ضلوعي كفـرعٍ شوك عفي، وسقطت على الأرض كخرقـة بالية، كل شيء كان محترقًا، حتى ما بقي من الجدران والحوائط والرمال، كل شيء اشتعلت فيه النار حتى تهدم على نفســه، شعرت بالنار والأسى ينزلان على قلبي ككومـة من الصخر، سألت عـن أمبروسيوس ولم يجبني أحد، كنت كلما سألت كانـوا يبكون ولا يخبرونـي بشيء، في النهاية جـاء ثيؤكتستوس فاحتضننـي وبكـى، صددته مرات وأنـا أصرخ في وجهـه عما حدث، ولطولِ بكائه وصمته وضعـت وجهه بين يدي، وأنا أنظر في عينيه بقوة سائلاً بخوف واستنكار عن آخر ما يمكن أن يحدث:

– هل مات أمبروسيوس؟

فبكـى، وصرخت وأنا أفترش الأرض غائبًا عن الوعي، وحتى الآن ما زلت أشعر بوخز في قلبي كلما تذكرت ثيؤكتستوس وهو يطأطئ رأسه بالإيجـاب، لم يهـزني حزن مثلما هـزني رحيـل أمبروسيوس، وظللت أسابيع ما بين الحياة والموت. كانت رحلتي لبلاد العرب طويلة ومجهدة، وجزائي فيها كان رحيل أخلص أصدقائي وأقواهم وأحبهم، شعرت أن الإسكندريـة قد رحلت منـي إلى الأبد، وأن آخر الأهـل قد ولى، وحين علمـت كيف مـات ولأي سبب مات زادت حسرتي عليـه، تركت نفسي للحـزن حتى هدني ولم أستطيع القيام من فراشي، كنت أبحث عن طريقة لا تغضـب الرب لكنها تعجِّـل بي كي ألحق بصديقـي، تذكرت ما جرى

منــي، وما جــرى منه، وكيــف كان الشجرة التي كنــت أستظل بها طيلة حياتي، فأي حياة بعده إذن؟

أهــدر ثيؤكتستوس كثيرًا مــن الوقت في إنقاذي مــن الموت، وما بين أطبــاء ورهبــان وقساوسة وأمــراء توافــدوا للعــزاء، كان ثيؤكتستوس المسئــول عن كل شيء، وأنا لا أدري أي عزاء يمكنني أن أتلقاه في رجل استشهــد من أجل أن يرد كلمة عني، ولا أي جزاء يمكنني أن أوفيه إياه، فتركتهــم يمارسون عزاءهم لبعضهم بعضًا ورحت أترنم من أجل روحه بنشيد الأنشاد:

في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي، طلبته فما وجدته.

إني أقوم وأطوف في المدينة، في الأسواق، وفي الشوارع، أطلب من تحبه نفسي، طلبته فما وجدته.

وجدني الحرس الطائف في المدينة، فقلت أرأيتم من تحبه نفسي.

مضــت شهور وأنا لا أخرج من بيتي، حتــى أن النساخ تفرقوا عني، لكــن تلامذتي جاءوا مــن كل مكان، وجلسوا أمــام البيت، كل منهم معه قائمــة بأسئلة يريــد إجابتي عليها، بــدا لي أن ثيؤكتستوس هو الذي أرسل إليهــم. في البدء تصورت أن أحدهم لديه مشكلة في معنى آية التبس عليه، فأخــذت أتجاوب معه وأشرحها له، لكننــي لاحظت أنه ما إن يغادر حتى يحضــر غيره، وجميعهم يطرحون أسئلــة تحتاج لمزيد من الشرح، فقلت أريــح نفسي وأخرج للجلوس في مدرســة اللاهوت، وما إن فتحت الباب حتى وجدت عشــرات التلاميذ يجلسون أمام البيــت، جميعهم جاءوا من بلــدان بعيدة، أيقنت أن الأمر ليس عفو الخاطر، وان هناك من دبر ذلك وربما سيدبر غيره.

فتحت أبــواب المدرسة وجلست أنصــت إلى الأسئلة بوهن وربما بعدم رغبــة في الــكلام، فثمــة ضعف يكــبر في داخلي، وحــزن جعلني كبيت مهدم، لكن إصرار التلاميــذ الذين لم يعودوا تلاميذ دفعني لأن أتحدث، محاوراتهــم وجدلهم جذباني من الجــب المظلم كي أعود معهم إلى الحياة،

فأنخـرط في شرح وتفسير ونقاش وقراءة، ومـا إن علم النساخ بعودتي لعالمهم حتى جاءوا فجلسوا بجانبي، وتنافسوا على الكتابة خلفي، ثم أخذوا ينبهونني إلى الكتب والرسائل التي شرعت فيها ولم أكملها، فأخذت أعود إليهـا وأملـي عليهم، ومن بينها كتـاب كنت قد قطعت شوطًـا كبيرًا فيه، حيث أحصيت كل ما سمعته من هرطقات، وأقمت تصنيفًا بها وبأصحابها وبلدانهـم وأساتذتهم، ثـم أخذت في الرد على كل هرطقـة منها، وتبيان فسادها، ومغالطتها للنفس والروح والعقل وما ورد في الكتاب المقدس.

في الحقيقـة يا صديقـي ديونسيوس فإنـه لا يمكن للناس فهـم الكتابات الفكريـة في الديـن بعيدًا عن الصلاة، فلا بد من خِـبرة الاتصال بالله من أجل فهم الكتابـات المقدسة، فالدرب الأمثل للتعـرّف إلى الله هو المحبّة، ولا يمكن الوصول إلى معرفة المسيح حقيقةً دون الولع به، لذا فقد أوصيت تلميذي جريجوريوس في رسائلي إليه قائلاً:

– كرِّس نفسـك لِقراءة الكتابـات الإلهيّـة؛ وانكبّ على هـذا بِثبات. والتـزِم بالقراءة بقصد الإيمان بالله وإرضائـه، وإذا وجدت نفسك أثناء القـراءة أمام باب مُغلـق، فاقرع الباب وسيفتح لـك ذاك الحارس الذي قال فيه يسوع "الحارس سوف يفتحه له"، وفي انكبابك هكذا على القراءة الإلهيّة، ابحـث بصدق وثقة بالله لا تتزعزع عن معنـى الكتابات الإلهيّة التـي يتوارى فيهـا بشكلٍ كبير، لكـن لا ينبغي لك أن تكتفـي بقرع الباب والبحث، فكي تفهم أمورَ الله لا بدَّ لك من الصلاة، فلم يقل لنا المُخلِّص فقط "اطلبوا تجدوا"، و"اقرعوا يُفتَح لكم"، بل زاد على ذلك: "اسألوا تُعطوا".

أكـدت كثيرًا لتلامذتي في مدرسة اللاهـوت بقيصرية على قيمة المحبة وضرورتها بين البشر، فلا يعرف أحدنا فعليًّا الآخر بعُمق إلا إذا توفّرت المحبّـة وانفتحت القلوب. لذا حين يتحدث الكتاب المقدس عن الفعل الحميم في الحب فإنه يقـول "وعرَفَ آدمُ حَوّاءَ امرأتَـه فحمَلت"، فالمحبة معرفة وتزاوج، والمحبة توحد وتوالـد للمعرفة الأكثر أصالة. فمثلما أنّ الرجل والمـرأة "اثنان في جسدٍ واحد"، هكـذا يُصبح الله والمؤمن "اثنان في روحٍ واحِد". بهذه الطريقة تبلُغ الصلاة أعلى مستوى لها.

فالمعرفـة يا صديقي صلـة، والصلاة يمكنها أن تتطـور لتصبح حوار حـب حقيقـي، إلى أن يتملّـك الحبيب الإلهـيّ الإنسان بكليّتـه، فيرتعش بلمسـة الروح، ويستسلم بثقة بنوته لقلـب الآب.. لكن مثلما جاء في سفر اللاويـين، حيث حظر الله على هارون دخـول قدس الأقداس بعد موت ابنيه، فإنه إذا دخل أحد إلى الهيكل دون الاستعداد اللازم، ودون ارتداء الثياب الحبريّة، ودون تحضير التقدمة المُتوجِّبة، وجعل الله راضيًا عنه، فَسـوف يموت... هذا الأمـر يَعنينا جميعًـا، فالله يأمَرنـا أن نعلم كيف نحضر أمام مذبح الله.

و"نار الذبيحة" يا صديقي هـي الإيمان ومعرفة الكتابات المُقدسة، تلك النـار التـي لا يجب أن تُطفأ أبـدًا على مذبح مَن يمارسـ الكهنوت، وفي داخل كلّ واحد منّا أيضًا، ليس النار فقط؛ بَل الذبيحة أيضًا، ومن ذبيحته يُشعـل كل منـاً المذبَح، لكي يتّقـدَ دومًا. إذا ما تخلّيت أنا عـن كلِّ ما أملك وحملـت صليبي وتبعت المسيـح، فإنّي أُقدّم ذبيحتي علـى مذبح الله؛ وإذا أسلمـتُ جسدي لِيُحرَق، وكانت فيَّ المحبَّـة، ونلت مجد الاستشهاد، فإني أقدِّم ذبيحتي على مذبح الله.

-٢٥-

كانت سماء المدينة ملبدة بالغيوم، بينما أنطونيوس والقس يسيران في خطين متوازيين أمام البحر، يتحدثان عن أوريجانوس وكتاباته وأفكاره، مندهشان من قدراته على تحمل المشاق التي واجهته، ومختلفان حول علاقة ديمتريوس الكرَّام به، قال أنطونيوس إنه كان يغار منه، وقال القس إن الكرَّام كان يريد أن يفرض مزيدًا من النفوذ على الكنائس الأخرى، فاستغل ما حدث من أوريجانوس وأخذ يراسل الجميع، موسعًا من نفوذ كنيسته، وزيادة سطوته على الآخرين.

كان أنطونيوس قد انتظر في نهاية الصفوف منتبهًا لكل كلمة تخرج من فم القس عن ثاؤفيلوس، وما إن انتهى من عظته وتفرق الموعوظون من حوله حتى لحق به سائلاً:

- هل كان أوريجانوس على حق؟

بدت كلماته كما لو أنها مجرد سؤال عابر، لكن القسَّ توقف ناظرًا في عينيه متفحصًا إياه، فابتسم أنطونيًوس وهو يخبره أنه من محبي أوريجانوس، ويبحث عمن يدلُّه على الحقيقة، هنالك بدأ القس يتحدث، وكلما تحدث زادت الفتنة والحماس في كلماته، حتى أنه لم يشعر أن خطاه ابتعدت عن الكنيسة، وأنهما يسيران أمام البحر كما لو أنهما من خفر السواحل، نبَّهه أنطونيوس إلى هذا الأمر فتوقف وضحك، ثم سأل أنطونيوس عن بلده ولهجته وملابسه، فضحك الأخير وروي له ما جرى معه في دير الملاح، وكيف انتهى به الأمر لمشرد لا يعرف أين تأخذه قدماه.

كان القس يدعى صاموئيل، وكان يرأس هذه الكنيسة الصغيرة منذ خمس سنوات، قبلها كانت خدمته في دير سانت كاترين، حيث يوجد

في الجبال كثيرٌ ممن يحبــون أوريجانوس، حين علم أنطونيوس أنه ليس وحده شعــر أن الهواء بدأ يدخل رئتيه، وأن صدره يتسع وقامته ترتفع، وعينيــه تنظران للبعيد. حكى أنطونيوس عن أستاذه باخوميوس، وكيف مات معلقًا من عنقه في سقف قلايته، وأنه لم يملك سوى أن يتسلَّم من عنقه صليبه الكبير ويهــرب من الدير، دون أن يتمكن من تأدية واجب العزاء لأحد، أو حتى قبوله من أحد.

تأثر صاموئيل بما رواه أنطونيوس، وحكى له أنه تعلم على يد راهب يدعى دانيال، وسمع منه أنــه كان له صديق يدعى باخوميوس، يمكنهما الذهاب للقائه في دير سانت كاترين، فهو لا يزال يعيش هناك منذ أربعين عامًــا، رافضًــا السيامة في الكهنوت، قائــلاً أن أوريجانوس كان معلمًا، ولــو أراد أن يصبح قسًّــا ما اختار أن يخصي نفســه، فلا يمكن لرجل في قامتــه وعلمه ألا يدرك أن الإخصاء أمر رمزي وليس فعلاً واقعيًّا، وأنه حــين سمح لأصدقائه أن يسيموه قسًــا في قيصرية لم يكن إلا من باب رفع الحــرج عنهم، فقد طالبتهم العامة بــأن يعظهم، وكان ديمتريوس قد نهاه عــن ذلك لأنه ليــس قسًّا، ورغبــة في ألا يعرف الناس ســره سمح لنفسه بالسيامــة، وتحمَّل عن طيب خاطــر عقابه طيلة أربعــين عامًا، معلنًا في رسائله لتلميذه وصديقه البابا ديونسيوس أنه صفح عن الجميع، وأنه يحب الجميع، ولا يرى أن الله خلق الناس كي يتفنَّن في تعذيبهم، حتى أنه يوقن أن الشياطين نفسها ستخلص.

بدت رغبة أنطونيوس واضحة لصعود جبال سانت كاترين، والتعرف علــى الأب دانيال، عسى أن يكون على معرفة بباخوميوس الحبيب، فقد كان شماسًــا هناك قبــل أن يذهب في رحلة طويلة انتهــت بالإقامة في دير الملاح، تفهــم صاموئيل أحــزان أنطونيوس، ورغبتــه في الوصول لمن يمكن تقديم واجب العزاء له، فربت على كتفه قائلاً إنه سيذهب إلى سانت كاتريــن الأسبوع القادم، ويمكنــه المجيء معه، أمــا الآن فعليه أن يعود لكنيسته قبل أن تقرع أجراسها لقداس المساء.

لــزم أنطونيوس جدران الكنيسة طيلة الأيام المتبقية على موعد الذهاب لسانــت كاترين، كان يجلس طيلة اليــوم في المكتبة يقرأ ويتأمل، حتى أن

سعـدًا المسئول عـن المكتبة تصور أنــه سيكون بديلاً عنــه، وأبدى بعض الارتيـاب في أمره أمام صاموئيل، فطمأنه الأخـير بأنه قريبه، وسوف يذهـب معه لقضاء بعضـ الأمور التي تخصــه، هنالك أخـذ سعد يساعد أنطونيوسـ فيما يريده، لكـن ليس كل ما يحتاجه، فثمـة أمور كان لا بد أن يرتبهـا صاموئيل بمعرفتــه، كالصليب والملابسـ الكهنوتية، فالعبور إلى سينــاء يحتــاج إلى خطة، والشرطــة تحترم ملابسـ الكهنوت، لكن الإسلاميين الذين يظهـرون من تحت الأرض مطالبين السائقين بالتوقف بحثًا عـن الجنود، لا يمكن التكهـن بأفعالهم، وعلاقتهـم بالمسيحيين أكثر قسوة من علاقتهم بالشرطة، ففي الشهور الأخيرة مروا على القرى التي بهـا مسيحيون، وطالبوهم بدفع الجزية أو الرحيل، وكان ذلك سببًا كافيًا لأن يخرج الكثيرون من بيوتهم عابرين إلى مدن القناة في الجانب الآخر.

شرح صاموئيـل خطته، موضحًـا أنهما سيرتديان ملابسـ القسوس ويعـبران مـن نفق الشهيد، طالبًا مـن أنطونيوس ألا يتحـدث مع أحد في شــيء، تاركًا التعامل مع الشرطة له، فهـو يمر عليهم مرتين في الشهر، هـم يعرفونه وهو يعرفهم، وفي الجانب الآخر من النفق سيغيران ملابس القسوس إلى زي مدني بسيط يتشابه فيه المسيحي مع المسلم.

ما إن بـدأت الرحلة إلى الدير حتى سأل أنطونيوس إن كان يؤانس له سلطة هنا أم لا، ضحك صاموئيل موضحًا أن سانت كاترين لا يتبع كنيسة أو مجمعًـا مقدسًا، فمنـذ وضعت الإمبراطورة هيلانــة أساسه وهو يتمتع بحالــة خاصة، في البـدء كان كنيسة تجمع حولها عدد مـن الرهبان حتى عــرف باسم دير طور سينــاء، لكن حين توفيـت الإمبراطورة ثؤدورو زوجــة الإمبراطور جستنيان، وأراد الأخـير أن يكرمها فبنى لها كنيسة أكبر في المكان الذي تجلى فيه الرب لموسى، فعرفت بكنيسة التجلي، وبعد سنــوات رأى أحد رهبــان الدير في منامه أن القديســة كاترين تأمره بأن يصعد هــو ورفاقه الجبل ويحضـروا رفاتها ليدفنوه بديرهــم، فلما فعلوا عرف الدير باسم دير سانت كاترين.

كان أنطونيوســ يعــرف الكثير عن المكان وتطــوره، لكن صاموئيل كان يتمتــع ببراعة في الحكي، حتى أنه ظل ينصــت طيلة الطريق بدهشة

واضحة، وما إن اقترب الباص من مشارف الطور حتى ارتديا ملابسهما الكهنوتية من جديد، وترجَّلا مع الداخلين للمكان، وراحت عينا أنطونيوس تطالــع السور العالي، وكأنه بني ليكــون قلعة في قلب ملتقى الجبال. كان جبــل الطور واقفًا بشموخه المدهش مطلًّا علــى الرهبان من قبيل السماء، فاردًا عليهــم ظلاله المقدسة، تطلــع أنطونيوســ إلى الكنائس المنتشرة في الديــر، وراح يحصي ثمانية منهــا في المركز وثمانية على الجوانب، وفي الخلف القلالي، بينما كانتا كنيستا القيامة والتجلي إلى جانب مقبرة القديسة كاترين، كان بوده أن يتفقد كل شبر في المكان، لكن صاموئيل قبض على ذراعــه وانتحى به جانبًا كما لــو أنهما سيخرجان من الديــر، لكنهما التفا مــن خلف الكنائس والقلالي حتى وصلا إلى ما يشبه دشمة قديمة من زمن الحرب، فنزلا ثلاث درجات حجرية قبل أن يصلا إلى بابها الخشبي.

طــرق صاموئيل الباب برفــق من يتحسس قلب رجــل مريض، ولم يدخــل إلا بعدما سمــع حركة خفيفة عليه مــن الداخــل، كان أنطونيوس مندهشًــا كمــا لــو أنــه لم يكن راهبًــا ولم يعشــ في قلال من قبــل، وكان الأب دانيــال جالسًــا في صمت تام علــى كرسي من جريد، بــدا لهما أنه مستغــرق في صلاة خاصة، فجلسا على حافة السرير المصنوع من الحجر في انتظــار انتهائه منها. شــرد أنطونيوس بعينيه مــع الخيط الواصل بين السرير والكرسي والسقاطة الخشبية في الباب، أدرك أن دانيال حين يشد الخيــط تتحرك السقاطة فينفتح الباب، بعدها شعر بنسمة هواء تسري على وجنتيــه، دار بعينيه بحثًــا عن مصدر ذلك الهــواء المنعش، لم يجد سوى نافذة وحيدة يتأرجح فيها شعاع صغير من الشمس الموشكة على الغروب، تذكــر قلاية أستــاذه باخوميوس، وكيف كانت دائمًــا عامرة بهواء مشبع براوئــح النعناع، تذكــر أيضًا المشهــد الأخير له وهــو يتأرجح في فضاء قلايته، وتمنى لو يلتقي بأي من أهله كي يقدم لهم واجب العزاء فيه.

حــين انتهى دانيال مــن صلاته ركع صاموئيل أمــام كرسيه مقبلاً يده وصليبــه، تأمــل أنطونيوس ذلــك الصليــب الكبير المصنــوع من خشب الصندل، الموشَّى بالصدف على الجانبــين، شعر أنه نفس الصليب الكبير

لباخوميوس، وشرد بذهنه لذكرى قديمة، حيث الأب شنودة الذي ظهره له بين أعمدة وأطلال دير الأشمونين ليرويه بالماء الزلال، ويمنحه صليبه الكبير كأمارة منه لباخوميوس في دير المحرق، بدا لأنطونيوس أن الصليب الكبير هو كلمة السر في حياته، وانتابه يقين أن رحلته الطويلة قد أوشكت على الانتهاء، فنزل من مكانه مقبلاً يد دانيال قائلاً:

– تعبت.

هز دانيال رأسه، وألقى بنظره نحو الجالس أمامه باكيًا، ثم رفع يده في هدوء شديد ونزل بها على الحبل الواصل بين الكرسي والسقاطة فتحركت من مكانها، وانفتح الباب على طاقة كبيرة من النور القابل لابتلاع كل شيء، ففهم صاموئيل أنه آن له أن يترك ضيفه وحده، فنهض من مكانه مسلمًا نفسه للنور.

-٢٦-

رغب ثاؤفيلوس في تقوية نفوذ الكنيسة على الأديرة والرهبان، وكانت الأديرة القائمة في الصحارى البعيدة قد تأثرت بديانات الوثنيين الذين دخلوا المسيحية، فاستبدلوا المسيحَ بآلهتهم، وأخذوا يجسدونه على أشكال شتى، ما بين تماثيل من صخور وأحجار وما بين رسومات على الأبواب والجدران، وكان ثاؤفيلوس دارسًا لكتابات العلامة أوريجانوس ومحاوراته مع الهراطقة، فرفض تجسيد المسيح، موقنًا أن ذلك تشبُّه بالوثنية، وأرسل إلى صديقه إيسيذوروس ورفاقه المعروفين بالإخوة الطوال بعزمه على محاربة التجسيد، طالبًا أن يعضدوه في موقفه، فأرسل إليه إيسيذوروس بأنه سيبدأ من الآن في تطهير ديره والأديرة المجاورة من التجسيد والمجسِّدين.

خاض إيسيذوروس ورفاقه طوال القامة حربًا للدفاع عما آمن به صديقهم، لكن الحرب كانت لها نيرانها التي طالت الجميع، فقد رفض الرهبان التنازل عن مجسدات الإله وصوره، ووقف بعضهم غير قادر على تصور نفسه وحيدًا دون شيء يعضد إيمانه بالله الغائب، حتى أن أحدهم صرخ بحرقة:

- إنهم يحرموننا من الله.

هذه الصرخة التي تناقلها الرهبان من بعده في مختلف الأديرة، وخرجوا من قلاياتهم رافضين رسائل ثاؤفيلوس بالتزام الإيمان القويم، وزادوا في الأمر أن أصبحوا جماعات، وقرروا أن ينزلوا إلى المدينة كي يعلنوا للبابا عن رفضهم ما آمن به، كانت حشودهم تزيد وتكثر، وصرخاتهم تتواصل مع بعضها بعضًا رغم المسافات والصحارى والوديان والجبال، ووصل الأمر إلى دير الملاح، حيث كان شنودة

وساويرس مع التجسيد، فقررا النزول للمشاركة فيما دعا إليه رهبان نتريا والقلمون والإسقيط، كانت الصحراء ممتلئة برهبان يتحركون على الرمال كما لو أنهم قرروا أن يغطوا وجه الصحراء بلون ثيابهم، ما إن وصلوا إلى المدينة حتى توقفوا في الشوارع المحيطة بالكنيسة، منتظرين أن يخرج إليهم ثاؤفيلوس، كانت الحشود تزيد وتكثر حتى امتلأت الميادين والشوارع والأزقة، وفقد حاكمُ المدينة قدرته على ضبط الأمن وحماية الناس.

في البدء كان ثاؤفيلوس رافضًا ملاقاتهم، فأرسل نائب الإمبراطور إليه قائلاً:

- كثر الرهبان في المدينة.. وقل الأمن.. وتعطلت مصالح الناس، لا بدَّ من وضع حدٍّ لهذا.

لكن ثاؤفيلوس ظل على عناده، غير راغبٍ في قبول نصائح المخلصين له، بمن فيهم جورجيوس الذي أصبح مسئولاً عن حماية الكنيسة، فأرسل إلى الأديرة الرافضة للتجسيد كي تمده برهبان يواجهون من يفكر في دخول الكنيسة، لكنه في إحدى الليالي غير المقمرة هبطت الأرض بأحد رجاله، وعلم أن الرهبان المحاصرين للكنيسة يحفرون أنفاقًا لدخولها، وسرعان ما وقع واحد منهم فى يده ليكشف عن خطتهم في قتل البابا.

نقل جورجيوس الأمر إلى ثاؤفيلس، وأخبره أنه لم يعد قادرًا على حمايته، فالإسكندرية محتلة برهبان غاضبين، يهيمون على وجوههم في الشوارع صارخين باستعادة الله، ولا يمكن التكهن بأفعال أناس خرجوا لنصرة ربهم، ومن ثم فلا بد من سماعهم والتفاوض معهم، فأدرك ثاؤفيلوس أن ثورته فشلت، وليس أمامه سوى أن يميل مع جهة الريح، فأرسل لجورجيوس كي يخبرهم أنه على استعداد للقاء وفد منهم، فلما دخلوا عليه استقبلهم قائلاً:

- إنني أرى نور الله في وجوهكم.

كان ذلك إعلانه الأول عن تغيير موقفه، فهدأت الأنفاس واستبشرت الوجوه، وما لبث أصحابها أن خرجوا من الكنيسة راضين فرحين،

ليعلنـوا أن البابا يبارك كل مـن وطأت أقدامه أرض المدينة حفاظًا على الإيمان القويم.

غضب رفائيل مـن رسالة ثاؤفيلوس إليه، وأبدى رغم سنوات عمره التي تجاوزت التسعين ثورةً عارمة، حتى أننا وقفنا عاجزين عن تهدئته، والتزمنا الصمت غير قادرين على فتح أفواهنا بشيء، وبعدها دخل قلايته وأغلق بابها على نفسه، لتكون هذه بداية انسحابه من شئون الدير، تاركًا الأمر كله في يد ساويرس وشنودة.

وجـد ثاؤفيلوس ضالته في المجسِّديـن الذين التقى بهـم، فحوَّل إيمانه مـن أوريجانوس إلى جعله الشيطان اللعين، فعضـد صداقته بالمجسدين، وأرسـل لرؤساء الأديـرة الأخرى مهـددًا بحرمان من يتحـدث بتعاليم أوريجانوسـ، وكان رفائيل أحد الذين اختصهـم برسالة شديدة القسوة، مؤكـدًا أنه لن يسكـت على نشر الهرطقات مجـددًا، وأنه سيحصد بمنجل النبي كل من يخالف الإيمان القويم.

عزَّت علـى رفائيل نفســه، وغضب مـن محادثـة ثاؤفيلوس –الذي لم يسمـع به في زمـن أثناسيوس– بهذه الطريقـة، متجاهلاً قدره ومكانته وكونه أحد الذين خطـوا لائحة الإيمان بأيديهم، فراح غضبه يتصاعد في داخلـه، وكلما تحدث تصاعد حتى كاد أن يغشى عليه، غير قادر على أن يتصور أن هناك من يمكنه أن يهدده، أو يعلمه صحيح الإيمان، وكأنه لم يسمـع بأثناسيوس وهو يقول للناس ما غمض عليكم في عظاتي فاذهبوا به إلى رفائيل. كانت الكلمات تخرج من جوفه حارَّة كحمم بركان لا يهدأ.

ظللنـا ثلاثة أيام غير قادرين على الدخـول إليه، كل يوم نجلس تحت شجـرة السدر منتظريـن خروجه إلينـا، مناقشين أمر الرسالـة وما فيها وكيفيـة الرد عليها، كان غضبي كغضب أستـاذي رفائيل يتصاعد ويزيد كلمـا أعدنـا قراءتهـا، لكنني كنـت أقلل من حنقـي علـى ثاؤفيلوس أمام ساويرسـ وشنـودة، فكلاهما مع التجسيـد، ولا أريـد أن أخلق فتنة في الديـر، وكان ساويرس وشنودة يعيشان موقفًا صعبًـا، فهما مع التجسيد

وضد أوريجانوس، وهما مع رفائيل وضد ثاؤفيلوس، في نهاية اليوم الثالث نهضت من مكاني وتسحبت بخطاي نحو باب القلاية، ما إن طرقت عليه حتى وجدته يتحرك، دفعته فوجدته مفتوحًا، واربته ونظرت إلى الداخل فوجدت رفائيل نائمًا على الأرض ووجه في الرمل والحصى، ناديت ساويرس وشنودة فرفعاه معي على فراشه.

قلت لرفائيل وأنا أبكي حزنًا وغضبًا من أجله إننا لن نسمح لمتشدد كثاؤفيلوس أن يحتكر الله، ولا بد أن نرسل للمؤمنين بتنزيه الله عن التجسيد كي يتوحَّدوا للرد عليه، لكن ساويرس قال إن كل ذلك ممكن، لكن الأفضل ألا نتحمل أعباء حرب لا تخصنا، فثمة آخرون خاضوا حروبًا من أجل الدفاع عن عدم التجسيد، ولا يمكنهم أن يرفعوا راياتهم البيضاء فجأة لأن البابا غيَّر موقفه.

أثبتت الأيام فطنة ساويرس ودهاءه، فقد رفض الإخوة طوال القامة رسائل صديقهم ثاؤفيلوس إليهم، واعتبروه ينقلب على تعاليم أوريجانوس التي آمن بها معهم، وأرسل إليه زعيمهم إيسيذوروس قائلاً كيف يمكننا بعد كل ما فعلناه لمحاربة التجسيد أن نتراجع معتذرين فجأة عن خطأ اعتقادنا؟ كان إيسيذوروس حين تحول إلى المسيحية ثريًّا للغاية، فقرر أن ينفق أمواله الطائلة على الأديرة لمساعدة الرهبان، وكان ثاؤفيلوس صديقه الأكبر، حتى أنه رشحه ليكون أسقفًا على القسطنطينية، لكن أساقفة المدينة فضلوا عليه يوحنا ذهبي الفم، فعاد إلى ديره بصحراء الإسقيط مناصرًا لثاؤفيلوس في حربه على التجسيد، إلا أن الأخير غيَّر قناعته متحالفًا مع المجسدين، وتاركًا صديقه إيسيذوروس ورفاقه طوال القامة في موقف لا يحسدون عليه.

كان غضب طوال القامة أكبر من غضب رفائيل، وثورتهم على صديقهم ثاؤفيلوس أكبر من ثورته عليه، حتى أنهم رفضوا تسلُّم رسائله، فطلب الأخير من نائب الإمبراطور أن يرسل جنوده ليقتلعهم من أديرتهم، حدث ذلك في الوقت الذي قرروا فيه النزول من الصحراء

إلى المدينــة ليراجعوا صديقهم، لكن ثاؤفيلوس رفض استقبالهم، وهددهم بالحرمان والنفي.

كان إيسيذوروس حتى تلك اللحظة يتصور أن ثمة خطأ ما، وأنه من الممكن تداركه بقليل من التحاور، لكنه فوجئ باستدعاء ثاؤفيلوس للشرطة كي تلقي القبض عليه، فما كان منه هو ورفاقه سوى أن يخرج من المدينة مسرعين، ودون تفكير طويل وجدوا أنفسهم متجهين نحو الشرق، حيث ينتشر المؤمنون بأوريجانوس وتعاليمه في الجبال، مروا بالفرما ومنها إلى دير الوادي المقدس، فمكثوا مع رهبانه حتى وصلهم الخبر بأن ثاؤفيلوس عقـد مجمعًا مقدسًا حرمهم فيـه، وأن جندًا في طريقهم إليهم الآن، لم يكن أمامهـم غير الخروج إلى فلسطين، لكن أسقف أورشليم نصحهم بالذهاب إلى القسطنطينيـة، فهي المكان الوحيد الذي لا يمتـد إليه نفوذ ثاؤفيلوس، حيث يوحنا ذهبي الفم الذي لا يخشى لومةً في قول الحق.

عضـد ثاؤفيلوس تحالفه مـع الرهبان المجسدين مـن أجل القضاء على الوثنيـة، وكان السيرابيوم هو رمز الوثنية المتجـذرة بما يشتمل عليه من آلهـة رومانية ويونانية في مقدمتهـا الإله سيرابيس، وكان لا بد من هدمه كي يؤكد ثاؤفيلوس للجميع أسطورة أنه محطم الأوثان، فأمر ببناء كنيسة علـى مقربـة منه، وأثنـاء الحفر اكتشف الرهبـان أن المـكان كان مذبحًا لأحـد المعابد الوثنية القديمة، فأمرهـم أن يعرضوا كل ما وجدوه للناس، ووقف يعـظ المارة بأن المسيح نصره على الضـلال، ولا سبيل للخلاص إلا بدخـول المسيحية وتناول خبز الرب، كانت كلماته بمثابة صب الزيت علـى النار بالنسبة للوثنيين، فتجمعوا وقرروا أن يخلصوا أدواتهم من أيد ثاؤفيلوس ورجاله، بدأت المناوشات بين الفريقين، وتلقى رهبانه هزيمة واضحة، حتى أنهم أغلقوا على أنفسهم كنيستهم ثلاثة أيام، وحين خرجوا منها وجدوا الموضع الذي حفروه رُدم كما كان.

نصح جورجيوس أستاذه ثاؤفيلوس بأن يفعـل شيئًا كي لا تكون هذه نهايـة المسيحية في المدينة، فذهبـت رسائله لمختلف الأديـرة كي ترسل له

بكل مـن يمكنه نصرة الرب، فنزل شنودة ومعـه عشرة رهبان من دير المـلاح، وفي المدينة التقوا بجورجيوس الـذي أوكل إليه ثاؤفيلوس مهمة توزيـع القادمين علـى الأماكن والمهام، وكانت خطتـه هي افتعال شجار يعيـد الحرب لما كانـت عليه، فأخذ بنائيـه ومساعديهم للحفـر من جديد، وانتفض الوثنيون ليمنعوه، فهجـم عليهم جورجيوس وطاردهم برهبانه حتـى دخلوا السيرابيـوم وأغلقوا علـى أنفسهم، فأشعل النـيران فيه، ثم أخذت المعاول في هدمه.

وقـف نائـب الإمبراطـور في الإسكندريـة عاجزًا عـن ردع رهبان ثاؤفيلوس، وشعر أنه ليس أمامه سـوى مهادنة تلك الكائنات التي نزلت المدينـة لتهـدد حياة المقيمين بهـا، بينما أعلـن ثاؤفيلوس أنـه سيبني مكان السيرابيـوم كنيسـة باسم النبي دانيـال، وأطلق دعوتـه لرؤساء الأديرة بالتـبرع لبناء كنيستين باسم يوحنا المعمـدان والنبي دانيال، وبدلاً من أن يعود الرهبان لأديرتهم نزلت عدة آلاف أخرى منهم لينالوا بركة البناء، فأصبحـت الإسكندريـة حظيرة من أمضوا حياتهـم في بطون الصحراء، وكان علـى جورجيوس أن يوفر للقادمين مـن أديرتهم البعيـدة أعمالاً ينشغلـون بها، ومـن ثم فما إن انتهوا من بنـاء الكنيستين حتى أوضح لهم خريطـة المعابد التي يجب تطهير المدينة منها، وكانت خطته هي إقامة دير علـى مقربة من كل معبد، ثم افتعال شجار ينتهي بهدم المعبد وإقامة كنيسة في مكانه.

اعتـزل رفائيل الحياة في دير الملاح، وتـرك الأمر لساويرس كراع وأب للجميـع، وتـرك لي أن أستكمل ما كان يمليه عليَّ في كتابه، فرُحتُ أكتـب ما يرد إلينا من أخبار عما يجري في المدينة البعيدة، وما يتوارد إلى أذهـان الرهبان العائدين من حكايـات عما صنعوه في معابد الوثنيين، فقد شـارك شنـودة بإيمان حقيقـي في كل ما حدث، وكنـت ولاون من أكثر الذيـن نظروا إلى ثاؤفيلوس بوصفه من أطلق ريح الجنـون، بينما كان أتباعـه يرونه روح اللـه التي خفقـت بجناحيها لتحطـم الأصنام وتطهر البلاد.

أظهـر ساويرس حكمة بالغـة في إدارته للدير، إذ أرسـل مع شنودة عشـرة رهبان ليشاركـوا في نصرة الرب، ورسـم شمامسة يبشرون في القرى والقبائل المجـاورة، طالبين من الناس التبرع لبناء كنائس الرب، كانت سطوة الكنيسة قد أصبحـت قوية وواضحة، وكانت هزائم الوثنيين في الشمال تصـل أخبارها لمختلف البلاد، فتظاهر الأغنياء أنهم لا يعلمون شيئًـا، وبحنكـة السنـين اندفعوا للدخـول في مظلة الرب قبـل أن يستدير ثاؤفيلوس نحوهم، ضمنًّا المزيد من المؤمنين الجدد، ورحنا نرسل كغيرنا رهبانًـا لم يجلسـوا في الدير أكثر من شهور، كنا نوصيهـم باتباع ما يراه جورجيوس، ونحملهم السلام لشنودة ومن سبقوهم.

مـا أزعج ثاؤفيلوس هو لجوء الإخوة الطـوال إلى يوحنا ذهبي الفم، فقـد أرسل لـه الأخير مطالبًـا بعودتهم إلى أديرتهم كـي لا يرفع شكواهم إلى الإمبراطـور، كانـت هذه الرسالـة بمثابة صب الزيـت على النار، فقـد استشـاط ثاؤفيلوس غضبا، وأرسـل لأصدقائـه في القسطنطينية أن يمنعـوا إيسيذوروس مـن الوصـول للإمبراطـور أركاديوس، وكانت زوجـة أركاديوس على خلاف مع ذهبي الفـم، فقد حرمها من الاستيلاء على حديقـة لأرملة أحد النبـلاء، فلما علم ثاؤفيلوس بهذا الخلاف نزل مـن الإسكندرية إلى قصر الإمبراطور شاكيًا تدخـل ذهبي الفم في شئون كنيستـه، وتشجيعه طوال القامة للخروج على سلطته، فأمر الإمبراطور بعقـد مجمع مقدس لمناقشة شكـواه، في ذلك الوقت تنيـح إيسيذوروس، وانكسرت شوكة الأخوة الطوال من بعده، وعمل ثاؤفيلوس وأودوكسيا علـى أن تكون غالبية المجمع مـن أنصارهما، فجاء قراره بحرمان ذهبي الفم ونفيه.

-٢٧-

وصلت دميانــة إلى الأسقف الكبير في غرفته بأعلــى الكنيسة، وجدته كمــا تركته في المرة الأولى مكتئبًا وحزينًا ولا يرغب في الحديث مع أحد، انحنــت على يده وصليبه فقبلتهما، ثم أخبرته أنها جاءت إليه من الماضي، منذ نحو ثلاثين عامًا على الأقل، حيث شقة قديمة في منطقة سانت تريزا، وضعت عليها لافتة كبيرة تحمل اسم صلاح متري المحامي، وحيث غرفة مكتبــه التي تطل على الشارع، وقــد تحولت إلى مقر كبير لاجتماع أناس يؤمنــون برسالة أوريجانوســس في المحبة والخلاص للجميــع، حتى وإن كانــوا من المردة والشياطين، تلك الأمنية التــي أطلقها في رسالته لصديقه ديونسيوس قائلاً: وما ذنب الشياطين كي تعذب؟!

كان الأسقــف يسمــع وكأنه يــرى صلاح مــتري واقفًا أمامــه بقامته القصــيرة وعينيه المتسعتــين وابتسامته التــي تحتضن كل مــا حوله، وما إن انتهــت دميانة مــن حديثها حتى فتح ذراعيه مومئًــا لها بالدخول تحت جناحه، فارتمــت بين أحضانه آخذة في النشيــج، هدهد على كتفها ومسح على شعرها قائلاً:

- ابنة صلاح متري لا تبكي..

شعرت دميانة كما لو أنهــا استعادت أباها للتو، موقنة أن رحلة آلامها أوشكت على الانتهاء، مسحــت دموعها والتقطت أنفاسها وأخذت تروي له ما جرى معها. كان الأسقف ينصت وكأنه يعلم ما تتحدث عنه، ينصت ويهــز رأسه بحــزن واضح، في النهايــة هدهد عليها موضحًــا أنها ليست وحدها، فثمة كثيرون مثلها، يؤمنــون بما تؤمن به، وما غرسه أبوها لم يذهب جفاء، ولا بد أن يؤتي حصاده.

أعادت كلمـات الأسقف الكبير اليقين إليها بأنها ستنتصر على الظلام، لكـن المبنى الذي كانـت تقف أمام أعلى جـزء منه اهتز فجـأة إثر انفجار عظيم بالكنيسة المجاورة، وتعالى الصراخ والغبار والفزع في كل مكان، بينما اهتز الأسقف في كرسيـه، وتمايلت دميانة في مكانها كمبنى قديم آيل للسقوط.

تركـت دميانـة ملامح الأسقـف تتغير مـن الخـوف إلى الغضب إلى الصلاة من أجل الشهداء والمصابين، واتصلت لتطمئن على خروج تريزا مـن المستشفـى، أخبرتُها أننـا الآن في البيت، وأن تريـزا بصحة جيدة، وأخبرتني بالحادث الذي هـز أركان الكنيسة، وفي النهاية طمأنتْ تريزا على نفسها، وأنها مع الأسقف الكبير.

ما إن أنهـت حديثها معنا حتى وجدت العديد مـن الأساقفة والقساوسة يهرعون إلى السطح، جميعهـم كانوا راغبين في الاطمئنان على الأسقف الكبير، مؤكدين أن تأخره عن عظته معجزة أنقذته من الموت، كانوا جميعًا منشغلـين به أكثر من أي شيء آخر، حتـى أنها شعرت أن أحدًا لا يرها، وكأنهم أصيبوا بالعماء تجاهها، فتسحبت في هدوء من بينهم إلى الخارج، حيث غيرت وجهتها عدة مرات قبل أن تصل إلى الشارع الكبير، فتذوب بين مئـات البشر الذيـن توافدوا للاطمئنـان على ذويهـم، ولتصل بيتها بعد معانـاة طويلة، وتقضي نصف ليلها الأول في عـزاء من استشهدوا، والنصـف الآخر في اجتمـاع عاصف مع أحمد ونائل، ثـم مساءلة تريزا عـن زيارتها مع أنطونيوس للكنيسة، ومع تباشير الصباح باغتت الجميع بأنها ستذهب للإبـلاغ عن أنطونيوس، ليس بوصفه مفقودًا ولا بريئًا من التهم الموجهة إليـه، ولكن لتأكيدها، موقنة أن هـذه هي الطريقة الوحيدة التي ستجعلهم يقدمون على اقتحام الدير وتفتيشه.

لم نكن راضين عن فكرتها، وبدا لنا أنها أصيبت بنوبة جنون، لكن أمام إصرارهـا وافقنا على خطتها، فذهبت مـع أحمد ونائل إلى قسم الشرطة، وجلستُ مع تريزا نحكي عن صلاح متري وشغفه بالحياة، لكن بعضًا من جاراتهـا جئن لها، فتركتهن يعددن الحوادث التـي راح ضحيتها أقباط،

مقتنعــات أن ثمــة مؤامرة تجري لتهجيرهم من البــلاد، مؤكدات أن من يترك بيته لمحتل فهو خائن.

جلس الضابط الكبير ينصت ويدوِّن في ورقة أمامه الأسماء والأماكن التي تذكرها دميانة، ثم نهض من مكانه وسلم عليها مؤكدًا أنهم سيتصلون بها ساعة القبض عليه، فتحت عينيها متسائلة إن كانوا لن يذهبوا إلى الدير الآن؟ فابتسم بقسوة وهو يخبرها أنهم سيبحثون في الأمر، لم يستطع أحمد ولا نائل التفوه بكلمة، والتزما الصمت كما لو أنهما لا يعرفانها.

في الطريــق أصرت على أن تعود وحدهــا، كان غضبها منهما لا يقل عــن غضبها مــن نفسها ومن الضابــط الكبير، رضخــا لرغبتها في السير وحدهــا، لم تكــن تعــرف إلى أين ستذهــب، لكنها كانت تريــد أن تكون وحيدة، فأخذت تمشي من شبرا إلى سانت تريزا عبر طرق جانبية، بدت لها المدينة وقد تغيرت تمامًا، بدت خطواتها ثقيلة وتائهة، لكنها كانت تعبر من بين السيارات في الطريق الواسع المتقاطع، وتنظر إلى قطارات المترو المعلقــة في الهواء، وتتطلع إلى أجواء السمــاء الخالية من السحب، زافرة بضيق واضح، بدت الدنيا في عينيها ضيقة وسوداء، ولا أمل في الخلاص لأحد، تساءلت في نفسها:

– كيف يمكن لإله أن يعذب من خلقهم؟!

مــا إن انتهت من جملتها حتى وجدت أحــد الرهبان طوال القامة واقفًا أمامهــا، تطلعت إليه برعب واضح وتمنت لــو بإمكانها أن تصرخ طالبة الشرطــة للقبض عليه، لكن شيئًا ما أوقــف قدراتها على التفكير، الراهب نفســه كان مهذبًــا للغايــة معها، وقف أمامهــا كما لو أنــه خرج من تحت الأرض هامسًا بحزم شديد:

– أبونا يؤانس يريد رؤيتك.

وقبل أن تفتح فمها بالرفض أو القبول كان قد أفسح لها الطريق مشيرًا نحو سيــارة سوداء تقف علــى بعد أمتــار منها، هزت رأسهــا باستسلام واتجهــت نحوهــا، فأسرع فاتحًا لهــا الباب الخلفي كــي تركب، وأسرع

للجلوس بجانب السائق، لم تكن دميانة تتوقع أن تجد يؤانس في السيارة بانتظارها، لكنها كانت تشعر أنها في حاجة للقائه، فثمة أمور لم تستطع فهمها، وثمة تفاوض لا بد أن يجري.

حين انطلقت السيارة بها جلست صامتة تطالع أوجه المحال والعمارات والباعة المتجولين والمارة الغارقين في هموم الحياة، كانت تفكر فيما يمكن أن تقوله ليؤانس، كانت أيضًا تفكر فيما يمكن أن يحدث لها، لكنها أزاحت كل هذا جانبًا وهي تغالب رائحة عطر رشه الراهب نحوها، فأخذت تحاول التمسك بالصور التي تمر في ذهنها دون جدوى، وسرعان ما غابت عن الوعي، فلم تستيقظ إلا على يد يؤانس في غرفتها بدير الملاح:

– حمد الله على السلامة.

هكذا قال يؤانس مشيرًا لرهبانه بالخروج، فاعتدلت في جلستها ونظرت من النافذة نحو سحابة داكنة في السماء، كانت تدرك أن فصل الربيع أوشك على الانتهاء، لكن المناخ لم يعد واضح المعالم، فلا الصيف صيف ولا الشتاء شتاء، لم تستبعد أن تجد هذه السحابة قد تحولت إلى مطر غزير:

– الله يسلمك.

لم ترد أن تتخذ الخطوة الأولى في الاشتباك معه، ولم تعرف سببًا لأن يعيدها إلى دير الملاح، ولا ما الذي يخبئه رجاله لها، لذا كان عليها ألا تثير غضبه، وتذكرت الحيلة التي مارستها مع رضا وزوجته في الصعيد، وكيف ظلت تمارس دورها كفاقدة الذاكرة:

– أين نحن؟

مسح يؤانس على وجهه بلكتا يديه وأظهر ابتسامة باردة:

– لماذا ذهبتِ للأسقف الكبير؟ وأين أنطونيوس الآن؟

هكذا تحدث يؤانس متجاوزًا عن حيلتها وما فكرت فيه، مثبتًا عينيه على وجهها كجمرتين من نار، كادت أن تقول إنها لا تعرف، لكنها شعرت

أن هذه الإجابة ستجعله يتركها لرهبانه، شعرت لأول مرة بالخوف منه، ورأت أن أنطونيوس هو الذي أنقذها من الرهبان ومن السلفيين، فأين هو الآن ليحميها من يؤانس.

هكـذا حدثت نفسها وهي تنظـر في جنبات الغرفة بحثًـا عن إشارة من أنطونيوس، نظرت في النافذة من جديد نحو السحابة الداكنة، لم يكن لونها ينبـئ بخير، تذكرت أن الشتاء انتهـى، وأن هذه السحابة في غير أوانها، تذكـرت أنها منذ صغرها لا تحب الفاكهة التي في غير أوانها، كانت تراها نبتًا شيطانيًّـا، ولا أحد يحب الشيطان، وحـده أوريجانوس الذي حاول أن يوجـد له مخرجًا من العذاب، ذاهبًا إلى أنه لو فعل ما فعله دون إرادة الرب فإن ذلك يعني أن له قوة وإرادة غير إرادة الرب، وهذا لا يكون.

– هل أوريجانوس أفضل أم الشيطان؟

نطقـت دميانة سؤالهـا دون أن تفكر فيه، حتـى أن يؤانس فتح عينيه وارتـد برأسـه للخلف، ليس لأنهـا فقدت عقلها، ولكن لأنـه لا يمكنه أن يجاريها في حديثها، فقديمًـا لم يستطع أن يجاري صلاح متري، وها هو الآن يجد نفسه أمام نفس الأسئلة بنفس الطريقة، فما الذي يمكن أن يقوله؟

– الرب أعلم.

نطقها وكأنـه يطهِّر نفسه من دنس سيلحق بـه، طيلة حياته كان ينظر لنفسـه بوصفه جنديًّا للـرب، ورسالته التي أمضى سنـي حياته من أجلها تكمـن في حمايـة المؤمنين مـن الضلال، لكنـه في السنـوات الأخيرة لم يعد يعـرف من الذي يجب عليـه أن يحميه وممن سيحميـه، فقد تقاربت الخيوط وامتزجت الألوان ببعضها، ولم يعد بمقدوره معرفة المؤمنين من المهرطقين، الكل أصبح مؤمنًا ومهرطقًا في نفس الوقت، الجميع أصبحوا ديمتريوسـ وأوريجانوسـ في نفس واحدة، يتحدثون عـن رؤية المسيح والعـذراء، كما يتحدث إيمانويل وأنطونيوسـ، ويدافعون عن الشيطان وأنصـاره، كما يدافعـان بالضبط، جميعهـم يدافعون باسـم الشيطان، ويهرطقـون باسم الرب، فارحمنا يـا قدير، ودلنا كيف نحميك من أنفسنا الشريرة.

-٢٨-

رسائل أوريجانوس (٢٠)

عزيزي ديونسيوس، لم يعد الكثير لأعترف به لك، فقد قضيت أيامي بعد أمبروسيوس كأنني شخص ميت، فقدت كل رغبة في الحياة، كنت أمارس أيامي باعتيادية شديدة، أستيقظ لأجلس في المكتبة أو مدرسة اللاهوت، أردُّ على أسئلة تلامذتي بفتور شديد، لا أرى جدوى من أي شيء، صرت أتأمل دائمًا أيامي الماضية، لم أعد أراني الأستاذ الذي اختلف مع رئيس كنيسته، وقرر أن يتحمل ضريبة هذا الاختلاف، رأيتني شخصًا مثيرًا للمشكلات، أينما ذهبت أثير المشكلات، وكل الذين ارتبطتُ بهم نالوا نصيبهم من حظي العاثر، جميعهم نالوا نهايات عصيبة، أولهم أبي، ليونيدس، وليس آخرهم صديقي أمبروسيوس، وما بين الرجلين عشرات المآسي التي مرت بي دون أن أنتبه لحضورها، طالما أقنعت نفسي أنني شخص قوي، مَن حولي كانوا يرونني ذلك الشخص الفولاذي، ويلقبونني بأوريجانوس أدمانتيوس، لقوة حجَّتي، ومضاء عزيمتي، وإصراري على النهوض رغم العقبات والكبوات التي واجهتني، لكنهم لم يروني من الداخل، كنت دائمًا مهزومًا خائفًا متوحدًا بنفسي، أمارس شططي كيفما أريد، ليس رغبة في الشطح والشطط، ولكن تحسبًا لأسوأ الفروض، فماذا لو أننا نعيش حلمًا طويلاً! أو أننا في دورة من دورات الحياة، ماذا لو أن الله لم يخلقنا بعد، وأننا ما زلنا محض فكرة في ذهن الخالق؟!

جميعها أفكار لم أحدث بها سوى نفسي، لأن العامة لن تتقبل القول بأن الله سيخلِّص الجميع، تجسد في هيئة بشرية، ووقف على الصليب ليبارك العالم، ويطلب الغفران للجميع، العامة لن تتقبل القول بأن الآب يحتضن

الخليقــة كلها، أما الابن فيهتــم بخلاص الخليقة العاقلــة وحدها، والروح القدس يعمــل في القديسين فقط. العامة تريد أن يكون الخلاص مكافأة لها وحدها فقط، على معاناتها في الحياة، دون أن تدري أن الكل يعاني مهما كان، فقد ولــد الجميع في المعاناة، ليس مهمًّا النظــر إلى جسد الملك، ذلك الملفــوف في الحرير والموشى بالذهب، فالأجــدى النظر إلى الروح، تلك التــي تشعر بالضيق، ولا تنام من كثرة الأرق والتفكير في المهام، العامة يــا صديقي لن يتخيلوا أن العذاب في الآخــرة سيكون للروح فقط، وليس للجسد، فالجسد فانٍ، أما الروح فإنها خالدة.

الــروح يا صديقــي هي الأمر العصي على الفهــم، خلقها الله أولاً، ثم سجنهــا في الجسد بسبب خطاياها في حيــاة سابقة، هي الجوهر الذي يجعل منا أشرارًا وأخيارًا، وهي التي أشعرتني بالغيرة من تلميذي ياروكلاوس حين رسمه الكرَّام قسًّا، بينما اعترض على رسامتي في فلسطين، هي التي جعلتني أظهر للعامة بعض تأملاتي وأنا أشرح سفر التكوين بالإسكندرية، فانزعــج الكرَّام وطلب عدم العــودة إلى تفسيره، هي التي جعلتني أصف خروجــي من مصر على نحو خروج موسى منها، وكأنني النبي والكرَّام الطاغيــة، وجعلتني أقول إن الشيطان إذا كان قد سقط بإرادته الحرة فإنه سيخلص بإرادته الحرة أيضًا.

ما إن بلغني خــبر وصول الإمبراطور ديسيوســ للحكم حتى شعرت أننــي سأخلص عما قريــب، وأن ما انتظرته طيلــة حياتي سيحدث، فعما قريــب سأنــال الشهادة التــي نالهــا أمبروسيوس، وأصعــد لألتقي به في ملكــوت السماء، بدأت حركتي تنتظم رغمًــا عني، كما لو أنني عدت إلى شبابي من جديد، وأخذ ذهني يصفو وينتبه إلى كل ما حولي، ونشطت في جمع نساخي ورحت أملي عليهم المتفرقات، كنت أتحدث في كل الأمور، وكأننــي أريد تسجيــل موقفي من كل شيء، تحدثت عــن الروح والنفس والخلــود والآب والابن والروح القدس، ووظيفة كل منهم، وكنت أميل لأن أضع لهم ترتيبًا، لكنني خشيت أن يُحدث ذلك فتنة بين الناس، فألمحت لما أريده بين السطور، وتركت الأمر للعلماء كي يستنبطوه، قائلاً إن الابن لم يأخذ جســدًا، ولكنه روح نزل من السمــاء، وأن المسيح احتمل الآلام

حتى من أجل الشيطــان! وأننا لا نستطيع الصلاة للابن إنما للآب، فجسد القيامــة قابل للفســاد، والملائكة لها غذاء روحــي، ودرجاتهم هي حسب السقــوط والعودة، والروح القدس محــدود في إمكانياته، والسيرافيم هم الابن والروح القدس المحيطون بالآب.

حين أعلــن ديسيوس أنه سيعيــد البلاد إلى عبــادة الأوثان من جديد، نكســ الناس رءوسهــم، وشعــروا أن مصيبة حطت عليهــم، وأن عهد ساويرســ سابتيموس قد عاد، لكنني شعــرت بالفرح وقرب الخلاص، وكثفت من جولاتي لأعظ الناس في الشوارع، حتى أنني كنت أعظ الجند أمام رؤسائهم، حين ألقوا القبض عليَّ وجدت معي في نفس القبو صديقي ثيؤكتستوس، كان القبو مظلمًا ومليئًا بالروائح النتنة، وكان الجنود لديهم أوامر بالقســوة الشديدة على كل من لا يسرع في تقديم الذبائح في المعابد، حــين سألني أحدهم إن كنت سأقدم أضحيتي للإله أم لا ضحكت، وأخذت أرفــع صوتي بالضحكات ساخرًا من طلبه، حتى أن من في القبو عرفوني مــن صوتي، فنــاداني ثيؤكتستوس من آخر المــكان، عرفته من صوته، وطلبــت منه أن يخبرهم من أكون، كي يعرفــوا الأضحية التي سأقدمها، فانهالــوا عليَّ ضربًا بجلود بها مسامير، لكن الذين يعذبون في القبو أخذوا يصيحون فيهم حتــى تركوني وأخذوا يضربونهم، كنــت أعرف أن هذه حيلة، فلا الجنود يريدون قتلي، ولا الذين كنت أعظهم بالأمس يريدونهم أن يستمــروا في ضربي، وفي النهاية جاء قائــد الجند وأغلق طوقًا حديديًّا ثقيلاً علــى عنقي، فوجدتني مشدودًا منه إلى جانب الحائط، فعلمت أن ما تمنيته ما زال بعيدًا عني.

جلست في السجن خمسة أشهر، لا أعرف الليل من النهار إلا من تغير وجوه الجنود المكلفين بالحراسة، كان التعذيب يجيء كالوجبات في أوقات ثابتــة، والجنود يتغــيرون في مواعيد ثابتــة، وعملهم يبــدأ بدفقة تعذيب وينتهــي بأخرى، طلبت منهــم أن يضعوني بجوار صديقــي ثيؤكتستوس لكنهــم رفضوا، وزادوا في الأمر أن عذبوه ليلة كاملة لأجلي، فعلمت أن ثمة مــن نصحهم بعدم القسوة علــيَّ، كي لا أموت بــين أيديهم، فما كان

منـــي إلا أن رفعت صوتي، وكأنني أحــدث ثيؤكتستوس، واعظًا كل من في القبو عن فضل الاستشهاد، وعــن المسيح الذي ضحى بنفسه، والآلام التي تطهرنا مــن الخطايا، وتقربنا من ملكوت السمــاء، وتمنحنا القداسة التي ينالها كل شهيد، كنت أتحدث كما لو أنني في مدرسة اللاهوت، حتى أن كل المعلقين بالسلاسل علــى الحوائط أوقفوا تأوهاتهم وأخذوا يرهفون السمع لما أقول، وما إن ظهر الجنود حتى شعروا أن ثمة تغيرًا قد حدث، فقد كان المسجونيون يطالبونهم بمزيد من الضرب والكي، كانوا يتعذبون ويضحكــون، وأنا أحثهم على اتخاذ الرب قدوة، فلو كان العذاب شرًّا ما ارتضــاه لنفسه، فطريــق الفردوس هو طريــق الآلام، ولا بد من قطعه حتى النهاية.

في ذلــك اليوم اغتــاظ الجنود، ووضعوني علــى صليب خشبي كبير، وثبتوا يديَّ عليه، كنت أشعر أن روحي تنسل مني، وفقدت الوعي مرتين أو ثلاثًــا، واستيقظت في كل مرة على كــيٍّ في منطقة جديدة من جسدي، أمضيــت ليال معصوب العينين موشكًا علــى الشهادة، كنت أرى الملائكة وهي تحفُّني بثيابها البيضــاء، منتظرة أن تخرج الروح مني كي تعطرها وتحملهــا إلى قدس الأقداس، لكن الــربَّ لم يقدِّر لي الفــوز بالشهادة، وتركنـــي أيامًا شبه فاقد للوعي، غير قادر علــى الحركة أو الكلام، أحلم أن تنطفئ النــيران المشتعلة في جسدي، وأن تتوقف جروحي عن النزف وأضلعي عن الأنين.

في هــذه الأيام راودتني أحــلام غريبة، من بينهــا أن البشرية عاشت في زمــنٍ ما حياةً تشبه حياة القبو الــذي نعيش فيه، وأن المخلوقات العاقلة كانت في ذلك الزمن مخلوقات غير مادية، لكن أرواحها عوقبت وسجنت في هذه الأجساد، رأيت أيضًا أن الملائكة من الممكن أن تصير بشرًا، وأن البشــر من الممكــن أن يصيروا شياطين، فهكذا تتغــير الطبائع، فقمت من نومــي أعظ في القبو بأن العذاب ليس عذاب الجسد، لكنه عذاب الروح، فالجسد فانٍ، أما الروح فإنها خالدة، وعذابها خالد.

-٢٩-

توقفت الحافلات على مسافة من دير سانت كاترين، وأخذ الرهبان يصعدون إليها كما لو أنهم ذاهبون إلى القدس، مؤتمرين بإشارات أنطونيوس وتوجيهاته، مصرين على إقامة عزاء للشهيد باخوميوس في الدير الذي أمضى به أغلب رهبنته، وأمام القلاية التي أسلم الروح فيها، مقيمين قداسًا جنائزيًّا خاصًّا به، غير عابئين بما يمكن أن يواجههم من عقبات.

كانت تلك أول مرة يخرج فيها كل هذا القدر من الرهبان من بين جبال سانت كاترين، دون أن يعلم أحد بوجهتهم الحقيقية، كان الأمر مثيرًا للانتباه ودهشة السلطات التي تراقب كل شيء بين الجبال، لكنها لا تستطيع أن تمنع تحرك الحجيج إلى أديرتهم، حين سألوا أنطونيوس عن الوجهة والسبب، قال إنهم ذاهبون لأداء واجب العزاء في أخ لهم.

كانت عيون الأمن قد رصدت منذ أسبوع حركة غير عادية لعدد الزوار القادمين إلى سانت كاترين، أغلبهم جاء بسيارات عادية وأوتوبيسات سياحية، جاءوا لزيارة الدير لكنهم لم يخرجوا منه، وأكدت العيون أن الدير وما حوله أصبح بمثابة ميدان كبير يعتصم فيه المتظاهرون، كان الأمر مقلقًا للأمن، لكن هذا ما أراده أنطونيوس ودانيال.

حكى لدانيال ما جرى معه منذ جاءه إيمانويل الطيب على الصخرة التي على هامش القرى، حتى التقائه بالقس صاموئيل، وكان دانيال يهز رأسه راسمًا شبح ابتسامة خفيفة، وكل فترة يمد يده ليضبط السماعة المعلقة على أذنه، وفي النهاية هدهد على كتفي أنطونيوس قائلاً أن يؤانس لا يؤمن بغير القوة، ولا بد من مواجهته بالقوة. ظن أنطونيوس أن الراهب العجوز يواسيه ببعض الكلمات، فنظر إلى وجهه المليء بالتجاعيد، وجلده

الذي أصبح رقيقًا ككيس من النايلون، وخطر على ذهنه أن يسأله إن كان يعرف دير النساخ، لكن دانيال هز رأسه مبتسمًا:

– كنت أحد الذين خرجوا من دير النساخ.

علم أنطونيوس أيضًا أن دانيال كان أستاذًا لباخوميوس، وأن صلاح متري التقى به وشرح لـه فكرته عن أوريجانوس، فعرفه دانيال على باخوميوس وإيمانويل، كان الأخير في زيارة للدير، فجلسا مع صلاح، واقتنعا برؤيته في التغيير، لكن الكنيسة رفضت فكرتهم، وثار جدل بسبب ذلـك، حتى أن البابا قدم عدة عظات امتدح فيهـا أوريجانوس ومكانته، لكنـه رفض قبوله في شركة الكنيسة، لا لشـيء سوى أن الباباوات الذين سبقوه رفضوا، ولا يمكنه مخالفتهم.

لم يفهـم أنطونيوس الكثير من إيماءات الأب دانيال، لكنه شعر أن ثمة مـن يقف معهـم في خندقهم، هدهـد عليه الأخير ووضع يـده على الخيط الرابط بـين الكرسي والسقاطة الخشبية فانفتح البـاب، خرج أنطونيوس من القلايـة ونظر إلى النجوم المرتسمة علـى صفحتها كوشم على جسد لا تشوبـه سوى الغيومٍ، وقف لا يعرف إلى أين يذهب في ذلك الوقت، لكن غربتـه لم تدم طويلاً، فقد كان القس صاموئيل جالسًا بجانب من القلاية، فصحبه إلى غرفة بمبنى الضيافة.

في الطريـق تذكر مبنى الضيافة الذي كانـت تنزل به دميانة يومين أو ثلاثـة في الأسبوع، تذكر كيف كان يتطلع بنظره لغرفتها مترقبًا ظهورها من الشرفـة أو النافذة، كان يقر في نفسه أن ما يفعلـه إثمًا سيعاقَب عليه، لكنه حين اعترف لباخوميوس بسره ضحك قائلاً إن بعض الأخطاء يحبها الرب، ومـن بينها الحب غير المدنس، فالحب الـذي تبحث فيه الأرواح عـن بعضهـا، وتتعذب في طريقهـا للقائه، هذا الحب هـو بعض من آلام الـرب في طريقه للصعود إلى الفردوس، فقد كان بإمكانه أن يصعد دون آلام، لكنه أراد أن يخبرنا أن طريق الفردوس هو طريق الآلام، وليس أمامنا سوى أن نحب ألمنا، لأنه طريقنا إلى الصعود.

أخذ أنطونيوس يصلي ما بقي من الليل في الغرفة التي نزل فيها بصحبة صاموئيـل، وحين نام كان النهـار قد أوشك على أن يمـلأ الدنيا بضوئه

الحلبيــي، شعر أنه لم يعد قــادرًا على الاحتمال، فجســده مهدود ورأسه مشتــت، مــال بجذعه علــى السرير نحو الوســادة الوحيدة وتــرك نفسه للأحــلام، كانت دميانة تناديه وهي جالسة علــى صخرة عالية، شعر أنه يعــرف المكان، فأخذ يدقق فيه حتى تذكــر أنه الصخرة التي على هوامش القرى، سألهــا عن سبب انتظارها في البرد أمام المغــارة، أجابته أن ثمة ذئبًا يــأكل الناس بها، حين نظر في عينيها اطمأنت، وانحنت برأسها على صدره، فمسح بيده على شعرها المجعَّد، ورأى شعرات بيضاء في رأسها، فحزن ورأى ذلك غير حسن.

مضــى وقت قبــل أن يــترك أنطونيوســ دميانــة وحدها علــى حافة الصخرة، كي يواجه الذئب الذي كان ينهش أجساد الناس، حين سد عليه باب المغــارة وجده أصبح ذئابًــا كثيرة، وكلما ألقى بواحــد منها من على الجبــل ظهر لــه آخر، حتى أنه لم يعــد قادرًا على الوقــوف، فرفع عينيه للسماء قائلاً بضعف واضح:

– تعبت.

هنالك تلاشت الغيــوم، وبرقت السماء، وشعر أن طاقةً جديدة سرت في روحــه، فنهض من مكانه ليكمل حربه مــع الذئاب، لكنه لم يجد غير الذئب الذي ارتعدت دميانة منه، وصرخت فيه من جديد أن ينقذها، كان ضخمًــا وقويًّا وله عينان تقذفان بضــوء كالنار، فبحث أنطونيوس بنظره عن شــيء يساعده على مواجهتــه، لكنَّ الأخير كشر عــن أنيابه وانطلق فجــأة كالسهم تجاه دميانة، ودون أن تفعل شيئًــا عبرها وألقى بنفسه نحو الهاوية، كما لو أن شياطين الأرض كانت تقوده نحوها.

استيقظ على صوت ناعم يناديه من الخارج، كان خادمًا أسود البشرة له صــوت ناعم كأصــوات الحريم، أبلغــه الخادم أن دانيــال ينتظره في قلايته، ولا بد من سرعة النزول إليه، أمضى أكثر من ساعة وهو ينتظر خــروج دانيال من صلاته، حــين انتهى منها ابتسم في وجــه أنطونيوس موضحًا أن معاناتــه أوشكت على الانتهاء، فقد شعر الآباء بالحزن لأجل باخوميوس، وقرروا أن يتلقوا فيه العزاء أمام قلايته.

حــاول أنطونيوس أن يشرح خطورة ذلــك، فرهبان يؤانس مدربين علــى القتال، ولن يسمحوا لأحد أن يحيي ذكرى باخوميوس وإيمانويل، فهز دانيال رأسه مبتسمًا:

– ماذا لو كان المعزُّون أربعة آلاف؟

دهشــ أنطونيوس مــن الرقم، ولم يستطع تخيــل مشهدهم على هضبة المــلاح، رآهم جالسين أسفل هضبة المــلاح، مغلقين الطريق على أي من يفكــر في الدخول أو الخروج، تذكر صديقيــه أحمد ونائل، وما يمكن أن يكتبــاه عن ثورة كهــذه، تصور لو جــاءت الشرطة وأحاطــت بالهضبة وطالبــت بفتح الأبواب ودخــول المعزين، وكاد أن يقبِّل يــد دانيال على فكرتــه المدهشة، لــولا أنه تذكر موقع الدير علــى الهضبة الحصينة، وأن الثغــرة الوحيدة التي بــه من جهة البحــر، حيث المغارة المليئــة بصناديق الكتــب، تذكَّر الممــر الرابط بينها وبين كنيسة المــلاح، ورفع عينيه لوجه الأب دانيال:

– وأين دور قاطع الطريق؟

لم يفهــم الراهــب العجوز ما يرمــي إليه تلميذه الجديــد، فمال بحاجبه مستفســرًا، رسم أنطونيوس جبال القلزم وعليهــا هضبة الملاح، وأمامها الصحــراء الشرقيــة يقطعها طريــق الرهبان حتى دير النســاخ، قائلاً إن الحافــلات ستتخذ الطريــق الموازي للجبال لتصل بالمعزِّيــن إلى الهضبة، لكن من الــذي سيسمح لهم بالصعود، هز دانيال رأسه منتظرًا أن يكمل، فذكَّره بدور قاطع الطريق الذي يفاجئ الناس من حيث لا يتوقعون.

– وماذا يريد قاطع الطريق؟

قالها دانيال بحماسٍ واضح، فابتسم أنطونيوس قائلاً:

– زورق وخمسة رجال يجيدون تسلق الجبال.

حين اكتمل ركــوب الرهبان في الحافلات أعطــى أنطونيوس إشارته لهــم بالتحــرك، فخرجوا على الطريــق في مشهد نادرِ الحــدوث، فليس معتــادًا أن تشهد الصحراء نحو خمسين حافلــة محمَّلة بالرهبان وتسير في

قطار واحد، وهو الأمر الذي جعـل رجال الأمن يتساءلون عن وجهتها وسبب خروجها، وكانـت إجابات أنطونيوس غامضة ومقتضبة، فهو لا يريد أن يثير حنقهم، وكل ما يحتاجه منهم هو بعض الخيال غير الضار، فسوف يبلغون رؤساء رؤسائهم، ويتصلون بالكنيسة الأم التي سيزعجها الخـبر، وسوف يراهـن الجميع على الحـذر واتخـاذ الازم، بما يضمن حمايـة الموكـب، حتى يصـل في أمـان إلى هضبة الملاح، حيـث اللوحة الكبيرة المكتوب عليها: "هضبة الملاح ترحب بالزائرين".

-٣٠-

تنيَّـح الأب رفائيـل في عامه الخامس بعـد المائة، تـاركًا فراغًا كبيرًا في الديـر، رغـم أنـه كان قد اعتزل الحيـاة منذ سنـوات طويلة، وترك ساويرسـ يدير شئون الدير باقتدار، بينما التحق شنودة وأكثر من خمسة عشـر راهبًا بالإسكندريـة، تلبية لدعـوة جورجيوس الـذي طالبهم بأن يظهروا إخلاصهم للمسيح، كانوا قـد تركوني في صحبة رفائيل كي أقوم على خدمته.

أرسلنـا لرؤساء الأديرة القريبة والبعيـدة بالنبأ، محددين موعد تشييع الجنازة، لكن أصـداء حرب ثاؤفيلوس على أوريجانوس وأنصاره ألقت بظلالهـا، فقد خشي الكثـيرون من حضور جنازة راهـب يخالف البابا، الجميـع كان موقنًا أن ثمة عيونًا للكنيسـة، ولا يريدون أن يكونوا منفيين عن أديرتهم كطـوال القامة، فاكتفوا بالصلاة لأجله في قلاليهم، ولم يكن أمامي أنا وساويرس وثلاثة من الرهبان العجائز وبعض الخدم سوى أن نجهزه لسفره الطويل، ونقيم له قداسًا جنائزيًّا فقيرًا، ثم نحمله وننزل إلى مقابر الرهبان، لندفنه بجانب أستاذه ديمتريوس.

شعـرت بعدها أن رسالتي انتهت، ولم يعد لي ضرورة في الحياة، فقد مـات الرجل الذي كان المنارة التي توضـح أفكار السابقين، وصار الدير مكانـا للأشبـاح، ولم تعد هناك أهميـة لشيء، فرفائيـل العظيم تنيَّح ولم يحضر جنازته سوى خمسة أو ستة رهبان، رفائيل المفسر الشارح يموت عاجـزًا عن قول كلمة حق في وجه بطريرك يهدد الجميع بالحرمان، فما جدوى وجودنا على الأرض؟ كان ذلك سؤالي لساويرس الذي لم يتمالك نفسه مـن البكاء، وأرسل لشنـودة ولاون قائلاً أنه يخشـى أن أفعل شيئًا ضـد مشيئة اللـه، فأرسلوا له أن يبعثني إليهم، حينهـا كلفني بحمل رسالة إلى جورجيوسـ في الإسكندرية، مطالبًا إيـاه بإعادة شنودة ورهبانه إلى

الديـر، فقدْ فقَدَ المـكان رائحة الحياة. صدقت الرسالـة التي أملاها عليَّ، وختمهـا بالشمع ووضعها في خرطوش يحميها من التلف، فتركته ونزلت متخذًا طريقي إلى الشمال.

كانـت الإسكندرية قـد أصبحت بمثابة دير كبير، ثمـة رهبان يمشون في الشـوارع كما لو أنهم يسـيرون بين القلالي والكهـوف، بدت المدينة العريقـة كأنها تصحَّرت وماتـت بها مظاهر الملك التـي طالما سمعت بها، المدينـة الزاهيـة التي لا ينقضي عيد فيهـا حتى يبدأ عيد آخـر لم تعد سوى ديـر كبير، شوارعها تحولت لساحات يعسكر فيها الرهبان، البعض يقوم بحراسة الآخرين كما لو أنهم في حالة حرب، لا أثر لاحتفال ولا زينة أو موسيقى، لا تجمهر إلا للرهبـان بملابسهم السوداء، الأمر الوحيد المبهج هو ذلك الموكب الذي انطلق من الميوزيوم إلى بيت الحاكم، تتوسطه عربة حربية زاهية الجمال، تتقدمها جماعات من الحرس وتتلوها جماعات من العبيد، تجلسـ فيها سيدة وعلى مقعد كأنه العرشـ، تلوح بيدها للعابرين الذين ما يلبثون أن ينحنوا تبجيلاً لها.

تصورتُ أنها زوجة الإمبراطور أو نائبه، لكنني حين سألت عنها قيل إنهـا من كبار المعلمـين في الميوزيوم، تلك المدرسة التـي تعلم فيها رفائيل في صغـره، وتعلم فيهـا أوريجانوس على يد أمونيوسـ السكاس وغيره مـن الرواقيين والأفلاطونيين الجدد، أيقنت كـم كان رفائيل عظيمًا، فلو استمـر به الحال في هـذه المدرسة ربما لأصبح في شهرة هـذه السيدة التي يقـال لهـا هيياتيا، التي يحق لهـا وحدها الدخـول في أي وقت على نائب الإمبراطور.

كان البابـا ثاؤفيلوسـ قـد عاد منتصرًا علـى غريمه ذهبـي الفم، هذا الذي مـات في منفاه في صحراء الإسقيط، وكأن مـن قسوة الزمان عليه أن جعله يموت في أرضـ الرجل الذي أصر على حرمانه ونفيه، وحتى الآن لا يزال رافضًا إعادة إثبات اسمه في قائمة الآباء المطوبين، رغم أن الرومان والأنطاكيين فعلوا ذلك.

كانـت البـلاد في حالة من الهـدوء الذي لا يسيطر عليـه سوى ظهور كيرلس ابن شقيقة الأنبا ثاؤفيلوس، تلك التي قيل إنها كانت مع ثاؤفيلوس

يوم سقطت الأوثان تحت قدميه، وأنها دخلت الدير حتى أصبحت في سن الـزواج، فتزوجت وأنجبت كيرلس الـذي تربى في رعاية خاله، فصار قسًّا ينوب عنه في كل شيء، بينما اعتكف ثاؤفيلوس تاركًا كل شيء في يده هو وجورجيوس.

وصلـت إلى شنـودة ولاون بمجرد أن قلت إنني مـن دير الملاح، فقد وزع جورجيوسـ الرهبـان حسب الأديرة التي جـاءوا منها، وأمر كل جماعـة أن تقيم بجانب معبد للوثنيـين، وما إن ينهدم المعبد حتى يبدأوا في تشييـد كنيسة مكانـه باسم أحد الشهداء أو أنبيـاء العهد القديم، كان رهبان الملاح يوجدون مع رهبان دير الأب باخوميوس أمام كنيسة النبي دانيال المقامة على أطـلال السيرابيوم، تمنيت لو أنني جئت في زمن رفائيل كي أرى هذا المكان وهو قبلة لمختلف الأديان، هززت رأسي ولم أعلق لمرافقي علـى شيء، لكنني ما إن التقيـت شنودة ولاون حتى سقطت في نوبة بكاء طالما أجَّلتها، فجلسـا يعزياني في رحيل أستاذي، موضحين أن أثناسيوس لو كان حيًّا ما وسعه إلا البكاء.

حين التقينا بجورجيوس رأيته قـوي البنية متَّقد العينين حازم الرأي، فقـد اعتاد أن يأمر والكل يجيب، بدا كملك لقبيلة من البدو الرعاة، سلمت عليـه بحياد وأنا أسلمـه رسالة ساويرس، فأعطاهـا لراهب يمشي خلفه، وسألنـي عمَّا بها، قلت إن ساويريس يريـده أن يعيد لدير الملاح رهبانه، فقـد أصبح مكانًا للريح والأشباح، أعجبته جملتي فابتسم ساخرًا، ثم طلب مني أن أفكـر في أمري وحدي، واستدار لشنودة قائلاً إنني من مظهري وملمس يدي لا أصلح لا للحراسة ولا للبناء، فأكدت كلامه بأنني أمضيت حياتي في صحبة أستاذنا رفائيل، أغمض عينيه وهز رأسه طالبًا له المغفرة من الـرب، وحين انتهى من صلاتـه السريعة مازحنـي متمنيًا ألا تكون هرطقاته قـد مست رأسي بشيء، بدا على وجهـي الغضب، لكنه ضمَّني سريعًا إلى صدره وهو يقول:

– كنت تلميذه أكثر منك.

لم يتركنـي جورجيوسـ أدخـل في المعارك ولا أعمـل في الحفر، فقد طلـب من كيرلس أن يضمنـي شماسًا قارئًا بالكنيسـة، فهز الأخير رأسه

ورسمنـي بعـد أسبوعين شماسًـا للخدمة بصحبتـه، لتبدأ حياتـي التي لم أتوقعها ولم أخطط لهـا، ولأصبح شاهدًا على أحداث لم يشهد مثلها سوى رفائيـل في صحبة أثناسيوس، فلـم يمض عامان حتى تنيَّـح ثاؤفيلوس، واختـار الأساقفة كيرلس ليكـون في كرسي الكرازة من بعده، لكن حاكم الإسكندرية أوريستوس لم يكن راغبًا في أن يكون كيرلس خليفة لخاله.

كان التوتـر يسود المدينة بين اليهود والمسيحيين، فقد حمَّلهم الأخيرون خطيئة صلب المسيح، ورد أحبارهم بأن يسوع بن يوسف النجار، وليس ابـن اللـه، وأن المسيح لم ينزل بعـد. فاشتعل الرهبـان غضبًا، شاعرين أن إيمانهـم قد أهين، فأعطـى جورجيوس أوامره لهم بالإغارة على حي اليهود، اشتعلت النيران فيه، وتلألأت سماء المدينة ومياهها بألسنة أضواء بيضاء وحمـراء ودخـان كثيف، ونهضـ أوريستوس علـى صرخات استنجـاد اليهود به، فقـد تهدمت معابدهم وبيوتهـم، وصاروا مطاردين في الشوارع، وعبثًـا حاول الجنود حمايتهم، فقـد كان الغضب جامحًا، وجورجيوسـ يريـد أن يحدد مسارًا لما هو قـادم، فكيرلس ليس ضعيفًا، وإن كان ضعيفًا فإن من حوله ليسوا ضعفاء.

وصلـت الرسالة جليـة إلى الحاكـم أوريستوس، فألقـى القبض على راهب يدعـى أمونيوس، كان رئيسًا لفريق من أبنـاء ديره، وقد نشطوا في مطـاردة اليهـود والوثنيين كما لـو أن السماء ستنطبـق على الأرض بسببهـم، فلما تمكَّن الجنود منـه رغب أوريستوسـ أن يرسل من خلاله لكيرلسـ رسالة مفادها أنـه لن يرحم أحدًا، ومن ثم أمـر جنوده بتعذيب أمونيوسـ أمام الجميـع، فراحوا يجلدونه بقسوة حتـى مات بين أيديهم. حين علم كيرلس بوفاتـه أعلن على الفور أنه شهيد، وأمر بكتابة اسمه في سجـل الشهداء، مما جعل الرهبان يوقنـون أنهم يقاتلون في سبيل الرب، وأن من يموت منهم سيكون مع القديسين في ملكوت السماء.

– لم أعـد قادرًا على حفظ الأمن، ولـن أكون قادرًا طالما ظل كيرلس في كرسيه.

هكــذا أرسل أوريستوس للإمبراطور، لكــن الأخير لم يهتم برسالته، نظــرًا لجهود أصدقــاء ثاؤفيلوس وكيرلس في التقليل مــن شأنها، وما إن علــم جورجيوس بالأمر حتى أرســل خمسمائة من رجاله لمهاجمة موكب أوريستوس، فحاصروه وهو عائد إلى قصره، وقاموا بتعنيفه وسبه أمام الناس، حتى أن أحدهم قذفه بحجر فشج رأسه، بعدها أرسل أوريستوس لكيرلــس قائلاً إنه لــن يتحدث عن تجــرؤ الرهبان على موكبــه، لكن ما يجري لليهود لا بد أن يتوقف، فرد كيرلس:

- إكرامًا لكم فإنهم يعودن إلى بيوتهم هذا المساء.

كان كيرلــس راغبًــا في أن يحتــل المكانــة التــي تحتلهــا هيباتيــا لــدى أوريستوســ، فدائمًا ما كانت تقطع شــوارع الإسكندرية بموكبها وعربتها المزينــة بالفضــة والذهــب، وكان أبنــاء الإسكندرية يعاملونهــا كملكة غير متوجة، وأوريستوســ لا يؤخر لها طلبًا، ويتباهى بصداقتها أمام الجميع. رغــب كيرلس في هــذه المكانة، فــترك اليهود يعــودون لبيوتهم، وأوقف زحــف الرهبان على معابد الوثنيــين، آملاً أن يشفع له ذلك في صداقة قوية مع أوريستوس، لكن الأخير رغم كونه مسيحيًّا فضَّل صداقة هيباتيا عليه، وكلما أمعن كيرلس في تقربه إليه أمعن أوريستوس في تبجيلها هي. حتى أن الرهبان شعروا بالإهانة من أجل سيدهم، وغذى جورجيوس فيهم الشعور بأن هيباتيا تحول بينهم وبين أن تكون الإسكندرية مدينة الرب الأولى.

تعامــل الرهبان مع كراهية جورجيوس لهيباتيا بوصفها رغبة المسيح، ولم يعترضــ كيرلس، فراح البعض يفكر في طريقة يخدم بها الرب على الوجــه الأمثل، وكان من بينهم قــارئ في الكنيسة يدعى بطرس، طالب أصدقــاءه بتطهير مدينة الرب من دنس هيباتيا المتباهية بكفرها، ونصحهم بــأن أفضل طريقة لذلك هي كســر كبريائها، فاتفقوا على أن يكمنوا لها في طريق عودتها مــن الميوزيوم إلى بيت الحاكم، وجلســوا بانتظارها حتى ظهــر لهم موكبها، ألقوا بالأخشاب في طريقه، وأخذوا يقذفونه بالأحجار مــن كل جانب، حتى هــرب الخدم وفــر الحرس وسقطــت العربة على الأرض، وجرتها الخيول بفزع على الطريق المرصع بالأحجار، فراحوا

يطاردون الخيل حتى انكسرت العربة وانفصلت عنها، فأخرجوا هيباتيا المرتعدة منهم، وتنادوا في المدينة أن الله نصرهم على شيطانة الكفر، فتجمع المزيد منهم، ومن فرط حماسهم جروها في الشوارع ليدخلوها الكنيسة، معتقدين أنهم سيجعلونها تؤمن بالمسيح رغمًا عنها، لكنها كانت قد فقدت وعيها، فجن جنون بطرس، وقرر أن يجردها من ملابسها ويلحق بها العار، وفهم البعض أن تلك إشارة الانتقام، فأمسك أحدهم بحجر وراح يقتل الشياطين التي في رأسها، وانتابت الجميع رغبة جارفة في التقرب إلى الله، فأخذوا يحضرون قطع الرخام ويضربونها بها، حتى أصبحت فطيرة من اللحم الممتزج بالتراب والدم والعظام المهشمة.

-٣١-

اتصلتُ بدميانة أكثر من مرة، لكن هاتفها كان مغلقًا، اتصلت بأحمد ونائل لأعرف سبب تأخرهما، وعلمت أنها أصرت على العودة للمنزل وحدها، مررنا على المستشفيات وأقسام الشرطة، وظللنا طيلة الليل نطمئن أنفسنا أنها بخير، لكن كلما لم نجد اسمها في مكان يزداد الشك في قلوبنا، كنا خائفين من العودة إلى تريزا، فماذا يمكن أن نقوله عن غياب ابنتها؟! واتفقنا في النهاية على القول بأنها ذهبت إلى دير الملاح مع الشرطة.

كانت تريزا في انتظارنا، جلسنا كالمهزومين في حرب طويلة، لم نعرف من أين نبدأ الكلام، لكنها وفرت علينا كل شيء، وقالت ووجهها مخضب بالدموع إنها تعرف ما حدث، اتصلوا بها وأخبروها أن دميانة معهم، حاولنا التخفيف عنها ببعض الكلام، حاولنا التهوين من قدرتهم على فعل أي شيء لها، لكنها رفعت يدها في وجوهنا بأن نلزم الصمت، ثم تحدثت وكأنها تجزئ الهواء بيدها، موضحة أنها في السابق لم تكن تعرف مكان ابنتها ولا سبب غيابها، وتجاوزت المحنة، فهل الآن وهي تعرف كل شيء لن تستطيع تجاوزها؟!

ظلت دميانة حبيسة مبنى الضيافة في دير الملاح، لا أحد يدخل غرفتها ولا يخرج منها، حتى النافذة التي تطل على سماء الدير وأرضه أغلقت، وصارت تتلقى طعامها مرتين في اليوم عن طريق خادم عجوز.

كان يؤانس قد وقع في نوبة من الضحك المختلط بالبكاء حين علم أنها كانت مع الأسقف الكبير يوم أن انفجرت القنبلة، وأن وجودها هناك هو الذي أخره عن النزول للعظة، حينها وضع يده على وجهه وأخذ يضحك ويبكي ضاغطًا على عينيه ومقدمة رأسه، حتى أنها ظنت أنه أصيب بنوبة من الجنون، وتمنى لو أن يهشم السرير والغرفة كلها عليها، لكنه انتفض

مـن مكانه صارخًا في رهبانه ألا تغيب عـن عيونهم، بعدها جاء الرهبان وأغلقوا النافذة والباب وتركوها تعاني هلاوس خوفها.

لم تعـرف سببًـا لغضب يؤانس بهـذا الشكل، حتى أنهـا لم تستطع أن تواجهــه بالأسئلة التي كانت تدور في رأسهـا، وظلت ليلتها الأولى تتوقع أن يدخـل عليها رجاله فيمزقوا ملابسهـا ويعتدوا عليها، أو يقذفوا بها من فوق الهضبة وينتهي أمرها، لكن حين غلبها النوم رأت أنطونيوس يمشي أمـام شياه كثيرة، واضعًا عصاه الكبيرة علـى كتفيه ويغني، ظلت تناديه حتى انتبه لها، حين سألها عن سبب وجودها في هذا المكان لم تجبه بشيء، ووقـف متحيرًا لفترة قبـل أن يضع الصليب الذي علـى صدره في الباب ويفتحه، أمسك بيدها وهـرولا في الصحراء، رأت أغنامه أناسًا، ورأت أمهـا تحتضنها وتبكـي، وأحمد ونائـل يهرولان خلفهما علـى الطريق، ومـلاك واقفًا بين قساوسة كثيرين ينظر في صحف قديمة، جميعهم رفعوا عيونهم عن صحفهم ونظروا نحوها وهي تهرول بين الرمال والكثبان.

جلسنا نحـن الأربعة على منضدة الطعام في بيـت تريزا كما لو أننا في مجمـع مقدس، كان الحـزن والضيق والعجز يمـلأ صدورنا، فكرنا في المـكانٍ الذي يمكـن أن يأخذها إليهـا يؤانس، كل الأماكـن كانت متاحة، فكرنا في جعله مضطرًا للحفاظ على حياتها، ولم يكن أمامنا سوى أن نعيد للأذهان قصة أنجيـل التي حدثت بسببها فتنة في الصعيد، وتساءلت تريزا عمـن قال إن ما يجـري لابنتها مسألة قبطية، موضحـة أن الدولة ملزمة بتوفـير حماية لها ولـو في أعماق القـلالي والكهـوف، ولا علاقة للدين بذلك، حينها تشجع نائل واستأذنها في الكتابة عما يجري، بينما طلب منها أحمد أن تصحبه لمقر عمله، حيث يمكنها أن تلتقي برئيس التحرير، وتقنعه بالكتابة عن الموضوع ولو في صيغة إعلان مدفوع الأجر.

توجهنا في الصباح إلى مبنى الجريدة التي يعمل بها أحمد، حين دخلت تريزا على رئيس التحرير انحنت على يده قائلة:

– أنقذوا ابنتي.

فوجئ الرجل ببكائها ورغبتها في تقبيل يده، فانتفض من مكانه ليجلسها في الكرسي المواجه له، حكت له ما جرى مع دميانة منذ تخرجت في كلية الحقوق، ورغبتها في أن تعمل محققة بالنيابة الإدارية، واستعانتها بأصدقاء قدامى لوالدها، ساعدوها على أن تعمل محققة في بعض الأديرة والكنائس، حتى عملت في دير الملاح الذي حاولوا قتلها فيه.

أوضح رئيس التحرير أن الكنيسة من بين المناطق المحرمة، فلا الكنيسة تتحدث عن مشكلاتها، ولا أحد يملك أن يتحمل مسئولية إحداث فتنة بين المسلمين والأقباط، ومن ثم فالجميع يعتبره شأنًا داخليًّا، لذا فأقصى ما يمكن عمله هو نشر صورة لدميانة مع مناشدة لإنقاذها، عسى أن يحدث ذلك ارتباكًا لمن قاموا بخطفها.

كانت جريدة نائل أخف حركة وأكثر جرأة، فقد سمحت بأن يكتب مقالاً كبيرًا يذكر فيه الناس بالفتاة التي أثارت فتنة في الصعيد، متسائلاً عن مصيرها وسر اختفائها، وتوافق مقاله مع الصورة التي نشرتها جريدة أحمد تحت عنوان "أنقذوا ابنتي"، وتوقع أحمد ونائل أن القيامة ستقوم، لكن لم يحدث شيء سوى أن امتلأ بيت تريزا بمزيد من الجيران والأقارب الذين جاءوا يواسونها في محنتها.

كان الإحباط قد بدأ يتسرب لنا، فقد مرت ثلاثة أيام بلا حس أو خبر، لكن نائل في اليوم الرابع فوجئ برئيس تحريره يطلب منه إجراء تحقيق موسع عن الفتاة وما جرى لها، هنالك جلس يكتب عدة حلقات نشر أولها في اليوم التالي على نصف صفحة، ورأيت صورتي إلى جانب صور دميانة وتريزا والبورتريه القديم الذي نشر لفتاة الصعيد، وأخذ يربط بين "أنقذوا ابنتي" و"فتاة الصعيد"، وذكر أحداثًا وتواريخ وأسماء كثيرة، من بينها يؤانس وأنطونيوس ويوساب وإيمانويل وصلاح متري والأمة القبطية وجمعية أوريجانوس. حتى أن الأمر بدا كما لو أنه صراع في الكنيسة.

كنا نتابع أصداء ما يكتبه نائل على صفحات التواصل الاجتماعي، موقنين أن يؤانس وصله الخبر، وأنه لن يستطيع أن يؤذيها، فقد أصبحت

شخصيــة يبحــث عنها الجميــع، وتوقعنا أننــا في لحظة أو أخــرى سنفاجأ باتصال منها، لكن الأمر سار في اتجاه مغاير، فقد استدعت الشرطة نائل لسؤالــه عن مصادره، وكان عليه أن يستشهد بــي كأحد شهود العيان في ديــر الملاح ودير المحرق، لكن الشرطــة رأت أنني شخصية وهمية، فلا أوراق تثبــت هويتي، ولا شاهد واحــد على أنني من أبنــاء الدير، وكاد الضابط المسئول أن يأمــر بسجني أنا ونائل لولا أن الأخير اتصل برئيس تحريره، فأظهر الرجل نوعًا من التعاطف وأفرج عنا.

لم نكــن نعرف إلى أي مدى أصبنا الهدف، فقد كنا مرتبكين وخائفين، ولقاؤنــا مع الضابط المسئول لم يكن يبشر بالخير، جلسنا نعيد حساباتنا من جديد، قلنا إننا أشعلنا النار في الفتيل، وليس أمامنا سوى الانتظار عسى أن يحــرك الطرف الآخر قطعة خاطئة هنا أو هناك، ويبدو أن ذلك ما حدث بالفعــل، فقد شعر يؤانس ورجاله أنهم أصبحوا تحت الإضاءة، حتى أنهم لم يستطيعــوا تحريك دميانة من مكانها، وبدلاً مــن أن يفكروا في إطلاق سراحهــا فكروا في القضــاء عليها، لكن أنطونيوس ظهــر في المشهد بحيل لم يتوقعهــا أحد، حتى الكنيســة التي كان يؤانس يتخيــل أنها عدوه الأول فوجئت بالزحف المقدس من سانت كاترين إلى هضبة الملاح، كما فوجئت السلطــات أن ثمة ما يحدث على الأرض أكبر مــن توقعات رجالها، فلم يكن أمامها سوى أن تلاحق الحدث وتتحرك برجالها إلى المكان.

-٣٢-

رسائل أوريجانوس (٢١)

عزيزي ديونسيوس

لست نادمًا علي شيء، وأشهدك أنني غفرت للجميع، بمن فيهم ديمتريوس الكرَّام الذي فعل كل ما يمكنه لنفيي من مدينتي وكنيستي المحببة، وتلميذي ياروكلاوس الذي علمته وقدمته عليكم جميعًا، فجعلته خليفتي حال غيابي على مدرسة اللاهوت بالإسكندرية، ولا تعلم كم فرحت حين علمت أنه سيكون خليفة الكرَّام في كرسي الكرازة، تصورت أنه سيعقد مجمعًا مقدسًا يعلن فيه للجميع براءتي مما لطخني به الكرَّام، وأنني لا أستحق هذا النفي الروحي والمكاني، كنت كل يوم أتوقع أن يجيئني رسول منه ليعيدني إلى الإسكندرية، أو رسالة تشهد بقبوله لي في كنيستي الأم، لكنه أمضى ثلاثة عشر عامًا على كرسيه دون أن يذكرني بشيء، لقد تجنب حتى ذكري بالسوء، وكأنني لست موجودًا، أو أنه لم يجلس أمامي يومًا ما، ولم يتلقَّ علمه على يدي، ولم أشرح له مبادئ اللاهوت لدى الرواقيين والأفلاطونيين، ولا مبادئ الحساب لدى اليونانيين.

أشهدك أنني منذ تنيح الكرَّام وأنا لا أذكر الإسكندرية إلا بالخير، ولا أغضب من أحد فيها، وأنني بتنيح أمبروسيوس فقدت لذة العيش، وحتى القدرة على الغضب، فغفرت للجميع، حتى الحراس الذين وضعوا المسامير في يدي، وثبتوني على الصليب هازئين بي أن أقتدي بالمسيح في صلبه، وحتى حين رفعوني عنه ووضعوا المسامير المحماة بالنيران على جسدي كي أعود إلى الوعي، ووضعوا لي طوقًا مسننًا في عنقي، وثبتوني في الحائط بالسلاسل، طالبين مني أن أعظ ما استطعت، أشهدك أنني

حاولت، لكن صوتي لم يكن يخرج مني، وشعرت أنني مهدود ولا طاقة لي بشيء، شعرت أن الطوق يحز في عنقي، وأنني غير قادر على حمله، وكلما حركت رأسي كانت سنونه تمزق جلدي، والدم ينزف مني، وأنا لا أقدر على شيء سوى رؤية الملائكة وهي تنشدني:

اسندوني بأقراص الزبيب

أنعِشوني بالتفاح فإني مريضة حبًّا

شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني

أحلِّفكن يا بنات أورشليم بالظباء وبأيائل الحقول

ألا توقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء.

حين خرجت من السجن لم أكن أعرف أين أنا، ولا ما الذي جرى لي، فقط كنت أرى وجوهًا تحيط بي، وتضع لي الماء في فمي، تضع الزبيب والعسل الجبلي، وأنا أنشد مع الملائكة نشيد المحبة والخلاص، وأرى أن المسافة ضاقت والخطى اقتربت، ولم يبق بيني وأبواب الملكوت الواسع في السماء سوى قبلة، ربما كانت القبلة التي لم أنلها في يوم ما من ميريت، الفتاة الوحيدة التي ضعفت أمامها، فقررت أن أوقف ضعفي وأخصي نفسي كي أكون عبدًا أبديًّا للمسيح، أنا الخصي الأبدي من أجل ملكوت السماء.

أُشهدك يا صديقي أنني لم تعد بي حاجة للمغفرة من أحد، فلا أحد بيده المغفرة لسواه، كل المحبة ها هنا في القلب، كل الرحمة ها هنا، ولا أحد يملك أن يمنح مغفرته لأحد، لأن أحدًا لن يعذب، فما ذنبه كي يعذب، ما ذنب الشياطين كي تعذب، هل كان بوسعها ألا تخطئ، هل كان يمكنها أن تكمل مسيرتها في غواية آدم وأبنائه لو لم يكن الرب راغبًا في ذلك، هل يمكن للحياة أن تستمر دون شيطان يغوي ورب يغفر، فما ذنب الشياطين أن تعذب؟!

أعــرف أن الكثيرين سيرونــي مهرطقًا، لأن عملهــم جميعًا سينتهي بمجــرد أن يــدرك الناس أن اللــه سيمنح عفوه للجميــع، وأن المهرطقين والوثنيــين ومن نجهد أذهاننا في تخيــل شكل الجحيم من أجلهم لن يعذبوا، فما حاجة الله بأن يعذب أحدًا، ربما لو أن له حاجة في شيء فهي أن يغفر لهم، فلا رب دون غفران ورحمة.

صديقي ديونسيوس

لا عليك مني، لا تشغل نفسك بعودتي إلى الكنيسة، فكنيسة السماء الآن تفتح ذراعيها لي، أراها محفوفــة بالملائكة وربات الشعر والموسيقى وهم ينشــدون لأجلي نشيد الأنشــاد، أنا الآن لا أنتمــي إلى هنا، لكنني هناك، أنــا أصعد يا صاحبي، أرتقي درجــات في الهواء وأصعد، لا شيء يحول بيني ورحمات الرب، قدس أقداسه يتسع للجميع، البر والفاجر، القديس والمهرطــق، الملاك والشيطان، قدس أقداســه واسع، ورحماته تتنزل، ولا أرى جحيمًا لأحد، إلا من حبس نفسه بيديه في ترهات الجحيم.

-٣٣-

ألقى موت هيباتيا بظلال كئيبة على المدينة ككل، حيث استفاق الرهبان من جنونهم وشعروا بالخزي، فقد اعتدوا على امرأة لا تحمل سكينًا ولا حجرًا في يدها، فسحلوها في الطرقات وجرَّدوها من ملابسها ومزقوا أعضاءها، كانت الجريمة بشعة، ولم يملك كيرلس الدفاع عنهم، فتبرأ منهم جميعًا، وأمر جورجيوس أن يخرج الرهبان من المدينة، ساعيًا لتهدئة الأجواء بين المسيحيين والوثنيين، مرسلاً إلى الإمبراطور بأن هذه الفئة الضالة لا تنتمي للكنيسة ولا رجالها، لكنهم بعض الذين أضلهم الشيطان عن الإيمان القويم.

لم يكن الوثنيون في حالة تمكنهم من إعلان الحرب، ولم يكن الحاكم قادرًا على مواجهة الرهبان الذين يحتلون المدينة، فآثر الحزن على صديقته في صمت، متقبلاً العزاء من الجميع ما عدا الكنيسة ورهبانها، معلنًا الحداد في البلاد على روح هيباتيا، فتوقف الميوزيوم عن العمل مدة أسبوع كامل، وتوقفت المكتبة عن استقبال ضيوف، وجلس الكل في الشوارع أمام ما بقي من المعابد مشعلاً الشموع ومصليًا للآلهة كي تتقبل هيباتيا في نعيمها الخالد.

تحمل كيرلس شعوره بالخزي تجاه ما حدث، وجلس ينصت لنصائح جورجيوس ورجاله بضرورة إكمال تطهير المدينة، لكنه رفض أن يثبت التاريخ عليه رغبته في قتل الفليسوفة الشهيرة، فأعلن أن مدرسة اللاهوت ستدرس كتب هيباتيا، لكن أحدًا لم يأخذ الأمر على محمل الجد، وظلت العزلة تلف المكان أكثر من عام، عاد فيه نصف الرهبان إلى أديرتهم، ورأيت شنودة ولاون يطالبونني بالعودة معهما، لكن جورجيوس رفض، فقد أثنى عليَّ أمام كيرلس، فوجدتني أحد الذين يملي عليهم الأخير رسائله وعظاته، ووجدتني على مقربة من الأبواب جميعًا، علمت

أن جورجيوس يريد أن يهدم معبد إيزيس، لكنه ليس كغيره من المعابد، فمريدوه كثر، والذين يتبركون به يأتونه من روما واليونان وطليطلة، والمصريون يرونها أم الإله الذي يمنحهم القوة في مواجهة الأعداء، ومن الصعوبة استعداؤهم.

رأيت جورجيوس يقنع كيرلس قائلاً:

- إذا كانت إيزيس عذراء وأم إله، فإن مريم عذراء وأم إله.

انتفض كيرلس في مجلسه سائلاً جورجيوس عن مصدر هذه التعاليم، ومن الذي قالها له، فرد بخوف إنها تعاليم أوريجانوس، وأنه سمعها من أستاذه رفائيل، حينها سألني كيرلس إن كان رفائيل تحدث بذلك أمامي، فهززت رأسي بالإيجاب، لكنني خفت أن يعتبر ذلك هرطقة، فيأمر بقتلي أو نفيي، أسرعت بالقول إن رفائيل أخبرني أن أثناسيوس قالها أيضًا، هنالك هدأ كيرلس في كرسيه، وأخذ يتأمل الكلمة من جديد، ثم عاد ينظر في وجهي سائلاً إن كان أثناسيوس قالها، فأسرعت بالتأكيد أن ذلك ثابت في عظاته أمام مغارة الجبل الغربي في الجنوب.

وضع كيرلس مع جورجيوس خطته للتضييق على معبد إيزيس ورواده، فأمر بنقل رفات القديس أباكير على مقربة من المعبد في مينوتيس، وأعلن أنه من شهداء عصر دقلديانوس، وأن له بركة في الشفاء وتوسعة الرزق، فراح فقراء المسيحيين يتهافتون على التبرك به، حتى أنه أصبح ينافس إيزيس في عدد من يتبركون بها، لكن إيزيس هي العذراء الأعظم، وهي أم الإله عند الجميع، ولا يمكن سلبها هذه المكانة.

أخذ جورجيوس يبني كنيسة باسم العذراء تشتمل على رفات أباكير، وحين انتهى من بنائها دعا كيرلس نائبَ الإمبراطور ووجهاء المدينة وشعب المؤمنين لحضور القداس الإلهي فيها، وفي عظته قال إن مريم هي العذراء الأبدية، وأنها أم الإله، وأن من يحج إلى كنيستها كأنما التقى بها، ونال البركة من يدها. فتردد الناس على الكنيسة في انتظار بركتها، ورغم أن شيئًا لم يحدث إلا أن كيرلس حرص على أن يشيع لقبها الجديد

بين الناس، في منافسة واضحة بينها وبين إيزيس، حتى أن الناس سعوا لتلمس المنافسة بين أمهات الآلهة.

توسع كيرلس في وضع كلمة "أم الإله" بدلاً من "مريم" في رسائله لرؤساء الأديرة والكنائس، مما جعل المجسدين يتأكدون أنه في صفهم، ولن ينقلب على نهج ثاؤفيلوس، فأغلبهم جاء من ديانات وثنية، وبحث عن أدواته القديمة في دينه الجديد، وكان التجسيد من بين الأدوات التي يحنون إليها، وجاء تلقيب مريم بأم الإله تعويضًا عن حضور إيزيس في ثقافتهم الأصلية، مما جعل كيرلس الأب الروحي لرهبان الصحراء، فانضوت أغلب الأديرة والكنائس تحت رايته، فأعلن بدوره حربًا جديدة على أوريجانوس، قال فيها إن من يعظ بأن القيامة ستكون بالروح لا بالجسد، لأن الجسد يبلى ويفنى، فإن تعاليمه فاسدة، وصاحبها مهرطق منبوذ، فالرب قام من بين الأموات بالروح والجسد معًا.

كانت رسائل كيرلس وعظاته يتداولها الرهبان في الصحارى كالماء الزلال، فجميعها تخاطب انتماءاتهم القديمة، حتى أنهم كانوا يشعرون أنهم مؤمنون بالفطرة، وأن الكهنة هم الذين يضلونهم ليعبدوا آلهة غير الله، كان الكل يتحدث بفخر عن أصوله السابقة، مقارنًا بين ما في ديانة آبائه وما يقوله كيرلس، حتى أن الوثنيين بدأوا يشكون في دينهم وصحة تعاليمهم، متسائلين عن الفارق بين إيزيس ومريم، موقنين أن ما قاله أجدادهم لا يختلف عما يقوله كيرلس، وأخذ الجميع يحج إلى مريم متبركًا بإشعال الشموع وتقديم الذبائح لها، مثلما يفعلون مع إيزيس في معبدها القديم.

لكن الرياح لا تأتي دائمًا بما تشتهي السفن، فقد وصل لكرسي القسطنطينية أسقف من أنطاكيا شديد الحجة على الهراطقة يدعى نسطورس، أخذ يعلم الناس أن العذراء مريم ليست أم الإله، ومن يقول بذلك فتعاليمه فاسدة، إذ كيف لامرأة من البشر أن تلد الرب؟! ومن ثم فالصحيح أنها والدة يسوع الإنسان، لأنها المرأة التي اختارها الله كي يمر عبرها للناس في صورة بشرية.

حـين وصلت هذه التعاليـم إلى الرهبان في صحـارى الإسقيط ونتريا والقلمون والقلزم تمتعت ببعض القبول، فليس من المنطق أن تلد امرأة من البشر الإله المتعـالي اللامحدود، فأعلى أدوارها أن تكون معبرًا لظهوره فقط بصيغة بشريـة. وراح البعض يرسل إلى كيرلـس طالبًا التوضيح، وشعر الأخـير أن البساط يُسحب من تحت قدميه، وأن المعركة من جديد تأتيـه من القسطنطينية، ولا بـد أن يغلق باب الشك بكل قوة قبل أن تتبلبل العقول وتتقلب القلوب، فرد على رسائل الرهبان برسائل أطول وأكبر، معتمـدًا على مقـولات لأثناسيوسـ وألكسندروسـ وديديموس الضرير وأوريجانوس نفسه، فجميعهم استخدموا لقب "أم الإله" في كتاباتهم.

كان انزعـاج كيرلس واضحًـا، ودفعته كثرة الرسائـل إلى أن يكتب رسالة مطولـة إلى عموم رهبان مصر، قائلاً إنــه لم يزعجه سوى سعي البعضـ لتحطيـم إيمان البسطـاء بإثارة أسئلـة حول أمـور دينية دقيقة، مطالبينهم بالرد على إذا ما كانت القديسة مريم هي أم الله أم لا؟ وأنا أقول لكم مـا قاله آباؤنا وقديسونا، العذراء مريم هــي أم الله، والقول بأنها أم يسوع الإنسان فقط، يعني أن الله له طبيعتان، أحداهما بشرية والأخرى إلهية، وهذا مخالف لما آمن به المجتمعون في مجمع نيقية، وما أقره قانون الإيمـان القائل بأننـا نؤمن بإله واحد، ولأنه إلــه حقيقي وملك بالطبيعة، ولأنــه المصلوب قد دُعي رب المجد، فكيف يمكن لأحد أن يتردد في تسمية القديســة العذراء مريم "أم الله" الذي نعبده كواحد، ولا نقسمه إلى اثنين، ولا نقـول بأن الكلمــة تغيرت طبيعته عندما أصبح جسـدًا، ولا أنه تحول إلى إنسان كامل من نفس وجسد، ولكن نقول إنه باتحاده بجسده أقنوميًّا، وبنفس عاقلة، صار بطريقة لا يمكن وصفها أو فهمها إنسانًا.

لم تتوقـف رسائل كيرلس إلى الرهبان المصريين الذين رغب في حسم الأمـر معهم بشكل واضح، كما نشط في مراسلة أساقفة الشرق والغرب، مركزًا على لاون أسقـف روما، فخصه برسائل مطولة ربط فيها بين ما يقوله نسطورس وما قاله أريوس، مؤكدًا أن العذراء هي أم الإله، ولابد مـن عدم السماح للهراطقة بالعـودة إلى القلوب والصدور، وسرعان ما

طالـب بعقد مجمع مسكوني مقدس للرد علـى نسطورس، وعقد الأساقفة المصريـون مجمعًـا أحصوا فيه اثنتـي عشرة مقولة تستحـق الحرمان في تعاليـم نسطورسـ، وأرسل كيرلس بنتائج مجمعـه إلى لاون في روما، وإلى نسطورس نفســه في القسطنطينية، وكلما شعر أن دفة الأمور مالت لصالحه ركَّز ضرباته على ضـرورة حرمان نسطورس، ساعيًا لتحقيق انتصـار حاسم يشبه انتصار ثاؤفيلوس علـى ذهبي الفم، وهو ما تحقق له حـين شعر الإمبراطـور ثيؤدوسيوس الثاني بـأن الإمبراطورية ستنقسم على نفسها مثلما حدث بين أريوس وأثناسيوس في زمن قسطنطين الكبير، فأمر ثيؤدوسيوس بعقد مجمع مسكوني في مدينة أفسس.

كنـت بطبيعة الحـال في الوفد الذاهب إلى أفسـس، فأنا أحد الذين يملي عليهم البابـا رسائله وعظاته، والوفد كان كبـيرًا للغاية، يضم العديد من الأساقفـة ورؤسـاء الأديرة المعروفـين في الشرق، فضلاً عـن الرهبان الذيـن زحفوا مـن الإسكندرية إلى القسطنطينية ثم أفسـس، وهناك التقينا بكثيريـن ممن يناصرون كيرلس، ويؤمنون بتعاليم الإسكندرية وآبائها، فضلاً عن أصدقائه الذين يجعلونه على علم بكل كبيرة وصغيرة في البلاط الإمبراطوري، ويردون عنه كيـد حاكم الإسكندرية ووجهاء الوثنيين، كل هذه الجماهير جعلت البابا والأساقفة المصاحبين له يشعرون أن القضية حسمـت لصالحهم مـن البدء، خاصـة وأن الإمبراطـور أعطى كيرلس حقه التاريخـي في رئاسة المجلس، كما أن نسطورسـ وأنصاره رفضوا الحضور، مخالفين قرار الإمبراطور.

وكان كيرلسـ حريصًـا على أن ينهي هـذه القضية سريعًـا ليعود إلى الإسكندريـة منتصـرًا، لكـن يوحنا أسقـف أنطاكيا والوفـد المرافق له لم يصلـوا، فضلاً عـن أن لاون أسقف روما لم يستطـع الحضور، وسمعنا أنـه أرسل وفدًا في الطريق، فاتفق الحضور على تأجيل انعقاد المجمع مدة أسبوعين، وانتهـى الوقت المحدد ولم يحضر يوحنـا ولا وفده، وشاعت أخبـار أن أمامهـم أسبـوع على الأقل للوصـول، أما وفد رومـا فأمامه أسبوعـان، وبدأ الأساقفة يلحون على كيرلس أن يعقد المجمع في موعده، وأمـام إلحاحهم ورغبته في حسم القضية أمر بانعقاده، فأدانوا نسطورس وعزلوه بإجماع آراء مائتي أسقف.

شعر كيرلس أنه أنهى على غريمه بضربة واحدة، كما فعل ثاؤفيلوس مع يوحنا ذهبي الفم، لكننا لا ننزل البحر مرتين، فقد حدث ما لم يكن يتوقعه كيرلس من صديقيه لاوون ويوحنا، فما إن وصل الأخير وعلم أن المجمع انتهى من أعماله حتى استشاط غضبًا، فقد قطع كل هذه المسافات كي يدلي برأيه في قضية لاهوتية مهمة، لكن أحدًا لم ينتظره، ولم يشعر أنه في حاجة لمعرفة رأي كنيسته، كان شعوره بالإهانة شديدًا، وهو نفس الشعور الذي أصاب لاون في روما، فقد أبلغه وفده الذي وصل متأخرًا عن المجمع أن صديقه كيرلس لم يحترم خروجهم من روما، وقطعهم كل هذه المسافات لحضور المجمع، كان غضب كلا الوفدين كبيرًا، وشعورهم بالإهانة لا حدود له، ومن ثم قرروا التبرؤ من نتائج المجمع الذي ترأسه كيرلس، عاقدين مجمعًا خاصًّا من قبلهم، مدينين فيه كيرلس ورافضين حروماته الاثنتي عشرة.

بدا الأمر من وجهة نظر الإمبراطور ثيؤدوسيوس نوعًا من العبث، فأمر بإلغاء نتائج المجمعين، وعقد مجمعًا آخر في مدينة خلقدونية القريبة من عاصمة إمبراطوريته، فاستضافت المدينة نحو مائتن وخمسين أسقفًا للتحاور على مدار ثلاثة أشهر حول تعاليم نسطورس وحرومات مجمع الإسكندرية لها، كانت كل الوفود غاضبة وتشعر بالإهانة، وسعى الإمبراطور لحل الخلافات بينها، خاصة أن نسطورس تخلى طواعية عن كرسي القسطنطينية وعاد إلى حياة الرهبنة، لكن العلاقة بين الإسكندرية والقسطنطينية كانت قد دخلت في حالة من الفتور، فلا هي عداء واضح ولا محبة واضحة، واستلزم الأمر نحو عامين من تقريب المفاهيم وتوضيح الرؤى كي تعود العلاقة بين أنطاكيا والإسكندرية لما كنت عليه، ولتوقع الكنيستان على وثيقة "إعادة الوحدة"، وليتنيح كيرلس في العام التالي لتوقيع هذه الوثيقة، بينما لقي نسطورس مصيرًا لم يتوقعه أشد أعدائه كراهية له، فقد غضب عليه الإمبراطور وأمر بنفيه إلى البتراء على تخوم العالم الروماني، ثم إلى الواحات في الصحراء المصرية، ليموت غريبًا عن بلاده وحيدًا في منفاه بين أناس يمجدون العذراء، رغمًا عنه، بوصفها أم الإله.

-٣٤-

عـبر واحد من المؤمنـين المترددين على كنيسته توصـل صاموئيل لمن ينقـل أنطونيوس وخمسة ممن يجيدون تسلق الجبال إلى دير الملاح، وما إن عـبر موكب الرهبـان النفق الرابط بين سينـاء والسويس حتى توقفت الحافـلات في أول استراحة هنـاك، حينها صعد صاموئيـل في زي بائع ميـاه ونزل أنطونيوس من الحافلة بنفس الزي، وتحرك بصحبة صاحب الـزورق والرجال الخمســة إلى السويس، وانطلقـوا بالزورق في اتجاه الجنـوب، متتبعين الخريطة على القمر الصناعـي حتى وصلوا إلى موقع الدير بعد عدة ساعـات، فانتظروا إلى أن تأتيهم إشارة تأكيد الصعود من صاموئيل.

كانـت الإشـارة المتفق عليها مجموعـة من صواريخ الألعـاب النارية التـي ستضيء المكان وتحـدث أصواتًـا يسمعها القلزم كلـه، فكان عليهم أن ينتظروا لحـين وصول الباصات مع أول المسـاء إلى أرض الهضبة، لينـزل الرهبان منهـا طالبين الإذن بدخـول الدير لتأديـة واجب العزاء في أخيهـم باخوميوس، لكن المشهد بدا غير مألـوف لهؤلاء الذين أمضوا حياتهـم في عزلـة عن الجميع، حتى أن بعضهم لم يخـرج من الدير طيلة حياتــه فيه، وبعضهــم لم ير وجهًا غير وجــوه هؤلاء الذيـن أقاموا على الهضبـة أو تحتهـا، كان نزول الرهبـان مدهشًا وغريبًـا، فلم تكن هناك معلومة عن مجـيء زوار بهذا القدر، ولم يكن يؤانس في المكان ليخبرهم بما يجـب عليهم عمله، حاول يوساب أن يتصل بـه ليخبره أن الصحراء بمـن فيها انقلبت عليهـم، وأنه لا يعرف من الـذي أحضر كل هؤلاء وما السبـب، وظل هاتفه خارج الخدمة، فاضطـر يوساب للاتصال بالمنحني

في الأبرشيــة سائــلاً عما يحدث، ولم يكن لدى الأخــير علم بشيء، فأمر بالتمســك باللوائح والقوانين، وأنــه لا يحق لأسقف أن يتدخل في الكنائس والأديرة التابعة لأسقف آخر.

كانــت أولى الخطوات التي قــرر يوساب اتخاذها هــي إغلاق البوابة وعــدم السماح لأحــد بالدخــول دون إذن من الأبرشية التــي يتبعها، ثم أمــر رجاله بحمل السلاح والانتشار علــى السور والقلالي، وكانت آخر الخطوات وأهمها هــي التخلص من دميانة، لكنه لم يكن يعرف أين يمكنه الذهــاب بهــا في ذلك الوقــت، هداه تفكــيره في النهايــة إلى أن يضعها في كنيســة جبرائيل المــلاح المغلقة للترميم، وبالتحديد في المغــارة التي تشتمل على قبر المــلاح ولبؤته وأشبالها، واضعًا يده علــى قلبه من أن يتكرر ما حــدث يوم أن دخلهــا أنطونيوس، فقد خيل للرهبــان أن اللبؤة قامت من قبرهــا لتهاجمهــم، ووجد يوســاب نفسه تحت أقدامهم وهــو يصرخ فيهم بالتوقــف دون جدوى، يومها لم يكن يعلــم أن المغارة بها ممر يؤدي إلى مغــارة أخرى على الجانــب الآخر من الجبل، فوقــف كتمليذ بليد ينصت للمنحني وهو يوبِّخه على فزعه أمام رجاله، فأكد أسطورة لا وجود لها، لكــن يوســاب كان مصدقًا، ويحلــم أن يجد الشجاعة التــي تكفيه لمحو هذا التصديق.

لم تكن دميانة تعلم ما يجري حولها، فقد استسلمت للأحلام والكوابيس، والقيام من النوم للدخول في نوم جديد، لكنها فوجئت أن ثمة مجموعة من طوال القامة يفتحون الباب ويدخلون غرفتها، أدركت أن ما كانت تخشاه قد أتى، وانطلقت تصرخ في فزع يشبه فزعها يوم أن حاصرها السلفيون في بيت رضا وزوجته، وما لبثت أن فقدت الوعي وسقطت أمامهم مغشيًّا عليها، فما كان منهم إلا أن لفوها في مفارش السرير ونزلوا بها من مبنى الضيافة.

كان الليل قد حل علــى الأرض والسماء، وفشل الرسل الذين صعدوا للتفاوضــ على الدخول في مهتمهم، فقد رد عليهم يوساب أن المقابر أسفل

الهضبة، والصحــراء تتسع لعزاء الجميع، ولا يمكنه فتح البوابة إلا بإذن مــن الأبرشية، هنالك أطلق صاموئيــل صواريخه لتحيل سماء القلزم إلى نجوم متفجرة وأضواء متلألئة، علم أنطونيوس أن ساعة العمل قد بدأت، فأخذ ومن معه يعملــون أدواتهم في جدار الصخــر، ساحبين أنطونيوس معهم إلى أعلى، ولم يستغــرق الأمر كثيرًا من الوقت، إذ وجدوا أنفسهم أمــام المغارة المليئــة بالصناديق القديمــة، تلك التي بــدا أن بعضها قد فتح مؤخــرًا ونهب ما فيه، لكن أنطونيوســ نحا غضبه جانبا وبحث عن الممر المؤدي لمقبرة الملاح.

حمل طــوال القامة دميانــة في مفارش السرير وعــبروا بها بعيدًا عن البوابــة والقلالي إلى كنيسة الملاح، وأشعلــوا المصابيح التي معهم ليدخلوا بهــا إلى المذبح، كانت أوامر يوســاب أن يضعوها في المغارة من الداخل، لكنهم سمعوا حركة وأصــداء أصوات غير مفهومة في الظلام، فارتجفت أوصالهــم وأيقنوا أن المكان مسكون، وحين أعملوا مصابيحهم خلف باب المغارة لم يجدوا شيئًا، فعادوا يتداولون والرعب يملأهم حول من سيدخل المغارة ومن سيبقى في الخارج، وفي النهاية قرروا أن يبقوا جميعًا خارج الباب ويدفعوا بها إلى الداخل، وما إن هموا بفعل ذلك حتى فاجأهم ضوء قوي يتحرك نحوهم، فصرخ بعضهم أن اللبؤة قامت من قبرها.

تــرك الرهبــان الخائفــون لأقدامهم العنــان حتى صلت بهــم إلى باب الكنيســة، صائحــين أن اللبؤة قامت من قبرها، وأنهــم رأوا ضوء عينيها يتحرك نحوهم، بحث البعض عن يوساب ليبلغه بالأمر، وطلب آخرون النجــدة من الحراســ الواقفين علــى القلالي، ولم تمضــ دقائق حتى عم الظــلام الهضبــة ككل، وارتعد الجميع موقنًا أن مــا حدث هو غضب من المــلاح ولبؤته، وعبثًا حاول يوساب أن يسكتهم ليفهم ما يحدث، لكنهم لم يفعلــوا، حتى أنه قرر أن يتقدمهم إلى الكنيسة ليؤكد أن ما يقولونه محض أوهام في رءوسهــم، لكن ما إن وصل إلى الكنيسة على أضواء الكشافات الصغيرة حتى سمع حراس البوابة يصرخون بأن اللبؤة هاجمتهم.

كان أنطونيوس قد شرح لمن معه خطته، وأوصاهم قبل الزحف داخل الممـر بالحفاظ على رءوسهم منخفضة، ثـم تقدمهم كقط كبير حتى وصل إلى مغـارة الملاح ومقبرته، هنالك فتح ضوء الكشاف الذي معه ليطمئنهم ويرى ما أمامه، فتساءل رجال يوساب بفزع عن مصدر الضوء، وحين سمعهـم أنطونيوس تأكد من وجودهم في الكنيسـة، وأنه لا بد أن يباغتهم قبـل أن يتجرأوا علـى الدخول، فأسرع بتقليد زئـير الأسد ناثرًا الحصى بيديـه نحوهم، هنالك أصابهم الهلع، موقنـين أن اللبؤة نهضت من قبرها لتحرقهم.

لم ينتبه أنطونيوس إلى أن دميانة تنام فاقدة الوعي في ركن المذبح، فقد فتـح الباب وخرج يطارد المرتعدين أمامه، وبخفة قاطع طريق التف بمن معـه خلف الكنيسـة، سائرًا في ظلال الجبل نحو العيـادة وورش الحدادة والنجـارة ليعطـل محول الكهرباء، ثـم ينطلق من أمـام المكتبة إلى بوابة الدير ليهاجم الحراس المكلفين بالحفاظ عليها.

حـين شعر يوساب أنه فقد السيطرة على الدير، أخرج مسدسه وأطلق عدة رصاصـات في الهواء كي يعيد الانضباط على الهضبة، وبدا لهؤلاء المنتظريـن أسفل الهضبـة أن هذه هي الإشـارة المتفق عليهـا، فتسارعوا يتقافزون على الدرجات الرخامية المؤدية إلى البوابة العالية، وفي الوقت الـذي صرخ فيه يوساب لرجاله أن يطلقوا النيران على من يدخل الدير، كان بعضهم قد سلم سلاحه بالفعل لمن اقتحموا البوابة في حماس شديد، ومع تدفق الأعداد الصاعـدة إلى الهضبة ضاق الخناق على يوساب ورجاله، فأخـذوا يلقون بأسلحتهـم ويدخلون القلالي مع الرهبـان المتنسكين، وفي النهاية وجد يوسـاب نفسه وجهًا لوجه مـع أنطونيوس في الظلام، وقبل أن يفكر في رفع مسدسه كان أنطونيوس قد ضربه بقبضة يده على رأسه، وقبل أن يضربه من جديد كان صاموئيل ومن معه قد قبضوا عليه معلنين أنه سيخضع لحكم مجمع مقدس.

-٣٥-

رسمنـــي البابا كيرلس قسًّا قبل رحيلــه بعام واحد، وذلك بعدما أعجب بما بذلتــه من جهد في إعادة الوحــدة بين كنيستــي الإسكندرية وأنطاكيا، فقــد فشل مجمــع خلقدونية الأول في إنهــاء الخلاف بين كنيستــي أنطاكيا وروما مــع الإسكندرية، وإن كان لاون أسقــف روما قد سعى للتقارب ونسيــان ما اعتبره إهانة لــه ولوفده، لكن يوحنا الأنطاكــي رأى أن ثمة خطأ فيمــا يطرحه كيرلس، إذ إن القول بأن المسيــح ليس له سوى طبيعة واحدة ستلغي إنسانية المسيح، حاول كيرلس في خلقدونية على مدار ثلاثة أشهــر أن يشرح وجهة نظره بأطروحات متعددة، مؤكدًا في كل مرة أنه نشــأ وتربى في بيــت خاله البابــا ثاؤفيلوس، وأنه تشــرب تعاليم الإيمان القويم المتوارثة عــن الآباء الكبار للكنيسة المجيــدة بالإسكندرية العظيمة، هــؤلاء الذين دفعوا أرواحهــم ثمنًا للحفاظ عن التعاليــم الحقة، وأنه حين يرفضــ تعاليم نسطورس عن أن مــريم هي أم يسوع المسيح فقط، وليس أم الإلــه كمــا نقول، فذلك وفقًا لمــا توارثناه من تعاليم عــن آبائنا المبجلين أمثــال أثناسيوس وألكسندروســ وحتى أوريجانوســ، فجميعهم أطلقوا على العذراء مريم لقب أم الإله.

كان كيرلســ حادًّا وقويًّا في عظاته أمام أعضاء المجمع، وفشل الجميع في إثنائــه عن رأيــه أو تغيير موقفه، وفشل الإمبراطــور نفسه في تقريب وجهات النظر بينه وبــين يوحنا الأنطاكي، خاصة أن لاون أسقف روما كان يعضــد آراء يوحنــا مناوءة لكيرلس، في النهايــة انتهى المجمع إلى لا شيء، وعادت الكنائس الثلاث أقــرب إلى الانفصال عن بعضها بعضًا، وكان لا بــد أن نعيد النظــر فيما حدث، فعقد كيرلســ مجمعًا مصغرًا من أساقفــة الإسكندريــة ورؤســاء الأديرة الذيــن حضروا مجمعــي أفسس وخلقدونيــة، كان الهدف هو تقييم ما جرى، ومعرفة الأسباب التي أدت إلى هذه الخسائر الكبرى، فرغم أن نسطورس تنازل عن رئاسته لكرسي

القسطنطينيــة، مفضــلاً العــودة إلى حياة الرهبنة، ورغم مــا سمعناه عن غضب الإمبراطور عليه ونفيه إلى حــدود الإمبراطورية الرومانية، إلا أن مجمع خلقدونية رفض اعتماد حرومات كيرلس الاثنتي عشرة لتعاليم نسطورس، كما أن الانشاق بين الإسكندرية وأنطاكيا لا يقدم سوى عزلة للإسكندرية، وتوسعة نفوذ روما والقسطنطينية، وهو ما يعد خسارة تؤلم أغلــب من حضروا مجمع كيرلس لحدوثهــا، ومن ثم اتخذ الأخير قراره بتشكيل وفد للذهاب إلى أنطاكيــا، والسماع من يوحنا الأنطاكي وأساقفته وقساوسته، ونقل وجهة نظــر كيرلس إليهم، ثم إعادة ضبط الكلمات بما يعبر عن الإيمان القويم الذي يؤمن به آباء أنطاكيا والإسكندرية معًا.

كنــت من بين الذين اختارهم كيرلس في وفــده، قال لي ستكون عيني وأذني، أريــدك أن تفكر في الجــدل وفحواه، وتصل إلى مــا يمكننا قوله دون أن نخسرهــم، كانــت المهمة ثقيلــة، لأنني كان علــي أن أنصت إلى جميــع الأطراف، وحين أعود إلى الإسكندرية أشرح لكيرلس ما جرى، كنــت أعلم أنه كلف آخرين بنفس المهمة، وأنــه ينصت إليهم بنفس القدر، لكننــي حاولــت أن أعمل عقلي قدر مــا أستطيع، مباعــدًا بيني وبين اللغة وتحديداتهــا، فهــي أمر يخص الآبــاء الكبار، أما أنا فــدوري أن أوضح الثغــرات، وأبحث عن نقاط الالتقاء، ويبــدو أن كيرلس أعجب بشرحي لوجهــة نظرهم ومــا يتخوفون منــه، فرسمني قسًّا، وحملنــي رسالة إلى يوحنــا الأنطاكــي، طالبًا منــي أن أقلل من مخاوفــه، وأن أستخدم تعبير "طبيعــة واحدة متجســدة للكلمة"، مؤكدًا أن الكلمــة المتجسد هو الشخص المميز المفرد مصدر الحياة لعمله التكفيري عن الإنسانية، وأن الإسكندرية ترحب بإيجاد صيغة مشتركة مع أنطاكيا حول خصوصية كل من ناسوت المسيــح ولاهوته، وهو مــا عملنا عليه، وأنجزنــاه في وثيقة إعادة الوحدة بين الكنيستين، لتعود أنطاكيا إلى أحضان الإسكندرية وآبائها من جديد.

تنيــح كيرلس تــاركًا الإسكندريــة شبه خالية مــن الوثنيــة بعدما هدم جورجيوس معبد إيزيس وأقام في مكانه كنيسة للعذراء، فاجتمع الأساقفة والرؤســاء واختــاروا ديسقورس، رئيس مدرســة اللاهوت، بطريركًا للإسكندرية من بعده، كنت على خلاف دائم مع ديسقورس، ففي الوقت

الـذي سعيت فيه لتقريب وجهات النظر بين الإسكندرية والأنطاكيين كان ديسقورس مصرًّا على مفردة الطبيعـة الواحدة، دون تغيير أو مهادنة، وزادت الفجوة بيننا حين رسمني كيرلس قسًّا، وأرسلني برسائله إلى يوحنا الأنطاكي، وتوقعت أنني بعد جهدي في توقيع اتفاق إعادة الوحدة سأكون أقـرب مَن في الإسكندرية إلى كيرلـس، إلا أنني لمست إهمالاً منه لشأني، وأخذ يسمـع لديسقورس وجورجيوس الذي تجـاوز السبعين، لكنه ظل محاربًـا يبحث كل يوم عن ميادين جديدة للصـراع، فقاد مع ديسقورس فيالق الرهبان لهدم معبد إيزيس، مصطنعًا مشاجرة مع مريديه، ثم آمرًا رجاله بإشعـال النيران فيه، ومطاردة المؤمنين بـه في الشوارع، بعدها عـادوا فنقضوا أحجاره وبنـوا بها كنيسة قريبة منه، ومـا لبثوا أن أعلنوا رغبة الرب في إقامة كنيسة جديدة، لتطهير المكان من أدران الأوثان.

علمـت أنني لن يكون لي مـكان في معية ديسقورسـس، فطلبت منه أن أعـود إلى ديـر الملاح حيث أتـوق إلى حياة الرهبنة، لكنـه طلب مني أن أتولى مسئولية مدرسة اللاهوت بدلاً منه، دُهشت من طلبه، وتوقعت أن المسئوليـة غيَّرته، وأخذت أعمل في إعادة إحيـاة المدرسة كي تتقبَّل جميع الآراء، وتنفتـح علـى الفلسفة والفكـر ودراسـة الآداب والعلوم، لكنني وجدته يعارض كل ذلك، فرضيت بأن أعيش على ضفاف الأحداث آملاً أن تتغير الأيام، لكنها كانت تسير نحو الأسوأ، فقد تنيح ساويرس، وأقر ديسقورس شنودة رئيسًا للدير من بعده، وسرعان ما أصيب جورجيوس بمرض جعل أطرافه لا تتوقف عن الارتعاش، فلم يتحمل مرضه وحزنه على نفسه فلحق بساويرس، وأرسل لي شنودة أربعة من الرهبان صغار السـن طالبًا أن يتعلموا في مدرسة اللاهوت، كي يكملوا المسيرة التي بدأها ديمتريوس في الدير.

رأيـت في ذلك عطيـة السماء لي، واتخذت بيتًا واسعًـا يضمنا جميعًا، ومـا لم أستطع شرحـه في المدرسة كنت أقدمه لهم، كانـوا يحملون أسماء أنطونيوس وهادريـان ومرقس ولامسون، وكان أنطونيوس أحبهم إلى قلبـي، كانت تساؤلاته لا تنقطع، ورغبته في المعرفة لا حدود لها، فعلمته اللاتينية واليونانيـة والديموطيقية، وبعضًا من الرياضيات ومسائل الفلك

وفلسفات الرواقيين والأفلاطونيين وما وصلنا عن أوريجانوس وأريوس وما اختلف فيه نسطورس مع كيرلس، وأطلعته على سري الأعظم، وهو الكتاب الذي أدوِّن فيه ما أشهده من حوادث وتغييرات، جريًا على عادة أستاذي رفائيل فيما كتب عن الدير وما جرى في الإسكندرية والمجامع المقدسة، فأخذ يقرأه بنهم ويناقشني في كل ما جاء به، فأوصيته أن يخفيه عن الناس، وأن يكمل ما بدأه رفائيل كما أكمله أنا، فسوف يجيء زمان يصبح فيه ما نكتبه الآن الشاهد الوحيد على الحقيقة.

تولى كرسي القسطنطينية من بعد نسطورس رجل يدعى ماكسيميانوس، ولم يكن يحب الجدل في مسائل اللاهوت، فسعى إلى تهدئة الأجواء مع الإسكندرية التي أطاحت بنسطورس ومن قبله بيوحنا ذهبي الفم، لكن خليفته فلافيانوس كان على نقيضه، فقد انشغل بتعاليم راهب يدعى أوطاخي، كان رئيسًا لأحد الأديرة القريبة من القسطنطينية، وكان قد آمن بتعاليم كيرلس عن طبيعة المسيح الواحدة، ووعظ بأن من يقول بوجود طبيعتين للمسيح بعد الاتحاد فإنه مهرطق وضد قانون الايمان، لأنه لا يوجد في الكتاب المقدس ما يدل على طبيعتين للرب، ولم يقل المجتمعون في مجمع نيقية بما يدل على ذلك، فهب فلافيانوس للدفاع عن نفسه من تهمة الهرطقة، وقال بما قاله من قبل يوحنا الأنطاكي، مؤكدًا أن القول بطبيعة واحدة للرب يقضي على إنسانية المسيح، مما أحيا الخلاف القديم بين كيرلس ونسطورس، وسرعان ما انضم لاون أسقف روما إلى فلافيانوس معضدًا موقفه، وعقد الأخير مجمعًا في القسطنطينية قام بإدانة أوطاخي وحرمانه لسوء فهمه وتشويهه تعاليم كيرلس اللاهوتية.

كانت الإسكندرية بعيدة كل البعد عن هذا الجدل القديم الذي رحل جميع أطرافه، والذي تجدد على يد أوطاخي، لكن ديسقورس أرسل يسألني عن رأيي، فأجبته بأن فلافيانوس ومجمعه بالقسطنطينية يجلُّون تعاليم البابا كيرلس، وقد اتهموا أوطاخي بسوء الفهم، ووصفه لاون بأنه أحمق كل الحمق وجاهل كل الجهل، فهل ندخل في صراع مع روما والقسطنطينية من أجل راهب جاهل؟ تلون وجه ديسقورس كما لو أن تهمة الجهل أصابته هو، فنهض قائلاً:

– لكنني أرى أنه على حق.

كان لأوطاخي نصير متنفذ في بلاط الإمبراطور ثيؤدوسيوس، وهو أمين البلاط كيرسافيوس، هذا الذي بدعم من رجال ديسقورس في البلاط حصل على موافقة الإمبراطور على عقد مجمع مقدس للفصل بين أوطاخي وفلافيانوس، ومنح ديسقورس شرف رئاسة المجمع مثلما كان كيرلس رئيسًا لمجمع أفسس الأول، ورغبة منه في عدم الوقوع في الخطأ الذي وقع فيه كيرلس سعى إلى حسم الأمور من الجولة الأولى، فأرسل عشرات الرهبان من الإسكندرية إلى القسطنطينية كي يعضدوه، واصطحب معه وفدًا كبيرًا ضم عشرات القساوسة والأساقفة ورؤساء الأديرة، وانعقد المجمع في ظل وجود حرس إمبراطوري، وفضلاً عن التأييد الواضح لديسقورس وآرائه قام الرهبان المتجمهرون خارج الكنيسة بمحاولة الدخول، فاشتبك معهم الحرس، وحدث شغب كبير في شوارع أفسس، ورغبة في تهدئة الأجواء المتعصبة من قبل الرهبان في الخارج اتخذ المجمع قراره بتبرئة أوطاخي وإدانة فلافيانوس.

كنت من بين من صحبهم ديسقورس في موكبه، وكان ينظر لي وكأنه يقول أن هكذا يجب أن تحسم الأمور، لكنني كنت أعلم أنه ارتكب نفس الخطايا التي ارتكبها كيرلس في أفسس الأول، فقد تعنت في حكمه على أسقف القسطنطينية، ولم ينتظر بعض من وجَّه لهم الإمبراطور دعوته للحضور، وتأكدت ظنوني حين عدنا إلى الإسكندرية، فقد سمعنا عن إقرار أرسله لاون أسقف روما كي يقرأه رئيس المجمع على الحاضرين، لكن إقرار لاون تم إخفاؤه ولم يظهر، خاصة أنه يعارض تعاليم أوطاخي ويناصر فلافيانوس في موقفه، هذا الإقرار سلمه وفد روما لديسقورس بوصفه رئيسًا للمجمع، لكن الأخير لم يعرضه على الأساقفة والآباء المجتمعين، فغضب لاون غضبًا شديدًا، ووصف المجمع بأنه مجمع اللصوص، وسعى لدى الإمبراطور لإلغاء ما اتخذ فيه من قرارات، لكن الإمبراطور كان يجل ديسقورس ولا يرغب في معاداته، فآثر الصمت وعدم فتح بوابات الجدل.

لم يمض كثير من الوقت حتى انقلب السحر على ديسقورس، فقد مات ثيؤدوسيوس في العام التالي، وكانـت ابنته الإمبراطورة بوليخاريا تجل لاون، ومـا إن وصلت إلى العرش حتى أمـرت بإبطال قرارات أفسس الثاني، والدعوة لمجمع مقدس جديد في خقلدونية القريبة من القسطنطينية، وفيه تمت إدانة أوطاخي وعزلـه، وكذلك عزل ديسقورس ونفيه، لأنه حاول أن يقطع لاون ويعزله عن بقية المؤمنين المجتمعين في أفسس الثاني، ورأى المجمع حسم الجدل حول طبيعة المسيح يعتمد على ثلاث وثائق هي: إقـرار لاون "طومس لاون"، ورسالة كيرلـس الثانية إلى نسطورس، واتفاق إعادة الوحدة بين كنيستي أنطاكيا والإسكندرية. ليؤكد المجتمعون أن العـذراء هي "أم الإله"، وأن المسيح له طبيعتان بلا تشويش ولا تغيير ولا انقسام ولا انفصال.

-٣٦-

لا نعـرف كيف تجمعنـا معًا في عربـة واحدة، كنت قـد نزلت لشراء بعضـ احتياجات البيـت لتريزا، فوجـدت من يسألني عـن بيت صلاح متري المحامي، أشرت لـه إلى اللافتة التي اهترأت بفعل الزمن، وسألته إن كان يريد شيئًا، فأومأ لي برأسه ثم طلب مني الركوب معه، كانت ثمة سيـارة ميكروباص تقف على مبعدة من مدخل البيت، وجدت نفسي أمام أحمـد ونائل، وسرعان مـا رأينا تريزا بصحبة أمـين شرطة، لم نعرف سببًا لتجميعنا بهذه الطريقة في ذلك المساء.

علمت أنهم أحضروا نائل من الجريدة، وأحمد من أمام بيته، وأدركنا أن الشرطـة بـدأت في الانتباه لما يجـري، فقد ربطت بـين إعلان تريزا وصورة دميانة، وبين ما كتبـه نائل عن دير الملاح وفتاة الصعيد، وبين المحضـر الذي تقدمت به دميانة لاتهام أنطونيوسـ بتفجير الكنيسة، هكذا انتفضـ واحد من كبـار الضباط وهو يلقي الأوراق التـي أمامه في وجه ضابـط أصغـر منه، ثم طلب منهـم أن يحضروا لـه كل الأسماء التي في الملف.

لكـن الضابط الكبـير بعد ساعتين على الأقل اضطـر إلى ترك القاهرة كـي يتابع ما يجري من الرهبان في الصحراء، فقد تناقلت الهواتف مشهد الحافـلات التي تُقل رهبانًا من سينـاء وكأنهم في مظاهرة من نوع جديد، وسرعـان ما اتصلـت الشرطة بالكنيسـة تستعلم عما يجـري، وكان رد الأسقـف الكبير بأن ثمة ثورة بـين الرهبان، وهو ما جعل مسئولي الأمن يعيدون قراءة كل ورقة بها اسم شخص قبطي، وكانت النتيجة تجميعنا في سيـارة واحدة، وبدلاً من الذهاب بنا إلى قسم الشرطة خرجت بنا السيارة مباشرة إلى طريق السويس، ومنه إلى طريق رأس غارب، وسرعان ما قرأت بعض اللوحات الإشارية عن المسافة المتبقية على الجونة والغردقة،

لكننـا لم نصـل إلى أي منهما، فبعـد سباق طويل مع الجبـال القائمة على اليسـار وكثبان الرمـال النائمة على اليمين وصلنـا إلى طريق الرهبان، حيث كانـت الحافلات قد أخذت مواقعها على جانب الطريق، بينما آلاف الرهبان يتجمهرون أسفل الهضبة.

رأيـت المطبعة ومقابر الرهبان على يمين المتجـه إلى السلالم الرخامية العاليـة، وعلى يسارها قطعـة الأرض التي يزرعهـا الرهبان منذ مئات السنـين، رأيـت المزرعة التي طالمـا نزلت إليهـا وأحضـرت بعضًا من خضارهـا، ورأيـت ما تبقى مـن بكرة أبانـوب التي يرفع بهـا الرهبان كبـار السـن والعجائز، رأيت مخـر السيل الذي تحـول إلى سلم رخامي طويل له سور حديـدي على الجانبين، ومزدان بعدد من أعمدة الإضاءة التـي وضعها من رممـوا الدير في سبعينات القـرن الماضي، رأيت بعضًا مـن رجال يؤانسـ ويوساب وهم يقفون على الأسـوار ملوحين للرهبان بأسلحتهـم، محذرين أحدًا من مجرد التفكير في تسلق الهضبة أو الاقتراب منها.

كنت أشرح لنائل وأحمد كل مـا أراه، وأطمئن تريزا على ابنتها قائلاً إنهـم لـن يفكروا في إيذائهـا وسط كل هذه الجموع، لم تكـن لدي بالطبع معلومـة مؤكـدة عن شيء، حتى الذيـن أحضرونا إلى هنـا لم تكن لديهم معلومـة عما يجري في الداخـل، لكننا سمعنا اسـم أنطونيوس يتردد، لا نعرف ممـن بالتحديد، لكن أذني التقطته من راهـب عجوز وهو يتحدث إلى رهبان أصغر، كانوا يتحدثون عن الإشارة والهجوم.

في غرفـة عمليات أقامها بعض الضباط المكلفين بتأمين موكب الرهبان جلسنـا ننتظر الضابط الذي أمر بإحضارنا إليـه من القاهرة، حين سألني عما أعرفـه أخبرته أنني من أبناء الدير، وليس هناك مداخل ولا مخارج غـير هذه السلالم، نظـر إليَّ بخيبة أمل واستمـع إلى تريزا، حين طالبته بإنقـاذ ابنتها سألها إن كانـت متأكدة أنها في الدير، فأجابته أنها لا تعرف، في النهايـة سأل نائل عن مصادره فيما كتب، فأشار نحوي وكأنه يسلمني لهم، أخذت أشرح له كل ما أعرفه، وتحدث أحمد عن معرفته بأنطونيوس وكيـف التقى به، فأخذ الضابط يرسم نقاطًـا على ورق أبيض، ويوصل

خطوطًا بينها، متسائــلاً إذا كان أنطونيوس هو قائد هذه الثورة، فأين هو الآن؟ لكــن تساؤلاته لم تطل كثيرًا، فقد أظلمت الهضبة فجأة، ولم يمضِ كثــير من الوقت حتــى سمعنا صوت إطلاق رصاصــ، بعدها انفتح بابَ الديــر وخرج شخص ينادي الجميــع بالصعود، وقبــل أن يفكر أحد فيما ينبغي عليه عمله، كان بعضــ الرهبان الشباب قد تقافزوا على الدرجات الرخاميــة وكأنهم يتسابقون للوصول إلى بوابة السماء، ثم تلاهم آخرون وآخــرون، وأصبح السلم الرخامي الطويل بمثابة وريد يربط بين السماء والأرضــ، بينما الرهبان ليسوا أكثر من نمل يصعد عليه، أو كريات دم تتدفق فيه.

في خروجنا من السيارة التي حوَّلها الضابط الكبير إلى غرفة العمليات لمحنا عددًا مــن السيارات السوداء على الطريق، وثمــة أساقفة ومطارنة كبار ينزلون منها، وقفنا على جانب الطريق مفسحين لهم ولمن يهرولون حولهــم، كانت تريــزا تتساند عليَّ وهي تنظر نحــو العابرين في صمت، وإذا بالأسقف الكبير يتوقف فجأة في طريقه، وينحي الحراس والشمامسة الذين حوله جانبًا، ليتقدم نحونا قائلاً بصوت هادئ وقور:

– كيف حالك؟

انحنــت تريزا على يــده وصليبه فقبلتهما، فمسح علــى رأسها مبتسمًا، بعدها رفعت وجهها ونظرت إليه بحزن وغضب:

– دميانة يا أبونا... دميانة.

ربت على كتفها واستدار ليكمل طريقه، ووقفت في مكاني أنظر بدهشة لما يجري.

كان كل الذيــن أسفل الهضبة قد صعدوا إليهــا، حتى الرهبان العجائز أُحضــرت لهم محفــات لنقلهم، وأرسلــت الشرطة مزيدًا مــن السيارات التــي تقل الجنود، فاحتلوا المكان الــذي كان الرهبان يقفون فيه، لكنهم لم يفكــروا في الصعود، فقط كانــوا يعاونون من يحتــاج إلى المعاونة، بينما أجهزة اللاسلكي تملأ المــكان ضجيجًا وأسئلة، كان أحمد ونائل قد انفصلا عنــا، وصعدا مع أوائل الصاعدين، فلــم يريا سلام الأسقف على تريزا،

ولم يكونا معي لمعاونتها على الصعود، لكن الضابط الكبير أمر رجاله بإحضار محفة وحملها إلى أعلى، حين دخلنا الدير شعرت أنني أسترد روحي التي سُرقت مني، شعرت بالحنين إلى كل ما فيه، وودت لو أقبل الحوائط والأبواب، لكنني لم أر المكان عظيمًا كما كنت أراه من قبل، ربما لأن المدينة واسعة ومبانيها أكبر، وربما لأن عالمها غني وسريع، لكنني انسقت مع الجموع نحو قلاية يوساب، حيث علمت أنه تم القبض عليه هناك، وأن أنطونيوس هو الذي اقتحم المكان برجال معه، لم أعرف أين هو، ولم أعرف إن كانت دميانة موجودة أم لا.

درت بنظري بحثًا عن أي من أصدقائي الرهبان في الدير، رأيت أحدهم جالسًا يبكي، سألته عما يبكيه فقال إن الدير دنِّس، وجرت فيه الجرائم، وعلمت منه أن المحققة دميانة محتجزة في مبنى الضيافة، ويبدو أنها قتلت، هنالك لم أتمالك نفسي من الصراخ، كنت أصرخ كما لو أنني أرفع السماء عن الأرض بصوتي، وكان صراخي يتعالى وأنا أبعد الناس عن طريقي، رغم أنني لم أكن أعرف إلى أين أتجه، وفي النهاية هداني ضعفي وقلة حيلتي لأن أنادي أنطونيوس، فظللت أصرخ باسمه حتى رأيته أمامي، قلت له إن دميانة هنا، ولم أخبره بما جرى لها، فقبض علي ذراعي وجرني للبحث عنها معه.

كان الرهبان يفتحون له الطريق حيث أراد، فصعدنا إلى مبنى الضيافة، وهناك التقينا بشماس عجوز قال إنهم أخذوها في مفارش السرير إلى كنيسة الملاح، نزلنا نهرول بجنون، وبدا على أنطونيوس أنه تذكر شيئًا ما، فأخذ يقفز الدرجات كأنه شبح، ويزيح الرهبان من أمامه مهرولاً باتجاه الكنيسة، والرهبان يهرولون خلفه كأنه دليلهم في شيء ما. حين وصلت إلى الكنيسة لم أعرف كيف أدخل، لكنني سمعت بهمسات أنهم وجدوها، هنالك جاءتني طاقة لا أعرف مصدرها، وأخذت أدفع نفسي بين الرهبان حتى وصلت إلى المذبح، كان بعض الأقوياء يقفون على بابه يمنعون الناس من الدخول، فصحت بأعلى صوتي على أنطونيوس، ودفعت نفسي بينهم فمر نصف جسدي إلى الداخل.

رأيت أنطونيوس وقد أخرج وجه دميانة من ملاءات السرير ومفارشه، رأيته يسندها على ذراعه ويطلب من الناس أن يفسحوا المجال لبعض الهواء، ناديته فأشار نحوي بالدخول، قال إنها ما زالت حية لكن الهواء قليل، درت برأسي بحثًا عن مصدر للهواء، كيف يمكننا أن نزيح كل هؤلاء الرهبان من أجل الهواء، فجأة تذكرت ما حكاه لي عن مقبرة الملاح والممر الرابط بينها وبين مغارة البحر، فقلت له البحر، وأجابني متسائلاً كيف، ثم سرعان ما انتبه إلى أنه صاحب هذا الطريق، فانحنى وحملها لمغارة الملاح ولبؤته، عبرنا المقبرتين المتجاورتين واقتربنا من نهاية المكان، وجدنا الهواء يتدفق تحت أقدامنا من الممر، فوضعناها ورحنا نهزها بهدوء، كنا نضرب وجهها ضربات بسيطة متسارعة ونحن ننادي باسمها، في النهاية قلت لها إن تريزا في الكنيسة وأنطونيوس إلى جوارك، وبدا لي أنها سمعت هذه الكلمة، فكررتها وأنا أهزها كمن يستعيدها من الموت، ففتحت عينيها إلى وجهي، ولم أعرف من فرحي كيف أخبرها بوجود أنطونيوس، فأخذت أشير إلى وجهه.

حين خرجنا من المقبرة كان المذبح ممتلئًا بكثير من الأجساد، طلبنا منهم أن يفسحوا لنا طريقًا كي نخرج، وحملها أنطونيوس على يديه، رافضًا أن يعاونه أحد، كان الرهبان يتدافعون للخروج من الكنيسة مفسحين الطريق له، على الباب كانت تريزا تجلس بين أحمد ونائل باكية، فنبهت أنطونيوس لوجودهم، فوقف لطمأنتها على ابنتها قبل أن يكمل طريقه إلى مبنى الضيافة، حيث كان الأساقفة وكبار رجال الأمن قد احتلوا المكان، فوضعناها في غرفة وحدها وجلسنا نبحث عن راهب طبيب، فتذكرت أن أنطونيوس هو صاحب العيادة، وأنه الذي يمكنه مساعدتها.

-٣٧-

كلَّفني أستاذي بنيامين، المتنيِّح في العام التاسع والخمسين بعد الأربعمائة مـن ميلاد السيد المسيح، بأن أكمل من بعده كتابة تاريخ ديرنا وما يجري مـن حوادث جسـام في حاضر أمتنـا القبطية، قائـلاً إنه لـو كان للكتاب والشراح من أمثالنا صلاة خاصـة بهم فإنها تدوينهم للحقيقة كما يرونها، وسوف يأتي زمان على الناس يحتاجون فيه إلى كل كلمة نتركها كي يقفوا علـى ما جرى لأسلافهم، وكيف واجهوا طغـاة الهراطقة، وها أنا بعدما طالعت ما دوَّنـه أستاذي بنيامين في كتابه، وما دونـه أستاذه رفائيل من قبل في كتابـه، أحضر ريشاتي وأحباري وما لدي من ورق البردي كي أكتب معاناة القبط في مواجهة اضطهاد الروم وكنيستهم الملكانية.

توقـف كتاب أستاذي بنيامين عند ما حدث في مجمع خلقدونية، ويبدو أنـه عز عليه أن يكتب عما جرى بعد ذلك، فقد أمر الإمبراطور مارقيان وزوجته الإمبراطورة بوليخاريا بنفي ديسقورس إلى جزيرة غنفرا بآسيا الصغـرى، وأرسل لاون أسقف رومـا إلى أستاذي بنيامين طالبًا منه أن يتولى كرسـي الإسكندرية، موضحًا أنه يعرف مكانته بين أساقفتها، وأنه هو الـذي أعاد الوحدة بـين الإسكندريـة وأنطاكيا، ويحق لـه أن يكون أسقـف الإسكندرية بدلاً من ديسقورس، لكن بنيامـين الذي عانى الكثير مـن تهميش ديسقورس له، رفض أن يتولى كـرازة الإسكندرية في قلب ثورة الأرثوذكس على الخلقدونيين، فأرسل إلى لاون قائلاً "أيرضيك أن يكـون ديسقورس في قائمة الآباء المباركين الذين عانوا من نير الاضطهاد والنفـي مثلـه مثل ديونسيوسـ وبطرسـ وأثناسيوس، ويدخـل بنيامين لكرسـي الإسكندرية مجلـلاً بالعار على عجلة حربية مـن قبل الملك؟ إنني أفضـل أن أمضـي ما بقي مـن حياتي صامتًا بين أهلـي في دير الملاح ولا أكون بطريركًا على عجلة الملك".

كان الرهبـان والأساقفة الذين ذهبوا إلى خلقدونية الثاني غير مصدقين ما يجري، فقد حرم رئيسهم ديسقورس وأدينت تعاليمه، وتم إرساله إلى نهايـة حدود الإمبراطورية الشاسعة الأطـراف ليمضي ما بقي من حياته هناك، كانـت الصدمة كبيرة وهم غير قادرين علـى استيعابها، ولم يكن في مخيلتهـم سوى أن الإمبراطور وزوجته قدما ديسقورس على مذبحهم من أجل إضعاف الإسكندرية، كي لا تفكر في الانفصال عن بيزنطة، ولا تحظى بشرف السبق على عاصمة الإمبراطورية، لأجل هذا نصروا لاون على ديسقورس، وانتفضوا يتهمـون الأساقفة الخلقدونيين بالعار، وبذل دينهـم من أجل تملق الملـك، وسرعان ما تدخل الحرسـ الإمبراطوري ليحـول بينهم، فتشاجروا معه، واتسع الشغب ليملأ المدينة كلها، حتى أن الإمبراطور أمر بإحضار قوات من القسطنطينية لقمع المشاغبين.

عدنا من طرق متفرقة إلى الإسكندرية، فقد تعامل الجند بقسوة مع كل الرهبان والقساوسة والأساقفة الرافضين للمجمع، كانوا يضربون بإفراط وقسـوة، وكأنهـم يبلغوننا أن ما حدث صفحة وطويـت، وعلينا أن ننتقل لغيرهـا، وكان غيرها بالنسبة لهم جاهـزًا، فقد تفاوضوا مع أسقف يدعى بروتيريوسـ، كان مساعدًا لديسقورسـ في أفسس الثاني، ثم انقلب عليه في خلقدونيـة، فرضي أن يأتي إلى كرسي الإسكندرية في حماية عسكرية مـن قبـل الإمبراطور ونائبه، لكـن الشعب لم يرض، وسـاد الشغب في المدينة العريقة، وظل الكل رافضًا أبوة بروتيريوس، متهمينه بالبطريرك الملـكاني، ومتهمين كنيسته وأعوانه بالملكانيين، حتى أنه اضطر في النهاية للهروب من المدينة.

كان علينـا حسبما رأى بنيامين أن نعتـزل الفتنة ونعود بكتبنا وأوراقنا إلى ديـر الملاح، حيث يمكننا أن نغلق على أنفسنا من مطاردة الجنود لكل رافض لقـرارات خلقدونية، فحملنـا ما استطعنا حملـه وعدنا إلى هضبة المـلاح، لكن لامسون لم يعد معنـا، وانضم إلى رهبان من دير الملاح في أبـو كير، كان شنودة قـد تركهم في معية الرهبـان الباخوميين المرابطين هناك، قال لامسون إنه يفضل أن يبقى في المدينة كجزء من الأحداث ولو

مجـرد شاهد عليها، عن أن يكون شارحًا لكتابات آباء في دير على هضبة في جبـال القلزم النائية، تفهمنـا رغبته في الانضمـام للباخوميين، حيث انتشـرت أفكار رفائيل عبر تلامذته الذين كانوا في صحبة شنودة، وحيث يمكنه أن يجد المجد الذي يبحث عنه في ظل سلطة مؤمنة بالطبيعتين، وبكل ما جاء في قرارات خلقدونية الثاني.

لم يمضِ كثير من الوقت حتى تنيح البابا ديسقورس في غنفرا، ورأى الرومان أن الفرصة جاءتهم من السماء كي يثبتوا بروتيريوس التابع لهم، فأعـادوه إلى الإسكندرية في حراسة مشددة من جديد، وظن الإمبراطور مارقيان وأسقف روما لاون أنهما كسرا أنف القبط، لكن ذلك لم يحدث، فقد اتفقت إرادة الجميع على اختيار تيموثاوس القط، وكان تلميذًا ومساعدًا لديسقورس، كي يكون خليفة له، وتكتـم الجميع الأمر وهم يتدفقون إلى الإسكندريـة ليرسموه في كنيسة مريم العـذراء أسقفًا لكنيسة الإسكندرية، وليحتفـل الجميع بأبيهم الروحي على كرسـي أسلافه المباركين من حفظة الإيمان القويم، فاستشـاط الرومان غضبًا، مؤكدين أن بروتيريوس هو أسقـف الإسكندرية المعترف به، ونزل الجنود متوقعـين أن بإمكانهم أن يقمعوا الشعب، ويجلسوا بروتيريوس على كرسي ديسقورس بالقوة.

اشتعلت الشـوارع بالغضب، ونزل الرهبان من الأديرة ليدافعوا عن تيموثاوس القط، وكثر الكـر والفر، ولم يستطع الجنـد ضبط الأمور، وأصيـب منهم الكثير، فاضطروا أن يتركوا موقعهم متخاذلين عن حماية بروتيريوس، هذا الذي وجد فيما بعد قتيلاً في أحد الشوارع الجانبية.

لم يصـدق لاون أن بروتيريوس قد قُتـل، وأن الإسكندرية أصبحت في يـد تيموثاوس القـط، ومن ثـم راح يصرخ بـأن القط هـو من أمر بقتلـه، وأخذ يصفه في عظاتـه بالبربري الطاغية قاتـل والديه، وأرسل للإمبراطور الجديد، وكان يدعـى لاوون، مطالبًا بالتدخل لإنقاذ كنيسة الإسكندريـة مـن العبوديـة المزرية، وموحـدًا كل الكنائـس التي وافقت على قرارات خلقدونية في مواجهة مـن رفضوها، ناعتًا الرافضين بأنهم أصحـاب الطبيعة الواحدة. ظـل يردد نداءاتـه للإمبراطور حتى رضخ

الأخـير لصياحه وبكائه، وأمر بتعيين أسقف جديـد للإسكندرية من أبناء ديـر أبو كير، هذا الدير الذي برز نجمه كديـر خلقدوني، وكان الأسقف يحمل اسم تيموثاوس أيضًا، فلقبه الناس بذي القلنسـوة البيضاء، تفريقًا بينه وبين تيموثاوس القط.

في هـذا العام تنيح أستاذنا بنيامين، فأقام لـه الأب شنودة رئيس الدير قداسًا جنائزيًّا كبيرًا، حضـره أساقفة مـن الشمال والجنـوب والشرق والغرب، ولقبـوه بالعلامة الكبير، رئيس مدرسـة اللاهوت، وصديق البابـا ديسقورس وثاؤفيلوس ورفيق درب البابا تيموثاوس القط، وحين انتهـت مراسم العزاء أجلسنـي شنودة في مكانه أسفل شجـرة السدر التي غرسهـا أبانوب لصديقـه ديمتريوس، فجلست لا أعرف مـا الذي ينبغي علـيَّ فعلـه، لكنني وجدت شنودة يأتينـي بكتاب باللاتينية قائـلاً انقله إلى الديموطيقيـة كي نرسل به إلى الدير الغربـي، فثمة نساخ يحتاجون إليه، كان الكتاب ملفوفًا في قطعة مـن الحرير، وموضوعًا في صندوق خشبي مناسـب لحجمـه، فتحت الصنـدوق وأزحت الحرير فوجـدت غلافًا من جلد الماعز نقش عليه عنـوان "الرسائل"، وأسفلها اسـم "أوريجانوس"، فشعـرت أن شيئًا ما مسني، حتى أنني ارتجفـت، وشهقت حابسًا روحي عن مفارقـة جسدي، حين سألني شنودة عمـا أصابني، رفعت عيني إلى وجهه قائلاً:

– ألستَ مجسدًا؟

فابتسم، وهز راسه قائلاً:

– يا أنطونيوس.. هذا الدير له تقاليد تسلمناها عن آبائنا المباركين، ولا يمكننا أن نخونهم.

-٣٨-

ابتسمت دميانة حين سمعتني أقول لأنطونيوس إنه صاحب العيادة، ولمحت ابتسامتها الواهنة، لكنها كانت إشارة على انتباهها لما نقول، فأخذت أصيح كالأطفال وأنا أشير لأنطونيوس نحو ابتسامتها، قائلاً إن عليه معالجتها الآن، حينها علا وجهيهما نوع من الخجل والارتباك، لكنه نظر لها قائلاً:

- حمد الله على السلامة.

قالت له:

- أتعبتك.

وبدأ الحديث يسري بينهما، ربما كانت العيون تقول أكثر مما تقوله الكلمات، لذا انسحبت إلى نهاية الغرفة، تاركًا لهما الفرصة ليقولا ما لم يقولاه في لقائهما الأول. جلست صامتًا حتى سمعت صوت هرولة وخطوات في الطريق نحو الغرفة، خرجت أنظر ما يحدث فإذا بي أجد الأسقف الكبير أمامي، انحنيت على صليبه فقبّلته، وكان صليبًا كبيرًا مزخرفًا بالصدف على جانبيه، وللحظة تخيلته صليب أنطونيوس الذي ورثه عن باخوميوس الحبَّاك، لكنني تذكرت أننا تركنا صليب أنطونيوس في بيت تريزا معلقًا على صورة صلاح متري.

أفسحت الطريق للأسقف الذي دخل برفقة راهب عجوز، سلم عليه أنطونيوس وناداه بالأب دانيال، بينما اتجه الأسقف نحو دميانة التي حاولت النهوض من سريرها، فمنعها وانحنى مقبلاً رأسها، سائلاً عن السيدة تريزا، حينها انتبهنا أننا تركناها على باب كنيسة الملاح برفقة

أحمـد ونائل، فهـرول رهبان وشمامسة لا أعرفهـم لإحضارها، وغمز دانيال العجوز لأنطونيوس قائلاً:

– هل هذه دميانة؟

فهـز الأخير رأسه، وبدا عليه الخجل، بينما اتجه دانيال هامسًا في أذن الأسقف الكبير، فعاد الأخير بوجهه نحو أنطونيوس مبتسمًا:

– هل كنت قاطع طريق حقًّا؟

لم يعرف بما يرد، أنا نفسي أسقط في يدي، لكن الأسقف أضاف:

– إيمانويل حكى لي عنك.

اطمـأن قلب أنطونيوس إلى أنه ليس متهمًا، وارتسمت ابتسامة خجلة علـى وجهه، بعدها انسحـب الأسقف ودانيال قائلـين إن لديهما ما ينبغي إنجازه.

علمنا فيما بعد أن الأسقف الكبير عقد مجمعًا مقدسًا من الأساقفة والرؤساء للتحقيق في نشر رسائل أوريجانوس ومقتل باخوميوس وخطف دميانة. وكان علينـا أن ننتظـر إعلان المجمع قراراته كي يقـام القداس الجنائزي لباخوميوس بحضـور الجميع، لكن النقاشات طالـت واحتدمت وامتدت إلى مئـات السنـين إلى الـوراء، وكان أوريجانوس محـور الجدل الذي لم ينتـه، وكان من الصعوبـة أن يأخذ التيار المؤيد له قـرارًا بإعادته إلى الكنيسة، أو حتى السمـاح بنشر أعماله في مطابعها، ونظرًا لما فعلته قديمًا قـرارات الإدانة والحرمان من آلام ما زال جسد الكنيسة يعاني منها، فقد رأى الآبـاء المجتمعون في دير الملاح أن يتقدم جـورج المنحني ويوساب وأنطونيوس باستقالة من مناصبهم والخروج من حياة الرهبنة.

كانت هذه القرارات بمثابة صيغة تحافظ على وحدة الكنيسة وأطرافها، لكـن ذلك لم ينـفِ حق المجتمع، فقـد ألقت الشرطة القبض على يوساب والمنحنـي وعدد من طوال القامـة بتمهمة قتـل باخوميوس، ونشطت في

البحث عن يؤانس الذي اختفى من جديد في دروب الصحارى والجبال، ووقـف الأسقف الكبير مشرفًا على القداس الجنائزي الذي حضره أساقفة ورهبان ضاقت بهم هضبة الملاح، فنزلوا إلى الصحراء الفسيحة يترنمون بالمزامير ونشيد الأنشاد.

جلسـت أصور الكتـب التي أريدها من المكتبة، تلـك التي كانت مخزنًا هائـلاً للكتب، لكـن الأب إيمانويل استجاب لطلبـي فصنعنا لها الأرفف، وأعـدت تصنيف الأعمال ووضعها عليهـا، جلست إلى المكتب الذي أعده لي خفيـة المعلـم نقولا النجـار، متأسيًا علـى خبيئة الكتب التـي صادرتها الكنيسة، ورحت أكمل صلاتي الخاصة، فقد آمنت بما قاله بنيامين لتلميذه أنطونيوس أن كل كتابة هـي صلاة خاصة لكاتبهـا. وفي النهاية أرسلت نسخـة من عملي الذي انتهيت منه مؤخرًا إلى أنطونيوس ودميانة في بيت تريزا وصلاح متري.

الكاتب في سطور

صبحي موسى

– شاعر وروائي مصري من جيل التسعينات، ولد عام ١٩٧٢.

– حصل على ليسانس الآداب، قسم الاجتماع عام ١٩٩٤.

– عمل في الصحافة الأدبية منذ عام ١٩٩٢ حتى الآن.

– عمل مديرًا عامًّا للنشر بالهيئة العامة لقصور الثقافة.

– عمل رئيسًا لمجلس تحرير مجلة الثقافة الجديدة.

– يعمل مديرًا للمكتب الفني بالمجلس الأعلى للثقافة.

المنح والجوائز:

- منحة التفرغ من وزارة الثقافة المصرية لمدة ثلاثة أعوام لكتابة رواية "أساطير رجل الثلاثاء".

- منحة من الصندوق العربي للثقافة والفنون "آفاق" لكتابة رواية "الموريسكي الآخير".

- الجائزة المركزية لقصور الثقافة عن روايته "صمت الكهنة".

- جائزة أفضل عمل روائي في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ٢٠١٤ عن رواية "أساطير رجل الثلاثاء".

- جائزة "نجيب محفوظ" من المجلس الأعلى للثقافة عن رواية "نقطة نظام".

- وصلت روايته "الموريسكي الأخير" إلى القائمة الطويلة لجائزة الشيخ زايد عام ٢٠١٦.

صدر له:

- يرفرف بجانبها وحده شعر على نفقة الكاتب، ١٩٩٨.
- قصائد الغرفة المغلقة شعر سلسلة "إبداعات" الهيئة العامةلقصور الثقافة ٢٠٠٠.
- هانيبال شعر سلسلة "كتابات جديدة" الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١.
- لهذا أرحل، شعر، دار الحضارة ٢٠٠٦.
- في وداع المحبة، شعر ، دا الحضارة٢٠١٠.
- صمت الكهنة، سلسلة "أصوات" الهيئة العامة لقصور الثقافة رواية ٢٠٠٢.
- حمامة بيضاء، دار ميريت للنشر والتوزيع رواية ٢٠٠٥.
- المؤلف، رواية، الدار للنشر والتوزيع ٢٠٠٨.
- أساطير رجل الثلاثاء، رواية، سلسلة "كتابات جديدة" الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٣.
- الموريسكي الأخير، رواية، الدار المصرية اللبنانية للنشر والتوزيع ٢٠١٥.

يحيا المرؤ بأصدقائه

خالص الشكر والتقدير لكل الأصدقاء الذين دعمونى خلال كتابتى هذا العمل، سواء بمراجعتهم أو آرائهم أو نصحهم، وأخصُّ بالذكر:

د. جابر عصفور
د. رشا صالح
د. حسن هند
أ. زينب عفيفى
د. عفاف عبد المعطى

